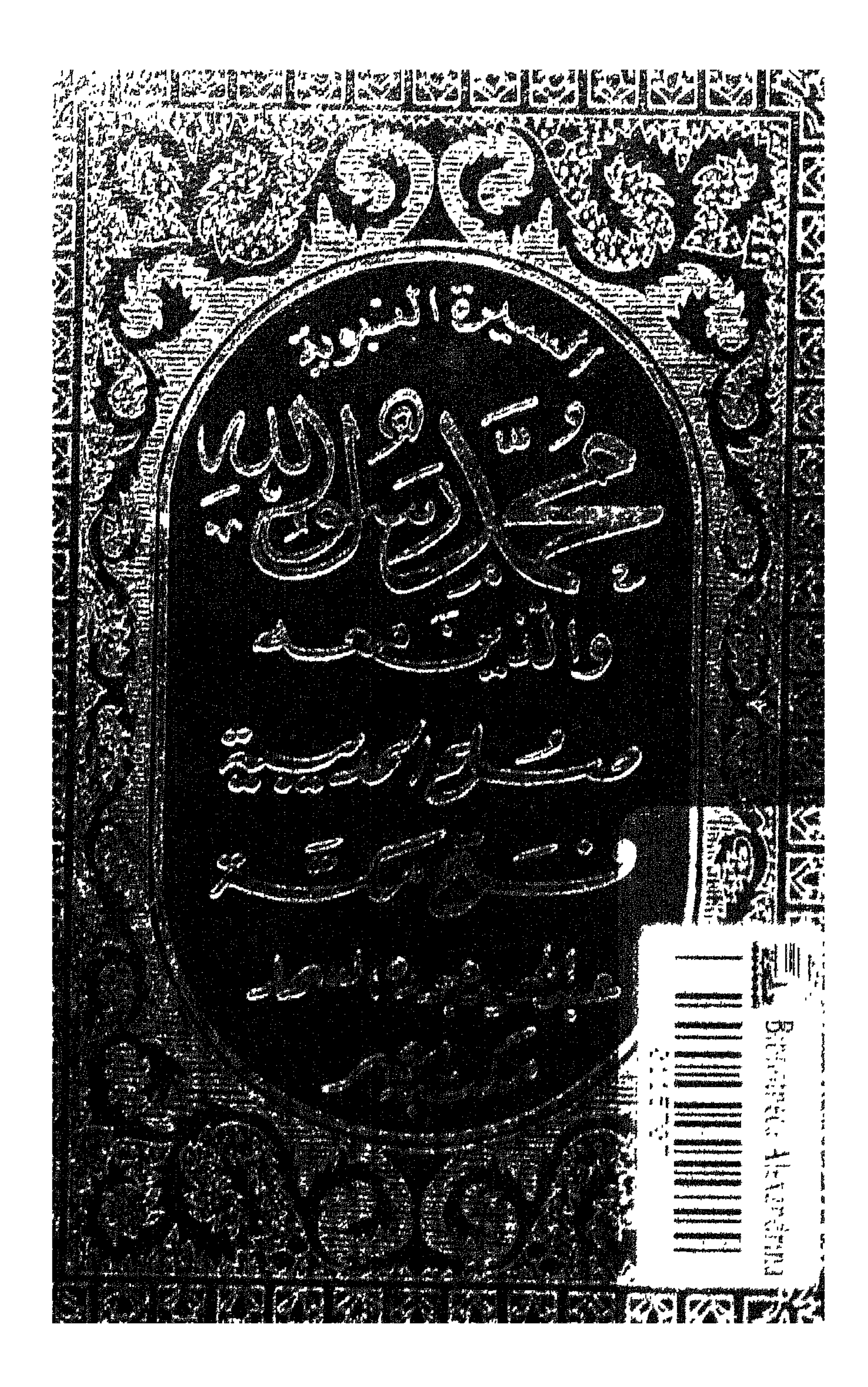

السيرة النبوية
محمد رسول الله
والذين معه
صلح الحديبية
وفتح مكة
عبد الحميد جودة السحار







السيرة النبوية





عبد الحميد جودة السحار



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾ .

(قرآن كريم)

(١)

أنفاس المدينة تسبيح ، شهيقها وحى السماء وزفيرها شكر وحمد لله رب العالمين ، وسمعها قرآن مجيد ، وبصرها ابتهال لبديع السماوات والأرض العزيز الحكيم ، وفؤادها أنوار قدسية أضاءها نور النور ، وروحها طاهرة قد تحررت من دنس الأرض فصارت مجنحة قادرة على أن تسمو لتتصل بروح الروح ، وعزيمتها ماضية زادها مضاء أنها توكلت على الحى الذى لا يموت .

وكان ثوب الليل حالك السواد ، قد هجع الوجود إلا أعين المؤمنين كانت شاخصة إلى السماء قد تحركت ألسنتهم بالدعاء واطمأنت قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب . وكان رسول الله فى داره قانتا آناء الليل ساجدا وقائما يناجى ربه حاضر القلب دامع العين ، حتى إذا ما انتهى من المناجاة ذهب إلى فراشه ، وكانت عباءته قد ثنيت ثنيتين ، فنامت عيناه ولم يعرف قلبه النوم فقد كان متصلا بالملأ الأعلى على الدوام .

ورأى عليه السلام فى النوم أنه دخل مكة هو وأصحابه آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين ، وأنه دخل البيت وأخذ مفتاحه وطاف هو وأصحابه مع الطائفين . وفى السحر قبل أن يؤذن بلال بالفجر خرج إلى المسجد متطلق الوجه تغمره سعادة عارمة ، فدخول مكة والطواف بالبيت العتيق وزيارة مراتع الصبا والشباب كانت أمنية من أعز أمانيه

وأماني المهاجرين من أصحابه .

كانت قلوبهم تهوى إلى الحرم وإلى الصفا وإلى الحجون وإلى زيارة قبور الأحبة من المسلمين الذين ماتوا فى مكة قبل الهجرة ، فيا طالما استرجعت خيالاتهم ذكريات مجنة وذى المجاز وعكاظ وزمزم وأبى قبيس ودار الندوة وحجر إسماعيل ، ويا طالما رأوا أنفسهم بأعين الأمانى يحطمون الأصنام التى دنست أول بيت وضع للناس ليكون منارة التوحيد .

وارتقى بلال حجرة حفصة وراح يرعى السماء حتى إذا ما حان الفجر تجاوب الأذان فى جنبات المدينة فخرج الناس من الدور من العالية ومن السافلة ليصلوا خلف الرسول . وجاء أبو بكر وعمر وعثمان وكبار المهاجرين إلى المسجد فلما قضيت الصلاة اجتمعوا عند أسطوانة المهاجرين ، فأقبل عليهم رسول الله — ﷺ — بادى البشر ثم أخذ مكانه بينهم وجعل يقص عليهم رؤياه وقد ألقوا إليه سمعهم مستبشرين فرحين بما أتاهم الله ، فقد صاروا جميعا موقنين أن الفتح قريب ، وأن مكة ستفتح لهم أبوابها إن طوعا أو كرها ، فرؤيا الأنبياء حق وما رأى نبى الإسلام عليه السلام رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

وأخبر عليه السلام أصحابه أنه يريد الخروج للعمرة فخفقت القلوب بالسرور وتهللت الوجوه بالفرح وقاموا ليتجهزوا للسفر ، وبعث عليه السلام يستنفر العرب ومن حوله من أهل البوادى من الأعراب ممن أسلم ، غفار ومزينة وجهينة وأسلم ، خشية من قريش أن يحاربوه وأن يصدوه عن البيت فتثاقل كثير منهم وقالوا :

— أنذهب إلى قوم قد غزوه فى عقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه

فنقاتلهم !

واعتلُّوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس لهم من يقوم بذلك ، فأنزل الله تكذيبهم فى اعتذارهم بقوله : ﴿ يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم ﴾(١) .

وخرج — ﷺ — بعد أن اغتسل ببيته ولبس ثوبين وركب راحلته القصواء من عند بابه ، وخرج معه أم سلمة وأم عمارة وأم منيع وأم عامر الأشهلية ، وخرج معه المهاجرون والأنصار ومن لحق بهم من العرب ، وقد استعمل على المدينة نميلة بن عبد الله الليثى وساق معه الهدى سبعين بدنة فيها جمل أبى جهل الذى غنمه رسول الله — ﷺ — يوم بدر .

وصلى عليه السلام الظهر بأصحابه بذى الحليفة ، ثم أحرم بالعمرة وأحرم معه أغلب أصحابه وأشعر من الهدى عدة وهى موجهات للقبلة فى الشق الأيمن من سنامها ، ثم أمر — ﷺ — ناجية بن جندب ، وكان اسمه ذكوان فغير عليه السلام اسمه وسماه ناجية لما نجا من قريش ، فأشعر ما بقى وقلدهن نعلا نعلا ، وأشعر المسلمون بدنهم بجرح صفحة سنامها وقلدوها بأن وضعوا فى أعناقها قطعة جلد أو نعل بالية ليعلم أنه هدى فيكف الناس عنه .

كان الناس سبعمائة فكانت كل بدنة عن عشرة ، وليس معهم سلاح إلا السيوف فى القرب . وقال له عمر بن الخطاب :

— أتخشى يا رسول الله من أبى سفيان وأصحابه ولم تأخذ للحرب

---

(١) الفتح ١١ .

عدتها ؟

ــ لست أحب أن أحمل السلاح معتمرا .

وخرج عليه السلام معتمرا فى ذى القعدة ليأمن أهل مكة ومن حولهم من حربه ويعلموا أنه ــ ﷺ ــ إنما خرج زائرا للبيت ومعظما له . وكان مع المسلمين مائتا فرس هى مدخراتهم التى كونوها ليرهبوا بها عدو الله وعدوهم . كانوا يملكون يوم بدر فرسا واحدة فلما أمرهم الله أن يعدوا ما استطاعوا من رباط الخيل راح ــ ﷺ ــ يعنى بتربية الخيول ، وتكوين فرق فرسان المسلمين الخفيفة حتى استطاع أن يخرج إلى مكة معتمرا فى مائتى فارس من خيل المسلمين .

وقدّم عليه السلام عباد بن بشر أمامه طليعة فى عشرين فارسا ؛ وبعث بشر بن سفيان الكعبى إلى مكة عينا له ليتحسس أخبار قريش ليكون على بينة من أمر أعدائه ، وإنساب المسلمون فى الصحراء وقد ارتفعت التلبية من أعماق القلوب :

ــ لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك .

وانشرحت الصدور وانهمرت من الأعين الدموع فهم فى الطريق إلى بيت الله الحرام ، وقد طهر الله قلوبهم من الشرك والضلال تداعبهم أمال الطواف بالبيت العتيق والسعى بين الصفا والمروة وإطفاء الظمأ من ماء زمزم ميراث أبيهم إسماعيل ، وما خطر لهم على قلب أن تصدهم قريش عن البيت فالكعبة بيت الله لا يصد عنها أحد من عباد الله ، فإليها يحج العرب من موحدين ونصارى ومشركين .

وبلغ رسول الله ــ ﷺ ــ والذين معه عسفان فجاء إليه بشر بن

سفيان فقال :

ـــ يا رسول الله هذه قريش قد سمعت بخروجك واستنفروا من أطاعهم من الأحابيش وأجلبت ثقيف معهم ومعهم النساء والصبيان وقد لبسوا جلود النمر ، وقد نزلوا بذى طوى يعاهدون الله ألا تدخلها عليهم أبدا . وهذا خالد بن الوليد فى خيلهم قد قدموها إلى كراع الغميم .

كانت خيل خالد مائتى فرس وقد صفت إلى جهة القبلة ، فأمر ـــ ﷺ ـــ عباد بن بشر فتقدم فى خيله فقام بازاء خالد وصف أصحابه ، وحانت صلاة الظهر فأذن بلال وأقام فاستقبل رسول الله ـــ ﷺ ـــ القبلة وصف الناس خلفه فركع بهم وسجد ثم سلم فقال خالد بن الوليد :

ـــ قد كانوا على غرة لو حملنا عليهم أصبنا منهم ، ولكن تأتى الساعة صلاة أخرى هى أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم .

فنزل جبريل بين الظهر والعصر بقول الله تعالى : ﴿ وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا * وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم إن الله أعد للكافرين عذابا مهينا ﴾[١]

---

(١) النساء ١٠٢

وحانت صلاة العصر فصلى رسول الله — ﷺ — بأصحابه صلاة الخوف ، فلما جعل المسلمون يسجد بعضهم وبعضهم قائم ينظر إليهم قال المشركون :

— لقد أخبروا بما أردنا بهم .

كانت حركات قريش تدل على أنها تريد منعه ومن معه عن البيت ، فالتفت عليه السلام إلى أصحابه وقال :

— أشيروا على أيها الناس . أتريدون أن نؤم البيت فمن صدنا عنه قاتلناه ؟

فقال أبو بكر :

— يا رسول الله خرجت عامدا لهذا البيت لا تريد قتل أحد ولا حربا فتوجه له ، فمن صدنا عنه قاتلناه .

— يا ويح قريش لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بيني وبين سائر العرب فإن هم أصابوني كان ذلك الذى أرادوا . وإن أظهرني الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ؟ فما تظن قريش ؟ والله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة .

ثم قال عليه السلام :

— هل من رجل يخرج بنا عن طريق غير طريقهم التى هم بها ؟

فقال ناجية بن جندب :

— أنا يا رسول الله .

فسلك بهم طريقا وعرا فانطلقوا يضربون فيه حتى نال منهم الجهد ، فلما خرجوا منه وقد شق عليهم ذلك وأفضوا إلى أرض سهلة

قال — ﷺ — :

— قولوا نستغفر الله ونتوب إليه .

فارتفعت أصوات المسلمين بالاستغفار والتوبة ، فقال عليه السلام :

— والله إنها للحطة التى عرضت على بنى إسرائيل فلم يقولوها .

قيل لبنى إسرائيل : ﴿ ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم ﴾[١] ، فبدلوا وقالوا : حنطة استهزاء وجراءة على الله .

ولم يشعر بهم خالد بن الوليد إلا وقد نزلوا بذلك المحل فانطلق نذيرا لقريش ، ثم أمر — ﷺ — الناس أن يسلكوا طريقا تخرجهم على مهبط الحديبية من أسفل مكة فسلكوا ذلك الطريق ، وأصبح المسلمون على حدود الحرم وإن هى إلا خطوات حتى يصبحوا فى الأرض الحرام التى يأمن فيها الطير ، فثارت الدماء فى العروق وارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير وخفقت الأفئدة وجدا ، وكان المهاجرون يتلفتون فى تأثر وقد غمرتهم إحساسات الشوق بعد أن شموا عبير الأرض التى تفتحت عليها أعينهم أول ما تفتحت والتى التصقوا بها التصاق الأبناء بالأم الرءوم حتى أخرجهم منها الظالمون بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . ﴿ ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ﴾[٢] .

---

(١) البقرة ٥٨ .

(٢) الحج ٤٠ .

وانطلق الرسول عليه السلام على ناقته القصواء والمسلمون من حوله على خيلهم وإبلهم حتى إذا سلك ثنية المرار ولاح له سهل الحديبية ولم يبق إلا أن يتقدم بضعة أميال ليطوف بالبيت ويتحقق كل ما رآه فى رؤياه ، إذا بالقصواء قد بركت فانجفل الناس إليها وقالوا :

ـــ حل حل .

فألحت وتمادت على عدم القيام وظن الناس أنها قد حرنت فقالوا :

ـــ خلأت القصواء .

وعادوا يقولون لها :

ـــ حل حل .

فقال ـــ ﷺ :

ـــ ما حل ؟

ـــ خلأت القصواء .

ـــ ما خلأت« حرنت » وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة .

علم رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن ذلك صدّ له من الله عن مكة أن يدخلها قهرا ، فقال عليه السلام :

ـــ والذى نفس محمد بيده لا تدعونى قريش إلى خطة يعظمون بها حرمات الله وفيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها .

(٢)

كان خالد بن الوليد قد صف فرسانه عند كراع الغميم وهو يحسب أن المسلمين لن يستطيعوا أن يصلوا إلى مكة إلا إذا شقوا طريقهم فى فرسانه الذين كانوا فى عدة القتال وكان واثقا أن ذلك لن يكون ، فالمسلمون قد جاءوا محرمين ليس معهم إلا السيوف فى القرب ولن تغنى سيوفهم شيئا إذا ما عمدوا إلى العنف ، ولكن لما سلك المسلمون ذات اليمين فى طريق يخرجهم إلى ثنية المرار فى غفلة منه وأصبحوا على بعد تسعة أميال من مكة ولم ير إلا غبار الجيش ، تيقن أنه قد خدع وأصبح بقاؤه فى موضعه بلا معنى ، فركض راجعا إلى قريش ينذرهم أن محمد بن عبد الله والذين معه قد بلغوا الحديبية وأنهم فى طريقهم إلى الحرم .

كان أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وكثير من سادات قريش فى سوق بصرى فى تجارة قريش ، وكان أمر مكة لسهيل بن عمرو . فراح خالد يقص على سهيل وحويطب بن عبد العزى وبديل بن ورقاء سيد بنى خزاعة ومكرز بن حرب أخى بنى عامر والحليس بن علقمة سيد الأحابيش وعروة بن مسعود الثقفى ما كان من المسلمين ، فرأى بنو كعب وبنو عامر أن يناجزوا محمدا عليه السلام والذين معه ، ورأى بديل بن ورقاء سيد بنى خزاعة أن يمشى إلى محمد ـــ ﷺ ، وأن يسأله عما أقدمه إلى مكة فى أصحابه ، فنظر إليه سادات قريش فى ريبة

فخزاعة مسلمها ومشركها لا يخفون عليه — ﷺ — شيئا كان بمكة بل يخبرونه به وهو بالمدينة ، وكانت قريش ربما تفطن ذلك .

وسار بديل بن ورقاء فى رجال من خزاعة حتى أتوا رسول الله عليه السلام وهو بالحديبية فقال :

— إنى تركت كعب بن لؤى وعامر بن لؤى قد نزلا أعداد مياه الحديبية معهم العوذ المطافيل ، وهم مقاتلوك وصادوك عن البيت .

فقال النبى — ﷺ — :

— إنا لم نأت لقتال أحد ولكن جئنا معتمرين ، وإن قريشا قد نهكتهم الحرب وأضرت بهم فإن شاءوا ماددناهم[١] مدة ويخلوا بينى وبين الناس ، فإن أظهر فإن شاءوا أن يدخلوا فيما دخل فيه الناس فعلوا وإلا فقد جمُّوا[٢] ، فوالله لأقاتلنهم على أمرى هذا حتى تنفرد سالفتى أو لينفذن الله أمره .

قال بديل :

— سنبلغهم ما تقول .

فانطلق حتى أتى قريشا فقال :

— إنا قد جئناكم من عند هذا الرجل وسمعناه يقول قولا فإن شئتم أن نعرض عليكم فعلنا .

فقال سفهاؤهم :

— لا حاجة لنا فى أن تحدثنا عنه بشىء .

---

(١) ماددناهم مدة : جعلنا بيننا وبينهم مدة نترك الحرب فيها .

(٢) جموا : استراحوا .

وقال ذوو الرأى منهم :

ــ هات كما سمعته يقول .

فحدثهم بما قال رسول الله ــ ﷺ ، وقال لهم :

ــ إنه لم يأت لقتال إنما جاء زائرا لهذا البيت .

فاتهموه ولقوه بما يكره وقالوا :

ــ إن كان قد جاء ولا يريد قتالا فوالله لا يدخلها علينا عنوة أبدا ولا تتحدث بذلك عنا العرب ، أيريد محمد أن يدخلها علينا فى جنوده معتمرا تسمع العرب أنه قد دخل علينا عنوة وبيننا وبينه من الحرب ما بيننا ؟ ! والله لا كان هذا أبدا وبنا عين تطرف .

ثم بعثوا إليه ــ ﷺ ــ مكرز بن حفص أخا بنى عامر ، فلما رآه رسول الله عليه السلام مقبلا قال :

ــ هذا الرجل غادر.

فلما انتهى إلى رسول الله ــ ﷺ ــ وكلمه قال له رسول الله ــ عليه صلوات الله وسلامه ، نحوا مما قال لبديل ، فرجع إلى قريش وأخبرهم بما قال له رسول الله عليه السلام ، ثم بعثوا إليه ــ ﷺ ــ الحليس بن علقمة وكان سيد الأحابيش فلما رآه رسول الله عليه السلام قال :

ــ إن هذا من قوم يتألهون (أى يتعبدون) ويعظمون أمر الإله . ابعثوا الهدى فى وجهه حتى يراه .

فلما رأى الهدى يسيل عليه بقلائد من عرض الوادى قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله الذى ينحر فيه من الحرم ، واستقبله الناس يلبون قد شعثوا صاح وقال :

ــ سبحان الله ! ما ينبغى لهؤلاء أن يصدوا عن البيت ، أبى الله أن يحج لخم وجذام ونهد وحمير ويمنع ابن عبد المطلب . هلكت قريش ورب الكعبة ، إنما القوم أتوا عمّارا .

فقال رسول الله ــ ﷺ :

ــ أجل يا أخا بنى كنانة .

ورجع إلى قريش فقال لهم :

ــ إنى رأيت ما لا يحل منعه ، رأيت الهدى[1] فى قلائده قد أكل أوباره والرجال قد شعثوا .

فقالوا له :

ــ اجلس فإنما أنت أعرابى ولا علم لك .

فعند ذلك غضب الحليس وقال :

ــ يا معشر قريش والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم بصد عن بيت الله من جاء معظما . والذى نفس الحليس بيده لتخلن بين محمد وما جاء له أو لأنفرن بالأحابيش نفرة رجل واحد .

كان الأحابيش بنى الهون بن خزيمة وبنى الحارث بن عبد مناف بن كنانة وبنى المصطلق بن خزيمة تحالفوا تحت جبل بأسفل مكة يقال له حُبش هم وقريش على أنهم يد واحدة على من عاداهم ما سجا ليل ووضح نهار وما رسا حبش ، فسموا أحابيش قريش . فلما رأى سادات قريش غضب سيد الأحابيش قالوا له :

---

(١) الهدى : ما أهدى إلى مكة من الإبل ، والقلائد : ما يعلق فى أعناقها للدلالة على أنها هدى .

— مه يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

ثم بعثوا إلى رسول الله — ﷺ — عروة بن مسعود الثقفى ، إنه سمع قريشا توبخ بديلا ومن معه من خزاعة فقال :

— يا معشر قريش إنى رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد — وكان عروة لسبيعة بنت عبد شمس — وقد سمعت بالذى نابكم فجمعت من أطاعنى من قومى ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى .

— صدقت ما أنت عندنا بمتهم .

فخرج حتى أتى رسول الله — ﷺ — فجلس بين يديه ثم قال :

— يا محمد أجمعت أوشاب الناس ثم جئت بهم إلى بيضتك لتفضها بهم ؟ يا محمد أرأيت إن استأصلت قومك فهل سمعت بأحد من العرب اجتاح أصله قبلك ؟ وإنها قريش قد خرجت معها العوذ المطافيل[١] قد لبسوا جلود النمور يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عنوة أبدا . وإنى لأرى وجوها وأوشابا[٢] من الناس خليقا أن يفروا ويدعوك ، وايم الله لكأنى بهؤلاء قد انكشفوا غدا عنك .

وأبو بكر جالس خلف رسول الله — ﷺ — فقال له :

— اعضض بظر اللات ، أنحن ننكشف عنه ؟

وغضب عروة فاللات إلهة الطائف وهو سيد بنى ثقيف ، وإنها لكلمة تحط من شأنه وشأن معبوده فقال فى حنق :

---

(١) المطافيل جمع مطفل وهى ذات الطفل .

(٢) أوشاب : الأوباش والأخلاط .

ـــ من هذا يا محمد ؟

ـــ هذا ابن أبى قحافة .

فقال عروة لأبى بكر :

ـــ لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها .

هم عروة بأن يقول لأبى بكر كلمة غليظة يجيبه بها عن كلمته التى قذفها فى وجهه . ولكنه لما علم أن القائل أبو بكر الصديق أمسك فقد كانت لأبى بكر يد عنده لم يجزه بها ، فقد استعان عروة فى حمل دية فأعانه الرجل بالواحد من الإبل والرجل بالاثنين وأعانه أبو بكر بعشرة إبل شواب[1] ثم جعل عروة يتناول لحية رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو يكلمه وهذه عادة العرب أن الرجل يتناول لحية من يكلمه عند الملاطفة .

وكان المغيرة بن شعبة واقفا على رأس رسول الله ـــ ﷺ ، وقد لبس درعه وغطت خوذته وجهه ولم يكن يبدو منه إلا عيناه ـــ إنه يرى عروة وهو يتناول لحية رسول الله ـــ صلوات الله عليه وسلامه ـــ ولا يرى عليه السلام يصنع النظير بالنظير ، فجعل يقرع يد عروة إذا تناول لحية رسول الله ـــ ﷺ ـــ بنعل سيفه ويقول :

ـــ اكفف يدك عن مس لحية رسول الله ـــ ﷺ ـــ فإنه لا ينبغى لمشرك ذلك .

فالتفت إليه عروة وقال :

ـــ ويحك ما أفظك وما أغلظك ، ليت شعرى من هذا الذى آذانى

(١) شواب : جمع مفرده شابة .

من بين أصحابك ؟ والله إني لا أحسب فيكم ألأم منه ولا شر منزلة .

فتبسم — ﷺ — وقال :

— هذا ابن أخيك المغيرة بن شعبة .

— يا غدر والله ما غسلت عنك غدرتك بعكاظ إلا بالأمس ، وقد أورثتنا العداوة من ثقيف إلى آخر الدهر .

كان المغيرة قبل إسلامه قتل ثلاثة عشر رجلا من بني مالك من ثقيف صحبهم إلى مصر فقتلهم وأخذ أموالهم ثم جاء إلى المدينة فأسلم ، ولما قتلهم المغيرة تهايج الحيان من ثقيف رهط القتلى ورهط المغيرة ، فودى عروة المقتولين ثلاث عشرة دية وأصلح ذلك الأمر .

وراح رسول الله — ﷺ — يخبر عروة بن مسعود أنه لم يأت لحرب . ورأى عروة ما يصنع به أصحابه إذا تكلم خفضوا أصواتهم وإذا سقطت منه شعرة أسرعوا وأخذوها ولا يحدون إليه النظر تعظيما له ، فلما عاد عروة إلى قريش قال لهم :

— يا معشر قريش إني جئت كسرى في ملكه وقيصر في ملكه والنجاشي في ملكه ، والله ما رأيت ملكا في قومه قط مثل محمد في أصحابه . ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشيء أبدا فروا رأيكم فإنه عرض عليكم رشدا ، فاقبلوا ما عرض عليكم فإني لكم ناصح مع أني أخاف أن لا تنصروا عليه .

— لا تتكلم بهذا يا أبا يعفور ولكن نرده عامنا هذا ويرجع إلى قابل .

— ما أراكم إلا ستصيبكم قارعة[١] .

---

(١) القارعة : الداهية المفاجئة .

ثم انصرف عظيم القريتين الذى عنته قريش بقولها ، ﴿ لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ﴾(١) ، ومن معه إلى الطائف . ودعا رسول الله — ﷺ — خراش بن أمية الخزاعى فبعثه إلى قريش ، وحمله — ﷺ — على بعير له يقال له الثعلب ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، فعقر عكرمة بن أبى جهل جمل رسول الله عليه السلام ، وأراد القوم قتل خراش فمنعه الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله — ﷺ — وأخبره بما لقى .

وبعثت قريش أربعين رجلا منهم وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله — ﷺ — ليصيبوا لهم من أصحابه أحدا ، فأخذوا وأتى بهم رسول الله — ﷺ — فعفا عنهم وخلى سبيلهم وكانوا رموا فى العسكر بالحجارة والنبل .

لم يقدم المسلمون لحرب بل جاءوا لزيارة أول بيت وضع للناس ، فلم يحملوا معهم عتاد الحرب اللهم إلا السيوف فى القرب ، وقد قال عليه السلام لكل من جاءه من قبل قريش أنه لم يأت لقتال وإنما جاء زائرا للبيت . وقد بعث إليهم خراش بن أمية الخزاعى على جمل له ليقول لقريش إنه عليه السلام لم يأت لقتال فعقروا الجمل وأرادوا قتل خراش لولا أنْ منعته الأحابيش ، فلو أنه جاء يبغى الهجوم على مكة لوجد سببا للحرب فى عقر جمل رسوله ولكنه كان صادقا فى التماس السلام ، فرأى أن يبعث إلى سادات قريش عمر بن الخطاب سفيرهم فى الجاهلية فدعاه ليبلغ عنه أشراف قريش ما جاء له ، فقال عمر :

---

(١) الزخرف ٣١ .

ــ يا رسول الله إني أخاف قريشا على نفسي وما بمكة من بني عدى بن كعب أحد يمنعني وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ، ولكن أدلك على رجل أعز بها مني : عثمان بن عفان .

كان بنو أمية بني عم عثمان وكانت لهم الكلمة العليا في مكة ، فإن كان عثمان قد أسلم وأصبح ذا النورين لزواجه من ابنتي رسول الإسلام فالعصبية القبلية لن تسمح بقتل عثمان وإلا لحق عار ذلك ببني أمية ، فدعا رسول الله ــ ﷺ ــ عثمان بن عفان إلى أشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب وأنه لم يأت إلا زائرا لهذا البيت ومعظما لحرمته ، وأمر عثمان أن يأتي رجالا من المسلمين بمكة ونساء مسلمات ويدخل عليهم ويبشرهم بالفتح ويخبرهم أن الله وشيك أن يظهر دينه بمكة حتى لا يستخفى فيها بالإيمان .

وانطلق عثمان إلى مكة ، وجاء عشرة من الصحابة إلى رسول الله ــ ﷺ ــ يستأذنونه في الدخول إلى مكة ليزوروا أهاليهم فأذن لهم ، ولاحت لعثمان جبال مكة واستنشق عبير الأرض المقدسة فخفق قلبه شوقا . ولقيه قبل أن يدخل أم القرى إبان بن سعيد بن العاص فأجاره حتى يبلغ رسالة رسول الله ــ ﷺ .

وانقضى اليوم الأول والمسلمون في الحديبية يترقبون سفارة عثمان . وقال بعضهم :

ــ قد خلص عثمان إلى البيت فطاف به دوننا .

فقال رسول الله ــ ﷺ :

ــ ما أظنه طاف بالبيت ونحن محصورون .

ــ وما يمنعه يا رسول الله وقد خلص إليه ؟

ـــ ذلك ظني به أن لا يطوف بالكعبة حتى نطوف ، لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف به حتى أطوف .

(٣)

كان سهيل بن عمرو وسادات قريش جالسين فى ظل الكعبة وتقدم عثمان بن عفان بين يدى إبان بن سعيد بن العاص ، فلما رأوه مدوا إليه أعينهم وقد لاح فى الوجوه تساؤل فقال إبان :

ـــ إنى قد أجرته حتى يبلغ رسالة محمد .

واربد وجه عكرمة بن أبى جهل فهو لا يريد سلاما بل حربا لرسول الله ـــ ﷺ ـــ ومن جاء معه من المهاجرين والأنصار ، وشرد خالد ابن الوليد يفكر فى تلك الصلاة التى صلاها المسلمون بالعصر بعد أن قال لما شهد صلاة الظهر : « قد كانوا على غرة ، لو حملنا عليهم أصبنا منهم ولكن تأتى الساعة صلاة أخرى هى أحب إليهم من أنفسهم وأبنائهم » . وأتت الساعة وصلى أبو القاسم بأصحابه صلاة الخوف وقال المشركون : لقد أخبروا بما أردنا بهم ، ومنذ ذلك الوقت حفر ذلك القول فى وجدان خالد وجعله يفكر فى كل ما قاله محمد بن عبد الله فاتضحت لعين بصيرته بعض جوانب الحقيقة حتى كاد يصدق أن أبا القاسم يأتيه الخبر من السماء .

وراح عثمان بن عفان يبلغهم عن رسول الله ـــ ﷺ ـــ ما أرسله به وخالد يصغى فى انتباه وأصوات تصيح :

ـــ إن محمدا لا يدخلها علينا أبدا .

فيضيق بتلك الأصوات ويرهف السمع إلى قول عروة بن مسعود قبل أن ينصرف ومن معه إلى الطائف : « يا معشر قريش إنى جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه ، والله ما رأيت ملكا فى قومه مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا فروا رأيكم فإنه عرض عليكم رشدا فاقبلوا ما عرض عليكم فإنى لكم ناصح ، مع أنى أخاف ألا تنصروا عليه » .

إن صراعا قد نشب فى جوف خالد ، ولو أصاخ السمع لصوت العقل لهب من مجلسه ولأعلن على الملأ أنه يرى رأى عروة بن مسعود وأنه من الظلم أن يصد إنسان عن بيت الله الحرام ما دام لم يأت إلا زائرا للبيت ومعظما له ، ولكنه أشاح عن صوت عقله لما فرغ عثمان بن عفان من تبليغ رسالة أبى القاسم ولما ارتفع صوت إبان بن سعيد بن العاص يقول لعثمان :

— إن شئت أن تطوف بالبيت فطف .

وألقى خالد سمعه إلى عثمان فلما سمعه يقول :

— ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله — ﷺ .

فعاد خالد بن الوليد يفكر فى الإسلام ونبى الإسلام فيستشعر كأن أنوارا تنداح فى عين ذاته تبدد ما ران عليها من ظلمات .

ومرت أيام ثلاثة ولم يعد عثمان بن عفان من سفارته ، فانتاب المسلمين قلق وراح المهاجرون والأنصار يتساءلون عما أصاب عثمان ، وكان الجد بن قيس فى الأنصار وكان سيد بنى سلمة فى الجاهلية ، فلما هاجر رسول الله عليه السلام إلى المدينة قال عليه السلام لبنى سلمة :

— من سيدكم ؟

قالوا :

— الجد بن قيس على بخل فيه .

— وأى داء أدوأ من البخل ؟

ثم قال — ﷺ :

— بل سيدكم عمرو بن الجموح .

وراض الجد بن قيس قلبه على النفاق فكان يبدى بلسانه ما ليس فى قلبه ، وكان عبد الله بن أبىّ بن سلول فى القوم فكان يحاول فى دهاء أن يفت فى عضد المسلمين وأن يجعلهم ينفضون من حول رسول الله عليه السلام ، لقد بعثت قريش إلى أبىّ بن سلول :

— إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل .

فقال له ابنه عبد الله :

— يا أبت أذكرك الله أن لا تفضحنا فى كل موطن . تطوف ولم يطف رسول الله — ﷺ ؟ !

فأبى حينئذ رأس المنافقين وقال :

— لا أطوف حتى يطوف رسول الله .

ومر بالمسلمين ناس من المشركين يريدون العمرة فقال المسلمون :

— نصد هؤلاء كما صدنا أصحابهم .

فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ولا الشهر الحرام ولا الهدى ولا القلائد ولا آمين البيت الحرام يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا وإذا حللتم فاصطادوا ولا يجرمنكم شنئان قوم أن

صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾[١] .

فتركوهم ينطلقون إلى بيت الله حتى إذا ما أذن بلال بصلاة الظهر توجهوا إلى القبلة يصلون خلف رسول الله — ﷺ ، فلما قضيت الصلاة ذهبوا يلتمسون الظل ، وتمدد رسول الله تحت شجرة الطلح وإذا برجل جاء إليه يسعى ويقول :

— قتل عثمان بن عفان .

فهب رسول الله — ﷺ — من رقاده وقال :

— لا نبرح حتى نناجز القوم .

والتفت عليه السلام إلى من عنده وقال :

— إن الله أمرنى بالبيعة .

فبينا الناس جلوس قائلون إذ نادى عمر بن الخطاب :

— أيها الناس البيعة نزل بها روح القدس ، فاخرجوا على اسم الله .

فساروا إلى رسول الله — ﷺ — وهو تحت شجرة قد قام على رأسه عبد الله بن مغفل وفى يده غصن من السحرة[٢] يذب عنه ، و لم يتخلف منهم أحد إلا الجد بن قيس فقد التصق بإبط ناقته يستتر بها من الناس !

وكان أول من بايعه — ﷺ — سنان بن أبى سنان الأسدى ، فوضع يده على يده عليه السلام وقال :

— أبايعك على ما فى نفسك .

---

(١) المائدة ٢ .

(٢) السحرة : شجر الطلح .

— وما فى نفسى ؟

— أضرب بسيفك بين يديك حتى يظهرك الله أو أقتل .

وصار الناس يقولون له :

— نبايعك على ما بايعك عليه سنان .

وبايعهم عليه السلام على ألا يفروا ، وبايع عن عثمان فوضع يده اليمنى على يده اليسرى وقال :

— اللهم إن عثمان ذهب فى حاجة الله وحاجة رسوله فأنا أبايع عنه .

وراح الناس يتحدثون عن قتل العشرة الذين دخلوا مكة بإذن رسول الله عليه السلام حتى جن الليل وقام محمد بن مسلمة على حرس رسول الله — ﷺ ، فبعثت قريش خمسين رجلا عليهم مكرز بن حفص وهو الذى بعثت قريش له — ﷺ — ليسأله فيما جاء وقال — ﷺ — فى حقه : هذا رجل غادر،فراحوا يطوفون بعسكر رسول الله رجاء أن يصيبوا منهم أحدا ويجدوا منهم غرة ، فأخذهم محمد بن مسلمة إلا مكرزا فإنه أفلت ، وأتى بهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم —فحبسوا .

وبلغ قريش حبس أصحابهم فجاء جمع منهم حتى رموا المسلمين بالنبل والحجارة ، وقتل من المسلمين ابن زنيم رمى بسهم فأسر المسلمون منهم اثنى عشر رجلا.وعند ذلك بعثت قريش إلى رسول الله — ﷺ — جمعا على رأسهم سهيل بن عمرو فعلم أن عثمان قد حبس وكذلك العشرة الرجال ، فاطمأن المسلمون على أصحابهم وقال رسول الله — ﷺ — لمن حبسوا عنده :

— سهيل أمركم ؟

فقال سهيل :

— يا محمد إن الذى كان من حبس أصحابك وما كان من قتال من قاتلك لم يكن من رأى ذوى رأينا ، بل كنا كارهين له حين بلغنا ولم نعلم به وكان من سفهائنا ، فابعث إلينا بأصحابنا الذين أسرت أولا وثانيا .

— إنى غير مرسلهم حتى ترسلوا أصحابى .

— نفعل .

فبعث سهيل ومن معه إلى قريش بذلك فبعثوا بمن كان عندهم وهم عثمان والعشرة الرجال ، وأسرع المسلمون إلى عثمان يستقبلونه بالترحاب وقالوا له :

— طفت بالبيت ؟

فقال عثمان فى عتاب :

— بئسما ظننتم بى ، دعتنى قريش إلى أن أطوف بالبيت فأبيت . والذى نفسى بيده لو مكثت بها معتمرا سنة ورسول الله — ﷺ — مقيم بالحديبية ما طفت حتى يطوف رسول الله — ﷺ .

وأنزل الله تعالى : ﴿ إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما ﴾[1] .

وعلمت قريش بهذه البيعة فخافوا وراحوا يتشاورون فى أمرهم

---

(١) الفتح ١٠ .

وتمنوا لوّ أن أبا سفيان بن حرب كان فيهم ليرجعوا إليه ، ولم يجدوا خيرا من الصلح فقالوا لسهيل بن عمرو :

— إيت محمدا فصالحه ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا .

فأتاه سهيل بن عمرو ، فلما رآه رسول الله — ﷺ — قال :

— قد سهل أمركم ، القوم مأتون إليكم بأرحامهم وسائلوكم الصلح ، فابعثوا الهدى وأظهروا التلبية لعل ذلك يلين قلوبهم .

فلبوا من نواحى العسكر حتى ارتجت أصواتهم بالتلبية ، وانتهى ابن سهيل عمرو ومكرز بن حفص وحويطب بن عبد العزى إلى رسول الله — ﷺ — وجثا سهيل على ركبتيه بين يديه — ﷺ — والمسلمون حوله جلوس وتكلم فأطال ، وقال له — ﷺ — :

— تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به .

فقال له سهيل :

— والله لا تتحدث العرب بنا أنا أخذنا ضُغطة (أى بالشدة والإكراه) .

ثم جرى الصلح بينهما ، فلما التأم ولم يبق إلا الكتاب وثب عمر بن الخطاب إلى أبى بكر الصديق فقال :

— يا أبا بكر أليس برسول الله — ﷺ — حقا ؟

— بلى .

— أولسنا بالمسلمين ؟

— بلى .

— أوليسوا بالمشركين ؟

— بلى .

— فعلام نعطيهم الدنية[١] فى ديننا ؟

— أيها الرجل إنه رسول الله وليس نعصى رأيه فاستمسك بغرزه[٢] حتى تموت ، فوالله إنه لعلى الحق .

— أوليس كان يحدثنا أنا سنأتى البيت نطوف به ؟

— بلى ، أفأخبرك أنك تأتيه العام ؟

— لا .

— فإنك آتيه ومطوف به .

ثم جاء عمر إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— ألست رسول الله ؟

— بلى .

— ألسنا على الحق وعدونا على الباطل ؟

— بلى .

— فلم نعطى الدنية فى ديننا إذًا ؟

— إنى عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى .

— ألست تحدثنا أنا سنأتى البيت فنطوف به ؟

— بلى ، هل أخبرتك أنك تأتيه العام ؟

— لا .

— فإنك آتيه ومطوف به .

---

(١) الدنية : الخصلة الخسيسة .

(٢) فاستمسك بغرزه : أى تمسك بأمره فلا تخالفه . والغرز للإبل بمنزلة الركاب للفرس .

(٤)

كانت قريش تأبى أن تلقى أسماعها إلى محمد ـ ﷺ ، إنها اضطهدته منذ جاء إليهم من غار حراء يقول لهم إنه رسول الله إليهم . نال منه الرجال وآذوه واضطهدوا أصحابه أشد الاضطهاد وأرغموه أن يخرج من مكة هو وغلامه زيد بن حارثة فلجأ إلى الطائف فراحوا يرضخون رجليه بالحجارة حتى سالت الدماء في طريق الآلام .

إنه ما عاد إلى مكة إلا في جوار سيد من ساداتها ، ولم يطل مكثه بها فقد اضطر إلى أن يهاجر إلى المدينة وأن يترك أم القرى وفي القلب لوعة فهو يغادر أحب أرض الله إليه . ولم ترض قريش عن هذه الهجرة فنشب القتال بينها وبين المهاجرين والأنصار لا يخبو له أوار ، وقد كان أمل قريش أن تقضي على ابنها الذي سفه أحلام الآباء .

كانت قريش تطلب رأسه وإذا بها اليوم تقبل أن تجلس معه لتهادنه ، إن الفرق بين اليوم والأمس فرق معجز ، وإنه لنصر عظيم أن تقر قريش بزعامته على المدينة ولكن المسلمين المعتزين بإسلامهم ما كانوا يرون في معاهدة قريش نصرا .

تم الاتفاق شفاهة على ألا يدخل المسلمون مكة هذا العام ويعودوا من حيث أتوا إلى العام القابل ، وعلى أن تخلي لهم قريش مكة ثلاثة أيام يطوفون فيها بالبيت الحرام ، وعلى أن لا يحملوا معهم سوى سلاح الراكب السيوف في القرب ، وعلى أن يتهادن الطرفان ويكفا عن

الحرب عشر سنين يأمن فيها الناس ، وأن من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

وأمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ أوس بن خولة أن يكتب فقال له سهيل :

ـــ لا يكتب إلا ابن عمك أو عثمان بن عفان .

فدعا عليه السلام على بن أبى طالب فأمره فقال :

ـــ اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم .

فقال سهيل بن عمرو :

ـــ لا أعرف هذا ولكن اكتب : باسمك اللهم .

قال المسلمون :

ـــ والله لا يكتب إلا باسم الله الرحمن الرحيم .

وضج المسلمون فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ اكتب باسمك اللهم .

فكتبها ، ثم قال عليه السلام :

ـــ اكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسولَ الله سهيل بن عمرو .

فقال سهيل :

ـــ والله لو كنا نعلم أنك رسول الله ما صددناك عن البيت ولا قاتلناك ، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ والله إنى لرسول الله ولو كذبتمونى .

ثم قال لعلى :

ـــ امح رسول الله .

— والله لا أمحوك أبدا .

وأخذ أسيد بن حضير وسعد بن عبادة بيد على كرم الله وجهه ومنعاه أن يكتب إلا محمد رسول الله وإلا فالسيف بيننا وبينهـم . وضجت المسلمون وارتفعت الأصوات وجعلوا يقولون :

— لم نعطى هذه الدنية في ديننا ؟

فجعل رسول الله — ﷺ — يخفضهم ويومىء بيده إليهـم أن اسكتوا ، ثم قال لعلى :

— أرنيه .

فأراه إياه فمحاه رسول الله — ﷺ — بيده وقال :

— اكتب : هذا ما قاضى عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، وعلى أنه من قدم مكة من أصحاب محمد حاجا أو معتمرا أو يبتغى من فضل الله فهو آمن على نفسه وماله ، ومن قدم المدينة من قريش مجتازا إلى مصر أو الشام يبتغى من فضل الله فهو آمن على دمه وماله ، وعلى أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه .

فاشتد ذلك على المسلمين وقالوا :

— سبحان الله ! كيف نرد للمشركين من جاء مسلما ؟

وعسر عليهم شرط ذلك ، وقال عمر فى انفعال :

— يا رسول الله أتكتب هذا ؟ أترضى بهذا ؟

فتبسم — ﷺ — وقال :

— من جاءنا منهم فرددناه إليهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا ،

ومن أعرض عنا وذهب إليهم فلسنا منه فى شىء وليس منا بل هو أولى بهم .

فبينا رسول الله ـ ﷺ ـ هو وسهيل بن عمرو يكتبان الكتاب إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو إلى المسلمين يرسف فى الحديد متوشحا سيفه . انه كان قد أسلم وحبسه أبوه فلما سمع بأن المسلمين فى الحديبية فر من سجنه وجاء إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ورمى بنفسه بين أظهر المسلمين ، فخف إليه أخوه عبد الله بن سهيل بن عمرو من صفوف المسلمين وراح يحتضنه ويقبله ، وهرع المسلمون إليه يرحبون به ويهنئونه . فلما رأى سهيل ابنه أبا جندل قام إليه وأخذ غصنا من شجرة به شوك وضرب به وجه أبي جندل ضربا شديدا حتى رق عليه المسلمون وبكوا ، وأخذ سهيل بتلابيب ابنه وقال :

ـ يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلىّ ، لقد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا ؟

ـ لم نفض الكتاب بعد .

ـ بل لقد لجت القضية بينى وبينك (أى تم العقد) .

ـ صدقت .

فجعل سهيل يجره ليرده إلى قريش وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته :

ـ يا معشر المسلمين أرد إلى المشركين يفتنونى عن دينى ، ألا ترون ما لقيت ؟

ورأى المسلمون آثار التعذيب ، إنه اضطهد ليرجع عن الإسلام وإن رسول الله ـ ﷺ ـ يقبل أن يرده إلى قريش ليعذبوه ، فزاد

الناس ذلك إلى ما بهم ودخلهم من ذلك أمر عظيم حتى كادوا يهلكون ، فقال رسول الله ـ ﷺ ـ :

ـ يا أبا جندل اصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا ، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحا وأعطيناهم ذلك وأعطونا عهد الله ألا نغدر بهم .

وقال النبي ـ ﷺ ـ لسهيل :

ـ فأجره لي .

ـ ما أنا مجير ذلك لك .

ـ بلى فافعل .

ـ ما أنا بفاعل .

فقال مكرز وحويطب :

ـ قد أجرناه لك ، لا نعذبه .

وقال حويطب لمكرز :

ـ ما رأيت قوما قط أشد حبا لمن دخل معهم من أصحاب محمد ، أما إني أن أقول لك : لا تأخذ من محمد نصفا أبدا بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة .

فقال مكرز :

ـ وأنا أرى ذلك .

وعند ذلك وثب عمر بن الخطاب ومشى إلى جنب أبي جندل وأبوه سهيل بجنبه يدفعه ، وصار عمر يقول لأبي جندل :

ـ اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون وإنما دم أحدهم كدم كلب .

وراح يدنى قائم السيف منه وهو يرجو أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ، فضن الرجل بأبيه .

ودخل أبو جندل مكة في جوار حويطب ومكرز ، وعاد سهيل ليستأنف كتابة الهدنة فقال النبى — ﷺ :

— وإن بيننا عيبة[1] مكفوفة ، وإنه لا إسلال ولا أغلال[2] . وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه .

فتواثبت خزاعة فقالوا :

— نحن فى عقد محمد وعهده ونحن على من وراءنا من قومنا .

وتواثبت بنو بكر فقالوا :

— نحن فى عقد قريش وعهدهم .

وهمس حويطب فى أذن سهيل :

— بادأنا أخوالك بالعداوة وكانوا يستترون منا فدخلوا فى عهد محمدوعقده .

وفهم سهيل أنه يقصد خزاعة فقال فى صوت خافض :

— ما هم إلا كغيرهم . هؤلاء أقاربنا ولحمتنا قد دخلوا مع محمد . قوم اختاروا لأنفسهم أمرا فما نصنع بهم ؟

— نصنع بهم أن ننصر عليهم حلفاءنا بنى بكر .

— إياك أن تسمع هذا منك بنو بكر فإنهم أهل شؤم فيسبوا خزاعة فيغضب محمد لحلفائه فينقض العهد بيننا وبينه .

فقال رسول الله — ﷺ :

---

(١) أى أمورا مطوية فى صدور سليمة .   (٢) أى لا سرقة ولا خيانة .

— وعلى أن تخلوا بيننا وبين البيت فنطوف به .

فقال سهيل :

— والله لا تتحدث العرب أنك أخذتنا ضغطة ولكن لك ذلك من العام المقبل .

فكتب : وعلى أن ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، فإذا كان عام قابل خرجنا عنها لك فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا ، ولا تدخلها بالسلاح إلا السيوف فى القرب وسلاح الراكب .

ولقى عمر من تلك الشروط أمرا عظيما ، وجعل يرد على رسول الله — ﷺ — الكلام حتى قال أبو عبيدة بن الجراح :

— ألا تسمع يا بن الخطاب رسول الله — ﷺ — يقول ما يقول ؟ تعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

فجعل يتعوذ بالله من الشيطان الرجيم حتى قال له رسول الله — ﷺ :

— يا عمر إنى رضيت وتأبى !

وفرغ رسول الله — ﷺ — من الصلح وأشهد عليه رجالا من المسلمين : أبا بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وأبا عبيدة بن الجراح ومحمد بن مسلمة ورجالا من قريش حويطبا ومكرزا .

وقال سهيل بن عمرو :

— يكون هذا الكتاب عندى .

وقال رسول الله — ﷺ :

— بل عندى .

فأخذه رسول الله ـــ ﷺ ، ثم كتب محمد بن مسلمة لسهيل نسخة أخذها عنده .

كان جمل أبي جهل في الهدى في رأسه حلقة من ذهب ، ففر من الحديبية ودخل مكة وانتهى إلى دار أبي جهل . وخرج في أثره عمرو ابن غنمة الأنصارى فأبى سفهاء مكة أن يعطوه حتى أمرهم سهيل بن عمرو بدفعه ، قال :

ـــ إن تردوه فاعرضوا على محمد مائة من الإبل فإن قبلها فأمسكوا هذا الجمل ، وإلا فلا تتعرضوا له .

فعرضوا عليه ـــ ﷺ ـــ ذلك فأبى وقال :

ـــ لو لم يكن هذا الجمل للهدى لقبلت المائة .

كان أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ خرجوا وهم لا يشكون في الفتح بعد أن قص عليهم رؤياه ، فلما انتهى الأمر بالهدنة دخل الناس أمر عظيم ، فلما قال عليه السلام لأصحابه :

ـــ قوموا فانحروا ثم احلقوا .

لم يقم منهم أحد فعاد يقول :

ـــ قوموا فانحروا ثم احلقوا .

إنهم يسمعونه ويرونه ولكنهم أبوا أن يطيعوا أمره ، فقال :

ـــ قوموا فانحروا ثم احلقوا .

فلم يقم منهم أحد ، فدخل رسول الله ـــ ﷺ ـــ على أم سلمة وهو شديد الغضب فاضطجع فقالت :

ـــ ما لك يا رسول الله ؟

ـــ عجبا يا أم سلمة ، ألا ترين إلى الناس ! آمرهم بالأمر فـلا

يفعلونه ، قلت لهم : احلقوا وانحروا وحلوا مرارا فلم يجبنى أحد من الناس إلى ذلك وهم يسمعون كلامى وينظرون وجهى .

ـــ يا رسول الله لا تلمهم فإنهم قد دخلهم أمر عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح . يا نبى الله اخرج ولا تكلم منهم أحدا كلمة حتى تنحر بدنتك وتدعو حلاقك فيحلقك .

وأخذ عليه السلام الحربة وقصد هديه وأهوى بالحربة إلى البدن رافعا صوته :

ـــ باسم الله والله أكبر .

ثم دخل ـــ ﷺ ـــ قبة له من أدم[1] أحمر ودعا بخراش بن أمية بن الفضل الخزاعى فحلق رأسه .

فلما رأى الناس ذلك قاموا فنحروا وجعل بعضهم يحلق بعضا حتى كاد بعضهم يقتل بعضا غما ، وحلق رجال وقصر رجال وهم يقولون :

ـــ لعلنا نطوف بالبيت .

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ يرحم الله المحلقين .

قالوا :

ـــ يا رسول الله والمقصرين ؟

ـــ يرحم الله المحلقين .

ـــ يا رسول الله والمقصرين ؟

---

(١) الأدم : الجلد .

— يرحم الله المحلقين .
— يا رسول الله والمقصرين ؟
— يرحم الله المقصرين .
— يا رسول الله فلم ظاهرت الترحم على المحلقين دون المقصرين .
— لأنهم لم يشكوا .

(٥)

غابت الشمس فى الأفق الغربى وراح الليل يجرجر أذياله على الحديبية ، وقبل أن يؤذن بلال بالعشاء أصابهم مطر لهم يبل أسفل نعالهم فقال عبد الله بن أبىّ بن سلول :
— هذا نوء الخريف مطرنا بالشعرى .
وحان أوان العشاء فارتفع صوت بلال بالأذان فأمر — ﷺ — مناديه أن ينادى ألا صلوا فى رحالكم ، فصلى عليه السلام فى قبته وصلى الناس فى خيامهم وقد توجهوا إلى البيت الحرام وفى القلوب أشواق وفى النفوس أحزان . فقد خرجوا من المدينة لا يشكون لحظة فى أنهم سيطوفون بالبيت فإذا برسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يقبل ذلك الشرط الذى اشترطته قريش من أن يرجع عنهم عامه هذا فلا يدخل عليهم مكة ، فإذا كان عام قابل خرجوا عنها له فدخلها بأصحابه فأقام بها ثلاثا .
كان عزيزا عليهم أن يصلوا إلى الحديبية وأن يشموا عبير الحرم ثم

يدوروا على أعقابهم راجعين دون أن تكتحل أعينهم بتراب مكة وأن يطوفوا بالبيت وأن يشربوا من زمزم وأن يسعوا بين الصفا والمروة ، فكانوا في يقظتهم وفي منامهم يحلمون باستلام الحجر والطواف والتكبير والتهليل .

وفي الفجر جلجل صوت بلال بالأذان فخرجوا من رحالهم واصطف خلف رسول الله — ﷺ — حتى إذا قضيت الصلاة قال :

— أتدرون ما قال ربكم ؟

— الله ورسوله أعلم .

— قال الله عز وجل : (أصبح من عبادى مؤمن بى وكافر ، فأما من قال مطرنا برحمة الله وفضله فهو مؤمن بى وكافر بالكواكب ، ومن قال مطرنا بنجم كذا فهو مؤمن بالكواكب كافر بى) .

وأحس عبد الله بن أبى وخزا يخز روحه ولكنه لم يضطرب ، فيا طالما نافق ويا طالما قال لرسول الله — ﷺ — استغفر لى فيستغفر له .

وأمر رسول الله عليه السلام بالرحيل فحملت الخيام على ظهور الإبل ورفعت النساء فى الهوادج ، وانطلق جيش المسلمين قاصدا المدينة وقد خلف وراءه شجرة الرضوان وذكريات أليمة على النفوس ، وقد كان أقساها أنهم طووا ملابس الإحرام دون أن يطوفوا بالبيت العتيق .

وظل الناس صامتين فى وجوههم أسى ، فقد حيل بينهم وبين نسكهم فهم بين الحزن والكآبة حتى سقط الليل ، ودنا عمر بن الخطاب من رسول الله — ﷺ — فسأله عن شيء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فحرك عمر بعيره حتى تقدم أمام الناس وخشى أن يكون نزل فيه قرآن .

وبلغ رسول الله — ﷺ — كراع الغميم فوقف على راحلته فراح الناس ينشطون رواحلهم بالحداء ، فقال بعض الناس لبعض :

— ما بال الناس ؟

— أوحى إلى رسول الله — ﷺ .

فخرجوا يغذون(١) السير فوجدوا النبى — ﷺ — واقفا على القصواء ، فلما اجتمع إليه الناس قرأ :

﴿ إنا فتحنا لك فتحا مبينا ، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطا مستقيما * وينصرك الله نصرا عزيزا * هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما * ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما * ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيرا * ولله جنود السموات والأرض وكان الله عزيزا حكيما * إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا * لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا * إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجرا عظيما . سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا

---

(١) أغذ السير : أسرع فيه .

وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا ، بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا * ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنا أعتدنا للكافرين سعيرا * ولله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما * سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدوننا بل كانوا لا يفقهون إلا قليلا * قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما * ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الأنهار ومن يتول يعذبه عذابا أليما * لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا * ومغانم كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزا حكيما * وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجَّل لكم هذه وكف أيدى الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين ويهديكم صراطا مستقيما * وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وكان الله على كل شىء قديرا * ولو قاتلكم الذين كفروا لولَّوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيرا * سُنَّة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسُنَّة الله تبديلا * وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا * هم

الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محِلَّه ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم مَعرّة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تَزَيَّلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما * إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحميَّة حميَّة الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شيء عليما * لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلّقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا * هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا * محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركَّعا سجَّدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مَثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطئه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعَدَ الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجرا عظيما ﴾[1] .

فقال عمر :

ـــ أوفتح هو يا رسول الله ؟

ـــ نعم والذى نفسى بيده إنه لفتح .

وتكلم بعض الصحابة وقال :

ـــ ما هذا بفتح لقد صدونا عن البيت وصد هدينا .

---

(١) سورة الفتح .

فقال — ﷺ — لما بلغه ذلك :

— بئس الكلام بل هو أعظم الفتح . لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالبراح عن بلادهم وسألوكم القضية ويربحوا إليكم في الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم وردكم الله سالمين مأجورين فهو أعظم الفتوح .

أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم ؟ أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنون ؟

فقال المسلمون :

— صدق الله ورسوله فهو أعظم الفتوح ..

وقدم رسول الله — ﷺ — المدينة ، وما كاد يستقر بها حتى هاجرت إليه أم كلثوم بنت عقبة بن أبى معيط وكانت أسلمت بمكة وبايعت قبل أن يهاجر رسول الله — ﷺ . إنها عرفت أن رسول الله عليه السلام أمر بقتل أبيها يوم بدر فلم تحقد على نبى الإسلام فقد كانت تعرف أنه على الحق وأن أباها على الباطل ، فلم تأخذها العزة بالإثم بل ظلت وفية لدينها الذى انشرح له صدرها واطمأن له فؤادها .

إنها سمعت بالمسلمين فى الحديبية فهزها الشوق إلى الخروج إلى إخوانها المسلمين فخرجت من مكة لتلحق بالأحبة ، ولكنها بلغت الحديبية بعد أن تركها رسول الله عليه السلام ، فلم ترض بالعودة إلى المشركين بل راحت تشتد على الطريق وحدها وقد تورمت قدماها من المشى ولكنها كانت تقاوم التعب ، فكل خطوة كانت تدنيها من النور

الذى شع من المدينة ليغمر العالمين .

إنها أخت عثمان بن عفان لأمه ، فلما بلغت المدينة لم تفكر فى أن تذهب إلى دار أخيها بل اتجهت إلى نبع النور إلى دور الرسول عليه السلام ، ودخلت على أم سلمة وأعلمتها أنها جاءت مهاجرة وراحت تبثها مخاوفها أن يردها رسول الله — ﷺ .

فلما دخل — ﷺ — على أم سلمة أعلمته بها فرحب بأم كلثوم ، فخرج أخواها عمارة بن عقبة والوليد بن عقبة بن أبى معيط فى ردها بالعهد ، فلما دخلا على رسول الله عليه السلام قالا :

— يا محمد أوف لنا بما عاهدتنا عليه .

ودخل عليه السلام على أم سلمة وعندها أم كلثوم فأخبرها أن أخويها يطلبان ردها بالعهد الذى بينه وبين قريش ، فقالت بنت عقبة :

— يا رسول الله أنا امرأة وحال النساء إلى الضعف فتردنى إلى الكفار يفتنونى ولا صبر لى .

وخرج رسول الله — ﷺ — من عندها وهو فى حيرة من أمره أيردها إلى الكفار ليفتنوها ولا صبر لها على إيذائهم أم يحبسها عنهم ، وفيما هو يفكر نزل عليه الروح الأمين : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن وأتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهن إذا آتيتموهن أجورهن ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم * وإن فاتكم شىء من أزواجكم إلى الكفار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا

واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ﴾(١) .

ودخل عمر بن الخطاب ليمتحن أم كلثوم بنت عقبة فحلفها بالله ما خرجت رغبة بأرض عن أرض ، وبالله ما خرجت من بغض زوج ، وبالله ما خرجت لالتماس دنيا ولا رجل من المسلمين ، وبالله ما خرجت إلا حبا لله ورسوله .

وحلفت أم كلثوم فقطعت كل أمل يداعب أخويها فى ردها فعادا إلى مكة وأخبرا قريشا بذلك فرضوا أن تحبس النساء ، ولم يكن لأم كلثوم زوج بمكة . فلما قدمت المدينة زوجها عليه السلام زيد بن حارثة ولم تثر هذه الزيجة زوبعة بين المؤمنين ، بعد أن زوج نبى الإسلام صلوات الله وسلامه عليه مولاه من ابنة عمته الشريفة النسب زينب بنت جحش . فقد قضى الإسلام على عادة استهجان زواج المولى من الحرة وغرس فى النفوس أن الناس سواسية وأن لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى .

أمر الله المسلمين بألا يمسكوا بعصم الكوافر . فلما نزل نهى المسلمين عن البقاء على نكاح المشركات طلق الصحابة كل امرأة كافرة فى نكاحهم ، حتى أن عمر بن الخطاب كان له امرأتان فطلقهما فتزوج إحداهما معاوية بن أبى سفيان والأخرى صفوان بن أمية .

وجاءت إلى رسول الله — ﷺ — جماعة من النساء المؤمنات مهاجرات من مكة من جملتهن سبيعة بنت الحارث ، فأقبل زوجها وهو مسافر المخزومى طالبا لها ، فاستحلف — ﷺ — سبيعة

---

(١) الممتحنة ١٠ — ١١ .

فحلفت أنها ما هاجرت ناشزة ولا هاجرت إلا لله ولرسوله ، فأعطى — ﷺ — زوجها مسافرا ما أنفق عليها فتزوجها عمر بن الخطاب ، فما كانت تترك امرأة مؤمنة فى المدينة دون أن تحصن .

(٦)

خرج — ﷺ — على أصحابه فقال :

— أيها الناس إن الله بعثنى رحمة وكافة فأدوا عنى رحمكم الله ، ولا تختلفوا على كما اختلف الحواريون على عيسى بن مريم عليه السلام .

فقال أصحابه :

— وكيف اختلف الحواريون على عيسى عليه السلام يا رسول الله ؟

— دعاهم لمثل ما دعوتكم له ، فأما من بعثه مبعثا قريبا فرضى وسلم ، وأما من بعثه مبعثا بعيدا فكره وأبى .

وكتب — ﷺ — كتابا إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام فقيل له :

— يا رسول الله إنهم لا يقرءون كتابا إلا إذا كان مختوما .

فاتخذ رسول الله — ﷺ — خاتما من فضة ، وكان نقش خاتمه ثلاثة أسطر محمد سطر ورسول سطر والله سطر . وبعد أن ختم الكتاب قال :

— من ينطلق بكتابى هذا فيسير إلى هرقل وله الجنة ؟

فتقدم دحية الكلبى وأخذ الكتاب ثم انطلق إلى بصرى فإذا بالرومان

والعرب يموج بعضهم في بعض في الأسواق وفى الطرق وفى كل مكان ، فإن هرقل قد انتصر على فارس وقد جاء ماشيا إلى بيت المقدس وفاء لنذره الذى نذره لربه إذا ما نصره الله .

كان النسر الرومانى يرفرف على الدور وعلى الحوانيت وعلى مبانى الحكومة ، وكانت الأسواق غاصة بالسلع التى جاءت من القسطنطينية ومصر وسورية واليمن ، وكان أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام وسادات قريش فى غزة عاكفين على شراء الحنطة والخمور والحرير وأوانى الذهب والفضة بعد أن باعوا البخور وما جلبوه من اليمن فى رحلة الشتاء .

وانطلق دحية إلى الحارث ملك غسان عظيم بصرى والتمس مقابلة قيصر ، فأرسل معه عدى بن حاتم ليوصله إلى قيصر فانطلقا إلى القيصر العظيم ببيت المقدس ، فلما دخلا على رجال القصر قالوا لدحية :

ـــ إذا رأيت الملك فاسجد له ثم لا ترفع رأسك أبدا حتى يأذن لك .

ـــ لا أفعل هذا أبدا ولا أسجد لغير لله .

ـــ إذًا لا يأخذ كتابك .

وشردوا يفكرون فقال رجل منهم :

ـــ أنا أدلك على أمر يؤخذ فيه كتابك ولا تسجد له .

ـــ وما هو ؟

ـــ إن له على كل عتبة منبرا يجلس عليه ، فضع صحيفتك تجاه المنبر فإن أحدا لا يحركها حتى يأخذها هو ثم يدعو صاحبها .

فدخل دحية إلى قاعة العرش حيث ينظر هرقل المظالم ، فوضع

كتاب رسول الله — ﷺ — تجاه المنبر وعينه عليه لا تفارقه ، فلما جاء قيصر ومن خلفه من عظماء مملكته ورأى الكتاب تناوله وراح يقلبه وينظر فيه فوجد عليه عنوان كتاب العرب ، فدعا صاحبه فتقدم دحية الكلبى وقال إنه كتاب من محمد رسول الله — ﷺ — إلى قيصر العظيم .

فدعا هرقل الترجمان الذى يقرأ بالعربية فقرأ الرجل الرسالة وأخذ يترجمها ودحية الكلبى ينظر إلى قسمات وجه قيصر وقد حبست أنفاسه ، حتى إذا ما انتهى الترجمان من الرسالة قال هرقل :

— انظروا لنا من قومه أحدا نسأله عنه .

كان أبو سفيان بن حرب وحكيم بن حزام ورجال من قريش فى غزة فأتاهم والى شرطة قيصر فانطلق بهم حتى قدموا عليه فى بيت المقدس ، فإذا هو جالس وعليه التاج وعظماء الروم حوله ، فلما رأوه خروا له ساجدين ولم يرفعوا رءوسهم حتى أذن لهم .

ودعا قيصر ترجمانه وأمره أن يقرأ كتاب النبى — ﷺ — فراح الرجل يقرأ :

— بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى هرقل عظيم الروم . سلام على من اتبع الهدى . أما بعد فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم الأريسيين (فلاحى القرى) ، ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون[١] .

---

(١) آل عمران ٦٤ .

وقال قيصر لترجمانه :

ــ سلهم أيهم أقرب نسبا لهذا الرجل الذى خرج بأرض العرب يزعم أنه نبى ؟

فقال أبو سفيان :

ــ أنا أقربهم نسبا إليه .

ــ ما قرابتك منه ؟

ــ هو ابن عمى .

ــ ادن .

ثم أمر أصحابه فجعلوا خلف ظهره ، ثم قال لترجمانه :

ــ قل لأصحابه إنما قدمت هذا أمامكم لأسأله عن هذا الرجل الذى يزعم أنه نبى وإنما جعلتكم خلف ظهره لتردوا عليه كذبا إن قاله .

كان حكيم بن حزام ممن جلس خلف أبى سفيان وكان قد عزم على أن يرد كذب أبي سفيان إذا لجأ إلى الكذب ، فمحمد بن عبد الله زوج عمته خديجة الأثيرة عنده . فإن كان قلبه قد عمى عن النور الذى جاء به ابن عبد الله فقد أبى ضميره أن يسمع عنه كذبا ثم يلزم الصمت . وخاف أبو سفيان أن يؤثر عنه الكذب ، ولولا أن ينقل عنه الكذب إلى قومه ويتحدثوا به فى بلاده لكذب عليه لبغضه إياه ومحبته نقصه .

ثم قال هرقل لترجمانه :

ــ كيف نسب هذا الرجل فيكم ؟

ــ هو منا ذو نسب .

ــ قل له هل قال هذا القول أحد منكم قبله ؟

— لا .

— قل له هل كنتم تتهمونه بالكذب على الناس قبل أن يقول ما قال ؟

— لا .

— هل كان من آبائه ملك ؟

— لا .

— كيف عقله ورأيه ؟

— لم نعب عليه عقلا ولا رأيا قط .

— فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟

— بل ضعفاؤهم .

— فهل يزيدون أم ينقصون ؟

— بل يزيدون .

— فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه ؟

— لا .

— فهل يغدر إذا عاهد .

— لا ، ونحن الآن منه في ذمة لا ندرى ما هو فاعل فيها .

— فهل قاتلتموه ؟

— نعم .

— فكيف حربكم وحربه ؟

— دول وسجال ، ندال عليه مرة ويدال علينا أخرى .

— فما يأمركم به ؟

— يأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا ، وينهانا عما كان

يعبد آباؤنا ، ويأمرنا بالصلاة والصدق والزكاة والعفاف ، ويأمرنا بالعهد وأداء الأمانة .

فقال لترجمانه :

— قل له إني سألتك عن نسبه فزعمت أنه فيكم ذو نسب وكذلك الرسل تبعث فى نسب قومها ، وسألتك هل هذا القول قاله أحد منكم قبله فزعمت أن لا ، فلو كان أحد منكم قال هذا القول قبله لقلت هو يأتم بقول قبله ، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال فزعمت أن لا ، فقد عرفت أنه لم يكن ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله ، وسألتك هل كان من آبائه ملك فقلت لا ، فلو كان من آبائه ملك لقلت رجل يطلب ملك أبيه ، وسألتك أأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ، فقلت ضعفاؤهم وهم أتباع الرسل ، وسألتك هل يزيدون أو ينقصون فزعمت أنهم يزيدون وكذلك الإيمان حتى يتم ، وسألتك هل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه ، فزعمت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب إذا حصل به انشراح الصدور والفرح به لا يسخطه أحد ، وسألتك هل قاتلتموه قلت نعم وإن حربكم وحربه دول وسجال يدال عليكم مرّة وتدالون عليه أخرى . وكذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة ، وسألتك ماذا يأمركم به فزعمت أنه يأمركم بالصلاة والصدقة ، والعفاف والوفاء بالعهد وأداء الأمانة ، وسألتك هل يغدر فذكرت أن لا ، وكذلك الرسل لا تغدر لأنها لا تطلب حظ الدنيا الذى لا يناله طالبه إلا بالغدر فعلمت أنه نبى ، وقد كنت أعلم أنه خارج ولكن لم أظن أنه فيكم . وإن كان ما حدثتنى به حقا فيوشك أن يملك موضع قدمى .

وشرد هرقل لحظة تذكر خلالها تلك النبوءة التي قالها له المنجمون وهم يرتجفون فرقا : سيرث ملكك شعب مختون . كان يظن أن اليهود ذلك الشعب فصب عليهم سوط عذاب ، وما دار بخلده أبدا أن العرب هم ذلك الشعب فقد كانوا أهون من ذلك لولا أن شرفهم الله بالرسالة التي رفعتهم من الحضيض إلى ذروة المجد .

ثم قال قيصر في تواضع :

ـــ ولو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت مع المشقة لقيه ، ولو كنت عنده لغسلت عند قدميه ولا أطلب منه ولاية ولا منصبا .

وعلت أصوات الذين حوله وكثر لغطهم ، وأكثر ابن أخي قيصر الغيظ الشديد . إنه قال لعمه يوم أن جاءه كتاب رسول الله عليه السلام :

ـــ قد ابتدأ بنفسه وسماك صاحب الروم ، ألق به .

فقال له هرقل وكان رجلا متدينا حارب الفرس ليعيد الصليب المقدس إلى بيت المقدس ، وحج ماشيا من القسطنطينية إلى المدينة المباركة :

ـــ والله إنك لضعيف الرأى ، أرمى بكتاب رجل يأتيه الناموس الأكبر وهو أحق أن يبدأ بنفسه ! ولقد صدق أنا صاحب الروم وما أملكهم ولكن الله سخرهم لى ولو شاء لسلطهم عليّ كما سلط فارس على كسرى .

وظل الصخب مدة وأبو سفيان والذين معه لا يدرون ما يقولون ، ثم أمر هرقل بإنزال دحية الكلبي وإكرامه وأمر بإخراج أبي سفيان وأصحابه . وبينا أبو سفيان والذين معه ينسحبون دون أن يولوا قيصر

ظهورهم قال قيصر لقومه :

ـ يا قوم ألستم تعلمون أن بين يدى الساعة نبيا بشركم به عيسى ابن مريم ترجون أن يجعله الله فيكم ؟

قالوا :

ـ بلى .

ـ فإن الله قد جعله فى غيركم وهى رحمة الله عز وجل يضعها حيث يشاء .

وخرج أبو سفيان وأصحابه من القصر وهم صامتون تدور فى رءوسهم تلك المناقشة التى دارت بين هرقل وشيخ بنى أمية وقد تملكهم العجب . وتذكر حكيم بن حزام أحاديث عمته خديجة عن زوجها الأمين وأقوال ورقة بن نوفل فراح يسأل نفسه : ترى أيحجم عن التصديق خشية أن تذهب مفاخره فى قريش ؟ إنه صاحب دار الندوة وصاحب المكانة المرموقة فى مكة ، أفيضحى بكل أمجاده ليتبع أبا القاسم زوج سيدة نساء قريش ؟ !

ورفع أبو سفيان رأسه وقال :

ـ لقد أمر (عظم) أمر ابن أبى كبشة . هذا ملك بنى الأصفر يخافه .

وخطر على قلبه أن أبا القاسم سيظهر ، فراحت الغيرة تنهش صدره وانتابه خوف شديد .

(٧)

كانت بيت المقدس غاصة بالناس ، وراح الشعب يتدافعون بالمناكب ليصلوا إلى ميدان قصر قيصر ، فهرقل العظيم الذى جاء حاجا ماشيا على قدميه شكرا لله على أن نصره على أعدائه الفرس سيعود اليوم إلى حمص ومنها إلى القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية التى تزهو بالنصر ، وإن كانت المذاهب المتنافرة قد قطعت أوصالها ولم تجعلها على قلب رجل واحد .

كانت الأعلام تخفق على القصر وقد اصطف الجنود أمامه وقد لبسوا الخوذ ، والدروع تتألق فى الشمس تبهر الأبصار ، ووقف الناس على جانبى الطريق يمدون أعينهم إلى حيث سيخرج إمبراطورهم الظافر ، فلما نفخ فى الأبواق إيذانا بتحرك الركب العظيم ماج الناس بعضهم فى بعض واشرأبت الأعناق وحبست الأنفاس . ومس الآذان وقع حوافر الخيل فامتلأت النفوس نشوة ، فعما قليل يرون البطل الذى استرد الصليب وأعاده إلى كنيسته المقدسة فرد إلى الأرواح الحزينة بشرها ومسح عن كواهل شعبه ذل العار الذى جللهم[١] سنين مرت عليهم كأبشع كابوس يمر على شعب .

وخرج الفرسان على ظهور الجياد يحملون رماحا بأعلاها رايات تخفق بالنسر الرومانى ، فتعالت الأصوات بالهتاف حتى إذا ما ظهرت

---

(١) جللهم : غطى عليهم .

عربة الإمبراطور ضج الناس بالتصفيق وارتفعت هتافاتهم بحياة المنقذ تشق عنان السماء ، فجعل هرقل يرد تحياتهم بالتلويح إليهم بيده وابتسامة عريضة رسمها على شفتيه .

كان الموكب فخما ينم عن البذخ والثراء ، ولكن هرقل كان يعرف فى قرارة نفسه أن خزائنه قد خلت وأن حرب الفرس قد أذابت كل ما عنده وأنه قد استدان من البابا ورجال الدين مبالغ ضخمة قد تدفعه إلى فرض ضرائب جديدة على رعاياه الذين أنقضت الضرائب ظهورهم .

وكان البشر يبدو على وجوه الناس ولكن هرقل كان يعرف أن بشر اللحظة سرعان ما يغيض بعد أن يبتعد عن أعينهم ، فإمبراطوريته ممزقة بين المؤمنين بمذهب وحدة طبيعة المسيح والمؤمنين بأن للمسيح طبيعتين منفصلتين ، فهو إنسان لما كان على الأرض وهو إله بعد أن ارتفع إلى السماء . وقد خلفت المناظرات بين القائلين بوحدة طبيعة المسيح وبين القائلين باللاهوت والناسوت صدعا فى إمبراطوريته يهدد بالانهيار .

وشرد ذهنه يفكر فى إمبراطوريته المترامية الأطراف فكانت سورية ومصر أول ما شغل رأسه . فكنيسة بيت المقدس على مذهب يخالف مذهب القسطنطينية ، وكنيسة الإسكندرية تبث الثورة فى نفوس رعاياها الزنادقة المضطهدين المرهقين بالضرائب .

واحتلت كل كيانه تلك النبوءة القائلة بأن شعبا مختونا سينتزع منه ملكه ، ولوى شفته السفلى سخرية من تصرفاته . لقد سام اليهود ألوان الاضطهاد وما خطر له على قلب لحظة أن العرب هم ذلك الشعب ، فلو تمت لهم الوحدة السياسية واستثارهم الإلهام الدينى فسينزعون منه

سورية ومصر ، فعقيدة الإسلام الدينية أقرب إلى عقيدتهم من عقيدة خلقيدونية[١] .

إنه يجب أن يفوز بصداقة المؤمنين بوحدة طبيعة المسيح ، وهذه الصداقة ستثير عليه البابا فى القسطنطينية وأتباع الكنيسة المؤمنة باللاهوت والناسوت والأم مريم حامية القسطنطينية ، ليته يستطيع أن يجد فكرة توحد قلوب المسيحيين المتنافرة .

واستولت على عين ذاته الأقوال التى قالها دحية الكلبى رسول نبى الإسلام عليه السلام ، إن دعوة محمد بن عبد الله تقضى على المتناقضات بين المذاهب السائدة فى إمبراطوريته ، وهى قادرة على أن تؤلف بين قلوب القائلين باللاهوت والناسوت والقائلين بالطبيعة الواحدة ، وهو يستشعر فى أعماقه أنه دين الفطرة الذى تقبله العقول والنفوس ، فما دام المسيح قد بشر بفارقليط آخر يبقى مع الناس إلى الأبد ، فلماذا لا يكون نبى الإسلام هو ذلك النبى الذى بشرت به الأنبياء ؟

أصبح يؤمن أن ملكه لن يثبت إلا إذا اعتنق الإسلام .

وراح شبح النبوءة القائلة بأن شعبا مختونا سيسلبه ملكه يتخايل له فيزداد رغبة فى أن يدخل فى الدين الجديد لينقذ عرشه ، فقد تركزت كل أمانيه فى الإبقاء على ملكه وبات يرتجف فرقا من أن يذهب سلطانه أو يثور عليه قومه فيقتلوه .

---

(١) مدينة اجتمع بها المجمع المسكونى الرابع وقد اعتبر مذهب وحدة طبيعة المسيح زندقة .

إنه في حيرة لن يخلصه منها إلا أن يعرض الأمر على عظماء الروم إذا ما بلغ حمص . وجعل يتعجل الزمن حتى إذا ما لاحت حمص لعينيه راح قلبه يخفق بين جنبيه كجناح حمامة ، واستشعر رهبة لم يحس مثلها وهو يخوض غمار الحرب فهو مقبل على أخطر عمل يواجهه فى حياته ، وهل هناك أخطر من أن يطلب من الناس الانسلاخ من دينهم لاعتناق دين جديد ؟

ودخل حمص بين هتاف الجماهير ، وراحت عربته تخترق أقواس النصر حتى القصر وهو غارق فى مخاوفه لا يكاد يحس بالشعب الذى خرج لتحيته ولا يكاد يسمع الهتافات التى هزت جانب المدينة هزا .

ودخل القصر وهرع عظماء مملكته لتهنئته ، فأمر أن تغلق الأبواب ثم اطلع فقال :

ـــ يا معشر الروم هل لكم فى الفلاح والرشد وأن يثبت ملككم فتبايعوا هذا النبى ؟

فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب وهم يقولون :

ـــ أتدعونا أن نترك النصرانية ونصير عبيدا لأعرابى ؟

وأمر عظماء مملكته مناديا ينادى :

ـــ ألا إن هرقل قد آمن بمحمد واتبعه .

فدخلت الأجناد فى سلاحها وطافت بقصره تريد قتله . فأرسل إليهم :

ـــ إنى أردت اختبار صلابتكم فى دينكم فقد رضيت .

وطلب من عظماء مملكته أن يعودوا ، فلما قفلوا راجعين قال لهم :

ـــ إنى قلت مقالتى أختبر بها شدتكم على دينكم فقد رأيت .

فسجدوا له ورضوا عنه وإن كان فى قرارة نفسه يستشعر عدم رضا عما وصلت إليه الأمور ، فهو يرجو فى قرارة نفسه أن يهتدى إلى فكرة توفق بين المذاهب المسيحية المتنازعة فى مملكته ، فإن كان عظماء الروم قد رفضوا اعتناق الإسلام فلابد من العثور على فكرة ترضى أصحاب المذاهب جميعا ليستريح من ذلك الشقاق الذى يهدد ملكه بالزوال .

وراحت القسطنطينية تتأهب لاستقبال هرقل المظفر ، فأخذ رجال الدين يعدون كنيسة الحكمة المقدسة أيا صوفيا للترحيب بالبطل الذى أعاد الصليب المقدس إلى بيت المقدس ، وجعل رجال القصر يزينون التمثال الضخم المواجه للقصر وكان لثور يقاتل أسدا . وبين مدخل القصر وحلبة السباق أقيمت الزينات ورفعت الرايات ، وراح النسر الرومانى يرفرف على بوابة بيجاى التى تقود إلى حى البغايا .

وأضاءت نوافذ المركز التجارى لسوق الحرير ليلا ، فجاء الناس إلى دار الأنوار ينظرون ثم يتدفقون إلى ساحة استعراض الجيش التى غصت بكرائم البيزنطيات والشباب والبغايا .

وكانوا أخلاطا من سورية ومصر والبلقان والرومان ، وكان نصيب البيزنطى من التحزب العنصرى ضئيلا فدماؤهم كانت مختلطة ، وما كانوا يهتمون بالأصول بل بالدين فكل من آمن بالعقيدة الأرثوذكسية المقبولة فى البلاد واستطاع التحدث باليونانية يلقى منهم القبول كأخ فى المواطنة ، وكان احتقارهم العميق للأجانب لأنهم كفرة وزنادقة وأجلافا غير ملمين بتهذيبات الحضارة الإمبراطورية ورفاهيتها ، أما كل أجنبى يعتنق ديانة الدولة ويحصل على جنسيتها فله الحق فى الزواج من

بيزنطية مهما يكن أصله أو أصلها .

وكان هرقل يعرف شدة تعصب البيزنطيين لدينهم فطرد من ذهنه فكرة عرض الإسلام عليهم كما فعل فى حمص ، بل شغلته فكرة التوفيق بين المذاهب المتناحرة ليأمن عداوة أصحاب المذاهب المتعارضة مع مذهب القسطنطينية .

وأقبل الركب الملكى يتهادى فى حى زيجما على القرن الذهبى وقد قام فى وسطه تمثال عظيم لأفروديت[1] فإذا بالكتل البشرية قد اصطفت على جانبى الطريق واعتلت التماثيل والأشجار ، وراح النسوة ينثرن الورود على الموكب ، وانهمرت الدموع تأثرا من أعين العجائز ، فالقائد المظفر عائد من بيت المقدس بعد أن قبل صليب المسيح .

وانطلق الركب إلى كنيسة الحكمة المقدسة ، وما إن نزل هرقل من عربته حتى استقبله البابا هونوريوس الأول بالبركات ، وتجاوبت فى أرجاء الكنيسة التراتيل وحرقت أندر أنواع البخور . وسار هرقل وهو شارد اللب يفكر فى الصور والتماثيل التى زينت بها الكنيسة فقام فى نفسه سؤال : أيمكن رسم ألوهية المسيح وتصويرها ؟ فإن لم يكن أليس من الوثنية عبادة صور له ؟

كان ما سمعه عن الإسلام ومحاربته للوثنية هو المحرك لهذه الأفكار ، إنه وهو يتلو صلاته فى كنيسة أيا صوفيا قد اعتنق مذهب تحطيم الصور وإن طوى نفسه على أفكاره ، ولما انتهت المراسيم

---

(١) أفروديت : إله الحب والجمال والاخصاب .

وعاد إلى قصره واسترد أنفاسه بعث إلى البابا هونوريوس الأول وراح الرجلان يفكران فى تسوية لاهوتية توحد كلمة المسيحيين وترضى اليعاقبة والنساطرة وتقضى على الخلاف المشبوب حول طبيعة السيد المسيح ، فهداهما فكرهما إلى أن للمسيح طاقة واحدة.فقط فراح هرقل يدعو إلى فكرة وحدة الإرادة وراح البابا هونوريوس الأول يؤيدها . ولقيت الفكرة بعض النجاح بالقسطنطينية ولم ترض أصحاب مذهب وحدة الطبيعة . ولم ينجح هرقل فى لم الشمل ورأب الصدع بل أضاف إلى المذاهب المسيحية التى يتعذر حصرها مذهبا جديدا فتح بابا واسعا للجدل والحوار .

كان أتباع وحدة الطبيعة يضيقون بالظلم الواقع بهم وما يملأ صدورهم من كراهية مقيمة لمراسيم خلقيدونية جعلتهم متذمرين على الدوام ، يبحثون عن الخلاص(١) .

وعاد دحية الكلبى إلى رسول الله — ﷺ — ومعه كتاب هرقل ، فقرىء عليه صلوات الله وسلامه عليه : (إنى مسلم ولكننى مغلوب) . فقال عليه السلام .

— كذب عدو الله ليس بمسلم .

وقدم دحية إليه عليه السلام هدية هرقل فقسمها بين المسلمين . وشح هرقل بالملك فطلب الرياسة وآثرها على الإسلام : ﴿ قل يا أيها

---

(١) وقع هرقل الوثيقة المحتوية على الاعتراف الجديد (Ezthesis) سنة ٦٣٦ م ، وفى نفس السنة وقعت معركة اليرموك بين العرب والروم وقد وجد السوريون الخلاص الذى كانوا ينشدونه .

الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل * واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين ﴾(١) .

(٨)

حبست قريش أبا بصير بن أسيد بن جارية الثقفي ومنعته من الهجرة إلى رسول الله عليه السلام ، فانفلت منهم وانطلق إلى المدينة ليلحق بإخوانه المسلمين . ولما علمت قريش بخروجه كتب فى رده أزهر بن عوف عم عبد الله بن عوف والأخنس بن شريق كتابا إلى رسول الله — ﷺ — وبعثا رجلا من بنى عامر بن لؤى ومعه مولى لهم وجعل لهما الأخنس فى طلب أبى بصير جعلا . فقدما على رسول الله عليه السلام بالكتاب فقرأه أبىّ على رسول الله — ﷺ — فإذا فيه : « قد عرفت ما شارطناك عليه من رد من قدم عليك من أصحابنا فابعث إلينا بصحابنا » .

فقال النبى — ﷺ :

— يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما علمت ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجا ومخرجا فانطلق إلى قومك .

— يا رسول الله أتردنى إلى المشركين يفتنوننى عن دينى ؟

---

(١) الزمر ٤١ ، ٤٢ .

ــ انطلق فإن الله سيجعل لك فرجا ومخرجا .

ودفعه إليهما والدموع فى أعين المسلمين ، وصار المسلمــون يقولون له :

ــ الرجل يكون خيرا من ألف رجل .

يغرونه بالذين معه ، حتى إذا كانا بذى الحليفة على بعد ستة أميال من المدينة سل أحد الرجلين سيفه ثم هزه وقال :

ــ لأضربن بسيفى هذا فى الأوس والخزرج يوما إلى الليل .

فقال له أبو بصير :

ــ أو صارم سيفك هذا ؟

ــ نعم .

ــ ناولنيه أنظر إليه .

فناوله إياه ، فلما قبض عليه ضربه به حتى فارق الحياة ، ولما رأى المولى مقتل صاحبه أطلق لساقيه الريح ، وراح أبو بصير يطلبه وفى يده السيف وكانت مطاردة رهيبة خيم عليها الموت ، المولى على دابته يطوى الأرض وقد تملكه الرعب وأبو بصير على عير العامرى يجدّ فى أثره ، واستشعر المولى تعبا وانبهرت أنفاسه وسال العرق حتى ملأ عينيه ولكنه لم يستطع أن يهدىء من سرعة عدو دابته ، والموت قد أصبح أدنى إليه من شراك نعله . ولاحت له المدينة فقوى الأمل من روحه حتى إذا بلغ مسجد الرسول عليه السلام نزل عن دابته فوسع من خطوه حتى أتى رسول الله ــ ﷺ ــ وهو جالس فى المسجد ، فلما رآه رسول الله ــ ﷺ ــ والحصا يطن تحت قدميه من شدة عدوه قال عليه السلام :

— إن هذا الرجل قد رأى فزعا .

فلما انتهى إلى رسول الله — ﷺ — وهو جالس فى المسجد قال له :

— ويحك مالك ؟

— قتل صاحبكم صاحبى وأفلت منه ولم أكد ، وإنى لمقتول .

واستغاث برسول الله — ﷺ — فأمنه ، فإذا أبو بصير أناخ بعير العامرى بباب المسجد ودخل متوشحا السيف ووثب على رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله وفت ذمتك وأدى الله عنك ، استلمتنى بيد القوم وقد امتنعت بدينى آن أفتن فيه ويفتن بى .

فقال له رسول الله — ﷺ :

— اذهب حيث شئت .

— يا رسول الله هذا سلب العامرى رحله وسيفه فخمسه .

— إذا خمسته رأونى لم أوف لهم بالذى عاهدتهم عليه ، ولكن شأنك بسلب صاحبك واذهب حيث شئت .

فخرج أبو بصير معه خمسة نفر كانوا قدموا مسلمين من مكة حيث قدم ولم يطلبهم أحد ، فقال رسول الله — ﷺ :

— ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال !

وسار أبو بصير والذين معه حتى نزلوا بين العيص وذى المروة من أرض جهينة على طريق عيرات قريش مما يلى سيف البحر ، وجاءت قافلة لقريش فانقضوا عليها انقضاض الأسود الكاسرة فقتلوا بعض الرجال وفر الآخرون وسلبوا ما فى القافلة . فلما بلغ الخبر قريش نزل

بهم هم ثقيل ، ولكنهم راحوا يطمئنون أنفسهم أنها غارة من غارات قطاع الطريق .

وكان أبو جندل بن سهيل بن عمرو فى مكة حزينا بعد أن رده المسلمون إلى أبيه تنفيذا لصلح الحديبية ، فلما بلغه قول الرسول عليه السلام : (ويل أمه مسعر حرب لو كان معه رجال) عزم على الخروج ليلحق بأبى بصير وليكون شوكة فى جنب المشركين ، فراح يدور على المسلمين المحبوسين فى مكة يزين لهم اللحاق بأبى بصير فاتفق معه سبعون رجلا على الخروج لإعلاء كلمة الله .

وفى جنح الليل انسل الرجال ، وما كادت الشمس تشرق فى الأفق الشرقى حتى كان سبعون راكبا يطوون الصحراء حتى إذا بلغوا مكان أبى بصير وجدوه يؤم أصحابه ويصلى بهم فصلوا خلفه ، فلما قضيت الصلاة أقبل الرجال على الرجال يتعانقون وقد انعكست أنوار القلوب على الوجوه .

وصار أبو جندل بن سهيل بن عمرو زعيم الفدائيين يؤمهم فى الصلاة ويقودهم فى الغارات على قوافل قريش ، واجتمع إليه الناس من بنى غفار وأسلم وجهينة وطوائف من الناس حتى بلغوا ثلاثمائة مقاتل وهم مسلمون . ولاحت فى الأفق البعيد عير لقريش فامتطى الرجال صهوة الخيل ثم انقضوا على القافلة انقضاض النسور ، فدارت معركة بين المسلمين والحراس قعقع فيها السلاح وسالت الدماء وسقطت الجثث على الرمال وأصوات المسلمين تدوى بالتكبير فتتزلزل قلوب الكافرين . وانجلت المعركة عن قتل أصحاب العير وسقوط القافلة غنيمة فى أيدى أبى جندل وأبى بصير والذين معهما من المجاهدين .

وخرج رجال من مكة يتنسمون أخبار القافلة ، إنها غابت عن موعد أوبتها والمخاوف من أن يكون أبو بصير قد أخذها قد استولت على القلوب . وراح سادات قريش يتحدثون نجوى ، وأخذ أبو سفيان يلوم سهيل بن عمرو لأنه أعاد ابنه عنوة يوم الحديبية و لم يتركه يذهب مع المسلمين وقد ذهب أخ له من قبل ، فلو أن أزهر بن عوف والأخنس بن شريق لم يبعثا فى طلب أبى بصير لما انفلت إلى مكة ، ولو أن سهيل بن عمرو ترك ابنه يذهب حيث شاء ما نزلت بقريش النكبات التى أنزلها بهم هؤلاء الرجال الذين قطعوا مادة قريش من طريق الشام .

وعاد الرجال الذين خرجوا من مكة للبحث عن عير قريش القادمة من الشام مطأطئى الرءوس قد عبرت قسمات وجوههم عن النبأ الفاجع ، ودقت الأفئدة فزعا فى الصدور . ولاح الهلع فى الوجوه وندت صيحات وله من بين شفاه النسوة قبل أن يفتح رجل من العائدين فمه ، فقد قرأن فى أعينهم المأساة التى حاقت بأصحاب العير .

وتقدم أبو سفيان من الرجال والدماء تتدفق فى عروقه كالنار من الغضب وقال :

— ماذا أصاب العير ؟

فراح رجل ينشد ما قال أبو جندل :

أبلغ قريشا عن أبى جندل ... أنا بذى المروة بالساحل

فى معشر تخفق راياتهم ... بالبيض فيها والقنا الذبل[1]

يأبون أن تبقى لهم رفقة ... من بعد إسلامهم الواصل

---

(١) الذبل : الدقيقة اللاصقة القشر .

أو يجعـــل الله لهم مخرجـــا والحق لا يغـلب بالباطـــل
فيسلـــم المرء بإسلامـــه أو يقتـــل المرء ولم يأتـــل[١]

وذاع النبأ فى مكة فامتلأت الدور بالنوح ، وانسل سادات قريش إلى دار الندوة ليتشاوروا فى ذلك البلاء الذى نزل بهم فهؤلاء الركب قد فتحوا على مكة بابا لا يصلح إقراره .

(٩)

هزم هرقل كسرى برويز واسترد الصليب المقدس من المدائن وأعاده إلى بيت المقدس ، ولكن ألقاب كسرى الثانى لم تهتز بل ظل الرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال صاحب الصيت الذائع الذى يصحو مع الشمس والذى يهب عينيه للنيل .

ولم يزر كسرى المظفر المدائن منذ حوالى سنة ٦٠٤ م حتى زمن غزو هرقل سنة ٦٢٧ ، وذلك لأن المنجمين والعافة نبئوه بأنها شؤم عليه ، إنما كانت إقامته المحببة إلى نفسه دستكرد التى تقع على الطريق الحربى الواسع الذى يذهب من المدائن إلى همدان .

وكان كسرى الثانى على الرغم من هزيمته يرتدى أفخر الثياب ، فملابسه قد زينت بأشرطة تتكون من ثوب ذى أكمام يتدلى إلى ما تحت الركبتين وسروال واسع وكلها مرصعة بالجواهر . وأطراف الثوب والحمالة وغمد السيف وكذلك السروال مزينة بفصوص كثيرة من

---

(١) يأتل : لم يقصر .

اللؤلؤ ، وقد زين رقبته بعقود من اللؤلؤ .

ودخل كسرى برويز قاعة العرش وجلس تحت التاج وكان معلقا بسلسلة ذهب من الإيوان ذرعها سبعون ذراعا كيما يماس رأس الملك ولا يؤذيه ولا يثقله ، وهو يزن واحدا وتسعين ونصف كيلو جرام .

وأحاط بالمظفر كبار رجال البلاط ، ونفذت إلى قاعة العرش أضواء أخاذة من خلال الخمسين ومائة كوة التى فى القبة والتى يبلغ قطر كل واحدة منها من اثنى عشر إلى خمسة عشر سنتيا .

وسمح لطالبى المثول بين يدى الرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال بالدخول . فدخل بعضهم فخروا ساجدين . فلما أذن لهم برفع رءوسهم أخذوا بمنظر صاحب الصيت الذائع الذى يصحو مع الشمس فسردوا ما جاءوا من أجله وهم يرتجفون ، حتى إذا ما غادروا الرجل الخالد أخذوا يزفرون فى ارتياح كأنما يلفظون عن صدورهم عبئا ثقيلا .

ودخل عبد الله بن حذافة السهمى على كسرى ثابت الخطو ، فيا طالما دخل عليه من قبل و لم يسجد له بل سار يتقدم حتى وصل إليه فدفع إليه كتاب رسول الله — ﷺ ، فإذا به كتاب مختوم ، فجعل يقلبه لحظات بين يديه ثم دفعه إلى ترجمانه فراح يقرأ :

— بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله . أدعوك بدعاية الله فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لأنذر من كان حيا ويحق القــول على الكافرين . أسلم تسلم فإن أبيت فعليك إثم المجوس .

وغضب صاحب الصيت الذائع الذى يصحو مع الشمس والذى يهب عينيه للنيل ، فكيف بدأ محمد بنفسه ؟ وصاح ومزق الكتاب وأمر بإخراج عبد الله بن حذافة فخرج ثابت الجنان فقعد على راحلته وسار ، حتى إذا ما وصل إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أخبره الخبر فقال عليه السلام :

— اللهم مزق ملكه .

— غضب كسرى برويز غضبا استولى على كل تفكيره ، فقرآن ذلك الرجل الذى بعث إليه كتابا يدعوه فيه إلى الإسلام قد وعد بنصر الروم : ﴿ألم . غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون * فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون * بنصر الله﴾(١) .

لقد انتصر هرقل على كسرى ولكن ينبغى ألا يفرح محمد وأتباعه بهذا النصر بل ينبغى اعتباره ثائرا على المجوسية . فبين العرب قبائل تدين بالمجوسية وإن عليه وهو رأس الدولة المجوسية أن يحمى تلك القبائل وأن يعلن الحرب على محمد والمسلمين .

لم يعترف كسرى بمحمد رئيسا على الدولة الإسلامية بل كتب إلى باذان عامله على اليمن : « إنه بلغنى أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنه نبى فسر إليه فاستتبه فإن تاب وإلا فابعث إلىّ برأسه ، يكتب إلىّ هذا الكتاب وهو عبدى ؟ ! » .

فبعث باذان بكتاب كسرى إلى النبى — ﷺ — مع قهرمانه وبعث

---

(١) الروم ١ — ٥ .

معه رجلا آخر من فارس وبعث معهما إلى رسول الله — ﷺ — يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى ، فخرجا وقدما الطائف فوجدا رجلا من قريش فى أرض الطائف فسألاه عنه فقال :

— هو بالمدينة .

فلما قدما عليه — ﷺ — المدينة قالا له :

— شاهنشاه ملك الملوك كسرى بعث إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتى بك وقد بعثنا إليك ، فإن أبيت هلكت وأهلكت قومك وخربت بلادك .

إن فارس تعلن الحرب على المسلمين فإما أن يسلم رسول الله — ﷺ — نفسه للرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال ، واما يبعث الشاهنشاه جنده ليحارب المسلمين ويستولى على المدينة .

وقال لهما رسول الله — ﷺ — فى هدوء :

— ارجعا حتى تأتيانى غدا .

عاد كسرى الثانى بعد أن هرب من دستكرد رافضا عروض الصلح التى قدمها هرقل إلى قصره فى المدائن ، ثم لم يلبث أن تركه ليعبر دجلة ويقيم مع عشيقته شيرين . وحينئذ ثار القواد الفرس وكانوا ساخطين على إصرار كسرى على مواصلة حرب لا أمل فيها .

وعرف قائده شهربراز أن كسرى قد أمر قائدا ممن يرأسهم بقتله فأخذ حذره وتحلل من عهود الإخلاص له . ومرض كسرى بالزحار[1] فنقلوه إلى المدائن ليرتب وراثة العرش وكان معه شيرين

الزحار : الصوت والنفس بأنين واستطلاق البطن بشدة وتقطيع فى البطن (الدوسنتاريا) . .

وولداه مردانشاه وشهريار ، وكانت نيته تثبيت مردانشاه على العرش .

ولما علم قباد الملقب بشيرويه وهو ابن كسرى من ماريا بما حدث عزم على الدفاع عن حقوقه . واستوثق من مساعدة القائد العام الجديد كشنسب اسباد وهو أخوه من الرضاعة وقد فاوض هذا هرقل وأبدى استعداده للصلح مع الفرس ، وانضم لشيرويه عظماء آخرون ممن كانوا حانقين على الشاهنشاه .

وأمر شيرويه ففتحت قلعة النسيان وأفرج عن عدد كبير من مسجونى الدولة فانضموا إلى الأمير ، فلما جن الليل ترك الحرس القصر حيث كان ينام كسرى وشيرين وفى الصباح الباكر سمع الناس يصيحون فرحين :

ـــ قباد شاهنشاه .. قباد شاهنشاه .

وحينئذ هرب كسرى وقد أخذه الهلع ، فاختبأ فى حديقة القصر حيث عثر عليه فأخذوه . وكان إسكافى يجلس فى حانوت على الطريق فلما بصر بفرسان من الجند معهم فارس مقنع عرف أن المقنع كسرى فحذفه بقالب فعطف إليه رجل ممن كان مع كسرى من الجند فاخترط سيفه فضرب عنق الإسكاف ثم لحق بأصحابه .

وألقى الرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال صاحب الصيت الذائع الذى يصحو مع الشمس والذى يهب عينيه للنيل فى غياهب السجن . وتردد شيرويه فى الإقدام على قتل أبيه ولكن العظماء خيروه بين أن يقتل كسرى فيكونوا حوله باخعين له بالطاعة وبين أن يخلعوه ويحطوا الطاعة لكسرى . وقد حاول الملك الجديد أن يجد الفرصة فوجه إلى أبيه الاتهامات : قتل الملك هرمزد . قسوة كبرى على أبنائه ، إساءته إلى من أودع السجون ، سوء نظره فى استخلاص النساء لنفسه

مع ترك العطف عليهن بالمودة وحبسه إياهن قبله مكرهات ، ظلمه الرعية عامة فى جباية الخراج وما انتهك منهم فى غلظته وفظاظته عليهم وجمعه الأموال التى اجتباها الناس فى عنف شديد ، تجميره من جمر فى ثغور الروم وغيرهم من الجنود وتفريقه بينهم وبين أهليهم وغدره بموريق ملك الروم وكفره بأنعامه .

وفى جوف الليل قتل كسرى الثانى الذى لقب بالمظفر والذى لقب نفسه بالرجل الخالد بين الآلهة والإله العظيم جدا بين الرجال ، صاحب الصيت الذائع الذى يصحو مع الشمس والذى يهب عينيه للنيل .

وأشرقت الشمس على المدينة وجلس رسول الله عليه السلام فى المسجد فجاء إليه رسولا باذان ، إنه عليه السلام قال لهما بالأمس : (ارجعا عنى يومكما هذا حتى تأتيانى الغد فأخبركما بما أريد) . فجاءاه الغد فقال لهما :

ــ أبلغا صاحبكما أن ربى قد قتل ربه كسرى فى هذه الليلة لسبع ساعات مضت منها ، وأن الله تعالى سلط عليه ابنه شيرويه فقتله .

فرجعا إلى باذان وقالا له :

ــ أمرنا أن نبلغك أن ربه قد قتل ربك كسرى ليلة الثلاثاء لعشر ليال مضين من جمادى الأولى (سنة سبع من الهجرة) .

قال باذان :

ــ إن كان نبيا فسيكون ما قال :

ثم جاء الخبر بأن كسرى قتل تلك الليلة فكبر المسلمون ، وقال ــ ﷺ :

ــ لتفتحن عصابة من المسلمين كنوز كسرى التى فى القصر الأبيض

وكان عمر بن الخطاب يصغى إلى رسول الله عليه السلام ولم يدر بخلده أن فتح فارس سيكون فى خلافته وكان سعد بن أبى وقاص قد ألقى إلى رسول الله عليه السلام سمعه وما خطر له على قلب أنه الأسد الذى سيقود جيوش المسلمين وأنه القائد الذى سيبعث إلى المدينة كنوز كسرى التى فى القصر الأبيض .

(١٠)

قامت مصر بدور خطير فى تاريخ المسيحية ، وقد اختارت كنيسة الإسكندرية منذ أن أصبحت الكلمة لكنيسة القسطنطينية أن تقف فى جانب كل المذاهب المعارضة لكنيسة الأباطرة ، وكانت بما ملأها من نوازع البغضاء للحكومة الإمبراطورية تناصر الفتن والأمانى المحلية .

كان مذهب الثالوث مذهبا عسيرا كما أن مذهب التجسد لا يزيده يسرا ، فلا عجب أن كان الطريق السوى فى علم البحث عن طبيعة المسيح وشخصه من الحرج بصورة تجعل علماء اللاهوت أنفسهم مهما بلغ من حسن قصدهم عرضة للانزلاق فى هذا الاتجاه أو ذاك .

وقد انتصرت النصرانية على الوثنية وهى تخوض إحدى حروبها الأهلية يوم كان أتباع آريوس يحاولون بإنكارهم الألوهية التامة للمسيح أن يؤسسوا فكرة عن الربوبية تنطوى على قدر أكبر من التوحيد . وأصدر أول مجمع مسكونى وهو مجمع نيقية قرارا باستنزال اللعنة عليهم وقد اتهموا بالزندقة .

كانت الزندقة تعرف من الناحية الرسمية بأنها نبذ أى قانون يصدر عن

المجالس العامة للكنيسة ، ذلك أن القوم كانوا يـرون أن أى مجلس مسكونى هو جمعية تنعقد برياسة الإمبراطور وتمثل فيها كل الكنائس المتجانسة التى يتم الاتصال بينها والتشاور هو الهيئة الملهمة التى تعد قراراتها ملزمة لعالم المسيحية .

ومنذ الأيام الأولى للمسيحية كان أسقف روما بوصفه الأسقف الأكبر يصدر تصريحات مذهبية ، كما أن يوستنيانوس خلق للإمبراطور مركزا مماثلا لذلك ، ولكن كان لابد من قيام مجلس مسكونى عام لضمان قبول مثل هذه التصريحات .

وقد عقدت مجالس مسكونية سبعة فأصبحت قراراتها والكتب المقدسة أساسا للعقيدة الأرثوذكسية ، وقد ظل مذهب آريوس طوال القرن الرابع بأكمله يستمتع بمحبة الدوائر الراقية بالقسطنطينية ، ولم يقض على ذلك المذهب ببلاد الشرق إلا بعد انعقاد المجمع المسكونى الثانى فى عام ٣٨١ ، وكان نصر الأرثوذكسية هو نفسه نصر الإسكندرية برئاسة أثاناسيوس . وظلت الإسكندرية طوال القرن الخامس وهى تحاول أن تتابع نصرها بإرغام عالم المسيحية على الأخذ باللون الخاص الذى اتخذته للاهوتها .

وقد سنحت فرصتها المواتية عندما ذهب نسطوريوس بطريرك القسطنطينية إلى تقسيم طبيعة المسيح إلى شقين هما اللاهوتى والناسوتى ، وكانت تلك حركة بغضت إلى قلوب الناس لأنها تؤدى بصورة منطقية إلى مهاجمة مريم العذراء نصيرة القسطنطينية وراعيتها المحبوبة التى كانت مهددة عندئذ بالحرمان من لقبها أم الرب ، فاتحدت ضده الإسكندرية مع روما وشعب القسطنطينية ، وتناست الإسكندرية مؤقتا غيرتها بسبب

البطريركية الجديدة ، فالقسطنطينية التى أعطيت الرياسة عليها فى المجلس المسكونى الثانى ، وأصدر المجمع المسكونى الثالث المنعقد فى أفيسوس قراره بأن نسطوريوس الأنطاكى بطريرك القسطنطينية قد زل فوقع فى الزندقة حيث فرق بين الرب وبين الإنسان فى شخص المسيح ، وقد كان لقوة شخصية كيرلس بطريرك الإسكندرية أثرها البالغ فى صدور هذا القرار .

ولم يقف خصوم المذهب النسطورى عند هذا الحد ، فقد أذاع قسيس مغمور يقال له أوطيخا (يوتيخوس) مبدأ يقرر وحدة طبيعة المسيح اعترفت به الإسكندرية . ورغبة فى البت فى المسألة جمع الإمبراطور مرقيانوس المجمع المسكونى الرابع فى خلقيدونية فى عام ٤٥١ م وكان مرقيانوس شغوفا من الناحية السياسية أن يكون على علاقة طيبة مع روما وكان البابا ليو يعارض تلك الحركة بشدة ، وعندئذ أدين مذهب وحدة طبيعة المسيح وكان ذلك نتيجة لضغط الإمبراطور وعد المذهب زندقة من الزندقات .

وكان مجلس خلقيدونية نقطة تحول فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية بمصر وسورية ، فنظرية وحدة طبيعة المسيح تناسب المزاج الشرقى فما لبثت أن انتشرت فى كل الكنائس المؤمنة بمذهب وحدة الطبيعة ، وقد جمعت بينها معارضتها لمجمع خلقيدونية ، وصارت تلك الزندقة نقطة التجمع لأهالى الولايات الذين فى صدورهم غل من السلطة المركزية للإمبراطورية فكانت وسيلة التعبير عن النزعات القومية والانفصالية .

وحملت الإسكندرية علم الثورة على قرارات مجمع خلقيدونية ، فبطريقها ديوسقوروس أخذ يغوص وراء نظرية أوطيخا عن المسيح . ولم

توافق روما على ذلك واتسعت هوة الخلاف بين روما والقسطنطينية من جهة أخرى .

وكانت المسائل اللاهوتية المختلف عليها فى الخصومات المتعلقة بوحدة طبيعة المسيح صغيرة فهى تدور حول الفرق بين طبيعة واحدة وطبيعتين لا يمكن الفصل بينهما ، ولكن النتائج السياسية كانت هائلة ذلك أن مذهب وحدة طبيعة المسيح ظل مشكلة فرضت نفسها على تاريخ الإمبراطورية زهاء قرنين من الزمان . وفى المجمع المسكونى الخامس المنعقد بالقسطنطينية فى عام ٥٥٣ م اعترف يوستنيانوس بإخفاقه فى نشر ميثاق يوفق بين الطرفين المتنازعين .

وفى عام ٥٧٠ م ولد رسول الله ـــ ﷺ ، ومرت الأيام وبعثه الله رسولا للبشرية جميعا يدعوهم إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، وهاجر عليه السلام بدينه إلى المدينة وكان صلح الحديبية وكان أن بعث عليه السلام رسولا إلى هرقل إمبراطور الروم يدعوه إلى الإسلام ، ولم يؤمن هرقل بالدين الجديد ولكنه تأثر به فراح يحاول أن يوفق المذاهب المتناحرة على هدى الإسلام ، فأعلن ميثاق التوفيق المسمى بوحدة إرادة المسيح ، ثم راح يتأهب لحرب الصور والتماثيل فى الكنائس .

كان المصريون على خلاف مع الرومان فى المذهب الدينى وكانوا يئنون من وطأة الضرائب . وكانوا يتلفتون يبحثون عن الخلاص وما كانوا يدرون من أين تهب عليهم ريح النجاة ، فلما انتصر هرقل على الفرس استشعر المصريون أسى فقد حسبوا أن قبضةالنسر ستظل قابضة على أعناقهم ، فلما بلغهم بعد أن نهضة قد قامت فى قلب جزيرة العرب ، وحتى إن كانت قد وصلت إليهم أنباؤها فما كان ليخطر لهم على

قلب أن العرب المتنافرين سيكون لهم دولة تستطيع أن تقضى على الإمبراطوريتين العظيمتين المتنافستين على سيادة العالم .

* * *

كان رسول الله — ﷺ — فى مسجده بالمدينة ومن حوله أصحابه قد عاهدوا قريشا على السلم ، وما كان ذلك السلم ليجعل رسول الله عليه السلام يركن إلى الدعة والهدوء ، فالله قد أمره أن يبلغ رسالته فبعث عليه السلام رسله إلى ملوك الأرض وحكامها ، إنه أرسل إلى قيصر يدعوه إلى الإسلام . وأرسل إلى كسرى كتابا مزقه الملك المغرور فكتب الله على نفسه أن يمزق ملكه وأراد أن يبعث بكتاب إلى مصر فقال :

— أيها الناس أيكم ينطلق بكتابى هذا إلى صاحب مصر وأجره على الله .

فوثب إليه حاطب بن أبى بلتعة وقال :

— أنا يا رسول الله .

— بارك الله فيك يا حاطب .

فأخذ حاطب الكتاب وودع رسول الله — ﷺ — وسار إلى منزله ، وشد على راحلته وودع أهله ، وسار إلى مصر فهو يعرف الطريق وقد خرج إليها للتجارة أكثر من مرة ، ولكنه كان يستشعر طوال الرحلة أنه خرج فى تجارة لن تبور ، تجارة تنجيه من عذاب أليم .

كان على مصر جريج بن ميناء وقد لقب بالمقوقس ، والمقوقس لغةً المطول للبناء ، وكان مصريا صميما ولكنه كان يحكم مصر من قبل هرقل يجمع له الضرائب ثم يحملها إلى القسطنطينية ، وكان يحيا حياة الأباطرة الرومان . وكانت الإسكندرية مقر حكمه ليكون على مقربة

من عاصمة الإمبراطورية الرومانية .

وذهب حاطب إلى منف ولم يسر فيها وهو مبهور بمبانيها الضخمة وأبوابها الفخمة فقد زارها كثيرا من قبل . وانطلق إلى قصر الحاكم فلم يجده فذهب إلى الإسكندرية فأخبر أنه فى مجلس مشرف على البحر ، فركب حاطب سفينة وحاذى مجلسه وأشار بالكتاب إليه ، فلما رآه أمر بإحضاره بين يديه ، فلما جىء به نظر إلى الكتاب وفضه وقرأه :

— (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد بن عبد الله إلى المقوقس عظيم القبط . سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام . أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإنما عليك إثم القبط . ويأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) .

والتفت إلى حاطب وقال له :

— ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه من قومه وأخرجوه من بلده إلى غيرها ؟

وصمت حاطب تأدبا فأعاد المقوقس قوله لما رأى من الموجودين استحسانا :

— ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه من قومه وأخرجوه من بلده إلى غيرها أن يسلط عليهم ؟

فقال له حاطب :

— ألست تشهد أن عيسى بن مريم رسول الله ؟ فما له حيث أخذه قومه فأرادوا أن يقتلوه ألا يكون دعا عليهم أن يهلكهم الله تعالى حتى

رفعه الله إليه ؟

ونظر إليه المقوقس فى إعجاب ، إنه قابل كثيرا من العرب قبل أن يبعث فيهم محمد بن عبد الله ، كانوا فصحاء ولكنهم ما كانوا يدرون ما الكتاب ولا الإيمان بل كانوا عبدة أوثان ، فقال :

ــ أحسنت ، أنت حكيم جاء من عند حكيم .

ــ إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، فانتقم به ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ولا يعتبر غيرك به .

وراح المقوقس ومن عنده يرمقون حاطب فى دهشتهم ، إنهم فهموا أنه يقصد فرعون موسى ، ولكن من أين لذلك العربى مثل هذا العلم ؟

واستمر حاطب يقول :

ــ إن هذا النبى دعا الناس فكان أشدهم عليه قريش وأعداهم له يهود وأقربهم النصارى ، ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى عليهما الصلاة والسلام إلا كبشارة عيسى بمحمد ــ ﷺ ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الإنجيل ، وكل نبى أدرك قوما فهم أمته فالحق عليهم أن يطيعوه ، فأنت ممن أدرك هذا النبى ولسنا ننهاك عن دين المسيح عليه السلام ولكنا نأمرك به .

فقال المقوقس :

ــ إنى قد نظرت فى أمر هذا النبى فرأيته لا يأمر بمزهود فيه ولا ينهى عن مرغوب عنه ، ولم أجده بالساحر الضال ولا الكاهن الكذاب ، ووجدت معه آلة النبوة بإخراج الخبء « أى الشىء الغائب المستور » والإخبار بالنجوى ، وسأنظر .

أكرم هرقل وفادة دحية الكلبى رسول النبى العربى فلم يجد المقوقس

غضاضة فى أن يكرم حاطب فدفع له مائة دينار وخمسة أثواب وأنزله فى ضيافته ، فلما حان الرحيل دعا المقوقس كاتبا له يكتب بالعربية فكتب إلى النبى : « بسم الله الرحمن الرحيم . لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط . سلام عليك . أما بعد : فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه وقد علمت أن نبيا قد بقى وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام . وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان فى القبط عظيم وبثياب ، وأهديت لك بغلة لتركبها والسلام عليك » .

ما أقام حاطب عند المقوقس إلا خمسة أيام خرج بعدها من قصره وفى رفقته مارية القبطية وأختها سيرين وطبيب وبغلة بيضاء وهدايا المقوقس ، وما انفصل الركب وانساب فى الحقول حتى وقعت الأعين على جباة الضرائب الرومان يظلمون الفلاحين وينزلون بهم ألوان العذاب فلاح الأسى فى الوجوه وارتفعت الرءوس تنظر إلى السماء كأنما يسألون رب الكون الخلاص وما دروا أن الخلاص قريب وأن حاطب بن بلتعة رسول محمد بن عبد الله عليه السلام إلى عظيم القبط هو طلائع ذلك الخلاص .

وراح حاطب يفكر فيما قال له المقوقس وهو يودعه : « القبط لا تطاوعنى على اتباعه وأنا أضن بملكى أن أفارقه » . أيضحى إنسان بالحقيقة التى أشرقت لعين ذاته فى سبيل ملك زائل ؟ ! أيستمر يخبط فى الظلمات وهو يعرف طريق النور ؟ أيضحى بآخرته فى سبيل دنياه ؟

واستمر حاطب والذين معه يطوون الأرض فى حراسة جند مصر إلى أن دخل جزيرة العرب ، ووجد قافلة من الشام تريد المدينة فرد الجيش وارتفق بالقافلة حتى دخل على رسول الله عليه السلام وذكر له قول المقوقس : « القبط لا تطاوعنى على اتباعه ولا أحب أن تعلم بمحاورتى

إياك وأنا أضن بملكي أن أفارقه ، فارجع إلى صاحبك وارحل من عندى ولا تسمع منك القبط حرفا واحدا » . فقال عليه السلام :

— ضن الخبيث بملكه ولا بقاء لملكه .

وقال عليه السلام للطبيب :

— ارجع إلى أهلك ! نحن قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع .

وأخذ عليه السلام مارية وعشرين ثوبا من قباطى مصر وهدايا العسل والبغلة البيضاء وسماها دلدل ، وما كان العرب يعرفون البغال من قبل وما كان فيهم بغلة غيرها ، وأهدى سيرين لحسان بن ثابت . وأعادت مارية ذكريات هاجر المصرية[1] أم العرب فقال — ﷺ — لأصحابه :

— إنكم ستفتحون مصر فاستوصوا بأهلها خيرا فإن لهم ذمة ورحما .

(١١)

كان اليهود فى خيبر يطوون أفئدتهم على البغضاء لمحمد رسول الله عليه السلام ، وكانوا يتحينون الفرص ليطعنوا الإسلام طعنة فى الصميم . فلما عاد المسلمون بعد صلح الحديبية إلى المدينة دون أن تسمح لهم قريش بدخول مكة والطواف حول البيت ظن اليهود أن نبى الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه — لم يقبل شروط الصلح المجحفة بالمسلمين إلا

(١) كانت زوجا لسيدنا إبراهيم عليه السلام .

لو هن دب فى كيان ملكه ، فأرادو أن يستغلوا ذلك الضعف فبعثوا إلى غطفان ليؤلبوهم على حرب رسول الله — ﷺ .

وجاء الخبر إلى الرسول عليه السلام أن خيبر تتأهب لقتاله فلم ينتظر حتى يفجأه اليهود وحلفاؤهم بهجومهم ، فاستنفر — ﷺ — من حوله ممن شهد الحديبية يغزون معه ، وجاءه المخلفون عنه فى غزوة الحديبية ليخرجوا معه رجاء الغنيمة فقال :

— لا تخرجوا معى إلا راغبين فى الجهاد فأما الغنيمة فلا .

ثم أمر مناديا ينادى بذلك فنادى به ، وشق خروج المسلمين إلى خيبر على من بقى بالمدينة من اليهود ، وخرج رسول الله — ﷺ — فى المحرم افتتاح سنة سبع بعد أن أقام شهرا وبعض شهر من مرجعه من الحديبية واستخلف على المدينة سباع بن عرفطة الغفارى ، وخرج معه من نسائه أم سلمة ، وقال — ﷺ — فى سيره لعامر بن الأكوع عم سلمة بن الأكوع :

— انزل فحرك بنا الركب .

فقال معتذرا :

— يا رسول الله قد تولى قولى .

لم يعد عامر يقول شعرا ، فقال له عمر :

— اسمع وأطع .

فنزل يرتجز بقوله :

والله لـولا الله مـا اهتدينـا   ولا تصدقنـا ولا صلينـا

إنـا إذا قـوم بغـوا علينـا   وإن أرادوا فتنـة أبينـا

فأنزلـن سكينـة علينـا   وثبت الأقـدام إن لاقينـا

فقال له رسول الله — ﷺ :

— يرحمك ربك .

وما خص بها رسول الله — ﷺ — أحدا قط إلا استشهد ، فقال عمر :

— وجبت والله يا رسول الله ، لو متعتنا بعامر .

ولما خرج رسول الله — ﷺ — من المدينة سلك على عصر (جبل) فبنى له فيه مسجدا ، ثم على الصهباء ، ثم أقبل بجيشه حتى نزل بواد يقال له الرجيع فنزل بين خيبر وبين غطفان ليحول بينهم وبين أن يمدوا أهل خيبر وكانوا لهم مظاهرين على رسول الله — ﷺ ، فلما سمعت غطفان بمنزل رسول الله — ﷺ — من خيبر جمعوا ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه ، حتى إذا ساروا مرحلة من مراحل السفر سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم حسا وظنوا أن القوم قد خالفوا إليهم فرجعوا على أعقابهم فأقاموا فى أهليهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله — ﷺ — وبين خيبر .

كان المسلمون ألفا وستمائة مقاتل مجهزين تجهيزا حسنا منهم مائتا فارس ، وكان لكل مقاتل راحلته السريعة ، وقد خرج مع الجيش نساء المقاتلين ليعتنين بالجرحى وكان هذا يحدث لأول مرة فى تاريخ الحروب فقد كانت النساء يصاحبن الجيوش فى الغزوات للترفيه أو لتحريض الرجال على القتال .

وحمل الجيش الراية السوداء العظيمة المعروفة بالعقاب (النسر الأسود) وكانت من برد لعائشة ، ولما أشرف عليه السلام على خيبر قال لأصحابه :

— قفوا .

ثم قال :

— اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن ، ورب الرياح وما أذرين ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ، أقدموا باسم الله .

وأشرف الناس على واد فرفعوا أصواتهم بالتكبير :

— الله أكبر ، لا إله إلا الله .

فقال — ﷺ :

— أربعوا على أنفسكم (ارفقوا بأنفسكم) لا تبالغوا فى رفع أصواتكم فإنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنكم تدعون سميعا قريبا وهو معكم .

ولما نزل بساحتهم لم يتحركوا تلك الليلة ، وكان رسول الله — ﷺ — إذا غزا قوما لم يغر عليهم حتى يصبح ، فإن سمع أذانا أمسك وإذا لم يسمع أذانا أغار ، فنزلوا خيبر ليلا فبات رسول الله ﷺ — حتى إذا أصبح لم يسمع أذانا ، فركب وركب المسلمون معه ، فركب أنس بن مالك خلف أبى طلحة وإن قدمه لتمس قدم رسول الله — ﷺ ، وأصبح يهود وأفئدتهم تخفق وفتحوا حصونهم وغدوا إلى أعمالهم معهم المساحى والفئوس والمكاتل ، فلما نظروا إلى رسول الله — ﷺ — قالوا :

— محمد والخميس(١) .

فولوا هاربين إلى حصونهم وجعل رسول الله ﷺ — يقول :

(١) سمى الجيش خميسا لأنه خمسة أقسام : المقدمة والساقة والميمنة والميسرة والقلب .

ـــ الله أكبر ، خربت خيبر . إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين .

ووعظ رسول الله ـــ ﷺ ـــ الناس وفرق فيهم الرايات وارتفعت أصواتهم :

ـــ يا منصور أمت . يا منصور أمت .

كان يهود فى حصونهم يرتجفون ، إنهم عشرة آلاف مقاتل وكان عبد الله ابن أبىّ بن سلول كبير المنافقين أرسل إليهم يخبرهم بأن محمدا سائر إليهم فخذوا حذركم وأدخلوا أموالكم حصونكم واخرجوا إلى قتاله ولا تخافوا منه . إن عددكم كثير وقوم محمد شرذمة[1] قليلون عزل لا سلاح معهم إلا قليل .

فكانوا يخرجون ويصطفون صفوفا ثم يقولون مستهزئين :

ـــ محمد يغزونا ؟ هيهات هيهات .

كانوا واثقين من أنهم سيسيرون إلى محمد عليه السلام ليحاربوه فى المدينة ولكنهم أصبحوا فوجدوا محمدا عليه السلام وجيشه يتقدمون صوب الحصون .

كانت حصون خيبر حصونا ذوات عدد منها النطاة وحصن الصعب ابن معاذ وحصن ناعم وحصن قلعة الزبير ـــ هذه الحصون النطاة ، والشق وبه حصون منها حصن أبىّ وحصن النزار ، وحصون الكتيبة ومنها القموص والوطيح وسُلالم .

ونزل رسول الله ـــ ﷺ ـــ قريبا من حصون النطاة فجاءه الحباب

---

(١) شرذمة : جماعة قليلة العدد .

ابن المنذر فقال :

ـــ يا رسول الله إنك نزلت منزلك هذا فإن كان عن أمر أمرت به فلا تتكلم ، وإن كان الرأى تكلمنا .

ـــ هو الرأى .

ـــ يا رسول الله إن أهل النطاة لى بهم معرفة ، ليس قوم أبعد مرمى سهم منهم ، ولا أعدل رمية منهم ، وهم مرتفعون علينا وهو أسرع لانحطاط نبلهم ، ولا نأمن من بياتهم يدخلون فى حمرة النخل (النخل المجتمع بعضه على بعض) ، تحول يا رسول الله .

ـــ أشرت بالرأى ، إذا أمسينا إن شاء الله تحولنا .

ودعا رسول الله ـــ ﷺ ـــ محمد بن مسلمة فقال :

ـــ انظر لنا منزلا بعيدا .

فطاف محمد بن مسلمة وقال :

ـــ يا رسول الله وجدت لك منزلا .

ـــ على بركة الله .

وتحول عليه السلام لما أمسى إلى الصخرة ، وأمر الناس بالتحول فتحولوا إليها ، واتخذوا ذلك الموقع معسكرا ، وابتنى رسول الله ـــ ﷺ ـــ هناك مسجدا يصلى به طول مقامه بخيبر .

وراح يهود يرمون المسلمين بالسهام وبالنبال من حصون النطاة ، فأمر ـــ ﷺ ـــ بقطع نخيل أهل الحصون فوقع المسلمون فى قطعها حتى قطعوا أربعمائة نخلة ثم نهاهم عن القطع ، وهجم المسلمون على حصن ناعم وراحوا يرمون بالسهام ويهود تقاتل ورسول الله ـــ ﷺ ـــ على فرس يقال له الظرب وعليه درعان ومغفر وبيضة وفى يده

قناة وترس ، وقد دفع — ﷺ — لواءه إلى عمر بن الخطاب ونهض من نهض معه من الناس فلقوا أهل خيبر ، فانكشف عمر وأصحابه فرجعوا إلى رسول الله — ﷺ — يجبنه أصحابه ويجبنهم ، وكان رسول الله قد أخذته الشقيقة[1] فلم يخرج إلى الناس فأخذ أبو بكر راية رسول الله — ﷺ ، ثم نهض فقاتل قتالا شديدا ، ثم رجع فأخذها عمر بن الخطاب فقاتل قتالا شديدا أشد من القتال الأول ، ثم رجع وهجم الأنصار على الحصون ، كان الحر شديدا وكان محمود بن مسلمة يحارب بلا هوادة حتى أعياه الحرب وثقل السلاح فانحاز إلى ظل حصن ناعم ، فرفع مرحب وكنانة بن الربيع حجر الرحى بينهما وألقياه عليه فهشم البيضة على رأسه ونزلت جلدة جبينه على وجهه وندرت عينه ، فأدركه المسلمون فأتوا به النبى فسوى الجلدة إلى مكانها وعصبه بخرقة فمات من شدة الجراحة .

وجاء أخوه محمد بن مسلمة إلى رسول الله — ﷺ — فقال فى غيظ :

— إن اليهود قتلوا أخى محمود بن مسلمة .

كان محمد بن مسلمة يريد أن يثأر لأخيه وأن يندفع إلى حصون اليهود يثخن فيهم القتل ، فقال — ﷺ — :

— لا تمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية ، فإنكم لا تدرون ما تبتلون به منهم ، فإذا لقيتموهم فقولوا : اللهم أنت ربنا وربهم ونواصينا ونواصيهم بيدك وإنما تقتلهم أنت ، ثم الزموا الأرض جلوسا فإذا غشوكم

---

(١) الشقيقة : نوع من صداع يعرض فى مقدم الرأس وإلى أحد جانبيه .

فانهضوا وكبروا .

وخرجت كتائب اليهود يتقدمهم ياسر ، فكشف الأنصار حتى انتهى إلى رسول الله — ﷺ — فى موقعه ، فاشتد ذلك على رسول الله عليه السلام وأمسى مهموما .

(١٢)

القتال رهيب وأهل حصون النطاة يخرجون للقتال ثم يعودون إلى الحصون يرمون المسلمين بالحجارة والسهام ، ورسول الله — ﷺ — يذهب كل يوم بمحمد بن مسلمة للقتال ويخلف على محل العسكر عثمان ابن عفان ، فإذا أمسى ورجع إلى ذلك المحل ومن جرح من المسلمين يحمل إلى ذلك المحل ليداوى جرحه .

وكان — ﷺ — يناوب بين أصحابه فى حراسة الليل ، فلما كانت الليلة السادسة استعمل عليه السلام عمر بن الخطاب فطاف عمر بأصحابه حول العسكر وفرقهم ، فأوتى برجل من يهود خيبر فى جوف الليل فأمر به عمر أن يضرب عنقه فقال :

— اذهب بى إلى نبيكم حتى أكلمه .

فأمسك عنه وانتهى به إلى النبى — ﷺ — فوجده يصلى ، فسمع — صلوات الله وسلامه عليه — كلام عمر فسلم وأدخله عليه ، فدخل باليهودى فقال رسول الله — ﷺ — لليهودى :

— ما وراءك ؟

— تؤمننى يا أبا القاسم ؟

— نعم .

— خرجت من حصن النطاة من عند قوم يتسللون من الحصن فى هذه الليلة .

— فأين يذهبون ؟

— إلى الشق يجعلون فيه ذراريهم ويتهيئون للقتال ، وفى هذا الحصن الذى هو الحصن الصعب من حصون النطاة فى بيت فيه تحت الأرض منجنيق ودبابات ودروع وسيوف فإذا دخلت الحصن غدا وأنت تدخله .

قال رسول الله عليه السلام :

— إن شاء الله .

قال اليهودى :

— إن شاء الله أوقفتك عليه فإنه لا يعرفه غيرى ، وأخرى .

— ما هى ؟

— يستخرج المنجنيق[1] وينصب على الشق ويدخل الرجال تحت الدبابات فيحفروا الحصن فتفتحه من يومك وكذلك تفعل بحصون الكتيبة .

وراح اليهودى يتلفت بعينين زائغتين ثم قال :

— يا أبا القاسم احقن دمى .

— أنت آمن .

— ولى زوجة فهبها لى .

---

(١) المنجنيق : آلة حربية ترمى بالحجارة وتهدم الحصون .

ـــ هى لك .

ثم دعاه إلى الإسلام فقال :

ـــ أنظرنى أياما .

ثم قال عليه السلام لمحمد بن مسلمة :

ـــ لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ، لا يولى الدبر يفتح الله على يديه فيمكنه من قاتل أخيك .

وعند ذلك لم يكن من الصحابة أحد له منزلة عند النبى ـــ ﷺ ـــ إلا يرجو أن يعطاها . وتمنى عمر بن الخطاب أن يكون ذلك الرجل فما أحب الإمارة إلا ذلك اليوم ، وبات الناس يذكرون ليلتهم أيهم يعطاها ، فلما أصبحوا غدوا على رسول الله ـــ ﷺ ـــ كلهم يرجو أن يعطاها ، فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ أين على بن أبى طالب ؟

ـــ هو يا رسول الله يشتكى عينيه .

ـــ من يأتينى به ؟

فذهب سلمة بن الأكوع فدعاه ، فجاء على بعير له حتى أناخ قريبا من رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو أرمد قد عصب عينيه بشقة برد قطرى ، فراح سلمة يقوده إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال له رسول الله عليه السلام :

ـــ ما لك ؟

ـــ رمدت .

ـــ ادن منى .

فوضع رأسه فى حجره عليه السلام وفتح له عينيه فدلكهما فبرأ حتى

كأن لم يكن بهما وجع ، وألبسه عليه السلام درعه وشد سيفه ذا الفقار في وسطه وأعطاه الراية وقال له :

— امش ولا تلتفت .

فسار شيئا ثم وقف و لم يلتفت ، فصرخ :

— يا رسول الله علام أقاتل الناس ؟

— قاتلهم حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله تعالى : وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فوالله لأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير من أن يكون لك حمر النعم .

فانطلق عليّ بالراية وعليه حلة أرجوان حمراء يهرول حتى ركزها تحت الحصن ، فاطلع عليه يهودى من رأس الحصن فقال :

— من أنت ؟

— على بن أبى طالب .

وخرج إليه أهل الحصن وكان أول من خرج الحارث أخو مرحب ، وكان معروفا بالشجاعة ، والتقى الجمعان ودار القتال ومشى الرجال إلى الرجال فانكشف المسلمون وثبت على كرم الله وجهه ، وهجم على الحارث فتضاربا فقتله ، فلما رأى المسلمون ثبات على كروا على أعدائهم الذين زلزل مقتل الحارث قلوبهم فانهزم اليهود إلى الحصن وأصوات المسلمين تهز خيبر :

— يا منصور أمت .. يا منصور أمت .

وخرج مرحب صاحب لحصن وعليه مغفر معصفر وحجر قد ثقبه مثل البيضة على رأسه وهو يرتجز :

قد علمت خيبر أنى مرحب   شاكى السلاح بطل مجرَّب

أطعن أحيانا وحينـا أضرب إذا الحروب أقبلت تلـهّب
كأن حماى كالحمى لا يُقرب

فبرز له على بن أبى طالب فقال :

أنا الذى سمتنى أمى حيـدرة كليث غابات شديد قسورة(١)
أكيلكم بالسيف كيل السندرة(٢)

وحمل مرحب عليه وضربه ضربة اتقاها بترسه ، ثم بدره علىّ كرم الله وجهه فضربه فقد الحجر والمغفر وفلق رأسه حتى أخذ السيف فى الأضراس .

وأراد عامر بن الأكوع أن يضرب بسيفه ساق يهودى فرجع إليه سيفه وجاءت ذبابته فى ركبته فسقط يتلوى من الألم ، فحمله المسلمون إلى معسكر رسول الله ـ ﷺ .

ثم خرج بعد مرحب أخوه ياسر وهو يرتجز :

قد علمت خيبر أنى يـاسر شاكى السلاح بطل مغاور
إذا الليـوث أقبـلت تبـادر إن حماى فيه موت حـاضر

وقال :

ــ هل من مبارز ؟

فخرج له الزبير بن العوام وأمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ـ ﷺ ـ تنظر وقد استولى عليها خوف شديد فهى تعلم أن ياسر

---

(١) قسورة : اسم من أسماء الأسد .

(٢) السندرة : مكيال كبير .

من فرسان اليهود وشجعانهم ، ولم تستطع أن ترقب المبارزة بأعين مفتوحة وعصف بها الخوف فقالت :

— يا رسول الله إنه يقتل ابنى .

— بل ابنك يقتله إن شاء الله .

وراح الزبير يرتجز :

قد علمت خيبر أنى زبّار
قرم[1] لقرم غيرنكس[2] فرار
أين حماة المجد أين الأخيار
ياسر ، لا يغررك جمع الكفار
فجمعهم مثل السراب الختار[3]

و راح الزبير وياسر يتبادلان الضربات ثم ضرب الزبير اليهودى ضربة قاتلة فتركه كأمس الدابر ، فارتفعت أصوات المسلمين بالتكبير ورفت على شفتى صفية بسمة اطمئنان وإن اغرورقت عيناها بالدموع ، وقال رسول الله عليه السلام :

— فداك عم وخال ، لكل نبى حوارى وحواريى الزبير .

وجاء يسار وكان عبدا حبشيا إلى رسول الله — ﷺ — وكان أجيرا لرجل من اليهود كان يرعى غنمه وقال :

— إن أسلمت فماذا لى ؟

— الجنة .

---

(١) القرم هنا : السيد .
(٢) النكس : الضعيف الجبان .
(٣) الختار : الخداع .

فأسلم ، فلما أسلم قال :

ـ يا رسول الله إنى كنت أجيرا لصاحب هذه الغنم فكيف أصنع بها ؟ إنها أمانة وهى للناس الشاة والشاتان وأكثر من ذلك .

كان رسول الله عليه السلام يحارب اليهود وكانت الغنم لليهود فلم يأمر بمصادرتها بل أمر برد الأمانة إلى أصحابها ، فقال له عليه السلام :

ـ اضرب فى وجهها فإنها سترجع إلى ربها .

فقام يسار فأخذ حفنة من حصباء فرمى بها فى وجهها وقال :

ـ ارجعى إلى صاحبك فوالله لا أصحبك .

فخرجت مجتمعة كأن سائقا يسوقها حتى دخلت الحصن ، ثم تقدم يسار إلى الحصن منشرح الصدر قد غمرته سعادة لأنه هدى إلى الصراط وراح يقاتل مع المسلمين فأصابه حجر فقتله و لم يسجد لله سجدة ، فأتى به إلى رسول الله ـ ﷺ ـ ومعه نفر من أصحابه فقال ـ ﷺ :

ـ لقد كرم الله هذا العبد وساقه إلى خير ، وقد كان الإسلام من نفسه حقا .

وراح عامر بن سلمة يتلوى من الألم وعمر بن الخطاب يرنو إليه وهو على ثقة من أنه يجود بأنفاسه ، فعامر كان يرتجز لرسول الله عليه السلام فقال له : يرحمك ربك . فقال له عمر : وجبت يا رسول الله لولا أمتعتنا به . لأنه ـ ﷺ ـ ما قال ذلك لأحد فى مثل هذا الموطن إلا استشهد .

ومات عامر بن سلمة وخاض الناس فى موته فمن قائل : قتله سلاحه ، ومن قائل : قتل نفسه فليس بشهيد . فانطلق سلمة بن الأكوع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وقال وقد تملكه إشفاق أن لا يكون

أخوه شهيدا :

— يزعم أسيد بن حضير وجماعته من أصحابك أن عامرا أحبط عمله إذ قتل بسيفه .

فقال ﷺ :

— إنه لشهيد .

وصلى عليه — ﷺ — والمسلمون .

(١٣)

دار القتال رهيبا عند حصن ناعم ، على بن أبي طالب يتقدم ويضرب بسيفه لا يلتفت خلفه ، وأصوات المسلمين تدوى فى آذان يهود كأنها صواعق منذرة بالموت .

— يا منصور أمت أمت .

وبلغ علىّ كرم الله وجهه باب الحصن فاجتذبه وحمله على ظهره فراح المسلمون يصعدون عليه يبارزون يهود الذين كانوا بأعلى الحصن . ولاحت هزيمة يهود فانسل نفر منهم إلى حصن صعب ليتحصنوا به ، وقتل من قتل وأسر من أسر وتم فتح أول حصن من حصون اليهود فأخذ المسلمون يكبرون وقد غمرهم السرور .

وأصاب المسلمين مجاعة ، وأرسلت أسلم إلى رسول الله — ﷺ — أسماء بن حارثة وأمرته أن يقول له — ﷺ — إن أسلم يقرئونك السلام ويقولون أجهدنا الجوع . فلامهم رجل وقال :

— من بين العرب تصنعون هذا ؟

فقال أخو أسماء بن حارثة :

ــ والله إنى لأرجو أن يكون البعث إلى رسول الله ــ ﷺ ــ مفتاح الخير .

فجاءه ــ ﷺ ــ أسماء وبلغه ما قالت أسلم ، فقال :

ــ اللهم إنك قد عرفت حالهم وأن ليس بهم قوة وأن ليس بيدى شىء أعطيهم إياه .

ولم يجد المسلمون غير الحمر الإنسية فذبحوها ووضعوها فى القدور على النار . وبينا القدور تفور بها جاء داعى رسول الله ــ ﷺ ــ ينهى المسلمين عن أكل لحوم الحمر الأهلية فكفوا القدور على وجوهها .

وقام فيهم رسول الله ــ ﷺ ــ فقال :

ــ لا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسقى ماؤه زرع غيره « يعنى إيتاء الحبالى من السبايا » ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يصيب امرأة من السبى حتى يستبرئها[١] ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيع مغنما حتى يقسم ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يركب دابة من فىء المسلمين حتى إذا أعجفها[٢] ردها فيه ، ولا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يلبس ثوبا من فىء المسلمين حتى إذا أخلقه رده فيه .

وأشرقت الشمس وعند رسول الله ــ ﷺ ــ وفد أسلم فدعا لهم :

ــ اللهم افتح أكثر الحصون طعاما وودكا[٣] .

---

(١) يستبرؤها : يتأكد من براءة رحمها من الحمل ، وذلك بالحيض .

(٢) أعجفها : هزلها وأضعفها .

(٣) الودك : الدسم .

ودفع اللواء للحباب بن المنذر وندب الناس فخرج مع الحباب صناديد المهاجرين والأنصار وانطلقوا إلى حصن الصعب وهم يكبرون ، وخرج من الحصن رجل يقال له يوشع مبارزا فخرج له الحباب بن المنذر وقد كشر عن أنيابه وقال :

— يا منصور أمت أمت .

وتبادلا ضربتين فبدره الحباب قائد جيش المسلمين بضربة أردته قتيلا فكبر المسلمون ، وقرع التكبير آذان يهود فى الحصن فزاغت أعينهم وانبهرت أنفاسهم ونزل بهم هم ثقيل واستولى عليهم يأس مرير ، فقد أطلت من سيوف المسلمين ريب المنون .

وخرج آخر مبارزا يقال له الديال فبرز له عمارة بن عقبة الغفارى فمشى كل منهما إلى صاحبه مشى الوعول ؛ اليهودى فى الدروع على رأسه خوذة تتألق فى الشمس وفى يده رمح ذو ثلاث شعب كان فى فخامة جالوت لما حارب الصبى داود عليه السلام[1] ، وكان عمارة فى يده ترس وفى الأخرى سيف يمنى ، وضرب الدبال عمارة ضربة اتقاها بالترس وفى مثل لمح البصر هوى بسيفه على هامة اليهودى فقتله وقال له :

— خذها وأنا الغلام الغفارى .

فقال الناس فى أسى :

— حبط جهاده .

لم يكبّر عمارة وهو يضرب اليهودى ولم يهتف بشعار المسلمين بل دعا بدعوة الجاهلية فساء ذلك الناس . وحملت اليهود حملة منكرة

---

(١) القصة فى سورة البقرة الآية ٢٤٦ — ٢٥١ .

فانكشف المسلمون حتى انتهوا إلى رسول الله — ﷺ — وهو واقف قد نزل عن فرسه ، فثبت الحباب بن المنذر ، فحرض رسول الله عليه السلام المسلمين على الجهاد فأقبلوا وزحف بهم الحباب فراح الرجال الصناديد يلعبون بالسيوف يضربون الهامات ويطعنون فى القلوب . فاختلطت صرخات الفزع بأنات الألم بصوت ارتطام الأجساد بالأرض بأصوات التكبير بالهتاف بشعار المسلمين ، وسالت الدماء فى اليهود المنهزمين .

وزلزل اليهود زلزالا شديدا وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وراحوا يولون الأدبار لا يلوون على شيء حتى دخلوا الحصن وأغلقوه عليهم . ولم يقف الحصن فى وجه الليوث الذين أمدهم إيمانهم بالنصر المبين بقوة جعلتهم يتسلقون الحصن دون أن يفت فى عزيمتهم الحجارة التى تلقى عليهم والسهام التى تصوب إلى صدورهم .

وتمكن نفر من المسلمين من أن يتسلقوا الحصن وأن يثبتوا أقدامهم فوقه فدارت معركة رهيبة بين الفاتحين وبين الذين يدافعون عن أعناقهم وأعراضهم وأموالهم ، وتمكن فريق من المسلمين من أن يصلوا إلى باب الحصن ففتحوه فتدفق المسلمون كالسيل الجارف لتدور معركة فاصلة بينهم وبين الخمسمائة مقاتل الذين كانوا فى حصن الصعب ، ولما أصبحت الدائرة على اليهود انسل فريق منهم إلى حصن قلة وهو بقلة جبل ليستأنفوا القتال إذا ما تحول المسلمون للهجوم على ذلك الحصن .

وأخذ المسلمون يقتلون ويأسرون حتى وقع الحصن فى أيديهم فوجدوا فى ذلك الحصن من الشعير والتمر والسمن والعسل والسكر والزيت والودك شيئا كثيرا ، وراح الرجال يحملون ما تصل إليه أيديهم

فنادى رسول الله — ﷺ :

— كلوا واعلفوا ولا تحملوا .

كان نفر من المحاربين يريدون أن يخرجوا بما غنموا إلى بلادهم فنهى رسول الله — ﷺ — عن ذلك وأباح الأكل والعلف فى المعسكر ، وقد أصاب عبد الله بن مغفل من فىء خيبر جراب شحم فاحتمله على عنقه يريد رحله فلقيه صاحب المغانم الذى جعل عليها فأخذ بناصيته وقال :

— هلم بهذا حتى نقسمه بين المسلمين .

— والله لا أعطيكه .

فجعل أبو اليسر كعب بن عمرو بن زيد الأنصارى صاحب المغانم يجاذبه الجراب ، فرآهما رسول الله — ﷺ — وهما يصنعان ذلك فتبسم ضاحكا ثم قال لصاحب المغانم :

— لا أبا لك ، خل بينه وبينه .

فأرسله فانطلق به عبد الله بن مغفل إلى رحله وأصحابه فأكلوا .

وراح اليهودى الذى أمنه رسول الله — ﷺ — ووهب له زوجه يقود المسلمين فى سراديب تحت أرض الحصن حتى وصلوا إلى بيت تكدست فيه منجنيق ودبابات ودروع وسيوف ، فأخذوا يحملونها إلى حيث كان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه .

وذكر الناس ما كان من عمارة بن عقبة الغفارى لما ضرب الدبال وقال له : خذها وأنا الغلام الغفارى وقول الناس حبط جهاده ، فقال — ﷺ :

— يؤجر ويحمد .

وراح المسلمون يحاصرون حصن قلة وهو آخر حصون النطاة ،

فراح اليهود يسددون إليهم السهام ويلقون عليهم الحجارة دون أن يخرجوا للمبارزة من حصنهم . وانقضى اليوم الأول من الحصار وما نال المسلمون من الحصن شيئا .

واستمر الحصار واليهود يرقبون ما يجرى أمام الحصن على نيران المسلمين حتى إذا ما صلوا الصبح وأشرقت الشمس وارتفعت أصوات المسلمين بشعارهم :

ــ يا منصور أمت أمت .

وشدت الأقواس وأطلقت السهام فسقطت أجساد من فوق الحصن تهوى كالشهاب . ولكن اليوم الثانى مر دون أن ينال المسلمون من الحصن شيئا فهو على قمة جبل يسيطر على كل الطرق التى تقود إليه .

وجاء اليوم الثالث وحاول المسلمون أن يزحفوا صاعدين إلى الحصن ولكن اليهود أمطروهم بوابل من السهام فعجزوا عن التقدم ، ورأوا أن يحاصروا الحصن حتى ينال الجوع والعطش من المحاصرين فينزلوا على حكم المسلمين .

وجاء الليل فانسل يهودى تحت جنح الظلام إلى معسكر المسلمين وكان محمد بن مسلمة يحرسه ، فالتمس اليهودى مقابلة رسول الله ــ ﷺ ــ فقاده ابن مسلمة إلى حيث كان عليه السلام فقال :

ــ يا أبا القاسم تؤمننى على أن أدلك على ما تستريح به ؟ فإنك لو مكثت شهرا لا تقدر على فتح هذا الحصن فإن به دُبولا[1] تحت الأرض يخرجون ليلا فيشربون منها ، فإن قطعت عنهم شربهم أهلكتهم .

---

(١) الدبول : جمع دَبْل : النهر الصغير .

وسار عليه السلام إلى دبولهم فقطعها فلم يجد اليهود مفرا من أن يخرجوا من الحصن ليقاتلوا دفاعا عن حياتهم التى أصبحت مهددة بالبوار من العطش ، فدارت معركة رهيبة بين أهل الكتاب الأول الذين تنكروا لكتابهم وبين الذين يريدون أن يحقوا الحق وأن تكون كلمة الله هى العليا . وزهقت أرواح نفر من اليهود وسقط من المسلمين شهداء وحمل المسلمون على اليهود حملة رجل واحد وأصواتهم تفعل فى أعدائهم ما تفعله السيوف البتارة ، فما أن يدوى بين السماء والأرض شعار المسلمين « يا منصور أمت أمت » حتى تتخلخل مفاصل أعدائهم ويكادوا أن يموتوا رعبا قبل أن تصل إلى أفئدتهم السهام أو تقطف رءوسهم السيوف .

ورأت النسوة من الحصون هزيمة الرجال فأخذن فى الولولة والعويل ورحن يحرضنهم على القتال ولكن أصواتهن ذهبت أدراج الرياح. فقد كان المقاتلون اليهود ذاهلين عن كل شيء إلا الحرص على النجاة بجلودهم .

ودخل اليهود الحصن والمسلمون فى أثرهم ، ودارت معركة داخل الحصن وأصوات الهلع تغطى على قعقعة السلاح . وجَرَى النسوة فى رعب فى أرجاء الحصن يفوق سرعة كر الرجال وفرهم .

وخفتت أصوات السيوف وارتفع الصراخ فقد كان المسلمون يأسرون الرجال والنساء والولدان ويحملون الغنائم إلى معسكر المسلمين .

ولاح فى الأفق البعيد ركب قادم من المدينة فاتجهت إليه الأنظار حتى إذا ما دنا من العسكر عرف الناس القادمين ، إنهم سبعون بيتا من دوس

على رأسهم الطفيل بن عمرو الدوسى وفيهم أبو هريرة . كان الطفيل قد أسلم قبل أن يهاجر رسول الله عليه السلام وعاد إلى قومه فأجابه أبو هريرة وحده وأبطأ عليه قومه ، فعاد إلى رسول الله — ﷺ — وأخبره بإبطاء قومه وقال له :

— ادع عليهم .

فقال — ﷺ — :

— اللهم اهد دوسا وائت بها .

ثم قال له :

— اخرج إلى قومك فادعهم وارفق بهم .

فخرج إلى قومه فلم يزل بأرض دوس يدعوها حتى هاجر رسول الله — ﷺ — إلى المدينة ومضت غزوة بدر وأُحُد والخَنْدق ، ثم قدم على رسول الله — ﷺ — بمن أسلم من قومه حتى نزل المدينة ، فصلى أبو هريرة الصبح خلف سباع بن عرفطة فقرأ فى السجدة الأولى بسورة مريم وفى الآخرة ويل للمطففين .

فقال أبو هريرة فى نفسه :

— ويل لأبى !

وتذكر أبو هريرة رجال الأزد فقلّ رجل كان بأرض الأزد إلا وكان له مكيالان : مكيال لنفسه وآخر يبخس به الناس .

ونزل الطفيل بن عمرو والذين معه فى معسكر المسلمين ينتظرون النهار ليدخلوا على رسول الله عليه السلام ، فضل غلام لأبى هريرة فجعل ينشد :

يا ليلة من طولها وعنائها ... على أنها من دارة الكفر نجت

وأذن بلال بالفجر فنهض كل من فى المعسكر وصلوا خلف رسول الله عليه السلام ، فلما قضيت الصلاة دخل سادات الأزد على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فقال الطفيل بن عمرو :

— يا رسول الله اجعلنا ميمنتك واجعل شعارنا مبرور .

وطلع غلام أبى هريرة الذى كان ضل فى الليلة الماضية فقال له عليه السلام :

— هذا غلامك يا أبا هريرة ؟

فقال أبو هريرة وهو متفرح فى الله :

— هو حر لوجه الله .

(١٤)

فتح رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — حصون النطاة الثلاثة وخرج حصن قلة فى سهم الزبير بن العوام فعرف بقلة الزبير ، وسار المسلمون إلى حصار حصون الشق وقد صار الأزد ميمنة جيش المسلمين وصار شعارهم مبرور . وبدأ المسلمون بحصن أبىّ فقاتل أهله قتالا شديدا ، وخرج رجل منهم يقال له غزوال يدعو إلى البراز فبرز له الحباب وحمل عليه فقطع يده اليمنى ونصف ذراعه فبادر راجعا منهزما إلى الحصن ، فتبعه الحباب فقطع عرقوبه فوقع فذفف عليه ، فخرج آخر مبارزا فخرج له رجل من المسلمين فقتل اليهودى المسلم فارتفعت صيحات الفرح من فوق الحصن .

فقام اليهودى مكانه للبراز وقد انتفخت أوداجه[١] غرورا فخرج له أبو دجانة وعصب رأسه بعصابة حمراء . فاستبشر المسلمون ، فما خرج أبو دجانة يتبختر وقد عصب رأسه بعصابته إلا أذاق خصمه المنون .

وضرب أبو دجانة اليهودى فقطع رجله ثم ذَفف[٢] عليه فتركه جثة هامدة فنزل الرعب فى قلوب اليهود فأحجموا عن البراز ، فكبر المسلمون وتحاملوا على الحصن ودخلوه يتقدمهم أبو دجانة فوجدوا فيه أثاثا ومتاعا وغنما وطعاما . وهرب من كان فيه ولحق بحصن يقال له حصن البرىء وهو الحصن الثانى من حصنى الشق فتمنعوا به أشد التمنع وكان أهله أشد رميا للمسلمين بالنبل والحجارة حتى أصاب النبل ثياب رسول الله — ﷺ — وعلقت به .

وثارت الدماء فى عروق المسلمين فحملوا على الحصن حملة رجل واحد ، ونصبوا المنجنيق الذى وجدوه فى حصن الصعب وجعلوا يصوبون القذائف إلى الحصن حتى أوجدوا به ثقبا فراحوا يتدفقون منه ويقاتلون المدافعين .

وسقط حصن أبىّ فوجدوا فيه فيما وجدوا آنية من نحاس وفخار كانت اليهود تأكل فيها وتشرب ، فقال عليه السلام :

— سخنوا فيها الماء ثم اطبخوا بعد وكلوا واشربوا .

وانهزم من سلم من يهود تلك الحصون إلى حصون الكثيبة وهى ثلاثة حصون : القموص والوطيح وسلالم ، فراح المسلمون يحاصرون

---

(١) الأوداج : جمع مفرده ودَج وهو عرق يظهر فى صفحتى العنق .

(٢) ذفف عليه : أجهز عليه .

القموص عشرين ليلة وكان منيعا ، إنه حصن أبي الحقيق وفيه صفية بنت حيي بن أخطب وكرائم نساء اليهود .

وقاد على بن أبي طالب هجوم المسلمين فانطلق لا يلوى على شيء لا يهاب النبل الذى تساقط على المسلمين كالمطر ، فلما رأى اليهود تقدمه أوجسوا منه خيفة وراحوا يرمونه بالحجارة وهو كالليث يعدو إلى الحصن لا يلتفت خلفه . واندفع الرجال فى أثره وشعار الناس يا منصور أمت أمت ، وشعار ميمنته من الأزد مبرور .

وتداعى الحصن تحت هجمات على كرم الله وجهه وصناديد المسلمين . وسُبيت صفية بنت حيي وبنت عم لها وجاء بلال بهما فمر على قتلى يهود ، فلما رأتهم بنت عم صفية صاحت وصكت وجهها وحثت التراب على رأسها ، فلما رآها — ﷺ — قال :

— اغربوا عنى هذه الشيطانة .

والتفت إلى بلال وقال :

— أنزعت منك الرحمة يا بلال حتى تمر بامرأتين على قتلى رجالهما ؟

وذهب بلال بهما إلى حيث جمع السبى فجاء دحية الكلبى فقال :

— يا نبى الله أعطنى جارية من السبى .

— اذهب فخذ جارية .

فأخذ صفية بنت حيي ، فجاء رجل إلى النبى — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله أعطيت دحية صفية سيدة قريظة والنضير ، لا تصلح إلا لك .

— ادعوه بها .

فجاء بها : فلما نظر إليها النبى — ﷺ — قال :

— خذ جارية من السبى غيرها .

وذهب دحية إلى حيث جمع السبى وأخذ جارية أخرى هى أخت كنانة بن الربيع بن أبى الحقيق زوج صفية .

وحاصر المسلمون حصن الوطيح وحصن السلالم ومكثـوا على حصارهما أربعة عشر يوما فلم يخرج أحد منهما ، فهم — ﷺ — أن يجعل على من فيها المنجنيق ، فلما أيقنوا بالهلكة سألوا رسول الله — ﷺ — الصلح فى حقن دماء المقاتلة وترك الذرية لهم ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم وأن لا يصحب واحد منهم إلا ثوبا واحدا على ظهره ، فصالحهم على أن ذمة الله ورسوله بريئة منهم أن يكتموه شيئا من متاعهم يسألهم عنه .

ووجد فى الحصنين مائة درع وأربعمائة سيف وألف رمح وخمسمائة فرس عربية ، ووجدوا فى أثناء الغنيمة صحائف متعددة من التوراة فجاءت يهود تطلبها فأمر — ﷺ — بدفعها إليهم ، وغيبوا الجلد الذى كان فيه حلى بنى النضير وعقود الدر والجوهر الذين جلوا به ، فإنهم لما جلوا كان سلام بن أبى الحقيق رافعا له ليراه الناس وهو يقول بأعلى صوته : « هذا أعددناه لرفع الأرض وخفضها » فقال رسول الله — ﷺ — لكنانة بن الربيع بن أبى الحقيق :

— أين مسك (جلد) حيى بن أخطب ؟

إن رسول الله يسأل عن كنز حيى عظيم بنى النضير فجحد أن يكون يعلم مكانه وقال :

— نفد فى النفقة والحروب .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— كان أكثر من ذلك .

ثم جاء رجل من يهود إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إنى رأيت كنانة يطيف بهذه الخربة كل غداة .

فقال رسول الله — ﷺ — لكنانة :

— أرأيت إن وجدناه عندك أقتلك ؟

— نعم .

فأمر رسول الله — ﷺ — بالخربة فحفرت فأخرج منها بعض كنزهم ، ثم سأله عما بقى فأبى أن يؤديه ، فأمر رسول الله — ﷺ — الزبير بن العوام به فقال :

— عذبه حتى نستأصل ما عنده .

فراح الزبير يقدح بزند فى صدره حتى أشرف على نفسه ، وجىء بكنز بنى النضير فإذا به أساور ودمالج وخلاخيل وأقرطة وخواتم الذهب وعقود الجوهر والزمرد وعقود أظفار مجزع بالذهب ، إنها الحلى التى كان أعيان مكة يستعيرونها من بنى النضير إذا كان لأحدهم عرس .

ودفع رسول الله — ﷺ — بكنانة لمحمد بن مسلمة فضرب عنقه بأخيه محمود ، وقال — ﷺ — لأصحابه :

— يقدم عليكم قوم هم أرق منكم قلوبا .

وراح المسلمون يتطلعون صوب المدينة فإذا ركب يشتد على الطريق ، إنه جعفر بن أبى طالب ومعه الأشعريون أبو موسى الأشعرى وأخوه أبو رهم وأبو بردة وسبعون رجلا عليهم ثياب الصوف ، منهم اثنان وستون من الحبشة وثمانية روميون من أهل الشام . وراح المسلمون القادمون من الحبشة يقولون فى شوق :

— غدا نلقى الأحبة ، محمدا وحزبه .

وأقبل عليه — ﷺ — جعفر فقام عليه السلام إلى جعفر وقبله بين عينيه وقال :

— جعفر أشد الناس بى خَلقا وخُلقا .

فانتشى جعفر بهذا القول ورقص من نشوة الخطاب ، وراح — ﷺ — يخدم وفد النجاشى بنفسه فقال له أصحابه :

— نحن نكفيك يا رسول الله .

— إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين وإنى أحب أن أكافئهم .

واستمر رسول الله عليه السلام يخدم وفد النجاشى بنفسه وينظر إلى جعفر بن أبى طالب فى غدوه ورواحه وهو مسرور ثم قال :

— لا أدرى بأيهما أنا أسر ، بفتح خيبر أم بقدوم جعفر .

(١٥)

أمر رسول الله — ﷺ — بالغنائم فجمعت واستعمل عليها فروة بن عمرو البياضى ، وأمر بذلك فجزىء خمسة أجزاء وكتب فى سهم منها لله وسائر السُّهمان أغفال ، فكان أول ما خرج سهم النبى — ﷺ ، وأمر ببيع الأربعة الأخماس فيمن يزيد فباعها فروة وقسم ذلك بين أصحابه .

وكان الذى ولى إحصاء الناس زيد بن ثابت فأحصاهم ألفا وأربعمائة رجل ، والخيل مائتى فرس ، فكانت السُّهمان على ثمانية عشر سهما لكل مائة سهم ، وكان الخمس الذى صار إلى رسول الله — ﷺ —

يعطى منه على ما أراه الله .

وكانت المقاسم على أموال خيبر على الشق ونطاة والكتيبة فكانت الكتيبة خمس الله وسهم النبى — صلى الله عليه وسلم — وذوى القربى واليتامى والمساكين ، وطُعم أزواج النبى — صلى الله عليه وسلم — وطُعم رجال مشوا بين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبين أهل فدك بالصلح . فإنه لما أقبل رسول الله — صلى الله عليه وسلم — على خيبر ودنا منها بعث محيصة بن مسعود إلى أهل فدك يدعوهم إلى الإسلام ويخوفهم فجاءهم محيصة فجعلوا يتربصون ويقولون :

— إن بخيبر عشرة آلاف مقاتل فيهم عامر وياسر والحارث وسيد اليهود مرحب ، ما نرى أن محمدا يقرب إليه .

فمكث محيصة عندهم يومين ثم أراد الرجوع فقالوا :

— نحن نرسل معك رجالا منا يأخذون لنا الصلح .

كانوا يظنون أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — لا يقدر على فتح خيبر حتى جاءهم أناس من حصن ناعم وأخبروهم أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فتحه ، فأرسلوا رجلا من رؤسائهم يقال له نون بن يوشع فى نفر يصالحون رسول الله — صلى الله عليه وسلم — أن يحقن دماءهم ويجليهم ويخلوا بينه وبين الأموال ، فكانت فدك لرسول الله — صلى الله عليه وسلم — لأنها لم تؤخذ بمقاتلة فكان عليه السلام ينفق منها ويعود منها على صغير بنى هاشم ويزوج منها أيمهم .

وأعطى عليه السلام من أموال خيبر محيِّصة بن مسعود أعطاه ثلاثين وسقا[1] من شعير وثلاثين وسقا من تمر . وكانت الشق والنطاة فى

---

(١) الوسق : ستون صاعا أو حمل بعير .

سُهمان المسلمين . وقسمت خيبر على أهل الحديبية من شهد منهم ومن غاب و لم يغب عنها إلا جابر بن عبد الله فقسم له رسول الله — ﷺ — كسهم من حضرها .

وقسم رسول الله — ﷺ — من الكتيبة — وهو وادى خاص — لفاطمة ابنته مائتى وسق . ولعلى بن أبى طالب مائة وسق ، ولأسامة بن زيد مائتى وسق وخمسين وسقا نوى ، ولعائشة أم المؤمنين مائتى وسق ، ولأبى بكر الصديق مائة وسق ، ولعقيل بن أبى طالب مائة وسق وأربعين وسقا ، ولبنى جعفر خمسين وسقا ، واستمر عليه السلام يقسم السهمان فقد جاء الله بالفرج .

وكانت غطفان قد أرادت وسيدهم عيينة بن حصن أن يعينوا أهل خيبر وكانوا أربعة آلاف ، فإن يهود خيبر لما سمعوا بمجيئه — ﷺ — إليهم أرسلوا كنانة بن أبى الحقيق وهودة بن قيس فى أربعة عشر رجلا إلى غطفان ليستمدوا بهم وشرطوا لهم نصف ثمار خيبر إن غلبوا المسلمين ، فجمعوا ثم خرجوا ليظاهروا يهود خيبر فلما ساروا قليلا سمعوا صوتا :

— أيها الناس أهليكم خولفتم إليهم .

فألقى الله الرعب فى قلوبهم فرجعوا على الصعب والذلول فأقاموا فى أهلهم وأموالهم وخلوا بين رسول الله — ﷺ — وبين أهل خيبر :

وقدمت غطفان عليه — ﷺ — خيبر ، قال عيينة بن حصن لرسول الله عليه السلام وقد وجده فتح حصونها :

— أعطنى مما غنمت من حلفائى فإنى امتنعت عنك وعن قتالك .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— كذبت ولكن الصياح الذى سمعت أنفذك إلى أهلك ، ولكن لك

ذو الرقيبة .

قال عيينة فى دهش :

— وما ذو الرقيبة ؟

— الجبل الذى رأيت فى منامك أنك أخذته .

لما سمع عيينة بن حصن الخليع المطاع الذى تتبعه ألف امرأة الصوت ورجع إلى أهله و لم يجد شيئا رجع بعد ذلك بمن معه إلى خيبر ، فلما كانوا بالقرب منها نزلوا ليقضوا ليلتهم فنام عيينة وانتبه وقال لقومه :

— أبشروا فإنى رأيت الليلة فى النوم أنى أعطيت ذا الرقيبة (وهو جبل بخيبر) لقد والله أخذت برقبة محمد .

وقدم حجاج بن علاط السلمى وأسلم ، وكان الحجاج مكثرا من المال فقال :

— يا رسول الله إن مالى عند امرأتى بمكة ومتفرق فى تجارة مكة ، فأذن لى أن آتى مكة لآخذ مالى قبل أن يعلموا بإسلامى فلا أقدر على أخذ شىء منه .

فأذن له رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله لابد أن أقول .

كان الحجاج يلتمس من رسول الله عليه السلام أن يتقول وأن يذكر خلاف الواقع وأن يقول ما يحتال به لما يوصله إلى أخذ ماله ، فقال له ﷺ :

— قل .

وجعل رسول الله — ﷺ — صفية عند أم سليم التى هى أم أنس خادمه لتصلح من شأنها حتى تطهر من الحيض فلما اطمأن رسول

الله — ﷺ — أهدت له زينب بنت الحارث امرأة سلاّم بن مشكم شاة مشوية وقد سألت :

— أى عضو من الشاة أحب إلى رسول الله — ﷺ ؟

فقيل لها :

— الذراع .

فأكثرت فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ثم جاءت بها ، فلما وضعتها بين يدى رسول الله — ﷺ — تناول الذراع فلاك منها مضغة فلم يسغها ، ومعه بشر بن البراء بن معرور قد أخذ منها كما أخذ رسول الله — ﷺ . فأما بشر فأساغها وأما رسول الله — ﷺ — فلفظها ثم قال :

— إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم .

ثم دعا بها فاعترفت فقال :

— ما حملك على ذلك ؟

— بلغت من قومى ما لم يخف عليك ، فقلت إن كان ملكا استرحت منه وإن كان نبيا فسيُخبر .

فتجاوز عنها رسول الله ﷺ ، ومات بشر من أكلته التى أكل .

وركب الناس وانطلقوا وكل خالجة فيهم تشكر الله على ما آتاهم من نصر ، ولما قطع عليه السلام ستة أميال من خيبر وأراد أن يعرس بصفية فأبت فوجد[١] النبى — ﷺ — فى نفسه ، فلما سار ووصل الصهباء مال إلى دومة هناك ودخل على صفية وما من الناس أحد أكره إليها منه ،

---

(١) وجد : حزن .

قتل أباها وزوجها وقومها ، فقال — ﷺ — :

— أما إنى أعتذر إليك مما صنعت بقومك ، إنهم صنعوا كذا وكذا .

وما زال يعتذر إليها حتى ذهب ذلك الكره من نفسها ، وخيرها عليه السلام بين أن يعتقها فترجع إلى من بقى من أهلها أو تسلم فيتخذها لنفسه فقالت :

— أختار الله ورسوله .

ورأى عليه السلام بأعلى عينها خضرة فقال :

— ما هذه الخضرة ؟

— كان رأسى فى حجر ابن أبى الحقيق وأنا عروس وأنا نائمة ، فرأيت كأن القمر وقع فى حجرى فأخبرته بذلك فلطمنى فقال :

— والله ، ما تتمنين إلا ملك العرب .

وأعرس بها رسول الله — ﷺ — بعد أن طهرت من الحيض فى قبة ، فما قامت من مقعدها ومن الناس أحد أحب إليها منه — ﷺ — .

وبات تلك الليلة أبو أيوب الأنصارى متوشحا سيفه يحرسه ويطوف بتلك القبة حتى أصبح رسول الله — ﷺ — فرأى مكان أبى أيوب فقال :

— مالك يا أبا أيوب ؟

— يا رسول الله خفت عليك من هذه المرأة قتلت أباها وزوجها وقومها وهى حديثة عهد بكفر ، فبت أحفظك .

— اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظنى .

فأصبح النبى — ﷺ — عروسا فقال :

— كل من عنده شىء فليجىء به .

وبسط نَطعا فجعل الرجل يجيء بالتمر وجعل الرجل يجيء بالسمن وجعل الرجل يجيء بالأقط[١] والسويق[٢] وخلط السمن والتمر والأقط والسويق وصنع الحيس ، وقال عليه السلام لأنس بن مالك :

ــ آذن من حولك .

وأو لم عليه السلام على صفية ، فلما انتهى الناس من الوليمة قالوا :

ــ إن لم يحجبها فهى أم ولد وإن حجبها فهى امرأته .

وأقام عليه السلام بذلك المحل ثلاثة أيام ، وحان أوان الرحيل فوضع ــ ﷺ ــ ركبته لتركب صفية عليها فأبت أن تضع قدمها على ركبته ووضعت فخذها على ركبته وركبت على عجز ناقته ، فجاء الليل فجعلت تنعس فتضرب رأسها مؤخرة الرحل فيمسها بيده ويقول :

ــ يا هذه مهلا .

ووجدت منه رقة وكياسة ولطفا فقالت :

ــ ما رأيت أحدا قط أحسن خلقا من رسول الله ــ ﷺ .

وحجبها عليه السلام فأصبحت صفية بنت حيى بن أخطب أم المؤمنين .

---

(١) الأقط : يتخذ من اللبن المخيض يطبخ ثم يترك .

(٢) السويق : طعام يصنع من الحنطة والشعير .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

(١٦)

بلغ قريش أن رسول الله ـ ﷺ ـ سار إلى خيبر فأظهر جماعة منهم السرور وقالوا إنها قرية الحجاز ريفا ومنعة ورجالا ، وأن محمد بن عبد الله سيذوق الهزيمة عند حصون خيبر ، وقال حويطب بن عبد العزى إن رسول الله يغلب أهل خيبر ، ووقع بين الفريقين مراهنة على مائة بعير ، وخرجوا يتحسسون الأخبار ويسألون الركبان . فلما رأوا الحجاج قالوا :

ـ الحجاج بن علاط عنده والله الخبر .

وخفوا إليه وقالوا :

ـ أخبرنا يا حجاج فإنه بلغنا أن القاطع قد سار إلى خيبر وهى بلد يهود وريف الحجاز .

ـ قد بلغنى ذلك وعندى من الخبر ما يسركم .

فعدوا إلى ناقته وطافوا بها يقولون :

ـ إيه يا حجاج !

ـ هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط وأسر محمد أسرا وقالوا : لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه بين أظهرهم ممن أصاب من رجالهم .

فقاموا وصاحوا بمكة وقالوا :

ـ لقد جاءكم الخبر وهذا محمد إنما تنتظرون أن يقدم به عليكم فيقتل

بين أظهركم .

وقال حجاج :

— أعينونى على جمع مالى بمكة على غرمائى فإنى أريد أن أقدم خيبر فأصيب من فلّ(١) محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى ما هنالك .

فقاموا فجمعوا له ماله كأحث جمع سمع به ، وجاء صاحبته فقال :

— مالى لعلّى ألحق بخيبر فأصيب من فرص البيع قبل أن يسبقنى التجار .

وأظهر المشركون الفرح والسرور وانكسر من كان بمكة من المسلمين ، وسمع بذلك العباس بن عبد المطلب فجعل لا يستطيع أن يقوم ، ثم بعث إلى حجاج غلاما وقال :

— قل له يقول لك العباس الله أعلى وأجل من أن يكون الذى جئت به حقا .

فقال له الحجاج :

— اقرأ على أبى الفضل السلام وقل له ليخل لى بعض بيوته لآتيه بالخبر على ما يسره واكتم عنى .

فأقبل الغلام فقال :

— أبشر أبا الفضل .

فوثب العباس فرحا كأن لم يمسه شيء وأخبره بذلك ، فأعتقه العباس وقال :

---

(١) الفل : الجمع .

ـــ لله عليّ عتق عشر رقاب .

ولم يستطع العباس صبرا فخرج إلى حيث كان حجاج حتى وقف إلى جنبه وهو فى خيمة من خيام التجار فقال :

ـــ يا حجاج ، ما هذا الخبر الذى جئت به ؟

ـــ وهل عندك حفظ لما وضعت عندك ؟

ـــ نعم .

ـــ فاستأخر عنى حتى أفرغ .

فلما فرغ حجاج من جمع كل شيء كان له بمكة وأجمع الخروج لقى العباس فقال :

ـــ احفظ عليّ حديثى يا أبا الفضل فإنى أخشى الطلب ثلاثا ثم قل ما شئت .

ـــ أفعل .

ـــ إنى قد أسلمت وإن لى مالا عند امرأتى ودينا على الناس ، ولو علموا بإسلامى لم يدفعوه إلى . إنى تركت رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد فتح خيبر وجرت سهام الله وسهام رسوله فيها وتركته عروسا بابنة ملكهم حيى بن أخطب وقتل ابن أبى الحقيق .

فلما أمسى حجاج خرج وطالت على العباس تلك الليالى الثلاث ، فلما مضت الثلاث عمد العباس إلى حلة فلبسها وتخلق بخلوق وأخذ بيده قضيبا ثم أقبل يخطر حتى أتى مجالس قريش وهم يقولون إذا مر بهم :

ـــ لا يصيبك إلا خير يا أبا الفضل . هذا والله التجلد بحر المصيبة .

فقال العباس فى هدوء ليخفى شماتته :

ـــ كلا والله الذى حلفتم به لم يصبنى إلا خير بحمد الله ، أخبرنى

حجاج أن خيبر فتحها الله على يد رسول الله — ﷺ — وجرت فيها سهام الله وسهام رسول الله ، واصطفى رسول الله صفية بنت ملكهم حيى بن أخطب لنفسه وأنه تركه عروسا بها . وإنما قال ذلك لكم ليخلص ماله وإلا فهو ممن أسلم .

فرد الله الكآبة التى كانت بالمسلمين على المشركين ، فقال المشركون :

— انفلت عدو الله ، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن .

ولم يلبثوا أن جاءهم الخبر بذلك وأن رسول الله لما فرغ من خيبر انصرف إلى وادى القرى فنزل به مع غروب الشمس ومعه غلام له يقال له مدعم أهداه إليه رفاعة بن زيد الجذامى ، فبينا هو يضع رحل رسول الله — ﷺ — أتاه سهم غرب فقتله فقال الناس :

— هنيئا له الجنة .

فقال رسول الله — ﷺ :

— كلا والذى نفس محمد بيده ، إن شَملته لتحترق عليه فى النار .

كان غلها من فىء المسلمين يوم خيبر ، فسمعها رجل من أصحاب رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله أصبت شراكين لنعلين لى .

— يقد لك مثلهما من النار .

كانت يهود وادى القرى قد ثوى إليها ناس من العرب ، فلما نزل المسلمون استقبلوهم بالرمى حيث نزلوا ، ولم يكن المسلمون على تعبئة وهم يصيحون من آطامهم ، فعبأ رسول الله — ﷺ — أصحابه وصفهم للقتال ودفع لواءه إلى سعد بن عبادة وراية إلى الحباب بن المنذر

وراية إلى سهل بن حنيف وراية إلى عباد بن بشر ، ثم دعاهم إلى الإسلام وأخبرهم أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم وحسابهم على الله ، فبرز رجل منهم فبرز إليه الزبير بن العوام فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه على بن أبى طالب فقتله ، ثم برز آخر فبرز إليه أبو دجانة الأنصارى فقتله ، حتى قتل منهم إثنا عشر رجلا كلما قتل رجل منهم دعى من بقى إلى الإسلام .

ولقد كانت الصلاة تحضر فيصلى عليه السلام بأصحابه ثم يعود فيدعو أهل وادى القرى إلى الله ورسوله ، فقاتلهم — ﷺ — حتى أمسى ، وغدا عليهم فلم ترتفع الشمس قيد رمح حتى أعطوا بأيديهم وفتحها عنوة وغنم أموالهم وأصابوا أثاثا ومتاعا كثيرا ، فأقام رسول الله — ﷺ — بوادى القرى أربعة أيام وقسم ما أصاب على أصحابه وترك الأرض والنخل بأيدى اليهود وعاملهم عليها . فلما بلغ يهود تيماء ما كان من أمرَ خيبر وفدك ووادى القرى صالحوا رسول الله — ﷺ — على الجزية .

وشرد سلمان الفارسى يفكر ، إنه يرى نفسه وقد انتهت رحلة البحث عن الحقيقة إلى عمورية ببلاد الروم ، إنه سمع هناك أنه قد أظل زمان نبى يبعث بدين إبراهيم حنيفا يهاجر إلى أرض ذات نخل بين حرتين ، ومر به ركب ذات يوم فسألهم عن بلادهم فعلم أنهم من جزيرة العرب مبعث ذلك النبى الأمى ، فأعطاهم بقراته وغنمه على أن يحملوه معهم إلى أرضهم . واصطحبوه معهم حتى قدموا به هذا الوادى وادى القرى ، وتذكر سلمان كيف ظلموه وُباعوه إلى رجل من يهود فإذا بالدموع تطفر إلى عينى الباحث عن الحقيقة وراح يقلب عينيه فى

النخيل ، إنه طمع فى ذلك اليوم أن تكون هى البلدة التى وصفت له والتى ستكون مهاجر النبى المنتظر .

وانثالت الذكريات على رأس سلمان فإذا به يرى ذلك اليهودى الذى قدم يوما من بنى قريظة إلى وادى القرى فابتاعه من مولاه ، واختلطت مشاهد بيعه بمشاهد خروج بنى قريظة من حصونهم بمشاهد عمله فى نخل بنى قريظة بتلك اللحظات التى لا تنسى لحظات أول مرة سمع فيها بمقدم رسول الله ـــ ﷺ ـــ إلى المدينة .

وتزاحمت فى رأسه ذكريات إسلامه وذكريات أيامه مع رسول الله عليه السلام ، ثم شرد إلى الأفق البعيد وهو يحمد الله على أن هداه إلى الصراط المستقيم وأن سكب فى قلبه أنوار اليقين .

وانصرف رسول الله ـــ ﷺ ـــ راجعا إلى المدينة ، فلما كان ببعض الطريق قال من آخر الليل :

ـــ من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام ؟

فقال بلال :

ـــ أنا يا رسول الله .

فنزل رسول الله ـــ ﷺ ـــ ونزل الناس فناموا وقام بلال يصلى ، فصلى ما شاء الله أن يصلى ثم استند إلى بعيره واستقبل الفجر يرمقه(١) فغلبته عينه فنام فلم يوقظهم إلا مس الشمس ، وكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ أول أصحابه استيقاظا فقال :

ـــ ماذا صنعت بنا يا بلال ؟

---

(١) يرمقه : ينظر إليه .

— يا رسول الله أخذ بنفسي الذى أخذ بنفسك .

— صدقت .

ثم اقتاد رسول الله — ﷺ — بعيره غير كثير ثم أناخ فتوضأ وتوضأ الناس ، ثم أمر بلالا فأقام الصلاة فصلى رسول الله — ﷺ — بالناس ، فلما سلم أقبل على الناس فقال :

— إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها ، فإن الله عز وجل يقول : ﴿ وأقم الصلاة لذكرى ﴾[1] .

(١٧)

خرجت المدينة تستقبل رسول الله — ﷺ — عند عودته من غزوة خيبر ، الرجال تتهلل وجوههم بالبشر والولدان يغمرهم الفرح والنساء على أسطح المنازل قد عمرت أفئدتهم بالسرور ، والمنافقون فى كمد يظهرون غير ما تخفى الصدور .

وكانت النسوة فى دور الرسول عليه السلام يتأهبن لاستقبال نبى الإسلام الذى نصره الله بقلوب سليمة ، إلا عائشة فقد أخذت الغيرة تنهش قلبها بعد أن جاءها نبأ زواج رسول الله عليه السلام من صفية بنت حيى ملك اليهود الشابة الجميلة ذات السبعة عشر ربيعا .

وكانت أم حبيبة أم المؤمنين ترقب عودة رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فى لهفة ؛ إنها عادت من الحبشة مع جعفر بن أبى طالب وعمرو بن أمية الضمرى والمهاجرين الذين كانوا فى الحبشة واستقرت فى المدينة تنتظر أوبة النبى عليه السلام ، بينا انطلق الرجال إلى خيبر

---

(١) طه ١٤ .

ليجاهدوا فى سبيل الله .

وكانت عائشة على علم بأن رسول الله — ﷺ — كتب إلى النجاشي يزوجه بنت أبى سفيان . فلما جاءت أم حبيبة إلى المدينة لم تستشعر عائشة نحوها غيرة فهى فى الأربعين من عمرها ، وهى تستشعر فى أعماقها أن ذلك الزواج مبعثه سياسى أما الزواج من اليهودية الحسناء فقد شغلها وأرق نومها .

وبلغ الركب المدينة ، وآثر النبى عليه السلام ألا يدخل على زوجاته بصفية فأنزلها فى بيت حارثة بن النعمان ، وتسامعت نساء الأنصار بها فجئن ينظرن إلى جمالها . وراح عليه السلام يزور أهل بيته فبدأ بالزهراء وأخذ يقبل الحسن والحسين ، ثم دار على نسائه فأخذن يرحبن بمقدمه ويهنئنه بما فتح الله عليه ، وقد قرأ عليه السلام الغيرة فى عينى بنت الصديق فراح يرقبها .

وخرجت عائشة متنقبة على حذر وأخذ رسول الله عليه السلام يتتبع خطاها ، إنها تسير إلى دار الحارثة بن النعمان حيث استقرت ضرتها الجديدة . ودخلت عائشة وانتظر رسول الله عليه السلام حتى خرجت فأدركها وأخذ بثوبها وسألها ضاحكا :

— كيف رأيت يا شقيراء ؟

وجاهدت عائشة لتئد غيرتها وقالت وهى تهز كتفها فى استخفاف :

— رأيت يهودية .

— لا تقولى ذلك فإنها أسلمت وحسن إسلامها !

وعادت عائشة إلى حفصة لتبثها نجواها ، وكانت حفصة موضع سر عائشة ، وكانت عائشة أكثر نساء النبى غيرة عليه حتى إنها كانت تغار

من خديجة إذا مدحها رسول الله عليه السلام ، فقد قالت له ذات يوم لما ذكر حاضنة الإسلام بخير :

— قد بدلك الله خيرا منها .

فغضب رسول الله — ﷺ — وقال :

— والله ما أبدلنى الله خيرا منها ، آمنت بى حين كذبنى الناس ، وواستنى بمالها حين حرمنى الناس ، ورزقت منها الولد وحرمته من غيرها .

واتفق له عليه السلام أنه أرسل لحما لامرأة تناوله — ﷺ — ودفعه لآخر يدفعه لها ، فسألته عائشة عن تلك المرأة فقال :

— إن خديجة أوصتنى بها .

فقالت عائشة فى غضب :

— لكأنما ليس فى الأرض امرأة إلا خديجة .

فقام رسول الله — ﷺ — مغضبا ، فلبث ما شاء الله ثم رجع فإذا أم رومان أم عائشة فقالت :

— يا رسول الله مالك ولعائشة ؟ إنها حديثة السن وأنت أحق من يتجاوز عنها .

فأخذ شدق عائشة وقال :

— والله لقد آمنت بى إذ كفر بى قومى ، ورزقت منها الولد وحرمتموه .

كانت تغار من الأموات فما بالك بالأحياء الحسان !

وانتقلت صفية إلى دور النبى عليه السلام فآثرت السلامة ، فقد فطنت مذ وطئت قدماها وجود حزبين فى دور رسول الله — صلوات

الله وسلامه عليه : حزب بقيادة عائشة ومعها حفصة وحزب من الزوجات الأخريات تؤيده فاطمة الزهراء بنت الرسول عليه السلام ، فعزمت على أن تكون صديقة الجميع فأهدت الزهراء حلية لها من ذهب رمز مودة وولاء .

وراحت تتقرب من بنت الصديق وبنت عمر ، وكانت حفصة فيها حدة وكانت تعارض رسول الله عليه السلام وما كان عمر ليتصور أن ابنته تراجع الرسول الكريم . وذات يوم صخب على امرأته فراجعته فأنكر أن تراجعه ، فقالت :

— ولم تنكر أن أراجعك ؟ فوالله إن أزواج النبى — ﷺ — ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل .

فأفزعه ذلك منهن فدخل على حفصة فقال لها :

— أتغاضب إحداكن النبى — ﷺ — حتى الليل ؟ !

— نعم .

— قد خبت وخسرت ، أفتأمنين أن يغضب الله بغضب رسوله فتهلكى ؟ لا تستكثرى النبى — ﷺ — ولا تراجعيه فى شىء ولا تهجريه وسليني ما بدا لك ، ولا يغرنك أن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلى النبى — ﷺ — .

وذهبت نصيحة عمر أدراج الرياح ، فحفصة معتزة بشخصيتها لا تتحرج من معارضة الرسول عليه السلام ، إنه عليه السلام يذكر عندها أصحابه الذين بايعوه تحت شجرة الحديبية فقال :

— لا يدخل النار إن شاء الله أحد من أصحاب الشجرة الذين بايعوا تحتها .

— بلى يا رسول الله !

فانتهرها . فتلت الآية :

— ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴾[١]

— قال الله : ﴿ ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا ﴾[٢] .

وشجر بين النبى — ﷺ — وبين حفصة أمر ، فقال لها :

— اجعلى بينى وبينك رجلا .

— نعم .

— فأبوك إذًا .

فأرسلت إلى عمر فجاء ، فلما دخل عليهما قال لها النبى — ﷺ :

— تكلمى .

— بل أنت يا رسول الله تكلم ولا تقل إلا حقا .

فرفع عمر يده فوجأها[٣] فى وجهها ، فقال له النبى — ﷺ :

— كف يا عمر .

فقال عمر فى غضب :

— يا عدوة الله ، النبى — ﷺ — لا يقول إلا الحق والذى بعثه بالحق لولا مجلسه ما رفعت يدى حتى تموتى .

كانت صفية ترى مايجرى فى دور الرسول عليه السلام فكانت وهى العاقلة الفاضلة تحاول أن تنأى بنفسها عن المعارك الخفية الناشبة بين زوجات الرسول عليه السلام . وكانت تتودد إلى عائشة وحفصة لعلها

(١ ، ٢) مريم ٧١ — ٧٢ .

(٣) وجأها ضربه بها .

تنعم بالهدوء وتسعد بحبها لنبى الإسلام ، صلوات الله وسلامه عليه ، ولكنها لم تسلم من التحقير . دخل عليها — ﷺ — يوما وهى تبكى فقال لها فى ذلك فقالت :

— بلغنى أن عائشة وحفصة ينالان منى ويقولان نحن خير من صفية ، نحن بنات عم رسول الله — ﷺ — .

— قولى لهن كيف تكن خيرا منى وأبى هارون وعمى موسى عليهما الصلاة والسلام ، وزوجى محمد .

وظلت صفية تحس فى أعماقها أنها غريبة فى دور الرسول ، فأزواجه عليه السلام لا يستطعن أن ينسين أصلها . إنه كان فى سفر وهى معه وزينب بنت جحش فاعتل بعير صفية وفى إبل زينب فضل ، فقال لها :

— إن بعير صفية اعتل فلو أعطيتها بعيرا ؟

— أنا أعطى تلك اليهودية ؟

فهجر زينب بنت جحش لذلك ذا الحجة والمحرم وبعض صفر ، ثم أتاها بعد وعاد إلى ما كان عليه معها .

(١٨)

المدينة تحتفل بنصر الله والفتح قد ملأت النشوة أفئدة الناس ، فما كان يدور بخلد أحد من الأوس والخزرج قبل أن يشرفهم الله برسالته أن يأتى يوم تكون فيه كلمة العرب هى العليا ، وأن يضرب الذلة والمسكنة على بنى إسرائيل الذين عبدوا أنفسهم غرورا وقالوا فى تبجح إنهم وحدهم الناس .

وكانت أم حبيبة بنت أبى سفيان فى الدار تنتظر دخولها على رسول الله — ﷺ — وقد غمرها سرور امتزج برهبة ، وترامى إليها أصوات الرجال الذين اجتمعوا حول الوليمة التى أعدها عثمان بن عفان فتهللت بالفرح فأمنيتها التى عاشت لها مذ أرسل عليه السلام عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى ليزوجها منه ، ﷺ — تتحقق ، فلن ينقضى الليل قبل أن تناجى الرسول — صلوات الله وسلامه عليه . ومس أذنيها صوت ذى النورين عثمان بن عفان فإذا بها تتذكر أيام أن كان عثمان وزوجه رقية بنت رسول الله — ﷺ — فى الحبشة ، كانا ملاذ المسلمين هناك وكان عثمان على خلق كريم يخشى الله ويستحى منه الناس ، فكان زينة المسلمين ، وكانت وشائج القربى تربط بينه وبينها فصفية بنت أبى العاص بن أمية أمها عمته ، وكانت سعيدة بهذه القرابة ولكن أخوة الإسلام كانت تجعله أقرب إلى نفسها من أبيها أبى سفيان .

ودخلت أم حبيبة على رسول الله — ﷺ — وأخذت تخبره كيف كانت الخطبة ، قالت :

— رأيت فى المنام كأن قائلا يقول لى يا أم المؤمنين ففزعت فأولتها بأن رسول الله — ﷺ — يتزوجنى ، فما شعرت إلا وقد دخلت علىّ جارية النجاشى فقالت لى إن الملك يقول لك إن رسول الله — ﷺ — كتب إليه يزوجك منه ، فقلت لها بشره الله بالخير .

ويقول لك وكلى من يزوجك ، فأرسلت بالوكالة إلى خالد بن سعيد وأعطيت تلك الجارية سوارين وخَدَمتين (خلخالين) وخواتيم فضة سرورا بما بشرت به .

فلما كان العشى أمر النجاشى جعفر بن أبى طالب ومن معه من

المسلمين فحضروا ، وخطب النجاشي فقال : الحمد لله الملك القدوس ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأنه الذى بشر به عيسى بن مريم عليه السلام ، أما بعد فإن رسول الله — ﷺ — كتب إلىّ أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان فأجبنا إلى ما دعا إليه رسول الله — ﷺ ، وقد أصدقها أربعمائة دينار — ثم سكب الدنانير بين يدى القوم ، فتكلم خالد بن سعيد بن العاص فقال : الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . أما بعد فقد أجبت إلى ما دعا إليه رسول الله — ﷺ — وزوّجته أم حبيبة بنت أبى سفيان فبارك الله لرسول الله — ﷺ . ودفع النجاشي الدنانير لخالد ابن سعيد فقبضها منه .

ثم لما أرادوا أن يقوموا بعد العقد قال لهم النجاشي : اجلسوا فإن من سنن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إذا تزوجوا أن يؤكل طعام على التزويج ، فدعا بطعام فأكلوا ثم تفرقوا . فلما كان من الغد جاءتنى جارية النجاشي فردت علىّ جميع ما أعطيتها وقالت : إن الملك عزم على ألا أرزأك شيئا ، وقد أمر الملك نساءه أن يبعثن إليك بكل ما عندهن من العطر .

وجاءت بورس وعنبر وزياد كثير وقالت : حاجتى إليك أن تقرئ رسول الله — ﷺ — منى السلام وتعلميه أنى قد اتبعت دينه .

وكانت كلما دخلت علىّ تقول : لا تنسى حاجتى إليك .

فتبسم رسول الله — ﷺ — وقال :

— وعليهما السلام ورحمة الله وبركاته .

كانت أم حبيبة راضية مستبشرة بينا كان أبوها أبو سفيان فى حيرة قد

نزل به هم ثقيل . إنه فى دار الندوة يتشاور مع سادات قريش ، فأبو بصير وأبو جندل ومن معهما من المسلمين لا يظفرون بأحد من قريش إلا قتلوه ، وما تمر بهم عير إلا أخذوها . كان سهيل بن عمرو يوم اشترط فى صلح الحديبية أن من جاء رسول الله — ﷺ — مسلما من قريش رده إليهم يحسب أنه انتصر لما أملى ذلك الشرط ، وقد برهنت الأيام أنه فتح على قريش بابا من الشر تصطلى بناره ؛ فقوافل قريش الرائحة الغادية بين مكة والشام باتت فى خطر ، وتجارة قريش توشك أن تبور .

ثار أبو سفيان ثورة عارمة وقال لو أنه حضر صلح الحديبية ما أصر على ذلك الشرط الذى ظن المسلمون أنه مجحف بهم وكاد يصدع ائتلافهم لولا قوة شخصية نبى الإسلام ، وقد برهنت الأيام أنه عليه السلام كان وحده يعرف أن ذلك الشرط الذى يبدو نصرا لقريش سيصبح شوكة فى جنوبهم تقض مضاجعهم وتجعلهم يهرعون إليه يلتمسون منه أن يخلصهم من ثورة الذين لن تقبلهم المدينة ولن يعودوا إلى مكة ليفتنوا عن دينهم ويساموا ألوان العذاب .

وراح سادات قريش يقلبون وجوه الرأى ، قال قائل منهم :

— نكتب له نسأله بالأرحام إلا آواهم ولا حاجة لنا بهم .

وكادوا يستقرون على هذا الرأى ولكنهم خشوا ألا تكون الكتابة وحدها كافية لإسقاط شرط فى صلح أقره الجانبان وشهد عليه شهود ، فقرروا أن يذهب أبو سفيان إلى المدينة ليقر بأن من أتى رسول الله عليه السلام من مسلمى مكة فهو آمن ولا حاجة لهم به .

وشد أبو سفيان بن حرب الرحال إلى المدينة وهو يحس فى عين ذاته أن اليوم غير الأمس . إنه قاد جيش قريش يوم أحد وهو يرجو أن

يستأصل شأفة المسلمين ، وقاد الأحزاب يوم الخندق وهو فى زهوه لا يخالجه شك أن النصر حليفه ، أما اليوم فهو ينطلق إلى المدينة ليلتمس من محمد أن يسقط شرطا فى المعاهدة كان سادات قريش يحسبونه عين النصر .

ودخل زعيم قريش وسيدها المدينة فهرع إليه المسلمون يقودونه إلى حيث كان رسول الله ـــ ﷺ ، واجتمع الرجلان فى المسجد و لم يكن يفصل بين أبى سفيان وابنته أم حبيبة سوى جدار الدار ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يذهب إليها ليملأ عينيه منها ، فهى قد اختارت الله ورسوله على أبيها و كل قومها الذين عميت قلوبهم التى فى صدورهم عن النور .

وقال أبو سفيان : إنا أسقطنا هذا الشرط من الشروط ، من جاء منهم إليك فأمسكه فى غير حرج ، فإن هؤلاء الركب قد فتحوا علينا بابا لا يصلح إقراره .

وراح عمر بن الخطاب ينظر إلى ما يجرى أمامه وهو مشدوه : إنه يحس عرق الخجل يغمره وتذكر ثورته يوم الحديبية إذ وثب فأتى أبا بكر فقال : أليس هو برسول الله ؟ قال أبو بكر : بلى . قال : أولسنا بالمسلمين ؟ قال أبو بكر : بلى . قال : أوليسوا بالمشركين ؟ قال أبو بكر : بلى . قال : فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟

ورن فى أغواره صوت أبى بكر وهو يقول : « يأيها الرجل إنه رسول الله ـــ ﷺ ـــ وليس يعصى ربه وهو ناصره ، استمسك بغرزه[1] حتى تموت » فأحس كأن الأرض تميد به[2] ، ووقعت عيناه على أبى

(١) الغرز للإبل والركاب للفرس والمراد : لازمه .

(٢) تميد : تضطرب .

عبيدة بن الجراح فإذا بقوله يوم الحديبية يخز روحه ويضنيه : « ألا تسمع يا بن الخطاب رسول الله — ﷺ — يقول ما يقول ؟ تعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

إنه تكلم فى ذلك اليوم كلاما رجا أن يكون خيرا فإذا به يعلم الساعة أن غضبه لرد أبى جندل إلى قريش مع أبيه سهيل بن عمرو لم يكن صوابا ، وأن طاعة رسول الله — ﷺ — خير مما أحبه . وعزم عمر على أن يصوم ويتصدق ويصلى ويعتق مخافة كلامه الذى تكلم به فى صلح الحديبية .

وكتب رسول الله — ﷺ — إلى أبى جندل وإلى أبى بصير أن يقدما عليه ، وأن من معهما من المسلمين يلحقون بيلادهم وأهـليهم ولا يتعرضوا لأحد مر بهم من قريش ولا لعيراتهم .

كان أبو بصير وأبو جندل ومن انضم إليهما من غفار وأسلم وجهينة وطوائف من العرب قد نزلوا محلا من طريق الشام تمر به عيرات قريش ، وكانوا ثلاثمائة مقاتل لا تمر بهم عير إلا أخذوها . فضاقت قريش بفعالهم وكانوا يعرفون خطر ما يقومون به فكانت نفوسهم راضية وإن كانوا فى شوق إلى رؤية رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه .

وأحس أبو بصير بالوهن يدب فى كيانه وعرف أنه الموت فلم يجزع ، ولكن فؤاده كان يهوى إلى المدينة وإلى رسول الله عليه السلام . وسجى فى فراشه ليجود بأنفاسه ، وبينا هو يقاسى سكرات الموت قدم كتاب رسول الله فلما قرءوه ارتفعت الأصوات بالتكبير ، فمد أبو بصير عينيه إلى حيث كان أبو جندل لكأنما كان يسأله عن النبأ العظيم الذى أشاع الفرح بين الرجال ، فمد أبو جندل إليه يده بالكتاب فأخـذ

أبو بصير يقرأه بعينين واهيتين ورفت على شفتيه بسمة رضا ، ثم مات وكتاب رسول الله — ﷺ — فى يده .

وراح الرجال ينظرون إليه بأعين دامعة ويترحمون عليه ويتذكرون قول رسول الله — ﷺ — فى حقه :

— ويل أمه مسعر حرب أن لو كان معه رجال .

وكان معه رجال .

(١٩)

وفد على رسول الله — ﷺ — قبل صلح الحديبية تسعة رهط من بنى عبس فكانوا من المهاجرين الأولين ، قالوا :

— إنه قدم علينا قراؤنا فأخبرونا أنه لا إسلام لمن لا هجرة له ، ولنا أموال ومواشى هى معاشنا ؛ فإن كان لا إسلام لمن لا هجرة له بعناها وهاجرنا .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— اتقوا الله حيث كنتم ، فلن يلتكم(١) من أعمالكم شيئا ولو كنتم بصمد وجازان(٢) .

ولما سمعت سعد العشيرة بخروج النبى — ﷺ — وثب رجل من بنى أنس الله بن سعد العشيرة إلى صنم يقال له فراس فحطمه ، ثم وفد

---

(١) يلتكم : ينقصكم .

(٢) موضع فى طريق حاج صنعاء .

إلى النبى — ﷺ — فأسلم وقال :

تبعت رسول الله إذ جاء بالهدى
وخلفت فرّاصا بدار هوان
شددت عليه شدّة فتركته
كأن لم يكن والدهر ذو حدثان
فلما رأيت الله أظهر دينه
أجبت رسول الله حين دعانى
فأصبحت للإسلام ما عشت ناصرا
وألقيت فيها كلكلى وجرانى
فمن مبلغ سعد العشيرة أننى
شريت الذى يبقى بآخر فانى

ووفد إليه عليه السلام عبد العزى بن بدر بن زيد بن معاوية الجهنى ومعه أخوه لأمه أبو روعة وهو ابن عم له ، فقال رسول الله — ﷺ — لعبد العزى :

— أنت عبد الله .

وقال لأبى روعة :

— أنت رعت العدو إن شاء الله .

وقال :

— من أنتم ؟

— بنو غيَّان .

— أنتم بنو رشدان .

وكان لهم صنم وكانوا يعظمونه ، وكان عمرو بن مرة الجهنى

سادنه ، فلما سمع برسول الله — ﷺ — كسره وخرج حتى أتى النبى — ﷺ — فأسلم وشهد شهادة الحق وآمن بما جاء به من حلال وحرام ، ثم قال :

شهدت بأن الله حق وأننى
لآلهة الأحجار أول تارك
وشمرت عن ساق الإزار مهاجرا
إليك أجوب الوعث بعد الدكادك[1]
لأصحب خير الناس نفسا ووالدا
رسول مليك الناس فوق الحبائك[2]

فبعثه رسول الله — ﷺ — إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام فأجابوه إلا رجلا واحدا رد عليه قوله .

وكان أول من وفد على رسول الله — ﷺ — من مضر أربعمائة من مزينة ، وذلك فى شهر رجب سنة خمس ، فجعل لهم رسول الله — ﷺ — الهجرة فى دارهم وقال :

— أنتم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم .

وكان أول من قدم منهم خزاعى بن عبد نهم فبايعه على قومه مزينة ، وقدم معه عشرة فيهم بلال بن الحارث والنعمان بن مقرّن ، ثم خرج إلى قومه فلم يجدهم كما ظن فأقام ، فدعا رسول الله — ﷺ — حسان بن

---

(١) الوعث : المكان السهل والدكادك : أرض فيها غلظ .

(٢) الحبائك : طرائق النجوم . أراد فوق السموات .

ثابت فقال :

ــ اذكر خزاعيا ولا تهجه .

فقال حسان :

ألا أبلــــغ خزاعيـــــا رسولا
بــأن الـــذم يغسلـــه الوفـــاء

وأنك خير عثمان بـــن عمـــرو
وأسناهـــا إذا ذكـــر السنـــاء [١]

وبايـــعت الـــرسول وكان خيرا
إلى خير وآداك الثنـــــــــــاء

فمـــا يعجـــزك أو مـــا لا تطقـــه
مـــن الأشيـــاء لا تعجـــز عـــداء

وعداء بطنه الذى هو منه ، فقام خزاعى فقال :

ــ يا قوم قد خصكم شاعر الرجل فأنشدكم الله .

ــ فإنا لا ننبو[٢] عليك .

فأسلموا ووفدوا على النبى ــ ﷺ .

وبعث بنو سعد بن بكر إلى رسول الله ــ ﷺ ــ رجلا منهم يقال له ضمام بن ثعلبة فى شهر رجب سنة خمس ، فقدم وأناخ بعيره على باب المسجد ثم عقله . ثم دخل المسجد رجلا جلدا أشعر ذا غديرتين فأقبل حتى وقف على رسول الله ــ ﷺ ــ فى أصحابه فقال :

---

(١) أسناها : أكثرها ضياء والمراد أشرفها .

(٢) نبعد عنك .

— أيكم ابن عبد المطلب ؟

فقال رسول الله — ﷺ — :

— أنا ابن عبد المطلب .

— أمحمد ؟

— نعم .

— يا بن عبد المطلب ! إنى سائلك ومغلظ عليك فى المسألة فلا تجد[١] فى نفسك .

— لا أجد فى نفسى فاسأل عما بدا لك .

— أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، آلله بعثك إلينا رسولا ؟

— اللهم نعم .

— فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده لا نشرك به شيئا ، وأن نخلع هذه الأنداد[٢] التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟

— الهم نعم .

— فأنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك وإله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن نصلى هذه الصلاة الخمس ؟

— نعم .

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام فريضة فريضة : الزكاة والصيام

---

(١) لا تجد فى نفسك : لا تضمر غيظا .

(٢) الأنداد : جمع ند ، وهو النظير المعادل .

والحج وشرائع الإسلام كلها ينشده عن كل فريضة منها كما ينشده فى التى قبلها ، حتى إذا فرغ قال :

— فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض . وأجتنب ما نهيتنى عنه ثم لا أزيد ولا أنقص .

ثم انصرف إلى بعيره راجعا ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— إن صدق ذو العقيصتين (الضفيرتين) دخل الجنة .

فأتى بعيره فأطلق عقاله ثم خرج حتى قدم على قومه ، فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به :

— بئس اللات والعزى .

فقالوا :

— مه يا ضمام ! اتق البرص ، اتق الجذام ، اتق الجنون .

— ويلكم ! إنهما والله لا ينفعان ولا يضران . إن الله قد بعث رسولا وأنزل عليه كتابا فاستنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه .

فما أمسى من ذلك اليوم فى حيه رجل أو امرأة إلا مسلما .

وقدمت أشجع على رسول الله — ﷺ — عام الخندق وهم مائة ، رأسهم مسعود بن رجيلة بن نويرة بن طريف فنزلوا شعب سلع (جبل بضاحية المدينة) فخرج إليهم رسول الله — ﷺ — وأمر لهم بأحمال التمر ، فقالوا :

— يا محمد ! لا نعلم أحدا من قومنا أقرب دارا منك منا ولا أقل عددا ، وقد ضقنا بحربك وبحرب قومك فجئنا نوادعك .

فوادعهم ثم أسلموا بعد ذلك .

كانت الوفود تأتى إلى رسول الله عليه السلام قبل صلح الحديبية ، وقد جاءت الوفود بعد الصلح ، قدم أبو ثعلبة الخشينى على رسول الله — ﷺ — وهو يتجهز إلى خيبر فأسلم وخرج معه فشهد خيبر ، ثم قدم بعد ذلك نفر من خشين فنزلوا على أبى ثعلبة فأسلموا وبايعوا ورجعوا إلى قومهم .

ووفد الأشعريون مع جعفر وأصحابه على رسول الله ﷺ ، وكان الأشعريون خمسين رجلا منهم أبو موسى الأشعرى ومعهم رجلان من عك ، وقدموا فى سفن فى البحر وخرجوا بجدة ، فلما دنوا من المدينة جعلوا يقولون :

غدا نلقى الأحبة　　　محمدا وحزبه

ثم قدموا فوجدوا رسول الله — ﷺ — فى سفره بخيبر ، فلقوه — ﷺ — فبايعوه وأسلموا ، فقال رسول الله — ﷺ :

— الأشعريون فى الناس كصرة فيها مسك .

وقدم على رسول الله — ﷺ — رجل من بنى سليم يقال له قيس بن نسيبة ، فسمع كلامه وسأله عن أشياء فأجابه ووعى ذلك كله ، ودعاه رسول الله — ﷺ — إلى الإسلام فأسلم ورجع إلى قومه فقال :

— قد سمعت برجمة[1] الروم وهينمة فارس وأشعار العرب وكهانة الكهان وكلام مقاول حمير ، فما يشبه كلام محمد شيئا من كلامهم فأطيعونى وخذوا نصيبكم منه .

---

(١) رطانة .

كانت هدنة الحديبية سببا فى انتشار الإسلام ، فإن الكفار لما أمنوا القتال اختلطوا بالمسلمين فأثر فيهم الإسلام فأسلم كثير منهم حتى إن الذين أسلموا فى سنتين بعد الصلح يعدلون الذين أسلموا قبلهما ، وقال أبو بكر الصديق :

— ما كان فتح الإسلام أعظم من فتح الحديبية ، ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد — ﷺ — وربه ، والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى يبلغ الأمور ما أراد الله .

(٢٠)

أنزل رسول الله — ﷺ — مارية فى بيت لحارثة بن النعمان فكانت على قرب من مسجد الرسول ودور نسائه . إنها جميلة جعدة فأعجب بها رسول الله عليه السلام فكان عامة الليل والنهار عندها ، فجزعت عائشة بنت أبى بكر وما غارت على امرأة إلا دون ما غارت على مارية .

كانت مارية من قرية من صعيد مصر تدعى « حفن » قرية من بلدة « أنصنا » على الضفة الشرقية للنيل تجاه الأشمونين ، وكانت لأب قبطى وأم مسيحية رومية فجاءت جميلة جمعت أروع ما فى الدم المصرى والدم الرومانى .

وأعاد وفود مارية فى هدايا المقوقس إلى رسول الله — ﷺ — واصطفاؤها لنفسه ذكريات بعيدة ، ذكريات إهداء ملك مصر هاجر المصرية إلى خليل الرحمن عليه السلام فقد أصبحت أم العرب لما أنجبت إسماعيل أبا العرب . ترى أتنجب مارية لرسول الله ولدا فيجدد الأواصر

بين العرب والمصريين ويصبح الجسر بين حضارة الماضى ودين المستقبل ؟

وراحت عائشة ترقب فى قلق هذه الجارية الحلوة التى وفدت من وادى النيل لتثير غيرتها فجزعت لما رأت الرسول الحبيب عليه السلام يكثر من التردد عليها ويمكث لديها طويلا ، ولما كانت عائشة وحفصة صديقتين لا سر بينهما فقد عبرت عائشة عن قلقها وهى تناجى بنت عمر وتمنت لو أن الله يريحها من بنت شمعون القبطية .

وطال الحديث بين مارية ورسول الله صلوات الله وسلامه عليه حول هاجر المصرية وإبراهيم خليل الرحمن وإسماعيل الذى تكونت ببركته مكة حول البئر التى فجرها الله تحت قدميه وقد أشرف على الهلاك عطشا ، فألفت مارية حين تخلو بنفسها أن تفكر فى هاجر ومصريتها وأمومتها لإسماعيل والعرب ، وباتت أحلامها المجنحة تتمنى أن تهب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — الولد كما وهبت هاجر جده إبراهيم الولد .

وكان ﷺ — فى بيت حفصة فاستأذنت فى زيارة عائشة لأنهما كانتا متصادقتين فأذن لها ، فأرسل رسول الله — ﷺ — إلى مارية وأدخلها بيت حفصة فرجعت حفصة فأبصرت مارية مع النبى — ﷺ — فى بيتها فلم تدخل حتى خرجت مارية ، ثم دخلت وقالت له :

— إنى رأيت من كان معك فى البيت .

وغضبت وبكت وقالت :

— يا رسول الله لقد جئت إلى بشىء ما جئت به إلى أحد من نسائك ، فى يومى وفى بيتى وعلى فراشى !

فلما رأى رسول الله فى وجهها الغيرة قال لها :

— أما ترضين أن أحرمها على نفسى ولا أقربها أبدا ؟

— بلى .

وحلف ألا يقربها وقال :

— اكتمى علىّ .

ولم تستطع حفصة أن تكتم السر فانطلقت إلى عائشة وقالت :

— قد أراحنا الله من مارية فإن رسول الله — ﷺ — قد حرمها على نفسه .

وعرف رسول الله عليه السلام أن حفصة لم تكتم عليه وأنها أنبأت عائشة بأمر مارية ، فلما أخبر عائشة ببعض ما أسرته لها حفصة قالت عائشة :

— من أنبأك هذا ؟

— نبأنى العليم الخبير .

وسرعان ما ذاع الخبر بين نساء رسول الله عليه السلام فجئن يخضن فى الحديث ، فأقسم عليه السلام أن لا يجتمع بهن شهرا ، وصعد إلى مشربة له يرقى إليها بعجلة وهو جذع يرقى عليه إلى المشربة وينحدر منها عليه ، وغلام له أسود يقال له رباح على رأس العجلة ، وأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك تبتغى مرضاة أزواجك والله غفور رحيم * قد فرض الله لكم تحلة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم * وإذ أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا فلما نبأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبأها به قالت من أنبأك هذا قال نبأنى العليم الخبير * إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه

فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير. * عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا ﴾[١] .

وجاء الليل ورسول الله عليه السلام فى المشربة ، فقدم على عمر بعض أصدقائه من الأنصار فدق عليه بابه وناداه فخرج إليه فقال :

— حدث عظيم .

— ماذا ؟ أجاءت غسان ؟

كانوا حدثوا أن غسان تنعل الخيل لغزوهم ، فحسب عمر أن غسان قد جاءت تدهم المدينة فقال الأنصارى :

— لا بل أمر أعظم من ذلك وأطول . طلق رسول الله — ﷺ — نساءه .

— خابت حفصة وخسرت ! كنت أظن هذا كائنا .

— حتى إذا صلى الصبح شد عليه ثيابه ودخل على حفصة وهى تبكى فقال :

— أطلقكن رسول الله — ﷺ ؟

— لا أدرى هو هذا معتزلا فى هذه المشربة .

— لأقولن من الكلام شيئا أضحك به النبى — ﷺ .

وأتى رباح وهو واقف على رأس العجلة فقال :

— استأذن لعمر .

فدخل الغلام ثم خرج وقال :

---

(١) التحريم (١ — ٥) .

— قد ذكرتك له فصمت .

فانطلق عمر حتى أتى المسجد فجلس قليلا ثم غلبه ما يجد ، فأتى الغلام فقال :

— استأذن لعمر .

فدخل ثم خرج إليه فقال :

— قد ذكرتك له فصمت .

فلما كان فى المرة الرابعة وقال له مثل ذلك ولى مدبرا فإذا الغلام يدعوه فقال :

— ادخل قد أذن لك .

فدخل فسلم على رسول الله — ﷺ — فإذا هو متكىء على رمل حصير قد أثر فى جنبه فقال :

— أطلقت يا رسول الله نساءك ؟

فرفع رأسه إلى عمر وقال :

— لا .

— الله أكبر.

— ثم قال :

— كنا معشر قريش بمكة نغلب على النساء ، فلما قدمنا المدينة وجدنا قوما تغلبهم نساؤهم فطفق نساؤنا يتعلمن منهن ، فكلمت زوجتى فراجعتنى فأنكرت عليها فقالت تنكر أن راجعتك فوالله لقد رأيت أزواج النبى — ﷺ — يراجعنه وتهجره إحداهن اليوم إلى الليل . فقلت قد خاب من فعل ذلك وخسر ، أتأمن إحداهن أن يغضب الله عليها لغضب زوجها رسول الله — ﷺ ؟

فذهبت إلى حفصة فقلت أتراجعن رسول الله — ﷺ ؟ فقالت نعم وتهجره إحدانا اليوم إلى الليل . فقلت قد خاب من فعل ذلك منكن وخسر ، أتأمن إحداكن أن يغضب الله عليها لغضب رسول الله — ﷺ ؟ لا تراجعِنَّ رسول الله — ﷺ — ولا تسألِنَّه شيئا وسليني ما بدا لك ، ولا يغرنك إن كانت جارتك أحب إلى رسول الله — ﷺ — منك .

فتبسم عليه السلام فقال عمر :

— أستأنس يا رسول الله ؟

— نعم .

فجلس وقال :

— يا رسول الله قد أثر فى جنبك رمل هذا الحصير وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله .

فاستوى — ﷺ — جالسا وقال :

— أفى شك أنت يا بن الخطاب ! أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا .

— أستغفر الله يا رسول الله .

ومرت الأيام ورسول الله عليه السلام يمضى سحابة يومه فى شئون الناس وطرفا من الليل فى مسجده يصلى ثم يصعد إلى المشربة ، وخلت دور الرسول عليه السلام من البهجة وران عليها ترقب وقلق وانتظار .

فلما مضى تسع وعشرون يوما أنزل الله تعالى عليه أن يخير نساءه فى قوله تعالى : ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ، وإن كنتن تردن الله

ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما * يا نساء النبى من يأت منكن بفاحشة مبينة يضاعف لها العذاب ضعفين وكان ذلك على الله يسيرا * ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين وأعتدنا لها رزقا كريما * يا نساء النبى لستن كأحد من النساء إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا * وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا * واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيـات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا ﴾[1] .

فنزل عليه السلام ودخل على عائشة فقالت له :

ـــ يا رسول الله أقسمت أن لن تدخل علينا شهرا وقد دخلت وقد مضى تسع وعشرون يوما أعددهن .

ـــ إن هذا الشهر تسع وعشرون .

ثم قال ـــ ﷺ :

ـــ يا عائشة إنى ذاكر لك أمرا فلا عليك أن لا تعجلى حتى تستأمرى أبويك .

ـــ فما هو يا رسول الله ؟

فقرأ عليهما : ﴿ يأيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا ... ﴾ .

ـــ أفى هذا أستأمر أبوى ؟ فإنى أريد الله ورسوله والدار الآخرة .

---

(١) الأحزاب ٢٨ ـــ ٣٤ .

ثم قالت له :

ـــ لا تخبر امرأة من نسائك بالذى قلت لك .

ـــ لا تسألنى امرأة منهن إلا أخبرتها أن الله لم يبعثنى متعنتا ولكن بعثنى معلما ميسرا .

ثم فعل بقية أزواجه ـــ ﷺ ـــ مثل ما فعلت عائشة ، وعاد إلى دور الرسول عليه السلام النور الذى غاب عنها .

(٢١)

كان أبو هريرة يلزم رسول الله ـــ ﷺ ـــ بشبع بطنه حتى لا يأكل الخمير ولا يلبس الحبير ولا يخدمه أحد . وكان فى سبعين رجلا من أهل الصفة ما منهم رجل عليه رداء إما بردة أو كساء قد ربطوها فى أعناقهم يشتد بهم الألم من الجوع ، فيخرج من بيته إلى المسجد لا يخرجه إلا الجوع ، فيجد نفرا من أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ فيقولون :

ـــ يا أبا هريرة ما أخرجك هذه الساعة ؟

ـــ ما أخرجنى إلا الجوع .

ـــ نحن والله ما أخرجنا إلا الجوع .

فقاموا فدخلوا على رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ ما جاء بكم هذه الساعة ؟

ـــ يا رسول الله جاء بنا الجوع .

فدعا رسول الله ـــ ﷺ ـــ بطبق فيه تمر فأعطى كل رجل منهم تمرتين ، فقال عليه السلام :

ـــ كلوا هاتين التمرتين واشربوا عليهما من الماء فإنهما ستجزيانكم يومكم هذا .

فأكل أبو هريرة تمرة وجعل تمرة فى حجرته ، فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ يا أبا هريرة لم رفعت هذه التمرة ؟

ـــ رفعتها لأمى .

ـــ كلها فإنا سنعطيك لها تمرتين .

فأكلها فأعطاه عليه السلام لها تمرتين ، وكانت أمه بقيت على الشرك فدخل يدعوها إلى الإسلام فلم تستجب لدعوته وأعرضت عنه فأحس أبو هريرة أسى ، إنه يحب أمه وإنه يجاهد على أن يزحزحها عن النار ولكنها تأبى فى صلف واستكبار .

صحب أبو هريرة رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى حله وترحاله يدخل بيته ويحضر مجلسه وقد اتخذ الصفة مكانا له ينتقل بين الصحابة يقرئونه القرآن ، وجعله رسول الله ـــ ﷺ ـــ عرّيف أهل الصفة فإذا أراد رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن يجمعهم لطعام حضر تقدم إلى أبى هريرة ليدعوهم ويجمعهم لمعرفته بهم وبمنازلهم ومراتبهم .

وقضيت صلاة العشاء فانصرف الناس إلى دورهم وبقى أبو هريرة يمضى ليله فى المسجد . ودخل الرسول ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ منزله ونام أصحابه ، ولما انقضى من الليل ثلثه خرج الرسول عليه السلام إلى المسجد وقال لأبى هريرة :

ـــ ادع لى أصحابى .

فجعل أبو هريرة يأتيهم رجلا رجلا فيوقظهم حتى جمعهم فجاءوا باب

الرسول عليه السلام فاستأذنوا فأذن لهم ، فدخلوا وكانوا قرابة ثلاثين رجلا فوضع الرسول لهم صحفة فيها صنيع شعير ووضع يده عليها وقال :

— خذوا باسم الله ، والذى نفس محمد بيده ما أمسى فى آل محمد طعام ليس شيئا ترونه .

كان أبو هريرة يقاسى من الجوع ولكن ما كان يعانيه من أمه أقسى وأشد ؛ إنه يدعوها إلى الإسلام فلا تستجيب فأصابه من الهم والحزن ما أضناه .

وكان أبو هريرة يحب رسول الله — ﷺ — حبا جما ويحب من أحبه رسول الله — ﷺ — فقد لقى أبو هريرة الحسن بن علىّ فقال له :

— أرنى أقبل منك حيث رأيت رسول الله — ﷺ — يقبل .

فرفع القميص وقبل سرته .

وذات يوم كان الجوع يمزق أمعاءه فأتى عمر بن الخطاب فقام له وهو يسبح بعد الصلاة ، فانتظره فلما انصرف دنا منه فقال :

— أقرئنى آيات من كتاب الله .

وما يريد إلا الطعام فأقرأه آيات من سورة آل عمران ، فلما بلغ أهله دخل وتركه على الباب فقال :

— ينزع ثيابه ثم يأمر لى بطعام .

فلم ير شيئا فلما طال عليه قام فمشى ، فاستقبله رسول الله — ﷺ — فكلمه فقال :

— يا أبا هريرة إن خلوف فمك الليلة لشديد ؟ !

— أجل يا رسول الله لقد ظللت صائما وما أفطرت بعد وما أجد ما

أفطر عليه .

— انطلق .

فانطلق معه عليه السلام حتى أتى بيته فدعا جارية له سوداء فقال :

— آتينا بتلك القصعة .

فأتتهم بقصعة فيها بقية من طعام قد أكل وبقى فى جوانبها بعضه ، فسمى عليه السلام وجعل أبو هريرة يتبعه عليه السلام فأكل حتى شبع .

كان أبو هريرة لا ينقطع عن مجالس رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، وكان جريئا على أن يسأل رسول الله — ﷺ — عن أشياء لا يسأله أصحابه عنها ، قال :

— يا رسول الله إنى إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى ، فأنبئنى عن كل شىء .

— كل شىء خلق من ماء .

— يا رسول الله أنبئنى عن أمر إذا أخذت به دخلت الجنة ؟

— أفش السلام وأطعم الطعام وصل الأرحام وقم بالليل والناس نيام ، ثم ادخل الجنة بسلام .

وكان أبو هريرة حريصا على أن يتعلم من رسول الله عليه السلام . فبينا زيد بن ثابت وأبو هريرة وآخر فى المسجد ذات يوم يدعون الله تعالى ويذكرونه إذ خرج عليهم النبى — ﷺ — حتى جلس إليهم فسكتوا ، فقال عليه السلام :

— عودوا إلى الذى كنتم فيه .

فدعا زيد هو وصاحبه قبل أبى هريرة ، وجعل رسول الله — ﷺ — يقول :

ـــ آمين .

ثم دعا أبو هريرة فقال :

ـــ اللهم إنى أسألك ما سألك صاحباى وأسألك علما لا ينسى .

فقال ـــ ﷺ :

ـــ آمين .

فقالا .

ـــ يا رسول الله ونحن نسأل الله علما لا ينسى ، فقال :

ـــ سبقكما بهما الغلام الدوسى .

كان أبو هريرة فى الثلاثين وكان ملازما أمه ، ولم يكن يعكر صفو حياته إلا إعراض أمه الحبيبة عن الإسلام . إنه يتوسل إليها أن تلقى إليه سمعها ، ولكنها كانت تضع أصابعها فى أذنيها وتشيح عنه فيستشعر كأن خناجر تصوب إلى قلبه وكأن أشواك الأرض تخز روحه فلا يجد عزاء إلا أن يتوجه إلى الله يدعوه أن يهدى أمه الصراط المستقيم .

كان حريصا على إسلام أمه حرصه على شكر الله على هدايته ، فكان يقول :

ـــ الحمد لله الذى هدى أبا هريرة للإسلام ، الحمد لله الذى علم أبا هريرة القرآن ، الحمد لله الذى من على أبى هريرة بمحمد ـــ ﷺ .

وكان حريصا على أن يحفظ أحاديث رسول الله ـــ ﷺ ـــ حرص عبد الله بن عمر على أن يتبع آثار النبى ـــ ﷺ ـــ فى منازله ، قال عليه السلام :

ـــ من يأخذ من أمتى خمس خصال فيعمل بهن أو يعلمهن من يعمل بهن ؟ .

قال أبو هريرة :

ـــ أنا يا رسول الله .

فأخذ عليه السلام بيده فعدهن فيها ثم قال :

ـــ اتق المحارم تكن أعبد الناس .

وارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس .

وأحسن إلى جارك تكن مؤمنا .

وأحب للناس ما تحب لنفسك تكن مسلما .

ولا تكثر الضحك فإن كثرة الضحك تميت القلب .

وذات يوم رفع رسول الله ﷺ ـــ الدرة ليضربه بها فقال أبو هريرة :

ـــ لأن يكون ضربنى بها أحب إلى من حمر النعم ، ذلك بأنى أرجو أن أكون مؤمنا وأن يستجاب لرسول الله ـــ ﷺ ـــ دعوته .

كان أبو هريرة راضيا بحياته سعيدا بصحبة رسول الله عليه السلام ، ولم يكن يعكر صفو حياته إلا إعراض أمه عن الإسلام ، فذهب إليها ودعاها إلى الإسلام فأسمعته فى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ما يكره ، فجاء إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهو يبكى فقال :

ـــ يا رسول الله انى كنت أدعو أم أبى هريرة إلى الإسلام فتأبى على ، وإنى دعوتها اليوم فأسمعتنى فيك ما أكره ، فادع الله أن يُعدى أم أبى هريرة إلى الإسلام .

ففعل ، فجاء أبو هريرة البيت فإذا الباب مجاف وسمع خضخضة الماء ، وسمعت حسه فقالت :

ـــ كما أنت .

فلبست درعها وعملت عن خمارها ثم قالت :

ـــ ادخل يا أبا هريرة .

فدخل فقالت :

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله .

فجاء يسعى إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ يبكى من الفرح كما بكى من الحزن فقال :

ـــ أبشر يا رسول الله فقد أجاب الله دعوتك ، قد هدى الله أم أبى هريرة إلى الإسلام .

وتهللت أساريره من الفرح وقال :

ـــ يا رسول الله ادع الله أن يحببنى وأمى إلى المؤمنين والمؤمنات وإلى كل مؤمن ومؤمنة .

ـــ اللهم حبب عُبيدك هذا وأمه إلى كل مؤمن ومؤمنة .

واشتد فرح أبى هريرة ، فلما عاد إلى الدار وقف على بابها فقال :

ـــ السلام عليك يا أمتاه ورحمة الله وبركاته .

رحمك الله كما ربيتنى صغيرا .

ـــ رحمك الله كما بررتنى كبيرا .

خاض سابور الثانى غمار معارك مع العرب انتهت بأن احتلت فارس البحرين ، وعرف سابور بذى الأكتاف لأن ساسان الأول تنبأ بأن ملك الساسانيين سيزول على أيدى أصحاب نبى عربى بشر به زرادشت بقوله : اتبعوا وصاياى حتى يأتى صاحب الجمل الأحمر من بلاد العرب ، فكان سابور ينقب أكتاف أسراه العرب .

وحكم البحرين منذ ذلك الوقت مرزبان من قبل كسرى فراح يبنى بيوت نار فى الولاية وينشر الدين المجوسى فتغلغلت المجوسية فى عرب البحرين وآمنوا بالأوستا الساسانية وعكفوا على « الزند » تفسير الكتاب المقدس وتكلموا فى المبدأ والمعاد وغيرهما من أركان الدين ، وتزوجوا المحارم كما كان يفعل السادة الإيرانيون ، وعبدوا ميترا إله العقد ونور الصباح الذى عرفه البابليون بشَمَس . وكانوا يرتلون : لا سلطان لك لترفض عبادة الشمس التى تضىء بنورها الكون كله ، والتى تنضج بحرارتها غذاء الناس والحيوان ، والتى سميت بالإله مهر بسبب سخائها الشامل وكرمها العادل لأنه ليس فيها مكر أو جهل .

وقدسوا عناصر الطبيعة ، وحافظوا على الماء والنار من النجاسة حتى إنهم لا يغسلون بالماء وجوههم ولا يلمسونه إلا أن يكون ذلك للشرب أو رى الزرع ، وميزت الأوستا (كتابهم المقدس) بين خمسة أنواع من النار : نار المعابد والنار التى ينتفع بها الناس عادة ، والنار التى توجد فى

جسد الإنسان والحيوان ، والنار التى توجد فى النباتات ، والنار الكامنة فى السحاب ، والنار التى تشتعل أمام أهورامزدا فى الجنة .

وعرف عرب البحرين الصراع بين أهورامزدا عالم النور وأهرمين عالم الظلمات واختلاط الخير والشر والصراط المستقيم والبعث والجنة ، وما بقى من دين زرادشت القيم بعد أن طغت عليه الخرافات لما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم .

وظلت قبضة الفرس قوية على البحرين حتى إذا ما انتهت الحروب بين الفرس والروم بانتصار هرقل على كسرى الثانى تراخت قبضة الفرس وأصبح أمر البحرين للمنذر بن ساوى ، وعرف الإسلام طريقه إلى تلك البلاد فقد أرسل الرسول عليه السلام إلى المنذر العلاء بن الحضرمى وبعث معه كتابا ورجالا فيهم أبو هريرة ووصاه عليه السلام به فجعله العلاء مؤذنا بين يديه ، وكان العلاء يصلى بأصحابه وقد سبقهم بآمين بعد أن قرأ الفاتحة ، فقال له أبو هريرة :

ـــ لا تسبقنى بآمين أيها الأمير .

وبلغ الركب البحرين فإذا بأهلها على دين المجوس واليهودية يهرعون إلى بيوت النار أو الكنيس إذا ما أرادوا شكر الله على ما أتاهم من خير .

ودخل العلاء على المنذر وراح يعرض عليه الإسلام ، وقال فيما قال :

ـــ يا منذر إنك عظيم العقل فى الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة . إن هذه المجوسية شر دين ينكح فيها ما يستحيا من نكاحه ، ويأكلون ما يتكره من أكله ، وتعبدون فى الدنيا نارا تأكلكم يوم القيامة ، ولست بعديم عقل ولا رأى فانظر هل ينبغى لمن لا يكذب فى الدنيا ألا نصدقه ؟ ولمن لا يخون ألا نأتمنه ؟ ولمن لا يخلف ألا نثق به ؟ فإن كان هكذا فهذا

هو النبى الأمى الذى والله لا يستطيع ذو عقل أن يقول ليت ما أمر به نهى عنه أو ما نهى عنه أمر به .

وراح المنذر بن ساوى يقرأ كتاب رسول الله — ﷺ — على أهل البحرين ، وجعل العلاء وأبو هريرة ومن معهما من المسلمين يشرحون للناس أركان الدين الذى جاء به محمد بن عبد الله — صلوات الله وسلامه عليه — فانشرحت له صدور وأضاءت أنواره أفئدة هداها الله الصراط المستقيم ، فاعتنق كثير من أهل البحرين الإسلام . كانوا يؤمنون بالبعث والحساب والخلود فلما حدثهم المسلمون عن الإسلام وجدوه من نفس النبع الذى اغترف منه زرادشت إلا أن الإسلام قد أزاح عنه الأساطير وما تمجه النفوس . ورانت الدهشة على المنذر فما كان يصدق أن الناس يقبلون دينا جديدا فى مثل ذلك اليسر .

وأطرق المنذر يفكر فيما جاء به رسول الإسلام عليه السلام فوجده يطابق الفطرة ولا يدعو إلا لكل كريم ودوى بين جنبيه حديث العلاء وتذكر ما أوصى به زرادشت من الاستمساك بما جاء به إلى أن يأتى صاحب الجمل الأحمر من جزيرة العرب ، وها هو ذا صاحب الجمل الأحمر يبعث إليه رسله ليدعوه إلى الهداية والرشد . أو يغلق قلبه دون النور ؟

ودخل العلاء وصحبه على المنذر بن ساوى فقال :

— قد نظرت فى هذا الذى فى يدى فوجدته للدنيا دون الآخرة ، ونظرت فى دينكم فرأيته للآخرة والدنيا . فما يمنعنى من قبول دين فيه أمنية الحياة وراحة الموت ؟ ولقد عجبت أمس ممن يقبله وعجبت اليوم ممن يرده . وإن من إعظام ما جاء به أن يعظم رسوله وسأنظر .

وكتب المنذر إلى رسول الله — ﷺ — كتابا جاء فيه : يا رسول الله فإنى قرأت كتابك على أهل البحرين فمنهم من أحب الإسلام وأعجبه ودخل فيه ومنهم من كرهه ، وبأرضى مجوس ويهود فأحدث لى فى ذلك أمرك .

وقرأ عليه السلام كتاب المنذر وسمع من رسله ، ثم كتب له كتابا فيه : (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى المنذر بن ساوى . سلام عليك فإنى أحمد إليك الذى لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله . أما بعد فإنى أذكر الله عز وجل فإنه من ينصح فإنما ينصح لنفسه ، وإنه من يطع رسلى ويتبع أمرهم فقد أطاعنى ، ومن نصح لهم فقد نصح لى ، وإن رسلى قد أثنوا عليك خيرا ، وإنى قد شفعتك فى قومك فاترك للمسلمين ما أسلموا عليه ، وعفوت عن أهل الذنوب فاقبل منهم ، وإنك مهما تصلح فلن نعزلك عن عملك ومن أقام على يهوديته أو مجوسيته فعليه الجزية) .

(٢٣)

كانت الهدنة قائمة بين المسلمين وقريش ، ولكن بعض قبائل العرب كانت تفكر فى غزو المدينة أو الإغارة على سرحها للنيل من هيبة المسلمين ، فصلح الحديبية شجع كثيرا من الناس على أن يشدوا الرحال إلى المدينة وأن يلقوا إلى نبى الإسلام عليه السلام آذانهم فيدخلوا فى دين الله أفواجا ، مما يزعزع عقائد العرب ودين الآباء .

ولم يكن الرسول عليه السلام ليبدأ بالعدوان فهو على نور من ربه لا

يخالف أمره وهو جل من قائل : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾[١] ، ولكنه ما كان يتريث حتى يدهمه فى داره فما إن تلوح له عليه السلام بادرة من عدوه بأنه يتأهب للعدوان حتى يبعث البعوث ليقضى على الفتنة قبل أن تتحرك ، ويلقى الرعب الذى نصر به فى قلوب الأعداء .

جاءه عليه السلام أن بنى عوال وبنى عبد بن ثعلبة وهم بالميفعة — وهى وراء بطن نخل إلى النقرة قليلا بناحية نجد — يستعدون لشن غارة على المدينة ، فبعث إليهم عليه السلام فى شهر رمضان سنة سبع من مهاجره غالب بن عبد الله الليثى فى مائة وثلاثين رجلا كان فيهم أسامة ابن زيد حب رسول الله عليه السلام .

وفى الصباح هجم المسلمون على القوم وكان فيهم رجل يدعى مرداس بن سهنيك إذا أقبل القوم كان من أشدهم على المسلمين وإذا أدبروا كان من حاميتهم . وانتهت المعركة بانهزام الكافرين وولى مرداس الأدبار فتبعه أسامة بن زيد ورجل من الأنصار ، فرفع أسامة عليه السيف فقال :

— لا إله إلا الله .

فكف الأنصارى فطعنه أسامة برمحه حتى قتله ، ثم وجد فى نفسه من ذلك موجدة شديدة حتى ما يقدر على أكل الطعام حتى قدم على رسول الله — ﷺ — فقبله واعتنقه . وكان عليه السلام إذا بعث أسامة بن زيد يسأل عنه أصحابه ويحب أن يثنى عليه خيرا ، فلما رجعوا لم يسألهم عنه

---

(١) البقرة ١٩٠ .

فجعل القوم يحدثون رسول الله — ﷺ — ويقولون :

— يا رسول الله لو رأيت ما فعل أسامة ! لقيه رجل فقال الرجل لا إله إلا الله فشد عليه أسامة فقتله .

وراح — ﷺ — يعرض عنهم ، فلما أكثروا عليه رفع رأسه لأسامة فقال :

— يا أسامة من لك بلا إله إلا الله ؟

— يا رسول الله إنه إنما قالها تعوذا من القتل .

— أقتلته بعد ما قال لا إله إلا الله ؟ ! فكيف تصنع بلا إله إلا الله إذا جاءت يوم القيامة ؟

— إنما قالها خوفا من السلاح .

— هلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب ؟

وود أسامة أن ما مضى من إسلامه لم يكن وكان أسلم يومئذ وقال :

— يا رسول الله استغفر لى .

فاستغفر له وقال :

— اعتق رقبة .

وودى رسول الله عليه السلام مرداس بن سهنيك وعاهد أسامة بن زيد الله ألا يقتل رجلا يقول لا إله إلا الله أبدا .

وفى شوال من نفس السنة بلغ رسول الله — ﷺ — أن جمعا من غطفان قد واعدهم عيينة بن حصن ليكون معهم ليزحفوا إلى رسول الله — ﷺ — ، فدعا عليه السلام بشر بن سعد فعقد له لواء وبعث معه ثلاثمائة رجل ، فساروا حتى أتوا يمْن وجَبار فدنوا من القوم فأصابوا لهم نعما كثيرا ، وتفرق الرعاء فحذروا القوم فتفرقوا ولحقوا بعلياء

بلادهم ، وخرج بشير بن سعد فى أصحابه حتى أتى محالهم فلم يجد
أحداً فرجع بالنعم ، وأصاب منهم رجلين فأسرهما وقدم بهما المدين
رسول الله — ﷺ .

ودخل الرجلان على رسول الله عليه السلام وهما يرتجفات ، ف
وقعت أعينهما عليه حتى أحسا شيئا من الطمأنينة . إنه جهير الص
حسن النغمة طيب الريح خافض الطرف نظره إلى الأرض أطول من
إلى السماء ، لا يتكلم من غير حاجة ، يتكلم بجوامع الكلم فص
فضول فيه ولا تقصير .

وراح الأسيران يصغيان إليه عليه السلام وقد سكنت الطم
أفئدتهما . انه ليس بالجافى ولا بالمهين لا يغضب لنفسه ، ولا ينتق
وإنما يغضب للحق حتى ينصره ، لا يستخفه فرح ولا غم ، .
الحسن ويصوبه ويقبح القبيح ويهينه ، يعطى كل جليس له نصيبه
لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه .

يؤثر الداخل بوسادته ويبسط له ثوبه ، من سأله حاجة لا يرده
أو بما يسر من القول ، وسع الناس بسطه وخلقه فصار لهم أبا و
عنده فى الحق سواء متفاضلين بالتقوى ، مجلسه مجلس حلم وحياء
لا ترفع فيه الأصوات .

وراح عليه السلام يتكلم فأطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم ال
فلما سكت تكلموا متواضعين يشع من أحاديثهم التقوى ، ف
الأسيران يصغيان وهما فى دهشة من أمرهما فقد ظنا أنه سيأمر ب
عنقهما فإذا به عليه السلام يعرض عليهما الإسلام ويقرأ القر
فيشعران أنهما قد أصبحا أكثر حرية مما كانا عليه وهما فى أهلهم

صفت قلوبهما وأطلق لهما حرية الفكر والاختيار ورفعا إلى السماء ليقرعا أبواب الملكوت ، فامتلآ بنشوة روحية لم يسعدا بمثلها من قبل .

وإنهما ذاقا لذة المعرفة وتتوجا بشرف المعلومات وأحسا قربا حقيقيا من رب الناس إله الناس ، فحديث رسول الله — ﷺ — أضاء لبصيرتهما الحقائق فظهرت فى قلوبهما الأنوار واستعدت لحمل الأمانة .

وأحسا بنسائم الألطاف تهب عليهما ، وبالحجب تنكشف عن أعين أفئدتهما ، وبالرحمة تفيض عليهما وبانشراح الصدر ، وبحقائق الأمور الإلهية تتلألأ فى النفوس ، وبالنور يغمر الوجدان فإذا الوجود كله أنوار ، فقالا وهما متفرحان فى الله :

— نشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

(٢٤)

دار العام وظهر هلال ذى القعدة من السنة السابعة وهو الشهر الذى صده عليه السلام فيه المشركون عن البيت الحرام ، فأمر أصحابه أن يعتمروا وألا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية فلم يتخلف إلا من مات أو قتل بخيبر ، وخرج مع رسول الله — ﷺ — قوم المسلمين عمارا ممن لم يشهد الحديبية فكانوا ألفين .

واستخلف رسول الله — ﷺ — على المدينة أبا ذر الغفارى ، وساق — ﷺ — ستين بدنة وقلدها وجعل على هديه ناجية بن جندب الأسلمى .

وحمل رسول الله — ﷺ — السلاح والدروع والرماح وقاد مائة

فرس عليها محمد بن مسلمة وعلى السلاح بشير بن سعد . وأحرم — ﷺ — من باب المسجد فلما انتهى إلى ذى الحليفة قدم الخيل أمامه فقيل :

— يا رسول الله حملت السلاح وقد شرطوا ألا ندخلها عليهم بسلاح إلا بسلاح المسافر ، السيوف فى القرب !

فقال رسول الله — ﷺ — :

— لا ندخل عليهم الحرم بالسلاح ولكن يكون قريبا منه ، فإن هاجنا هيج من القوم كلن السلاح قريبا منا .

فمضى بالخيل محمد بن مسلمة فلما كان بمر الظهران وجد نفرا من قريش فسألوه فقال :

— هذا رسول الله — ﷺ — يصبح هذا المنزل غدا إن شاء الله .

وقد رأوا سلاحا كثيرا فخرجوا سراعا حتى أتوا قريشا فأخبروهم بالذى رأوا من الخيل والسلاح ، ففزعت قريش وقالوا :

— ما أحدثنا حدثا وإنا على كتابنا ومدتنا ففيم يغزونا محمد فى أصحابه ؟ !

وأقبل المسلمون يلبون :

— لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك . لا شريك لك .

وارتج مر الظهران بالتلبية ، وجاء مكرز بن حفص فى نفر من قريش إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— والله يا محمد ما عرفت صغيرا ولا كبيرا بالغدر ، تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك وقد شرطت عليهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر

السيوف فى القرب !

— إنى لا أدخل عليهم بالسلاح .

— هو الذى تعرف به البر والوفاء .

ثم رجع إلى مكة سريعا وقد رضى عن سفارته ، فقريش التى ساقت الجيوش من قبل وجمعت الأحزاب لاستئصال المسلمين باتت ترتجف فرقا من أن يغزوها عليه السلام . وقدم الرسول — صلوات الله وسلامه عليه — السلاح إلى بطن يأجج حيث ينظر إلى أنصاب الحرم وخلف عليه أوس بن خولى الأنصارى فى مائتى رجل ، فلما اتصل خروجه لقريش خرج كبراؤهم من مكة حتى لا يروه — ﷺ — يطوف بالبيت هو وأصحابه . كانت العداوة تنهش قلب أبى سفيان فما كان يطيق أن يرى المسلمين يطوفون بالبيت وهم يلبون تلبية التوحيد ، وكان عكرمة بن أبى جهل يبغض محمدا عليه السلام فخرج من مكة وهو حانق فطواف الصابىء بالبيت العتيق وهم ينظرون هزيمة للكفاح الطويل الذى خاضوه لكتم أنفاس الإسلام .

وخرج خالد بن الوليد مع الخارجين وإن كانت مشاعره تختلف عن مشاعر الشانئين[١] ، إنه أصبح يستشعر ميلا إلى الإسلام ولو طاوع قلبه لهرول إلى حيث كان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وأعلن شهادة الحق ولكنه كان يتربث ، وفكر فى أن يبقى فى مكة إلا أنه خشى أن تلتقى عيناه بعينى أخيه الوليد بن الوليد الذى كان فى صفوف المسلمين فهو واثق فى أغوار نفسه لو أن ذلك حدث لخفق قلب فارس

---

(١) الشانئين : الحاقدين .

قريش رهبة وهو الذى لم يعرف الخوف فى حومة القتال .

وخرج صفوان بن أمية حسدا لرسول الله عليه السلام ، وانطلق سهيل بن عمرو مع المنطلقين وبقى حكيم بن حزام وقد أشرف على الستين فهو يحب أن يرى زوج عمته سيدة نساء قريش . فما أسعد الأوقات التى أمضاها وهو يصغى إلى عذب حديث أبى القاسم ، ولولا دعوته بأن الله قد أرسله إلى الناس لما كان بين حكيم وابن عبد الله أى خلاف .

وقدم رسول الله — ﷺ — الهدى أمامه فحبس بذى طوى ، وخرج على راحلته القصواء والمسلمون متوشحون السيوف محدقون به[1] — ﷺ — يلبون وقد تدفقت أرق المشاعر إلى الصدور واشتد وجيب الأفئدة وامتلأت المآق بالدموع ، فالمهاجرون ينطلقون إلى أحب أرض الله إليهم ، إلى أرض الذكريات التى ما فتئو يحلمون بالعودة إليها مذ أخرجوا من ديارهم ، والأنصار يلمسون ما وعدهم به الله ورسوله ، إنها أميال قليلة ثم يطوفون بأول بيت وضع للناس ليكون منارة التوحيد .

ودخل صاحب الجمل الأحمر الذى بشرت به الأنبياء على الثنية التى تطلعه على الحجون وعبد الله بن رواحة آخذ بزمام راحلته وهو يقول :

خلوا بنى الكفار عن سبيله ... خلوا فكل الخير فى رسوله

يا رب إنى مؤمن بقيله ... أعرف حق الله فى قبوله

نحن قتلناهم على تأويله ... كما قتلناكم على تنزيله

ضربا بذيل الهام[2] عن مقيله ... ويذهل الخليل عن خليله

(١) محدقون به : ملتفون حوله .

(٢) يذيل الهام عن مقيله : يذيل الرءوس يقصد : ضربا شديدا تهون له الرءوس

فقال له عمر بن الخطاب :

— إيها يا بن رواحة .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— يا عمر إنى أسمع .

فأسكت عمر وقال رسول الله — ﷺ — :

— إيها يابن رواحة ! قل : لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده .

وأطرق عليه السلام تواضعا لله وهو يلبى حتى استلم الركن بمحجنه[١] مضطبعا[٢] بثوبه وطاف على راحلته والمسلمون يطوفون معه وقد اضطبعوا بثيابهم ، وقريش على جبل أبى قبيس وقينقاع تنظر لا تكاد تصدق أن ابن أبى كبشة قد جاء بأصحابه يطوف بالبيت بعد أن خرجوا من مكة إلى رءوس الجبال :

وقال قائل من قريش :

— إن المهاجرين أوهنتهم حمى يثرب .

فأطلع الله نبيه على ما قالوا ، ثم قال — ﷺ — :

— رحم الله امرأ أراهم من نفسه قوة .

وكشف عضده اليمنى ففعلت الصحابة كذلك وراحوا يسعون بين الصفا والمروة ، ثم أمرهم أن يرملوا (يهرولوا) الأشواط الثلاثة ليروا

---

(١) المحجن : العصا المعوجة .

(٢) اصطباع الثوب : جعله كملابس الإحرام حيث يظهر أحد الضبعين أى الجانبين

المشركين أن لهم قوة ، فلما رأى المشركون أصحاب محمد يهرولون قال بعضهم لبعض :

ــ هؤلاء الذين زعمتم أن الحمى قد وهنتهم، إنهم لينفرون نفر الظبى .

فلما كان الطواف السابع عند فراغه وقد وقف الهدى عند المروة قال :

ــ هذا المنحر وكل فجاج مكة منحر .

فنحر عند المروة وحلق هناك وكذلك فعل المسلمون . وأمر رسول الله ــ ﷺ ــ ناسا منهم أن يذهبوا إلى أصحابهم ببطن يأجج فيقيموا على السلاح ويأتى الآخرون فيقضوا نسكهم ففعلوا .

وعاد رسول الله عليه السلام ، وصحبه إلى الكعبة ودخلها فلم يزل بها حتى أذن بلال الظهر فوق ظهر الكعبة ، فراح سادات قريش ينظرون إلى مؤذن الرسول فى حنق ، وقال قائل منهم للحارث بن هشام :

ــ ألا ترى إلى هذا العبد أين صعد ؟

ــ دعه فإن يكن الله يكرهه فسيغيره .

وقال عكرمة بن أبى جهل :

ــ لقد أكرم الله أبا الحكم حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول .

وقال صفوان بن أمية :

ــ الحمد لله الذى أذهب أبى قبل أن يرى هذا .

وقال خالد بن أسيد :

ــ الحمد لله الذى أذهب أبى و لم يشهد هذا اليوم حيث يقوم بلال ينهق فوق الكعبة .

وغطى سهيل بن عمرو وجهه فقد كانوا يعجبون أن يكون لهذا الكون ربا واحدا بينا أصنام الآلهة تكدست فى جوف الكعبة ومن حولها .

وخرج عليه السلام من الكعبة وأم الصحابة وقد اصطفوا خلفه ورجال مكة ونساؤها مدوا أعينهم وأرهفوا أذانهم ليسمعوا قرآن محمد ، فإذا به يبده عقولهم فما أكثر ما سمعوا الشعر وحفظوه وألقوا أسماعهم إلى زمزمة السحرة وسجع الكهنة ، إنه شيء آخر يحرك العواطف ولولا عمى القلوب لانحدروا من الجبال مؤمنين .

وذهب رسول الله ـ ﷺ ـ إلى قبته التى نصبها بالأبطح ليستريح بينا كان قلب برة بنت الحارث الهلالية يهفو إليه عليه السلام . إنها أخت أم الفضل زوج العباس أول من آمنت به من النساء بعد خديجة ، وأخت أسماء بنت عميس الخثعمية زوج جعفر بن أبى طالب ، وسلمى بنت عميس زوج حمزة بن عبد المطلب أسد الله . إنهن الأخوات المؤمنات وإنها أرملة فى السادسة والعشرين من عمرها مات عنها زوجها فصارت أمنيتها أن تصبح أم المؤمنين . وإن رسول الله ـ عليه الصلاة والسلام ـ قد جاء إلى مكة وصار على مقربة منها فأصبح عليها أن تتحرك قبل أن تنقضى الأيام الثلاثة التى حددتها قريش لمكث المسلمين بأم القرى . إنها كلمة تتحرك بها شفتاه ثم تتحقق الأحلام .

وجاء العباس إلى قبة رسول الله ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ ليطفىء نار الشوق وليرى جعفرا وعليا ورجال بنى هاشم . وفيما كان الحديث دائرا بين رسول الله عليه السلام ومن جاءوا لتحيته التفت ـ ﷺ ـ إلى الوليد بن الوليد وقال :

— أين خالد ؟

فقال الوليد بن الوليد فى ثقة :

— يأت الله به .

— ما مثله يجهل الإسلام .

وخرج الوليد بن الوليد يطلب خالدا فلم يجده ، فكتب إليه كتابا وهو يدعو الله أن يهدى أخاه إلى الإسلام .

وكانت برة قد حدثت أم الفضل بأمنيتها أن تكون زوجة لرسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ليكون لبنى هلال شرف مصاهرة رسول الله — ﷺ — كما نالت بنى تيم وبنى عدى وبنى أمية وبنى مخزوم وهوازن وبنى أسد وبنى المصطلق ذلك الشرف ، فحدثت أم الفضل زوجها العباس فأفضى العباس إلى ابن أخيه بأمنية برة ، فبعث عليه السلام جعفر بن أبى طالب إليها ليخطبها . فما إن خرج جعفر من عندها حتى استخف بها الطرب فركبت بعيرها وانطلقت إلى حيث كان نبى الإسلام عليه السلام ، فلما أن وقعت عيناها عليه — صلوات الله وسلامه عليه — قالت :

— البعير وما عليه لله ولرسوله .

وتحدث الناس عما فعلت برة ، إنها لم تستطع الانتظار فجاءت تهب نفسها لله ولرسوله ، وقد سماها عليه السلام ميمونة . وكثر الهمس استخفافا بالشابة التى استجابت استجابة صادقة لعواطفها دون رياء ، ووجد المنافقون فرصة للغمز واللمز ومحاولة بذر بذور الاستياء فى قلوب المسلمين ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك

وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم لكيلا يكون عليك حرج وكان الله غفورا رحيما ﴾[١] .

(٢٥)

انساب المهاجرون فى دروب مكة يشمون عبير أرض الذكريات ويلثمون بأعينهم الدور ويهرعون إلى مراتع الصبا والشباب فرحين . كانت بعض بيوتهم خاوية لا حركة ولا نأمة قد خيم عليها السكون تبعث الأسى فى النفوس ، ولكنهم ألقوا عليها نظرات عابرة دون أن تنزل بأفئدتهم الهموم فقد كان اليوم يوم نصر وحبور .

كانوا فى المدينة يستشعرون شوقا طاغيا إلى مكة وكانت أعز أمانيهم أن يعودوا إلى أم القرى وأن يرووا ظمأهم من ماء زمزم وأن يطوفوا بالبيت العتيق وأن يسمروا بالحجون ، فإذا بكل آمالهم تتحقق ، ولم ينغص عليهم صفو انتصارهم إلا تلك الأصنام التى تقع أعينهم عليها فى كل مكان فإذا بأمنية جديدة تطغى على كل الأمانى ، أن يأتى ذلك اليوم الذى يسود فيه الحق ربوع أحب بقاع الأرض إلى نفوسهم وأن ترفرف راية التوحيد على البيت العتيق .

---

(١) الأحزاب ٥٠

وكان حكيم بن حزام قد اشترى حلة سيف بن ذى يزن بثلاثمائة دينار من سوق عكاظ ، فلما وجد أن زوج عمته خديجة أم المؤمنين فى مكة وأن بينه وبينهم هدنة رأى أن يهدى إليه تلك الحلة فانطلق بها إلى حيث كان الرسول عليه السلام وأهداها إليه ، فأبى رسول الله عليه السلام أن يقبلها وقال :

— لا أقبل هدية مشرك .

فجزع حكيم جزعا شديدا حيث رد هديته فباعها من أول سائم سامه ، ودس رسول الله إليها زيد بن حارثة فاشتراها فلبسها رسول الله ، فلما رآه حكيم فيها قال :

ما ينظر الحكام بالفصل بعدما بدا سابق ذو غرة وحجول(١)

واستمر حكيم يملأ عينيه من رسول الله عليه السلام فما رأى أحدا قط أجمل ولا أحسن من رسول الله فى تلك الحلة .

وخلعها رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فما كان يحب أن يزهو بجيد الثياب فكساها أسامة بن زيد بن حارثة ، فرآها عليه حكيم فقال :

— بخ بخ يا أسامة ، عليك حلة ذى يزن !

فقال لأسامة رسول الله :

— قل له وما يمنعنى وأنا خير منه وأبى خير من أبيه ؟

وانقضت الأيام الثلاثة ورسول الله — ﷺ — مع الأنصار يتحدث

---

(١) الغرة : بياض فى جبهة الفرس والمراد هنا الإشراق والنور ، والحجول : بياض فى أرجل الخيول والمراد هنا جمال المنظر .

مع سعد بن عبادة ، فجاء إليه سهل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى فى نفر من قريش فصاح حويطب :

ــ ناشدتك الله والعقد إلا ما خرجت من أرضنا فقد مضت الثلاث .

فغضب سعد بن عبادة لما رأى من غلظ كلامهم للنبى ــ ﷺ ــ فقال لحويطب :

ــ كذبت لا أم لك ليس بأرضك ولا أرض آبائك ، والله لا يبرح منها إلا طائعا راضيا .

فتبسم رسول الله ــ ﷺ ــ وقال :

ــ يا سعد لا تؤذ قوما زارونا فى رحالنا .

وأراد رسول الله ــ ﷺ ــ أن يبنى بميمونة فى مكة ، فقال لحويطب وصحبه :

ــ إنى قد نكحت فيكم امرأة . فما يضركم إن مكثت حتى أدخل بها وأصنع الطعام فنأكل وتأكلون معنا !

ــ لا حاجة لنا فى طعامك . اخرج عنا من أرضنا هذه الثلاثة قد مضت .

وهم سعد بن عبادة بأن يتكلم وتأهب حويطب للرد عليه فأسكت عليه السلام الفريقين ، ثم إنه ــ ﷺ ــ أمر أبا رافع أن ينادى بالرحيل لا يمسى بها أحد من المسلمين ، وخلف أبا رافع ليأتى له بميمونة حين يمسى .

وتدفق المسلمون على الحرم يطوفون طوف الوداع وينسحبون بظهورهم دون أن يولوا الكعبة الأدبار تعظيما لها ، وفى الأعين دموع

وفى الحلوق غصص ، وكفار قريش على رءوس الجبال ينظرون فى دهش فقد قيل لهم فيما قيل إن محمداوصحبه لا يوقرون البيت ، فإذا بتلك الحجة تنهار فالمسلمون يعظمون بيت أبيهم إبراهيم ويتجشمون المشاق لزيارته والطواف به ورفع أكف الضراعة إلى الله عند باب بيته .

وفعلت الأيام الثلاثة فى قلوب مشركى قريش الأفاعيل ، كانوا يرصدون حركات المسلمين ويرقبون صلواتهم ويلقون السمع إلى القرآن المجيد فخطر لأناس منهم أن ينحدروا من الجبال إلى حيث استقر المسلمون لينهلوا من النبع الصافى الرقراق الذى هفت[1] إليه الأفئدة لولا الخوف من الناس وخشية بطش الجبارين .

واسل المسلمون من مكة حتى إذا ما غابت الشمس خلف الجبال وبدأ زحف الليل لم يكن بها غير أبى رافع وميمونة ، فذهب أبو رافع ليقود بعير ميمونة إلى معسكر رسول الله عليه السلام ، وطفق أبو رافع يشق طريقه بين الجموع الهادرة فى غضب فى جهد شديد ، وكان يؤذيه ما لقى من عناء من أهل مكة ويزيد فى غضبه ما نال النبى — ﷺ — من أذى ألسنتهم وميمونة ، فلم يجد مفرا من التهديد فقال لهم :

— ما شئتم ، هذه والله الخيل والسلاح ببطن يأجج وأنتم تريدون نقض العهد والمدة .

كانوا يرتجفون من فكرة نقض العهد فقد أصبح من الواضح وضوح النهار أنه لا قبل لهم بمحمد وصحبه ، فإن أراد أن يميل عليهم فلن يجد من يقف فى وجهه وإنهم بهذه السباب المتدفقة من أفواههم يعطونه فرصة

---

(١) هفا إليه : مال إليه وأحبه .

نقض العهد وفتح مكة ، فتقاصرت أنفس السفهاء فولوا راجعين منكسين .

ولما خرج رسول الله — ﷺ — من مكة جاءه على بن أبى طالب وكلمه فى عمارة بنت حمزة بن عبد المطلب وكانت مع أمها سلمى بنت عميس ، فقال :

— علام نترك بنت عمنا يتيمة بين أظهر المشركين ؟

وبعث عليه السلام إلى أبى رافع أن يأتى بعمارة ، فخرج أبو رافع بميمونة وعمارة حتى إذا ما لحق بركب المسلمين تناول على كرم الله وجهه ابنة عمه فأخذ بيدها وقال لفاطمة الزهراء :

— دونك ابنة عمك .

وسار ركب المسلمين حتى إذا بلغوا سرِف نزلوا بها ونصبت قبة رسول الله عليه السلام تحت شجرة هناك ، ودخل بميمونة بعد أن صنع طعاما لأصحابه . وسعدت الزوجة الشابة بذلك الزواج الذى شرفها وشرف قومها وحفرت فى عين ذاتها ذكريات هذه البقعة المباركة التى جعلت منها أما للمؤمنين ، إن لحظات سرف هى زاد حياتها وهى خير زاد يغذى روحها حتى الممات .

وانصرف المسلمون راجعين إلى المدينة ، واختلف على بن أبى طالب وزيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب فى أيهم يكفل عمارة بنت حمزة أسد الله وأسد رسوله ، فقال زيد بن حارثة :

— أنا أحق بها لأنها بنت أخى وأنا وصيه .

وقال زيد حقا فالنبى — ﷺ — كان قد آخى بين حمزة وزيد وجعل حمزة وصيه .

وقال على كرم الله وجهه :

ــ أنا أحق بها لأنها بنت عمي وجئت بها من مكة .

وقال جعفر :

ــ أنا أحق بها لأنها بنت عمي وخالتها تحتى .

وكانت أسماء بنت عميس زوجة جعفر ، وكانت سلمى بنت عميس أم عمارة بنت حمزة ، وكان جعفر يرى أنه أحق الثلاثة بكفالة بنت عمه ، فلما بلغ الأمر رسول الله عليه السلام قضى بها لجعفر وقال :

ــ الخالة بمنزلة الأم .

وهز الفرح جعفر فحجل حول النبى ــ ﷺ ــ فقال عليه السلام :

ــ ما هذا يا جعفر ؟

ــ يا رسول الله كان النجاشي إذا رضى أحد أقام فحجل حوله .

وقدّم رسول الله ــ ﷺ ــ الخالة فى الحضانة على العمة فقد كانت صفية بنت عبد المطلب موجودة ، وقال ــ ﷺ ــ لعلىّ :

ــ أنت أخي وصاحبى ، أنت منى وأنا منك .

وقال جعفر :

ــ أشبهت خَلقى وخُلقى .

وقال لزيد :

ــ أنت مولى الله ومولى رسوله .

عاد خالد بن الوليد إلى داره وهو مطرق يفكر فيما رأى من محمد بن عبد الله وصحبه . إنه قد خيل إليه أنهم مصابيح نور وأن فؤاده قد هفا إليهم وأن صدره قد انشرح لما سمع من الذكر الحكيم ، وراح يسأل نفسه ما الذى يجعله يحجم عن الحق ما دام قد استبان الطريق ؟ ! إنه يستشعر نسائم الألطاف تهب عليه والحجب تنكشف عن عين قلبه فاشتعل سراج فؤاده بأنوار بصيرته فإذا به يشاهد ما وراء حواسه الخمس وينفذ فى عالم الملكوت .

وخف إليه أحد مواليه وقال له :

ــ إن مولاى الوليد بن الوليد قد طلبك فلم يجدك فكتب لك هذا الكتاب .

وتناول خالد الكتاب فى لهفة وراح يقرأ :

ــ بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام وقلة عقلك ومثل الإسلام لا يجهله أحد . قد سألنى عنك رسول الله ــ ﷺ ــ فقال أين خالد ؟ فقلت يأتى الله به . فقال ما مثله يجهل الإسلام ولو كان يجعل نكايته مع المسلمين على المشركين كان خيرا له . فاستدرك يا أخى ما فاتك فقد فاتك مواقف صالحة » .

ونشط خالد للخروج وزاده الكتاب رغبة فى الإسلام وسرته مقالة رسول الله . وأطلق لخياله العنان ، إنه حارب محمدا ــ ﷺ ــ وهو

يعتقد أنه فى جانب الحق ، وإنه شهد المواطن كلها على محمد عليه السلام فليس موطن يشهده إلا ينصرف وهو يرى فى نفسه أنه موضع[١] فى غير شيء وأن محمدا — ﷺ — يظهر ، حتى إذا كانت عمرة القضية قذف الله فى قلبه الإسلام وحضر له رشده .

تفتحت نفسه لاستقبال الأنوار واستعد للمعرفة بفؤاده لا بجارحة من جوارحه ، ففاضت عليه الرحمة وانشرح صدره وتألقت فى وجدانه حقائق الأمور .

واختلجت الخواطر فى نفسه فتذكر تلك الأيام التى كان أبوه الوليد ابن المغيرة يغشى النبى وأبا بكر حتى حسبت قريش أنه أسلم ، وتمنى فى قرارة نفسه لو أن أباه قد أسلم فى تلك الأيام كما أسلم أخوه الوليد ، وأحس أسى لما تذكر أنه أذاق أخاه العذاب وهو يحسب أنه يحسن صنعا . ليت ربه يغفر له ما كان منه من قتل المؤمنين وتعذيب المستضعفين .

ولو أن أباه قد أسلم قبل أن يهاجر رسول الله عليه السلام إلى المدينة لحقن دماء كثيرة روت أرض بدر وأحد ، ولمات قرير العين كما يموت المؤمنون . ولكنها إرادة الله لا راد لقضائه فعال لما يريد .

ودار فى وجدانه ذلك الحوار الذى نشب بين أبيه وأبى جهل :

— إن قريشا تزعم أنك إنما تأتى محمدا وابن أبى قحافة تصيب من طعامهما .

— إنكم ذوو أحساب وذوو أحلام وإنكم تزعمون أن محمدا

---

(١) وضع : حمل ركابه على العدو ، والمراد هنا أن لا فائدة من عداوته للرسول .

مجنون ، وهل رأيتموه يتكهن قط ؟
ــ اللهم لا .
ــ تزعمون أنه شاعر ، هل رأيتموه ينطق بشعر قط ؟
ــ لا .
ــ فتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئا من الكذب ؟
ــ لا ، فما هو ؟
ــ ما هو إلا ساحر وما يقوله سحر .
ــ لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .
ــ فدعنى حتى أفكر فيه .

وكاد خالد بن الوليد يصرخ فى مجلسه يقول فيم تفكر يا أبى وقد استبان لك الحق ؟ فأبوه الوليد قد عرف جوهر رسالة محمد ــ ﷺ ــ وألقى إليه سمعه وقال عن قرآنه إن هذا إلا سحر يؤثر ، فلماذا استكبر و لم يتبع النور ؟ لو أنه أسلم لكان حال قريش غير الحال ولكن الله يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شىء قدير .

وراحت آيات من القرآن المجيد تضىء وجدان خالد وتمس أذنيه مسا رقيقا فيخشع قلبه ويفيض دمعه من عينيه وتتفرح نفسه بالله : ﴿ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[1] .

---

(١) البقرة ١٦٤ .

﴿ ألم نجعل الأرض مهادا * والجبال أوتادا * وخلقناكم أزواجا * وجعلنا نومكم سباتا * وجعلنا الليل لباسا * وجعلنا النهار معاشا * وبنينا فوقكم سبعا شدادا * وجعلنا سراجا وهاجا * وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا * لنخرج به حبا ونباتا * وجنات ألفافا ﴾[١] .

﴿ أفرأيتم ما تمنون * أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون * نحن قدرنا بينكم الموت وما نحن بمسبوقين * على أن نبدل أمثالكم وننشئكم فى ما لا تعلمون * ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون * أفرأيتم ما تحرثون * أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون * لو نشاء لجعلناه حطاما فظلتم تفكهون * إنا لمغرمون * بل نحن محرومون * أفرأيتم الماء الذى تشربون * أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون * لو نشاء جعلناه أجاجا فلولا تشكرون * أفرأيتم النار التى تورون * أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون * نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين * فسبح باسم ربك العظيم ﴾[٢] .

فإذا بخالد بن الوليد يتمتم فى إيمان عظيم :

— سبحان الله .

ودخل خالد ونام فرأى فى المنام كأنه فى بلاد ضيقة جدبة فخرج إلى بلاد خضراء واسعة . فلما هب من نومه ذهب ليتجهز لينطلق على جناح الشوق إلى المدينة ليلقى محمدا — ﷺ — وليعلن على الملأ شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، فقد كان خالد فارسا حقا حارب الإسلام لما اعتقد أنه فى جانب الحق ، وعزم على الهجرة لما أزاح الله

---

(١) النبأ ٦ — ١٦ .

(٢) الواقعة ٥٨ — ٩٦

الحجب عن بصيرته وألقى فى صدره أنوار اليقين .

وخرج خالد من داره وقد عزم على الانطلاق إلى المدينة ، فلقى صفوان بن أمية فقال :

ـــ يا أبا وهب أما ترى محمدا ظهر على العرب ؟ فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرفه شرف لنا .

فقال صفوان فى انفعال :

ـــ لو لم يبق غيرى ما اتبعته أبدا .

فانصرف عنه خالد وهو يقول فى نفسه : « هذا رجل قتل أبوه وأخوه ببدر » . فلقى عكرمة بن أبى جهل فقال له :

ـــ يا بن أخى أما ترى محمدا ظهر على العرب ، فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرفه شرف لنا .

فقال عكرمة مثل ما قال صفوان ، فقال خالد :

ـــ فاكتم ذكر ما قلت .

ـــ لا أذكره .

ثم لقى عثمان بن طلحة الحجبى فقال فى نفسه : « هذا لى صديق » . فأراد أن يذكر له ثم تذكر أن أباه طلحة وعمه عثمان وإخوته الأربعة مسافع والحلاس والحارث وكلاب كلهم قتلوا يوم أحد فكره أن يذكر له . ثم قال فى نفسه : « وما علىّ ؟ » فقال له :

ـــ إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر لو صب فيه ذنوب ماء لخرج .

فالتفت إليه عثمان بن طلحة فى انتباه وهو يرقب ما يقصده خالد من هذا الحديث ، فقال خالد :

ـــ أما ترى محمدا ظهر على العرب فلو قدمنا عليه فاتبعناه فإن شرفه

شرف لنا ؟

فقال عثمان فى فرح :

ــ هذا هو الرأى .

فواعد عثمان بن طلحة خالد بن الوليد إن سبقه أقام بمحل كذا وإن سبقه خالد إليه انتظره . فلم يطلع الفجر حتى التقيا فانطلقا على رواحلهما حتى انتهيا إلى الهدة فوجدا عمرو بن العاص بها ، فقال عمرو :

ــ مرحبا بالقوم .

ــ وبك .

وقال عمرو لخالد :

ــ يا أبا سليمان أين تريد ؟

فقال خالد بن الوليد فى حماس :

ــ والله لقد استقام الميسم (الطريق) وظهر الأمر ، وإن هذا الرجل لنبى فاذهب فأسلم فحتى متى ؟ !

وقال عمرو :

ــ وأنا ما جئت إلا لأسلم .

وانطلقوا وعمرو بن العاص يقص ما كان بينه وبين نجاشى الحبشة وكيف أن النجاشى قد نصحه أن يتبع النبى الأمى الذى يجده مكتوبا عنده فى التوراة والإنجيل وكيف بايعه على الإسلام ، وخالد بن الوليد وعثمان بن طلحة يصغيان وهما يحسان أن روحيهما أصبحتا قادرتين على التحليق وقرع أبواب الملكوت .

وأناخوا بظهر الحرة ركابهم وأخبروا رسول الله أنهم قدموا ليشهدوا

شهادة الحق ، فسر بهم وقال لأصحابه :

ـــ رمتكم مكة بأفلاذ كبدها .

وذاع بين المسلمين أن خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن طلحة قد جاءوا طائعين ليدخلوا فى دين الله بعد أن استبان لهم الأمر ، وطاف بالمدينة سرور وهرع بعض الناس إلى رحالهم ، وكان الوليد بن الوليد يهرول وهو يكاد يطير من الفرح فإن نبأ إسلام أخيه خالد كان أحب إليه من كنوز الأرض .

وراح خالد وعمرو وعثمان بن طلحة يلبسون من صالح ثيابهم وقد اشتد وجيب قلوبهم فهم لا يقدمون على الصابىء ولا ابن أبى كبشة بل يقدمون على رسول الله ـــ ﷺ ـــ الذى أرسله ربه بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله .

وارتفع صوت بلال يؤذن بالعصر فإذا بخالد وصحبه يرهفون السمع فيستشعرون كأن أنوارا تملأ جوانحهم ، والتفت الوليد بن الوليد إلى أخيه وقال :

ـــ أسرع فإن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد سر بقدومكم وهو ينتظركم .

فأسرعوا المشى حتى بلغوا المسجد ، فانطلقوا إلى حيث كان رسول الله عليه السلام وأعين المسلمين تمتد إليهم وقد ترقرقت فيها الدموع من الانفعال ، ولو طاوعوا عواطفهم لانطلق التكبير من حناجرهم فإسلام فارس قريش وعمرو بن العاص داهية قريش وعثمان بن طلحة سادن الكعبة شىء يهز المشاعر ويملأ القلوب بالبشر .

ورأى عليه السلام خالد وهو يتقدم فتبسم إليه ، وما زالت البسمة

تتوج شفتيه حتى وقف خالد بعد خطوات منه وقال فى صوت متهدج من التأثر :

ـــ السلام عليك يا رسول الله .

فرد عليه النبى ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ بوجه طلق فقال :

ـــ وعليك السلام يا أبا سليمان ورحمة الله .

فقال خالد وهو يهتز من رأسه إلى قدمه من شدة الانفعال :

ـــ أشهد أن لا الله إلا الله ، وأنك رسول الله .

فقال عليه السلام فى رضا :

ـــ الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلا رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير .

فقال خالد فى ابتهال :

ـــ يا رسول الله ادع الله لى أن يغفر لى تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك .

فقال عليه السلام :

ـــ الإسلام يجب ما كان قبله .

وتقدم عمرو بن العاص إلى رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ وإن لوجهه عليه السلام تهللا والمسلمون حوله يترقرق فى محياهم السرور ، فما هو إلا أن جلس عمرو بين يديه ـــ عليه الصلاة والسلام ـــ فما استطاع أن يرفع طرفه حياء منه ـــ ﷺ ، إنه هجاه فى مكة هجوا فاحشا وعلم الأطفال الشعر لينشدوه خلفه فى دروب أم القرى ، وآذاه وأنزل ألوان العذاب بأصحابه وهو يأتى اليوم تائبا ، فقال بعد أن شهد شهادة الحق :

— أبايعك يا رسول الله على أن يغفر لى ما تقدم من ذنبى .
و لم يحضره ما تأخر ، فقال عليه السلام :
— إن الإسلام يجب ما قبله والهجرة تجب ما قبلها .
وأسلم الرجال الثلاثة ووقفوا خلف رسول الله يصلون مع المسلمين أول صلاة وقد خشعوا لله .
﴿ قـل لله المشرق والمغـرب يهدى مـن يشاء إلى صراط مستقيم ﴾[1] .

(٢٧)

كانت سليم ترى فى الإسلام قيدا يحد من حريتهم ويفرض عليهم الزكاة التى نظروا إليها على أنها أتاوة ، وقد أسلم بعض رجال سليم فلم يقابل الناس ذلك بالارتياح بل كانوا يعيرون الذين اعتنقوا الدين الجديد ويهجونهم ، وقد قال أبو شجرة بن الخنساء قصيدة طويلة يقرع فيها من قد أسلم :

ألا أيها المولى بـكثرة قومـه وحظك منهم أن تضام وتقهـرا

وقد رأت سليم نفسها بعد زوال المستعمرات اليهودية أنها أمام الدولة الإسلامية وجها لوجه ، فلم يكن أمامها إلا أن تعتنق الإسلام أو تنضم إلى غطفان وهوازن وأعدائها الألداء الذين يقفون فى وجه الدعـوة الجديدة ، واستمرت سليم فى حيرتها لا تدرى إلى أى المعسكرين تنضم .

---

(١) البقرة ١٤٢ .

...... وأذاقت سليم أبناءها الذين دخلوا فى دين الله صنوف العذاب . لقد بدأتهم بالعدوان فبعث رسول الله — ﷺ — ابن أبى العوجاء السلمى فى خمسين رجلا إلى بنى سليم — فكان لهم جاسوس مع القوم فخرج يعدو إلى بنى سليم وحذرهم فجمعوا جمعا كثيرا وأخذوا ينتظرون سرية ابن أبى العوجاء فانقلب الحال . كان ابن أبى العوجاء يعتمد على المفاجأة فى الإغارة على قومه فإذا بفرسان سليم يرصدون مقدمه وقد تأهبوا للقتال .

ووقف ابن أبى العوجاء السلمى والذين معه أمام فرسان بنى سليم وجها لوجه ، فتقدم ابن أبى العوجاء إلى صفوف بنى سليم ودعاهم إلى الإسلام فقالوا :

— أى حاجة لنا بما تدعونا إليه ؟

فتراموا بالنبل ساعة وجعلت الأمداد تأتى بنى سليم وأحدقوا بالمسلمين من كل ناحية ، ودارت رحى معركة رهيبة لم تكن متكافئة ، وثبت المسلمون يقاتلون فى ثقة يرجون إحدى الحسنيين الاستشهاد أو النصر .

وسالت دماء طاهرة واستشهد عامة المسلمين ، وقد عجب فرسان بنى سليم من تلك الروح القتالية العالية والاستبسال الذى أبداه المؤمنون فأثرت فيهم مواقف الشجاعة الرائعة حتى إنهم فكروا فى ذلك الدين الذى يقدم له أتباعه أرواحهم مستبشرين .

وأصيب ابن أبى العوجاء جريحا مع القتلى ، وأدار النصر رءوس بنى سليم فلم يجهزوا على الجرحى . وتحت جنح الليل راح ابن أبى العوجاء يتحامل حتى أتى رسول الله — ﷺ — وأخبره نبأ خيانة ذلك

الجاسوس وما حاق بالمسلمين .

وبعث عليه السلام غالب بن عبد الله الليثى إلى بنى المُلوّح فى بضعة عشر رجلا لما بلغه أن القوم يأتمرون بالمسلمين ، فخرج غالب فى أصحابه حتى إذا كانوا بقديد لحقوا الحارث الليثى فأسروه فقال :

— إنما خرجت إلى رسول الله — ﷺ — أريد الإسلام .

فقالوا له :

— إن كنت مسلما لم يضرك ربطنا لك يوما وليلة ، وإن كنت غير ذلك استوثقنا منك .

فشدوه وثاقا وخلفوا عليه رجلا أسود منهم وقالوا له :

— إن نازعك فاحترز رأسه .

وساروا حتى أتوا محل القوم عند غروب الشمس فكمنوا فى ناحية الوادى ، وأرسل القوم جندب الجهنى جاسوسا لهم فخرج حتى أتى تلا مشرفا على القوم المقيمين بمحلهم ، فلما استوى على رأسه انبطح عليه لينظر إذ خرج رجل منهم فقال لامرأته :

— إنى لأنظر على هذا الجبل سوادا ما رأيته قبل ، انظرى إلى أوعيتك لا تكون الكلاب جرت منها شيئا .

فنظرت فقالت :

— والله ما فقدت من أوعيتى شيئا .

— ناولينى قوسى ونبلى .

فناولته قوسه وسهمين فأرسل سهما فما أخطأ ما بين عينى جندب ، ووَدّ جندب أن يئن ولكنه كتم آلامه فانتزع السهم وثبت مكانه ، وأرسل الرجل سهما آخر فوضعه فى منكب جندب فانتزعه وثبت

مكانه ، فقال الرجل لامرأته :

ـــ والله لو كان جاسوسا لتحرك ، لقد خالطه سهمان لا أبا لك ، فإذا أصبحت فانظريهما لا تمضغهما الكلاب .

ثم دخل ، فلما اطمأن بنو الملوح وناموا شن المسلمون عليهم الغارة ، فدارت معركة فى سواد الليل أسفرت عن قتل المقاتلة وسبى الذرية واستاقوا النعم والشاة . ومروا على الحارث الليثى فاحتملوه واحتملوا صاحبهم الذى تركوه عنده ، فخرج صريخ القوم فى قومهم فجاء ما لا قبل للمسلمين بهم فصار بين المسلمين وبينهم الوادى .

وأيقن المسلمون أنه الموت فاستلوا سيوفهم وتأهبوا لخوض معركة حتى آخر رجل ، فلم يعد هناك ملجأ إلا الله والسيوف . واشتد بنو الملوح ليقتلوا الذين تستروا بالليل لشن غارتهم وإذا بسحابة تحجب السماء وإذا بمطر يهطل مدرارا فسال الوادى فلم يستطع الكافرون أن يجوزوا به فصاروا وقوفا ينظرون فى غيظ شديد إلى المسلمين وهم متوجهون إلى المدينة .

وكان رسول الله فى المدينة يعقد اللواء للزبير بن العوام لينتقم لسرية بشير بن سعد الأنصارى التى بعثها عليه السلام إلى بنى مرة بفدك فأحاط بهم القوم وفتكوا بهم فتكا ذريعا . وقبل أن يتحرك الزبير قدم غالب من الكديد مؤيدا منصورا فبعثه عليه السلام فى مائتى رجل إلى حيث أصيب أصحاب بشير بن سعد وقال عليه السلام للزبير :

ـــ اجلس .

فسار غالب وصحبه ، فلما دنا من أعدائه ليلا قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

ـــ أما بعد فإنى أوصيكم بتقوى الله تعالى وحده لا شريك له ، وأن تطيعونى ولا تخالفوا لى أمرا فإنه لا رأى لمن لا يطاع .

ثم ألف بين القوم فقال :

ـــ يا فلان أنت وفلان ، ويا فلان أنت وفلان ، لا يفارق رجل منكم زميله ، فإياكم أن يرجع الرجل منكم فأقول له أين صاحبك فيقول لا أدرى ، فإذا كبرت فكبروا .

وأحاطوا بالقوم لما بدا نور الصباح ، ودوى صوت غالب فى الفضاء :

ـــ الله أكبر .

وإذا بأصوات المسلمين تهدر كأنها الهزيم[1] :

ـــ الله أكبر .. الله أكبر .

وجردوا السيوف وخرج بنو مرة للقتال فقاتلوا ساعة ، ووضع المسلمون فيهم السيوف وهم يصيحون :

ـــ أمت .. أمت .

وانجلت المعركة عن هزيمة بنى مرة والثأر لأصحاب بشير بن سعد ، وساق المسلمون النعم والشاء والذرية ، فكان سهم كل رجل عشرة أبعرة .

كانت الهدنة قائمة بين المسلمين وقريش ، ولم يرض ذلك بعض قبائل العرب فكانوا يطمعون أن يقضوا عليهم . ولكنهم كانوا يريدون أن يعلنوا على الملأ أن العداوة بينهم وبين الإسلام لا تزال قائمة . فكان عليه

---

(١) الهزيم : صوت الرعد .

السلام يبعث السرايا ليهاجموا هؤلاء الثائرين فى عقر دارهم ليقضى على الفتنة قبل أن تستفحل ، وليصون عاصمة الدولة الإسلامية الناشئة من العبث .

(٢٨)

المسلمون فى مسجد رسول الله — ﷺ — التفوا حول جعفر بن أبى طالب وعمرو بن العاص يصغون إلى ما كان بين الرجلين عند النجاشى ، وكان عمرو يروى طرفا من الحديث وقد رفت على شفتيه بسمة هازئة من أقواله وأفعاله ، فإنه كان يحسب فى ذلك الوقت أنه يستطيع بدهائه أن يطفىء نور الله وما دار بخلده أن الله ناصر دينه ، فلما أشرق قلبه بالأنوار أصبحت نفسه تتقاصر كلما تذكر ما كان ، وحمد الله أن الإسلام يجب ما قبله .

قال عمرو بن العاص :

— لما هاجر جعفر وأصحابه إلى الحبشة واستقرت بهم الدار . وهاجر رسول الله — ﷺ — إلى المدينة وكان من أمر بدر ما كان ، اجتمعنا فى دار الندوة وقلنا : «إن لنا فى أصحاب محمد الذين عند النجاشى ثأرا عمن قتل منا ببدر ، فاجمعوا مالا وأهدوه إلى النجاشى لعله يدفع إليكم من عنده من قومكم ، ولينتدب لذلك رجلان من ذوى الرأى » .

فبعثونى وعمارة بن أبى معيط مع الهدايا والأدم وغيره ، فركبنا البحر وأتينا الحبشة . فلما دخلنا على النجاشى سجدنا له وسلمنا عليه وقلنا :

« إن قومنا لك ناصحون شاكرون ، ولصلاحك محبون ، وإنهم بعثونا إليك لنحذرك هؤلاء القوم الذين قدموا عليك ، وكنا قد ضيَّعنا عليهم الأمر وألجأناهم إلى شعب بأرضنا لا يدخل عليهم أحد ولا يخرج منهم أحد قد قتلهم الجوع والعطش ، فلما اشتد عليهم الأمر بعث إليك ابن عمه ليفسد عليك دينك وملكك ورعيتك ، فاحذرهم وادفعهم إلينا لنكفيكهم ، وآية ذلك أنهم إذا دخلوا عليك لا يسجدون لك ولا يحيونك بالتحية التى يحييك بها الناس رغبة عن دينك وسنتك » .

وشرد المسلمون يتذكرون أيام الشدة ، أيا أن ذاق المهاجرون ألوان الاضطهاد وحبسوا فى شعب أبى طالب . وارتجف سعد بن أبى وقاص فى مجلسه ، إنه تذكر ذلك اليوم الذى استبد به الجوع حتى إنه وجد شيئا طريا على الأرض فابتلعه وهو لا يدرى حتى الآن ما كان ، إن حديث عمرو ليعيد إلى ذاكرتهم أيام الكفاح يوم كانوا عزلا من كل سلاح إلا سلاح الإيمان : إنهم عذبوا بما لم يعذب به أحد واضطهدوا فى الله وصبروا وصابروا فنصرهم الله ، وعد الله لا يخلف الله وعده ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وتذكر الزبير بن العوام عمته خديجة ، إن الطاهرة سيدة نساء قريش قد تلوت من الجوع ، ولولا رقة قلب حكيم بن حزام على عمته لمات المسلمون جوعا فى شعب أبى طالب ، فحكيم كان يحمل البعير بالأقوات ويأتى بها إلى باب الشعب ثم يطلقها إلى المحصورين الجائعين ، وراح الزبير يعجب من أمر حكيم فإن مثله لا يجهل الإسلام ، وقد كان يحسب أن حكيم بن حزام سيأتى إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — مهاجرا ليعلن إسلامه قبل أن يأتى ابن العاص طائعا يعلن على الملأ الإيمان

والتسليم .

وراح عمرو يروى قصته قال : « فدعاهم النجاشي فلما حضروا صاح جعفر بالباب : يستأذن عليك حزب الله . فقال النجاشي : مروا هذا الصائح فليعد كلامه . فقال جعفر : يستأذن عليك حزب الله . قال النجاشي : نعم فليدخلوا بأمان الله وذمته . فنظرت إلى صاحبى فقلت : ألا تسمع كيف يرطنون بحزب الله وما أجابهم النجاشي ؟ ! فساءنا ذلك ثم دخلوا عليه ولم يسجدوا له ، فقلت ألا ترى أنهم يستكبرون أن يسجدوا لك ؟

والتقط جعفر بن أبى طالب طرف الحديث فقال :

ــ قال لنا النجاشي : ما يمنعكم أن تسجدوا لى وتحيونى بالتحية التى يحيينى بها من أتانى من الآفاق ؟ قلنا : نسجد لله الذى خلقك وملكك ، وإنما كانت تلك التحية لنا ونحن نعبد الأوثان فبعث الله فينا نبيا صادقا وأمرنا بالتحية التى نعتها[١] الله لنا ، وهى السلام تحية أهل الجنة .

وانثالت الذكريات على رأس عثمان بن عفان ، إنه كان هناك وكانت معه رقية بنت رسول الله ــ ﷺ ، إن النجاشي قد أكرمهما ولكن رجال البلاط قد آذوه بالنظر إلى رقية فقد كانت رحمها الله رائعة الحسن تخطف الأبصار .

واستمر جعفر فى الحديث قال : قال النجاشي أيكم الهاتف يستأذن عليك حزب الله ؟ قلت أنا . قال فتكلم ، قلت إنك ملك من ملوك أهل الأرض ومن أهل الكتاب ولا يصلح عندك كثرة الكلام ولا الظلم ، وأنا أحب أن أجيب عن أصحابى فمر هذين الرجلين فليتكلم أحدهما

---

(١) نعتها الله : وصفها لنا ووضحها .

وليسكت الآخر فتسمع محاورتنا . فقال لى عمرو تكلم . فقلت للنجاشي سل هذا الرجل أعبيد نحن أم أحرار ؟ فإن كنا عبيدا أبقنا من أربابنا فارددنا إليهم . فقال النجاشي أعبيد هم أم أحرار ؟ فقال عمرو بل أحرار كرام . فقال النجاشي خرجتم من العبودية . قلت سلهما هل أهرقنا دما بغير حق فيقتص منا ؟ فقال عمرو لا ولا قطرة . قلت سلهما هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤها ؟ قال النجاشي يا عمرو إن كان قنطارا فعلى قضاؤه . فقال عمرو لا ولا قيراط . قال النجاشي فما تطلبون منهم ؟ قال عمرو كنا وهم على دين واحد وأمر واحد على دين آبائنا ، فتركوا ذلك الدين واتبعوا غيره ولزمنا نحن ، فبعثنا إليك قومهم لتدفعهم إلينا . فقال النجاشي ما هذا الدين الذى كنتم عليه والدين الذى اتبعتموه ؟ أصدقنى . قلت أما الذى كنا عليه فتركناه فهو دين الشيطان وأمره . كنا نكفر بالله عز وجل ونعبد الحجارة . وأما الذى تحولنا إليه فدين الإسلام جاءنا به من الله رسول وكتاب مثل كتاب ابن مريم موافقا له . فقال النجاشي يا جعفر لقد تكلمت بأمر عظيم فعلى رسلك[١] .

ثم أمر النجاشي فضرب بالناقوس فاجتمع إليه كل قسيس وراهب ، فلما اجتمعوا عنده قال النجاشي : أنشدكم الله الذى أنزل الإنجيل على عيسى هل تجدون بين عيسى وبين القيامة نبيا مرسلا ؟ فقالوا : اللهم نعم قد بشرنا به عيسى وقال من آمن به فقد آمن بى ومن كفر به فقد كفر بى . فقال لى النجاشي : ماذا يقول لكم هذا الرجل ويأمركم به وما ينهاكم

---

(١) الرسل : الرفق والتؤدة .

عنه ؟ قلت : يقرأ علينا كتاب الله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويأمر بحسن الجوار وصلة الرحم وبر اليتيم ، ويأمرنا أن نعبد الله وحده لا شريك له . فقال : اقرأ علينا شيئا مما كان يقرأ عليهم . فقرأت عليهم سورة العنكبوت والروم ففاضت عينا النجاشي وأصحابه من الدمع وقالوا : يا جعفر زدنا من هذا الحديث الطيب . فقرأت عليهم سورة الكهف . فأراد عمرو أن يغضب النجاشي فقال : إنهم يشتمون عيسى وأمه ، فقال النجاشي : ما يقولون فى عيسى وأمه ؟ فقرأت عليهم سورة مريم ، فلما أتيت على ذكر مريم وعيسى رفع النجاشي بقية من سواك قدر ما يقذى العين وقال : والله ما زاد المسيح على ما تقولون هذا . ثم أقبل علىّ وعلى أصحابى فقال : اذهبوا فأنتم سيوم[١] فى أرضى آمنون ، من سبكم أو آذاكم غرم .

ثم قال : أبشروا ولا تخافوا ، ولا دهورة اليوم على حزب إبراهيم . قالوا : يا نجاشي ومن حزب إبراهيم ؟ قال : هؤلاء الرهط[٢] وصاحبهم الذى جاءوا من عنده ومن اتبعهم .

وقال عمرو :

— ثم رد النجاشي علينا المال الذى حملناه وقال إنما هديتكم إلى رشوة فاقبضوها ، فإن الله ملكنى و لم يأخذ منى رشوة .

وقال جعفر :

— وانصرفنا فكنا فى خير دار وأكرم جوار .

---

(١) السائمة : الإبل الراعية . ويقصد أنهم هانئون ناعمون .

(٢) الرهط : ما دون العشرة من الرجال ليست فيهم امرأة .

واستمر عمرو بن العاص يروى ما كان بينه وبين النجاشي فى زيارته التالية قال :

ـــ لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالا من قريش كانوا يرون رأيي ويسمعون مني فقلت لهم : تعلمون والله أنى أرى أمر محمد يعلو الأمور علوا منكرا وأنى قد رأيت أمرا فما ترون فيه ؟ قالوا : وماذا رأيت ؟ قلت : رأيت أن نلحق بالنجاشي فنكون عنده فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشي فإنا أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدى محمد ، وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا فلن يأتينا منهم إلا خير .

قالوا : إن هذا الرأى . قلت : فاجمعوا لنا ما نهديه له وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم ، فجمعنا له أدما كثيرا ثم خرجنا حتى قدمنا عليه .

فوالله إنا لعنده إذ جاء عمرو بن أمية الضمرى وكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد بعثه إليه فى شأن جعفر وأصحابه ، فدخل عليه ثم خرج من عنده فقلت لأصحابى : هذا عمرو بن أمية الضمرى لو قد دخلت على النجاشي وسألته إياه فأعطانيه فضربت عنقه ، فإذا فعلت ذلك رأت قريش أنى قد أجزأت عنها حين قتلت رسول محمد .

فدخلت عليه فسجدت له كما كنت أصنع ، فقال مرحبا بصديقى أهديت إلى من بلادك شيئا ؟ قلت : نعم أيها الملك قد أهديت إليك أدما كثيرا . ثم قربته إليه فأعجبه واشتهاه . ثم قلت له : أيها الملك إنى قد رأيت رجلا خرج من عندك وهو رسول رجل عدو لنا ، فأعطنيه لأقتله فإنه قد أصاب من أشرافنا وخيارنا . فغضب ثم مد يده فضرب بها أنفى

ضربة ظننت أنه قد كسره ، فلو انشقت لى الأرض لدخلت فيها فرقا[١] منه ، ثم قلت له : أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه . قال : أتسألنى أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس[٢] الأكبر الذى كان يأتى موسى لتقتله ! قلت : أيها الملك أكذاك هو ؟ قال : ويحك يا عمرو أطعنى واتبعه فإنه والله لعلى الحق ، وليظهرن على من خالفه كما ظهر موسى على فرعون وجنوده . قلت : أفتبايعنى له على الإسلام ؟ قال : نعم . فبسط يده فبايعته على الإسلام . ثم خرجت إلى أصحابى وقد حال رأيى عما كان عليه وكتمت أصحابى إسلامى .

كان عمرو بن العاص داهية من دهاة العرب فاستطاع أن يندمج فى المجتمع المدنى سريعا وأن يعيد الصلات القديمة بينه وبين المهاجرين الأوائل . أما خالد بن الوليد فقد كان يحس أنه حارب الإسلام وهو ظالم لأهله وكثيرا ما كانت تنشب مشادات بينه وبين صحابة الرسول عليه السلام حتى إن عبد الرحمن بن عوف اشتكى خالد بن الوليد للنبى ـ ﷺ فقال :

ـ يا خالد لم تؤذى رجلا من أهل بدر ؟ لو أنفقت مثل أحد ذهبا لم تدرك عمله .

فقال خالد :

ـ يا رسول الله يقعون فى فأرد علبهم .

فقال عليه السلام لأصحابه :

---

(١) الفرق : الخوف والفزع .

(٢) الناموس ، ملك الوحى : جبريل عليه السلام .

ـــ لا تؤذوا خالدا فإنه سيف من سيوف الله .

وجزعت قريش لإسلام خالد وعمرو وعثمان بن طلحة بن أبى طلحة الذى كان عنده مفتاح البيت العتيق ، فقال شاعرهم ابن الزبعرى السهمى :

أنشد عثمان بن طلحة حلفنا ... وملقى نعال القوم عند المقبل[١]

وما عقد الآباء من كل حلفة ... وما خالد من مثلها بمحلل

أمفتاح بيت غير بيتك تبتغى ... وما يبتغى من مجد بيت مؤثل[٢]

فلا تأمنن خالدا بعد هذه ... وعثمان جاء بالدهيم المعضل[٣]

(٢٩)

بعث رسول الله — ﷺ — عبد الله بن رواحة إلى أهل خيبر خارصا[٤] بين المسلمين ويهود فيخرص عليهم ، فقد دفع — ﷺ — لأهل خيبر الأرض لما قالوا له :

ـــ نحن أعلم بها منكم .

وأعمرها بشطر ما يخرج منها من تمر أو زرع ، وخرصها ابن رواحة أربعين ألف وسق فقالت يهود :

ـــ تعديت علينا .

---

(١) يريد بالمقبل : موضع تقبيل الحجر الأسود .

(٢) المؤثل : القديم .

(٣) الدهيم : الداهية .

(٤) خارصا : حازرا ومقدرا .

وأرادوا أن يرشوه فقال :

ـــ يا أعداء الله تطعمونى فى السحت[١] ؟ والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلىّ ولأنتم أبغض إلىّ من القردة والخنازير ، ولا يحملنى بغضى إياكم وحبى إياه على ألا أعدل .

وقسم ما خرج من أرض خيبر شطرين وخيرهما فى أن يختاروا أى الشطرين قال :

ـــ ان شئتم فلكم وإن شئتم فلنا .

فقالت يهود :

ـــ بهذا قامت السماوات والأرض .

كان عبد الله بن رواحة من النقباء الاثنى عشر الذين بايعوا رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى بيعة العقبة ، وقد قال فيه كعب بن مالك لما ذكر النقباء :

وأيضا فلا يعطيكه ابن رواحة وإخفاره[٢] من دونه السم ناقع

وقد شهد بدرا وأحدا والخندق ومشاهد رسول الله ـــ ﷺ . إنه اعترض ناقة رسول الله ـــ ﷺ ـــ يوم أن خرج عليه السلام من قباء إلى المدينة لما مرت بدار بنى الحارث بن الخزرج وقال :

ـــ يا رسول الله هلم إلينا ، إلى العدد والعدة والمنعة .

كان ابن رواحة ورجال بنى الحارث يبغون أن ينزل رسول الله عليه السلام فيهم ، ولكنه عليه السلام قال لهم :

ـــ خلوا سبيلها فإنها مأمورة .

---

(١) السحت : كل مال حرام لا يحل كسبه .

(٢) الإخفار : الحفظ والحماية .

ويوم بدر خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة وابنه الوليد حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة . فخرج إليه فتنة من الأنصار ثلاثة هم : عوف ومعوذ ابنا الحارث وأمهما عفراء وعبد الله بن رواحة . كان من أوائل من برزوا للقتال فى ذلك اليوم المشهود . ولكن رجال قريش قالوا : من أنتم ؟ فقالوا : رهط من الأنصار . قالوا : مالنا بكم من حاجة . ثم نادى مناديهم : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا .

ولما تم النصر للمسلمين يوم بدر بعث رسول الله — ﷺ — عند الفتح عبد الله بن رواحة بشيرا إلى أهل العالية بما فتح الله عز وجل على رسول الله — ﷺ — وعلى المسلمين ، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة . فراح الرجلان يذكران قتل من قتل من المشركين فقال كعب بن الأشرف وكان رجلا من طيىء ثم أحد بنى نبهان وكانت أمه من بنى النضير حين بلغه الخبر : — أحق هذا ؟ أترون محمدا قتل هؤلاء الذين يسمى هذان الرجلان فهؤلاء أشراف العرب وملوك الناس ؟ والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم فبطن الأرض خير من ظهرها .

فراح عبد الله بن رواحة يؤكد مقتل أشراف العرب وملوك الناس وهو يود لو يموت عدو الله كعب بن الأشرف كمدا .

وكان عبد الله بن رواحة فيمن حفروا الخندق ، فلما حمل حيى بن أخطب كعب بن أسد القرظى صاحب عقد بنى قريظة وعهدهم على نقض عهده لرسول الله — ﷺ — وانتهى إلى رسول الله عليه السلام الخبر وإلى المسلمين ، وبعث رسول الله — ﷺ سعد بن معاذ سيد الأوس وسعد بن عبادة سيد الخزرج ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات ابن جبير قال :

ـ انطلقوا حتى تنظروا أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ، فإن كان حقا فالحنوا لى لحنا أعرفه ولا تفتوا فى أعضاد الناس ، وإن كانوا على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهروا به للناس .

فخرجوا حتى أتوهم فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم فيما نالوا رسول الله ـ ﷺ ـ وقالوا :

ـ من رسول الله ؟ لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد .

ثم أقبل السعدان وعبد الله بن رواحة وخوات إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فسلموا عليه ، ثم قالوا :

ـ عضل والقارة .

أى كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع خبيب وأصحابه ، فقال رسول الله ـ ﷺ :

ـ الله أكبر ، أبشروا يا معشر المسلمين .

وكان حسان بن ثابت خاض فى حديث الإفك وهجا صفوان فضربه صفوان بالسيف ثم قال :

تلق ذباب[1] السيف عنى فإننى ... غلام إذا هوجيت لست بشاعر

فوثب ثابت بن قيس بن الشماس على صفوان حين ضرب حسان فجمع يديه إلى عنقه بحبل ثم انطلق به إلى دار بنى الحارث بن الخزرج ، فلقيه عبد الله بن رواحة فقال :

ـ ما هذا ؟

ـ أما أعجبك ضرب حسان بالسيف ! والله ما أراه إلا قتله .

---

(١) ذباب السيف : طرفه .

قال له عبد الله بن رواحة :

ـــ هل علم رسول الله ـــ ﷺ ـــ بشىء مما صنعت ؟

ـــ لا والله .

ـــ لقد اجترأت . أطلق الرجل .

فأطلقه ثم أتوا رسول الله ـــ ﷺ ـــ فذكروا ذلك له ، فدعا حسان وصفوان فقال صفوان بن المعطل :

ـــ يا رسول الله آذانى وهجانى فاحتملنى الغضب فضربته .

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ لحسان :

ـــ أحسن يا حسان ، أتشدهت[1] على قومى أن هداهم الله للإسلام ؟

ثم قال عليه السلام :

ـــ أحسن يا حسان فى الذى أصابك .

ـــ هى لك يا رسول الله .

وافتتح رسول الله ـــ ﷺ ـــ خيبر عنوة فخمسها عليه السلام وقسمها بين المسلمين ، ونزل من نزل من أهلها على الجلاء بعد القتال فدعاهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ إن شئتم دفعت إليكم هذه الأموال على أن تعملوها وتكون ثمارها بيننا وبينكم ، وأقركم ما أقركم الله .

فقبلوا فبعث ـــ ﷺ ـــ عبد الله بن رواحة ليقسم ثمارها ، فأرادوا أن يرشوه فغضب ابن رواحة غضبا شديدا فما خطر له على قلب أن قوما

---

(١) تشده : تعجب واندهش .

يدور بخلدهم أن يرشوه ، فهو من نقباء الأنصار ممن شهد بدرا والمواقع كلها ووهب حياته لله ولرسوله ولنصرة الإسلام . إنه لا يريد الدنيا بل يطمع فيما عند الله فما بال هؤلاء الذين غرتهم الدنيا يحاولون أن يطعموه فى السحت وأن يملئوا بطنه نارا ؟ إنه ثائر على هؤلاء الذين يريدون حرث الدنيا قد كرههم من أعماق قلبه ، ولكن بغضه إياهم لا يحمله على ألا يعدل فهو لا يريد فى كل أعماله إلا وجه الله والله تعالى يقول : ﴿ يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنئان قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾(١) .

(٣٠)

حزن المسلمون لما هزمت الفرس الروم لأن الفرس كانوا وثنيين مثل قريش والروم كانوا أهل كتاب مثل المسلمين ونزل قرآن يؤكد أن الروم سيهزمون الفرس فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم .

وتحقق وعد الله وهزمت الروم الفرس ، وجاءت أنباء ذلك الانتصار يوم أن فتح الله على المسلمين فى بدر ففرح المؤمنون بنصر الله ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز . فلما استقرت الأمور فى المدينة بعد صلح الحديبية بعث عليه السلام كتبا إلى ملوك الأرض يدعوهم إلى

---

(١) المائدة ٨ .

الإسلام فكان رد هرقل ملك الروم رقيقا وإن لم يؤمن بالدين الجديد ، فرأى صلوات الله وسلامه عليه — أن يستمر الحبل موصولا بين المسلمين والروم لعل الله يشرح صدورهم للإسلام . فبعث عليه السلام فى جمادى الأولى سنة ثمان من الهجرة الحارث بن عمير الأزدى إلى ملك بصرى بكتاب ، فلما نزل مؤتة تعرض له شرحبيل بن عمرو الغسانى وهو من أمراء قيصر على الشام فقال له :

— أين تريد ؟ لعلك من رسل محمد .

— نعم .

فأوثقه ربطا ثم قدمه فضرب عنقه ، فلما بلغ رسول الله — ﷺ — ذلك اشتد الأمر عليه فلم يقتل لرسول الله عليه السلام رسول من قبل وكان قتل الحارث بمثابة إعلان الحرب من قبل الروم على المسلمين ، فلما اتضحت نيات الروم وبدت العداوة وبدءوا بالعدوان كان على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أن يتحرك وأن يرسل جيوشه إلى الشام قبل أن يجمع الروم جموعهم ويسيروا إلى المدينة ليقضوا على الإسلام .

وجهز عليه السلام جمعا من أصحابه عدتهم ثلاثة آلاف وأمر عليهم زيد بن حارثة وقال :

— إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، وإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة على الناس . وإن أصيب ابن رواحة فليرتض المسلمون برجل منهم فليجعلوه عليهم .

وعقد عليه السلام لواء أبيض ودفعه لزيد بن حارثة وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير ويدعوا من هناك إلى الإسلام ، فإن أجابوا وإلا استعانوا عليهم بالله تبارك وتعالى وقاتلوهم .

وودعهم الناس وقالوا لهم :

— صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

وخرج رسول الله — ﷺ — مشيعا لهم حتى بلغ ثنية الوداع فوقف فقال :

— أوصيكم بتقوى الله وبمن معكم من المسلمين خيرا .

اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام ، وستجدون فيها رجالا فى الصوامع معتزلين فلا تتعرضوا لهم ولا تقتلوا امرأة ولا صغيرا ولا بصيرا فانيا ، ولا تقطعوا شجرة ولا تهدموا بناء .

وخرج جيش المسلمين فثار النقع وارتفع وقع حوافر الخيل على الأرض وأصوات أهل المدينة ترتفع بالوداع والدعاء :

— دفع الله عنكم وردكم غانمين .

فمضوا وفى الخيل خالد بن الوليد فارس قريش المظفر فى كل موقعة ، ولم يكن إلا جنديا من جنود الإسلام خرج ليعلى كلمة الحق مع إخوانه الخارجين . إنه لأول مرة يخرج مطمئن الفؤاد بعد أن هداه الله إلى الطريق ، فلم يعد يحفل أن يكون على رأس الجيش أو يكون فى الذيل فإن ما يملأ قلبه رضا أنه فى جانب الحق وفى سبيل الله ، يستشعر فى أعماقه أنه مع الله وأن الله معه .

ونزل المسلمون بأرض الشام فبلغهم أن هرقل إمبراطور الروم قاهر الفرس فى مائة ألف من الروم ، وانضم إليه من قبائل العرب المتنصرة من بنى بكر ولخم وجذام خمسون ألفا ومعهم من الخيول والسلاح ما ليس مع المسلمين ، فراحوا يتشاورون ليلتين هل يبعثون لرسول الله — ﷺ — يخبرونه بعدد عدوهم فإما أن يمدهم برجال أو يأمرهم بأمر

فيمضوا إليه ، فشجعهم عبد الله بن رواحة على خوض غمار المعركة وقال لهم :

— يا قوم والله إن الذى تكرهون للذى خرجتم له ، خرجتم تطلبون الشهادة ونحن لا نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله تعالى به ، فإنما هى إحدى الحسنيين إما ظهور وإما شهادة .

فسرت حماسته إلى صدور القوم فقال الناس :

— صدق والله ابن رواحة .

فمضوا للقتال فلقيهم هرقل فى جموع الروم والعرب ، فانحاز المسلمون إلى مؤتة فالتقى الجمعان عندها واقتتلوا فقاتل زيد بن حارثة ومعه راية رسول الله — ﷺ ، إنه يصول ويجول كليث كشر عن أنيابه . وانطلق فرسان الروم إلى صاحب الراية وزيد بن حارثة يدافع عنها دفاع الأبطال ويكبر تكبيرة تزلزل قلوب الأعداء ، وتكاثر عليه الرجال فخلصت إليه الجراح وهو ثابت كالطود يرى صورة حبيبه رسول الله — ﷺ — تملأ ما بين السماء والأرض فلا يزيده ذلك إلا عزما وتصميما على النصر . وصوبت إليه السهام وارتفع سيف وهوى على عاتقه فترنح ثم سقط على الأرض يجود بأنفاسه ، وصوت رسول الله عليه السلام يسرى إلى أذنيه كالنسيم :

— إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس .

وفتح عينين واهنتين ونظر فرأى جعفر بن أبى طالب قد أخذ الراية وهو يقاتل على فرسه ، فلفظ النفس الأخير وهو قرير العين فقد قيل له — لما قال عليه السلام إن أصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس —

اعهد يا زيد فلن ترجع لمحمد أبدا إن كان نبيا ، وهو يقول : أشهد أنه نبى .

وراح جعفر بن أبى طالب يقاتل على فرس أشقر وقد التف حوله صناديد الروم ، الدروع تغطى الصدور والخوذات تتألق فى الشمس والصراع مرير والقوتان غير متكافئتين ، فمقابل المسلم عشرات من الرومان ومتنصرة العرب ، وأحس جعفر أنه مقتول فنزل عن فرسه وعقره خوفا من أن يأخذه الكفار فيقاتلوا عليه المسلمين — وكان أول فرس عقر فى سبيل الله ، وأخذ يضرب بسيفه وهو يقول :

يا حبذا الجنة واقترابها   طيبةً وباردا شرابها

والروم روم قد دنا عذابها   كافرة بعيدة أنسابها

علىّ إن لاقيتها ضرابها

كان جعفر فى التاسعة والثلاثين من عمره مهيبا فخما يهجم على أعدائه كأنه سبع يذود عن عرينه يضرب بسيفه حتى ينثنى فى يده ، وكان اللواء فى يمينه فإذا بضربة سيف أطاحت بذراعه ، فأخذه بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه فإذا بضربة بالسيف تسدد إليه فيسقط على الأرض يجود بأنفاسه .

ولعب خالد بن الوليد بسيفه ، كان يضرب بقوة فيطيح بالرءوس ، ودارت رحى معركة رهيبة يشيب من هولها الوليد فإذا بالدماء تروى أرض مؤتة ، وإذا بجثث الروم والعرب تملأ الفضاء ، وإذا بالنداءات تختلط بالأنات ، وراحت الشمس تغوص فى الأفق الغربى والقتال دوار لا هوادة فيه ولا رحمة . .

وأخذ عبد الله بن رواحة الراية ثم تقدم بها وهو على فرسه ، فجعل

يستنزل نفسه ويتردد بعض التردد ثم قال :

أقسمت يـا نـفس لتنزلنّـه　　لتنزلـنّ أو لتكرهنّـه
إن أجلب الناس وشدوا الرنة[1]　　مـا لى أراك تكـرهين الجنـة
قد طال ما قد كـنت مطمئنـة　　هل أنت إلا نطفة فى شنّـة[2]

وأراد أن ينزل عن فرسه ليخوض فى صفوف الأعداء فإذا بخوف يكتنفه ، وتذكر موت صاحبيه زيد وجعفر . إنهما استشهدا وجادا بروحيهما مستبشرين متفرحين فى الله ، فراح يلوم نفسه :

يـا نـفس إلا تقـتلى تموتى　　هذا حمام الموت قد صليت[3]
ومـا تمنـيت فقـد أعطـيت　　إن تفـعلى فعلهمـا هـديت

واندفع كالعاصفة فى صفوف الأعداء وهو يحمل لواء رسول الله — ﷺ ، واستمر يتقدم لا يلوى على شىء يضرب بسيفه أعناق الروم ومن حوله صناديد المسلمين يكبرون ويطعنون الأعداء طعنات قاتلة فوق الدروع ويفلقون الهامات .

وأتى عبد الله بن عمر جعفر بن أبى طالب وهو مستلق آخر النهار فعرض عليه الماء فقال :

— إنى صائم فضعه على ترسى عند رأسى ، فإن عشت حتى تغرب الشمس أفطرت .

فمات صائما قبل غروب الشمس شهيدا مذلا للدنيا بإدباره عنها ،

---

(١) الرنة : صوت فيه ترجيع مثل البكاء .

(٢) الشنة : قطعة من الجلد البالى .

(٣) صليت : صلى ذاق . صلى بالنار : وجد حرها .

معزا للآخرة بإقباله عليها .

ونال التعب من الرجال فما خيم الظلام حتى انسحب الجيشان كل إلى معسكره يضمد جراحه .

وتمدد عبد الله بن رواحة ليستريح ، وأسبل عينيه فإذا به يرى بعين خياله ذلك اليوم الذى ودع فيه أمراء رسول الله — ﷺ ، إنه بكى فى ذلك اليوم فقالوا له :

— ما يبكيك يا بن رواحة ؟

— أما والله ما بى حب الدنيا ولا صبابة بكم ، ولكنى سمعت رسول الله — ﷺ — يقرأ آية من كتاب الله عز وجل يذكر فيها النار : ﴿ وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ﴾[1] . فلست أدرى كيف لى بالصَّدر[2] بعد الورود .

ورن فى ضميره أصوات المسلمين :

— صحبكم الله ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

وسمع صوت ذاته يهمس فى أغواره بالشعر الذى أنشده :

لكننى أسأل الرحمن مغفرة ... وضربة ذات فرغ[3] تقذف الزبدا

أو طعنة بيدى حران مجهزة ... بحربة تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يقال إذا مروا على جدثى ... أرشده الله من غاز وقد رشدا

إنه خرج وهو يتمنى الاستشهاد فما باله قد تردد لما آلت إليه راية

---

(١) مريم ٧١ .   (٢) الصدر : الرجوع من مورد الماء.

(٣) ذات فرغ : ذات تسعة ، والزبد هنا رغوة الدم .

رسول الله — ﷺ — ؟ إنه حانق على نفسه لا يفتأ يلومها حتى وهو يلتقط أنفاسه من التعب . إنه بات وهو واثق من القتل وأنه سيلحق بصاحبيه زيد وجعفر فلم ترتعد فرائصه ولم يرتجف خشية الموت . بل أحس حنينا إلى رسول الله — ﷺ — فراح يرى بذاكرته رسول الله عليه السلام وهو يودعه ، فارتفع صوته ينشد في رقة وقد بلت الدموع عينيه :

أنت الرسول فمن يحرم نوافله[1] والوجه منه فقد أزرى به القدر
فثبت الله ما آتاك من حسن في المرسلين ونصرا كالذى نصروا
إنى تفرست فيك الخير نافلة فراسة خالفت فيك الذى نظروا

واحتلت فكرة صورة رسول الله عليه السلام لما ودعهم وانصرف عنهم والشعر الذى قاله :

خلف السلام على أمرىء ودَّعته في النخل خير مشيع وخليل

وعادت إلى رأسه مشاهد الرحلة كلها ؛ إنه أردف زيد بن أرقم على رحله وكان زيد يتيما في حجره ، فأنشد والمسلمون في طريقهم إلى البلقاء :

إذا أديتنى وحملت رحلى مسيرة أربع بعد الحساء
فشانك أنعم وخلاك ذم ولا أرجع إلى أهلى ورائى
وجاء المسلمون وغادرونى بأرض الشام مشتهى الثواء
وردك كل ذى نسب قريب إلى الرحمن منقطع الإخاء
هنالك لا أبالى طلع بعل ولا نخل أسافلها رواء

---

(١) نوافله : عطاياه .

فلما سمع زيد بن الأرقم هذه الأبيات بكى ، فخفقه بالدرة وقال :

— ما عليك يا لكع[1] أن يرزقنى الله الشهادة وترجع بين شعبتى الرحل ؟

ومد عينيه فى ظلام الليل يبحث عن زيد بن أرقم فألفاه يضمد جراحه ، فاستمر يرنو إليه فى حب فإذا بذكريات غزوة بنى المصطلق تنثال على رأسه ، إن أجير عمر بن الخطاب يزدحم على الماء وحليف بنى عوف بن الخزرج ، فاقتتلا فصرخ حليف بنى عوف يا معشر الأنصار ، وصرخ أجير عمر يا معشر المهاجرين ، فغضب عبد الله بن أبىّ بن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث فقال :

— أوقد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا فى بلادنا ، والله ما أعدّنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول سمن كلبك يأكلك ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل .

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال لهم :

— هذا ما فعلتم بأنفسكم ، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم ، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله — ﷺ — فأخبره الخبر وعنده عمر بن الخطاب ، فقال :

— مر به عباد بن بشر فليقتله .

— فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ! لا ولكن أذن بالرحيل .

---

(١) يا لكع : يا لئيم ، والمقصود مجرد الردع .

وبلغ عبد الله بن أبىّ بن سلول أن زيد بن أرقم قد بلغ رسول الله عليه السلام ما سمع منه ، فمشى عبد الله إلى الرسول عليه السلام ، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به ، فقال من حضر رسول الله — ﷺ — من الأنصار من أصحابه :

— يا رسول الله عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه و لم يحفظ ما قال الرجل .

كان نفر من الأنصار يحدبون على ابن أبىّ بن سلول ويدفعون عنه ولكن ابن رواحة لم يحب نفاقه ؛ كان على ثقة من أن زيد بن أرقم لم يكذب فى حديثه فقد نشأ فى حجره وما جرب عليه كذبا قط ، وكان يرجو كما كان زيد يرجو أم ينزل الله قرآنا يفضح فيه نفاق ابن أبىّ بن سلول ، وقد نزل القرآن المجيد مصدقا لزيد : ﴿ إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون * اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون * ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون * وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون * وإذا قيل لهم تعالوا يستغفر لكم رسول الله لووا رءوسهم ورأيتهم يصدون وهم مستكبرون * سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إن الله لا يهدى القوم الفاسقين * هم الذين يقولون لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا ولله خزائن السماوات والأرض ولكن المنافقين لا يفقهون * يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين

لا يعلمون ﴾[1] .

ورفت بسمة على شفتي ابن رواحة فهو يرى ببصيرته رسول الله عليه السلام يأخذ بأذن زيد بن أرقم ثم يقول :

ـــ هذا الذى أوفى لله بأذنه .

وهوّم وطاف به الكرى ولكنه راح يقاوم النوم ، إنه يحس أن منيته قد دنت وأنه على أبواب الاستشهاد فود أن يعيش ما بقى من حياته مع الذكريات ، فأطبق جفنيه تمر المشاهد فى رأسه نابضة حية تثير فيه الانفعال . إنه يرى جيش المسلمين يخرج من المدينة بقيادة زيد بن حارثة تموج فى صدور رجاله الآمال . كانوا متفرحين فى الله فهذه أول مرة ينطلقون فيها إلى الشام للغزو عوضا عن التجارة ، لتأديب شرحبيل أمير الغساسنة على ما اقترف فى حق رسول نبى الإسلام عليه السلام وما دار بخلدهم أنهم سيقابلون الروم . إنه يرى الجيش وقد بلغ معان وإذا بالأنباء تأتى إليهم أن الرومان بقيادة تيودور أخى هرقل قد خرجوا إليهم ، إنهم توقفوا عن السير ونزلوا بمعان يتشاورون .

كان رأى زيد أنهم ما خرجوا إلا لتأديب شرحبيل بن عمرو الغسانى لضربه عنق الحارث بن عمير الأزدى رسول نبى الإسلام عليه السلام ، وقال جعفر بن أبى طالب إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ لم يبعثهم لقتال الروم ، إنهم قد أقاموا على معان ليلتين يفكرون فى أمرهم وقالوا :

ـــ نكتب إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ فنخبره بعدد عدونا ، فإما يمدنا برجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له .

---

(١) المنافقون ١ ـــ ٨ .

ورأى عبد الله بن رواحة نفسه وهو يشجع الناس على القتال ، ورن في عين ذاته الشعر الذى قاله :

جلبنا الخيل من أجأ وفرع[1] ... تغر من الحشيش لها العكوم[2]
حذوناهم من الصوان[3] سبتا ... أزل كأن صفحته أديم[4]
أقامت ليلتين على معان ... فأعقب بعد فترتها جموم[5]
فرحنا والجياد مسومات[6] ... تنفس فى مناخرها السموم[7]
فلا وأبى مآب لنأتينها ... وإن كانت بها عرب وروم
فعبأنا أعنتها فجاءت ... عوابس والغبار لها بريم[8]
بذى لجب كأن البيض فيه ... إذا برزت قوانسها[9] النجوم
فراضية المعيشة طلقتها ... أسنتها فتنكح أو تئيم[10]

ورن فى أذنيه أمر زيد بن الحارثة بالتقدم . إنه ليرى جيش المسلمين ينساب إلى البلقاء فإذا بجيش الروم هناك بقرية من قرى البلقاء يقال لها مشارف ، وإذا بالعدو يدنو وإذا بالمسلمين ينحازون إلى مؤتة على مائة ميل جنوبى بيت المقدس على البحر الميت .

---

(١) أجأ : أحد جبلى طىء ، والفرع : أطول جبل بأجأ .
(٢) العكوم : جمع عكم وهو الجنب . (٣) الصوان : نوع من الحجارة .
(٤) الأديم : الجلد . (٥) جموم : اجتماع القوة والنشاط بعد الراحة .
(٦) مسومات : معلمات . (٧) السموم : ريح حارة
(٨) البريم : الدمع المختلط بالأثمد .
(٩) القونس : أعلى الرأس .
(١٠) تئيم : تاءم أخاه ولد معه ويقصد الكثرة والزيادة .

وأرسلت الشمس أشعتها الأولى إلى سواحل البحر الميت الموحشة ، فأخذ المسلمون مصافهم وتحركت فيالق الروم . إنها تندفع فى صفوف المسلمين الذين كانوا مسلحين بأسلحة خفيفة فلم يستطع زيد أن يقف مكتوف اليدين وأمر بالهجوم ، فأنزل الرجال والفرسان خسائر فادحة فى جيوش الرومان ، فلو أن هناك مسلمين أكثر من الموجودين قليلا لاندحر الروم .

إن زيد بن حارثة يقاتل براية رسول الله — ﷺ — حتى شاط(١) فى رماح القوم ، وإن جعفر بن أبى طالب أخذ اللواء بيمينه فقطعت فأخذه بشماله فقطعت فاحتضنه بعضديه حتى قتل ، وقد أصبحت راية رسول الله — ﷺ — فى يده ، فعزم على أن يقاتل حتى يفتح الله عليه أو يموت دونها .

(٣١)

لاح فى الأفق الشرقى نور الصباح فتهيأ الجيشان للقتال : المسلمون على تعبئتهم قد جعلوا على ميمنتهم رجلا من بنى عذرة يقال له قطبة بن قتادة، وعلى ميسرتهم رجلا من الأنصار يقال له عبادة بن مالك. والروم فى دروعهم وعلى رءوسهم الخوذات وفى أيديهم أسلحة بتارة ولكن قلوبهم لم تكن عامرة بالإيمان ، فلما نشب القتال استشرى القتل فى الروم ونزل عبد الله بن رواحة يخوض غمار القتال وفى يده راية رسول الله عليه

---

(١) شاط الرجل : إذا سال دمه فهلك .

السلام وإلى جواره خالد بن الوليد يقط الرقاب ويضع سيفه حيث شاء ، وثابت بن الأرقم يلعب بسيفه يدافع عن راية الإسلام .

ومضى النهار والعرق يتصبب من ابن رواحة وهو يقاتل دون أن يستريح أو ينال طعاما ، فأتاه ابن عم له بعَرق من لحم فقال :

ـــ شد بهذا صلبك فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت .

فأخذه من يده ثم انتهش منه نهشة ، ثم سمع الحطمة(١) فى ناحية الناس فقال :

ـــ وأنت فى الدنيا !

ثم ألقى عرق اللحم من يده ثم أخذ سيفه فتقدم يهز راية رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ هزا ويشجع الناس على الثبات ، فتكاثر عليه الروم فهبروه بأسيافهم فقتلوه وسقطت راية رسول الله عليه السلام من يده .

وأختلط المسلمون بالروم وبمتنصرة العرب ، وأراد بعض المسلمين الانهزام فجعل عقبة بن عامر يقول :

ـــ يقتل الإنسان مقبلا أحسن من أن يقتل مدبرا .

ورأى ثابت بن أرقم راية رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى يد عبد الله بن رواحة وقد فاضت روحه فأخذ الراية وقال :

ـــ يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم .

فقالوا :

ـــ أنت .

ـــ ما أنا بفاعل .

---

(١) الحطمة : زحام الناس وحطم بعضهم بعضا .

ودفعها إلى خالد بن الوليد وقال :

— أنت أعلم بالقتال منى .

فقال له خالد :

— أنت أحق به منى لأنك ممن شهد بدر .

واصطلح الناس على خالد بن الوليد فكادت الدموع تطفر من مقلتيه من التأثر : إنها أول مرة يحمل فيها راية الإسلام بعد أن كان حربا على المسلمين ، وحمل على الروم حملة شديدة فاندقت فى يده تسعة أسياف وما ثبتت فى يده إلا صحيفة يمانية ، واستمر القتال رهيبا حتى سجا[1] الليل فعاد كل من الجيشين إلى معسكره .

ولم يركن خالد إلى الراحة بل إنه جعل مقدمة الجيش ساقة وساقته مقدمة وميمنته ميسرة وميسرته ميمنة ، فكانت حركة طوال الليل فى عسكر المسلمين فظن الروم مجىء مدد للمسلمين فرعبوا فالشرذمة القليلة من العرب قد أنزلت بهم خسائر فادحة ، فماذا سينزلون بهم من خسائر بعد أن جاءهم المدد ؟ !

وأشرقت شمس اليوم السابع فاستؤنف القتال وشن المسلمون على الروم هجوما شديدا تكسرت منه صفوفهم ، ولما كان الروم يرون فى أية مخاطرة عسكرية حماقة وقد أفزعتهم كثرة القتل الذى نزل بهم قرروا أن ينسحبوا إلى أماكن أكثر ملاءمة لصد هجوم المسلمين ، فثبتوا حتى آخر النهار ثم راحوا يتقهقرون فى جنح الظلام إلى أماكن محصنة تقيهم من ضراوة قتل هؤلاء العرب الذين حملوا راضين أرواحهم على أكفهم

---

(١) سجى الليل : ستر بظلمته .

والذين يستقبلون القتل مستبشرين لكأنما يزفون إلى الموت ليحطموا ذلك الحاجز الذى يقف حائلا بينهم وبين سعادتهم الأبدية .

ولم ير خالد حافزا على أن يقتفى أثر الروم فجيشه قد أنهك وقد ثبت سبعة أيام لجيش يفوقه فى العدد والعدة ، فعزم القائد الموفق على العودة فقفل راجعا بالمسلمين إلى المدينة وقد حمل جثمان جعفر وفيه تسعون جراحة بين صدره ومنكبيه ما بين ضربة بالسيف وطعنة بالرمح .

وأطلع الله تعالى رسوله — ﷺ — على استشهاد قواده فنادى فى الناس :

— الصلاة جامعة .

فهرع المسلمون إلى المسجد ، ثم صعد المنبر وعيناه تذرفان وقال :

— أيها الناس . باب خير .. باب خير .. باب خير . أخبركم عن جيشكم هذا الغازى أنهم انطلقوا فلقوا العدو فقتل زيد شهيدا فاستغفروا له ، ثم أخذ الراية جعفر فشد على القوم حتى قتل شهيدا ، فاستغفروا له .

ثم صمت رسول الله — ﷺ — حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه قد كان فى عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون ثم قال :

— ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قتل شهيدا ، فاستغفروا له ، ثم أخذ اللواء خالد بن الوليد ولم يكن من الأمراء وهو أمير نفسه ، ولكنه سيف من سيوف الله فآب بنصره .

ودخل رسول الله — ﷺ — دار جعفر بن أبى طالب فألفى زوجه أسماء بنت عميس قد انتهت من العجين ، فقال :

— ائتنى ببنى جعفر .

فأتته عليه السلام بهم فشمهم وذرفت عيناه حتى نقطت لحيته ، فقالت أسماء فى خوف :

— يا رسول الله بأبى أنت وأمى ما يبكيك ؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شيء ؟

فقال عليه السلام فى حزن :

— نعم ، أصيبوا هذا اليوم .

فقامت تصيح واجتمع عليها النساء ، وجعل رسول الله — ﷺ — يقول لها :

— يا أسماء لا تقولى هجرا ولا تضربى خدا .

ودخل عليه السلام على فاطمة وهو واله حزين وهى تقول :

— واعماه !

فقال عليه السلام :

— على جعفر فلتبك البواكى .

ثم قال :

— اصنعوا لآل جعفر طعاما فقد شغلوا عن أنفسهم اليوم .

وعمدت سلمى مولاة النبى — ﷺ — إلى شعير فطحنته ونسفته ثم طبخته وأدمته بزيت وجعلت عليه فلفلا ، وحملته إلى دار جعفر .

وبلغ حسان بن ثابت مقتل جعفر فراح يبكيه :

ولقد بكيت وعز مهلك جعفر ... حب النبى على البرية كلها
ولقد جزعت وقلت حين نعيت لى ... من للجلاد لدى العقاب[1] وظلها

---

(١) العقاب : طائر جارح ويقصد هنا الراية .

بالبيض حين تسل من أغمادها ... ضربا وإنهال الرماح وعلها[٢]

بعد ابن فاطمة المبارك جعفر ... خير البرية كلها وأجلها

رزءا ، وأكرمها جميعا محتدا[٢] ... وأعزها متظلما وأذلها

للحق ، حين ينوب غير تنحل ... كذبا ، وأنداها[٣] يدا وأقلها

فحشا ، وأكثرها إذا ما يجتدى[٤] ... فضلا وأبذلها ندى وأبلّها

بالعرف غير محمد لا مثله ... حي من احياء البرية[٥] كلها

وجاء رسول الله عليه السلام رجل فقال :

ــ يا رسول الله إن النساء عيين وفتن .

كان موت جعفر فاجعة لبنى هاشم ، فما إن عاد من الحبشة وقبل أن يتمتعوا به بعث إلى مؤتة ليقتل فكادت عقول النسوة أن تطيش وكادوا أن ينطقوا كفرا ، فقال له عليه السلام :

ــ ارجع إليهن فأسكتهن .

فذهب ثم رجع فقال له مثل الأول وقال :

ــ نهيتهن فلم يطعنني .

ــ اذهب فأسكتهن فإن أبين فاحث فى أفواههن التراب .

وكانت عائشة تسمع ذلك الحوار فقالت فى نفسها :

ــ أبعدك الله ! فوالله ما تركت نفسك وما أنت بمطيع رسول الله ﷺ .

---

(١) الإنهال : الشرب الأول والعل الشرب الثانى . يريد الطعن بعد الطعن .

(٢) المحتد : الأصل .

(٣) أنداها : أكرمها .

(٤) يجتدى : يطلب جوده .

(٥) البرية : الناس

وعرفت أنه لا يقدر على أن يحثى[1] فى أفواههن التراب .

وراح عليه السلام يفكر فى جعفر وقد استبد به الحزن ، ثم قال :

ـــ اللهم قد قدم أحسن الثواب فأخلفه فى ذريته بأحسن ما خلفت أحدا من عبادك فى ذريته .

وأخذ رسول الله ـــ ﷺ ـــ عبد الله بن جعفر وإخوته فى بيته يدورون معه كلما صار فى بيت إحدى نسائه ، فلما انقضى ثلاثة رجعوا إلى بيتهم لتضمهم أسماء بنت عميس إلى قلبها المجروح .

وانصرف خالد بالناس وكان قطبة بن قتادة العذرى الذى كان على ميمنة المسلمين قد حمل على مالك بن زافلة فقتله ، فقال قطبة بن قتادة :

طعنت ابن زافلة بن الأرا ... ش برمح مضى فيه ثم انحطم

ضربت على جيده ضربة ... فمال كما مال غصن السلم[2]

وسقنا نساء بنى عمه ... غداة رقوقين سوق النعم[3]

ولما دنوا من حول المدينة تلقاهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ والمسلمون ولقيهم الصبيان يشتدون ورسول الله ـــ ﷺ ـــ مقبل مع القوم على دابة فقال :

ـــ خذوا الصبيان فاحملوهم وأعطونى ابن جعفر .

فأتى بعبد الله فأخذه فحمله بين يديه ، وكان رسول الله عليه السلام حزينا على قواده الذين أصيبوا . إنه فرح يوم خيبر بقدوم جعفر فرحا يعدل فرحه بفتح خيبر ، أما اليوم فقد فقد زيد بن حارثة مولاه الذى

---

(١) يحثى : يلقى .

(٢) السلم : نوع من الشجر

(٣) رقوقين : اسم موضع .

تبناه ذات يوم والذى شرفه الله بأن أنزل اسمه فى القرآن من فوق سبع سماوات . وفقد جعفر بن أبى طالب الذى كان أشبه الناس به خلقا وخلقا ، وفقد عبد الله بن رواحة أحد نقباء الخزرج ومن شهد معه المشاهد كلها ، ولم يكن وحده الذى ينز قلبه بالأسى فما أكثر المحزونين ! على بن أبى طالب واله حزين على أخيه جعفر . وأسامة بن زيد تكاد كبده أن تنفطر على أبيه ، والأنصار يحسون أسى على فقد ابن رواحة شاعرهم الذى كان من أوائل الذين بايعوا رسول الله — ﷺ — بيعة العقبة .

وجعل الناس يحثون على الجيش التراب ويقولون :

— يا فرار ، فررتم فى سبيل الله !

فيقول رسول الله — ﷺ :

— ليسوا بالفرار ولكنهم الكرار إن شاء الله تعالى .

وراح الشعراء يبكون أصحاب مؤتة من أصحاب رسول الله — ﷺ ، قال حسان بن ثابت :

تأوبنى ليل بيثرب أعسر ... وهم إذا ما نوم الناس مسهر

لذكرى حبيب هيجت لى عبرة ... سفوحا وأسباب البكاء التذكر

بلى ، إن فقدان الحبيب بلية ... وكم من كريم يبتلى ثم يصبر

رأيت خيار المؤمنين تواردوا ... شعوب وخلفا بعدهم يتأخر

فلا يبعدن الله قتلى تتابعوا ... بمؤتة منهم ذو الجناحين جعفر

وزيد وعبد الله حين تتابعوا ... جميعا وأسباب المنية تخطر

غداة مضوا بالمؤمنين يقودهم ... إلى الموت ميمون النقيبة أزهر

أغر كضوء البدر من آل هاشم ... أبـىّ إذا سيم الظلامـة مجسر[١]

فطاعـن حتـى مـال غير مـوسد ... بمعتـرك فيـه قنـا متـكسر

فصار مـع المستشهديـن ثوابـه ... جنـان وملتـف الحدائـق أخضر

وكنـا نـرى فى جعفـر من محمـد ... وفـاء وأمـرا حازمـا حين يأمـر

فما زال فى الإسلام من آل هـاشم ... دعـائم عـز لا يزلـن ومفخـر

هم جبـل الإسلام والنـاس حـولهم ... رضام[٢] إلى طود[٣] يروق ويقهر

بهاليـل[٤] منهم جعفـر وابـن أمـه ... على ومنهم أحمد المتـخير

وحمزة والعبـاس منهم ومنهم ... عقيل وماء العود من حيث يـعصر

بهم تفرج اللأواء[٥] فى كل مأزق ... غماس[٦] إذا ما ضاق بالناس مصدر

وقعد أناس من الجيش فى بيوتهم فما يخرجون ، وقد فطنت أم سلمة أم المؤمنين إلى غياب سلمة بن هشام بن العاص عن مسجد الرسول فقالت لامرأته :

— ما لى لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله — ﷺ — ومع المسلمين ؟

قالت والأسى فى نبرات صوتها :

— ما يستطيع أن يخرج ، كلما خرج صاح به الناس : يا فرار فررتم

(١) المجسر : المقدام الجسور .

(٢) الرضام : الحجارة يتراكم بعضها فوق بعض .

(٣) الطود : الجبل .

(٤) البهاليل : جمع مفرده بهلول وهو السيد العظيم .

(٥) اللأواء : الشدة .

(٦) غماس : المظلم . يزيد ظلامه من كثرة النقع المثار وقت الحر .

فى سبيل الله ! حتى قعد فى بيته فما يخرج .

وراح قيس بن المسحر اليعمرى يعتذر مما صنع يوم مؤتة وصنع الناس :

فوالله لا تنفك نفسى تلومنى — على موقفى والخيل قابعة قبل
وقفت بها لا مستجيرا فنافذا — ولا مانعا من كان حم له القتل
على أننى آسيت نفى بخالد — ألا خالد فى القوم ليس له مثل
وجاشت إلى النفس من نحو جعفر — بمؤتة إذ لا ينفع النابل النُّبل
وضم إلينا حجزتيهم(١) كليهما — مهاجرة لا مشركون ولا عزل

(٣٢)

كان النبى — ﷺ — إذا خطب قام فأطال القيام فكان يشق عليه قيامه، فأتى بجذع نخلة فحفر له وأقيم إلى جنبه قائما للنبى — ﷺ ، فكان النبى عليه السلام إذا خطب فطال القيام عليه استند فاتكأ عليه ، وكان تميم الدارى يرى رسول الله — ﷺ — يشتد عليه وجع كان يجده فى فخذيه فقال له تميم :

— يا رسول الله ألا أصنع لك منبرا تقوم عليه فإنه أهون عليك إذا قمت وإذا قعدت ؟

— وكيف المنبر ؟

— أنا يا رسول الله أصنعه لك .

فخرج إلى الغابة فقطع منها خشبات من أثل(٢) فعمل له درجتين غير

---

(١) حجزة الإزار .

(٢) الأثل : شجر عظيم لا ثمر له .

المقعد ، فتحول رسول الله ﷺ ــ عن الخشبة التى كان يستند إليها إذا خطب .

وجاء الناس إلى المسجد ينظرون إلى المنبر ويصلون خلف النبى عليه السلام ، ودخل ثابت بن قيس المسجد وأراد أن يجلس فلم يفسح له رجل ممن كانوا ينتظرون الصلاة . فقال له فى زراية :

ــ يا بن فلانة .

فقال رسول الله ــ ﷺ :

ــ من الذاكر فلانة ؟

فقام ثابت فقال :

ــ أنا يا رسول الله .

ــ انظر فى وجه القوم .

فنظر فقال :

ــ ما رأيت يا ثابت ؟

رأيت أبيض وأحمر وأسود .

ــ فإنك لا تفضلهم إلا فى الدين والتقوى .

فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير ﴾[1] .

وكان ثابت بن قيس فى أذنه وقر ، وكان جهورى الصوت ، وكان إذا كلم إنسانا جهر صوته ، فربما كان يكلم رسول الله ــ ﷺ ــ

---

(١) الحجرات ١٣ .

فيتأذى بصوته ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون * إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم ﴾(١) .

فآلى أبو بكر على نفسه أن لا يكلم رسول الله — ﷺ — إلا كأخى السرار .

وقد وفد بنى تميم على النبى — ﷺ — فدخلوا المسجد ، فنادوا النبى — ﷺ — من وراء الحجرات :

— يا محمد .. يا محمد .. يا محمد اخرج إلينا ، فإن مدحنا زين وإن ذمنا شين .

فسمعهم النبى — ﷺ . فخرج عليهم وهو يقول :

— إنما ذلكم الله الذى مدحه زين وذمه شين .

وكان فيهم الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم أول من وأد فى العرب فقالوا :

— نحن ناس من بنى تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك .

— ما بالشعر بعثت ولا بالفخار أمرت ولكن هاتوا .

فقال الزبرقان بن بدر لشاب من شبانهم :

— قم فاذكر فضلك وفضل قومك .

فقام فقال :

---

(١) الحجرات ٢ — ٣ .

— الحمد لله الذى جعلنا خير خلقه وأتانا أموالا نفعل فيها ما نشاء ، فنحن من خير أهل الأرض ومن أكثرهم عدة ومالا وسلاحا ، فمن أنكر علينا قولنا فليأت بقول هو أحسن من قولنا وفعال هى خير من فعالنا .

كان بنو تميم على دين المجوس وكانوا على صلات طيبة بدولة الفرس فظنوا أنهم أرقى من سائر العرب ، وكانوا يعتقدون أنهم خير أهل الأرض فقال رسول الله — ﷺ — لثابت بن قيس :

— قم فأجب .

فقام فقال :

— الحمد لله أحمده وأستعينه وأومن به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ، دعا المهاجرين والأنصار من بنى عمه أحسن الناس وجوها وأعظمهم أحلاما[١] فأجابوا ، فالحمد لله الذى جعلناه أنصاره ووزراء رسوله وعزا لدينه ، فنحن نقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، فمن قالها منع منا نفسه وماله ، ومن أباها قتلناه وكان رغمه من الله تعالى علينا هينا ، أقول قولى هذا وأستغفر الله للمؤمنين والمؤمنات .

فقال الزبرقان بن بدر لشاب من شبانهم :

— قم يا فلان فقل أبياتا تذكر فيها فضلك وفضل قومك ، فقام الشاب فقال :

نحن الكرام فلا حى يفاخرنا   فينا الرءوس وفينا يقسم الربع[٢]

(١) أحلاما : عقولا .

(٢) الربع : ربع الغنيمة كان رئيس القوم يأخذه .

ونطعم الناس عند القحط كلهم
من السديف[١] إذا لم يؤنس القزع[٢]
إذا أبينا فلا يأبى لنا أحد
إنا كذلك عند الفخر نرتفع

فأرسل رسول الله — ﷺ — إلى حسان بن ثابت ، فانطلق إليه الرسول فقال :

— وما يريد منى وقد كنت عنده ؟

— جاءت بني تميم بشاعرهم وخطيبهم ، فأمر رسول الله — ﷺ — ثابت بن قيس فأجابهم وتكلم شاعرهم فأرسل إليك تجيبه .

فجاء حسان فأمره رسول الله — ﷺ — أن يجيبه فقال حسان :

نصرنا رسول الله والدين عنوة
على رغم سار من معد وحاضر
ألسنا نخوض الموت فى حومة الوغى
إذا طاب ورد الموت بين المعساكر
ونضرب هام الدارعين وننتمى
إلى حسب من جرم غسان قاهر
فولا حياء الله قلنا تكرما
على الناس بالحقين هل من منافر
فأحياؤنا من خير من وطىء الحصى
وأمواتنا من خير أهل المقابر

---

(١) السديف : النعاج الحلوب .

(٢) القزع : صغار الإبل ، والسحاب .

فقام الأقرع بن حابس فقال :

— إنى والله لقد جئت لأمر ما جاء له هؤلاء وقد قلت شعرا فاسمعه :

— هات .

فقال :

أتيناك كيما يعرف الناس فضلنا إذا فاخرونا عند ذكر المكارم

وإنا رءوس الناس من كل معشر وأن ليس فى أرض الحجاز كوارم

وإن لنا المرباع فى كل غارة تكون بنجد أو بأرض التهائم[1]

فقال رسول الله — ﷺ — :

— قم يا حسان فأجب .

فقال :

بنى دارم لا تفخروا إن فخركم
يعود وبالا عند ذكر المكارم

هبلتم[2] علينا تفخرون وأنتم
لنا خول[3] من بين ظئر[4] وخادم

وأفضل ما نلتم من المجد والعلى
ردافتنا من بعد ذكر الأكارم

فإن كنتم جئتم لحقن دمائكم
وأموالكم أن تقسموا فى المقاسم

---

(١) النجد : المرتفع من الأرض ، والتهائم المنخفضات .

(٢) هبلتم : هجمتم . (٣) خول : الخدم .

(٤) الظئر : المرأة تحضن ولد غيرها والرجل أيضا .

فــلا تجعلـــوا لله نــدا وأسلمــــوا
ولا تفخـــروا عنـــد النبـــى بـــدارم
وإلا ورب البـــيت مـــالت أكفنـــا
على هامكـــم[١] بالمرهفـــات[٢] الصوارم

وأنزل الله تعالى : ﴿ إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون * ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيرا لهم والله غفـور رحيم ﴾[٣] .

فقام الأقرع بن حابس فقال :

— إن محمدا المولى ، إنه والله ما أدرى ما هذا الأمر ، تكلم خطيبنا فكان خطيبهم أحسن قولا ، وتكلم شاعرنا فكان شاعرهم أشعر .

كان الأقرع بن حابس يصغى إلى القرآن وكان يرنو إلى نور الإسلام فى إعجاب ، ولولا الكبر الذى كان فى قلبه لأسلم وكان من السابـقين فى الإسلام ، فلما أراد الله له الهداية جاء إلى رسول الله عليه السلام ، وهو يتظاهر بأنه ما جاء إلا ليفاخره وإن كانت أنوار اليقين قد أضاءت فؤاده :

ودنا من النبى — ﷺ — فقال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأنك رسول الله .

فقال النبى — ﷺ — :

— ما ضرك ما كان قبل هذا .

ثم أعطاهم رسول الله — ﷺ — وكساهم وقد عادوا إلى أهليهم بوجوه تتألق بالأنوار .

---

(١) الهام : الرءوس . (٢) المرهفات : السيوف .

(٣) الحجرات : ٤ — ٥ .

راح الروم يشجعون القبائل العربية القريبة من الشام على غـزو المسلمين بعد ما رأوا صلابة المسلمين فى مؤتة ، وكان هدف الروم إضعاف القوة الجديدة التى بدأت تظهر فى شبه جزيرة العرب وتزحف إلى ناحية الشام وتهدد حدود الدولة الرومانية التى أنهكتها حروبها مع الفرس ، وقد أخذ الروم يغرون قضاعة على غزو المدينة مستهدفين توهين العرب جميعا مشركين ومسلمين حتى ينعموا براحة تمكنهم من التقاط أنفاسهم والخروج من الأزمة المالية الطاحنة التى جلبتها الحروب المستمرة بين الإمبراطوريتين العظيمتين المتنافستين على سيادة العالم .

وبلغ رسول الله ــ ﷺ ــ أن جمعا من قضاعة قد تجمعوا يريدون المدينة ، فدعا رسول الله ــ ﷺ ــ عمرو بن العاص وذلك بعد إسلامه بسنة وعقد له لواء أبيض وجعل معه راية سوداء ، وبعثه فى ثلاثمائة من سراة المهاجرين والأنصار ومعهم ثلاثون فرسا وأمره أن يستعين بمن يمر به من بلّى وعذرة وبلقين ، فسار الليل وكمن النهار . فلما بلغ بلّى قوبل بالترحاب فجدته لأبيه العاص بن وائل كانت بلوية ، وقد سرهم أن رسول الله عليه السلام قد أمر ابن أختهم فأمدوه برجال . وصدقت فراسة رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ لما أراد أن يتألفهم بعمرو .

وانطلق عمرو يسير الليل ويكمن النهار حتى خلف وادى القرى

وراءه وأشرف على ذات السلاسل وبينها وبين المدينة عشرة أيام . فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعا كثيرا فلم يشأ أن يغامر وأن يدفعه الحماس إلى أن يخوض معركة قد تكون عاقبتها وخيمة على المسلمين ، فبعث رافع بن كعب الجهنى إلى رسول الله — ﷺ — يلتمس منه المدد ، وبقى عمرو بن العاص يصلى بأصحابه ينتظر مدد الرسول عليه السلام ، فبعث إليه أبا عبيدة بن الجراح فى مائتين وعقد له لواء وبعث معه سراة[1] هاجرين والأنصار وفيهم أبو بكر وعمر وأمره أن يلحق بعمرو وأن يكونا جميعا ولا يختلفا ، فلحق بعمرو . وأراد أبو عبيدة أن يؤم الناس فقال عمرو :

— إنما قدمت على مدد وأنا الأمير .

وعند ذلك قال جمع من المهاجرين الذين مع أبى عبيدة لعمرو :

— أنت أمير أصحابك وهو أمير أصحابه .

فقال عمرو :

— أنتم مدد لنا .

فلما رأى أبو عبيدة الإختلاف قال :

— لتعلم يا عمرو أن آخر شىء عهد إلىّ رسول الله — ﷺ — أن قال : إن قدمت على صاحبك فتطاوعا ولا تختلفا ، وإنك والله إن عصيتنى لأطيعنك .

— فإنى الأمير عليك .

— كان أبو عبيدة حسن الخلق لين العريكة[2] فقال :

---

(١) السراه : العظماء .

(٢) العريكة : النفس ، ولين العريكة : سلس الخلق .

ــ دونك .

وصلى عمرو بن العاص بالناس وصلى خلفه أبو عبيدة بن الجراح وأبو بكر الصديق والفاروق عمر بن الخطاب وسراة القوم من المهاجرين والأنصار ، فقد علمهم رسول الله ــ ﷺ ــ الطاعة ولو أمِّر عليهم عبد حبشى .

كان البرد شديدا ، ولما جن الليل اشتدت برودة الجو فأراد الناس أن يوقدوا نارا ليصطلوا عليها من البرد فمنعهم عمرو وقال :

ــ كل من أوقد نارا لأُقذفنه فيها .

فشق عليهم ذلك لما فيه من شدة البرد ، فكلمه بعض سراة المهاجرين فى ذلك فغالظه عمرو فى القول وقال له :

ــ قد أمرت أن تسمع لى وتطيع .

ــ نعم .

ــ فافعل .

ولما بلغ ذلك عمر بن الخطاب غضب وهم أن يأتيه فمنعه أبو بكر وقال :

ــ إن رسول الله لم يستعمله إلا لعلمه بالحرب .

وجلس الناس فى المعسكر يرتجفون من البرد ، وشرد عمرو بن العاص يفكر فإذا به يرى رسول الله عليه السلام يطلبه ، فلما وافى رسول الله عليه السلام أمره أن يأخذ ثيابه وسلاحه ، ودار فى نفسه الحوار الذى كان بينه وبين النبى صلوات الله وسلامه عليه .

ــ يا عمرو إنى أريد أن أبعثك على جيش فيغنمك الله ويسلمك .

ــ إنى لم أسلم رغبة فى المال .

ــ نعم المال الصالح للرجل الصالح .

وكانت قضاعة قد جمعت جموعا هائلة لتدهم أطراف المدينة ، وتأهبت للخروج دون أن تشعر أن على مقربة منهم قوة من المسلمين ترقب فرصتها لتنقض عليهم . وفى عماية الصبح أمر عمرو بن العاص بالهجوم فانقض المسلمون على أعدائهم انقضاض النسور ، وارتفع هتافهم يجلجل فى المكان ويخلع القلوب من الصدور .

ــ أمت . أمت يا منصور .

ومضت الرماح إلى الأفئدة ، وانهالت ضربات السيوف على الرقاب ، وارتفع صهيل الخيول حتى كاد يطغى على أنين الرجال ، وثار النقع فاختلط بأنفاس الناس ، وحمى وطيس[1] القتال ، ومشى الرجال إلى الرجال وقد كشروا عن الأنياب ، وتألقت السيوف القواطع وانعكست أشعة الشمس على الدروع والخوذات والصحائف والسنان فبدت كأنها شموس لا تعرف الاستقرار ، وشجرت الرماح فدخل بعضها على بعض ، وخضبت الرمال بالدماء وتبعثرت الأجساد هنا وهناك ، وحامت طيور السماء حول حومة الموت ترقب انجلاء المعركة الرهيبة التى لا هوادة فيها لتنقض على الأجداث قبل أن تأتى السباع .

وراح أبو بكر وعمر وأبو عبيدة وعمرو وصناديد[2] المسلمين يضربون ضربا رصينا كحر النار مشتعل ، واستمروا يطلبون عدوهم لله

(١) الوطيس : التنور ، وحمى الوطيس : كناية عن شدة الحرب .

(٢) الصناديد : جمع مفرده صنديد وهو الشجاع فى الحرب .

وينتظرون نصر الله يمشون كلهم وقد وطنوا أنفسهم على الموت أو النصر تعوج أسيافهم فى الضرب أحيانا وتعتدل . وراع قضاعة سرعة الخيول واستبسال القوم والزحف القاتل الذى دهمهم والقتل الذى استشرى فيهم فتفرقوا وولوا الأدبار ، وأراد المسلمون أن يتبعوهم فمنعهم عمرو بن العاص وهم كارهون .

وجاء الليل وهبت الريح باردة فأحس المسلمون كأن دماءهم ستتجمد فى عروقهم ، وأرادوا أن يوقدوا نارا ليصطلوا من البرد فمنعهم وهم يعجبون فقد انتهت المعركة . ولكن القائد قد أمرهم فحق عليهم الطاعة وإن شق عليهم ذلك من شدة البرد .

واحتلم عمرو وكانت تلك الليلة شديدة البرد جدا فقال لأصحابه :

— ما ترون قد والله احتلمت فإن اغتسلت مت .

فدعا بماء فغسل فرجه وتوضأ وتيمم ثم قام وصلى بالناس ولم يعترض كبار الصحابة ، وصلوا خلفه ، ولم يختلفوا كما اختلف اليهود فقد علمهم — صلوات الله وسلامه عليه — أن الدين يسر وأن التنطع فى الدين مفسدة ، ثم بعث عمرو عوف بن مالك مبشرا للنبى — ﷺ — بقدومهم وسلامتهم ، فجاءه وهو يصلى فى بيته فقال :

— السلام عليك يا رسول الله ورحمة الله وبركاته .

— وعليك السلام ورحمة الله وبركاته . عوف بن مالك ؟

— نعم . بأبى أنت وأمى يا رسول الله .

— أخبرنى .

فأخبره بما كان من مسيرهم وما كان بين أبى عبيدة بن الجراح وعمرو ابن العاص ومطاوعة أبى عبيدة لعمرو . فقال رسول الله — ﷺ :

— يرحم الله أبا عبيدة بن الجراح .

وأخبره بمنع عمرو المسلمين من اتباع العدو ، ومن ايقاد النار ، ومن صلاته بأصحابه وهو جنب .

وقدم الجيش المظفر فخرج الناس لاستقبال الأحبة العائدين بالنصر ، وخرج رسول الله ﷺ — لاستقبال وزيريه الصديق والفاروق وتهنئتهما بسلامة العودة ، وكان لقاء وكان عناق وكانت دموع ، ولما استقر بهم المقام كلم عليه السلام عمرو فيما فعل فقال :

— كرهت أن يوقدوا نارا فيرى عدوهم قلتهم ، وكرهت أن يتعقبوهم فيكون لهم مدد فيعطفون عليهم .

فحمد رسول الله — ﷺ — أمره ، وسأله عن صلاته قال :

— يا عمرو أوصليت بأصحابك وأنت جنب ؟

— والذى بعثك بالحق إنى لو اغتسلت لمت ، لم أجد بردا قط مثله ، وقد قال الله تعالى : ﴿ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة ﴾[1] .

فضحك — ﷺ ، وكان على الرغم من أحزانه الدائمة يضحك إذا ما سمع أو رأى ما يوجب الضحك ، وكان ضحكه عليه السلام تبسما ، فقد خرج نعيمان وهو من أهل بدر مع أبى بكر الصديق إلى بصرى وكان فى الحملة سويبط وهو بدرى أيضا ، وكان سويبط على الزاد فجاءه نعيمان فقال له :

— أطعمنى .

— لا حتى يأتى أبو بكر .

(١) البقرة ١٩٥ .

— والله لأغيظنك .

وجاء إلى الناس قد جلبوا بعيرا وأبقارا فقال :

— ابتاعوا منى غلاما عربيا فارها إلا أنه دعّاء له لسان ، لعله يقول إنه حر ، فإن كنتم تاركيه لذلك فدعوه لا تفسدوا علىّ غلامى .

— بل نبتاعه منك بعشر قلائص(١) .

فأقبل بها يسرقها وأقبل بالقوم حتى عقلها ثم قال :

— دونكم ! هذا هو .

وذهبوا إلى سويبط فقالوا :

— قد اشتريناك .

— هو كاذب ، أنا رجل حر .

— قد أخبرنا خبرك .

ووضعوا فى عنقه حبلا وذهبوا به ، فجاء أبو بكر فأخبر بذلك فذهب هو وأصحابه فردوا القلائص على أربابها وأخذوه ، وأخبر النبى — ﷺ — بالقصة فضحك منها حولا .

وأهدى نعيمان إلى رسول الله — ﷺ — جرة عسل اشتراها من أعرابى ، وأتى بالأعرابى إلى باب النبى — ﷺ — نادى الأعرابى :

— ألا أعطى ثمن عسلى ؟

فقال النبى — ﷺ — :

— إحدى هنات نعيمان .

---

(١) القلوص : من الإبل : الشابة .

وجىء بنعيمان فسأله عليه السلام :

ــ لم فعلت هذا ؟

ــ أردت برك يا رسول الله و لم يكن معى شىء .

فتبسم النبى ــ ﷺ ــ وأعطى الأعرابى حقه .

كان عليه السلام يمازح الصغير ويلاعب الوليد ويمازح العجوز ولا يقول إلا حقا ، ويقول : « روحوا القلوب ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا كلت عميت » . وكان ضحوك السن بسام الثنيات . وقيل : « المزاح هُجنة » فقيل : « بل سنَّة لقوله عليه الصلاة والسلام : إنى لأمزح ولا أقول إلا الحق » .

(٣٤)

أظهر حى جهينة العداوة للمسلمين فبعث رسول الله ــ ﷺ ــ أبا عبيدة بن الجراح فى شهر رجب سنة ثمان من الهجرة فى ثلاثمائة من المهاجرين والأنصار وفيهم عمر بن الخطاب إلى ذلك الحى بالقَبليَّة مما يلى ساحل البحر ، وبينها وبين المدينة خمس ليال ، وزودهم عليه السلام جرابا من تمر فجعل أبو عبيدة يقوتهم إياه .

ومرت أيام وليال وهم فى طريقهم إلى ساحل البحر الأحمر وقد كاد التمر ينفد ، فراحوا يعللون النفس أنهم سيدهمون ذلك الحى ويغنمون منه ما يطعمون ، ولكنهم لم يجدوا أحدا و لم يلقوا كيدا فراح أبو عبيدة يعد لهم التمر عدا حتى كان يعطى الواحد تمرة كل يوم .

وبلغوا ساحل البحر واستقروا هناك يرقبون فرصتهم ، وراح

أبو عبيدة يعطى عمر والزبير بن العوام وعبادة بن الصامت والذين معه تمرة ، فنقصت تمرة عن رجل فوجدوا فقدها ذلك اليوم .

وراح الزبير بن العوام يمتص التمرة كما يمص الصبى ثدى أمه ثم يشرب عليها من الماء فتكفيه يومه إلى الليل ، وأخذ الرجال يصرون التمر بعد أن مصوه فى ثيابهم فى حرص شديد فلم يكن فى المكان غير ماء البحر والسماء والرمال والخبط (ورق شجر السمر) .

وتقضت أيام ونفد التمر فلم يكن أمامهم إلا الخبط فجعلوا يبلونه بالماء ويأكلونه حتى تقرحت أشداقهم ، وتمدد قيس بن سعد بن عبادة فإذا به يذكر دارهم دار الجود ، إنه يرى بعين خياله رجلا واقفا على أطم ينادى :

— من يريد الشحم واللحم فعليه بدار أبى سعد دليم .

ورأى أصحاب الصفة إذا أمسوا انطلق الرجل بالواحد والرجل بالاثنين والرجل بالجماعة وأما أبوه سعد فينطلق بالثمانين . ورأى رسول الله — ﷺ — يزورهم فى منزلهم فيقول :

— السلام عليكم ورحمة الله .

ثم قال :

— اللهم اجعل صلواتك ورحمتك على آل سعد بن عبادة .

إنه وهو من بيت جود لا يستطيع أن يرى رفاقه يموتون من الجوع وهو ينظر ، وقد ثار الدم فى عروقه لما صك أذنيه قول قائل منهم :

— والله لو لقينا عدوا ما منا حركة إليه .

فلما رأى رجالا من أهل الساحل قام فقال :

— من يشترى منا تمرا أوفيه له فى المدينة بجزر يوفيها إلىّ ههنا ؟

فقال له رجل من أهل الساحل :

ــ أنا أفعل ، ولكن والله ما أعرفك فمن أنت ؟

ــ أنا قيس بن سعد بن عبادة .

ــ ما أعرفنى بسعد ، إن بينى وبين سعد خلة سيد أهل يثرب .

فاشترى خمس جزائر كل جزور بوسق من تمر ، فقال الرجل :

ــ أشهد لى .

ــ أشهد من تحب .

فأشهد نفرا من المهاجرين والأنصار ، وامتنع عمر بن الخطاب من أن يشهد وقال :

ــ هذا يدان ولا مال له ، إنما المال لأبيه .

فقال الرجل :

ــ والله ما كان سعد ليحنى بابنه .

كان الرجل واثقا من أن سعد بن عبادة سوف يوفى عن ابنه ما التزمه ، فنشب بين قيس وعمر كلام حتى أغلظ قيس الكلام . وأخذ قيس الجزر فنحر منها واحدة فالتف الرجال يأكلون وقد تهللت أساريرهم فقد انقضت عليهم أيام كاد الجوع أن يخرط فيها أحشاءهم .

ونحر سعد من الجزر ثلاثا فى ثلاثة أيام ، وأراد أن ينحر لهم فى اليوم الرابع فنهاه أبو عبيدة وقال :

ــ عزمت عليك ألا تنحر ، تريد أن تخفر ذمتك ولا مال لك ؟

فقال قيس فى دهش :

ــ أترى أبا ثابت يقضى ديون الناس ويطعمهم فى المجاعة ولا يقضى دينا استدنته لقوم مجاهدين فى سبيل الله !

وساروا على ساحل البحر وإذا بشيء كهيئة الكثيب الضخم ، فهرعوا إليه ، فإذا به دابة من البحر فراح أبو عبيدة يفحص عنها فقال :

— ميتة .

— اضطررتم فكلوا .

فأقاموا عليها وهم ثلاثمائة ، ودخل جابر بن عبد الله وأربعة من رفاقه عينها فما رآهم أحد وراحوا يغترفون منها الدهن بالقلال ، ثم انطلقوا عائدين إلى المدينة ، فلما قدم قيس قال له سعد بن عبادة :

— ما صنعت فى مجاعة القوم ؟

— نحرت .

— أصبت . ثم ماذا ؟

— نحرت .

— أصبت . ثم ماذا ؟

— نحرت .

— أصبت . ثم ماذا ؟

— نهيت .

— ومن نهاك ؟

— أميرى أبو عبيدة .

فقال أبو ثابت فى غضب :

— ولم ؟

— زعم أنه لا مال لى إنما المال لأبيك ، فقلت له أبى يقضى عن الأباعد ويحمل الكل ويطعم فى المجاعة ولا يصنع هذا لى ؟ فلان لموافقتى فأبى عليه عمر بن الخطاب إلا التصميم على المنع .

فقال سعد لولده قيس :

ــ ذاك أربع حوائط (بساتين) أدناها ما يتحصل منه خمسون وسقا .

ووفى قيس الرجل صاحب الجزر وأعطاه ما يركبه وكساه .

وراح الناس يتحدثون عن الدابة الهائلة التى ألقى بها البحر وقالوا إن أبا عبادة نصب لهم ضلعا من أضلاعها ومر تحته قيس بن سعد بن عبادة وكان أطول رجل فى القوم راكبا على أطول بعير لم يطأطىء رأسه . وقالوا إن أبا عبيدة أخذ منهم ثلاثة عشر رجلا فأقعدهم فى وقت عينها فأكلوا منها أياما .

وبلغ النبى ــ ﷺ ــ ما فعل قيس فقال :

ــ إنه فى بيت جود ، إن الجود لمن شيمة أهل ذلك البيت .

وجاء سعد بن عبادة إلى النبى ــ ﷺ ــ فقال :

ــ من عذيرى من ابن الخطاب يبخل على ابنى !

وأخبروا رسول الله ــ ﷺ ــ خبر الدابة التى ألقى بها البحر وسألوه ما صنعوا فى ذلك من أكلهم إياه ، فقال عليه السلام :

ــ رزق رزقكم الله أياه .

(٣٥)

كانت غطفان مستمرة فى عداوة المسلمين وما كانت تترك فرصة تستطيع أن تنال فيها منهم إلا انتهزتها . وقد بلغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن رجلا يقال له رفاعة بن قيس فى جمع عظيم نزل بالغابة يريد حرب رسول الله ﷺ ، فأمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ أبا قتادة أن يتجهز للخروج ليفجأ ذلك الجمع قبل أن يتحركوا إلى المدينة .

وكان عبد الله بن أبى حدرد السلمى تزوج امرأة من قومه ، فجاء رسول الله ﷺ ـــ يستعينه على ذلك فقال عليه السلام :

ـــ كم أصدقت ؟

ـــ مائتى درهم .

ـــ سبحان الله لو كنتم تأخذون الدراهم بطن واديكم هذا ما زدتم . والله ما عندى ما أعينك ولكن قد أجمعت أن أبعث أبا قتادة فى أربعة عشر رجلا فى سرية فهل لك أن تخرج فيها فإنى أرجو أن يغنمك الله مهر امرأتك .

ـــ نعم .

وبعث عليه السلام أبا قتادة فى خمسة عشر رجلا إلى غطفان وخرج معه عبد الله بن أبى حدرد السلمى ، ودفع له ولرجلين من المسلمين ناقة مسنة وقال :

ـــ تبلغوا عليها واعتقبوها .

فركبها أحدهم فوالله ما قامت به ضعفا حتى ضربت ، وخرجت سرية أبى قتادة ومعهم سلاحهم النبل والسيوف يسيرون الليل ويكمنون النهار حتى جاءوا القوم النزول على الماء ، فلما ذهبت فحمة العشاء خطبهم أبو قتادة وأوصاهم بتقوى الله وألف بين كل رجلين وقال :

ــ لا يفارق كل رجل زميله حتى يقفل (يرجع) ، ولا يجيء إلى الرجل فأسأله عن صاحبه فيقول لى لا علم لى به . وإذا كبرت فكبروا وإذا حملت فاحملوا ولا تمعنوا فى الطلب .

وكان عبد الله بن أبى حدرد فى ناحية وصاحبه فى ناحية ينتظران غرة القوم إلا ورفاعة بن قيس المجمع للقوم خرج فى طلب راع لهم فأبطأ عليهم وتخوفوا عليه ، فقال له نفر من قومه :

ــ نحن نكفيك ولا تذهب أنت .

فقال فى استخفاف :

ــ والله لا يذهب إلا أنا .

ــ فنحن معك .

ــ والله لا يتبعنى أحد منكم .

فخرج حتى مر بأبى حدرد ، فلما أمكنه نفحه بسهم فوضعه فى فؤاده فما تكلم ، فوثب عليه واحترز رأسه .

وأحاط المسلمون بالقوم فجرد أبو قتادة سيفه وكبر ، وجرد المسلمون سيوفهم وكبروا معه .

وقاتل رجال من القوم وإذا فيهم رجل طويل فأقبل على أبى حدرد فقال له متهكما به :

ــ يا مسلم هلم إلى الجنة .

فمال إليه أبو حدرد فذهب أمامه ، وصار يقبل عليه بوجهه مرة ويدبر عنه بوجهه مرة أخرى فراح يتبعه ، فقال له صاحبه :

ـــ لا تتبعه فقد نهانا أميرنا أن نمعن فى الطلب .

وكان الرجل الطويل يحاول أن يستدرج أبا حدرد بعيدا ، فلما سمع تحذير صاحبه قال فى حنق :

ـــ إن صاحبكم لذو مكيدة ، وإن أمره هو الأمر .

وأدركه أبو حدرد فرماه بسهم فقتله وأخذ سيفه ، وكان المسلمون يخوضون غمار المعركة فقتلوا من أشراف لغطفان واستاقوا الإبل والغنم . فكانت الإبل مائة بعير والغنم ألفى شاة وسبوا سبايا كثيرة .

وعاد أبو حدرد إلى صاحبه فأخبره صاحبه أنهم جمعوا الغنائم وأن أبا قتادة تغيظ عليهما . فجاء أبا قتادة فلامه فأخبره الخبر ، ثم قسمت الغنائم فأصاب كل رجل بعد إخراج الخمس اثنى عشرا بعيرا وعدل البعير بعشرين من الغنم ، ووقع فى سهم أبى قتادة جارية حسناء وضيئة تأخذ بالألباب .

وساقوا النعم وحملوا النساء وجفون السيوف معلقة بالأقتاب ، ثم لما أصبحوا رأى أبو حدرد فى السبى امرأة كأنها ظبى تكثر الالتفات خلفها وتبكى ، فقال لها :

ـــ أى شيء تنظرين ؟

ـــ والله أنظر إلى رجل لئن كان حيا ليستنقذنا منكم .

فوقع فى نفس أبى حدرد أنه الذى قتله فقال لها :

ـــ والله لقد قتلته وهذا والله سيفه معلق بالقتب .

فقالت والدموع فى عينيها كأنما لؤلؤتان :

— فأين غمده ؟

— هذا غمد سيفه .

فلما رأته بكت أحر بكاء .

وعاد أبو قتادة وفى ركابه الحسناء الوضيئة . ودفع إلى رسول الله — ﷺ — خمس الغنيمة ليوزعه على الفقراء والمساكين ويفك به رقاب العبيد ويؤلف به قلوب الناس ويسد منه دين المدينين .

وجاء رجل إلى رسول الله — ﷺ — وقال :

— يا رسول الله إن أبا قتادة قد أصاب جارية وضيئة وقد كنت وعدتنى جارية من أول فىء يفىء الله به عليك .

فأرسل رسول الله — ﷺ — إلى أبى قتادة قال :

— هب لى الجارية .

فوهبها له . ثم وهبها — ﷺ — لذلك الرجل الذى وعده بجارية من أول فىء يفىء الله به .

(٣٦)

لما كان صلح الحديبية بين رسول الله — ﷺ — وبين قريش كان فيه أن من أحب أن يدخل فى عقد محمد — ﷺ — وعهده فليدخل ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم فليدخل فيه . فدخلت بنو بكر فى عهد قريش ودخلت خزاعة فى عهد رسول الله — ﷺ — .

وكان بين بنى بكر وخزاعة دماء ، وحجز الإسسلام بينهما لتشاغل الناس به وهم على ما هم عليه من العداوة . وكانت خزاعة حلفاء

عبد المطلب وكان هواهم مع بني هاشم . فإنه لما مات المطلب وثب نوفل بن عبد مناف على ساحات وأفنية كانت لعبد المطلب واغتصبه إياها ، فاضطرب عبد المطلب لذلك واستنهض قومه فلم ينهض معه أحد منهم وقالوا له :

— لا ندخل بينك وبين عمك .

وكتب إلى أخواله بني النجار فجاء منهم سبعون راكبا فأتوا نوفلا وقالوا له :

— ورب البنية لتردن على ابن أختنا ما أخذت وإلا ملأنا منك السيف .

فرده ثم حالف عبد المطلب خزاعة بعد أن حالف نوفل بن عبد مناف بني أخيه عبد شمس . ومنذ ذلك الوقت وخزاعة تميل إلى بني هاشم وكان هوى خزاعة مسلمهم وكافرهم مع محمد — ﷺ .

وقد قرأ على رسول الله — ﷺ — أبيّ بن كعب كتاب جده عبد المطلب لخزاعة بالحديبية وهو : « باسمك اللهم ، هذا حلف عبد المطلب ابن هاشم لخزاعة ، إذا قدم عليه سرواتهم[1] وأهل الرأى منهم غائبهم يقر بما قاضى عليه شاهدهم ، أن بيننا وبينكم عهد الله وميثاقه وما لا ينسى أبدا ، اليد واحدة والنصر واحد ما أشرق ثبير[2] وثبت حراء مكانه ، وما بل بحر صوفة » .

فقال رسول الله — ﷺ :

— ما أعرفني بحقكم وأنتم على ما أسلفتم عليه من الحلف ؟

---

(١) سرواتهم : عظماؤهم .

(٢) ثبير وحراء : اسما جبلين .

فلما كانت الهدنة التى وقعت فى صلح الحديبية اغتنمها بنو بكر فراح شخص منهم يهجو رسول الله — ﷺ — وصار يتغنى به ، فسمعه غلام من خزاعة فضربه فشجه فثار الشر بين الحيين مما كان بينهم من عداوة . فطلب بنو بكر من أشراف قريش أن يعينوهم بالسلاح والرجال على خزاعة فأمدوهم بذلك ، فجاءوا خزاعة ليلا بغتة وهم آمنون على ماء لهم يقال له الوثير فقتلوا منهم عشرين ، وقاتل معهم جمع من قريش مستخفيا منهم صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى وعكرمة بن أبى جهل وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو ، ولا زالوا بهم إلى أن أدخلوهم دار بديل بن ورقاء الخزاعى بمكة و لم يشاوروا فى ذلك أبا سفيان ، وظنوا أنهم لم يعرفوا وأن هذا لا يبلغ رسول الله — ﷺ .

فلما ناصرت قريش بنى بكر على خزاعة ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله — ﷺ — من العهد والميثاق ندموا . وجاء الحارث بن هشام إلى أبى سفيان وأخبره بما فعل القوم فقال :

— هذا أمر لم أشهده و لم أغب عنه وإنه لشر ، والله ليغزونا محمد ، ولقد حدثتنى هند بنت عتبة أنها رأت رؤيا كرهتها ، رأت دما أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخندمة .

فكره القوم ذلك وخرج عمرو بن سالم الخزاعى سيد خزاعة فى أربعين راكبا من خزاعة فيهم بديل بن ورقاء الخزاعى قاصدين المدينة .

ودخل رسول الله — ﷺ — صبيحة الوقعة على عائشة أم المؤمنين وقال لها :

— حدث فى خزاعة حدث .

— يا رسول الله أترى قريشا يجترئون على نقض العهد الذى بينك

وبينهم ؟

— ينقضون العهد لأمر يريده الله .

— خير .

— خير .

وبات رسول الله — ﷺ — عند ميمونة فقام ليتوضأ للصلاة فسمعته يقول :

— لبيك ! لبيك ! لبيك ! نصرت نصرت نصرت .

فلما خرج قالت :

— يا رسول الله سمعتك تقول لبيك لبيك لبيك! نصرت نصرت نصرت ! كأنك تكلم إنسانا فهل كان معك أحد ؟ .

— هذا راجز بنى كعب يزعم أن قريشا أعانت عليهم بكر بن وائل .

ومضت ثلاثة أيام وصلى رسول الله — ﷺ — الصبح وجلس فى المسجد بين الناس ، فإذا بوفد خزاعة قد قدم إلى المدينة ودخل المسجد ووقف بديل بن ورقاء وقال :

يا رب إنى ناشد محمدا ... حلف أبينا وأبيه الأتلدا [١]

إن قريشا أخلفوك الموعدا ... ونقضوا ميثاقك المؤكدا

هم بيتونا بالوثير[٢] هجدا ... وقتلونا ركعا وسجدا

فقال النبى — ﷺ — :

— نصرت يا عمرو بن سالم .

---

(١) الأتلد : التليد : القديم ، والأتلد الأكثر .قديما وعراقة .

(٢) الوثير : موضع بالقرب من عرفة .

ودمعت عينا رسول الله — ﷺ — وقال :

— لا ينصرنى الله إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر به نفسى .

ولما ندمت قريش على نقضهم العهد جاءوا إلى أبى سفيان فقالوا له :

— ما لها إلا سواك ، اخرج إلى محمد فكلمه فى تجديد العهد وزيادة المدة .

فخرج أبو سفيان ومولى له على راحلتين ، فأسرع السير لأنه يرى أنه أول من خرج من مكة إلى رسول الله — ﷺ .

وقال رسول الله — ﷺ — قبل قدوم أبى سفيان :

— كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد فى المدة وهو راجع بسخطه .

ثم رجع أولئك الركب من خزاعة وقد قرت أعينهم بما سمعوا من رسول الله — ﷺ — بعد أن قال لهم عليه السلام :

— ارجعوا وتفرقوا فى الأودية .

فرجعوا وتفرقوا ، فذهبت فرقة إلى الساحل وفيهم عمرو بن سالم ، وفرقة فيهم بديل بن ورقاء لزمت الطريق . وإن أبا سفيان لقى بديل بن ورقاء بعسفان فأشفق أبو سفيان أن يكون بديل جاء إلى رسول الله — ﷺ — المدينة فقال للقوم :

— أخبرونا عن يثرب متى عهدكم بها ؟

— لا علم لنا بها . إنما كنا فى الساحل نصلح بين الناس فى قتل .

ثم صبر أبو سفيان حتى ذهب أولئك القوم فالتفت إلى مولاه فقال :

ـــ لئن كان جاء المدينة لقد علف بها النوى .

فجاء منزلهم ففتت أبعار أباعرهم فوجد فيها النوى . قال أبو سفيان :

ـــ أحلف بالله لقد جاء القوم محمدا .

وانطلق أبو سفيان ومولاه ، وأبو سفيان يرجو أن ينجح فى سفارته فيشد العقد ويزيد فى المدة .

التذييل

ارتطمت البشرية بمشكلة الجنس منذ بدء الخليقة ، فعندما خلق الله أول زوجين ذرية كانت المرأة سبب أول جريمة وقعت على الأرض ، فقد قتل رجل أخاه لأن زوجة أخيه كانت أكثر حسنا من زوجته . وبعد أن كان التنظيم الأسرى معروفا منذ الأزل ، ولما طال على الناس الأمد أطلقت للغرائز حريتها فكان البغاء وكان الانحلال وكانت الحرية الجنسية المدمرة وكان انعدام التجانس فى نسيج الكون ، فبعث الله الرسل لإرشاد الناس إلى حل مشاكلهم الجنسية حلا طاهرا يسمح بقيام نظام اجتماعى سليم يمكن أن يقوم عليه سعادة البشر .

كانت الشرائع السماوية كلها تحدد علاقة الرجل بالمرأة لبناء مجتمع جديد ، فالبيت نواة المجتمع البشرى ، واستقرار البيت هو استقرار المجتمع . وكانت الشرائع السماوية كلها تعطى الرجل حقه وتعطى المرأة حقها ولكن كلما بعدت البشرية عن عدالة السماء وخفت قبضة الدين على المجتمعات راح الرجال وهم الحكام والمشرعون والقضاة يشرعون قواعد تزيد فى حقوقهم على حساب حقوق المرأة ، فكانت عصور الضياع التى نكبت بها الإنسانية .

إن مركز المرأة فى المجتمعات هو المقياس الحقيقى لحضارة المجتمع ، فإذا نالت المرأة التوقير الذي تستحقه فى مجتمع ما وأخذت حقوقها المشروعة بلا زيادة أو نقصان ، وقامت بدورها الطبيعى الذى خلقها له الله ، فإن ذلك المجتمع يكون أكثر تحضرا من مجتمع تهان فيه المرأة بأن

يطلق لها الحبل على الغارب ، تمارس فيه كل أنواع الفساد تحت شعارات خادعة براقة يفلسفها لها مخادعون يزينون الرغبات والنزوات والأهواء ويقولون إن الظواهر النفسية حرة ، وإننا نفعل على نحو ما نوجد ، وإن فعلنا ينبثق من وجودنا ويسهم فى خلقنا ، وأن الإنسان حر من حيث هو شعور ، ومثل ذلك من الفلسفات التى تشجع على الخطيئة إرضاء لحرية النزوات !

كان مركز المرأة متماثلا عند كل الشعوب التى وصلت إلى درجة معينة من الحضارة ما دامت بعيدة عن أثر الدين وتأثيره ، فكانت المرأة فى مصر القديمة وفى بابل وآشور فى مكانة واحدة فهى زوجة الرجل الشرعية ، على أن الرجل كان حرا فى اتخاذ محظيات على قدر ما تسمح به ثروته ، وكانت خادمات المنزل إماءه وملك يمينه . فللرجل زوجة شرعية واحدة هى « زوجته المحبوبة » و « سيدة المنزل » وله حريم من المغنيات والمحظيات الحسان وما كان لهن حد يقف عنده الرجل بل يعود ذلك إلى درجة ثرائه وانفتاح شهيته .

وقد عرف قدماء المصريين تعدد الزوجات ، فرئيس عشرة الوجه القبلى « أمينى » الذى عاش فى الدولة الوسطى كان له زوجتان إحداهما وهى المسماة « نبت » ولدت له ولدين وخمس بنات ، والأخرى واسمها « حتوت » فقد أنجبت له ثلاث بنات وصبيا واحدا . وكانت الزوجتان تعيشان معا فى سلام حتى إن السيدة نبت سمت ابنتها الثانية « حتوت » وسمت السيدة حتوت بناتها الثلاث باسم نبت !

وكانت لرمسيس الثانى زوجتان ملكيتان عظيمتان هما نفترا مرن مرت وإسى — نُفرى أم منفتاح ، وعندما عقد معاهدة مع ملك الحيثيين

تزوج سياسيا . وقد فعل تحتمس الرابع مثل ذلك ، وكذلك أمنوفيس الثالث والرابع عندما اتخذوا لأسباب سياسية أسرات من بابل ومتانى وجعلوهن زوجات ملكيات عظيمات .

وكانت قصور الأمراء وحكام الأقاليم والأثرياء تموج بالحريم أو كما كان يعرف فى العهد الفرعونى « ببيت المحجبات » وكانت نساؤهم وأولادهن لا يستمتعون بأية حقوق قانونية قبل رب البيت . كان الحريم موجودا فى جميع عصور التاريخ كحاجة من حاجات الأثرياء الوجهاء ، وكان واجب نساء الحريم أن يشرحن قلب فرعون بالأغانى والرقص ، وكذلك كان هذا هو دور الحريم فى قصور الأثرياء .

ويقال فى نصوص الأهرام عن الملك المتوفى إنه « يأخذ النساء من أزواجهن عند رغبته » ، أى أن للملك حق اغتصاب أية زوجة من زوجها كما كان الحال بعد ذلك لأمراء الإقطاع فى العصور الوسطى . وكان الشبان فى سن الخامسة عشرة يتزوجون بفتيات فى الثانية عشرة من عمرهن ، وكان الأب هو الوكيل الشرعى فى الزواج .

وكانت سبايا الحروب يوزعن على الجنود ، وقد نال جندى واحد بعد معركة حربية عشرا من الإماء . وكان التسرى منتشرا بين الطبقات الدنيا ، ولا يخلو عصر من العصور من النساء اللاتى لا عائل لهن ولا حرفة يعشن منها غير البغاء .

وكان الأبناء ينسبون إلى الأمهات . وفى عصر الدولة الوسطى كان نظام التوريث فى أسرات النبلاء يأتى عن طريق النساء لا الذكور ، فلم يكن الابن هو الذى يرث وإنما يرث ابن كبرى البنات ، وكان والد الأم هو الوصى الطبيعى للشاب .

عرفت البشرية منذ فجر التاريخ نظام تعدد الزوجات ، وإن قارىء التوراة ليجد أن أنبياء بنى إسرائيل قد اتخذوا أكثر من زوجة وتسروا بأكثر من محظية حتى قيل إن قصر سليمان كان به أكثر من ألف امرأة . ولم يأت فى الإنجيل نص صريح يدل على تحريم الزواج من أكثر من واحدة ، وإن عدم زواج السيد المسيح قد أوقع المسيحيين المؤمنين فى الحرج حتى صار عندهم أبغض الحلال إلى الله الزواج !

وعرف العرب فى الجاهلية نظام تعدد الزوجات والتسرى بالإماء ، وكان سادات القوم يدفعون إماءهم على الزنا لجمع الأموال ، ولما جاء الإسلام قال النبى — ﷺ : (لا تقل عبدى وعبدتى بل فتاى وفتاتى) لذلك جاء فى القرآن الكريم : ﴿ ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا ﴾[١] . فقد كانت بعض صاحبات الرايات الحمر يضقن بهذه المهنة وكن يمارسنها تحت ضغط السادة وتهديدهم .

وكان فقراء العرب يئدون بناتهم خشية الفقر فكان ذلك نوعا من تحديد النسل ، وما كان الوأد للبنين لأن القبائل كانت فى حاجة إلى الرجال للغارة والسطو ودفع العدوان ، لذلك كانوا يكرهون إنجاب البنات : ﴿ وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ألا ساء ما يحكمون ﴾[٢] .

وقد بلغت الاستهانة بالشرف بين بعض رجال العرب فى الجاهلية أن

---

(١) النور : ٣٣ .

(٢) النحل ٥٨ — ٥٩ .

قبلوا الاستبضاع ، وهو إرسال الزوجة لرجل نابه أو شاعر مفوه أو حاكم حكيم لإنجاب ذرية قوية فيها بعض صفات الرجل القوى الفحل الذى يتمنى الزوج أن يأتى ابنه على مثاله !

وكانوا يجمعون بين الأختين ، ويخلف الرجل على امرأة أبيه ، وكانوا يسمون من فعل ذلك الضيزن . وكان الرجل من العرب إذا مات عن المرأة أو طلقها قام أكبر بنيه فإن كان له حاجة فيها طرح ثوبه عليها ، وإن لم يكن له حاجة فيها تزوجها بعض إخوته بمهر جديد . وقد كان هذا النكاح فى الجاهلية نكاح المقت .

وكان الرجل يرث امرأة ذى قرابته فيعضلها[1] حتى تموت أو ترد إليه صداقها ، فإن كانت جميلة تزوجها وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها .

كانت للمرأة العربية فى الجاهلية بعض الحقوق بينما نجدها فى جمهورية أفلاطون شيئا لا حق له ، إنها لعبة الرجال الممتازين ولا بأس من أن تكون مشاعا بينهم ، فما خلقت إلا للترفيه عن الرجال الأقوياء العظماء الذين تضع جمهورية الفيلسوف كل إمكانياتها لتكوين هؤلاء الصفوة .

ويقول الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه حقوق الإنسان فى الإسلام : « ... فحالة المرأة فى فرنسا مثلا كانت إلى عهد قريب ، بل لا تزال إلى الوقت الحاضر أشبه شيء بحالة الرق المدنى ، فقد نزع منها القانون صفة الأهلية فى كثير من الشئون المدنية كما تنص على ذلك المادة السابعة عشرة بعد المائتين من القانون المدنى الفرنسى إذ تقرر أن :

---

(١) عضل المرأة : منعها الزواج وضيق عليها .

« المرأة المتزوجة ، حتى لو كان زواجها قائما على أساس الفصل بين ملكيتها وملكية زوجها ، لا يجوز لها أن تهب ولا أن تنقل ملكيتها ولا أن ترهن ولا أن تملك بعوض أو من غير عوض بدون اشتراك زوجها فى العقد أو موافقته عليه موافقة كتابية » .

ومع ما أدخل على هذه المادة من قيود وتعديلات فيما بعد فإن كثيرا من آثارها ما يزال ملازما لوضع المرأة الفرنسية من الناحية القانونية إلى الوقت الحاضر ، وتوكيدا لهذا الرق المدنى المفروض على المرأة الغربية المتزوجة تقرر قوانين الأمم الغربية ويقضى عرفها أن المرأة بمجرد زواجها تفقد اسمها واسم أسرتها فلا تعود تسمى فلانة بنت فلان بل تحمل اسم زوجها وأسرته فتدعى مدام فلان . أو تتبع اسمها باسم زوجها وأسرته بدلا من أن تتبعه باسم أبيها وأسرتها ، وفقدان اسم المرأة وحملها لاسم زوجها كل ذلك يرمز إلى فقدان الشخصية المدنية للزوجة واندماجها فى شخصية الزوج .

وقد ظلم الإسلامَ الذين قالوا إن الإسلام أباح تعدد الزوجات ووقف عند ذلك ، فالحقيقة التى لا مراء فيها أن التعدد كان معروفا قبل الإسلام وفى كل العصور وكل الديانات . فإبراهيم خليل الرحمن اتخذ أكثر من زوجة ، وكذلك موسى كليم الله وكل الرسل والأنبياء . وإنه لمن الإنصاف أن يقال إن الإسلام جاء ليحدد عدد الزوجات ، فبعد أن كان للرجل الحق فى أن يتزوج أى عدد من النساء شاء فقد حدد الإسلام عدد الزوجات بأربع وأوجب العدل بينهن ، وما كان ذلك مطلوبا من قبل فقد كان للزوج أن يعدل أو لا يعدل كيف يشاء .

إن تعدد الزوجات ليس نظاما شائعا بين المسلمين ، فكثير من

المسلمين يكتفون بزوجة واحدة ، ولكن هناك أحوالا اجتماعية أو اقتصادية قد توجب تعدد الزوجات حفظا للمجتمع من الانهيار أو درءا لفساد قد ينخر فى نظام اجتماعى ويقوضه على رءوس الصالحين والطالحين المكتفين بزوجة واحدة فى الظاهر ، أو الداعين إلى شيوع المرأة بين الرجال دون زواج .

لقد أصبحت الحروب جزءا من الحياة فى العالم ، وكان من نتيجتها أن صار عدد النساء يزيد على عدد الرجال فى معظم دول العالم . وقد واجه الأخلاقيون فى أوربا هذه المشكلة بعد الحرب العالمية الثانية ، فالطبيعة تصرخ فى طلب حاجاتها وتريد أن تنطلق فى طريقها . ولم يجد الأخلاقيون فى أنفسهم الشجاعة لتقرير مبدأ تعدد الزوجات فكانت النتيجة أن استشرت شرور الدعارة وانتشرت موجات التحرر الجنسى التى تنذر بتقويض الحضارات الغربية .

إن الإسلام فى فجر تاريخه واجه موجات من الغزوات والحروب فقل عدد الرجال عن النساء ، فلم يكتف بأن أوصى ببر الأرامل وتقديم الطعام والمأوى إليهن ورضى عن الحل المادى وحده ، بل عرف أبعاد المشكلة على حقيقتها ، فالطعام لا يطعم إلا جوعها ولا يصون عرضها ، إنها فى حاجة إلى إشباع جوع آخر فإن لم تجد من يسده حلالا فالطبيعة قد ترغمها على أن تسده حراما . ولما كانت رسالة الإسلام الطهارة والعفة وقدسية العلاقات الجنسية فقد أباح الإسلام أن يتخذ الرجل أكثر من زوجة حتى يصون المجتمع من شرور البغاء ، وهو الخطر الأعظم على حضارة الأمم .

شاد الإسلام حضارته على نظام حياة البيت وطهارتها وقام على نظام

الزوجة الواحدة فى تهيئة بيت للمرأة إلا فى حالات استثنائية فقد سمح بالزواج من أكثر من امرأة . فإذا قيل إن المرأة لا تجد فى حالة تعدد الزوجات إلا نصف بيت فإذا ذلك أفضل من ألا تجد بيتا على الإطلاق . وما معنى عدم وجود بيت ؟ ليس المعنى أن المرأة لا تجد المأوى فحسب ، ولا أنها حرمت فرص إبداء عواطف الحب والرحمة التى وهبها الله لها فحسب ، ولكن معناها فى أغلب الحالات هو الحرمان الخلقى وهو أعظم الأخطار على الحضارة .

قد يمكن إيجاد عمل للنساء يعينهن على كسب قوتهن ، ولم يغلق الإسلام باب العمل إطلاقا فى وجه المرأة ، إلا أن المعضلة ليست تيسير الحصول على الطعام ولكن تيسير الحصول على بيت وزوج . ويجب أن يفهم فى وضوح أن تعدد الزوجات فى الإسلام — سواء أكان نظريا أم عمليا — ما هو إلا نظام استثنائى ، وهو علاج لكثير من مساوىء المدنية الحديثة ، وعلى فرض أن أعداء الإسلام يعتبرونه شرا فليقولوا لنا : أيهما أعظم شرا أتعدد الزوجات المحدود أم الدعارة والانحطاط الخلقى المطلق ؟ !

وإن المتتبع لزيجات رسول الله — ﷺ — وأصحابه يجد أن الدافع لهذه الزيجات هو صيانة حياة أرامل مات عنهن أزواجهن ، فكان من واجب المسلمين الأوائل ضمهن إلى بيوتهم ليجدوا المأوى والعطف والحنان . ولم يكن الدافع إلى ذلك الزواج شهوة طاغية أو متعة رخيصة بل كان الهدف الأسمى التعفف وصيانة حرائر المسلمين من الانزلاق . ويقول مولاى محمد على فى كتابه « محمد رسول الله » يمكن تقسيم حياة النبى الأسرية إلى أربعة أقسام : كان أعزب حتى الخامسة والعشرين ،

وعاش مع زوجة واحدة من الخامسة والعشرين حتى الرابعة والخمسين وتزوج عدة زوجات بين الرابعة والخمسين والستين ، ولم يتزوج من الستين إلى أن لحق بالرفيق الأعلى .

إن فترة العزوبة هى أهم فترة يمكن بها دفع دعوى أن النبى كان عبدا لشهواته ، فلو كان عبدا لها لما قبض على ناصية عواطفه وميوله الجنسية ولما عاش حتى الخامسة والعشرين حياة نموذجية من الطهر والعفاف جعلته يعرف بين مختلف القبائل بالأمين . تحكم فى ميوله الجنسية حتى الخامسة والعشرين فى بلاد حارة كبلاد العرب حيث يبلغ الفتيان مرتبة الرجال سريعا وتكون عواطفهم فوارة وميولهم جامحة عنيفة ، وما استطاع أعداؤه فيما بعد عندما خاصموه أن يذكروا حادثة واحدة تمس شرفه . وموير نفسه يعترف بأن جميع المراجع متفقة على : « أن النبى فى شبابه طبع بالهدوء والدعة والطهر والابتعاد عن المعاصى التى كانت قريش تعترف بها . والشباب هو سن العواطف المتأججة الجامحة الثائرة ، فالرجل الذى يستطيع كبح جماح عواطفه وهو أعزب من المحال أن يجرى وراء الشهوة وقد بلغ سن الاكتمال والرزانة . وعلى ذلك فالفترة الأولى من حياة النبى فترة الحياء والطهر دليل قاطع على استحالة أن يكون عبدا لشهواته . ومما هو جدير بالملاحظة أن تقاليد العرب وقتذاك كانت تبيح الانحراف الخلقى . لذلك لا يمكن أن يقال إنه تعفف بتأثير البيئة أو العادات المرعية ، لقد كان الانغماس فى اللذات شيئا عاديا مألوفا يومئذ فلم ينغمس فيما انغمسوا فيه جميعا ، وعاش عيشة طاهرة نقية ، وهذا وحده دليل على سمو خلقه ورفعته الشخصية .

ولندرس الآن الفترة الثانية فترة الزواج من زوجة واحدة ، فقد

تزوج فى الخامسة والعشرين من خديجة فعاش معها عيشة إخلاص وورع حتى قبضها الله وكان فى الرابعة والخمسين ، عاش معها وحدها فى بلاد قاعدتها العامة تعدد الزوجات ، وما كانت الزوجة لتشكو أو تتذمر إذا زوجها تزوج زوجة ثانية أو ثالثة . وقد أغناه زواجه من خديجة فكان فى وسعه أن يتزوج من أخرى ولكن تعدد الزواج لم يكن مقصورا على الأغنياء ، فكان فى مقدور الفقراء التزوج من أكثر من واحدة ، وكانت الزوجة شريكة فى الحياة بمعنى الكلمة فهى تعاون زوجها على كسب معيشتها كما هى الحال فى الطبقات العاملة ، وعلى هذا فما كان الفقير ليخسر شيئا إذا ما تعددت زوجاته .

كان محمد من أعرق أسر قريش ولو شاء الزواج من أخرى لكان أمرا هينا ميسورا ؛ ولكنه عاش مع زوجة واحدة عيشة كلها إخلاص وألفة وود طوال حياتهما الزوجية ، فلما ماتت تزوج من سيدة طاعنة فى السن هى سودة وكانت كل مؤهلاتها أنها زوجة أحد الذين هاجروا إلى الحبشة متحملين الأذى فى سبيل الدين .

وإن هذه الفترة فترة الخامسة والعشرين إلى الرابعة والخمسين هى فترة الزوجة الواحدة ، وهى القاعدة فى الحياة الزوجية .

وفى السنة الثانية للهجرة بدأ القتال مع قريش والقبائل العربية الأخرى فأدى ذلك إلى قتل كثير من الذكور وهم عماد الأسرة واستمرت هذه المعارك حتى السنة الثامنة للهجرة ، وفى هذه الفترة بالذات تزوج النبى تلك المرات العديدة التى قد تبدو غريبة أمام العقلية الحديثة ولكنها كانت أمرا عاديا لا غبار عليه ولا ينتقد . ومن ذا الذى ينتقده إذا فهم أن الدافع إلى ذلك هو الرحمة والشفقة لا الجنوح إلى المتعة واللذة ؟ وقد اعترف

أحد الكتاب المسيحيين بذلك ضمنا عندما قال : « من الممكن تفسير تزوج النبى المرات المتتالية بشتى التفسيرات ولكن يجب ألا يعزب عن البال أنها كانت وليدة الشفقة والمؤاساة نظرا للحالة التعسة التى كانت عليها من تزوج منهن فقد كن من الأرامل ، لا مال ولا جمال ، بل كن على النقيض من ذلك يستحققن كل عطف » .

سبق لنا القول بأنه ما كان يخشى على رجل قضى حياته حتى الخامسة والخمسين وهو على خير ما يكون من الطهر والعفاف أن ينغمس بعد ذلك فى اللذات . فإذا كانت فتنة النساء لا تؤثر فيه وهو فتى ممتلئ الشباب فكيف بها تأسره وهو رجل رزين كامل النضج العقلى ؟

قد عاش النبى طوال هذه السنين فى المدينة وما كانت حياته سهلة ممتعة بل كانت على العكس من ذلك حياة كفاح ونضال ، فقد كان فى هذه الفترة فترة تعدد الزوجات يخوض معارك لا تنقطع ، معارك موت أو حياة للإسلام أو المسلمين . لقد عوديت المدينة فى هذ الحقبة ومشت إليها جيوش لجب للقضاء على المسلمين ، ورمته العرب جميعا عن قوس واحدة فما كان النبى آمنا لحظة . لقد كانت المعارك تلى المعارك وكل معركة أشد من سابقتها ، وكانت الغزوات تعد سرعة . وقال له أصحابه بانهم ملوا من حمل السلاح آناء الليل وأطراف النهار ، فكان يواسيهم ويطمئنهم ويبشرهم باقتراب زمن السلام الذى يتمكن فيه المسافر من قطع الجزيرة من أدناها إلى أقصاها دون الحاجة إلى حمل سلاح .

وكان اليهود والنصارى كذلك يناصبونه العداء ، وكان خيرة أصحابه يقتلون الواحد إثر الآخر فى المعارك أو غيلة . أفكانت هذه الحياة حياة لذة ومتعة أم كانت حياة شدة وكرب ما بعدها شدة

وكرب ؟ وإذا شاء الجنوح إلى حياة اللذة والمتعة وهو ما لم يحدث بشهادة جميع الثقاة أفكانت الظروف تواتيه ؟ إنها الحرب فى انتظاره دائما ، الحرب مع المنافقين الذين يهددون بالانفجار الداخلى ، والحرب مع أعداء حافين به من كل جانب . لقد كانت الأنباء تترامى إليه دائما أن العدو يحشد جيوشا هائلة للقضاء عليه وعلى الإسلام وكان عدد المسلمين ضئيلا . فكان عليه دائما أن يعمل على درء الخطر الساحق . فلو أن هذه الظروف حاقت برجل ماجن لبدلته وغيرته فما بالك برجل شهد الجميع بطهارته ونقائه ، رجل ما كانت لتؤثر فيه المغريات حتى تصيره ماجنا أو عبدا لشهواته .

عرفنا كيف يقضى النبى نهاره فى كفاح مضن شديد ، فكيف كان يقضى ليله ؟ قد كان له عدد من الزوجات الحليلات المحصنات أفكان يقضى ليله يتمتع بهن ؟ استمع إلى شهادة القرآن وهو أصدق القائلين : ﴿ يأيها المزمل * قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾[1] . ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن تحصوه فتاب عليكم ﴾[2] . وجاء فى الحديث أنه كان يقضى نصف الليل بل أكثر من نصفه فى الصلاة وتلاوة القرآن وهو قائم حتى تتورم قدماه ، فهل بعد هذا يمكن القول أن هذا الرجل الكريم إنما اتخذ هذا العدد من الزوجات للتمتع بهن ؟ كلنا يعرف أدق خصائص حياته ، لقد كانت نضالا كلها ، كفاحا كلها ، نصبا كلها ، ليس فيها

---

(١) المزمل : ١ — ٤

(٢) المزمل ٢٠ .

متعة ، أو لذة حسية .

وللدكتورة بنت الشاطىء رأى فى التعدد ، فهى تقول فى كتابها « نساء النبى » : وفى مسألة التعدد جانب دقيق غفل عنه كثيرون ... ذلك هو أن الرجال ليسوا سواء ، وقد تؤثر أنثى ـــ راضية ـــ أن يكون لها حظ النصف من حياة رجل على أن يكون لها غيره كاملا .

وليس معنى هذا أن نساء النبى كن سعيدات بحياة الضرائر ، ولا هو يقتضى أن تستريح إحداهن إلى هذه المشاركة فى الزوج ، ولكن معناه على التحديد أن محمدا « كان من ذلك النمط الفريد بين الرجال الذى تؤثر الزوجة أن يكون لها أى مكان فى بيته ، على أن تكون لها مع غيره مملكة مستقلة تنفرد بها دون مشاركة » .

وليس من بين زوجاته ـــ ﷺ ـــ من دخلت بيته وفى حسابها أن تنفرد به ، فقد كانت مسألة التعدد تبدو طبيعية إلى حد يسهل علينا تصوره لو ذكرنا أن خولة بنت حكيم اقترحت على الرسول أن يخطب عائشة بنت أبى بكر وسودة بنت زمعة فى وقت واحد ، وأن أم المؤمنين ميمونة بنت الحارث هى التى عرضت أن تتزوج الرسول وفى بيته عشر نساء : ثمانى زوجات واثنتان ملك يمين . وأن عمر بن الخطاب عرض ابنته حفصة على أبى بكر وعنده « أم رومان » حماة النبى ـــ ﷺ ، وأن على بن أبى طالب هم بأن يتزوج على فاطمة الزهراء بنت النبى ، وأن أبا بكر وعمر صهرى الرسول رغبا فى الزواج من أم سلمة بنت أبى أمية زاد الركب حين مات زوجها وفى بيت كل منهما أكثر من زوجة .

ولو خيرت زوجات النبى بين حياتهن تلك المشتركة فى بيت واحد ومع زوج واحد وبين حياة أخرى منفردة فى غير ذلك البيت ، لما رضين

عن حياتهن بديلا ...

وكن مع ذلك مرهقات بهذه المشاركة ، تضنيهن الغيرة ويشقيهن ألا تنفرد كل منهن بقلب زوجها . وقد شهد بيت الرسول من غيرة نسائه المجتمعة ما يخيل إلينا معه أنها جعلت من هذا البيت ميدانا لمعارك نسوية لا تهدأ ولا تفتر ، وإن لم تر فيه الطبيعة سوى أثر لحيوية هؤلاء السيدات ومظهر من مظاهر التنافس على حب زوجهن والرغبة فى الاستئثار به .

وما من شك فى أن الرسول قد عانى من ذلك كثيرا ، لكنه راض نفسه على احتماله تقديرا للدوافع الطبيعية التى كانت تدفع إليه قسرا ودون اختيار . وما تزال الإنسانية تصغى حتى اليوم وغدا وبعده إلى كلمته فى زوجته عائشة حين لجت بها غيرتها :

« ويحها لو استطاعت ما فعلت ! » .

وترى فيها آية على سلامة الفطرة وصحة النفس وعمق الفهم بطبيعة حواء . وقد كان نساؤه يعرفن هذا فى زوجهن الرسول ويلذن به كلما أخرجتهن طبيعة حواء عما يجب لزوجات نبى من مسالمة ووئـام ، ويدركن أن الغيرة مهما تجمح بهن فمثل رسول الله من يعذر ويقدر ويرحم ، دون أن يرى فى ضعف البشرية إثما لا يغتفر أو يجد فى فطرة حواء ما يدعو إلى الازدراء .

وكتب ر . ف . بودلى فى كتابه « الرسول . حياة محمد » عن زواج محمد ـــ ﷺ ـــ من عائشة : « وشغلت مسألة زواج الرجل الذى كان فى سن الخمسين من الفتاة التى كانت فى العاشرة بعض مؤرخى محمد ، كما شغلهم الإسراء وحالة الصرع . وكان المؤرخون ينظرون إلى كل حالة ن وجهة نظر المجتمع الذى يعيشون فيه . فلم ينظروا إلى هذا الزواج على

أنه كان ولا يزال عادة آسيوية ، ولم يفكروا فى أن هذه العادة لا زالت قائمة فى شرق أوربا وكانت طبيعية فى أسبانيا والبرتغال إلى سنين قليلة ، وأنها ليست غير عادية اليوم فى بعض المناطق الجبلية البعيدة فى الولايات المتحدة . وبغض النظر عن العادة فإنهم لم ينظروا نظرة اعتبار إلى ظروف هذه الحالة الخاصة . فهناك أول شيء أبو بكر أبو الزوجة وكان من المفهوم أنه يبغى أن يرتبط ارتباطا سياسيا دائما بقائده وقد أعانه وساعده فى أحلك أيامه ، وقد يكون هناك دوافع أخرى مادية أقل أهمية فهو يؤمن بمحمد ويحترمه ويحبه فكان واثقا من أن ابنته ستجد الرعاية الطيبة فى دار صديقه .

ويجب ألا يهمل محمد نفسه ، فحتى تلك اللحظة لم يكن فى حياته شيء مسل أو بهيج بل كانت حياته كدا ونصبا فكان يستحق بعض ما يرفهه غير التعذيب والحكم عليه بالاعدام ، وما كان له حتى نصيبه العادى من النساء فقد بقى حتى السابعة والعشرين عفيفا كعائشة ، وختم ذلك العفاف بالتزوج بأرملة تكبره بخمس عشرة سنة .

والنقطة الثالثة التى تنسى عادة والتى يجب لذلك تأكيدها ثانية هى أن عائشة على الرغم من أنها طفلة بالنسبة لسنها فإنها لم تكن طفلة لا حول لها تركت تحت رحمة شيخ هرم ، فلو أن هناك شابة عرفت ما هى مقبلة عليه لكانت عائشة بنت أبى بكر ذات العينين الواسعتين والقدمين الصغيرتين والشعر الجعد . فلقد كوّنت شخصيتها منذ اليوم الأول الذى دخلت فيه دور النبى اللاصقة بالمسجد وراحت تديرها ، فعاملت سودة العجوز كما تعامل خادما مكلفة القيام بجميع أعمال المنزل . ولما هجر محمد نساءه لم تخفف عائشة من غلوائها فقد كانت تعلم أنه سيعود إليها

دواما » .

ولمولاى محمد على رأى فى سن عائشة عندما بنى بها رسول الله — ﷺ ، فهو يقول فى كتابه : « محمد رسول الله » عندما كان يتحدث عن زواج النبى — ﷺ — من عائشة بنت أبى بكر : « كان لفقد خديجة وقع أليم فى نفس النبى فحزن عليها حزنا عميقا ، فلما رأت أحدى المؤمنات ذلك أشارت عليه أن يتزوج من عائشة ابنة صديقه أبى بكر وفاتحت أبا بكر فى ذلك ، وكان لعائشة مواهب بارزة لمسها النبى كما لمسها أبوها ، وكانت هذه المواهب كفيلة بأن تجعلها سيدة المستقبل الجديرة أن تكون زوجة الهادى الأعظم الذى سيكون له أبلغ الأثر فى هداية البشر ، وكان فى طريق إتمام هذا الزواج عقبتان : أولاهما أن عائشة كانت مخطوبة لجبير فما كان فى استطاعة أبيها أن يقبل تزويجها حتى يفصل فى أمر جبير ، ولكن كان جبير نفسه يرغب فى فصم رباط الخطبة لأن الهوة التى بين المسلمين والمشركين قد اتسعت ، وأما العقبة الثانية فهى عدم بلوغ عائشة السن التى تؤهلها للزواج وقد أمكن تذليل هذه العقبة بتأجيل الدخول بها ، وعلى هذا فإن حفل الزواج لم يكن فى الواقع سوى حفل خطبة وكان ذلك فى التاسع من شوال فى السنة العاشرة من نزول الوحى .

وإنها لفرصة طيبة لدفع أكذوبة شاعت وراجت عن سن عائشة ، فمن المسلم به أنها لم تبلغ السن التى تؤهلها للزواج ، وكذلك من الواضح أنها لم تكن فى سن السادسة كما زعموا فإنها كانت فى السن التى تجيز خطبتها فخطبها جبير ، وعلى ذلك فإنها كانت على أبواب السن التى تؤهلها للزواج . ومن الثابت أن فاطمة بنت النبى تكبرها بخمس

سنوات . ومن الثابت أيضا أن فاطمة ولدت أيام إعادة بناء الكعبة أى قبل أن يرسل النبى بخمس سنوات ، فتكون عائشة قد ولدت سنة نزول الوحى فكانت سنها لا تقل عن العاشرة عندما زوجت من النبى فى السنة العاشرة للرسالة ، وإن شهادة عائشة نفسها لدليل على ذلك ، فقد قالت إنها كانت تلعب مع أترابها عند نزول سورة القمر وهى السورة الرابعة والخمسون ، وإنها كانت تحفظ بعض آيات السورة ، وهذه السورة لم تنزل إلا فى السنة الخامسة للرسالة ، وعلى ذلك فما قيل من أنها كانت تبلغ السادسة فى السنة العاشرة للرسالة عندما تزوجها النبى إن هذا إلا قول كاذب ، وإلا كان مولدها يوم نزول سورة القمر وهو ما تنفيه هى بقولها إنها حفظت بعض آياتها عند نزولها .

من هذا كله يفهم أن سنها لم تكن أقل من عشرة أعوام بحال عندما خطبها النبى ، ولما كانت المدة بين الخطبة والدخول بها لا تقل عن خمس سنوات فما دخل النبى بها إلا فى السنة الثانية للهجرة ، وعلى ذلك يكون سنها يوم بنائه بها خمسة عشر عاما ، أما دعوى أنها كانت فى السادسة عند عقد الزواج وأن النبى بنى بها وهى فى التاسعة فهى دعوى خاطئة لأن معنى هذا أن الفترة بين العقد والزواج كانت ثلاثة أعوام ، وهذا خطأ تاريخى لاشك فيه » .

ويقول المعتزلة بعدم جواز أن يتزوج الرجل زوجة ثانية ما دامت الأولى فى عصمته ، وسبب ذلك أنهم نظروا نظرة سطحية إلى ما يجلبه التعدد — فى نظرهم من مفاسد ومضار ، ولم يرد فى القرآن نص يحرم

تعدد الزوجات ، إنه اشترط العدل بين الزوجات ﴿ فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ﴾[1] ولا ريب أن هناك ظروفا اجتماعية أو اقتصادية تبرر تعدد الزوجات ، فقد قرر أساتذة علم الاجتماع أمثال « جينز برج ووستر مارك » أن تعدد الزوجات كان النظام المتبع فى الشعوب المتمدينة فى حين كان نظام الزوجة الواحدة هو النظام المتبع عند الشعوب المتأخرة ، وأن الشعوب التى كانت تحرم الزواج بأكثر من واحدة إنما كانت تتبع تقاليد لا تتصل بالدين من قريب أو بعيد . كما أن الشعوب التى أجازت الزواج بأكثر من واحدة إنما أجازته طبقا لما رأت فيه من فوائد اقتصادية أو عمرانية دون نظر كذلك إلى الدين .

وتقول « ماريون لانجر » العالمة الاجتماعية المتخصصة فى استشارات الزواج « إن لدى المجتمع حلين ممكنين فحسب لتغطية النقص المتزايد فى الرجال ؛ إما تعدد الزوجات ، أو إيجاد طريقة ما لإطالة أعمار الرجال ، فهل يمكن إيجاد طريقة لإطالة عمر الرجال دون النساء ؟ أم ترى هل سيلجأ العالم إلى إباحة تعدد الزوجات » .

ويقول الدكتور حسين المفتى فى هذا الشأن : « أصبح من المعتاد اعتبار مبدأ تعدد الزوجات منكرا اجتماعيا واعتاد المسلمون أن يبرروا وجود هذا المبدأ فى دينهم تبريرا هو أقرب الأشياء إلى الاعتذار وما ذلك إلا لأنهم يسمحون لأنفسهم أن يتأثروا بوجهة نظر الناقدين الذين هم قطعا يفكرون فى أمر الزواج على أساس ميول وعواطف الأفراد ، بينما الإسلام يعالجه على أساس مصلحة المجتمع ، ويضع الحلول التى إن لم

---

(١) النساء ٣ .

ترض ميول الأفراد فإنها لا تتنافى مع خيرهم ثم هى لا مناص منها لخير المجتمع .

وقد أسهب المستشرقون فى قصص زواج النبى — ﷺ — من نسائه وخرجوا من دراساتهم المغرضة بأنه كان عليه السلام يجرى وراء لذاته ، وقد فند الأستاذ العقاد مزاعمهم فى كتابه : عبقرية محمد ، قال : « ... فهو أولا رجل يطلب ما يطلبه الرجل فى المرأة ، ونحن قبل كل شيء لا نرى ضيرا على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها ، هذا سواء فى الفطرة لا عيب فيه . وهذه النفس السوية يمكننا أن نفهمها بجلاء حين نرى أن المرأة لم تشغله عما تشغل المرأة الرجل المفرط فى معرفة النساء من مهام الأمور والقيام بالأعباء الجسام ، فمهما قال هؤلاء فلن يستطيعوا أن ينكروا أن محمدا قد حقق ما لم يحققه بشر قبله ولا بعده ، و لم يشغله عن هذا شيء لا امرأة ولا غير امرأة ، فإن كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها ، ويعطى المرأة حقها ، فالعظمة رجحان وليست بنقص ، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب ، ومحمد الذى خير نساءه بين أن يرضين بحياة الكفاف أو يسرحهن سراحا جميلا ليس بالضرورة رجلا خاضعا للذات حسه ، فلو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن فى الحرير والذهب وأطايب الملذات ، وليس هذا فعل رجل يستسلم للذات حسه » .

ويقول العقاد : « قال لنا بعض المستشرقين : إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية ، قلنا إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية لأنه لم يتزوج قط ، فلا ينبغى أن تصف محمدا بأنه مفرط الجنسية لأنه جمع بين تسع نساء .. فالنبى — ﷺ — أمكنه أن يسوس

تسع زوجات و لم يؤثر عنهن خصام أو نزاع إلا مرات تعد على أصابع اليد ، فمن أتيح له أن يجمع بين عدد من الزوجات فعليه أن يقتدى به فى معاملة زوجاته بالعدل ومعالجة الشئون المنزلية بالأناة وسعة الصدر ، وعلى النساء أن يتخذن من زوجات النبى الكثيرات مثالا صالحا يحتذينه من العفة والزهد وتدبير المنزل والرضا بما قدر لهن من متاع فى هذه الحياة الدنيا ، وبذلك تسعد الأسرة بتمامها وتقوم بواجبها نحو الله ونحو المجتمع الإنسانى .

ولو أن المسلمين وغيرهم تأملوا فى حياة النبى مع نسائه واقتدوا به فى معاملة الأزواج والأبناء والأقارب كما أمرهم الله لعاشوا عيشة راضية مرضية » .

ووجد المبشرون والمستشرقون فى زواج النبى — ﷺ — من زينب بنت جحش مادة للخيال والتشهير ، فصوروا قصة غرام مشبوب كذلك القصص الملتهبة التى ذاعت فى العصور الوسطى والقرن التاسع عشر ، فقد كتب الراهب فيدنزو مقدمة نابضة بالحرارة إن دلت فإنما تدل على ما كان يقاسيه من كبت جنسى ثم قال : « كان هناك رجل يدعى سيدروس (زيد) له زوجة تدعى زينب وكانت أجمل نساء الأرض فى زمانها ، وسمع محمد بجمالها الرائع فشغف بها حبا وشاء أن يراها فانطلق إلى دارها فى غياب زوجها يسأل عنها ، و لم تخف المرأة خبر تلك الزيارة عن زوجها وقد سألها عند عودته : هل كان رسول الله هنا ؟ قال : نعم . قال : هل رأى وجهك ؟ قالت : نعم . وأطال إليها النظر ، قال : هذا فراق بينى وبينك .

واستمر الراهب فى سرد قصة لعب الخيال فيها أكبر دور ، وراح

يدس بعض ما جاء فى سورة الأحزاب عن زواج النبى — ﷺ — من زينب ليوهم القارىء أنه يسرد واقعة حقيقية مؤيدة بالقرآن .

وحتى بودلى وهو ممن حاولوا أن ينصفوا نبى الإسلام عليه السلام قد صور قصة زواج النبى من زينب فى صورة روائية وقد يكون له بعض العذر ، فالطبرى وبعض كتاب السيرة سردوا الحادثة سردا قصصيا يوحى بأن النبى عليه السلام لما رأى زينب أعجب بحسنها كأنما يراها لأول مرة وكأنها لم تكن ابنة عمته التى زوّجها من زيد بن حارثة ، يقول بودلى : « ... وإن السيدة التالية التى صادفت فى نفس محمد هوى قد أحدثت رجة فى دور النبى أكبر مما أحدثته أم سلمة .

وقد كانت فى الواقع صدمة لكل إنسان وأصبحت هدفا للنقد وموضوعا للتندر خارج دائرة الأسرة وكان اسمها زينب ، وما كانت تصل بأى سبب بزينب الأخرى (يقصد زينب بنت خزيمة) التى كانت ترقد رقدتها الأخيرة .

كانت زينب هذه حفيدة عبد المطلب وابنة عمة محمد وقد هاجرت إلى المدينة قبل محمد بقليل . ولكنها لسبب من الأسباب لم تتزوج على الرغم من أنها قد اقتربت من الثلاثين ، وقد زوجها محمد عقب الهجرة بقليل من صديقه وعبده المحرر زيد بن حارثة . وكان زيد هذا قبيح المنظر قصيرا أقنى الأنف غير مثقف ، ولو نحينا أمانته للإسلام وسيده وشجاعته الشخصية العظيمة لما كان له إلا القليل ليقدمه إلى سيدة جذابة شريفة كزينب . وقد قبلت زينب الزواج بسبب إصرار محمد ولكنها لم تحب زيدا أبدا ، وما كان زيد نفسه يفهم الناس فلم يكن يدرى كيف يعامل زوجه المدللة .

وذات يوم ذهب محمد ليزور زيدا ، فلما لم يجبه أحد طرق الباب ونادى ، ثم دخل بيت زيد حيث اطلع على زينب الفاتنة وكانت نصف عارية ، فأثر هذا فى عواطفه حتى قال : « سبحان مقلب القلوب » . ثم هرول خارجا فى ارتباك .

رأت زينب نظرة محمد فى عينيها ، وقد سمعت ما قال ولاحظت كيف نطق بما قال فقدرت ما سيقود إليه ذلك القول . فلما عاد زوجها إلى البيت أنبأته بما حدث فما تركت تفصيلا وأضافت تفاصيل قليلة من عندها . وإن أول شيء فكر فيه زيد بعد أن انتهت من سرد قصتها كان سيده الحبيب ، فانطلق إليه ولم يلو على شيء وعرض عليه أن يطلق زوجه ، فأثرت تضحية زيد بنفسه فى محمد فأخبره أن يعود إلى زينب وألا يفكر فى ذلك ثانية .

وكانت لزينب أفكار أخر ، كانت تعرف ما يحسه محمد نحو النساء وكانت متيقنة من إحساسه نحوها ، وكانت قد ضاقت ذرعا بزيد وترغب فى أن تعيش كما يؤهلها كرم مولدها فابتدأت بجعل حياة زيد جحيما فطلقها ليفر من الاضطهاد المنظم .

وانتظر محمد حتى انقضت الفترة المقررة بين الطلاق والزواج ثم ضم زينب إلى زوجاته ، فابتدأت المتاعب وكانت الشابتان (عائشة وحفصة) مثيرتيها وقد نفتا أن للغيرة أى دخل فى هذا ، فراحتا تذيعان فيما حولها أن هذا الرباط رباط فسق فإن زيدا ابن محمد ، والزواج من زوجته ينافى جميع الشرائع فى العالم ، وإنها لفضيحة وإن شيئا كهذا لا يمكن أن يحتمل !

وما كان زيد ابنا لمحمد فقد تبناه فصار وريثه فى نفس الوقت الذى

تحرر فيه ، وما كانت هناك رابطة دم وعلى الرغم من ذلك كانوا يدعونه بابن محمد ، وما كان كثير من المسلمين يدرون كيف صار ابنه ، فلما رفعت عائشة وحفصة صوتيهما بالاحتجاج احتج المجتمعون فى المسجد للصلاة فأصبح محمد فى مأزق ، ولكن جاءه الوحى سريعا ولم يدع الوحى أى شك فى التفريق بين الابن المتبنى والابن المولود ، وقد قرر زيادة على ذلك بأن أرملة الابن المتبنى أو مطلقته لا تدخل فيمن حرم الزواج بهن .

اغتاظت الشابتان وقالت عائشة لزوجها : « ما أرى ربك الا يسارع فى هواك » . ولكن ذلك لم يغير من الأمر شيئا فقد كانت زينب فرحة وقالت لكل من قابلته إن الله تدخل لمصلحتها وقد زوجها بنفسه . وقد ضحكت عائشة وكذلك فعلت حفصة ولكن قضى تماما على كل ما أثارتاه .

وهذا الزواج من زينب مكن الغربيين وعلى الأخص الذين يعتقدون أن محمدا لا يصلح لشىء طيب من أن يقولوا : « لقد قلنا لكم ذلك ! فما الذى تنتظرونه غير ذلك من هذا المخاتل الكبير » .

وهؤلاء الرجال على كل حال لينظرون إلى الأمر النظرة الخاطئة ، فإنهم لا ينقلون أنفسهم إلى مجتمع ذلك الوقت أو حتى إلى المجتمع الشرقى ، فإن للعرب اليوم وللرجال العظام أمثال ابن السعود وللحكام أمثال سلطان مراكش أن يعيدوا قصة زينب عدة مرات فى حياتهم التى يحيونها فى القرن العشرين هذا ، فلو أن عائشة لم تضع النقط فوق الحروف لكان من المحتمل ألا يقول أحد شيئا عن ذلك فى المدينة عام ٦٢٦ .

كانت العلاقة الجنسية شغل العرب الشاغل فى ذلك الوقت كما هى اليوم إلى حد ما ، وما كان التحدث فيها محرما كما هو حادث بين كثير من الغربيين ، وكانوا ينظرون إليها كعامل من عوامل السرور والطرب والإلهام ويعتبرونها شيئا عاديا .

وإنه لما يذهل العرب نفاق الغربيين العجيب فيما يتعلق بالعلاقة الجنسية ، فإنهم ليرون أن رجال القارة الأوربية والقارة الأمريكية ونساءهما لا يختلفون عنهم فى شىء فإن لهم نفس شعورهم ، ولكنهم ينظرون إلى جميع الأمور المتعلقة بالعواطف الجسدية المزدوجة للذكر والأنثى كنظرهم إلى رذيلة كشرب الخمر سرا ، ولذلك يبدو لكثير ممن كتبوا عن محمد أن ارتباط محمد بزينب ومحمد بعائشة ومحمد بجويرية بنت الحارث وقد أسرت فى غارة ولم تدفع ديتها وأصبحت زوجة محمد الثامنة بعد زينب شيئا غير عادى ، ولكنه ليس بشىء غير عادى إذا قورن بعادات زواج الحكام الآخرين فى هذا الجزء من العالم كسليمان وداود ، فلم يكن لمحمد حريم كبير كحريم سليمان أبدا ، وإن قصة زينب أكثر بساطة ولا ريب من قصة بتشيبا أو أجنوم زوج أبيجيال التى أعجب داود بها ليلة عرسه .

وينبغى ألا ينظر إلى حياة محمد الزوجية من وجهة النظر الغربية وألا تقاس بالشرائع المسيحية ، فإن هؤلاء الرجال والنساء ما كانوا غربيين فقد كانوا يعيشون فى زمن وفى قطر لا يعرف فيه إلا أقيستهم الأخلاقية فحسب . وحتى إذا كان ذلك فليس هناك من سبب لاعتبار الأحكام الأوربية والأمريكية أعظم من الأحكام العربية . إن عند رجال الغرب الشىء الكثير الذى يعطونه لأهل الشرق وإنهم فى احتياج إلى أن يأخذوا

عنهم الشيء الكثير أيضا . وإلى أن يستطيعوا أن يبرهنوا على أن طريقة عيشهم أعلى خلقيا من أى شعب آخر فعليهم أن يحتفظوا بحكمهم على العقائد والطوائف والبلاد الأخرى » .

ويقول الأستاذ العقاد عن شطحات الخيال التي وضعت زواج النبى ﷺ — من ابنة عمته زينب وصفا قصصيا لعب الغرام فيه دورا رئيسيا : « ليس أسهل من شيوع هذه الأكذوبة وترويجها وتنميقها وإخراجها فى قصة غرام تذاع للتشهير برسول الإسلام كما شاعت فى القرون الوسطى . وليس أسهل من إسقاطها وإسقاط المروجين لها بخبر واحد لاشك فيه من أخبارها الكثيرة ، وهو أن زوجة زيد كانت بنت السيدة أميمة بنت عبد المطلب عمة النبى عليه السلام ، وأن النبى عليه السلام هو الذى زوجها من ربيبه وعتيقه زيد . وما كان جمالها خفيا عليه قبل تزويجها بمولاه لأنها كانت بنت عمته يراها من طفولتها وتراه . ولم تفاجئه بروعة لم يعهدها وهو لا يطمع إلى الزواج من مثلها ، ويكفى أن يعرف هذا الخبر لتسقط الأكذوبة كلها . وشيء من التفصيل القليل لهذا الخبر يعكس الفضيحة على المبطلين ليعلموا حقيقة القصة المحرفة ويعلموا أنها آية الخلق الكريم فى نبى المسلمين ، وأن زيدا الذى زوجه النبى من بنت عمته لم يكن إلا أسيرا عتيقا رباه النبى فأخلص له ولدينه .. وآثر المقام إلى جواره على الرجوع إلى أهله بعد تسريحه ، ورفع السيد الكريم عن عبده العتيق ذلة الرق بمصاهرته والمساواة بينه وبين كرام أهله ، وأطاعت الزوجة النبى كما ينبغى لمثلها مع مثله . ولكنها عاشت مع زوجها كسيرة الخاطر . لما كانت تتبينه من نظرات لداتها وقريناتها إليها ، ويشعر زيد بما تضمره من الحزن والأنفة فيهم بتطليقها ولكنه يستكبر أن

يقابل جميل النبى برفض الزوجة التى اختارها له وميزه بها على صحبه ، فارتفعت بنبى الإسلام مروءته إلى حيث ينبغى أن ترتفع مروءة الأنبياء ، وأحل زيدا من حرجه وعوض زينب عن مهانتها ويعلم الناس أنها كفء له وإن كان قد اختارها لفتاه الذى كان يتبناه ، ولولا ذلك لعاشت الزوجة المطلقة معضلة بين لداتها وأترابها وهى لا تطمع فى الزواج من كفء لها بعد تطليقها ، وليس مما يجبر خاطر الكسير أن يساق إليها الزوج الذى يكافئها وتكافئه مأمولا بزواجها .

تلك قصة أرسلوها فى غياهب القرون الوسطى لينظر الناس فى ظلماتها إلى وصمة إنسانية يعاف من أجلها خلق الإنسان ويعاف الدين الذى يدعو إليه من أجله . ويزيد عليها خبر صغير لاشك فيه فإذا هى شهادة بالنبوة كأحسن ما تكون الشهادة للأنبياء ، لأنها شهادة بغاية البر والإحسان إلى الأسير الضعيف الغريب عن أهله ووطنه ، وغاية البر والإحسان إلى المرأة المجروحة فى عزتها بعد أن غلبها ضعف الأنوثة والعرف على شعورها برغم إرادتها ، وكانت فضيلة الصدق مع فضيلة العفة أكبر الأهداف التى تعمدها أصحاب هذه المكيدة بالإنكار فيما زيفوه من القصص المحرفة عن صفات النبى » .

وقد دافع بعض المستشرقين عن مبدأ تعدد الزوجات ، فالمستشرق « ألفونس أتيين دينيه » فى كتابه « محمد رسول الله » يقول : « ولن نخاطر هنا محاولين عن عادة يحمل عليها الناس بمثل هذه الشدة ، ولكننا نقتصر على عرض بعض الملاحظات :

فالواقع يشهد بأن تعدد الزوجات شىء ذائع فى سائر أرجاء العالم وسوف يظل موجودا ما وجد العالم مهما تشددت القوانين فى تحريمه ،

ولكن المسألة الوحيدة هى معرفة ما إذا كان من الأفضل أن يشرع هذا المبدأ ويحدد أم أن يظل نوعا من النفاق المستتر لا شىء يقف أمامه ويحد من جماحه .

وقد لاحظ جميع الرحالة الغربيين ونخص منهم بالذكر « جيرال دى نيرفال » و « الليدى موجان » أن تعدد الزواج عند المسلمين — وهم يعترفون بهذا المبدأ — أقل انتشارا منه عند المسيحيين الذين يزعمون أنهم يحرمون الزواج بأكثر من واحدة ، وليس ذلك بالأمر الغريب على الفطرة البشرية فالمسيحيون يجدون لذة الثمرة المحرمة عند خروجهم على مبدئهم فى هذا .

ودافع ألفونس أتيين دينيه فى كتابه « أشعة خاصة بنور الإسلام » عن مبدأ تعدد الزوجات فى الإسلام قال : « لا يتمرد الإسلام على الطبيعة التى لا تغلب وإنما هو يساير قوانينها ويزاول أزمانها بخلاف ما تفعله الكنيسة من مغالطة الطبيعة ومصادمتها فى كثير من شئون الحياة ، ومثل ذلك الفرض الذى تفرضه على أبنائها الذين يتخذون الرهبنة فهم لا يتزوجون وإنما يعيشون غرباء » .

على أن الإسلام لا يكفيه أن يساير الطبيعة ولا أن يتمرد عليها وإنما هو يدخل على قوانينها ما يجعلها أكثر قبولا وأسهل تطبيقا فى إصلاح ونظام ورضا ميسور مشكور ، حتى لقد سمى القرآن لذلك « بالهدى » لأنه المرشد إلى أقوم مسالك الحياة ولأنه الدال على أحسن مقاصد الخير .

والأمثلة العديدة لا تعوزنا ولكنا للقصر نأخذ بأشهرها وهو التساهل فى سبيل تعدد الزوجات ، وهو الموضوع الذى صادف النقد الواسع والذى جلب للإسلام فى نظر أهل الغرب مثالب جمة ومطاعن كثيرة .

ومما لاشك فيه أن التوحيد فى الزوجة هو المثل الأعلى ، ولكن ما العمل وهذا الأمر يعارض الطبيعة ويصادم الحقائق ، بل هو الحال الذى يستحيل تنفيذه ؟ لم يكن للإسلام أمام الأمر الواقع وهو دين اليسر إلا أن يستبين أقرب أنواع العلاج فلا يحكم فيه حكما قاطعا ولا يأمر به أمرا باتا .

والذى فعله الإسلام أول كل شيء أنه أنقص عدد الزوجات الشرعيات وقد كان عند العرب الأقدمين مباحا دون قيد ، ثم أشار بعد ذلك بالتوحيد فى الزوجة فى قوله : « وإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة » .

وأى رجل فى الوجود يستطيع أن يعدل بين زوجاته المتعددات ؟ ولذا كان التعدد بهذا الشرط مستحيل التنفيذ ، ولكن انظر كيف وضعه الإسلام وضعا هو غاية فى الرقة والدقة واللطف مع الحكمة ، ثم انظر هل حقيقى أن الديانة المسيحية بتقريرها الجبرى لفردية الزوجة والتوحيد فيها وتشديدها فى تطبيق ذلك قد منعت تعدد الزوجات ؟ وهل يستطيع شخص أن يقول ذلك دون أن يأخذ منه الضحك مأخذه ؟ وإلا فهؤلاء ملوك فرنسا ، دع عنك الأفراد ، الذين كانت لهم الزوجات المتعددات والنساء الكثيرات وفى الوقت نفسه لهم من الكنيسة كل تعظيم وإكرام . وإن تعدد الزوجات قانون طبيعى سيبقى ما بقى العالم ولذلك فإن ما فعلته المسيحية لم يأت بالغرض الذى أرادته فانعكست الآية معها وصرنا نشهد الإغراء بجميع أنواعه ، وكان مثلها فى ذلك مثل الشجرة الملعونة التى حرمت ثمراتها فكان التحريم إغراء . على أن نظرية التوحيد فى الزوجة وهى النظرية الآخذة بها المسيحية ظاهرا تنطوى تحتها سيئات متعددة ظهرت على الأخص فى ثلاث نتائج واقعية شديدة الخطر جسيمة

البلاء ، تلك هى الدعارة والعوانس من النساء والأبناء غير الشرعيين » .

كان رجال الكنيسة يرون أن المرأة شيطان وأنها جسد بلا روح ، ويقول « سان بونافنتور » إلى تلاميذه « إذا رأيتم امرأة فلا تحسبوا أنكم ترون كائنا بشريا بل ولا كائنا وحشيا وإنما الذى ترونه هو الشيطان بذاته والذى تسمعون هو فحيح الأفعى » . وكان ينظر إليها فى الأزمان الغابرة كما ينظر إلى الرقيق فهى متاع الزوج وليست ندا له ، وكان من حق الرجل وحده أن يملك متاعا فى حين كان محظورا على المرأة أن تملك أى متاع أو أن تقوم باسمها بمباشرة أية عملية تجارية ، وعلى ذلك لم تكن شخصا بمعنى الكلمة ، وكان لها أحقر نصيب من الحقوق كابنة وكزوجة أو كأم فكانت وهى ابنة ملكا للأب وهى زوجة ملكا للزوج ، فكان نصف الجنس البشرى ، النصف الهام المسئول عن إعداد الجنس البشرى جميعا ملقى به فى زوايا العبودية والرق ، فإذا ما كان هذا نصيب المرأة من الماديات فكيف كانت تستطيع أن تتهيأ لتلقى الروحانيات ؟ وكان ينظر للزواج على أنه حجر عثرة فى سبيل التقدم الروحى للإنسان حتى فى المسيحية التى كان ينظر فيها إلى الزواج على أنه شر لابد منه .

فلما ضعف سلطان المسيحية وقوى عود المدنية المادية استطاعت المرأة أن تناضل من أجل حقوقها فظفرت ببعض منها ، ولكنها منيت بالخيبة بعد ذلك الفوز إذ فقدت الاستقرار والهناءة المنزلية ، فقد أضعفت المادية من قوة الدين الوازعة وأدت إلى حالة منحلة فى العلاقات بين الزوجين ، فكان من نتيجة ذلك أن خضعت فى أوروبة خضوعا مطردا للإباحية وطرح الزواج جانبا لا لعيب طبيعى فيه ولكن لأنه يلقى ببعض

المسئوليات على كاهل الإلفين اللذين يفكران فى إنشاء بيت . فالنظرة المادية جعلت من الإنسان أنانيا كبيرا ، فبينما يجرى وراء كل متعة فإنه يتملص من مسئوليات الحياة الجديدة حتى يحيا حياة خالية من المتاعب . ولكن الحياة لها نصيبها من الأتراح ، والزواج إذ يقوى من روابط الحب المتبادل بين الرجل والمرأة ويزيد فى سعادتهما يتطلب منهما أن يتقاسما المتاعب والأحزان معا ، فالإباحية تجعل كلا الجنسين أنانيا إلى أقصى حد لأن الرجل والمرأة إذا ما أصبحا إلفين لمتعة فقط ترك كل منهما الآخر وحيدا لأحزانه .

وقد لعب النظام الإسلامى الاجتماعى دورا هاما فى تنظيم العلاقات فبدأ بتدعيم الأسس باعتبار المرأة مخلوقا حرا له حق الاحتفاظ بما يملك أو بيعه إذا شاء ، وبهذا الحق أصبحت المرأة متساوية للرجل فقضى على مبدأ التفرقة بين الرجل والمرأة فى القيمة الإنسانية المشتركة كما قضى على مبدأ التفرقة بينهما أمام القانون والحقوق العامة . وقد تقرر مركز المرأة فى الإسلام من ثلاثة عشر قرنا فقد أنزل الله على رسوله : ﴿ للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن ﴾[1] . وهكذا أصبح فى استطاعة المرأة أن تكتسب المال وأن تحوزه كالرجل ، ولم يميز النظام بين الجنسين فى هذا الحق ففى وسعها أن تبيع وأن تشترى وأن تهب مالها لمن تشاء ، ﴿ فإن طبن لكم عن شيء منه نفسا فكلوه هنيئا مريئا ﴾[2] .

شرع الإسلام المساواة بين الرجل والمرأة فيما هو من خصائص

---

(١) النساء ٣٢ .

(٢) النساء ٤ .

الإنسانية فى الدنيا والآخرة ، قال تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾[١] ﴿ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾[٢] . ﴿ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون ﴾[٣] .

وأباح الإسلام للمرأة التعلم بمختلف أنواعه ومراحله بل جعله فريضة عليها فى الحدود الضرورية لها فى شئون دينها ودنياها ، وفى هذا يقول صلوات الله وسلامه عليه : (طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة) . وكانت أم المؤمنين حفصة بنت عمر بن الخطاب رضى الله عنها تتعلم الكتابة فى الجاهلية على يد امرأة كاتبة تدعى الشفاء العدوية ، فلما تزوجها عليه السلام طلب إلى الشفاء أن تعلمها تحسين الخط وتزيينه كما علمتها أصل الكتابة .

وجعل الإسلام الأنثى ترث كالذكر بعد أن كان العرب يخضعون لتقليد يقدسونه وهو ألا يرث إلا كل من يستطيع أن يحمى ذمار قبيلته ويدفع عنها عدوان العدو وهو ما لم تعد الطبيعة المرأة له ، ﴿ للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ﴾[٤] .

ولم يفرق الإسلام بين الرجل والمرأة إلا حيث تدعو إلى هذه التفرقة

---

(١) آل عمران ١٩٥ .
(٢) النساء ١٢٤ .
(٣) النحل ٩٧ .
(٤) النساء ٧ .

مراعاة طبيعة كل من الجنسين وما يصلح له وكفالة الصالح العام وصالح الأسرة وصالح المرأة نفسها ، وترجع أهم النواحي التي قرر فيها الإسلام هذه التفرقة إلى خمسة أمور : الأعباء الاقتصادية ، والميراث ، والقوامة على الأسرة ، والشهادة ، والطلاق .

ففي الأعباء الاقتصادية كان الإسلام رحيما بالمرأة وكفل لها من أسباب الرزق ما يصونها عن التبذل ويحميها من شرور الكدح فى الحياة ، فأعفاها من كافة أعباء المعيشة وألقاها جميعا على كاهل الرجل .

فما دامت المرأة غير متزوجة ولا معتدة من زوج فنفقتها واجبة على أصولها أو فروعها أو أقربائها حسب ترتيب الفقه الإسلامى لهم فى وجوب النفقة . فإن لم يكن لها قريب قادر على الإنفاق عليها فنفقتها واجبة على بيت المال .

وكذلك شأنها فى جميع مراحل الزوجية سواء فى ذلك مرحلة الإعداد للزواج ومرحلة الزواج ومرحلة انفصامه بالطلاق ، فقد ألقت الشريعة الإسلامية على كاهل الرجل واجبات اقتصادية هى مقدم الصداق وإعداد منزل الزوجية دون أن تكلف المرأة أو أهلها أى عبء من هذا القبيل . وفى أثناء الزوجية أعفت الشريعة الإسلامية المرأة من أعباء المعيشة واحتفظت لها بحقوقها المدنية كاملة غير منقوصة . فلها شخصيتها المدنية وثروتها الخاصة ولا تكلف أى عبء فى نفقات الأسرة مهما كانت موسرة .

وليس الزواج فى الإسلام حائلا فى سبيل السمو الروحى ولكنه

وسيلة تؤدى إلى زيادة هذا السمو ، فقد خلق الله الزوجين ليسكن بعضهما إلى بعض : ﴿ هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ﴾[١] .

وينظر الإسلام إلى الزواج على أنه الوسيلة المثلى لرقى الإنسان ، الوسيلة الوحيدة لتنمية عواطف الحب والخير ، فالزواج حسب النظام الإسلامى الاجتماعى هو الحالة الطبيعية التى ينبغى لكل رجل وامرأة أن يندمج فيها . قال عليه السلام : (إنى أتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى) .

ويعتبر الزواج فى النظام الاجتماعى الإسلامى ميثاقا يعقد على أساس الحب المتبادل بين الرجل والمرأة فى حضور شهوده ، من المحتم إعلان ميثاق الزواج فالاعلان هو الفارق الوحيد بين الزواج والسفاح ، ويجب إعلان كل عقد زواج ولو بدق الدفوف .(أعلنوا هذا النكاح واجعلوه فى المساجد واضربوا عليه بالدفوف) .

ولا تفنى شخصية المرأة فى الرجل بالزواج ، فبينا لا تفقد شيئا من حقوقها المكتسبة كفرد فى الهيئة الاجتماعية البشرية فإن حياتها الجديدة تلقى عليها مسئوليات جديدة كما تجلب لها حقوقا جديدة : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾[٢] .

وقد وضحت هذه النظرية جيدا فى الحديث الشريف : (كلكم راع ومسئول عن رعيته ، فالإمام راع ، والرجل راع ومسئول عن أهله ، والمرأة راعية ومسئولة عن بيت زوجها) .

والبيت هو الدولة فى صورة مصغرة ويسيطر عليه الرجل والمرأة معا ، ولكن ما لم يكن هناك تفاوت فى القوة بينهما فسيضطرب نظام

---

(١) البقرة ١٨٧ .　　(٢) البقرة ٢٢٨ .

هذه المملكة : ﴿ الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم ﴾[١] .

ويحض النظام الإسلامى بشدة على معاملة الزوجة معاملة طيبة ، فإما إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان : ﴿ فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ﴾[٢] . ﴿ وعاشروهن بالمعروف ﴾[٣] ، والرحمة بالمرأة واجبة حتى فى حالة الكراهية : ﴿ فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾[٤] . قال ﷺ : (خياركم خياركم لنسائهم) ، وقال ﷺ ، فى خطبة الوداع : (أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا ، فاستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا) .

وإذا ما انفصمت الزوجية بالطلاق يتحمل الزوج وحده فى الإسلام جميع الأعباء الاقتصادية ، فعليه مؤخر صداق زوجته وعليه نفقتها من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ما دامت فى العدة ، وعليه نفقة أولاده وأجور حضانتهم ورضاعتهم فى دور الحضانة ، وعليه وحده نفقات تربيتهم بعد ذلك ، فوضعت الشريعة الإسلامية المرأة فى أعلى مرتبة من قبل الزواج ومن بعده وسمت بها فى الحالتين إلى مستوى رفيع لم تصل بها إلى مثله بل لم تصل بها إلى ما يقرب منه أية شريعة أخرى من شرائع العالم قديمه ومتوسطه وحديثه .

إن الإسلام يعرف ضرورة ترك الباب مفتوحا لفصم عرى الزواج فى

---

(١) النساء ٣٤ .　　(٢) البقرة ٢٣٤ .

(٣) النساء ١٩ .　　(٤) النساء ١٩ .

ظروف استثنائية ، فقد كان الناس على طرفى نقيض قبل الإسلام فيما يختص بالطلاق . ففى الشريعة الهندوسية لا يفصم الزواج الذى يعقد بتاتا ، والطلاق فى الشريعة الموسوية فى يد الرجل وحده يستعمله وقتما يريد ، أما فى المسيحية فإن الطلاق لا يكون إلا إذا حدثت خيانة من الطرفين ولا يسمح مطلقا للمطلقين أن يتزوجا ثانية . أما الإسلام فقد اتخذ موقفا وسطا بين هذه الآراء المتغالية ، فهو يسمح بالطلاق ولكن يعتبره أمرا مكروها ويتلمس السبل الممكنة لإصلاح ذات البين ، فإذ يقر حق الزوجة فى الطلاق لسبب وجيه يحد من حق الزوج .

والزواج فى الواقع اتفاق بين الرجل والمرأة على أن يعيشا زوجين ، فإذا وجد أحد الطرفين أنه لا يستطيع أن يحيا مثل هذه الحياة وجب الطلاق . والعقلية الإسلامية على العموم تبغض الطلاق : « أبغض الحلال إلى الله الطلاق » ولا يجوز الطلاق قبل محاولة الإصلاح : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا يوفق الله بينهما ﴾[1] .

قال ابن عابدين : « أما الطلاق فالأصل فيه الحظر أى الحرمة والإباحة للحاجة إلى الخلاص ، فإذا كان بلا سبب أصلا لم يكن فيه حاجة إلى الخلاص بل يكون حمقا وسفاهة رأى ومجرد كفران للنعمة وإيقاع الأذى بها وبأهلها وأولادها . ولذا قالوا إن سببه الحاجة إلى الخلاص عند تباين الأخلاق وعروض البغضاء الموجبة عدم إقامة حدود الله تعالى ، فحيث تجرد عن الحاجة

---

(١) النساء ٣٥ .

المبيحة له شرعا يبقى على أصله من الحظر ، ولذا قال تعالى : ﴿ فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا ﴾[1] .

ولم يفرق الإسلام بين الزوج والزوجة فى حق طلب الطلاق ، فقد جاءت جميلة زوجة ثابت بن قيس إلى النبى — ﷺ — تطلب الطلاق من زوجها قائلة :

— يا رسول الله إنى لا أجد عيبا فى ثابت فى خلقه أو دينه ، إلا أنى لا أطيقه .

فلما سئلت هل ترد له الحائط (البستان) الذى أمهرها إياه ؟ وأجابت بنعم ، أمر النبى ثابتا أن يسترد بستانه ويطلقها .

وقد أسهب الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه « حقوق الإنسان فى الإسلام » عند التحدث عن تفرقة الإسلام بين الرجل والمرأة فى حق الطلاق ، قال : « يأخذ كثير من علماء الفرنجة المسيحيين على الإسلام أنه أباح الطلاق وجعله حقا للرجل وحده ، ويتابعهم فى ذلك بعض المتفرنجين من أبنائنا المصريين والمتفرنجات من بناتنا المصريات ؛ فيجأر هؤلاء وأولئك بالشكوى من الوضع الإسلامى ويطلبون إلى المشرع المصرى أن يتدخل فى هذا النظام ليقيمه على القواعد التى تسير عليها أمم الغرب المسيحى ؛ فيرفع بذلك بلدنا المتخلف البائس إلى مصاف الشعوب المتحضرة الراقية !

وقبل أن نرد على الفرنجة والمتفرنجين والمتفرنجات ، ونبين لهم الوضع الصحيح لنظام الطلاق فى الإسلام ، وهو الوضع الذى يجهله كثير

---

(١) النساء ٣٤ .

منهم ، ويتجاهله بعضهم مكابرة وعنادا واندفاعا وراء رغباتهم الآثمة فى الكيد للإسلام وتشويه تعاليمه وتوهين منزلته فى نفوس معتنقيه ، قبل أن نرد عليهم ونبين لهم الوضع الصحيح لنظام الطلاق فى الإسلام وأنه أمثل نظام عرفته الشرائع ، يجدر أن نلقى نظرة مجملة على نظام الطلاق فى أمم الغرب المسيحى ، وهو النظام الذى يريدوننا على السير عليه ويطلبون إلى أولياء أمورنا أن يستوردوه إلى مصر .

ترجع جميع المذاهب المسيحية التى تعتنقها أمم الغرب المسيحى إلى ثلاثة مذاهب : المذهب الكاثوليكى ، والمذهب الأرثوذكسى ، والمذهب البروتستانتى .

فالمذهب الكاثوليكى يحرم الطلاق تحريما باتا ولا يبيح فصم الزواج لأى سبب مهما عظم شأنه . وحتى الخيانة الزوجية نفسها لا تعد فى نظره مبررا للطلاق ، وكل ما يبيحه فى حالة الخيانة الزوجية هو التفرقة الجسمية (حسب تعبيرهم) بين شخصى الزوجين مع اعتبار الزوجية قائمة بينهما من الناحية الشرعية ، فلا يجوز لواحد منهما فى أثناء هذه التفرقة أن يعقد زواجه على شخص آخر لأن ذلك يعتبر تعددا للزوجات ، والديانة المسيحية لا تبيح التعدد بحال . وتعتمد الكاثوليكية فى مذهبها هذا على ما جاء فى إنجيل متى على لسان المسيح إذ يقول : « لا يصح أن يفرق الإنسان ما جمعه الله » . وبعض الفرق التى انشعبت عن الكنيسة الكاثوليكية تبيح الطلاق فى حالة الخيانة الزوجية من الزوج أو الزوجة ، ولكنها تحرم كذلك على كلا الزوجين أن يتزوج بعد ذلك .

والمذهبان المسيحيان الآخران الأرثوذكسى والبروتستانتى يبيحان الطلاق فى بعض حالات محدودة من أهمها الخيانة الزوجية ، ولكنهما

كذلك يحرمان على الرجل والمرأة كليهما أن يتزوجا بعد ذلك .

وتعتمد المذاهب المسيحية التى تبيح الطلاق فى حالة الخيانة الزوجية على ما ورد فى إنجيل متى على لسان المسيح إذ يقول : « من طلق امرأته إلا بسبب الزنا يجعلها تزنى » .

وتعتمد المذاهب المسيحية فى تحريمها الزواج على المطلق والمطلقة على ما ورد فى إنجيل متى كذلك إذ يقول : « من يتزوج مطلقة يزنى » .

هذه هى مسيحيتهم وهذه هى أناجيلهم ، وأقول « مسيحيتهم » لأن المسيحية الحاضرة التى يعتنقونها تختلف كل الاختلاف عن النصرانية التى يحدثنا عنها القرآن ويذكر أن الله أرسل بها عيسى إلى قومه ، فالقرآن يحدثنا عن ديانة سماوية سمحة قائمة على الاعتقاد بوحدانية الله ورعاية مصالح العباد ، أما نصرانيتهم فهى أمشاج من التثليث الهندى والوثنية الرومانية القديمة وعناصر أخرى أخذت من هنا وهناك ومزج بعضها ببعض فى تكوين متنافر غريب . وهى فيما يتعلق بالتشريع الدنيوى لا تقيم وزنا لطبيعة الإنسان ولا ترعى مصالح العباد كما سيظهر لنا ذلك من تحليلنا لما تذهب إليه بصدد الطلاق . وأقول « أناجيلهم » لأن هذه الأناجيل تختلف كل الاختلاف عن الكتاب المقدس الذى يحدثنا القرآن أن الله أنزله على عيسى . وهى فى معظم ما تحتوى عليه تحريف لكلم الله عن مواضعه وتلفيق من صنع بابواتهم وكنائسهم ومجامعهم ، بل إن مسيحهم نفسه ليختلف كل الاختلاف عن المسيح الذى يحدثنا عنه القرآن ، فالمسيح فى القرآن إنسان من البشر يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، أما مسيحهم فهو كائن غريب تحار فى إدراكه العقول : هو ابن الله (أرسله أبوه إلى بنى آدم ليقتلوه أو يصلبوه فيكفر بدمه الخطيئة

التى ظلت عالقة بهم جميعا منذ أن عصى أبوهم آدم وأكل من الشجرة ، والتى كانت ستظل عالقة بهم إلى يوم يبعثون لولا أن افتداهم الله بالتضحية بابنه العزيز) ، وهو فى الوقت نفسه إله ، أو جزء من إله أو إنسان وإله فى آن واحد .

ولكن لنترك هذا الموضوع فالحديث فيه طويل وذو شجون ، ولنتأمل فيما تقرره مسيحيتهم وأناجيلهم فى الموضوع الذى نحن بصدده وهو نظام الطلاق .

فإذا بلغ الشقاق بين الزوجين إلى حد استحال عنده الصلح وأصبحت معه الحياة الزوجية جحيما لا يطاق ، وأصبح أفراد الأسرة جميعا ذكورهم وإناثهم صغارهم وكبارهم مهددين من جراء ذلك بأسوأ النتائج وشر الكوارث فى مختلف فروع حياتهم المادية والمعنوية والخلقية ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل تحرم على هذين الزوجين الطلاق وتأمرهما أن يبقيا معا على هذه الحال وفى هذا الجحيم وليكن ما يكون من معقبات ، لأن « ما جمعه الله لا يصح أن يفرقه الإنسان » .

وإذا تنافرت طباع الزوجين كل التنافر ، أو ألقى فى نفس أحدهما أو كليهما كراهية شديدة للآخر حتى إنه ليفضل أن يرى الموت ولا يراه ، وعجزت جميع الوسائل الإنسانية عن علاج هذه الحال لأن القلوب بيد الله ولا سلطان لأحد على كثير من شئونها ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل تحرم على هذين الزوجين الطلاق وتأمرهما بأن يقضيا حياتهما على هذه الحال وفى هذا العذاب ، لأن « ما جمعه الله لا يصح أن يفرقه الإنسان » .

وإذا فسدت أخلاق أحد الزوجين و لم يرع لعقد الزواج عهدا ولا

حرمة ، واندفع فى تيار الفسق والفجور وأصبح فضيحة الفضائح لكل من ينتمى إليه ومصدر شر وبيل لكل من يتصل به ، وعجزت جميع وسائل التقويم عن إصلاحه ورده إلى الطريق المستقيم ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل تحرم الطلاق منه وتوجب على الزوج الآخر أن يبقى معه على هذه الحال . وقد تتساهل أحيانا فتسمح له بالانفصال عنه بجسمه فحسب أو بطلاق صورى بدون أن تسمح له بأن يستأنف حياة أخرى صالحة مع زوج آخر أو زوجة أخرى ، لأن « ما جمعه الله لا يصح أن يفرقه الإنسان » . ولأن « من يتزوج مطلقة يزنى » .

وإذا جن أحد الزوجين جنونا مطبقا وفقد جميع مميزات الحيوان الناطق ، بل أصبح فى تصرفاته أضل سبيلا من الأنعام ومصدر خطر كبير لكل من يعاشره ، أو أصيب بمرض معد خطير لا يرجى برؤه ، أو فقد مقومات جنسه ، أو كان عقيما لا يلد فأصبح لا يحقق أهم غرض من أغراض الزواج ، أو غاب غيبة طويلة ولم يعرف أحى هو أم ميت أو حكم عليه بالسجن المؤبد ، أو أعسر ولم يستطع الإنفاق على الزوجة وأصبحت الزوجة بذلك معرضة إذا بقيت على ذمته لأن تموت جوعا أو تأكل بثدييها ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل لا تسمح بطلاقه فى حالة من هذه الحالات ، وإن سمحت به لا تسمح للمطلق أن يتزوج لأن « ما جمعه الله لا يفرقه الإنسان » ، ولأن « من يتزوج مطلقة أو مطلقا يزنى » ، ولا تسمح بأن يبقى الزوج على زوجة هذه حالها ويتزوج معها زوجة أخرى لأنها تحرم التعدد على أى حال .

وقد رفعت أخيرا سيدة مسيحية مصرية تدعى السيدة زاهية عازر مرقس دعوى أمام محكمة قنا الابتدائية للأحوال الشخصية ضد زوجها

تطلب فيها تطليقها منه لأنه تركها بدون الإنفاق عليها ، و لم تستطع تنفيذ أحكام النفقة التى كانت قد استصدرتها ضده بسبب إعساره ، وبعد أن استعرضت المحكمة وقائع هذه القضية قضت برفضها اعتمادا على « أن أحكام الشريعة المسيحية مدونة فى الإنجيل ، وقد أشار فى مواضع متعددة إلى رابطة الزوجية فوصفها بأنها رابطة مقدسة وهى سر من أسرار الكنيسة السبعة . وحرم على بنى الإنسان التعرض لها أو حل عقدتها لأن « ما جمعه الله لا يفرقه الإنسان » . ومضت المحكمة تقول : « وإنه من العجيب أن بعض القوامين على الدين من رجال الكنيسة وأعضاء المجلس الملى العام قد سايروا التطور الزمنى فاستجابوا لرغبات ضعيفى الإيمان فأباحوا الطلاق لأسباب لا سند لها من الإنجيل ، وحكم الشريعة المسيحية فى الطلاق قاطع فى أنه غير جائز إلا لعلة الزنا ، ورتب على زواج أحد المطلقين بأنه زواج مدنس بل هو الزنا بعينه » ، وانتهت المحكمة إلى « أنها لا تستطيع ، وقد نيط بها تطبيق أحكام الشريعة المسيحية مسايرة المدعية فيما تطلبه من طلاق تستند فيه إلى الإعسار ، وهو سبب لا يمت إلى علة الزنا بصلة من أى نوع كانت ، ومن ثم يتعين الحكم برفض الدعوى » .

وإذا كان مسلك أحد الزوجين أو كليهما حيال الآخر أو معاملته له تنطوى على ضرر بليغ أو على ضرار متبادل وعجزت جميع طرق العلاج عن إصلاح هذه الحال ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل تحرم كذلك الطلاق « لأن ما جمعه الله لا يصح أن يفرقه الإنسان » .

وإذا رأى الزوجان نفساهما أن استمرار زوجيتهما متعذر من جميع الوجوه ، وأراد كل منهما أن يفارق الآخر بالمعروف ليغنى الله كلا من

سعته ، فإن هذه المسيحية وهذه الأناجيل لا تقرهما على ما يريدان وتأمرهما بأن يبقيا رغم أنفيهما على حال يتعذر الإبقاء عليها ولا يريد أحد منهما أن يبقى عليها ، وليكن ما يكون من معقبات لأن « ما جمعه الله لا يفرقه الإنسان » .

* * *

وليت شعرى ! ما بال إلههم هذا الذى بلغ فى جموده وعجزه أنه يجمع ولا يستطيع أن يفرق ؟ ثم لماذا ينسبون الجمع لله وينسبون التفرقة للإنسان ، حتى التفرقة التى يقتضيها الصالح العام ويتحقق بها الخير والاستقرار العائلى والاجتماعى ؟

ولما كانت الحالات التى ضربنا أمثلة لها ليست حالات خيالية بل كثيرا ما تحدث وتحدث أشباه لها ونظائر فى حياة الآدميين ، ولما كان الغربيون من فصيلة بنى آدم وليسوا من فصيلة الجن أو الملائكة ، فقد رأوا أنه من المتعذر عليهم ما دامت طبيعتهم من طبيعة الإنسان أن يسيروا على تعاليم هذه المسيحية وهذه الأناجيل فى شئون الطلاق ، فاستحدثوا من القوانين المدنية ما يبيح لهم حل عقدة الزواج فى هذه الحالات وما إليها ، وساروا على هذه القوانين فى حياتهم العملية وتركوا قواعد الكنيسة تنعى من أقامها .

وفى نقد هذا النظام الكنسى يقول واحد من كبار فلاسفة المسيحيين أنفسهم وهو العلامة الإنجليزى بنذام Pentham فى كتابه « أصول التشريع » :

« حقا إن الزواج الأبدى هو الأليق بالإنسان والملائم لحاجته والأوفق لأحوال الأسرة والأولى بالأخذ .. ولكن إن اشترطت المرأة على الرجل

ألا تنفصل عنه حتى لو حلت فى قلوبهما الكراهة الشديدة مكان الحب لكان ذلك أمرا منكرا لا يسيغه أحد من الناس . على أن هذا الشرط موجود بدون أن تطلبه المرأة . إذ القانون الكنسى يحكم به فيتدخل بين العاقدين حال التعاقد ويقول لهما : أنتما تقترنان لتكونا سعداء فلتعلما أنكما تدخلان سجنا سيحكم إغلاق بابه .. ولن أسمح بخروجكما وإن تقاتلتما بسلاح العداوة والبغضاء .. » . ويعلق الفيلسوف الإنجليزى على هذا الوضع بقوله : ولو كان الموت وحده هو المخلص من زواج هذا شأنه لتنوعت صنوف القتل واتسعت مذاهبه » .

ولكن لحسن الحظ استحدث المسيحيون من القوانين المدنية ما يفتح لهم أبوابا للطلاق ويعفيهم من أن يلجئوا إلى القتل أو الانتحار للخروج من هذا السجن .

وهذه الظاهرة وهى السير فى الأحوال الشخصية وفق قانون مدنى يختلف عن تعاليم الدين لا تكاد توجد فى غير شعوب الغرب المسيحى . فجميع أهل الملل والنحل الأخرى حتى البرهميون والبوذيون والوثنيون والمجوس يسيرون فى أحوالهم الشخصية وفق تعاليم دياناتهم . وقد نجد من بينهم من استحدث فى الأحوال العينية قوانين مدنية تختلف عن تعاليم دينه ولكننا لا نكاد نجد من بينهم من استحدث قوانين مدنية فى الأحوال الشخصية أى فى شئون الزواج والطلاق .. وما إلى ذلك . وأمكن لهذه الملل والنحل أن تساير الحياة العملية وتجارى طبيعة البشر فى هذه الشئون. والمسيحيون وحدهم هم الذين كفروا بدينهم من الناحية العملية فى الأحوال الشخصية على العموم وفى شئون الطلاق على الخصوص لأنهم هم أنفسهم قد وجدوا أن تعاليمه فى هذا الصدد تنكر الواقع وتتجاهل

طبيعة الإنسان ولا تصلح للتطبيق فى الحياة .

ولم يستطع رجال الدين المسيحيون سبيلا إلى صد هذا التيار ولا إلى الوقوف فى وجه المنطق والعقل وضرورات الحياة ، فتركوا الأمور تجرى فى أعنتها واكتفوا بأن يظهروا من حين لآخر على مسرح الحوادث حينما يتعلق الأمر بملك أو أمير أو عظيم ، وحينما تكون الظروف السياسية مواتية لظهورهم ليثبتوا وجودهم وليبقوا على شىء من سلطانهم الدينى كما حدث فى موضوع ملك انجلترا الأسبق إدوارد الثامن الذى أراد أن يتزوج بمطلقة ملكت عليه قلبه ، وكانت الظروف السياسية مواتية حينئذ لإحراج هذا الملك والوقوف فى سبيل رغباته فظهرت الكنيسة مهددة بأناجيلها وبأن « من يتزوج مطلقة يزنى » . فخير بين أن يمتثل لهذه الخرافات ويحتفظ بالعرش أو ينزل على حكم عقله وقلبه ويتنازل عن الملك . فآثر العقل على الخرافة والقلب على التاج ، ومن الغريب أنه كان معروفا لدى الخاص والعام ولدى الكنيسة والشعب أن هذا الملك كان يعاشر خليلته هذه وهى لا تزال فى عصمة زوجها قبل أن تطلق منه وكان لها جناح خاص فى قصره ولم يرتفع صوت من الشعب ولا من رجال الكنيسة بالاحتجاج على ذلك ؛ لأن هذه الأمور تعد فى عرفهم من الهنات الهينات ، ولكن حينما أبدى رغبته بعد أن تمت إجراءات طلاقها من زوجها الأول بأن يتزوجها على سنة الأب والابن وروح القدس ، وبأن يعاشرها معاشرة مشروعة ، معاشرة الزوج لزوجه لا معاشرة الخليل لخليلته ، قامت فى وجهه الكنيسة وقام فى وجهه رجال الدين . وقد حدث مثل ذلك أخيرا للأميرة مرجريت أخت ملكة الإنجليز الحالية . فقد أرادت أن تتزوج من ضابط أحبته وأحبها (الكابتن

تاونسند) فقامت قيامة الكنيسة فى وجهها لأن هذا الضابط قد طلق زوجة من قبل ، وقاعدة الكنيسة أن من يتزوج مطلقا يزنى ؛ مع أن طلاقه هذا كان قد تم وفق الأوضاع المدنية والكنيسة نفسها لأن زوجته السابقة قد ثبتت عليها الخيانة الزوجية بأدلة قاطعة ، والكنيسة البروتستانتية نفسها التى يدين بها الإنجليز تبيح الطلاق فى هذه الحالة .

وهكذا لا يظهر رجال الكنيسة بسخافاتهم هذه إلا حينما يكون الأمر متعلقا بملك أو أمير أو عظيم وحينما تكون الظروف السياسية مواتية لظهورهم ، ولا يقصدون بذلك إلا انتهاز الفرص لإثبات وجودهم فى صورة بارزة والإبقاء على شىء من سلطانهم الدينى والظهور أمام الشعب بمظهر الحلال والقدسية ، وإقامة الدليل له بطريق عملى على أن مكانتهم فوق مكانة التيجان ومنزلتهم فوق منزلة الأمراء والملوك . ولا أدل على ذلك من أن آلافا من حالات الطلاق وزواج المطلقين والمطلقات تحكم بها المحاكم الأوربية والأمريكية وتنفذها الهيئات المدنية فى مختلف شعوب الغرب المسيحى على مرأى من الكنيسة ومسمع منها بدون أن تحرك ساكنا أو تقوى على الاعتراض على القوانين التى تبيح ذلك أو على حالات تطبيقها . ولا أدل على ذلك أيضا من أن رئيس وزراء إنجلترا (سير أنطونى إيدن) قد طلق زوجته الأولى التى هربت مع عشيق لها إلى أمريكا وهو الآن متزوج غيرها ، ولم يرتفع صوت من الكنيسة بالاعتراض عليه ولا على توليه أكبر منصب فى الدولة لأن الظروف السياسية غير مواتية لارتفاع مثل هذا الصوت .

هذا هو النظام المسيحى الذى أهمله أهله أنفسهم ، لما تبين لهم من فساده وعدم ملاءمته للحياة الواقعية ، ولكنهم يريدوننا نحن أن نسير عليه

وأن نترك نظامنا الإسلامى ، ويتابعهم فى هرائهم هذا المتفرنجون من أبنائنا والمتفرنجات من بناتنا وهم لا يدرون أن الفرنجة لا يقصدون بذلك إلا الكيد للإسلام وتشويه تعاليمه القديمة وتوهين منزلته فى نفوس معتنقيه وإشاعة الفوضى والانحلال فى الأمم الإسلامية .

قد يقول السفهاء من الفرنجة والمتفرنجين والمتفرنجات إنهم لا يريدون أن نسير على النظام المسيحى بل يريدون أن نسير على غرار النظم المدنية التى تسير عليها أمم الغرب فى شئون الطلاق . ولكن هل نجحت هذه النظم لديهم حتى نستوردها منهم ؟ الحقيقة أنها قد أخفقت لديهم إخفاقا مبينا كما أخفق نظامهم الدينى ، وضاعت بين هذا وذاك مقومات الأسرة عندهم وأصبحت مهددة بالانهيار ، بل إنهارت بالفعل فى كثير من شعوبهم ولم يبق منها إلا صور فاسدة قد بعدت كل البعد عن النظام العائلى السليم وأصبحت لا تحقق شيئا من أهدافه .

فقد انقسمت قوانينهم المدنية فى شئون الطلاق إلى طائفتين :

فأما الطائفة الأولى فقد فرطت كل التفريط فى احترام عقد الزواج فلم ترع ما له من حرمة وقدسية وجلال ، فأجازت الطلاق لأتفه الأسباب كما هو الشأن فى بعض ولايات أمريكا الشمالية . فلم يصبح غريبا فى هذه الولايات أن تتزوج المرأة فى الصباح وتطلق من زوجها فى المساء وهذا هو قصارى ما يصل إليه الاستهتار بنظم الاجتماع الإنسانى والانهيار فى قواعد الأسرة .

وأما الطائفة الثانية فقد توسعت بعض التوسع فى شئون الطلاق بالقياس إلى النظام المسيحى ، ولكنها لا تزال متأثرة بروح الكنيسة فلم تبح الطلاق إلا فى حالات محدودة وبطرق وإجراءات معقدة كل

التعقيد ، ولا تنتهى إلى الطلاق إلا بعد أمد طويل كما هو الحال فى فرنسا ومعظم الأمم الكاثوليكية . فالقانون المدنى الفرنسى لا يبيح الطلاق إلا لواحد من ثلاثة أسباب : أحدها الزنا من أحد الزوجين ، وثانيها تجاوز الحد والإهانة البالغة فى معاملة أحد الزوجين للآخر ، وثالثها الحكم على أحد الزوجين بعقوبة قضائية مهينة ، فالمرض والإصابة بعاهة والجنون نفسه حتى لو أدى إلى تجاوز الحد فى المعاملة والغيبة الطويلة والشقاق البالغ واتفاق الطرفين على الفرقة ... كل ذلك وما إليه لا يبيح الطلاق فى نظر القانون . وأحد الأسباب الثلاثة التى ذكرها هذا القانون وهو الحكم بعقوبة قضائية مهينة لا يتحقق إلا فى حالات المجرمين . والسبب الثانى وهو تجاوز الحد والإهانة البالغة فى معاملة أحد الزوجين للآخر يصعب إثباته ، ولذلك يعتمد معظم من يريدون الطلاق هناك على السبب الثالث وهو الزنا فيجمعون الأدلة اللازمة لإثباته وإقناع القضاء به إن كان قد حدث بالفعل من أحد الزوجين ، أو يلفقونه تلفيقا ويقدمون لإثباته أدلة مزيفة ووثائق مختلقة ويقرون باقترافه كذبا أمام القضاء لتسهل عليهم الفرقة . فلا يكاد يستطاع الطلاق إذن بحسب هذه الطائفة من القوانين إلا إذا تهيأ لها سبب واحد وهو عار الأبد للزوج والزوجة وأولادهما ونسلهما وأسرتيهما وجميع من يلوذ بهما . مع ذلك لا يتم الطلاق إلا بنفقات باهظة لا يقوى عليها إلا كبار الأغنياء ، وبعد إجراءات طويلة معقدة تستغرق فى الغالب عدة سنين ، ويحكم فيها أولا بالتفرقة الجسمية فحسب Separation de corps ثم تستغرق مدة أخرى حتى يحكم بالطلاق .

ومن ثم كثر فى هذه الشعوب اتخاذ الزوجات للأخلاء واتخاذ الأزواج

للخليلات وهجر الأزواج والزوجات لمنزل الزوجية وفرار الزوجات مع عشاقهن والأزواج مع عشيقاتهن ، وأصبحت هذه الأمور وما إليها فى كثير من بلاد أوربا وأمريكا شيئا عاديا ، وأصبحت الأسرة شيئا لا قيمة له ، وأصبحت علائق النسب الصحيح بين الآباء والأولاد موطن الشك وفريسة الارتياب .

هذه هى نظمهم المدنية : طائفة منها تجرد عقد الزواج مما له من حرمة وقدسية وجلال فتبيح الطلاق لأتفه الأسباب ، وطائفة أخرى تتشدد كل التشدد فلا تكاد تبيحه إلا لفضيحة تلحق الأسرة فى حاضرها ومستقبلها ، وبإجراءات معقدة طويلة ، هذه بلغت حد الإفراط وتلك بلغت حد التفريط ، وكلاهما يؤدى إلى شر مستطير ، ومن ثم اضطرب نظام الأسرة وانهارت قواعدها فى معظم أمم الغرب المسيحى .

فهذه الأمم لم تخرج إذن عن نظام الكنيسة الفاسد فى شئون الطلاق إلا لتسير على نظم مدنية لا تقل عنه كثيرا فى فسادها وما تؤدى إليه من اضطراب فى شئون الأسرة وانهيار فى مقومات الأخلاق .

* * *

والآن وقد تبين لنا فساد نظامهم المسيحى ونظامهم المدنى كليهما فى الطلاق ، وظهر لنا أن استيراد أحدهما كما ينادى بذلك الجهلة من المتفرنجين من أبنائنا المصريين والمتفرنجات من بناتنا المصريات ، سيؤدى حتما إلى انهيار الأسرة والقضاء على جميع مقوماتها . الآن وقد تبين لنا كل ذلك يجدر أن نعرض نظام الطلاق فى الإسلام ، وهو النظام الذى ينقده الفرنجة والمتفرنجون والمتفرنجات ويزعمون أنه قائم على عدم المساواة بين الزوج وزوجه ، ليظهر لنا إن كانوا فى نقدهم إياه على هدى أو فى ضلال مبين .

أجل ! لقد أباح الإسلام الطلاق لأنه دين يشرع للحياة الواقعية التى يضطرب فيها بنو الإنسان ، ولأنه كثيرا ما يحدث فى هذه الحياة ما يقتضى الطلاق ، بل ما يجعله ضرورة لازمة ووسيلة متعينة للاستقرار العائلى والاجتماعى .

ولكن الإسلام لم يبحه على الإطلاق بل قيده بقيود تكفل تحقيق الصالح العام وصالح الأسرة نفسها ، وتكفل تحقيق التوازن فى حقوق كل من الزوجين وواجباته والمساواة بين كفتيهما فى هذه الشئون .

فالإسلام يحيط عقد الزواج بسياج من القدسية ، ويضفى عليه من الجلال ما يميزه عن سائر العقود ، ويسمو به فوق ما يرتبط به الناس فى شئون حياتهم من التزامات ، وينزله فى النفوس منزلة المهابة والإكبار . ولذلك وصفه القرآن بما لم يصف به أى عقد آخر فسماه بالميثاق الغليظ ، قال تعالى : ﴿ وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا ﴾[1] . وغنى عن البيان أن ميثاقا ينظر إليه الإسلام هذه النظرة لا يمكن أن يكون فصمه من الهنات الهينات .

ولذلك بغّض الإسلام الناس فى الطلاق وصوره فى أبشع صورة وحث المسلين على اتقائه ما استطاعوا سبيلا إلى ذلك . وفى هذا يقول عليه الصلاة والسلام : (أبغض الحلال إلى الله الطلاق) ، ويقول : (تزوجوا ولا تطلقوا فإن الطلاق يهتز له عرش الرحمن) .

ولم يكتف الإسلام بهذا الزجر وهذا الوعيد بل اتخذ من النظم فى شئون الأسرة ما يكفل تحاشى الطلاق إلا لأسباب قوية قاهرة .

---

(١) النساء ٢١ .

فقرر أنه لا يصح الالتجاء إلى الطلاق لأسباب يمكن علاجها ، أو لأمور يمكن أن تتغير فى المستقبل ، أو لا تحول بطبعها دون استقرار الحياة الزوجية على وجه ما ، وحتى الأمور التى تتعلق بعاطفة الزوج نحو زوجته أو بكراهيته لبعض أحوالها لا يعدها الإسلام من مبررات الطلاق . فالإسلام يرى أنه لا ينبغى أن يفكر الأزواج فى الطلاق لمجرد تغير عاطفتهم نحو زوجاتهم أو طروء كراهية لهن ، أو لمجرد عدم ارتياحهم إلى بعض أحوالهن وأخلاقهن التى ليس فيها ما يمس الشرف أو الدين ؛ لأن هذه العواطف متقلبة متغيرة ولا يصح أن تبنى عليها أمور خطيرة تتعلق بكيان الأسرة ، وبغيض الإنسان اليوم قد يصبح حبيبه يوما ما ، والزوج إن كره من امرأته خلقا فقد يكون فيها خلق آخر يرضيه ، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا ﴾[1] . ويقول عليه الصلاة والسلام : (لا يفرك[2] مؤمن مؤمنة إن كره منها خلقا رضى منها آخر) ، أى لا ينبغى للمؤمن أن يكره زوجته لخلق واحد لا يعجبه منها ويتغاضى عما بها من أخلاق أخرى فاضلة تعجبه . وجاء رجل إلى عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يستشيره فى طلاق امرأته ، فقال له عمر لا تفعل ، فقال ولكنى لا أحبها ، فقال له عمر ويحك ألم تبن البيوت إلا على الحب فأين الرعاية وأين التذمم ؟ ! . يقصد أن البيوت إذا عز عليها أن

---

(١) النساء ١٩ .

(٢) فرك الرجل زوجه ، من باب سمع ، كرهها وأبغضها وفركته كذلك ، (انظر القاموس المحيط) .

تبنى على الحب فهى خليقة أن تبنى على ركنين آخرين شديدين : أحدهما الرعاية التى تبث المراحم فى جوانبها ويتكافل بها أهل البيت فى معرفة ما لهم وما عليهم من الحقوق والواجبات ، وثانيهما التذمم والتحرج من أن يصبح الرجل مصدرا لتفريق الشمل وتقويض البيت وشقوة الأولاد وما قد يأتى من وراء هذه السيئات من نكد العيش وسوء المصير .

ومن النظم التى قررها الإسلام كذلك لتحاشى الطلاق أنه أمر الزوجين عندما يحدث بينهما شقاق أو نفور أن يعملا على إزالته بإثارة دواعى الرحمة والوئام ، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزا أو إعراضا فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحا والصلح خير﴾[1] .

ومن النظم التى قررها الإسلام كذلك لتحاشى الطلاق أنه أوجب على الزوجين إذا لم يستطيعا أن يصلحا ما بينهما بنفسيهما ويحققا الوفاق بوسائلهما الخاصة ، أن يعرضا أمرهما على مجلس عائلى يتألف من حكمين : حكم من أهل المرأة وحكم من أهل الرجل ، ليبحثا أسباب الشقاء ويعملا على القضاء على مثيراته ويوفقا بين رغبات الزوجين حتى يحل الصفاء والوئام محل النفور والخصام ، ولا ينتظر الإسلام حدوث الشقاق بالفعل لإجراء هذا التحكيم بل إنه ليأمر به عند مجرد الخوف من حدوث الشقاق ، أى عند وجود بوادر تنذر به ولا يمكن للزوجين القضاء عليها بوسائلهما الخاصة . وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها إن يريدا إصلاحا

---

(١) النساء ١٢٨ .

يوفق الله بينهما إن الله كان عليما خبيرا ﴾[١] .

ومن الأمور التى قررها الإسلام كذلك لتحاشى الطلاق أنه قد رتب عليه من الناحيتين المالية والاجتماعية نتائج خطيرة وألقى بسببه على كاهل الزوج أعباء ثقيلة ، وأن من شأن هذه النتائج والأعباء أن تحمل الزوج على ضبط النفس وتدبر الأمر قبل الإقدام على الطلاق . فقد قرر أنه يجب على الزوج إذا طلق زوجته أن يوفيها مؤجل صداقها ويقوم بنفقتها من مأكل ومشرب وملبس ومسكن ما دامت فى العدة ، وتكون حضانة أولادها الصغار لها ولقريباتها من بعدها حتى يكبروا ، ويقوم بنفقة أولادها منه وأجور حضانتهم ورضاعتهم فى دور الحضانة حتى لو كانت الأم نفسها هى التى تقوم بذلك ، قال تعالى : ﴿ فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن ﴾[٢] .

فإذا لم يستطع مجلس التحكيم أن يوفق بين الزوجين و لم تجد الوسائل السابقة جميعا و لم تثن الزوج عن عزمه على الفرقة ، كان فى ذلك دليل على قيام حالة خطيرة تتهدد استقرار الأسرة ، وعلى أن الحياة الزوجية قد فقدت أهم مقوماتها .

فحينئذ يجيز الإسلام للزوج الطلاق لمصلحة الأسرة نفسها ولتحقيق الصالح العام .

وحتى فى هذه الحالة قد احتاط الإسلام للأمر فوضع للطلاق نظما تتيح للزوج فى أثناء إجراءات الفرقة فرصة طويلة ليراجع نفسه ويعدل عما شرع فيه إن كان ثمة سبيل للإبقاء على الحياة الزوجية .

---

(١) النساء ٣٥ .   (٢) الطلاق ٦ .

فقد قرر أن يبدأ الرجل بعد استنفاد الوسائل السابقة جميعا بتطليق زوجته طلقة واحدة رجعية فى طهر لم يتصل بها فى أثنائه . وإنما قرر ذلك لأن الطهر هو فترة كمال الرغبة فى المرأة ، والرجل لا يقدم على طلاق امرأته فى فترة كمال رغبته فيها إلا لشدة الحاجة إلى الفرقة ، ففى ذلك دليل على قيام حالة خطيرة تستدعى الطلاق .

فإذا أوقع هذه الطلقة الرجعية الأولى كان مخيرا بين أمرين :

الأمر الأول أن يراجع زوجته فى أثناء عدتها ، والعدة لغير الحامل تستغرق مدة طويلة تبلغ ثلاثة قروء أى نحو ثلاثة أشهر . فالإسلام قد أعطى المطلق حتى بعد الطلاق فرصة طويلة يراجع فيها نفسه ويرد فى أثنائها زوجته إليه إن كانت ثمة سبيل للإبقاء على الحياة الزوجية ، ولتسهيل الإبقاء على الحياة الزوجية يقرر الإسلام أن هذه المراجعة لا تحتاج إلى أى إجراء وأنها تتم بمجرد اتصال الرجل بمطلقته أو تقبيله إياها .. وما إلى ذلك ، كما تتم بمجرد قوله راجعت امرأتى أو عبارة من هذا القبيل . ولكى تكثر بواعث المراجعة ودواعى الإبقاء على الزوجة أوجب الإسلام على الزوج ألا يخرج زوجته المطلقة من منزل الزوجية ما دامت فى عدتها ؛ قال تعالى : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ... ﴾ إلى أن قال : ﴿ لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة ﴾[1] . ويشير القرآن الكريم إلى تفضيل المراجعة والإبقاء على الزوجية إذ يقول : ﴿ وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا ﴾[2] ، فوصف الرد بأنه إصلاح لما حدث . ويشير القرآن إلى

---

(١) الطلاق ٢ .

(٢) البقرة ٢٢٨ .

ذلك أيضا إذ يقول فى آية الطلاق : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾ . ويختم الآية بقوله : ﴿ لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا ﴾(١) . فالقرآن الكريم يشير إلى أن الله قد شرع الطلاق فى أول العدة أى فى طهر لم يمس الرجل زوجته فى أثنائه ، وشرع أن تظل المرأة من بعده فى منزل الزوجية طوال مدة عدتها ، وشرع كل ذلك ليعطى الزوج فرصة طويلة للتأمل ولتكثر بواعث الرجعة ودواعى الإبقاء على الزوجة ، فلعل الله يحدث أمرا بعد ذلك فيرجع الزوج عما أبرمه ويراجع زوجته .

والأمر الثانى الذى يباح للزوج أن يفعله بعد هذه الطلقة أن يترك زوجته حتى تبلغ أجلها وتنقضى عدتها فتطلق منه طلقة بائنة ، وحتى بعد ذلك يظل الإسلام حريصا على الإبقاء على الزوجية وعلاج ما حدث ، فيجيز للزوج أن يعيد زوجته إلى عصمته بعقد ومهر جديدين .

فإذا راجعها إلى عصمته فى أثناء عدتها أو تزوجها مرة ثانية بعقد ومهر جديدين بعد انقضاء عدتها ثم شجر بينهما ما يجعله يعزم الطلاق من جديد ، وجب عليه أن يسير فى هذه المرة الثانية على الأوضاع نفسها التى شرعت له فى المرة الأولى ، ويعطيه الإسلام فى هذه المرة الثانية من فرص المراجعة وإعادة الزوجية ما أعطاه فى المرة الأولى .

فإذا عاد إلى معاشرة زوجته بمراجعتها فى أثناء عدتها أو بالعقد عليها بعد انقضائها وبعد أن طلقها مرتين فإنه لا يبقى له عليها بعد ذلك إلا

طلقة واحدة .

فإذا أوقعها عليها فى الأوضاع السابق بيانها كان ذلك دليلا على أن الخرق قد اتسع على الراقع ، وأن الحياة الزوجية قد أصبحت غير محتملة بين الزوجين ، وأنهما كلما حاولا جبرها اختل عليهما نظامها ، فحينئذ يقرر الإسلام الفرقة بينهما نهائيا ولا تحل له بعد ذلك حتى تنمحى آثار العقد الأول والحياة الزوجية الأولى انمحاء تاما ؛ وذلك لا يكون إلا إذا تزوجت من شخص آخر وانتهى الأمر بطلاقها منه طلاقا عاديا ، ورأى كلاهما بعد هذه المدة الطويلة وبعد تغير الأحوال على هذا الوجه أنه من الممكن استعادة الحياة الأولى على وضع أقوم وأمثل .

وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ﴾ ، إلى أن يقول « تلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ، فإن طلقها فلا تحل له من بعد ﴾ (أى من بعد هذه الطلقة الثالثة) ﴿ حتى تنكح زوجا غيره فإن طلقها ﴾ (أى هذا الزوج الآخر طلاقا عاديا وانقضت عدتها منه) ﴿ فلا جناح عليهما أن يتراجعا إن ظنا أن يقيما حدود الله وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون ﴾[1] . وقال تعالى : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾[2] أى طلقوهن فى قُبُل عدتهن أى فى أول مرحلة فيها ، وذلك لا يكون إلا إذا طلقها فى طهر لم يمسها فيه ، لأن الحيض والطهر الذى يمس الرجل المرأة فى أثنائه لا يحسبان من العدة ﴿ وأحصوا العدة واتقوا

---

(١) البقرة ٢٣٠ .

(٢) الطلاق ١ .

الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا . فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴾(١) . وروى مالك فى الموطأ عن نافع « أن عبد الله ابن عمر طلق امرأته وهى حائض على عهد رسول الله — ﷺ — فسأل عمر بن الخطاب رسول الله — ﷺ — عن ذلك فقال عليه السلام : مره فليراجعها فليمسكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ، ثم إن شاء أمسكها بعد وإن شاء طلق قبل أن يمس ، فتلك العدة التى أمر الله أن يطلق لها النساء » . ويشير عليه السلام بذلك إلى قوله تعالى : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن ﴾ ، أى يجب أن يكون الطلاق فى أول عدة أى فى طهر لم يمس الرجل امرأته فى أثنائه .

هذا هو نظام الطلاق فى الإسلام وهذه هى إجراءاته المنصوص عليها فى الكتاب والسنة ، وإيقاع الطلاق على غير هذا الوجه مخالف لما شرعه الإسلام بل لا تترتب عليه الفرقة فى بعض المذاهب ، وهى مذاهب تتفق مع نصوص الكتاب والسنة السابق ذكرها ، ولا أدل على ذلك من أن الرسول عليه السلام لم يعتد بالطلقة التى أوقعها ابن عمر على زوجه فى حالة الحيض و لم يعتبرها طلقة ، فقد روى ابن جريج عن ابن الزبير أنه سمع عبد الرحمن بن أيمن يسأل ابن عمر عن ذلك فقال له إن رسول الله عليه السلام « ردها علىّ و لم يرها شيئا » أى لم يعتد بهذه الطلقة .

صحيح أن عمر بن الخطاب قد أنفذ فى أيام خلافته أنواعا من الطلاق

---

(١) الطلاق ١ ، ٢ .

لا تتفق مع هذا النظام المشروع ، منها طلاق الرجل لامرأته ثلاث طلقات متتاليات فى مجلس واحد أو فى طهر واحد . ولكن السبب فى ذلك يرجع إلى أن كثيرا من الناس فى عهده كانوا قد استهانوا بحرمة الزواج وكثر إيقاعهم للطلاق فى صور غير مشروعة ليخوفوا زوجاتهم بذلك ويوقعوا الرعب فى قلوبهن حتى يخشين الرجال ويحاذرن إغضابهم حرصا على الزوجية . فأراد عمر أن يشدد عليهم وأن يعاقبهم من جنس عملهم حتى يرتدعوا ويرجعوا عن غيهم ويحفظوا للزواج حرمته وقدسيته ولا يتلاعبوا بألفاظ الطلاق . فأنفذ ما كانوا يوقعونه من طلاق مخالف للوجه المشروع ، وقال فى ذلك قولته المشهورة التى تبين بأوضح عبارة عن مقصده : « أيها الناس ! قد كان لكم فى الطلاق أناة ، وأنه من تعجل أناة الله فى الطلاق ألزمناه إياه » . — فكان ذلك من عمر رضى الله عنه مجرد إلزام بحكم السياسة الشرعية فى النظر إلى المصالح ومجرد إجراء مؤقت للزجر ولعلاج حالة طارئة وعادة سيئة انتشرت حينئذ ، ولتخويف الناس من نتائج التلاعب بالطلاق . ولم يكن غرضه أن يقرر تشريعا دائما للمسلمين ولا أن يغير شريعة الله فى الطلاق .

ولقد أحسن المشرع المصرى صنعا إذ قرر فى القانون رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٩ أن الطلاق المقترن بعدد لفظا أو إشارة يقع طلقة واحدة . وينبغى ألا يقتصر المشرع المصرى على ذلك وأن يصدر قوانين أخرى تحظر جميع أنواع الطلاق المخالفة للنوع المبين فى الكتاب والسنة والذى أشرنا إلى أوضاعه فيما سبق ، ولا تعتد بغيره من أنواع الطلاق وتجعل ما عداه عبارات من منكر القول ولغو الأيمان ، ففى ذلك إحقاق للحق ورجوع بنظام الطلاق إلى الأوضاع الصحيحة التى سنها الإسلام وانحرف عنها

المسلمون . فليس المقصود من الطلاق اللعب واللهو حتى يزعم الرجل لنفسه أنه يملك الطلاق كما شاء وكيف شاء ومتى شاء ، وإنما هو تشريع منظم دقيق من لدن حكيم عليم شرعه الله لعباده منعا للحرج وعلاجا شافيا لما يكون فى الأسرة بين الزوجين من شقاق وضرار ، ورسم قواعده وحد حدوده بميزان العدالة الصحيحة التامة ، ونهى عن تجاوزها وتوعد على ذلك . ولذلك تنتهى أيات الطلاق دائما بذكر حدود الله والنهى عن تعديها والتحذير من المضارة ، فيقول الله تعالى عقب آيات الطلاق : ﴿ تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾[1] ؛ ﴿ وتلك حدود الله نبينها لقوم يعلمون ﴾[2] ؛ ﴿ وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ﴾[3] ؛ ﴿ ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا ﴾[4] ؛ ﴿ واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه ﴾[5] .

وحتى لا يكون الطلاق نزوة عابرة ، وحتى يكون للزوج فرصة للتراجع وللمتصلين بالزوجين فرصة للتدخل حتى بعد استنفاد وسائل التحكيم السابق ذكرها ، ينص القرآن على أن يقع الطلاق على يدى شاهدين ، فيقول تعالى فى آية الطلاق : ﴿ فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف وأشهدوا ذوى عدل منكم وأقيموا الشهادة لله ذلكم يوعظ به من كان يؤمن بالله واليوم الآخر ومن يتق الله يجعل له مخرجا ﴾[6] . ولا مانع عندى من أن يؤول المخرج فى

---

(١) البقرة ٢٢٩ .
(٢) البقرة ٢٣٠ .
(٣) الطلاق ١ .
(٤) البقرة ٢٣١ .
(٥) البقرة ٢٣٤ .
(٦) الطلاق .

الآية بالمخرج من الطلاق لتلاؤمه مع إيقاع الطلاق أمام شاهدين . وقد ذهب الشيعة الإمامية إلى وجوب الإشهاد فى الطلاق وأنه ركن من أركانه ، وأن كل طلاق بدون إشهاد يقع باطلا ولا يترتب عليه شيء . وحبذا لو أخذ المشرع المصرى بهذا الرأى الذى يتفق مع صريح القرآن ويتيح لمن يعزم الطلاق فرصة أخرى للتأمل والتدبر والتراجع عما اعتزمه ، كما يتيح فرصة أخرى للإصلاح بين الزوجين عن طريق الشاهدين اللذين يستدعيان للشهادة على الطلاق وهما يكونان عادة من ذوى الصلة الوثيقة بالزوجين .

هذا لم يدخر الإسلام وسعا فى إحاطة المرأة المطلقة بعطف كريم ورعاية رحيمة وفى العمل على حفظ حقوقها وحمايتها من الإضرار بها ، وذلك بما سنه من نظم رشيدة فى النفقة والحضانة والعدة والإرضاع وطرق إيقاع الطلاق وزمنه .. وما إلى ذلك ، وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ولا تتخذوا آيات الله هزوا واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم * وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ذلكم أزكى لكم وأطهر والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾[1] . ويقول : ﴿ يأيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة

---

(١) البقرة ٢٣١ ، ٢٣٢ .

واتقوا الله ربكم لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه ولا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا * فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف ﴾[١] . ويقول : ﴿ أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضارّوهن لتضيقوا عليهن وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن فإن أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وائتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى ﴾[٢] . ويقول : ﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئا أفتأخذونه بهتانا وإثما مبينا * وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقا غليظا ﴾[٣] .

وبجانب هذا النوع من الطلاق الذى شرعه الإسلام بعد الدخول بالزوجة وتوثق رباط الزوجية بينهما ، أجاز الإسلام طلاق الرجل لمن عقد عليها قبل أن يدخل بها إذا كان ثمة ما يدعو إلى ذلك ، حتى يتفرقا ويغنى الله كلا من سعته ، قبل أن يتم الدخول فيؤدى ذلك إلى الإضرار بكل منهما وإيذائه فى مستقبله . ومع ذلك فقد أوجب الإسلام على الرجل فى هذه الحالة نصف المهر المتفق عليه ، كما أوجب عليه المتعة للزوجة وهى تعويض لجبر إيحاش الطلاق يقدره الحاكم حسب الظروف وحسب حالة الزوج المالية وحسب ما لحق المرأة من ضرر[٤] . وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهن أو

---

(١) الطلاق ١ ، ٢ .

(٢) الطلاق ٦ .

(٣) النساء ٢٠ ، ٢١ .

(٤) يرى أبو حنيفة أن المتعة كسوة كاملة يقدمها الزوج لمطلقته .

تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على المُوسع قدرُه وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين * وإن طلقتوهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تنسوا الفضل بينكم إن الله بما تعملون بصير ﴾(١) .

* * *

وبجانب هذين النوعين من الطلاق اللذين وكل الأمر فيهما إلى الزوج وحده فى الحدود السابق بيانها ، شرع الإسلام أربعة أنواع أخرى من الطلاق :

(أحدها) طلاق تستبد به المرأة ، وذلك إذا كانت قد اشترطت فى عقد الزواج أن تكون عصمتها بيدها أى أن تملك حق الطلاق وقبل زوجها ذلك . ففى هذه الحالة يكون لها حق الطلاق فى بعض المذاهب بشروط وأوضاع خاصة .

(وثانيها) طلاق يقع عند الإخلال بشرط اشترطته المرأة فى عقد الزواج . فإذا أخل الزوج بهذا الشرط وقع الطلاق فى بعض المذاهب ، على ألا يكون هذا الشرط شرطا فاسدا يتعارض مع مقومات الزوجية وحدود الله .

(وثالثها) طلاق يوقعه القاضى لإعسار الزوج وعدم قدرته على النفقة أو لاتقاء الضرر أو الضرار أو لغيبة الزوج غيبة طويلة ، وقد أخذ بذلك القانون المصرى رقم ٢٥ لسنة ١٩٢٠ .

---

(١) البقرة ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(ورابعها) طلاق يقع عن تراض من الرجل والمرأة كليهما ، ويتم فى الغالب عن طريق تنازل المرأة عن جميع ما لها عند زوجها أو بعضه أو عن طريق إعطائه شيئا من المال يتراضيان عليه ، ويسمى هذا بالخلع ، ويحدث عندما ترى الزوجة تعذر الحياة الزوجية وتخاف إن أقامت مع زوجها على هذه الحال ألا تتمكن من إقامة حدود الله . وإلى هذا النوع يشير القرآن الكريم إذ يقول : ﴿ ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئا إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ﴾ . البقرة ٢٢٩[١] .

* * *

---

(١) انظر فى الأوضاع التى شرعها الإسلام للطلاق بحثا قيما لصديقنا الفاضل العلامة الأستاذ الشيخ أحمد محمد شاكر بعنوان « نظام الطلاق فى الإسلام » ، وقد كان هذا البحث من أهم مراجعنا فى هذه الفقرة .

هذا وبجانب هذه الأنواع من الفرقة التى شرعها الإسلام من قبل الدخول أو من بعده ، ويوجد نوعان من الإيمان لم يقرهما الإسلام ولكن رتب عليهما بعض النتائج .

أحدهما « الإيلاء » ، وهو أن يقول الرجل لامرأته : « والله لا أقربك » أو « لا أقربك أربعة أشهر » فصاعدا . فإذا قاربها فى أثناء أربعة أشهر لا يحسب ذلك طلاقا عليه ، وإنما تجب عليه الكفارة عن حنثه فى يمينه إن كان قد أقسم بالله . وإن لم يقربها حتى مضت الأشهر الأربعة اعتبرت مطلقة فى مذهب أبى حنيفة طلقة واحدة بائنة ، « لأنه ظلمها بمنع حقها » كما يقول فقهاء هذا المذهب « فجازاه الشرع بزوال نعمة الزواج عند مضى المدة » (البدائع جزء ثالث ، ص١٧٠ =

هذا النظام الرشيد الذى سنه الإسلام للطلاق ، فماذا يأخذ الفرنجة والمتفرنجون على هذا النظام الإلهى الحكيم ؟

يأخذون عليه ، فيما يتعلق بالموضوع الذى نحن بصدده على الأخص ، وهو موضوع المساواة ، أنه قد جعل الطلاق حقا للرجل وحده ، وحرم المرأة من ممارسته ؛ ويقولون إنه لما كان كل من الرجل والمرأة طرفا فى عقد الزواج وشريكا مع الآخر فى الحياة ، فإن منح حق الطلاق لأحدهما دون الآخر يتعارض مع أصول التعاقد ومع ما ينبغى أن تكون عليه المساواة بين الجنسين ، وأن الوضع السليم هو ألا يفسخ العقد إلا برضا الطرفين المتعاقدين معا ، أو إذا منح هذا الحق لأحدهما يجب أن يمنح كذلك للآخر .

= وتوابعها ، والميدانى على القدورى ، باب الإيلاء) . وعند الشافعى إذا مضت الأشهر الأربعة و لم يقربها فى أثنائها يوقف أمرها ويخير بين الفىء والتطليق . (البدائع ، جزء ثالث ص١٧٢) . وفى هذا يقول الله تعالى : ﴿ للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا ﴾ أى فإن رجعوا عما أقسموا عليه بأن قاربوا زوجاتهم ﴿ فإن الله غفور رحيم * وإن عزموا الطلاق فإن الله سميع عليم ﴾ (البقرة ٢٢٦ ، ٢٢٧) . ويفضل الإسلام أن يحنث الرجل فى يمينه فى هذه الحالة ليبقى على الزوجية . بدليل قوله تعالى : ﴿ فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم ﴾ وبدليل قوله عليه الصلاة والسلام (من حلف منكم يمينا ورأى غيره خيرا منه فليفعل ما هو خير وليكفر عن يمينه) (أو كما قال) .

وثانيهما : (الظهار) وهو أن يقول الرجل لزوجته : « أنت على كظهر أمى » . أو عبارة من هذا القبيل . فلا يجوز فى هذه الحالة أن يقربها حتى يكفر عن طهارة الكفارة التى نص عليها القرآن . وقد استنكر القرآن الظهار فى عبارات =

وقد فاتت هؤلاء أمور كثيرة : فاتهم أن المرأة إن تبرم مع الرجل عقد الزواج على سنة الله ورسوله ووفق الشريعة الإسلامية تقبل بذلك أن يتولى الرجل وحده شئون الطلاق فى الحدود التى قررها الإسلام ، وتتنازل تبعا لذلك فيما يتعلق بالطلاق عن جميع الحقوق التى يمكن أن تنشأ عن اشتراكها فى عقد الزواج . فالزوج إذ يمارس الطلاق وحده إنما يمارسه بناء على رضا الزوجة ذلك الرضا الذى يتضمنه عقد الزواج نفسه . وفاتهم كذلك أن الإسلام قد راعى فى هذا الموضوع أن المرأة تغلب عليها العاطفة وسرعة الانفعال ، وأنه لا يقع عليها غرم مالى من الطلاق فلا يصح مع هذه الأوضاع وهذه الحالات النفسية والقانونية للمرأة أن يوضع فى يدها حق النظير كحق الطلاق ، وإلا لأصبحت الأسرة مهددة بالانهيار لأضعف نزوة عابرة وأوهى انفعال طارىء . على حين أن الرجل لا يندفع فى العادة مع عواطفه ووجداناته وانفعالاته اندفاع المرأة ؛ وهو وحده من جهة أخرى الذى سيقع عليه غـرم الطلاق ؛ هذا إلى أنه القوام على الأسرة البصير بشئونها المقدر لجميع

= قويـة كما استنكـر الإيـلاء ، وإن كان قـد رتب على كل منهمـا النتائـج السابق بيانها ، وفى الظهار يقول الله تعالى : ﴿ الذين يظاهرون من نسائهم ما هن أمهاتهم * إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم * وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور * والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ، ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله * وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ . (المجادلة : ٢ — ٤) .

ظروفها ؛ فاقتضت الحكمة الإلهية أن يمنح هذا الحق بالقيود التي ذكرناها ، وهي قيود تكفل عدم استخدامه له إلا حيث يقتضى ذلك صالح الأسرة والصالح العام ، وتكفل عدم الإضرار بالمرأة .

هذا إلى أن الإسلام كما تقدم قد أباح الطلاق عن تراضى الطرفين فى صورة الخلع ، بل أباح أنواعا من الطلاق تستأثر بها المرأة إذا تنازل لها الزوج عن هذا الحق ويجعل العصمة بيدها ، وأباح لها أن تشترط فى عقد الزواج شروطا خاصة على أن يفسخ العقد عند عدم الوفاء بهذه الشروط كما سبق بيان ذلك .

* * *

وقد ظهر منذ عهد قريب فريق من المتفرنجين المصريين والمتفرنجات المصريات ينصحون لأولياء الأمور بأن ينزعوا هذا الحق من يد الزوج والزوجة كليهما ويضعوه فى يد القضاء . فلا تطلق المرأة إلا بدعوى تقام أمام القضاء وتقتنع فيها المحكمة بوجاهة الأسباب التى تدعو إلى ذلك . وهم بذلك يريدون أن ينقلوا إلى مصر أحكام القانون المدنى الفرنسى فى الطلاق ويستبدلوه بشريعة الله وإن كانوا لخبثهم لا يصرحون بذلك . ومن المؤسف أن إحدى اللجان الحكومية التى ألفت أخيرا قد أخذت تنقاد لهذا الرأى .

وقد عرضنا فيما سبق للقوانين الأوربية التى تذهب هذا المذهب وعلى الأخص القانون المدنى الفرنسى ، وبينّا بالدليل القاطع ما أدت إليه هذه القوانين من تقويض لنظام الأسرة وانهيار لمقومات الأخلاق . هذا إلى أن معظم أسباب الطلاق تمثل فى أمور لا يصح إعلانها حفاظا على كرامة الأسرة وسمعة أفرادها ومستقبل بناتها وبنيها ، فلو فرض على الناس

ألا يطلقوا إلا بعد إعلان هذه الأسباب أمام المحاكم وتقديم الأدلة القاطعة عليها واقتناع القضاء بها لوقعوا بين نارين : فإما أن يؤثروا عدم فضيحة أنفسهم وزوجاتهم وأولادهم بإعلان أسباب الطلاق أمام المحاكم فيبقوا بذلك على أوضاع تأباها الكرامة ويأباها الخلق الفاضل وتأباها مصلحة الأسرة نفسها ، وإما أن يؤثروا إعلانها فيسجلوا بذلك عارا أبديا على أنفسهم وجميع أفراد أسرتهم .

هكذا إلا أن الإسلام قد قرر نظام التحكيم بين الزوجين فيما يشجر بينهما من خلاف ولكنه قرره فى صورة كريمة نبيلة لا تنطوى على شيء من هذه المساوىء . فقد قرر أن يتألف مجلس التحكيم من حكمين : حكم من أهل الزوج وحكم من أهل الزوجة ، أى من رجلين لا يرى كلا الزوجين غضاضة فى الإفضاء إليهما بذات نفسيهما وبأسباب شقاقهما ، وهما من جهة أخرى لا يقلان عن الزوجين فى حرصهما على كتمان كل ما يسىء إلى سمعة الأسرة المتخاصمة وعدم إذاعته بين الناس لأن كل ما يسىء إلى سمعة هذه الأسرة يسىء إلى سمعة الحكمين نفسيهما لارتباط كليهما بهذه الأسرة برابطة القرابة .

وفضلا عن هذا كله فإن الإسلام قد أجاز تدخل القضاء فى هذه الشئون حينما تدعو إلى ذلك ضرورة ويتوقف على تدخله تحقيق الصالح العام وصالح الأسرة ، فأجاز للقضاء أن يطلق على الزوج فى حالة إعساره وعدم قدرته على النفقة وفى حالة غيبته غيبة طويلة وحيث يدعو إلى الطلاق اتقاء الضرر والضرار كما سبق بيان ذلك .

* * *

هذا هو نظام الطلاق فى الإسلام كما تدل عليه الأدلة الصحيحة الثابتة

من الكتاب والسنّة ، وهو كما رأينا طريق قويم لا عوج فيه ولا أمت ، وجادة واضحة مستقيمة يسير الإنسان فيها على هدى ونور مبين . نظر فيه إلى صالح المجتمع وصالح الأسرة وصالح الزوجين ، وحفظت فيه حقوق كل منهما بما يطابق العدالة التامة لا يغبن أحدهما الآخر ولا يبغى القوى منهما على الضعيف . أعطى الرجل بعض المزايا ومنح المرأة فى مقابل ذلك حقوقا تستعيض بها عما يلحقها من استعمال الرجل حقوقه . وقد لخص القرآن الكريم هذا كله فى عبارة موجزة بليغة إذ يقول : ﴿ ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة ﴾[1] .

هذا هو نظام الطلاق فى الإسلام ، وهو كما رأينا حل ينظر إليه الإسلام كما ينظر إلى جراحة لابد من إجرائها فلا يقرها إلا إذا تعذر الشفاء بغيرها ، وسط بين الإفراط والتفريط لا تسد منافذه حتى تشقى الأسرة بتحريمه كما هو شأن النظام المسيحى ، ولا تتسع كل الاتساع حتى يفقد معه ميثاق الزواج ما له من حرمة وجلال كما هو شأن النظم المدنية فى بعض أمم الغرب ، ولا تتوعر طريقه حتى يتلمسه الزوجان المتكارهان فى الاتفاق على دعوى الخطيئة ووصم الأسرة بعار أبدى كما هو شأن النظم المدنية فى أمم أخرى من أمم الغرب .

ومن هذا يظهر أن خير ما يقدمه القادة والمصلحون إلى أوطانهم فى هذا الموضوع هو عدم الانقياد لاتجاهات المتفرنجين والمتفرنجات ، والعمل على إشاعة الفهم الصحيح لنظام الطلاق فى الإسلام ، وإقامة

---

(١) البقرة ٢٢٨ .

إصلاحاتهم وأحكامهم فى هذا الصدد على قواعد من ديننا الحنيف .

ويفرق الإسلام بين الرجل والمرأة فى الميراث ، فجعل الإسلام نصيب الذكور فى الميراث أكبر من نصيب نظائرهم من الإناث فى معظم الأحوال ، فللذكر مثل حظ الأنثيين فى الأولاد والإخوة والأخوات . وللزوجة من زوجها المتوفى نصف نصيب الزوج من تركة زوجته ، ونصيب الأب من تركة ولده يزيد أحيانا على نصيب الأم ولا ينقص عنه فى أى حال .

وقد بنيت هذه التفرقة على أساس التفرقة بين أعباء الرجل الاقتصادية فى الحياة وأعباء المرأة ، فمسئولية الرجل فى الحياة من الناحية المادية أوسع كثيرا فى الأوضاع الإسلامية من مسئولية المرأة ، فالرجل هو رب الأسرة وهو القوام عليها والمكلف بالإنفاق على جميع أفرادها بالفعل إن كان متزوجا أو سيصبح مكلفا بذلك بعد الزواج ، وعلى الرجل وحده تجب نفقة الأقرباء على حين أن المرأة لا يكلفها الإسلام حتى الإنفاق على نفسها ، فكان من العدالة إذن أن يكون حظ الرجل من الميراث أكبر من حظ المرأة حتى يكون فى ذلك ما يعينه على القيام بهذه التكاليف الثقيلة التى وضعها الإسلام على عاتق الرجل وأعفى منها المرأة رحمة بها وحدبا عليها وضمانا لسعادة الأسرة .

وقد قال واصف باشا بطرس غالى فى كتابه فروسية العرب المتوارثة :

« كان محمد يحب النساء ويفهمهن ، وقد عمل جهد طاقته لتحريرهن ، وربما كان ذلك بالقدوة الحسنة التى استنها فوق ما هو بالقواعد والتعاليم التى وضعها ، وهو يعد بحق من أكبر أنصار المرأة العمليين إن لم يكن أولهم ، فلقد كان بهن رحيما وعليهن حليما ، وكان

لين الجانب كثير العطف عليهن عظيم الاحترام والتكريم لهن ، لم يكن ذلك خاصا منه بزوجاته بل كان ذلك شأنه مع جميع النساء على السواء » .

هذا ما قاله واصف باشا بطرس ، ولا نملك إلا أن نستشهد بقول الله تعالى : ﴿ وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى ﴾[1] .

القاهرة فى : ٧ / ٦ / ١٩٦٩ .

---

(١) النجم ٣ ، ٤ .

المراجع

القرآن الكريم
الكتاب المقدس
صحيح البخارى
السيرة النبوية — لابن هشام
إنسان العيون (السيرة الحلبية) — لعلى بن برهان الدين الحلبى
بلوغ الأرب — للألوسى
نهاية الأرب — للنويرى
إيران فى عهد الساسانيين — لكريستينس ـــ ترجمة د . يحيى الخشاب
نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار — للشيخ الشبلنجى
إحياء علوم الدين — للغزالى
شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — لتقى الدين محمد بن أحمد الفاسى
حقوق الإنسان فى الإسلام — للدكتور على عبد الواحد وافى
محمد رسول الله — مولاى محمد على
الرسول . حياة محمد — ر . ف . بودلى ترجمة : محمد محمد فرج وعبد الحميد جوده السحار
الإسلام والنظام العالمى الجديد — مولاى محمد على ترجمة أحمد جوده السحار
الدين القيم — لأبى الأعلى المودودى
المستشرقون والإسلام — للمهندس زكريا هاشم زكريا
نساء النبى — للدكتورة بنت الشاطئ
عبقرية محمد — لعباس محمود العقاد

الروض الأنف للسهيلى
تاريخ الطبرى
مشكلة الحرية للدكتور زكريا إبراهيم
فاطمة الزهراء والفاطميون لعباس محمود العقاد
أسباب النزول للواحدى
شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد
الملل والنحل للشهرستانى

للأستاذ عبد الحميد جوده السحار

الطبعة الاولى

احمس بطل الاستقلال	قصة	مايو سنة ١٩٤٣
ابو ذر الغفارى		يوليو سنة ١٩٤٣
بلال مؤذن الرسول		مايو سنة ١٩٤٤
فى الوظيفة	مجموعة اقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٤٤
سعد بن ابى وقاص		يوليو سنة ١٩٤٥
همزات الشياطين	مجموعة اقاصيص	فبراير سنة ١٩٤٦
ابناء ابى بكر الصديق		اكتوبر سنة ١٩٤٦
الرسول (حياة محمد) ترجمه مع محمد محمد فرج		يناير سنة ١٩٤٧
فى قافلة الزمان	رواية	سنة ١٩٤٧
اهل البيت		مايو سنة ١٩٤٨
اميرة قرطبة	قصة	سنة ١٩٤٩
النقاب الأزرق	قصة	مايو سنة ١٩٥٠
المسيح عيسى بن مريم		سنة ١٩٥١
قصص من الكتب المقدسة		سنة ١٩٥٢
الشارع الجديد	رواية	سنة ١٩٥٢
صدى السنين	مجموعة اقاصيص	سنة ١٩٥٣
حياة الحسين		سنة ١٩٥٤
قلعة الابطال	قصة	سنة ١٩٥٤
المستنقع	قصة	ديسمبر سنة ١٩٥٧

		الطبعة الأولى
ام العروسة		يناير سنة ١٩٥٨
وكان مساء	قصة	مارس سنة ١٩٥٨
اذرع وسيقان	قصة	يونيو سنة ١٩٥٨
ارملة من فلسطين	مجموعة اقاصيص	سنة ١٩٥٩
الحصاد	رواية	سبتمبر سنة ١٩٥٩
القصة من خلال تجاربى الذاتية		سنة ١٩٦١
جسر الشيطان	قصة	اكتوبر سنة ١٩٦٢
ليلة عاصفة	مجموعة اقاصيص	ديسمبر سنة ١٩٦٣
النصف الآخر	قصة	يناير سنة ١٩٦٤
السهول البيض	رواية	يونيو سنة ١٩٦٥
وعد الله واسرائيل		يوليو سنة ١٩٦٧
عمر بن عبد العزيز	قصة	يناير سنة ١٩٧٢
الحفيد	قصة	اكتوبر سنة ١٩٧٢

القصص الدينى

(للأطفال)

قصص الأنبياء	فى ١٨ جزءا
قصص السيرة	فى ٢٤ »
قصص الخلفاء الراشدين	فى ٢٠ »
العرب فى أوروبا	فى ٢٤ جزءا

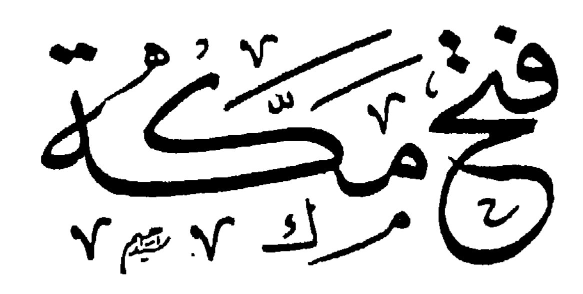
محمد رسول الله والذين معه

١ ــ إبراهيم أبو الأنبياء	أكتوبر ١٩٦٥
٢ ــ هاجر المصرية أم العرب	مارس ١٩٦٦
٣ ــ بنو إسماعيل	سبتمبر ١٩٦٦
٤ ــ العدنانيون	فبراير ١٩٦٧
٥ ــ قريش	مايو ١٩٦٧
٦ ــ مولد الرسول	يوليو ١٩٦٧
٧ ــ اليتيم	أكتوبر ١٩٦٧
٨ ــ خديجة بنت خويلد	يناير ١٩٦٨
٩ ــ دعوة إبراهيم	مارس ١٩٦٨
١٠ ــ عام الحزن	يونية ١٩٦٨
١١ ــ الهجرة	سبتمبر ١٩٦٨
١٢ ــ غزوة بدر	نوفمبر ١٩٦٨
١٣ ــ غزوة أحد	يناير ١٩٦٩
١٤ ــ غزوة الخندق	مايو ١٩٦٩
١٥ ــ صلح الحديبية	يونية ١٩٦٩
١٦ ــ فتح مكة	نوفمبر ١٩٦٩
١٧ ــ غزوة تبوك	فبراير ١٩٧٠
١٨ ــ عام الوفود	مايو ١٩٧٠
١٩ ــ حجة الوداع	نوفمبر ١٩٧٠
٢٠ ــ وفاة الرسول	ديسمبر ١٩٧٠

رقم الإيداع ٣٠٢٣/ ٧٨
الترقيم الدولى ٧ ــ ٢٤٢ ــ ٣١٦ ــ ٩٧٧

السيرة النبوية





عبد الحميد جودة السحار



بسم الله الرحمن الرحيم

« وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا » .

(قرآن كريم)

١

خرج مالك بن عباد — وهو رجل من بنى الحضرمى — تاجرا ، فلما توسط أرض خزاعة عدوا عليه فقتلوه وأخذو ماله ، فأصبح بين بنى بكر وخزاعة ثأر . فعدت بنو بكر على رجل من خزاعة فقتلوه . فعدت خزاعة قبيل الإسلام على أشراف من بنى بكر فقتلوهم بعرفة عند أنصاب الحرم . فبينا بنو بكر وخزاعة على ذلك حجز بينهم الإسلام وتشاغل الناس به ، فلما كان صلح الحديبية بين رسول الله — ﷺ — وبين قريش كان فيما شرطوا لرسول الله ﷺ : أنه من أحب أن يدخل فى عقد رسول الله — ﷺ — وعهده فليدخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدها فليدخل فيه : فدخلت بنو بكر فى عقد قريش ، ودخلت خزاعة فى عقد رسول الله — ﷺ .

ونامت العداوة التى كانت ناشبة بين قريش والمسلمين ، فرأت بنو بكر أن تستعين بقريش للثأر من خزاعة : فمشى بعض أشراف بنى بكر إلى سادات قريش يسألونهم أن يمدوهم بالرجال والسلاح على خزاعة ، فأمدوهم برجال خرجوا معهم مستخفين ، فيهم صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى وعكرمة بن أبى جهل وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو وظنوا أنهم لم يُعرفوا .

وكانت خزاعة على الوتير — ماء قريب من مكة — وكانوا آمنين لا يخشون غدرا ، وإذا بنوفل بن معاوية قائد بنى بكر يتقدم إليهم متسترا بالليل ومعه القرشيون متنكرين متنقبين ، فبيتوا خزاعة ليلا وهم غافلون فقتلوا منهم

رجالا ، وارتفعت الأصوات فخف الخزاعيون إلى سيوفهم وهم فى ذهول ، واقتتل الفريقان فقتل من خزاعة عشرون وتقهقر الخزاعيون إلى الحرم ، فلما انتهوا إليه قالت بنو بكر :

— يا نوفل إنا دخلنا الحرم ، إلٰهك إلٰهك .

كان الحقد يملأ صدر نوفل ، فقائد بنى بكر يرى أعداءه فى متناول السيوف ، إنها فرصة لا تعوض ليثأر من خزاعة ، فقال دون تفكير :

— لا إلٰه لى اليوم ، يا بنى بكر أصيبوا ثأركم فلعمرى إنكم لتسرقون فى الحرم ، أفلا تصيبون ثأركم فيه ؟!

واستمر القتال حتى لجأت خزاعة إلى دار بديل بن ورقاء ودار مولى لهم يقال له رافع ، فلما التقط تميم بن أسد أنفاسه وسكن روعه راح يتذكر ما كان ، إنه خرج مع رجل من قومه يقال له منبه وكان منبه رجلا معوزا ، فلما جن الليل باتا بالوتير ، فإذا ببنى بكر ومن تطوع للقتال معهم من قريش ينقضون عليهم ويضعون فيهم السيوف ، فقال له منبه :

— ياتميم انج بنفسك ، فأما أنا فوالله إنى لميت قتلونى أو تركونى ، لقد انبت فؤادى .

إن تميما ليرى نفسه وقد أطلق ساقيه للريح وقد ترك صديقه ليقع أسيرا فى أيدى الأعداء ، وإنه ليحس عرق الخجل يتصبب منه ، وأراد أن يفر من تأنيب ضميره الذى كان يخزه وخزا أليما فراح يعتذر من فراره عن منبه :

لما رأيت بنـى نفاثـة أقبلـوا ... يغشون كل وتيرة وحجـاب(١)
صخرا ورزنا لا عريب سواهـم ... يزجون كل مقلص خنـاب(٢)

---

(١) الحجاب : ما اطمأن من الأرض وخفى .

(٢) لا عريب : لا أحد . الخناب : الفرس الواسع المنخرين .

وذكرت ذحلا(١) عندنا متقادما ... فيما مضى من سالف الأحقاب

وخشيت ريح الموت من تلقائهم ... ورهبت وقع مهند قضاب

وعرفت أن من يثقفوه(٢) يتركوا ... وطرحت بالمتن العراء ثيابى

لحما لمجرية وشلو غراب ... قومت رجلا لا أخاف عثارها

ونجوت لا ينجو نجائى أحقب(٣) ... عِلج أقب مشمّر الأقراب

تلحى ولو شهدت لكان نكيرها ... بولا يبلّ مشافر القَبقاب(٤)

القوم أعلم ما تركت منبها ... عن طيب نفسي فاسألى أصحابى

وسكتت السيوف وانطلق الشعر يروى فى مبالغة ما كان بين كنانة وخزاعة ، فراح شعراء كنانة يقولون إنهم حبسوا خزاعة فى دار الذليل وألجئوهم إلى دار العبد رافع بعد أن شفوا نفوسهم . وجعل شعراء خزاعة يذكرون تلك الأيام التى كانت بينهم وبين كنانة وكيف أنهم لم يدعوا لهم سيدا يجمعهم فى المجالس . وبينا الفريقان يتراشقان بالأشعار خرج عمرو بن سالم الخزاعى فى أربعين راكبا من خزاعة وانطلق إلى المدينة ليخبر رسول الله — ﷺ — بأن بنى بكر وقريش قد تظاهروا على خزاعة وأصابوا منهم ما أصابوا ، ونقضوا ما كان بينهم وبين رسول الله ﷺ — مما استحلوا من خزاعة .

وذاع فى مكة أن صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزى وعكرمة بن أبى

---

(١) الذحل : طلب الثأر .

(٢) يثقفوه : يجدوه . المجرية : اللبؤة .

(٣) أحقب : حماره الوحش . العلج : الحمار . الأقب : الضامر البطن .

(٤) القبقاب : من أسماء الفرج .

جهل وشيبة بن عثمان وسهيل بن عمرو قد اشتركوا مع بنى بكر فى الغدر بخزاعة ، فخشيت قريش أن يبلغ ذلك رسول الله — ﷺ — فمظاهرتهم لبنى بكر نقض صريح للعهد الذى كان بينهم وبين رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، وقد يهيج ذلك الحدث المسلمين ويحركهم للمسير إلى مكة ، فندموا على ما فعلوا وجاء الحارث بن هشام إلى أبى سفيان وأخبره بما فعل سادات قريش فقال :

— هذا أمر لم أشهده و لم أغب عنه وإنه لشر . والله ليغزونَّا محمد . ولقد حدثتنى هند بنت عتبة أنها رأت رؤيا كرهتها ، رأت دما أقبل من الحجون يسيل حتى وقف بالخندمة .

فكره القوم ذلك وقالوا لأبى سفيان :

— ما لها سواك ، أخرج إلى محمد فكلمه فى تجديد العهد وزيادة المدة .

فخرج أبو سفيان ومولى له على راحلتين . فأسرع السير وهو يحسب أنه أول من خرج من مكة إلى رسول الله — ﷺ ، وما دار بخلده أن عمرو بن سالم والذين معه من خزاعة قد خرجوا قبله ، وأن رسول الله — ﷺ — كان صبيحة الوقعة التى جرت بين بنى بكر وقريش وبين خزاعة فى بيت عائشة فقال لها :

— حدث فى خزاعة حدث .

فقالت فى دهش :

— يا رسول الله أترى قريشا يجترئون على نقض العهد الذى بينك وبينهم ؟

— ينقضون العهد لأمر يريده الله .

— خير ؟

— خير .

وأنه عليه السلام بات عند ميمونة ليلة بعد ذلك فقام ليتوضأ للصلاة ، فسمعته يقول :

ـــ لبيك لبيك لبيك ! نصرت نصرت نصرت .

فانطلقت إليه عليه السلام وقالت :

ـــ كأنك تكلم إنسانا ، هل كان معك أحد ؟

ـــ هذا راجز بنى كعب يزعم أن قريشا أعانت عليهم بكر بن وائل .

فأقاموا ثلاثا ثم صلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ الصبح ، وقدم عمرو بن سالم وركب بنى خزاعة على المدينة ، فوقف عمرو ورسول الله ـــ ﷺ ـــ جالس فى المسجد بين ظهرانى الناس فقال :

يا رب إنى ناشد محمدا ... حِلف أبينا وأبيه الأتلدا[1]

قد كنتم ولدا وكنا والدا ... ثُمَّت أسلمنا فلم ننزع يدا

فانصر هداك الله نصرا أعتدا ... وادع عباد الله يأتوا مددا

فيهم رسول الله قد تجردا ... إن سيم خَسْفاً وجهه تربَّدا

فى فيلق[2] كالبحر يجرى مزبداً ... إن قريشا أخلفوك الموعدا

ونقضوا ميثاقك المؤكدا ... وجعلوا لى فى كداء رُصَّدا

وزعموا أن لست أدعو أحدا ... وهم أذلّ وأقل عددا

هم بيتونا بالوتير هُجَّدا ... وقتلونا رُكَّعا وسجدا

وبلغ صوت الراجز دور النبى فأعارته عائشة سمعها وقد أشرق وجهها بنور الإيمان . إن رسول الله ـــ صلى الله عليه وسلم ـــ

---

(١) الأتلد : العريق النسب .

(٢)الفيلق : الجيش .

حدثها قبل أن يصل وفد خزاعة بأن قريشا قد فجرت فى عهدها ، وها هو ذا شاعرهم يفزع إلى رسول الله — ﷺ — يستنصر — وظلت عائشة تصغى وهى ساكنة وقد أطبقت شفتيها وإن كانت كل خلجة من خلجات نفسها تشهد أن محمدا رسول الله حقا . وراحت ميمونة تلقى السمع إلى عمرو بن سالم وقد ترقرقت فى عينيها الدموع . إن رسول الله — ﷺ — قال لها : « هذا راجز بنى كعب يزعم أن قريشا أعانت عليهم بكر بن وائل » . وها هو ذا شاعر بنى خزاعة ينشد فى مسجد الرسول شعرا يناشد فيه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — الحلف الذى بينهما ويستنصره . فلما انتهى عمرو بن سالم من شعره ساد المسجد سكون ، وأرهفت الآذان وتعلقت الأعين بشفتى رسول الله عليه السلام فإذا به يقول فى صوت جهورى :

— نصرت يا عمرو بن سالم .

ودمعت عينا رسول الله — ﷺ ، وقام وهو يجر رداءه ويقول :

— لا ينصرنى الله إن لم أنصر بنى كعب مما أنصر به نفسى .

وأشرقت وجوه بنى خزاعة بالفرح ، وزاد سرورهم لما قال عليه السلام :

— خزاعة منى وأنا من خزاعة .

ثم عرض له عليه السلام سحاب فقال :

— إن هذا السحاب ليستهل بنصر بنى كعب .

ولم يطل مكث وفد بنى خزاعة فى المدينة ، فلما عزموا على الرحيل قال لهم عليه السلام :

— ارجعوا وتفرقوا فى الأودية .

ليخفى عليه السلام مجيئهم له . فرجعوا وتفرقوا فذهبت فرقة إلى الساحل وفيهم عمرو بن سالم ، وفرقة فيهم بديل بن ورقاء لزمت الطريق .

وراح أبو سفيان وغلامه يطويان الأرض التى تفصل بين مكة والمدينة

وياطالما قطع أبو سفيان ذلك الطريق . إنه طواه تاجرا وغازيا ، وكان فى كل مرة يفكر فى ربح تجارته أو فى الغنائم التى سيغنمها من حرب المسلمين وما كان القلق يساوره . أما فى هذه المرة فإنه يستشعر مرارة ، فهو فى طريقه إلى سفارة ذليلة سواء أنجح فيها أم أخفق . إنه ذاهب إلى عدوه اللدود يلتمس منه شد العقد والزيادة فى المدة بعد أن كانت أضعف أمانيه أن يعود ذات يوم إلى مكة وهو يسوق محمدا وأصحابه فى الأسرى .

كان يريد أن يكتم أنفاس الإسلام المترددة فى المدينة . وقد أنفق الأموال وهو الرجل الشحيح فى سبيل القضاء على من ينافسه فى زعامة قريش . وقد حالف اليهود ليجتث الخطر الذى كان يتفاقم شأنه على طريق تجارة الشام ، ولكن كل محاولاته قد باءت بالإخفاق كأن هناك قوة فى السماء ترعى هؤلاء المسلمين كما يزعم محمد .

كان الحسد ينهش فؤاده لما زعم محمد أنه رسول رب العالمين وصدقه الناس ، وزاد فى حنقه أن محمدا لم يكتف بقريش والأوس والخزرج بل راح يطالب بدولة عالمية يسود فيها الإسلام . إنه بشر أصحابه بملك فارس والروم و لم يكتف بذلك القول بل أرسل الجيوش لتناوئ هرقل على حدود الشام .

وأطرق أبو سفيان فلم يستطع أن يسخر فى وحدته بما كان يسخر منه وهو فى نادى قومه عند الحرم . وطافت بذهنه ذكريات . إنه يرى نفسه وقد خرج وأمية بن أبى الصلت الثقفى تجارا إلى الشام . فكلما نزلوا منزلا أخذ أمية سِفراً له يقرؤه عليهم . وإنه ليرى فى وضوح ليلة أن نزلوا قرية من قرى النصارى فجاءوا أمية وأكرموه وأهدوا له وذهب معهم إلى بيوتهم . وإنه ليراه وقد آب فى وسط النهار فطرح ثوبيه وأخذ ثوبين له أسودين فلبسهما . ومس أذنى أبى سفيان صوت أمية بن أبى الصلت كأنما كان آتيا من وراءه حجب السنين :

ــ هل لك يا أبا سفيان فى عالم من علماء النصارى إليه يتناهى علم الكتاب تسأله ؟

ــ لا أرب لى فيه ، والله لئن حدثنى بما أحب لا أثق به ، ولئن حدثنى بما أكره ، لأجدن منه .

ورأى أبو سفيان فى مرآة نفسه أمية بن أبى الصلت يذهب وشيخا من النصارى يتخلف ثم يقول له :

ــ ما يمنعك أن تذهب إلى هذا الشيخ ؟

ــ لست على دينه .

ــ وإن ، فإنك تسمع منه عجبا وتراه .. أثقفى أنت ؟

ــ لا ولكن قرشى .

ــ فما يمنعك من الشيخ ؟ والله ليحبكم ويوصى بكم .

ورأى أبو سفيان بعين الخيال أمية بن أبى الصلت وهو يعود بعد هدأة الليل فيطرح ثوبيه ثم ينجدل على فراشه فما نام ولا قام حتى أصبح كئيبا حزينا ما يكلمهم ولا يكلمونه ، ورن فى أعماق نفسه صوت أمية :

ــ ألا نرحل ؟

ــ وهل بك من رحيل ؟

ــ نعم .

ودار فى ضميره ذلك الحوار الذى دار بينهما قبل أن يبعث ابن عبد الله :

ــ ألا تحدث يا أبا سفيان ؟

ــ وهل بك من حديث ؟ والله ما رأيت مثل الذى رجعت به من عند صاحبك .

ــ أما إن ذلك لشىء لست فيه ، إنما ذلك لشىء وجلت منه من منقلبى .

ـــ وهل لك من منقلب ؟

ـــ أى والله لأموتن ثم لأحيين .

ـــ هل أنت قابل أمانتى ؟

ـــ على ماذا ؟

ـــ على أنك لا تبعث ولا تحاسب .

إن أمية ضحك فى ذلك اليوم وقال :

ـــ بلى والله يا أبا سفيان لنبعثن ثم لنحاسبن ، وليدخلن فريق الجنة وفريق النار .

سمع أبو سفيان ذلك القول فى تلك الأيام فقال لصاحبه فى هدوء : « ففى أيهما أنت أخبرك صاحبك ؟ » . قالها فى سخرية هازئة بفكرة البعث بعد الموت . إلا أنه وهو فى طريقه إلى المدينة تقاصرت نفسه لما رن فى جوفه حديث أمية ابن أبى الصلت : فقرآن محمد ما انفك يردد الدار الآخرة والثواب والعقاب والجنة والنار حتى كاد إيمانه يتزعزع بالطبع المحيى والدهر المفنى ، وطافت به موجة من رهبة لما مد عينيه إلى السماء ، ثم سرعان ما عاد إلى الإصغاء إلى ما دار بينه وبين أمية فى تلك الرحلة :

ـــ هيا يا صخر .

ـــ ما تشاء .

ـــ حدثنى عن عتبة بن ربيعة أيجتنب المظالم والمحارم؟ .

ـــ أى والله .

ـــ ويصل الرحم ويأمر بصلتها ؟

ـــ أى والله .

ـــ وكريم الطرفين وسط فى العشيرة ؟

— نعم .

— فهل تعلم قرشيا أشرف منه ؟

— لا و الله ما أعلم .

— أمحوج هو ؟

— لا بل هو ذو مال كثير .

— وكم أتى عليه من السن ؟

— زاد على المائة .

— فالشرف والسن والمال أزرين به .

— ولم ذاك يزرى به ؟ لا والله بل يزيده خيرا .

— هو ذاك .

كان ذلك الحديث فى تلك الليلة أشبه بالألغاز ، وأما وأبو سفيان ومولاه يغذان[١] السير إلى المدينة فقد كان الأمر واضحا وضوح النهار . إنه يرى صورة محمد بن عبد الله تملأ الأفق وتسد عليه المنافذ ، فأينما يولى وجهه يراه . وإن صوت أمية بن أبى الصلت يرن فى الفضاء حتى ليعلو على كل صوت :

— هو رجل من العرب .. من أهل بيت يحجه العرب .. هو من إخوانكم من قريش .. رجل شاب حين دخل إلى الكهولة . بُدُوّ أمره يجتنب المظالم والمحارم ويصل الرحم ويأمر بصلتها ، وهو محوج كريم الطرفين متوسط فى العشيرة ، أكثر جنده من الملائكة .

وامتلات جوانح أبى سفيان رهبة وربا خوفه[٢] لما رن فى أغوار نفسه صوت ضميره يرتل : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن

---

(١) يغذان : يسرعان .

(٢) ربا خوفه : زاد .

غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين . ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون . إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين . وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم . إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام . إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله فإن الله شديد العقاب »[1] .

وسرت فى بدن أبى سفيان قشعريرة ، وراح يقلب وجهه فى الكون العريض فاستشعر لأول مرة حقارة شأنه . وانثالت على رأسه ذكريات القتال الذى دار بينهم وبين محمد وصحبه : كانت كل الظروف المادية تؤكد سحق المسلمين ولكن النتائج كلها كانت على عكس كل تقدير . تقوضت القوى المتفوقة فى العدد والعتاد أمام قوة خفية ، إنها نصر الله ، إنها مدد الله من ملائكته ، جنود محمد الذين حدثه عنهم أمية بن أبى الصلت يوم أن كانوا عائدين من الشام إلى مكة قبل أن يعود إليهم محمد بن عبد الله من غار حراء يزعم أنه رسول رب العالمين .

وهمس فى وجدان أبى سفيان هامس : « لماذا لا تذهب إلى المدينة لتعلن على الملأ إسلامك كما فعل عمرو بن العاص وخالد بن الوليد وسادات قريش من قبلهما ؟! . فانتفض فوق راحلته انتفاضة قوية كأنما يطرد ذلك الخاطر

---

(١) الأنفال ٧ — ١٣

الذى انسل إلى نفسه فى غفلة منه ، وقال فى صوت غاضب كأنما يؤنب نفسه :

ـــ أو يذهب شرفى ؟!

كان أبو سفيان يعلم أن محمدا ـــ ﷺ ـــ صدوق لا يكذب قد جاء أمرا لا يبقى معه شرف . فقاتله حمية كراهة أن يذهب شرفه .

وألح عليه ما دار من حديث بينه وبين أمية بن أبى الصلت بعد أن بعث الله محمدا عليه السلام :

ـــ يا أمية ، قد خرج النبى الذى كنت تنعته .

ـــ أما إنه حق فاتبعه .

ـــ ما يمنعك من اتباعه ؟

ـــ ما يمنعنى إلا الاستحياء من نساء ثقيف ، إنى كنت أحدثهن أنى هو ثم يريننى تابعا لغلام من بنى عبد مناف .

وأطرق أبو سفيان وقد زوى ما بين حاجبيه وقطب جبينه ، فصوت أمية الآتى من بحر الذكريات كان كخنجر يطعن كل آماله فى سفارته إلى المدينة :

« كأنى بك يا أبا سفيان قد خالفته ثم قد ربطت كما يربط الجدى حتى يأتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد ».

ولم يستطع أبو سفيان أن يلوى شفته السفلى استهزاء بأقوال أمية بن أبى الصلت التى ظلت حية فى ضميره طوال تلك السنين ، فراح يحث راحلته على الإسراع ليفر من أشباح الماضى التى تحاول أن تمحو إشراقة الأمل فى المستقبل المجهول .

٢

راح أبو سفيان ومولاه يغذان السير . إنه يريد أن يصل إلى المدينة قبل أن تتصل خزاعة برسول الله ـــ ﷺ ـــ وأن تخبره عليه السلام بأن قريشا قد نقضت ما كان بينها وبينه من عهد . وكان أبو سفيان يطمع فى أن يشد العقد ويزيد فى المدة فقد أقرت قريش بعجزها عن وقف رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ إذا ما أراد أن يفتح مكة ، فلم يبق فى جعبتها إلا السلم أو الاستسلام .

ورجع أولئك الركب من خزاعة ، فلما كانوا بعسفان لقوا أبا سفيان ومولى له كلا على راحلة فقال لهم :

ـــ هل ذهبتهم إلى المدينة ؟

ـــ لا .

وقال بديل بن ورقاء :

ـــ إنما كنا فى الساحل نصلح بين الناس فى قتل .

ـــ أما أتيت محمدا .

ـــ نعم : ما أتيت محمدا .

وصبر أبو سفيان وانتابه قلق ، حتى إذا ما انطلق بديل والذين معه إلى مكة قال أبو سفيان لمولاه :

ـــ لئن كان جاء إلى المدينة لقد علف بها النوى .

فجاء منزلهم ففتت أبعار أباعرهم فوجد فيها النوى ، قال أبو سفيان فى

غيظ :

ـــ أحلف بالله لقد جاء القوم محمدا .

وكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى المسجد ومن حوله المهاجرون والأنصار يلقون إليه أسماعهم . فقال عليه السلام :

ـــ كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد فى المدة وهو راجع بسخطه .

وانطلق أبو سفيان وهو يطوى الصحراء شاردا وقد اشتد وجيب(١) قلبه . إنه كان يقطع هذه الفيافى شامخا بأنفه يتيه بشرفه فهو شيخ بنى أمية بل وسيد قريش . فكانت إيماءته أمرا وكلمته قانونا . أما اليوم فهو ذاهب إلى مسجد عدوه يلتمس منه أن يشد العقد الذى كان غائبا عنه ويزيد فى مدته ، إنه يستشعر بالذل يملأ جوانحه ولكنه يحاول أن يقهر عواطفه المتمردة ، فليس لمكة من نجاة إلا أن تنجح سفارته وأن يقبل ابن أبى كبشة تجديد العقد وزيادة المدة .

ولاحت لأبى سفيان أرباض المدينة فانبهرت أنفاسه وراح يصر على أسنانه ، فقد غاظه أن ليس له من الأمر شىء وأن مفتاح الموقف لم يعد فى يده . بل فى يد نبى الإسلام إن شاء جدد العقد وأن شاء قطعه .

وتذكر ابنته أم حبيبة . إنها هناك فى دور النبى وصارت أما للمؤمنين . فإن كانت قد تركت دين الآباء ودخلت فيما يدعو إليه ابن عبد الله فإنها لن تتخلى عنه ولن تجحد أبوته ولن يرضيها أن يعود أبوها إلى قريش وفى ركابه الخزى والخذلان . فتألقت فى نفسه بارقة أمل فعزم على أن يجىء أم حبيبة وأن يوسطها بينه وبين زوجها وأن تضم صوتها إلى أصوات قومها فى شد العقد وزيادة المدة .

وانساب أبو سفيان ومولاه فى المدينة فلم يهرع أحد لاستقباله و لم يلتفت أحد لدخوله . فاستشعر قهرا فقد كان أشراف الأوس والخزرج يأتون إليه مهطعين[١] والبشر يعلو الوجوه قبل أن يغزو محمد أفئدة القوم بسحره المبين . فتحرك سخطه وراودته فكرة أن يلوى أعنة راحلته وأن يرجع إلى مكة لولا بصيص من رجاء لمع فى ظلمات يأسه ، فاندفع إلى مسجد الرسول ليواجه واقعه كيفما يكون .

ووقف على باب المسجد ومد عينيه فألفى محمدا — ﷺ — فى أصحابه فخفق قلبه رهبة ، و لم يطل وقوفه فسرعان ما اتجه إلى دور النبى ودخل على ابنته أم حبيبة وقد افتر ثغره عن ابتسامة قلقة فلم يبد على ابنته أنها فرحت بمقدمة ، فحسب أن المفاجأة قد أذهلتها . وأراد أن يجلس على فراش النبى — ﷺ — فطوته عنه ، فأحس كأن خنجرا مسموما ضرب إلى قلبه فقال فى صوت فيه انين وإن حاول أن يبدو هادئا :

— يا بنية ، ما أدرى أرغبت بى عن هذا الفراش أم رغبت به عنى ؟

— بل هو فراش النبى — ﷺ — وأنت مشرك نجس .

فدار به المكان ولو طاوع إحساساته للطمها لطمة تنفس عن غضبه ، ولكنه كبح جماح نفسه وقال :

— والله لقد أصابك بعدى شر .

فقالت فى ثقة :

— بل هدانى الله تعالى للإسلام وأنت تعبد حجرا لا يسمع ولا يبصر . واعجبا منك يا أبت وأنت سيد قريش وكبيرها !

— أنا أترك ما كان يعبد آبائى وأتبع دين محمد !

---

(١) مهطعين خاضعين أذلاء .

وخرج وهو حانق ، وزاد فى حنقه أنه كان يعرف فى أعماق ذاته أنه يعبد نفسه . إنه لا يريد أن يتبع دين محمد حتى لا يقر لابن عبد الله بالزعامة ، وقد عاش طوال حياته يحلم بزعامة قريش . وذهب إلى المسجد حتى أتى النبى — ﷺ — وهو يجاهد ليبدو هاشا باشا . وفر عينيه فى الحاضرين فإذا بمحمد عليه السلام ومن حوله المهاجرون والأنصار . ومد بصره إلى خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعثمان بن عفان وسرعان ما غض الطرف . وحيا القوم بتحية الجاهلية فردوا عليه بتحية الإسلام .

والتفت إلى رسول الله — ﷺ — وقال :

— إنى كنت غائبا فى صلح الحديبية فامدد العهد وزدنا فى المدة .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— لذلك جئت يا أبا سفيان ؟

— نعم .

— هل فيكم من حديث ؟

— معاذا الله نحن على عهدنا وصلحنا لا نغير ولا نبدل .

وصوبت أعين القوم إلى أبى سفيان . إنه يحاول أن ينكر ما كان بين بنى بكر وبين خزاعة ومعاونة قريش بنى بكر على خزاعة حلفاء رسول الله عليه السلام . إنه لا يريد أن يعترف بأن قريشا قد نقضت العهد ومزقت صلح الحديبية . فلو اعترف لأعطى المسلمين الحق المشروع فى غزو مكة . وهو ما تجشم السفر وقبل هذه السفارة المذلة إلا ليمنع سير المسلمين إلى أم القرى ليبقى له السلطان . وأرهف السمع ليلتقط ما يقول ابن عبد الله فقال الرسول — ﷺ :

— فنحن على مدتنا وصلحنا .

فأعاد أبو سفيان القول :

ــ امدد العهد وزدنا فى المدة .

فلم يرد عليه شيئا . فقام أبو سفيان مطرقا يجر أذيال الخيبة ، وخرج من مسجد النبى عليه السلام لا يكاد يرى شيئا فقد أعماه سخطه ، حتى إذا ما خلا بنفسه راح يقاوم يأسه فهداه تفكيره إلى أن ينطلق إلى أبى بكر يلتمس منه أن يكلم له رسول الله ــ ﷺ ــ فخرج إلى العالية حيث كان أبو بكر ، فلما دخل عليه قال :

ــ يا أبا بكر جدد العقد وزدنا فى المدة .

ــ جوارى فى جوار رسول الله ــ ﷺ ــ وحاول أبو سفيان أن يثنى أبا بكر عن قراره وأن يزين له أن يكلم له رسول الله عليه السلام . ولكن أبا بكر أبى أن يكلم رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ فى أمر صمت عنه . فقام أبو سفيان وخرج يجر رجليه وهو يحس كأنما يحمل على ظهره أثقال الأرض .

واستشعر أبو سفيان كأنما قطعت له أثواب الذل . فراحت تراوده فكرة أن يقفل راجعا إلى مكة . ولكنه أبى أن يعود بالإخفاق فعزم فى إصرار على أن يأتى أصحاب رسول الله ــ ﷺ ــ وأن يلتمس منهم أن يكلموا له النبى عليه السلام لعل قلب أحدهم يلين لشيخ بنى أمية ، فانطلق إلى عمر بن الخطاب ليتجرع كأس المهانة حتى الثمالة[١] .

وفى صوت خافت لون بالأسى كلم عمر . وفى صوت حازم قوى قال عمر :

ــ أنا أشفع لكم إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فوالله لو لم أجد إلا الذر

---

(١) الثمالة : بقية الكأس .

لجاهدتكم به .

ــ إن بيننا وبينكم حلفا .

ــ ما كان من حلفنا جديدا أخلقه الله . وما كان مقطوعا فلا وصله الله .

فرمى أبو سفيان عمر بن الخطاب بنظرة قاسية ثم قال :

ــ جزيت من ذى رحم شرا .

وراح أبو سفيان يدور فى طرقات يثرب وهو حاقد على نفسه تتردد أنفاسه فى أذنيه كأنما كانت ناعية تنعى كرامته ، حتى إذا ما بلغ دار عثمان بن عفان انسل إليها مسرعا خشية أن تقع عليه أعين الشامتين الداخلين إلى المسجد والخارجين منه ، حتى إذا ما أتى عثمان قال له :

ــ إنه ليس فى القوم أقرب بى رحما منك ، فزد فى المدة وجدد العقد فإن صاحبك لا يرده عليك أبدا .

فقال عثمان معتذرا :

ــ جوارى فى جوار رسول الله ﷺ .

وسأل أبو سفيان وألحف وتوسل وتودد ولكن عثمان أبى أن يكلم رسول الله ﷺ . فقام أبو سفيان من عنده وقد تفصد العرق من جبينه حتى ملأ عينيه وسال على لحيته ، وخرج يصرف(١) أنيابه وراح يمسح وجهه لا يكاد يفرق بين عرقه ودموعه .

ووقف على باب دار عثمان يلتقط أنفاسه ، حتى إذا ما سكن روعه بعض الشىء رأى أن يقطع الطريق إلى دار على بن أبى طالب ، فإن كان زوج أم كلثوم بنت محمد قد رده خائبا فلعل زوج فاطمة تتحرك فيه فروسيته فيكلم

---

(١) الصريف : صوت الأنياب .

له ابن عمه وحبيبه فى تجديد العقد وزيادة المدة .

ودخل على علىّ بن أبى طالب وعنده فاطمة وحسن غلام يدب بين يديها فقال :

ـــ يا على ، إنك أمس القوم بى رحما ، وإنى قد جئت فى حاجة فلا أرجعن كما جئت خائبا ، اشفع لى إلى محمد .

ـــ ويحك يا أبا سفيان ! لقد عزم رسول الله ـــ ﷺ ـــ على أمر ما نستطيع أن نكلمه .

فالتفت إلى فاطمة فقال :

ـــ يا ابنة محمد . هل لك أن تأمرى ابنك هذا فيجير بين الناس فيكون سيد العرب إلى آخر الدهر ؟

ـــ والله ما يبلغ بنىّ ذلك أن يجير بين الناس ، وما يجير أحد على رسول الله .

وتذكر أبو سفيان أن أختها زينب قد أجارت زوجها العاص بن الربيع فطمع فى أن تجيره ، فقال لها :

ـــ أجيرى بين الناس .

ـــ إنما أنا امرأة .

ـــ قد أجارت أختك زوجها وأجاز ذلك محمد .

ـــ إنما ذاك إلى رسول الله .

وفهم أبو سفيان أنها لا تريد أن تجير فى الناس حتى لا تغضب أباها ، فإذا بحسين يدخل عليهم ، فالتفت أبو سفيان إلى الحسن والحسين فقال :

ـــ فأمرى صبيان ليس مثلهما يجير .

ـــ إنما هما صبيان ليس مثلهما يجير

وابتعد على عن المكان وهو واثق أن أحدا لا يستطيع أن يكلم رسول الله — ﷺ — فى أمر أبى سفيان ، فقد قال عليه السلام قبل قدوم شيخ بنى أمية : « كأنكم بأبى سفيان قد جاءكم ليشد العقد ويزيد فى المدة وهو راجع بسخطه » . وقد جاء أبو سفيان ليشد العقد ويزيد فى المدة ولا بد أن يرجع بسخطه كما تنبأ رسول الله — ﷺ .

وراح أبو سفيان يتلفت بأعين زائغة فقد طال مكثه بالمدينة دون أن يصل إلى شىء ، طرق جميع الأبواب فأغلقت فى وجهه ، توسل دون جدوى . طلب من ابنة محمد أن تجيره فأبت وضنت بالحسن والحسين ، ولو أن عليا قد أبى أن يكلم له رسول الله عليه السلام فهو آخر أمل . فقال لفاطمة الزهراء :

— فكلمى عليا

— فكلمه أنت .

فزحف إلى حيث كان على بن أبى طالب كما يزحف الحيوان الذى سددت إليه سهام القوم فتركته كالقنفذ فقال فى انكسار :

— يا أبا الحسن اشفع لى إلى محمد وأجرنى .

— يا أبا سفيان إنه ليس أحد من أصحاب رسول الله — ﷺ — يفتات على رسول الله — ﷺ — بجوار .

وأحس أبو سفيان أنه يريد أن ينقض وأن الأرض قد مادت تحت قدميه . إنه أتى أشراف قريش والأنصار وكل يقول : جوارى فى جوار رسول الله — ﷺ — فقال لعلى فى صوت أقرب للنحيب :

— يا أبا الحسن إنى أرى الأمور قد أفسدت علىّ فانصحنى .

— والله لا أعلم لك شيئا يغنى عنك ، ولكنك سيد بنى كنانة فقم وأجر بين الناس ثم الحق بأرضك .

ــ أوترى ذلك مغنيا عنى شيئا ؟

ــ والله ما أظنه ولكن لا أجد لك غير ذلك .

فدخل أبو سفيان فى المسجد فقام فقال :

ــ أيها الناس إنى أجرت بين الناس .

ثم جاء إلى النبى ــ ﷺ ــ فقال :

ــ يا محمد إنى أجرت بين الناس ، لا والله ما أظن أحدا يخفرنى ويرد جوارى .

فقال رسول الله ــ ﷺ :

ــ أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة .

ثم ركب أبو سفيان بعيره لينقلب إلى أهله مدحورا . وإن كان غروره يزين له أن أحدا لن يخفره ويرد جواره .

وكانت قريش ترصد مقدمه فى قلق فقد طالت غيبته ، واتهمته قريش أنه صبأ واتبع محمدا سرا وكتم إسلامه ، فلما طوى الأرض التى تفصل بين المدينة ومكة دخل داره بالليل فاستقبلته زوجه هند بنت عتبة وهى متلهفة على سماع أخباره وهو فى شوق إليها . فلما دنا منها وجلس منها مجلس الرجل من امرأته قالت له :

ــ إن كنت مع طول الإقامة جئتهم بنجح فأنت الرجل . فراح يقص عليها ما كان بينه وبين محمد وأصحابه ، فضربت برجلها فى صدره وقالت :

ــ قبحت رسول قوم ، فما جئت بخير .

فلما أصبح أبو سفيان حلق رأسه عند أساف ونائلة وذبح عندهما البدن[1]

---

(١) البدن جمع مفرده بدنة وهى الواحدة من الإبل والبقر كالأضحية تهدى إلى مكة .

ومسح رءوسهما بالدم ليدفع عنه التهمة ، فلما رأته قريش قالوا :

ـــ ما وراءك ؟ هل جئت بكتاب من محمد أو عهد ؟

ـــ لا والله لقد أبى علىَّ ، وقد تتبعت أصحابه فما رأيت قوما لملك أطوع منهم له .

وساد الوجوم . ثم قال أبو سفيان ليفر من ذلك الصمت القاتل :

ـــ جئت محمدا فكلمته فوالله ما رد علىَّ شيئا ، ثم جئت إلى ابن أبى قحافة فلم أجد فيه خيرا ، ثم جئت عمر بن الخطاب فوجدته أعدى العدو ، ثم جئت عليا فوجدته ألين القوم وقد أشار علىّ بشىء صنعته ، فوالله لا أدرى أيغنى عنى شيئا أم لا ؟

ـــ وبم أمرك ؟

ـــ أمرنى أن أجير بين الناس ، قال لى : لم تلتمس جوار الناس على محمد ولا تجير أنت عليه وأنت سيد قريش وأكبرها وأحقها ألا يخفر جوارك ؟ ففعلت .

ـــ فهل أجاز لك ذلك محمد ؟

ـــ لا وإنما قال : أنت تقول ذلك يا أبا حنظلة ، والله لم يزدنى .

وأحس القوم أن عليا قد سخر منه فقالوا :

ـــ رضيت بغير رضا وجئت بما لا تغنى عنا ولا عنك شيئا . ولعمر الله ما جوارك بجائز وإن إخفارك إزالة خفارتك[1] عليهم لهين . والله أراد الرجل أن يلعب بك .

فقال أبو سفيان فى يأس :

ـــ والله ما وجدت غير ذلك .

---

(١) الخفارة : الإجارة والحماية .

٣

كان رسول الله ــ ﷺ ــ إذا أراد غزوة ورّى بغيرها ، فلما هم عليه السلام بغزو أهل مكة بعث أبا قتادة فى ثمانية نفر من جملتهم محكم بن جثامة الليثى إلى بطن إضم ليظن ظان أن رسول الله ــ ﷺ ــ توجه إلى تلك الناحية وتنشر بذلك الأخبار .

وانطلق أبو قتادة والذين معه فمر عليهم عامر بن الأضبط الأشجعى فسلم عليهم بتحية الإسلام فأمسك عنه القوم ، وحمل عليه محكم فقتله لشىء كان بينه وبينه وسلبه متاعه وبعيره ، ثم ساروا حتى بلغوا بطن إضم فلم يلقوا كيدا ، فقفلوا راجعين إلى المدينة ليلقوا رسول الله ــ ﷺ ــ .

وقال ﷺ لعائشة :

ــ جهزينا وأخفى أمرك .

فدخل أبو بكر على ابنته عائشة وهى تعد بعض جهاز رسول الله عليه السلام ، كانت تجعل قمحا سويقا ودقيقا فقال :

ــ أى بنية ، أمركن رسول الله ــ ﷺ ــ بتجهيزه ؟

ــ نعم فتجهز .

ــ فأين ترينه يريد ؟

ــ لا والله لا أدرى .

ودخل عليهما رسول الله ــ ﷺ ــ فقال أبو بكر :

ــ يا رسول الله أردت سفرا ؟

ـــ نعم .
ـــ أفأتجهز ؟
ـــ نعم .
ـــ فأين تريد يا رسول الله ؟
ـــ قريشا واخف ذلك يا أبا بكر .
ـــ يا رسول الله أو ليس بيننا وبينهم مدة ؟
ـــ إنهم قد غدروا ونقضوا العهد . واطو ما ذكرت لك .
ودخل عمر بن الخطاب فسمع أبا بكر يقول :
ـــ هم قومك .
وعلم عمر أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد عزم على السير إلى مكة فقال :
ـــ نعم هم رأس الكفر ، زعموا أنك ساحر وأنك كذاب . وايم الله لا تذل العرب حتى تذل أهل مكة .
وأمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ الناس بالجهاز وطوى عنهم الوجه الذى يريده . وأرسل إلى أهل البادية ومن حوله من المسلمين فى كل ناحية يقول لهم :
ـــ من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحضر رمضان بالمدينة .
فقدمت المدينة من قبائل العرب أسلم وغفار ومزينة وأشجع وجهينة ، حتى إذا ما اكتمل عقد المسلمين أعلم عليه السلام الناس أنه سائر إلى مكة ثم قال :
ـــ اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها فى بلادها . اللهم خذ على أسماعهم وأبصارهم فلا يرونا إلا بغتة ولا يسمعون بنا إلا فجأة .
ووقف بكل طريق جماعة ليعرف من يمر بها ، وقال لهم عليه السلام :

ـــ لا تدعوا أحدا يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه .

وكان فى المسلمين من يشفق على أهل مكة ، فأبو بكر الصديق قال له مشيرا بعدم السير إلى أم القرى : « هم قومك » . فلما أمر عليه السلام بالجد فى السير أطاع و لم يخطر له على قلب أن يحذر أهل مكة ، أما حاطب بن أبى بلتعة فقد رأى أن يبعث إلى سهيل بن عمرو وصفوان بن أمية وعكرمة بن أبى جهل يخبرهم فيه أن رسول الله ــ ﷺ ــ قد خرج قاصدا مكة فكتب : « إن رسول الله قد توجه إليكم بجيش كالليل ، يسير كالسيل . وأقسم بالله لو سار إليكم وحده لينصرنه الله تعالى عليكم فإنه منجز له ما وعده فيكم ، فإن الله تعالى ناصره ووليه ، وقد أحببت أن تكون لى يد بكتابى إليكم .

وراح يفكر فيمن يبعث معه بالكتاب فهداه فكره إلى سارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب كانت مغنية بمكة وكانت قدمت على رسول الله ــ ﷺ ــ المدينة وطلبت منه الميرة وشكت الحاجة ، فقال لها رسول الله ــ ﷺ : « ما كان فى غنائك ما يغنيك ؟ » فقالت : « إن قريشا منذ قتل منهم من قتل ببدر تركوا الغناء » . فوصلها ــ ﷺ .

واطمأن حاطب إلى سارة وجعل لها جعلا على أن تبلغ كتابه قريشا ، فجعلته فى رأسها ثم فتلت عليه قرونها خوفا أن يطلع عليه أحد . وقال لها :

ـــ أخفيه ما استطعت ولا تمرى على الطريق فإن عليه حرسا .

فسلكت سارة غير الطريق وهى فرحة بالدنانير العشرة التى أخذتها وبالبردة التى كساها إياها وبما ينتظرها من خير لما تضع الكتاب فى أيدى سادات قريش . وفيما هى منطلقة إلى مكة أتى رسول الله ــ ﷺ ــ الخبر من السماء بما صنع حاطب فبعث عليا والزبير وطلحة والمقداد وعمارا وأبا مرثد فقال :

ــ انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ (موضع بين مكة والمدينة) فإن بها ظعينة معها كتاب من حاطب بن أبى بلتعة إلى المشركين ، فخذوه منها وخلوا سبيلها ، فإن أبت فاضربوا عنقها .

فخرجوا حتى أدركوها فقالوا لها :

ــ أين الكتاب ؟

فحلفت بالله ما معها من كتاب . فاستنزلوها وفتشوها والتمسوا فى رحلها فلم يجدوا شيئا ، فقال لها على كرم الله وجهه :

ــ إنى أحلف بالله ما كذب رسول الله ــ ﷺ ــ قط ولا كذبنا ، ولتخرجن هذا الكتاب أو لنكشفنك أو أضرب عنقك .

فلما رأت الجد منه قالت :

ــ أعرض .

فاعرض فحلت قرون رأسها فاستخرجت الكتاب منه وهم ينظرون إليها فى ازدراء ، كانوا جميعا يمقتونها فقد كان ابن خطل يلقى عليها هجاء رسول الله ــ ﷺ ــ فتغنى به . ولولا أن رسول الله عليه السلام قال لهم خلوا سبيلها لسدد أحدهم إلى قلبها سهما .

وانقلبوا إلى رسول الله ــ ﷺ بالكتاب ، فدعا رسول الله ــ ﷺ ــ حاطبا وعمر بن الخطاب عنده ، فقال له :

ــ أتعرف هذا الكتاب ؟

ــ نعم .

فقال عمر فى حدة :

ــ يا رسول الله دعنى لأضرب عنقه فإن الرجل قد نافق .

وقال حاطب :

— والله إنى لمؤمن بالله ورسوله ما غيرت ولا بدلت .

فنظر إليه عمر فى شزر وقال :

— قاتلك الله ! ترى رسول الله يأخذ بالأنقاب وتكتب إلى قريش تحذرهم ؟

وقال حاطب :

— ما كفرت منذ أسلمت ، ولا غششت منذ نصحت ، وما أجبتهم منذ فارقتهم .

واشتد غيظ عمر فقال :

— دعنى لأضرب عنقه .

فقال رسول الله ﷺ — إلى عمر وهو ينظر إلى حاطب بن أبى بلتعة رسوله إلى المقوقس فى إشفاق :

— إنه قد شهد بدرا ، وما يدريك يا عمر لعل الله اطلع على أهل بدر فقال : « اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم » .

وقال حاطب :

— يا رسول الله كنت غريبا فى قريش وأمى بين أظهرهم وأردت أن يحفظونى فيها ، وما فعلت ذلك كفرا بعد إسلام وقد علمت أن الله تعالى منزل بهم بأسه لا يغنى عنهم كتابى شيئا .

فقال رسول الله — ﷺ — لمن كانوا عنده :

— إنه قد صدقكم ولا تقولوا له إلا خيرا .

وفاضت عينا عمر بالبكاء وأنزل الله تعالى : « يا أيها الذين أمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا فى سبيلى

وابتغاء مرضاتى تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل ، إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا إليكم أيديهم وألسنتهم بالسوءوودوالو تكفرون . لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير ﴾[١] .

واستخلف — ﷺ — على المدينة ابن أم مكتوم وخرج لثمان عشرة ليلة خلون من رمضان سنة ثمان من الهجرة ، وكان المهاجرون سبعمائة ومعهم ثلاثمائة فرس ، وكانت الأنصار أربعة آلاف ومعهم خمسمائة فرس ، وكانت مزينة ألفا وفيها مائة فرس ، وكانت أسلم أربعمائة معها ثلاثون فرسا ، وكانت جهينة ثمانمائة ومعها خمسون فرسا .

كان رسول الله — ﷺ — يعنى بتربية الخيل وقد أمر الله تعالى المسلمين بأن يعدوا لأعداء الله ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ليرهبوا عدوا الله وعدوهم ، فأنفق المسلمون مدخراتهم فى إعداد الخيل والسلاح . وها هم هؤلاء ينطلقون إلى مكة على ظهور الجياد لكأنهم فى حصون مشيدة .

ورجع قتادة والذين معه إلى المدينة فبلغهم أن رسول الله ﷺ — قد توجه إلى مكة ، فمالوا إليه حتى لقوه ، وقصوا عليه ما كان بينهم وبين عامر بن الأضبط الأشجعى وما كان من قتل محكم له بعد أن سلم عليهم بتحية الإسلام وقال رسول الله لمحكم :

— أقتلته بعد ما قال إنى مسلم ؟!

فقال محكم :

— يا رسول الله لو شققت عن قلبه أكنت أعلم ما فى قلبه ؟

— فلا أنت قبلت ما تكلم به ولا أنت تعلم ما فى قلبه .

— استغفر لى يا رسول الله .

ـــ لا غفر الله لك .

فقام يتلقى دمعه ببرده وأنزل الله تعالى فيه : « يأيها الذين آمنوا إذا ضربتم فى سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا »[1] .

---

(١) النساء ٩٤ .

٤

كان أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب أخاه ــ ﷺ ــ من الرضاعة ، وكان آلف الناس له عليه السلام قبل النبوة لا يفارقه ، وكان أبو سفيان شاعر بنى هاشم بعد أن مات الزبير بن عبد المطلب وأبو طالب . فلما بعث الله محمدا ــ ﷺ ــ رحمة للعباد نفس أبو سفيان بن الحارث على ابن عمه وناصبه العداء . وكان من أشد الناس أذية له ــ ﷺ .

وكان أبو سفيان بن الحارث يلقى سمعه إلى القرآن فيربو حسده فيسب رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ، وقد خرج من قريش فى كل حروبها لابن عمه . فآيات الذكر الحكيم كانت تخز روحه فهو فى قرارة نفسه يحس إعجاز القرآن وأن شعره لن يصل إليه ، فكان القضاء على محمد هو السبيل لإسكات ذلك السحر الذى تفشى فى القبائل وعلا صوته فى الأسواق على كل الأصوات .

كان رسول الله ــ ﷺ ــ خطرا على سلطان أبى سفيان بن حرب وعلى مملكة الشعر التى يريد أن يكون أبو سفيان بن الحارث فارس حلبتها وعلى نفوذ رجال الدين وأشراف قريش ، فتكتلوا جميعا لا عن اقتناع بل دفاعا عن مصالحهم المهددة بالبوار .

ومرت السنون وأبو سفيان بن الحارث يرى نفوذهم يتقلص على مر الأيام وشأن ابن عمه يعلو ، فكان إذا خلا بنفسه يحاسبها يجد أنه ليس على صواب وأن ابن عمه على الحق . فكانت نفسه تراوده على الانطلاق إلى حيث يعلن

إسلامه كما فعل كثير من قريش ، ولكن حسده كان يتحرك فيلجمه ويحيده عن الصراط .

وذات يوم استطاع أن يقهر حسده وأن ينتصر على نفسه المتمردة فأخذ بيد ابنه وانطلق ليلحق برسول الله ﷺ . وبينما هما فى الطريق لقيا عبد الله بن أمية بن المغيرة ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب ، أخا أم سلمة أم المؤمنين لأبيها ، فقال له أبو سفيان بن الحارث :

ـــ إلى أين ؟

ـــ إلى رسول الله أشهد شهادة الحق .

كان أكبر القائمين على رسول الله ـــ ﷺ ـــ ومن أشد الناس أذية له ، لقد قال له عبد الله بن أمية بن المغيرة بمكة : « والله لا آمنت بك حتى تتخذ سلما إلى السماء فتعرج فيها وأنا أنظر إليك فتأتى بصك وأربعة ملائكة يشهدون لك أن الله أرسلك » . كان من المستهزئين وكانت سخريته مريرة حتى إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ لم ينس قط إساءته حتى فى أروع لحظات الانتصار ، وكان هجاء أبى سفيان بن الحارث قاذعا بذيئا ولطالما ضاق به صدره عليه السلام .

ولقى أبو سفيان بن الحارث وابنه وعبد الله بن أمية بن المغيرة جيش المسلمين بالقرب من الأبواء فطلبوا مقابلة رسول الله ـــ ﷺ ـــ فلم يأذن لهم ، فقال أبو سفيان :

ـــ والله ليأذن لى أو لآخذن بيد ابنى هذا ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت جوعا وعطشا .

والتقى على بن أبى طالب بابن عمه أبى سفيان بن الحارث ، وذهب عبد الله إلى أخته أم سلمة أم المؤمنين يسألها أن تكلم رسول الله ـــ صلوات الله

وسلامه عليه — فيهما ، فلما دخل عليه السلام على أم سلمة قالت له :

— لا يكون ابن عمك وابن عمتك أشقى الناس بك .

— لا حاجة لى بهما . أما ابن عمى فهتك عرضى وأما ابن عمتى فهو الذى قال لى بمكة ما قال .

وقال على بن أبى طالب لابن عمه أبى سفيان بن الحارث :

— ائت رسول الله — ﷺ — من قبل وجهه فقل له ما قال إخوة يوسف ليوسف : « تالله لقد آثرك الله علينا وإن كنا لخاطئين »(١) فإنه — ﷺ — لا يرضى أن يكون أحد أحسن قولا منه .

فدخل أبو سفيان بن الحارث على ابن عمته فقال ما علمه على بن أبى طالب . فقال رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه :

— لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين .

وكان أبو سفيان بن الحارث شاعر قريش ، فأنشد يعتذر مما كان قد مضى من فعله : .

لعمرك إنى يوم أحمل راية	لتغلب خيل اللات خيل محمد
لكالمدلج الحيران أظلم ليله	فهذا أوانى حين أهدى وأهتدى
هدانى هاد غير نفسى ودلنى	على الحق من طردت كل مطرد

فضرب رسول الله — ﷺ — فى صدره وقال :

— أنت طردتنى كل مطرد .

واستمر أبو سفيان بن الحارث فى إنشاده :

---

(١) يوسف ٩٤ .

أصد وأنأى جاهدا عن محمـد ... وأدعى وإن لم أنتسب من محمد

هم ما هم من لم يقـل بهواهـم ... وإن كان ذا رأى يلم ويفنـد[١]

أريـد لأرضيهم ولست بلائـط ... مع القوم ما لم أمد فى كل مقعد

فقـل لثقيـف : لا أريـد قتـالها ... وقل لثقيف تلك : غيرى أوعدى

قبائل جـاءت مـن بـلاد بعيـدة ... نزائع جاءت من سهام وسردد[٢]

ودخل عبد الله بن أمية بن المغيرة على رسول الله عليه السلام وأعلن إسلامه ، وكان أبو سفيان بن الحارث لا يرفع رأسه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ حياء منه فقد عاداه نحو عشرين سنة يهجوه أقذع الهجاء و لم يتخلف أبدا عن قتاله ، بينا كان رسول الله عليه السلام يحبه ويقول :

ـ أرجو أن يكون خلفا من حمزة .

كانوا فى رمضان فصام عليه السلام وصام الناس ، ولحقه فى الطريق من القبائل بنو أسد ومن أسلم من سليم ، حتى إذا كانوا بالكديد أفطر فقد كان الحر شديدا ، وبلغه عليه السلام أن الناس شق عليهم الصيام فاستوى ـ ﷺ ـ على راحلته بعد العصر ودعا بإناء فيه ماء فشرب ثم ناوله لرجل بجنبه فشرب ، وأبى بعض الناس أن يفطروا فقيل له عليه السلام :

ـ إن بعض الناس صام .

ـ أولئك العصاة .

ثم التفت عليه السلام إلى الصحابة وقال .

---

(١) يفند : يبطل أو يخرف .

(٢) النزاع : الغرباء ، سهام وسردد : موضعان من أرض علك .

ــ إنكم قد دنوتم من عدوكم والفطر أقوى لكم .

وفى قديد عقد ــ ﷺ ــ الألوية والرايات ودفعها للقبائل ثم سار حتى نزل بمر الظهران ، وأعمى الله الأخبار عن قريش فلم يعلموا بوصوله إليهم . وأمر ــ ﷺ ــ أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار وجعل على الحرس عمر ابن الخطاب .

واندلعت ألسنة النيران فكادت تحيل الليل نهارا . وراح عمر بن الخطاب يفكر فيما كان منه فى صلح الحديبية : إنه يرى نفسه والعرق يتصبب منه وهو يثب إلى أبى بكر بعد الصلح ويرن فى أعماقه قوله : « أبا بكر ، أليس هو رسول الله ؟ » ويمس وجدانه قول أبى بكر مسا لكأنه البلسم : « بلى » . فيعود صوته يفح فى أعماقه : « أوليسوا بالمشركين ؟ » . فيسمع قول أبى بكر : « بلى » . فيدوى صوته فى عين ذاته يكاد يعصف به : « فعلام نعطى الدنية فى ديننا ؟! » .

واستشعر عمر بالدموع تطفر إلى مآقيه ، وعجب فى نفسه كيف بلغ به غضبه فى ذلك اليوم أن يرد على رسول الله ــ ﷺ ــ الكلام حتى إن أبا عبيدة بن الجراح يقول له :

« ألا تسمع يا بن الخطاب رسول الله ــ ﷺ ــ يقول ما يقول ؟ تَعَوذ بالله من الشيطان الرجيم » .

إنه تَعوذ بالله من الشيطان الرجيم يوم الحديبية وفى النفس شيء . أما وهو على حرس رسول الله ــ ﷺ ــ وعشرة آلاف نار تتأجج فى مر الظهران على بعد بضعة أميال من مكة فإنه تعوذ بالله من الشيطان الرجيم وهو نادم ندما صادقا على ما فات ، وقد كاد يخر ساجدا لما تذكر قول رسول الله عليه السلام له : « أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره ولن يضيعنى » .. ولكنه كان على

الحرس فقال فى نفسه وقد انتابته رقة أمدت عينيه بالدموع :
« صدقت يا رسول الله » .

وتذكر عمر ما قال لما جاء فى الصلح أن من جاء مسلما إلى محمد رده إلى قريش : إنه قال فى حدة : « يا رسول الله أترضى بهذا ؟ » فتبسم رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقال : « من جاءنا منهم فرددناه إليهم سيجعل الله له فرجا ومخرجا » . وقد كان . وأثبتت الأيام أنه عليه السلام كان على صواب ، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى .

وضايق عمر أنه لم يستطع أن يستشف ما تأتى به الأيام فى ذلك اليوم الشديد ، بينما استطاع مشركان من قريش هما مكرز وحويطب أن يريا ما ستأتى به الأحداث يوم أن جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو إلى المسلمين ، يرسف فى الحديد ورمى بنفسه بين أظهرهم ، فجعل المسلمون يرحبون به ويهنئونه ، فلما رأى سهيل ابنه قام إليه فأخذ غصنا من شجرة به شوك وضرب به وجه أبى جندل ضربا شديدا حتى رق عليه المسلمون وبكوا ، وأخذ بتلابيبه وقال : يا محمد هذا أول ما أقاضيك عليه أن ترده إلىّ ، لقد لجت القضية بينى وبينك قبل أن يأتيك هذا . قال : صدقت .

رأى مكرز وحويطب ما رأى عمر فقال حويطب لمكرز : ما رأيت قط قوما أشد حبا لمن دخل معهم من أصحاب محمد . أما إنى أقول لا نأخذ من محمد نصفا أبدا بعد هذا اليوم حتى يدخلها عنوة . فقال مكرز : وأنا أرى ذلك ، أما هو عمر بن الخطاب وزير رسول الله ﷺ ـــ فقد أعماه الغضب . لم ير ما رأى المشركان من فتح قريب . فقد وثب ومشى إلى جنب أبى جندل وأبوه سهيل بجنبه يدفعه وصار يقول لأبى جندل : اصبر يا أبا جندل فإنما هم المشركون . وإنما دم أحدهم كدم كلب ومعك السيف .

كان يحرض أبا جندل على قتل أبيه سهيل بن عمرو . ولو أطاعه أبو جندل لحرم المسلمون من أكبر نصر قبل الفتح ، فقد انضم أبو جندل والذين معه إلى أبى بصير وقطعوا طريق قوافل قريش حتى أرغموا سادات قريش على أن يأتوا إلى المدينة وهم صاغرون يلتمسون تعطيل ذلك الشرط الذى ضج منه المسلمون وقالوا دون علم : « سبحان الله ! كيف نرد للمشركين من جاء مسلما ؟! » .

وتقاصرت نفس عمر لما دوى فى ضميره ذلك الحديث الذى كان بينه وبين رسول الله — ﷺ — بعد صلح الحديبية :

— يا رسول الله ألم تقل إنك تدخل مكه آمنا ؟

— بلى . فقلت لكم من عامى هذا ؟

— لا .

— فإنكم تأتونه وتطوفون به .

وتمنى عمر لو أن صيام الدهر وقيامه وعتق ما يصل إليه من رقاب يكون كفارة عما بدر منه فى ذلك اليوم الشديد ، ولم يكن وحده الذى اهتز فقد تكلم بعض الصحابة حتى بعد أن نزلت سورة الفتح وقال :

— ما هذا بفتح ، لقد صدونا عن البيت وصُدَّ هدينا . فقال — ﷺ — لما بلغه الكلام :

— بل هو أعظم الفتح ، لقد رضى المشركون أن يدفعوكم بالبراح عن بلادهم ، وسألوكم القضية ويرغبوا إليكم فى الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا وأظفركم الله عليهم وردكم الله سالمين مأجورين ، فهو أعظم الفتوح .

أنسيتم يوم أحد إذ تصعدون ولا تلوون على أحد وأنا أدعوكم فى أخراكم ؟!

أنسيتم يوم الأحزاب إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم إذ زاغت

الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا ؟

ـــ صدق الله ورسوله فهو أعظم الفتوح ، والله يا نبى الله ما فكرنا فيما فكرت ولأنت أعلم بالله وبأمره منا .

وخنقت عمر عبراته وراح يسأل نفسه : « لماذا لم ينزل الله السكينة على قلبه كما أنزلها على قلب أبى بكر ؟ » ولكن أين إيمانه من إيمان أبى بكر ؟ لو وزن إيمان أبى بكر بإيمان أهل الأرض لرجحهم .

وهب عليه قول أبى بكر كالنسيم :

ـــ يأيها الرجل إنه رسول الله ــ ﷺ ، وليس يعصى ربه وهو ناصره . استمسك بغرزه حتى تموت فإنى أشهد أنه رسول الله .

وقال عمر وقد فاضت منه أنوار اليقين حتى كادت تملأ ما بين السماء والأرض :

ـــ وأنا أشهد أنه رسول الله .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٥

كان العباس بن عبد المطلب قد أسلم وأخفى إسلامه وبقى بمكة ليكون قلم مخابرات رسول الله ـــ ﷺ ـــ يوافيه بأنباء قريش . فلما كان يوم بدر أمر رسول الله عليه السلام ألا يقتل العباس إذا ما وقع أسيرا فى أيدى المسلمين ، لا لأنه عمه فما كان صلوات الله وسلامه عليه يفرق بين أهله وعامة الناس فى أمر الدين . بل ليحقن دم مسلم أخفى إسلامه ، ولكيلا يقتل مسلم مسلما وهو لا يدرى .

وأخذ عليه السلام من عمه الفداء لكيلا يكشف أمره تزكية لماله . وما أكثر ما أنفق أبو بكر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وأغنياء المسلمين من أموال فى سبيل الله ، وكانت خزاعة هى الرسل على الدوام بين رسول الله عليه السلام وبين عمه ، فقد كان هوى خزاعة مع نبى الإسلام مؤمنهم وكافرهم ، فلما كان صلح الحديبية لم يخفوا ميلهم ودخلوا فى حلف رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه .

وكاد العباس أن يفضح أمره لما جاء الحجاج بن علاط إلى مكة بعد فتح خيبر يستوفى أمواله . إنه وجد بثنية البيضاء رجالا من قريش يستمعون الأخبار ويسألون عن أمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقد بلغهم أنه قد سار إلى خيبر ، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز ريفا ومنعة ورجالا ، فهم يتحسسون الأخبار ويسألون الركبان ، فلما رأوه قالوا :

ـــ الحجاج بن علاط عنده والله الخبر . أخبرنا يا أبا محمد فإنه قد بلغنا أن

القاطع قد سار إلى خيبر وهى بلد يهود وريف الحجاز .

ـــ لقد بلغنى ذلك وعندى من الخبر ما يسركم ، هزم هزيمة لم تسمعوا بمثلها قط ، وقتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط ، وأسر محمد أسرا وقالوا لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن أصاب من رجالهم .

ـــ إن العباس لما سمع الخبر لم يستطع أن ينهض ، فلم تكن فجيعته فى ابن أخيه فحسب بل كانت فجيعته فى رسول الإسلام عليه السلام ، فيمن أخرجه من الظلمات إلى النور ، فلما علم أن الحجاج قد ترك ابن أخيه عروسا على صفية بنت حيى بن أخطب وقد افتتح خيبر أحس كأنما ردت إليه الروح ، فلبس حلة له وتخلق وأخذ عصاه ثم خرج حتى أتى الكعبة وطاف بها شكرا لله على نصرة دينه ، ثم قال لقريش فى اعتزاز المسلم :

ـــ لقد فتح محمد خيبر ، وترك عروسا على ابنة ملكهم ، وأحرز أموالهم وما فيها فأصبحت له ولأصحابه .

كلام لا يقوله إلا مسلم قوى الإيمان ، وإلا لو كان الدافع إليه رابطة الدم لقال مثله أبو سفيان بن الحارث ابن عم محمد ـــ ﷺ ـــ وهو رفيق صباه .

والتقى العباس بابن أخيه قبل ذلك فى عمرة القضاء وكانت بينهما مناجاة ، أفضى العباس إلى ابن أخيه بما كان وأنبأ عليه السلام عمه بما سيكون . وخرج رسول الله عليه السلام فى جيش من الأبرار لفتح مكة وكان عمه العباس هناك . إنه الفتح ولن يكون بعده هجرة ؛ فإن لم يخرج عمه إليه من مكة قبل أن يدخلها عليه السلام فلن تكون له هجرة ولن يكون له ثواب المهاجرين . فبعث إليه عليه السلام سرا أن يخرج مهاجرا ليكون له الثواب الذى يستحقه بعد كل ما أدى للإسلام من خدمات فى الخفاء ، فلم تعد هناك حاجة لخدماته وقد أصبح فتح مكة على الأبواب .

وخرج العباس فى غفلة من قريش بعياله مهاجرا فلقى رسول الله ـــ ﷺ ـــ بالجحفة ، فاستقبل عليه السلام عمه وقد غمره الفرح فقال :

ـــ هجرتك يا عم آخر هجرة .

ونال العباس الجزاء الأوفى ورجع معه عليه السلام إلى مكة ليكون له فضل الجهاد إلى فضل الإسلام والهجرة . وأرسل أهله وثقله إلى المدينة حتى إذا ما نزل المسلمون بمر الظهران وأوقدوا النيران رق قلب العباس لأهل مكة وقال :

ـــ واصباح قريش ! والله لئن دخل رسول الله ـــ ﷺ ـــ مكة عنوة قبل أن يأتوه فيستأنسوه إنه لهلاك قريش إلى آخر الدهر .

فجلس العباس على بغلة رسول الله ـــ ﷺ ـــ البيضاء فخرج عليها وألسنة النيران تتراقص وسار على ضوئها حتى جاء الأراك فقال :

ـــ لعلى أجد بعض الحطابة أو صاحب لبن أو ذا حاجة يأتى مكة يخبرهم بمكان رسول الله ـــ ﷺ ـــ ليخرجوا إليه فيستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة .

وكانت قريش قد علمت بمسيرة رسول الله ﷺ ولم يعلموا إلى أى جهة ، وكانوا يرتجفون فرقا بعد أن نقضوا العهد وأخفقت سفارة أبى سفيان فى مد المدة وتجديد العقد من أن يغزوهم ، فبعثوا أبا سفيان بن حرب يتحسس الأخبار وقالوا له :

ـــ إن لقيت محمدا فخذ لنا منه أمانا .

فخرج أبا سفيان وحكيم بن حزام يتحسسان الأخبار ، وبينا هما فى الطريق لقيا بديل بن ورقاء فاستصحباه وانطلقوا ينظرون هل يجدون خبرا أو يسمعون به .

كان بديل يرجو من كل قلبه أن يكون رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد سار

إلى مكة ، فقد خرج بديل مع وفد خزاعة إلى المدينة بعد أن أغارت بنو بكر على خزاعة وعاونتهم فى ذلك قريش وقد وعد عليه السلام عمرو بن سالم بالنصر وما أخلف — صلوات الله وسلامه عليه — وعدا قط . وكان أبو سفيان يتقدم فى هجعة الليل وقد اشتد وجيب قلبه وما يدرى علة ذلك الخوف ، فما بلغ قريش مسيره ولكن أبا سفيان كان يستشعر فى قرارة نفسه أن زعامته على قريش باتت فى يد القدر ، فلو أن محمدا سار إلى مكة لا نتهى كل شىء . وكان حكيم بن حزام شارد اللب حانقا على نفسه لا يدرى سببا لانقياده لأبى سفيان بعد أن فكر فى الإسلام طويلا فانشرح له صدره . إنه لو أنصف نفسه من نفسه لهرع إلى المدينة يعلن على الملأ إسلامه كما فعل كثير من سادات قريش .

ورأوا على البعد ألسنة النيران فأغذوا السير ، وصك آذانهم صهيل الخيل لكأنه الرعد فراعهم ما سمعوا وراحوا يقلبون وجوههم فى العسكر . فانتاب أبا سفيان قلق وأحس بديل أن رسول الله عليه السلام قد أقبل لغزو مكة وفاء لما وعد به عمرو بن سالم فغمره سرور وإن جاهد حتى يخفى عن صاحبيه ما اعتمل فى صدره من فرح ، وظل حكيم بن حزام يفر المكان فى دهشة . وقال أبو سفيان :

— ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا . هذه كنيران عرفة .

عشرة آلاف نار كانت تتأجج فى جوف الليل ، إن أبا سفيان لم ير مثل هذه النيران إلا فى موسم الحج فى عرفة ، إنه لا يدرى من القوم ولماذا تجمعوا ، وكان كل ما يحس به أنه يرتجف خوفا من الرأس إلى القدم . وقال حكيم بن حزام :

— هذه والله خزاعة حمشتها الحرب .

فقال أبو سفيان و لم يفق من دهشته :

ـــ خزاعة أذل وأقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

وارتفع صوت فى سكون الليل ينادى :

ـــ يا أبا حنظلة .

فالتفت أبو سفيان ناحية الصوت . إنه صوت العباس وقد عرفه فالعباس صديقه ونديمه ، فقال :

ـــ أبو الفضل ؟

ـــ نعم .

ـــ مالك فداك أبى وأمى !

ـــ والله هذا رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى الناس قد جاءكم بما لا قبل لكم به .

فقال أبو سفيان فى يأس :

واصباح قريش والله ! فما الحيلة فداك أبى وأمى ؟

ـــ والله لئن ظفر بك ليضربن عنقك ، فاركب فى عجز هذه البغلة حتى أتيك رسول الله ـــ ﷺ ـــ فأستأمنه لك .

فركب أبو سفيان خلف العباس ورجع صاحباه ، فجاء به كلما مرا بنار من نيران المسلمين قالوا :

ـــ من هذا ؟

وإذا رأوا بغلة رسول الله ﷺ ـــ والعباس عليها قالوا :

ـــ عم رسول الله ـــ ﷺ ـــ على بغلته .

حتى مرا على نيران عمر وكان على الحرس ، فقال :

ـــ من هذا ؟

وقام إلى العباس ، فلما رأى أبا سفيان على عجز الدابة قال :

ـــ أبو سفيان ! عدو الله ، الحمد لله الذى أمكن منك من غير عقد ولا

عهد .

ثم راح يشده نحو رسول الله — ﷺ ، فركضت البغلة فسبقته وراح عمر يعدو خلفها . وكان سباق بين العباس وعمر إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، العباس يريد أن يستأمن لصديقه ونديمه رسول الله عليه السلام ، وعمر يريد أن يأخذ منه الأمر بقتل عدو الله .

ودخل العباس على رسول الله — ﷺ — ودخل عمر فى أثره ، فقال وهو يلتقط أنفاسه :

— هذا أبو سفيان وقد أمكن الله منه من غير عقد ولا عهد ، فدعنى لأضرب عنقه .

فنظر العباس إلى عمر فى إنكار ، ثم التفت إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فقال :

— يا رسول الله إنى قد أجرته .

ثم جلس إلى رسول الله — ﷺ — فأخذ برأسه فقال فى نفسه : « والله لا يناجيه الليلة رجل دونى » . فعاد عمر يقول لرسول الله عليه السلام :

— دعنى لأضرب عنقه .

فقال العباس فى غضب :

— مهلا يا عمر ، فوالله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت مثل هذا ، ولكنك قد عرفت أنه من رجال بنى عبد مناف .

فقال عمر فى نبرات صادقة :

— مهلا يا عباس ، فوالله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلى من إسلام الخطاب لو أسلم . وما بى إلا أنى قد عرفت أن إسلامك كان أحب إلى رسول الله — ﷺ — من إسلام الخطاب لو أسلم .

فقال رسول الله — ﷺ :

— أذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فائتنى به .

وذهب العباس بأبى سفيان إلى رحله . فلم يعرف أبو سفيان النوم وراحت الأفكار تنثال على رأسه ، فتذكر فيما تذكر قول أمية بن أبى الصلت له : « لكأنى بك يا أبا سفيان إن خالفته قد ربطت كما يربط الجدى حتى يؤتى بك إليه فيحكم فيك بما يريد » . فاستشعر أبو سفيان أسى ، إنه نام فى خيام العباس يحس ضياعا لا يدرى أيصغى محمد إلى شفاعة عمه أم يستجيب لدعوة عمر فيضرب عنقه .

إنه يوم أن جاء الحجاج بن علاط يبشرهم بهزيمة محمد وبأسره وأن أهل خيبر قالوا : لا نقتله حتى نبعث به إلى مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن أصاب من رجالهم تهلل بالفرح ، وعزم على أن يقتل محمدا على الملأ ليشفى غليله وغليلهم ، وإنه لو كان فى مكان محمد ما عفا أبدا عن عدوه الذى ناصبه العداء منذ أول يوم زعم فيه أنه نبى مرسل . إنه ساق الجيوش وجمع الأحزاب ليستأصل شأفته ، ولو كان قد قدر له أن ينتصر فما كان ليتردد لحظة فى ضرب عنق الذى فرق بين الأب وبنيه والزوج وزوجته وجاهد ليستل منه زعامته .

وبات يقيس تصرف رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — بمقاييسه فرأى أنه هالك ، فحزن حتى الموت وتمنى بكل عواطفه لو أن الدنيا لا تشرق لها شمس ولا يطلع عليها نهار .

وراح بلال يرعى النجوم ويرصد الشمس حتى إذا ما بدأ مولد الفجر أذن بالصلاة فثار الناس ، ففزع أبو سفيان وقال للعباس :

— يا أبا الفضل ما للناس أمروا فى بشىء ؟

ـــ لا ولكنهم قاموا إلى الصلاة .

وأم رسول الله المسلمين ووقف أبو سفيان بباب الخيمة ينظر
يركعون إذا ركع ويسجدون إذا سجد ويهرعون إليه يلقون إليه الأسم
قضيت الصلاة وينفذون ما يأمرهم به مستبشرين . فلما عاد العباس ا
بعد الصلاة قال له أبو سفيان :

ـــ ما رأيت ملكا مثل هذا ، لا ملك كسرى ولا ملك قيصر ولا ا
الأصفر .

وظل أبو سفيان مشدوها برهة حتى قال له العباس :

ـــ كلمه فى قومك هل عنده من عفو عنهم .

فانطلق العباس بأبى سفيان حتى أدخله على رسول الله ﷺ
له ـــ ﷺ :

ـــ ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

ـــ بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك وأكرمك وأوصلك ! لقد ظنن
كان مع الله إله غيره لما أغنى عنى شيئا بعد .

ـــ ويحك يا أبا سفيان ، ألم يأن لك أن تعلم أنى رسول الله ؟

لو أقر له بالرسالة فقد ذهبت زعامته ودالت دولته وقد حارب ال
سبيلها فقال :

ـــ والله إن هذه فى النفس منها شيئا .

كان أبو سفيان يطمع فى أن يرجىء محمد عليه السلام اعترافه بنبوة
من حلمه وعفوه ، فمن يدرى فقد تأتى الرياح ذات يوم بما يشتهى و
بالإسلام والمسلمين فتظل له السيادة على قومه ولا يذهب شرفه فيه

ورأى العباس الشر فى عينى عمر فقال لصديقه ونديمه :

ــ ويحك أسلم واشهد أن لا إلٰه إلا الله وأن محمدا رسول الله قبل أن تضرب عنقك..

عنقه ؟! إنه عنده أهم من كل شرف ومن كل زعامة ، وإن ابن الخطاب ليتحرق شوقا إلى ضربه فقال :

ــ أشهد أن لا إلٰه إلا الله ، وأن محمدا رسول الله .

وكان صوته خافتا ينز أسى .

٦

ودبت الحياة فى العسكر ، وراح الناس يتأهبون للانطلاق إلى مكة وقد خفقت القلوب فى الصدور فعبير الأرض المقدسة يملأ النفوس ، وقد لاح الفتح للأعين فإن هى إلا بضعة أميال ثم يتحقق حلم السنين .

وطافت بالرءوس ذكريات ، والتف حول الرسول أصحابه يصغون إلى أوامره وهم يتذكرون كل ما قاله فى الليل . قال فيما قال : « إن بمكة أربعة نفر من قريش أربأ بهم عن الشرك وأرغب بهم فى الإسلام : عتاب بن أسيد ، وجبير بن مطعم ، وحكيم بن حزام ، وسهيل بن عمرو » . فشغلت العقول بمكارم هؤلاء الرجال وإن كانوا لهم أعداء .

وتجهز المسلمون للسير فانتاب أبا سفيان قلق شديد فلا قبل لقريش بهؤلاء الرجال ، فذهب إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقال :

ـــ يا رسول الله ادع الناس بالأمان ، أرأيت إن اعتزلت قريش فكفت أيديها آمنون هم ؟

ـــ نعم من كف يده وأغلق داره فهو آمن .

وكان العباس أعرف الناس بنديمه وصديقه فقال :

ـــ يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئا .

ـــ نعم : من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ، ومن ألقى سلاحه فهو آمن .

فقال أبو سفيان وهو شارد :

— ما تسع دارى وما يسع المسجد ؟

كان رسول الله — ﷺ — عقد لأبى رويحة الذى آخى عليه السلام بينه وبين بلال لواءً فأمره أن ينادى :

— من دخل تحت لواء أبى رويحة فهو آمن .

فاستشعر أبو سفيان راحة وقال :

— هذه واسعة .

وتأهبت القبائل للسير فقال — ﷺ — لعمه العباس :

— أجلسه بمضيق الوادى حتى تمر به جنود الله فيراها .

ووقف العباس وأبو سفيان بمضيق الوادى ، وأقبل خالد بن الوليد فى بنى سليم حتى إذا ما مرت بأبى سفيان وأصبحت عند محاذاته ارتفعت الأصوات مدوية :

— الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .

فقال :

— يا عباس من هؤلاء ؟

— هذا خالد بن الوليد .

— الغلام ؟

— نعم .

— ومن معه ؟

— بنو سُليم .

— ما لى ولبنى سليم ؟

ثم مر على أثره الزبير بن العوام فى خمسمائة من المهاجرين وفتيان العرب ، حتى إذا ما صاروا عند محاذاته انطلقت الأصوات من الحناجر :

ــ الله أكبر .. الله أكبر .. الله أكبر .

فقال أبو سفيان :

ــ من هؤلاء ؟

ــ الزبير .

ــ ابن أختك ؟

ــ نعم .

ثم مرت بنو غفار ثم أسلم ثم بنو كعب ثم مزينة ثم جهينة ثم كنانة ثم أشجع والتكبير يرتفع ليبلغ عنان السماء . ولما مرت أشجع قال أبو سفيان للعباس :

ــ هؤلاء كانوا أشد العرب على محمد .

ــ أدخل الله الإسلام قلوبهم فهذا فضل الله .

وأقبل رسول الله ــ ﷺ ــ فى كتيبته الخضراء فيها المهاجرون والأنصار لا يرى منهم إلا الحدق من الحديد ، فيها ألفا دارع وعمر بن الخطاب يقول :

ــ رويدا حتى يلحق أولكم آخركم .

فجعل أبو سفيان ينظر وهو مشدوه ثم قال :

ــ يا عباس من هؤلاء ؟

ــ هذا رسول الله ﷺ فى الأنصار .

ــ ما لأحد بهؤلاء قبل ولا طاقة .

وراح يقلب وجهه فى الكتيبة الخضراء وقد ثارت انفعالاته ، كان يرتجف فرقا على قريش وكان يمتلىء دهشة من عظم ذلك الجيش الذى كونه رسول الله ، فالتفت إلى العباس وقال :

ــ والله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيما .

ــ يا أبا سفيان إنها النبوة .

ـــ نعم إذن .

وكانت مع سعد بن عبادة راية رسول الله ، ولما مر بأبى سفيان وحاذاه قال :

ـــ يا أبا سفيان اليوم يوم الملحمة ، اليوم ستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا .

فلما مر بأبى سفيان رسول الله ـــ ﷺ ـــ وحاذاه ناداه أبو سفيان :

ـــ يا رسول الله أمرت بقتل قومك ؟ فإنه زعم سعد ومن معه حين مر بنا أنه قاتلنا فإنه قال : اليوم يوم الملحمة ، اليوم ستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشا ، أنشدك الله فى قومك فأنت أبر الناس وأرحمهم وأوصلهم .

فقال عثمان وعبد الرحمن بن عوف :

ـــ يا رسول الله فإنا لا نأمن من سعد أن يكون له فى قريش صولة .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ يا أبا سفيان كذب سعد : اليوم يوم المرحمة .. اليوم أعز الله فيه قريشا .

وأرسل رسول الله ـــ ﷺ ـــ على بن أبى طالب إلى سعد بن عبادة أن ينزع اللواء منه ويدفعه لابنه قيس ، فأبى سعد أن يسلم اللواء إلا بأمارة من رسول الله ـــ ﷺ ، فأرسل عليه السلام بعمامته فدفع اللواء لابنه قيس .

وساد السكون لحظة ، ثم قال العباس لأبى سفيان :

ـــ النجاء إلى قومك .

فامتطى أبو سفيان راحلته وانطلق يعدو حتى دخل مكة ، فراح يصرخ بأعلى صوته :

ـــ يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم بما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار

أبى سفيان فهو آمن .

ودقت القلوب فى شدة فى الصدور ، وتعلقت الأعين بسيد قريش الذى جاء يعدو يحذر قومه ويدعوهم للأمان ، ورن صوت أبى سفيان فى دور مكة وصلك أذنى زوجه هند بنت عتبة ، فثار غضبها ، فخرجت تشتد إلى حيث كان زوجها وقد كادت تنفجر حنقا ، إنها تعيش على أمل أن تثأر من محمد وصحبه لمقتل أبيها عتبة وعمها شيبة وأخيها الوليد . إنها كانت تؤجج نار الحقد فى صدر زوجها كلما خبت . أو تقبل أن ينتهى كفاح السنين بالتسليم ؟ إنها لن تقبل هذا الذل أبدا .

وبلغت مكان أبى سفيان وهى حانقة أعماها الغضب ، فأخذت بلحيته ونادت :

ـــ يا آل غالب اقتلوا الشيخ الأحمق .

ثم قالت لزوجها :

ـــ قبحت من طليعة قوم .

وهرع الناس إليها فقالت هند :

ـــ هلا قاتلتم ودفعتم عن أنفسكم وبلادكم ؟!

فقال لها أبو سفيان فى حدة :

ـــ اسكتى وادخلى بيتك .

ثم التفت إلى الناس وقال :

ـــ ويحكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم فإنه قد جاءكم ما لا قبل لكم به . من دخل دار أبى سفيان فهو آمن .

فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد ، وفزع أناس فقد بلغهم أن النبى ـــ ﷺ ـــ أمر بقتلهم وإن وجدوا متعلقين بأستار الكعبة . كانوا ستة نفر وأربع

نسوة منهم : عبد الله بن أبى سرح أخو عثمان بن عفان من الرضاعة وكان فارس بنى عامر وكان من كتاب الوحى ثم زعم أنه يكتب على هواه ثم ارتد عن الإسلام ، وعبد الله بن حنظل وقينتاه وكان يهجو رسول الله عليه السلام هجاء قاذعا وكانت قينتاه تغنيان ذلك الهجاء . وعكرمة بن أبى جهل وكان ألد الخصام ، والحويرث بن نفيل ومقيس بن حبابة ، وهبار بن الأسود ، وكان قد أفزع زينب بنت محمد عند هجرتها إلى المدينة وكانت حاملا فأصابها نزيف كان يعاودها لم ينقطع حتى ذلك اليوم ، وكعب بن زهير وكان لا يفتأ ينظم القصائد فى ذم محمد عليه السلام والمسلمين ، والحارث بن هشام وهو أخو أبى جهل وكان يتربص بالمسلمين الدوائر ليثأر لأخيه ، وزهير بن أمية ، وسارة مولاة لبعض بنى عبد المطلب حاملة كتاب حاطب بن أبى بلتعة إلى قريش ، إنها مولاة عمرو بن صفى بن هاشم بن عبد مناف ، وإنها أتت رسول الله ـــ ﷺ ـــ من مكة إلى المدينة ورسول الله ـــ ﷺ ـــ يتجهز لفتح مكة ، فقال لها رسول الله ـــ ﷺ .

ـــ أمسلمة جئت ؟

ـــ لا .

ـــ أمهاجرة جئت ؟

ـــ لا .

ـــ فما حاجتك ؟

ـــ كنت كثيرة العشيرة والأهل والموالى ، وقد ذهبت موالىّ واحتجت حاجة شديدة فقدمت عليكم لتعطونى وتكسونى وتحملونى .

ـــ فأين أنت من شباب مكة ؟

وكانت مغنية نائحة قالت :

ــ ما طلب مني شيء بعد وقعة بدر .

فحث رسول الله ــ ﷺ ــ بني عبد المطلب وبني المطلب فكسوها وحملوها وأعطوها نفقة ، فأتاها حاطب بن أبي بلتعة حليف بني أسد بن عبد العزى فكتب معها إلى أهل مكة كتابا ، ولم تحمد لرسول الله ــ ﷺ ــ عطفه وبره بل راحت تتغنى بهجاء النبي ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ حتى بعد أن أطلقت لما وجد الكتاب في قرونها ، وصفوان بن أمية وكان أكثر سادات قريش عداء لرسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ، فهو في كل وقت يبدى عداوته ويؤذى المسلمين بماله ويده ولسانه ، وزهير بن أبي سلمى ، وهند بنت عتبة ، ووحشي .

وجمع صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وسهيل بن عمرو أناسا بالخندمة وهو جبل بمكة ليقاتلوا لا دفاعا عن مكة ولا الحرم بل عن أعناقهم ، وراح حماس بن قيس بن خالد أخو بني بكر يعد سلاحه ويبرى نبله ويصلح من شأنه ، فقالت له امرأته مستهزئة :

ــ لماذا تعد ما أرى ؟

ــ لمحمد وأصحابه .

ــ والله ما أراه يقوم لمحمد وأصحابه شيء .

فقال في انفعال :

ــ لأخدمنك خادما من بعض من نأسره .

ــ والله لكأني بك وقد رجعت تطلب مخبأ أخبئك فيه لو رأيت خيل محمد .

وأمر رسول الله ــ ﷺ ــ خالد بن الوليد أن يدخل مع جملة من قبائل العرب من أسفل مكة ، وأن يغرز رايته عند أدنى البيوت وقال :

— لا تقتلوا إلا من قاتلكم .

وجعل — ﷺ — الزبير على إحدى المجنبتين وخالدا على الأخرى وأبا عبيدة على الرجالة ، وأعطى الزبير راية وأمره أن يغرزها بالحجون لا يبرح حتى يأتيه فى ذلك المحل . وتقدم خالد والزبير ، وغرز خالد رايته عند أدنى البيوت ، وغرز الزبير رايته بالحجون وانتظر حتى وافاه رسول لله — ﷺ — وبنى هناك مسجدا عرف فيما بعد بمسجد الراية .

ولما وقف رسول الله — ﷺ — على ذى طوى ، قال أبو قحافة لابنة له من أصغر ولده :

— أى بنية ، إظهرى بى على جبل أبى قبيس .

وكان قد كف بصره ، فأشرفت عليه فقال لها :

— أى بنية ماذا ترين ؟

— أرى سوادا مجتمعا .

— تلك الخيل .

— وأرى رجلا يسعى بين يدى ذلك السواد مقبلا ومدبرا .

— ذلك الوازع (الذى يأمر الخيل ويتقدم إليها) .

— قد والله انتشر السواد .

— قد والله إذا دفعت الخيل ، فأسرعى بى إلى بيتى .

فانحطت به ، وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته وفى عنق الجارية طوق من فضة ، فتلقاها رجل فاقتطعه من عنقها ، فانطلقت بأبيها لا تلوى على شىء ، وبقيت فى الدار ترصد مقدم أخيها أبى بكر الصديق :

كان رسول الله على راحلته معتجرا بشقة بُرد حمراء وإنه ليضع رأسه تواضعا لله تعالى حين رأى ما أكرمه الله به من الفتح ، وراح ضرار بن الخطاب

يرنو إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فى حب بعد أن قال عليه السلام لأبى سفيان :

ـ يا أبا سفيان اليوم يوم المرحمة ، اليوم أعز الله فيه قريش .

فهزت أريحية رسول الله ـ ﷺ ـ عدو الأمس ضرار بن الخطاب الذى فعل بالمسلمين الأفاعيل يوم أحد ، فقال :

يا نبى الهدى إليك لجا	حى قريش ولات حين لجاء
حين ضاقت عليهم سعة الأر	ض وعاداهم إلٰه السماء
والتقت حلقتا البطان على القو	م ونودوا بالصيلم الصلعاء[1]
إن سعدا يريد قاصمة الظهـ	ـر بأهل الحجون والبطحاء
خَزرجى لو يستطيع من الغيـ	ـظ رمانا بالنسر والعواء[2]
وغــر الصدر لا يهم بشىء	غير سفك الدما وهتك النساء
قد تلظى على البطاح وجاءت	عنه هند بالسوءة السوآء
إذ ينادى بذل حى قريش	وابن حرب بدا من الشهداء
فلئن أقحم اللواء ونادى	يا حماة اللواء أهل اللواء
ثم ثابت إليه من بهم الخز	رج والأوس أنجم الهيجاء
لتكونن بالبطاح قريش	فِقمة[3] القاع فى أكف الإماء
فانهينه فإنه أسد الأسـ	ـد لدى الغاب والِغُ فى الدماء
إنه مطرق يريد لنا الأمـ	ـر سَكوتا كالحيَّة الصماء

فأرسل رسول الله ـ ﷺ ـ إلى سعد بن عبادة فنزع اللواء من يده وجعله

---

(١) التقت حلقتا البطان مثل فى بلوغ الأمر . والبطان : حزام يجعل تحت بطن البعير . والصيلم : الداهية الشديد .

(٢) النسر والعواء : كوكبان .

(٣) الفقمة : ضرب من الكمأة وهى البيضاء الرخوة يشبه بها الرجل الذليل .

بيد قيس ابنه ، ورأى رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن اللواء لم يخرج عنه إذ صار إلى ابنه .

ووقف خالد بن الوليد والذين معه حيث غرز رايته وراح يدعو صفوان وسهيل بن عمرو وعكرمة بن أبى جهل ومن معهم من قريش إلى الإسلام ، فكان ردهم أن رموا المسلمين بالنبل . وكف خالد ما استطاع ولكن صفوان والذين معه شرعوا أسلحتهم للقتال ومشوا إلى المسلمين مشى الوعول ، فلم يجد خالد بدأ من أن يقاتل من قاتلوه فأعمل فيهم السيف فقتل منهم أناسا ، واستمر يدفعهم إلى أن وصل الجزورة إلى باب المسجد ، وصعدت طائفة منهم الجبل فتبعهم المسلمون . فرأى ـــ ﷺ ـــ وهو على العقبة بارقة السيوف فقال :

ـــ ما هذا وقد نهيت عن القتال ؟

فقيل له :

ـــ لعل خالدا قوتل وبدىء فى القتال فلم يكن له بد من أن يقاتل من قاتله ، وما كان يا رسول الله ليخالف أمرك .

وقتل خالد من المشركين أربعة وعشرين من قريش وأربعة من هذيل ، وبعث رسول الله ﷺ ـــ إلى خالد وقال له :

ـــ لم قاتلت وقد نهيت عن القتال ؟

ـــ هم يا رسول الله بدءونا بالقتال ورمونا بالنبل ووضعوا السلاح ، وقد كففت ما استطعت ودعوتهم إلى الإسلام فأبوا ، حتى إذا لم أجد بدأ من أن أقاتلهم فظفرنا بهم فهربوا من كل وجه .

وفر حماس بن قيس بن خالد أخو بكر يترقب من الخوف بعد أن شهد يوم الخندمة ورأى سيوف المسلمين تحصد الرجال ، واستمر يعدو مبهور الأنفاس

حتى دخل على امرأته وقال وهو يرتجف من الرعب :

ـــ أغلقى على بابى .

وتذكرت زوجه قوله :

إن يقبلوا اليوم فما علة   هذا سلاح كامل وآلة[1]
وذو غرارين[2] سريع السلَّة

فقالت فى هزء :

ـــ فأين الذى كنت تقول ؟ أين الخادم الذى وعدتنى ؟

فقال :

إنك لو شهدت يوم الخندمة   إذ فر صفوان وفر عكرمة
وأبو يزيد قائم كالموتمة   واستقبلتنا بالسيوف المسلمة
يقطعن كل ساعد وجمجمة   ضربا فلا تسمع إلا غمغمة
لهم نَهيتٌ[3] خلفنا وهمهمة   لا تنطقى فى اللوم أدنى كلمة

وهرب هبيرة بن أبى وهب زوج أم هانىء بنت أبى طالب أخت على لأبويه إلى نجران ، وقال معتذرا عن فراره :

لعمرك ما وليت ظهرى محمدا   وأصحابه جبنا ولا خيفة القتل
ولكننى قلبت أمرى فلم أجد   لسيفى غناء إن ضربت ولا نبلى
وقفت فلما خفت ضيعة موقفى   رجعت لعود كالهزبر إلى الشبل

---

(١) الآله : جمع أداة الحرب .
(٢) الغرار : حد الرمح .
(٣) النهيت : زئير الأسد .

٧

دخل ــ ﷺ ــ مكة وهو راكب على ناقته القصواء مردفا أسامة بن زيد بكرة يوم الجمعة ، وعليه عمامة سوداء قد أرخى طرفيها بين كتفيه بغير إحرام ، ولواؤه أبيض ورايته العقاب سوداء قد شهدت خيبر والفتح . ودخل عليه السلام من كداء واضعا رأسه على رحله تواضعا لله ثم قال :

ــ اللهم إن العيش عيش الآخرة .

وتقدم المهاجرون والأنصار : وكان شعار المهاجرين يا بنى عبد الرحمن ، وشعار الخزرج يا بنى عبد الله . وشعار الأوس يا بنى عبيد الله ، ولم يكن قتال فكان شعارهم الذى يعرف به بعضهم بعضا فى ظلمة الليل . حتىٰ إذا ما بلغ الحجون موضع ما غرز الزبير رايته عند شعب أبى طالب طافت برأسه عليه السلام ذكريات : رأى أيام الشدة ، أيام أن حصرت قريش فى الشعب بنى هاشم وبنى المطلب وتعاهدت قريش على أن لا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم ولا يزوجوهم ولا يتزوجوا منهم ، فاغرورقت عيناه بالدموع ، ووقف فحمد الله وأثنى عليه ونظر إلى موضع قبته والتفت إلى جابر وقال :

ــ هذا منزلنا يا جابر حيث تقاسم قريش علينا .

فذكر جابر حديث المقاطعة وكان سمعه منه ــ ﷺ ــ قبل ذلك بالمدينة ، ونزل عليه السلام فى قبة من أدم ضربت له هناك ومعه فيها أم سلمة وميمونة زوجتاه ــ ﷺ ، وما كاد يستقر حتى تذكر حديث أسامة بن زيد :

— يا رسول الله أين تنزل ؟ غدا تنزل فى دارك .

— وهل ترك لنا عقيل من دار ؟

ثم سار — ﷺ — وإلى جانبه أبو بكر رضى الله عنه يحادثه ويقرأ سورة الفتح حتى جاء البيت وطاف به سبعا على راحلته ، ومحمد بن مسلمة آخذ بزمامها ليستلم الحجر بمحجن فى يده ، وكان على الكعبة ثلاثمائة وستون صنما لكل حى من أحياء العرب صنم قد شدت أقدامها بالرصاص ، فجاء رسول الله — ﷺ — معه قضيب فجعل يهوى به إلى كل صنم منها فيخر لوجهه وهو يقول :

— جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

وبقى هبل فى جوف الكعبة وقد أرخى الليل سدوله ، فقال — ﷺ — لعلى كرم الله وجهه :

— اصعد على منكبى واهدم الصنم .

— يا رسول الله بل اصعد أنت فإنى أكرمك أن أعلوك .

— فاصعد أنت .

فجلس النبى — ﷺ — فصعد علىّ كرم الله وجهه على كاهله ثم نهض به ، فخيل لعلى حين نهض به أنه لو شاء لنال أفق السماء ، فصعد فوق ظهر الكعبة وتنحى رسول الله — ﷺ — وراح علىّ يعالج الصنم حتى تمكن من رفعه فألقاه على الأرض وأبو سفيان ينظر ورسول الله يقول :

— جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا .

فالتفت الزبير بن العوام إلى أبى سفيان وقال :

— قد كسر هبل ، أما إنك قد كنت فى يوم أحد فى غرور حين تزعم أنه قد أنعم .

فقال أبو سفيان :

ــ دعنى ولا توبخنى ، لو كان مع إله محمد إله آخر لكان الأمر غير ذلك .

وانطلق المسلمون يدفون إلى الكعبة دفيف النسور ويحنون إليها حنين الطير إلى بيضها لهم عجيج(١) منطلق من أفئدة عامرة بأنوار اليقين ، على الشفاه تسبيح وفى المآقى الدموع ، وعمر بن الخطاب مستبشر بالفتح يعكر صفاءه ذكريات يوم الحديبية ، يلوم نفسه على تلك الثورة العارمة التى ثارها لما وقع الصلح ، فما استطاع أن يرى أن ذلك الصلح هو النصر والفتح المبين .

وراح يقرأ سورة الفتح وقد سجدت كل مشاعره لله ، وراح يدعو الله أن يغفر له ما كان منه وينذر الصوم وفك الرقاب لعل ذلك يكون كفارة عما بدر منه فى ذلك اليوم الشديد .

وأرسل عليه الصلاة والسلام بلالاً إلى عثمان بن أبى طلحة يأتى بمفتاح الكعبة ، فجاء إلى عثمان فأخبره فقال :

ــ إنه عند أمى .

فرجع بلال إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فاخبره أن المفتاح عند أمه ، فبعث إليها رسولا فقالت :

ــ لا واللات والعزى لا أدفعه أبدا .

فقال عثمان :

ــ يا رسول الله أرسلنى أخلصه لك منها .

فأرسله فجاء إليها فطلبه منها فقالت :

---

(١) العجيج : الصراخ .

— لا واللات والعزى لا أوصله إليك أبدا :

— يا أمه ادفعيه إلىّ فإنه قد جاء أمر غير ما كنا عليه إن لم تفعلى قُتلت أنا وأخي ويأخذه منك غيرى .

فأدخلته حجرها وقالت :

— أى رجل يدخل يده ههنا ؟ أنشدك الله أن يكون ذهاب بائرة قومك على يديك .

كان رسول الله — ﷺ — قائما ينتظر حتى إنه ليتحدر منه كالجمان من العرق ، فلما رأى أبو بكر وعمر ذلك انطلقا إلى دارها ، فبينا عثمان بن أبى طلحة يحاور أمه إذ سمعت صوت أبى بكر وعمر فى الدار ، وعمر رافعا صوته وهو يقول :

— يا عثمان اخرج .

فقالت :

— يا بنى خذ المفتاح فأن تأخذه أحب إلىّ من أن تأخذه تيم وعدى .

فأخذه عثمان وخرج يمشى حتى إذا كان قريبا من وجه رسول الله — ﷺ ، فاستقبله عثمان ببشر واستقبله عليه السلام ببشر فأخذ منه المفتاح ، فلما أخذه قال :

— ادعوا إلىّ عمر .

فجاء فقال له — ﷺ — ومفتاح الكعبة فى يده :

— هذا الذى قلت لكم .

ودخل — ﷺ — هو وأسامة بن زيد وبلال وعثمان بن طلحة ، وكان خالد بن الوليد يذب الناس وهو واقف على باب الكعبة ، وأمر عليه السلام بلال بن رباح أن يؤذن فأذن وأبو سفيان بن حرب وعتاب بن أسيد والحارث

ابن هشام جلوس بفناء الكعبة ، فقال عتاب بن أسيد :

ـ أكرم الله أسيدا ألا يكون سمع هذا فيسمع ما يغيظه .

فقال الحارث :

ـ أما والله لو أعلم أنه محق لاتبعته .

فقال أبو سفيان :

ـ لا أقول شيئا ، لو تكلمت لأخبرت عنى هذه الحصى .

ورأى عليه السلام فى الكعبة صور الملائكة وصور إبراهيم وإسماعيل فى أيديهما الأزلام يستقسمان . وصور الأنبياء وصورة مريم فقال :

ـ قاتل الله قوما يصورون ما لا يخلقون .

وأمر عليه السلام عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان أن يقدما إلى البيت ليمحوا كل صورة فيه ، ومحيت الصور وبقيت صورة إبراهيم ، فقال عليه السلام لعمر :

ـ يا عمر ألم آمرك ألا تترك فيها صورة ؟ قاتلهم الله حيث جعلوه شيخا يستقسم بالأزلام . « ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين »[١] .

ودعا ـ ﷺ ـ بدلو ماء فأتاه به أسامة بن زيد فجعل ـ ﷺ ـ يمحوها ، ووجد حمامة من عيدان فكسرها بيده وطرحها ، وكبر فى نواحى البيت وصلى به ركعتين بين العمودين اليمانيين وبينه وبين الجدار ثلاثة أذرع .

وفتح باب الكعبة وكان أول من ولج ابن عمر فتتبع خطوات الرسول ، فلقى بلالا فسأله :

---

(١) آل عمران ٦٧ .

— هل صلى فيه رسول الله — ﷺ ؟

— نعم .

فذهب ابن عمر ليصلى حيث صلى رسول الله — ﷺ .

ووقف — صلوات الله وسلامه عليه — على باب الكعبة فقال :

— لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده . ألا كل مأثرة أو دم أو مال يدعى فهو تحت قدمى هاتين إلا سدانة البيت وسقاية الحاج ، ألا وقتيل الخطأ شبه العمد بالسوط والعصا ففيه الدية مغلظة مائة من الأبل ، أربعون منها فى بطونها أولادها .

— يا معشر قريش إن الله قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية وتعظمها بالآباء . الناس من آدم وآدم من تراب .

ثم تلا قوله تعالى : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم أن الله عليم خبير »[(١)] .

ووضع — ﷺ — يده على عضادتى الباب ثم قال :

— ماذا تقولون وماذا تظنون أنى فاعل فيكم ؟

— خيرا .

فقال أحدهم :

— نقول خيرا ونظن خيرا . أخ كريم وابن أخ كريم وقد قدرت .

— أقول كما قال أخى يوسف : لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين . اذهبوا فأنتم الطلقاء .

---

(١) الحجرات ١٣ .

وتهللوا بالسرور لكأنما نشروا من القبور ، ثم جاء — ﷺ — إلى مقام إبراهيم وكان لاصقا بالكعبة فصلى ركعتين ، ثم أخره حتى لا يعوق الطائفين ، ثم انصرف إلى زمزم فاطلع فيها وقال :

— لولا أن تغلب بنو عبد المطلب على وظيفتهم لنزعت منها دلوا .

كانت السقاية فى بنى عبد المطلب وكان عليها العباس ، فخشى عليه السلام أن ينزع منها دلوا فيقتدى الناس به ويغلبون بنى عبد المطلب على وظيفتهم ، وانتزع له العباس دلوا فشرب منه وتوضأ فابتدر المسلمون يصبون على وجوههم .

وجلس رسول الله — ﷺ — فى المسجد والناس حوله ، فقام إليه على ابن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده فقال :

— يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية .

فقال عليه السلام :

— أين عثمان بن أبى طلحة ؟

فدعى له فقال :

— هاك مفتاحك يا عثمان . اليوم يوم بر ووفاء .

ودفع إليه رسول الله — ﷺ — المفتاح وهو يقول :

— خذوها يا بنى أبى طلحة تالده خالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم .

ودفع السقاية إلى العباس بن عبد المطلب .

وأتى أبو بكر بأبيه يقوده ، فلما رآه رسول الله ﷺ — قال :

— هلا تركت الشيخ فى بيته حتى أكون أنا آتيه فيه ؟

قال أبو بكر :

— يا رسول الله هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت .

فأجلسه بين يديه ثم مسح صدرة ثم قال له :

ـــ أسلم .

فأسلم ، وهنأ رسول الله ـــ ﷺ ـــ أبا بكر بإسلام أبيه ، وعند ذلك قال أبو بكر للنبى ـــ ﷺ :

ـــ والذى بعثك بالحق لإسلام أبى طالب كان أقر لعينى من إسلامه ، وذلك لأن إسلام أبى طالب كان أقر لعينك .

ثم أتى رسول الله ـــ ﷺ ـــ الصفا فعلاه حيث ينظر إلى البيت ، فرفع يديه ، فجعل يذكر الله بما يشاء أن يذكره ويدعوه والأنصار تحته ، قال بعضهم لبعض :

ـــ أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته ورأفة بعشيرته .

فنزل الوحى عليه ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ بما ذكر القوم ، فلما قضى الوحى رفع رأسه وقال :

ـــ يا معشر الأنصار قلتم : أما الرجل فأدركته رغبة فى قريته ورأفة بعشيرته .

ـــ قلنا ذلك يا رسول الله .

ـــ فما أسمَّى إذا إن فعلت ذلك ؟ كيف أسمى وأوصف بأنى عبد الله ورسوله ؟ لا أفعل ذلك . إنى عبد الله ورسوله هاجرت إلى الله وإليكم فالمحيا محياكم والممات مماتكم .

فأقبلوا إليه يبكون ويقولون :

ـــ والله ما قلنا الذى قلنا إلا الضن بالله ورسوله .

٨

لجأ عبد الله بن أبى سرح إلى عثمان بن عفان أخيه فى الرضاعة فقال :

ــ يا أخى استأمن لى رسول الله ــ ﷺ ــ قبل أن يضرب عنقى .

فغيبه عثمان وأطرق عبد الله يذكر ما كان ، إنه كان قد أسلم وكان يكتب لرسول الله ــ ﷺ ــ الوحى ، وكان ــ ﷺ ــ إذا أملى عليه سميعا بصيرا كتب عليما حكيما ، وإذا أملى عليه عليما حكيما كتب غفورا رحيما .

إنه لما كتب « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاما فكسونا العظام لحما ثم أنشأناه خلقا آخر »(١) . تعجب من تفصيل خلق الإنسان فنطق بقوله فتبارك الله أحسن الخالقين قبل إملائه ، فقال ــ ﷺ :

ــ اكتب ذلك هكذا أنزلت .

فاستولى عليه الغرور ولعب به الشيطان فقال :

ــ إن كان محمد نبيا يوحى إليه فأنا نبى يوحى إلىّ .

فارتد ولحق بمكة فقال لقريش :

ــ إنى كنت أصرف محمدا كيف شئت ، كان يملى علىّ عزيز حكيم فأقول : أو عليم حكيم فيقول نعم ، كل صواب . وكل ما أقول يقول : اكتب هكذا نزلت .

---

(١) المؤمنون ١٢ ــ ١٤ .

إن رسول الله — ﷺ — أهدر دمه ولطالما افترى عليه ، وقال ليرضى قريشا إن محمدا لا يعلم ما يقول . إنه خان الأمانة وظهرت خيانته فلم يستطع أن يقيم فى المدينة و لم يكتف بالردة والهروب بل أطلق لسانه كذبا لينال الحظوة عند أناس باعوا آخرتهم بدنياهم ، إن ذنبه عظيم ولكنه يعلم أن عفو رسول الله — ﷺ — أعظم . فلما هدأ الناس واطمأنوا خرج عثمان بن عفان ذو النورين إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فاستأمن له وكان عليه السلام يستحى من عثمان ، فعاد عثمان إلى حيث كان عبد الله بن أبى سرح فأتى به إلى النبى — ﷺ — فأعرض عنه صلوات الله وسلامه عليه فصار عثمان يقول :

— يا رسول الله أمنته .

والنبى — ﷺ — يعرض عنه ، وعباد بن بشر عنده وكان نذر إن رأى عبد الله قتله وقد أخذ بقائم السيف ينتظر النبى يشير إليه أن يقتله . فلما لم يفعل قال عليه السلام :

— نعم .

فبسط يده فبايعه ، فلما خرج عثمان وعبد الله قال — ﷺ — لمن حوله :

— أعرضت عنه مرارا ليقوم عليه بعضكم فيضرب عنقه .

وقال لعباد بن بشر :

— انتظرت أن تفى بنذرك .

— يا رسول الله خفتك ، أفلا أومضت إلىّ ؟

— إنه ليس لنبى أن يومض .

وصار عبد الله بن أبى سرح يستحى من مقابلته — ﷺ — فقال عليه السلام لعثمان بن عفان :

— أما بايعته وأمنته ؟

— بلى ، ولكن يذكر جرمه القديم فيستحى منك .

— الإسلام يجب ما قبله .

وأخبره عثمان بذلك فصار إذا جاء جماعة للنبى — ﷺ — يجىء معهم ولا يجىء إليه منفردا .

وكان ابن خطل ينطلق مرعوبا إلى الكعبة ليلوذ بها . إنه علم أن رسول الله — ﷺ — قد أهدر دمه . إنه وهو على ظهر فرسه يذكر فى وضوح كل ما اقترفه من ذنوب ، فالموت أدنى إليه من شراك نعله . إنه كان قد أسلم وكان اسمه عبد العزى فسماه رسول الله — ﷺ — عبد الله ، وبعثه رسول الله — عليه صلوات الله وسلامه — لأخذ الصدقة وأرسل معه رجلا من الأنصار يخدمه ، فنزل منزلا وأمره أن يذبح له تيسا ويصنع له طعاما ، ونام ثم استيقظ فلم يجده صنع له شيئا وهو نائم فعدا عليه فقتله ثم ارتد مشركا ، وكان شاعرا يهجو رسول الله — ﷺ — فى شعره وكانت له قينتان تغنيانه بهجاء رسول الله — ﷺ — الذى يصنعه .

إنه ركب فرسه وقد لبس الحديد وأخذ بيده قناة وصار يقسم :

— لا يدخلها محمد عنوة .

فلما رأى خيل الله دخله الرعب فانطلق إلى الكعبة فنزل عن فرسه وألقى سلاحه ودخل تحت أستارها ، فأخذ رجل سلاحه وركب فرسه ولحق برسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — بالحجون فأخبره خبره ، فقال عليه السلام :

— اقتلوه فإن الكعبة لا تعيذ عاصيا ولا تمنع من إقامة حد واجب .

فاهتبره بأسيافهم سعد بن حريث وأبو برزة والزبير وسعد بن ذؤيب .

وأمر — ﷺ — بقتل قينتيه . فقتلت إحداهما واستؤمن من رسول الله — ﷺ — للأخرى فأمنها وأسلمت .

وخرج الحويرث بن نفيد هائما على وجهه لا يلوى على شيء . إنه كان يؤذى رسول الله — ﷺ — بمكة ويعظم القول فى أذيته وينشد الهجاء . وكان العباس عم النبى — ﷺ — حمل فاطمة وأم كلثوم بنتى رسول الله عليه السلام من مكة يريد بهما المدينة فنخس الحويرث البعير الحامل لهما فرمى بهما الأرض .

إنه فى فزع حتى الموت . فعلى بن أبى طالب فى أثره يطلبه بعد أن أهدر دمه رسول الله — صلوات الله عليه . واستمر الحويرث يعدو حتى أحس أن السماء والأرض أطبقتا عليه ، إنه يترقب فى رعب مبهور الأنفاس فعلى قد لحق به و لم يعد بينهما إلا خطوات ، وضربه على ضربة كانت وترا فتركه جثة بلا حراك .

وكان مقيس بن ضبابة فى جماعة من قريش يشرب خمرا دون أن يدرى أن رسول الله — ﷺ — أمر بقتله ، إنه كان قد أتى النبى — ﷺ — مسلما طالبا لدية أخيه هشام بن ضبابة قتله رجل من الأنصار فى غزوة ذى قرد خطأً يظنه من العدو . ودفع له النبى — ﷺ — دية أخيه ، ثم إنه عدا على الأنصارى قاتل أخيه فقتله بعد أخذ دية أخيه ، ثم لحقْ بمكة مرتدا .

وأخبر ابن عمه نميلة بن عبد الله الليثى أن مقيسا مع جماعة من كبار قريش يشربون الخمر ، فذهب إليه فقتله وهو قرير العين ، فلو أن غيره من المهاجرين أو الأنصار كان قد قتله فقد كان ذلك يوغر صدره على صحابى من أصحاب رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه .

وأطلق هبار بن الأسود ساقيه للريح . كان عرض لزينب بنت رسول

الله — ﷺ — فى سفهاء من قريش حين بعث بها زوجها أبو العاص إلى المدينة . فأهوى إليها هبار ونخس بعيرها وضربها بالرمح فسقطت من على الجمل على صخرة وكانت حاملا ، فألقت ما فى بطنها وأهراقت الدماء و لم تزل تعانى من ذلك المرض .

إن رسول الله — ﷺ — قال لجماعة فيهم أبو هريرة :

— إن لقيتم هبارا فأحرقوه .

ثم قال :

— إنما يعذب بالنار رب النار . إن ظفرتم به فاقطعوا يده ورجله ثم اقتلوه .

وخرجوا يطلبونه ولكنهم لم يجدوه فقد هرب من رسول الله — ﷺ — فى البلاد .

وفر عكرمة بن أبى جهل إلى اليمن لما أمر رسول الله — ﷺ — بقتله . إنه كان أشد الناس هو وأبوه أذية للنبى — ﷺ — فلما أسلمت امرأته بنت عمه أم حكيم بنت الحارث بن هشام خرجت فى أثره فوجدته فى ساحل البحر يريد أن يركب السفينة ، فقالت له :

— يا بن عم جئتك من عند أوصل الناس وأبر الناس وخير الناس . لا تهلك نفسك فقد استأمنت لك .

فجاء معها حتى إذا ما رآه رسول الله — ﷺ — وثب إليه قائما فرحا به ، فقد تذكر عليه السلام أنه رأى فى منامه أنه دخل الجنة ورأى فيها عذقا فأعجبه وقال : لمن هذا ؟ فقيل لأبى جهل ، فشق ذلك عليه — ﷺ — وقال : لا يدخلها إلا نفس مؤمنة . فلما جاءه عكرمة بن أبى جهل مسلما فرح به وأول ذلك العذق لعكرمة .

وتقدم عكرمة من رسول الله — ﷺ — على استحياء ، ثم التفت إلى زوجه وقال :

— يا محمد هذه أخبرتنى أنك أمنتنى .

— صدقت ، إنك آمن .

فقال عكرمة فى انفعال :

— أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأنك عبده ورسوله .

وطأطأ رأسه من الحياء ، فقال له — ﷺ — :

— يا عكرمة ما تسألنى شيئا أقدر عليه إلا أعطيتكه .

— استغفر لى كل عداوة عاديتكها .

— اللهم اغفر لعكرمة كل عداوة عادانيها أو منطق تكلم به .

ولما نزل رسول الله — ﷺ — بأعلى مكة فر إلى أم هانىء أخت على بن أبى طالب الحارث بن هشام وزهير بن أمية فاستجارا بها فأجارتهما ، فدخل عليها أخوها علىّ كرم الله وجهه وأراد قتلهما . قال :

— والله لأقتلنهما .

— قد أجرتهما .

— تجيرين المشركين !

وحالت بينه وبينهما فخرج فأغلقت عليهما بيتها فقد كانا من أقارب زوجها هبيرة بن أبى وهب ، ثم جاءت النبى — ﷺ — بأعلى مكة فوجدت الفاتح العظيم يغتسل من جفنة فيها أثر العجين وفاطمة ابنته تستره بثوب ، فسلمت عليه فقال :

— من هذه ؟

— أم هانىء .

وكانت أم هانىء لم تسلم بعد فقال :

ـــ مرحبا بأم هانىء .

فلما اغتسل أخذ ثوبه وتوشح به ثم صلى ثمان ركعات من الضحى ، ثم أقبل على أم هانىء فقال :

ـــ ما جاء بك ؟

ـــ فر إلى الحارث بن هشام وزهير بن أمية مستجيرين بى فأجرتهما .

فقال عليه السلام وهو بادى البشر :

ـــ أجرنا من أجرت وأمنا من أمنت فلا نقتلهما .

ولما ذكر ذلك لابن عباس قال :

ـــ إنى كنت أمر على هذه الآية : « يسبحن بالعشى والإشراق »[1] فأقول : صلاة ، صلاة الإشراق ، فما عرفت صلاة الإشراق إلا الساعة .

وأسلمت أم هانىء وانطلق عليه السلام إلى بيتها فقال لها :

ـــ هل عندك من طعام نأكله ؟

فقالت فى استحياء :

ـــ ليس عندى إلا كسر يابسة وأنا أستحى أن أقدمها إليك .

ـــ هلمى بهن .

فكسرهن فى ماء وجاءت بملح فقال :

ـــ هل من أدم ؟

ـــ ما عندى يا رسول الله إلا شىء من خل .

ـــ هلميه .

---

(١) ص ١٨ .

فصبه القائد المظفر والفاتح العظيم على الكسر وأكل منه ثم حمد الله ، ولا جرم فهو خير البشر ، أسوة الإنسانية الحسنة ، رسول رب العالمين .

وخرج رسول الله ﷺ ، إلى المسجد ، فجاءه عمير بن وهب فقال :

— يا نبى الله صفوان سيد قومى قد هرب ليقذف نفسه فى البحر فأمنه ، فإنك أمنت الأحمر والأسود .

— دونك ابن عمك فهو آمن .

— أعطنى آية يعرف بها أمانك .

فأعطى — ﷺ — لعمير عمامته التى دخل بها مكة ، فأنطلق عمير على ظهر راحلته يغذ السير إلى مرفأ مكة فلحقه وهو يريد أن يركب البحر ، فلما رآه صفوان بن أمية قال له :

— اغرب عنى ، لا تكلمنى .

— أى صفوان فداك أبى وأمى ، جئتك من عند أفضل الناس وأبر الناس وأحلم الناس وخير الناس وابن عمك ، عزه عزك وشرفه شرفك وملكه ملكك .

— إنى أخاف على نفسى .

— هو أحلم من ذلك وأكرم .

فرجع معه حتى وقف على رسول الله — ﷺ — وقال :

— إن هذا يزعم أنك أمنتنى .

— صدق .

— يا رسول الله أمهلنى بالخيار شهرين .

إن الله يقول : « لا إكراه فى الدين »[1] . وإن رسول الله — ﷺ —

---

(١) البقرة ٢٥٦ .

لأحق الناس باتباع أوامر ربه فقال :

ــ أنت بالخيار أربعة أشهر .

وكانت الصحابة أحرص شيء على قتل وحشى ، فإنهم ليذكرون قول رسول الله ــ ﷺ ــ يوم أحد لما وقف على جثة حمزة : ما وقفت موقفا أغيظ لى من هذا . فراحوا يقتفون أثر وحشى ولكنه تمكن من الفرار إلى الطائف .

وجلس رسول الله ــ ﷺ ــ على الصفا يبايع الناس . فجاء الكبار والصغار والرجال والنساء يبايعهم على الإسلام ، وذكريات أيام الإسلام الأولى تطوف بالأذهان . كان بيت الأرقم قائما على الصفا وكان الذين يرغبون فى الإسلام ينسلون إلى ذلك البيت ليقابلوا رسول الله ــ ﷺ ــ مستخفين من أعين الناس خشية بطش سادات قريش ، فأين الأمس من اليوم ؟ فمن بقى حيا من أشراف قريش أعلن إسلامه أو جاء يلتمس الأمان .

وتحركت الألسن بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ودخل الناس فى دين الله أفواجا . وجاء ــ ﷺ ــ رجل فأخذته الرعدة ، فقال له ــ ﷺ :

ــ هون عليك فإنى لست بملك . إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد .

وتقدم معاوية بن أبى سفيان ليبايع نبى الإسلام عليه السلام ، فقد وقع الإسلام فى قلبه لما كان عام الحديبية فذكر ذلك لأمه هند بنت عتبة ، فقالت له :

ــ إياك أن تخالف أباك فيقطع عنك القوت .

لم يكن أول من تفتح قلبه للإسلام فى بيت أبى سفيان ، فأم حبيبة قد سبقته

وأعلنت إسلامها وأكرمها الله فصارت أما للمؤمنين ، فأسلم وأخفى إسلامه فقال له يوما أبو سفيان وكأنه شعر بإسلامه : أخوك خير منك ، هو على ديني .

ولما كان يوم الفتح أظهر إسلامه ولقى رسول الله — ﷺ — فرحب به ، وجاء عبد الله بن الزبعرى وكان ممن يؤذى رسول الله — ﷺ — أشد الأذية ، فأسلم واعتذر إلى رسول الله — ﷺ — فقبل عذره ، وكان شاعرا مجيدا فقال يمدح رسول الله — ﷺ — :

منع الرقاد بلابل وهموم ... والليل معتلج الرّواق بهيم[١]
مما أتانى أن أحمد لامنى ... فيه فبِتُّ كأننى محموم
يا خير من حملت على أوصالها ... عيرانه سرح اليدين غشوم[٢]
إنى لمعتذر إليك من الذى ... أسديت إذ أنا فى الضلال أهيم
أيام تأمرى بأغوى خطة ... سهم وتأمرنى بها مخزوم
وأمد أسباب الردى ويقودنى ... أمر الغواة . وأمرهم مشئوم
فاليوم آمن بالنبى محمد ... قلبى ومخطىء هذه محروم
مضت العداوة وانقضت أسبابها ... ودعت أواصر[٣] بيننا وحلوم[٤]
فاغفر فِدىً لك والداى كلاهما ... وارحم فإنك راحم مرحوم
وعليك من سمة المليك علامة ... نور أغر وخاتم مختوم
أعطاك بعد محبة برهانه ... شرفا وبرهان الإله عظيم

(١) معتلج الرواق بهيم : شديد الظلام أسود .

(٢) العيرانة من الإبل : الشديدة النشيطة . سرح اليدين : سويتهما . غشوم : لا يثنيها عن مرادها شىء .

(٣) الأواصر : الصلات .

(٤) الحلوم : العقول .

٩

فرغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ من بيعة الرجال فراح يبايع النساء ، وفيهن هند بنت عتبة متنقبة متنكرة خوفا من رسول الله ـــ ﷺ . فلما دنين من رسول الله ـــ ﷺ ـــ قال لهن :

ـــ بايعننى على أن لا تشركن بالله شيئا ولا تسرقن .

فقالت هند بنت عتبة :

ـــ والله أن كنت أصيب من مال أبى سفيانِ الهنة[1] بعد الهنة وما كنت أدرى أكان ذلك حلالا أم لا .

فقال أبو سفيان وكان حاضرا :

ـــ أما ما أصبت فيما مضى فأنت منه فى حل ، عفا الله عنك .

فضحك النبى وعرفها فقال لها :

ـــ وإنك لهند بنت عتبة .

ـــ نعم فاعف عما سلف ، عفا الله عنك يا نبى الله .

ثم كشفت عن نقابها فقال عليه السلام :

ـــ مرحبا بك .

ثم راح عليه السلام يقول :

ـــ ولا تزنين .

---

(١) الهنة : الشىء اليسير .

فقالت هند :

ـــ أوتزنى الحرة يا رسول الله ؟!

ـــ ولا تقتلن أولادكن .

قالت هند :

ـــ ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا !

فضحك عمر وتبسم ـــ ﷺ ـــ ثم قال :

ـــ ولا تأتين ببهتان[1] تفترينه .

قالت هند :

ـــ والله إن إتيان البهتان لقبيح ، وما تأمرنا إلا بالرشد ومكارم الأخلاق .

ـــ ولا تعصيننى فى معروف .

فقالت هند :

ـــ والله ما جلسنا مجلسنا هذا وفى أنفسنا أن نعصيك فى معروف .

وقالت بعض النسوة :

ـــ ما هذا المعروف الذى لا ينبغى أن نعصيك فيه ؟

ـــ لا تنحن ولا تخمشن وجها ولا تنشدن شِعرا ولا تحلقن شَعرا ولا تحرقن قرنا ولا تشققن جيبا[2] ولا تدعين بالويل .

وفرغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ من بيعة النساء ولم يصافحهن بل غمس يده فى إناء وأمرهن فغمسن أيديهن ، فكانت هذه البيعة .

وراح ـــ ﷺ ـــ ينظر إلى مكة وهو متفرح فى الله ثم قال :

ـــ هذا ما وعدنى ربى .

---

(١) البهتان : الباطل .

(٢) الجيب : فتحة الصدر من القميص

ثم قرأ : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح * ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا * فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾[١] .

وعاد رسول الله — ﷺ — إلى قبته وجلس بين نسائه أم سلمة وميمونة ونساء من بنى عبد المطلب ، فإذا بمولاة لهند بنت عتبة تستأذن فأذن لها ، فدخلت عليه — ﷺ — بهدية هى جديان مشويان فقالت له :

— إن مولاتى تعتذر إليك وتقول إن غنمها اليوم لقليل الوالدة .

— اللهم بارك لكم فى غنمكم وأكثر والدتها .

وجاءت إليه هند بنت عتبة عدوة الأمس القريب منشرحة الصدر تستفتيه ، قالت :

— يا رسول الله إن أبا سفيان رجل ممسك . فهل علىّ من حرج أن أطعم من الذى له عيالنا ؟

— لا عليك أن تطعميهم بالمعروف .

وسار الحارث بن هشام فى مكة — بعد أن أجارته أم هانىء وأجاز رسول الله جوارها — يتلفت ، إنه يخشى بطش عمر بن الخطاب . وبلغ المسجد فجلس به وإذا به يرى عمر مقبلا فيخفق قلبه ويرتجف من الرأس إلى القدم . ولكن عمر يمر عليه وهو جالس فلا يتعرض له فيستشعر راحة . ثم ينهض ويسير بين المسلمين وهو آمن بأمان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — .

وطافت بذهنه مواقفه فى كل موطن مع المشركين فإذا بخجل يغمره . إنه آذى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — أشد الأذى وقد صفح عنه الصفح الكريم وأجاره لأن أم هانىء قد أجارته . إنه لعلى خلق عظيم . وأثرت

---

(١) سورة النصر .

فى نفس الحارث مكارم أخلاق نبى الإسلام عليه السلام فإذا به يبرأ من أمراض قلبه ، وإذا بأنوار تشرق فى وجدانه ، وإذا به ينطلق فى الحرم كالمسحور .

ولقيه وهو داخل المسجد ، فلقيه صلوات الله وسلامه عليه بالبشر ، فوقف عليه السلام حتى جاءه فسلم عليه فأحس الحارث روحه تهفو إلى الرسول — ﷺ — وقلبه يمتلئ بأنوار اليقين ، فينطق لسانه بشهادة الحق وفى الصدر انشراح وفى عينيه دموع ، فقال له عليه السلام :

— الحمد لله الذى هداك . ما كان مثلك يجهل الإسلام .

والتقى حسان بن ثابت بالحارث بن هشام فإذا بالذكريات تطوف برأسيهما . إن الحارث بن هشام قد فر يوم بدر عن أخيه أبى جهل فعيره حسان بفراره ، فاعتذر الحارث بن هشام عن ذلك بقوله :

الله يعلم ما تركت قتالهم حتى رموا مهرى بأشقر مزبد[1]
وعلمت أنى إن أقاتل واحدا أقتل ولا يضرر عدوى مشهدى
فصدفت عنهم والأحبة فيهم طمعا لهم بعقاب يوم مرصد

حسَّن الحارث الفرار يوم بدر وزعم أنه أعرض عنهم لطمعه فى أن يعقب الله له يوما يرصد الشر لهم ويمكنه منهم ، وما دار بخلده أن الله أبقاه ليخرج ذات يوم فى زمن عمر إلى الشام من مكة بأهله وماله مجاهدا ، وأن أهل مكة سيتبعونه يبكون فيرق ويبكى ويقول :

— أما لو كنا نستبدل دارا بدارنا أو جارا بجارنا ما رأينا بكم بدلا ، وإنها النقلة إلى الله .

---

(١) يريد بالأشقر الدم والمزبد الذى علاه الزبد

وما خطر له على قلب أنه سيموت شهيدا يوم اليرموك ليحيى عند ربه فى عليين .

وجاء النبى — ﷺ — عبد الله بن السائب بن أبى السائب ، وكان شريكا له فى الجاهلية ، فقال له :

— مرحبا بأخى وشريكى .

فأخذ عثمان وغيره يثنون عليه ، فقال لهم — صلوات الله وسلامه عليه — :

— لا تعلمونى به كان صاحبى ، كان لا يدارى ولا يمارى .

والتفت إليه — صلوات الله وسلامه عليه — وقال :

— قد كنت تعمل أعمالا فى الجاهلية لا تتقبل منك ، وهى اليوم تتقبل منك .

وكان سهيل بن عمرو قد اختبأ مع المختبئين فراسل وليده عبد الله ليأخذ أمانا منه — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله أبى تؤمنه .

— نعم ، فهو آمن بالله فليظهر .

ثم قال رسول الله — ﷺ — لمن حوله :

— من لقى سهيل بن عمرو فلا يحد إليه النظر . فلعمرى إن سهيلا له عقل وشرف وما مثل سهيل يجهل الإسلام .

فخرج ابنه عبد الله إليه فأخبره بمقالة رسول الله — ﷺ — فقال سهيل :

— كان والله برا صغيرا برا كبيرا .

فراح سهيل بن عمرو يقبل ويدبر دون أن يتعرض له أحد أن لم يدخل الإسلام ، فمقالته — ﷺ — الحميدة حببت فيه أعداء الأمس حتى الذين

لم يؤمنوا بدينه ، وشرحت بشاشته صدور الذين فى قلوبهم مرض للإسلام ، فقد حدث فضالة بن عمير بن الملوح نفسه بقتل النبى — ﷺ — وهو يطوف بالبيت ، فلما دنا منه رسول الله ﷺ — قال :

— يا فضالة .

— نعم يا رسول الله .

— ماذا كنت تحدث به نفسك ؟

— لا شيء . كنت أذكر الله .

فضحك النبى ثم استغفر له ، ثم وضع يده على صدره فسكن قلبه . فوالله ما رفع يده عن صدره حتى ما خلق الله شيئا أحب إليه منه .

وقد هم حويطب بن عبد العزى العامرى بالإسلام أكثر من مرة ، كل ذلك يعوقه الحكم وينهاه ويقول له :

— تضع شرفك وتدع دين آبائك لدين محدث وتصير تابعا ؟

وما بقى من قريش أحد من كبرائها الذين بقوا على دين قومهم كان أكره لما هو عليه منه ، فأقام بمكة وقريش تسلم رجلا رجلا . فلما كان يوم الحديبية حضر وشهد الصلح ومشى فيه حتى تم وكل ذلك يريد الإسلام ويأبى الله عز وجل إلا ما يريد .

فلما كتب الصلح كان أحد شهوده وقال :

— لا ترى قريش من محمد — ﷺ — إلا ما يسوؤها .

ودخل رسول الله — ﷺ — مكة ، فخاف حويطب على نفسه خوفا شديدا فخرج من بيته وفرق عياله فى مواضع يأمنون فيها ، ثم انتهى إلى بستان عوف وكان فيه فإذا به يجد أبا ذر الغفارى وجها لوجه وكانت بينه وبينه خلة ، والخلة أبداً نافعة . فلما رآه هرب منه فقال أبو ذر :

ــ أبا محمد .

ــ لبيك .

ــ ما لك ؟

ــ الخوف .

ــ لا خوف عليك . تعال أنت آمن بأمان الله جل وعز .

فرجع إليه وسلم عليه ، فقال أبو ذر :

ــ اذهب إلى منزلك .

ــ هل لى سبيل إلى منزلى ؟ والله ما أرانى أصل إلى بيتى حيا حتى ألقى فأقتل أو يدخل علىّ منزلى فأقتل وإن عيالى لفى مواضع شتى .

ــ فاجمع عيالك فى موضع وأنا أبلغ معك منزلك .

فبلغ معه وجعل ينادى على بابه :

ــ إن حويطب آمن فلا يهيج .

وانصرف أبو ذر إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فأخبره ، فقال عليه السلام :

ــ أوليس قد أمنا الناس كلهم إلا من أمرت بقتله ؟

فاطمأن حويطب ورد عياله إلى مواضعهم ، وعاد إليه أبو ذر فقال :

ــ يا أبا محمد ، حتى متى وإلى متى ؟ قد سبقت فى المواضع كلها وفاتك خير كثير ويبقى خير كثير . فأت رسول الله فأسلم تسلم . رسول الله أبر الناس وأحلم الناس وأوصل الناس ، شرفه شرفك وعزه عزك .

ــ فأنا أخرج معك فآتيه .

فخرج مع أبى ذر حتى أتى رسول الله ــ ﷺ ــ بالبطحاء وعنده أبو بكر وعمر ، فوقف على رأسه وسأل أبا ذر :

ــ كيف يقال إذا سُلّم عليه ؟

ـــ قل : السلام عليك أيها النبى ورحمة الله .

فقالها ، فقال عليه السلام :

ـــ وعليك السلام . أحويطب ؟

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله .

فقال رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ الحمد لله الذى هداك .

وسر رسول الله ـــ ﷺ ـــ بإسلامه .

ونامت مكة أول ليلة فى أحضان الإسلام ، فلما كان الغد من يوم الفتح عدت خزاعة على رجل من هذيل فقتلوه وهو مشرك ، فقام رسول الله ـــ ﷺ ـــ خطيبا بعد الظهر مسندا ظهره إلى الكعبة ، فحمد الله وأثنى عليه وقال :

ـــ أيها الناس إن الله تعالى قد حرّم مكة يوم خلق السماوات والأرض ويوم خلق الشمس والقمر ووضع هذين الجبلين ، فهى حرام إلى يوم القيامة ، فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر يسفك فيها دما ولا يعضد فيها شجرة . ولم تحل لأحد كان قبلى ولن تحل لأحد يكون بعدى . ولم تحل لى إلا هذه الساعة غضبا على أهلها . ألا قد رجعت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فمن قال لكم : إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا له : إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم .

يا معشر خزاعة ارفعوا أيديكم عن القتل فقد كثر القتل ، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين : إن شاءوا قدم قاتله ، وأن شاءوا فعقله .

ثم ودى رسول الله ـــ ﷺ ـــ ذلك الرجل الذى قتلته خزاعة وهو ابن الأقرع الهذلى من بنى بكر ، فإنه دخل مكة وهو على شركه فعرفته خزاعة

فأحاطوا به فطعنه منهم خراش بنصال فى بطنه حتى قتله ، فلامه — ﷺ — وقال :

— لو كنت قاتلا مسلما بكافر لقتلت خراشا .

ونادى منادى رسول الله — ﷺ — بمكة :

— من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يدع فى بيته صنما إلا كسره .

فقام الناس إلى الأصنام التى كانت فى الدور فراغوا عليها باليمين فتركوها جثاثا[1] . وعمدت هند بنت عتبة إلى صنم كان فى بيتها وجعلت تضربه بالقدوم وتقول :

— كنا منك فى غرور .

---

(١) جثاثا : الجث : القطع ، وتركوها جثاثا: تركوها محطمة .

١٠

كان ـــ ﷺ ـــ متكئا على حصيرة فى القبة التى ضربت له بالحجون بعد أن جاء نصر الله والفتح وتطهر أول بيت وضع للناس ليكون منارة التوحيد من أوثان الشرك وأصنام الضلال ، وتحررت مكة من الخوف والقلق والفراغ ، وغمرها نور إلٰهى ملأ صدور الناس انشراحا وأفئدتهم هدوءا وفتح أمام أعينهم آمالا ، فقد باتت سعادة الدارين حقيقة ملموسة ، ففى الأرض عزة وفى السماء خلود .

وكان ـــ ﷺ ـــ فى قمة انتصاراته ، فقد فتحت مكة أبوابها طوعا أو كرها لاستقباله ، وهرع إليه أعداء الأمس يعلنون شهادة الحق ، وصلوا خلفه لله وحده بعد أن حطموا آلهتهم بأيديهم . إن كفاح السنين قد توج بالنصر المبين ، فلم يغير ذلك النصر من طباع رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ بل زاده تواضعا لله رب العالمين .

إنه مع الله يعيش بالله وفى الله ، يرجو رحمة الله ويتقى الله ويتبع رضوان الله ويتوكل على الله ولا يتبع أهواء الناس ، حسبه الله يبتغى فيما آتاه الله الدار الآخرة ، فوقع أجره على الله ففتح له فتحا مبينا وغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر وأتم نعمته عليه وهداه صراطا مستقيما ونصره الله نصرا عزيزا .

وراح عليه السلام يستنشق عبير مكة والذكريات تجيش فى رأسه وقد امتلأ حنينا إلى أيام رسالته الأولى. إنه ليذكر خديجة أم المؤمنين حاضنة الإسلام من صدقته لما كذبه الناس وواسته لما عزت المواساة وكانت له وزير صدق على

الدوام فهوى فؤاده إليها . إنها ترقد خلفه فى المعلاة وإنه ليستشعر رغبة فى زيارة قبرها لتشاركه فرحة الانتصار كما شاركته آلام الاضطهاد وقسوة التعذيب . ليتها كانت فى هذه اللحظة الحاسمة إلى جواره تشرف على مكة وقد رقدت هانئة قريرة العين فى أحضان الإسلام .

وانتابته رقة ففرت من عينه دمعة ، فما فارقت ذهنه صورة خديجة سيدة نساء قريش فى أيام الشدة وفى أيام الرخاء ، فقد كان يحن إلى مواساتها إذا ما دهمته الأحداث ، ويتمنى أن تكون معه لتقاسمه أفراحه إذا ما جاء نصر الله . إنها فى ضميره على الدوام وإن غضبته لما أرادت عائشة أن تنفس عن غيرتها من طول ذكره لحاضنة الإسلام بالخير لهى سر قلبه الذى لم يخب حبه أبدا : « والله ما أبدلنى خيرا منها ، آمنت بى حين كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الولد دون غيرها من النساء » .

وخرج عليه السلام من القبة التى ضربت له بالحجون وسار إلى المعلاة حيث ترقد خديجة منذ ذلك اليوم الذى لا ينساه . إنه عاد إلى الدار بعد أن خلت ممن كانت له وزير صدق على الدوام وقد نال منه الكفار ونثروا على رأسه التراب فلم يجد من يشكو إليها ، فسح الدموع على الغالية التى كانت تمسح بحنانها الآلام ، كل الآلام .

وبلغ المعلاة ووقف على قبرها يقرئها السلام ، وإذا بأحداث الأيام الأولى تطوف بذهنه فيرى نفسه وهو يعدو مفزوعا من غار حراء بعد أن انصرف عنه جبريل الأمين حتى أتاها فجلس إلى فخذها ملتصقا ، وسرى فى وجدانه حديثه الذى حدثها به فإذا بصوتها الرقيق الذى كان البلسم وكان العزاء وكان التصديق والتأييد ينبعث لكأنما كان نبض الحياة : « أبشر يا بن عم واثبت ، فو الذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبى هذه الأمة » .

إنه يراها وهى تجمع عليها ثيابها ثم تنطلق إلى ورقة بن نوفل ، وإنه ليسمع روايتها عن ورقة : قدوس قدوس ! والذى نفس ورقة بيده لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذى كان يأتى موسى ، وإنه لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليثبت . ورأى نفسه وهو يطوف بالكعبة وقد لقيه ورقة بن نوفل ، وسمع من وراء السنين قول ورقة : والذى نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتكذبنَّه ولتؤذينَّه ولتخرجنَّه ولتقاتلنَّه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصرا يعلمه .

ومس ذاكرته قول جبريل : « أقرىء خديجة السلام من ربها » . فأطرق أمام القبر فى إجلال ، وزاد وجده لما تذكر جوابها : « الله السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام » ، وانثالت على رأسه الذكريات فرأى خديجة فى أيام الحصار فى شعب أبى طالب ، فلولاها لهلك الناس ، فحكيم بن حزام كان يبعث إلى المحصورين بقمح إكراما لعمته خديجة . إنها ظلت إلى جواره تخفى آلام الجوع حتى رفع الحصار وقد أوشكت على البوار دون أن تفلت من بين شفتيها كلمة تذمر أو استياء . أنفقت أموالها فى سبيل الله ورسوله عن طيب خاطر ، وهجرت الترف راضية النفس ، ولم تسأله يوما النفقة كما فعلت نساؤه من بعدها ، إنها وحدها الحبيبة وما استطاعت أخرى أن تزحزحها عن قلبه وإن طال عهد الفراق .

وتخايلت له قلادتها فثارت فى نفسه مشاعر رقيقة ، إنها أهدتها إلى ابنتهما زينب ليلة زفافها ، وقد بعثت بها زينب إلى المدينة عقب هزيمة المشركين فى بدر لتفدى بها زوجها الأسير . فما إن رأى القلادة حتى امتلأ فؤاده شجوا وشجنا وحنينا وقال وقد رق لها رقة شديدة : إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها

وتردوا عليها مالها فافعلوا .

إنها كانت تعد العاص بن الربيع بمنزلة ولدها فكان عليه السلام يكرمه إكراما لها ، وقد فرح بإسلامه وتمنى لو أن الطاهرة أم المؤمنين قد شهدت إسلام ابن أختها الحبيب . وإن نفسه لتتفتح لكل ما تفتحت له نفس خديجة ، وإنه ليحب كل من أحبت . وإنه ليذكر ذلك اليوم الذى أقبلت فيه أختها هالة إلى المدينة ، إنه سمع صوتها فى فناء داره وكان يشبه صوت خديجة فانتفض وقال فى وجد : « اللهم هالة ! » .

وهب نسيم الشتاء باردا على وجهه — صلوات الله وسلامه عليه ، فأفاق من الذكريات لحظات ثم دار على عقبيه وانطلق إلى مكة . وما لبث أن احتلت صورة المسلمة الأولى أقطار رأسه فإذا به يسير إلى مكان مولده بسوق الليل ، وراح يرنو إلى دار أبيه عبد الله فى حب وأسى ، فابن عمه عقيل بن أبى طالب أخذ بيت عبد الله لما هاجر عليه السلام إلى المدينة ، فلم يعد له دار فى أم القرى أحب أرض الله إليه .

ومد بصره إلى دار أبى طالب فتذكر يوم مات جده عبد المطلب ويوم اختصم فيه أعمامه ، ويوم انتقل وهو كسير الفؤاد من بيت جده إلى بيت عمه . وترقرقت فى عينيه دمعة لما طافت بذهنه فاطمة بنت أسد امرأة عمه وهى تحنو عليه تمسح برقتها آلام يتمه : إنه لا ينسى العطف السابغ الذى غمرته به وقد نزل معها فى قبرها وألبسها قميصه وقد أحس أنه فقد الأمومة الرءومة مرتين : مرة فى الأبواء لما ماتت أمه آمنة بنت وهب بين يديه ، ومرة أخرى لما فاضت روح فاطمة بنت أسد أم ربيبه على وحبيبه .

وسار إلى زقاق العطارين ووقف ساهما إلى دار خديجة أم المؤمنين ، إنه فى هذه الدار بنى بالطاهرة سيدة نساء قريش أم المؤمنين حاضنة الإسلام وأول من

تحركت شفتاها بشهادة الحق . إنه فى هذه الدار شهد مولد أولاده ، وقد ظل ساكنا فيها حتى هاجر إلى المدينة فأخذها عقيل بن أبى طالب .

شهدت هذه الدار آماله وآلامه وفجر شبابه ومبدأ رسالته ، هبط عليه فيها الوحى واختبأ عند الحجر الذى كان فى دهليزها من حجارة جيرانه أبى لهب وعقبة بن أبى معيط وأبى الحكم،إنهم كانوا لا يفتئون يلقون عليه الحجارة كلما رأوه يخرج من داره فكان يختبىء من قذائفهم ، حتى إذا ما انصرفوا خرج إلى الطريق فيتلقاه الصبيان بأناشيد الهجاء التى نظمها فى ذمه عمرو بن العاص ، إنه قاسى كثيرا وصبر كما صبر من قبل أولو العزم من الرسل ، وقد جنى ثمرة الصبر الحلوة فتحا مبينا ونصرا مؤزرا .

وعاد عليه السلام إلى الحرم فطاف به سبعا ثم راح يفكر ، إن أصحابه من أهل الضعف فى حاجة إلى مال وقد قال لأهل مكة : اذهبوا فأنتم الطلقاء . إنه أطلقهم من الأسر والاسترقاق و لم يغنم منهم شيئا . فرأى أن يقترض ما يحتاج إليه أهل الضعف من أصحابه فاستقرض — ﷺ — من ثلاثة نفر من قريش : أخذ من صفوان بن أمية خمسين ألف درهم فرّقها ، ومن عبد الله بن أبى ربيعة أربعين ألف درهم ، ومن حويطب بن عبد العزى أربعين ألف درهم فرّقها فى أصحابه أهل الضعف .

وجاء إليه ﷺ — سعد بن أبى وقاص وقد أخذ بيد ابن وليدة زمعة ، ومعه عبد بن زمعة ، فقال سعد :

— يا رسول الله هذا ابن أخى عتبة بن أبى وقاص عهد إلىّ أنه ابنه ، قال : إذا قدمت مكة انظر ابن وليدة ابن زمعة ولدته على فراشه .

فنظر — ﷺ — إلى ذلك الولد فإذا هو أشبه الناس بعتبة بن أبى وقاص ، فقال لعبد بن زمعة :

ـــ هو أخوك يا عبد بن زمعة من أجل أنه ولد على فراش أبيك زمعة ، الولد للفراش وللعاهر[١] الحجر .

وقال لزوجته سودة بنت زمعة ، لما رأى على .بن وليدة ابن زمعة من شبه عتبة :

ـــ احتجبى منه يا سودة فليس لك بأخ .

وسرقت امرأة فأراد ـــ ﷺ ـــ قطعها ، ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعون به ، فلما كلمه أسامة فيها تلون وجهه ـــ ﷺ ـــ وقال :

ـــ أتكلمنى فى حد من حدود الله ؟

فقال أسامة وهو يضطرب رهبة :

ـــ استغفر لى يا رسول الله .

ثم قام ـــ ﷺ ـــ خطيبا فأثنى على الله بما هو أهله ثم قال :

ـــ أما بعد ، فإن ما أهلك الناس قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

---

(١) للعاهر : عاهر المرأة أتاها ليلا للفجور .

١١

بعث رسول الله ـــ ﷺ ـــ فيما حول مكة السرايا يدعو لله عز وجل ، وكان ممن بعث خالد بن الوليد ، فخرج خالد ومعه من قبائل العرب سليم بن منصور ومدلج بن مرة ، فوطئوا بنى جذيمة بن عامر بن عبد مناة بن كنانة ، فلما رآه القوم أخذوا السلاح فقال خالد :

ـــ ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا .

فلما أمرهم خالد أن يضعوا السلاح قال رجل منهم يقال له جحدم :

ـــ ويلكم يا بنى جذيمة ! إنه خالد ، والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار ، وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق . والله لا أضع سلاحى أبدا .

فأخذه رجال من قومه فقالوا :

ـــ يا جحدم أتريد أن تسفك دماءنا ؟ إن الناس قد أسلموا ووضعوا السلاح ، ووضعت الحرب وأمن الناس . فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه ، ووضع القوم السلاح لقول خالد .

وتذكر خالد ما كان فى الجاهلية بين بنى جذيمة وقريش ، إن عمه الفاكه بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم قد خرج وعوف بن عوف بن عبد الحارث بن زهرة وعفان بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس تجارا إلى اليمن ، ومع عفان ابنه عثمان ومع عوف ابنه عبد الرحمن ، فلما أقبلوا حملوا مال رجل من بنى جذيمة بن عامر كان هلك باليمن إلى ورثته ، فادعاه رجل منهم يقال له خالد بن هشام ولقيهم بأرض بنى جذيمة قبل أن يصلوا إلى أهل الميت فأبوا

عليه ، فقاتلهم بمن معه من قومه على المال ليأخذوه وقاتلوه فقتل عوف بن عبد عوف والفاكه بن المغيرة ، ونجا عفان بن أبى العاص وابنه عثمان ، وأصابوا مال الفاكه بن المغيرة ومال عوف بن عبد عوف فانطلقوا به .

وتذكر خالد أن عبد الرحمن بن عوف قتل خالد بن هشام قاتل أبيه ، وأن قريش قد همت بغزو بنى جذيمة فقالت بنو جذيمة :

ـــ ما كان مصاب أصحابكم عن بلادنا ، إنما عدا عليهم قوم بجهالة فأصابوهم و لم نعلم ، فنحن نعقل لكم ما كان لكم قبلنا من دم أو مال .

فقبلت قريش ذلك ووضعوا الحرب .

ووجد خالد أن عمه الفاكه بن المغيرة لم يثأر له وأن بنى جذيمة كلها قد أصبحت فى قبضة يده ، فراودته فكرة الانتقام . إنهم لم يعلنوا إسلامهم ، وبينما كانت الفكرة تداعب رأسه جاءه عبد الله بن حذافة السهمى وقال :

ـــ إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم من الإسلام .

فأمر بهم خالد أن يكتفوا ثم عرضهم على السيف ، فقام إليه عبد الله بن عمر ينكر عليه فعله ، فعبد الله يعلم أن لا إكراه فى الدين ، فأعرض عنه خالد ، فقام إليه سالم مولى أبى حذيفة ينهاه ويراجعه ، ولكن خالدا أمر بضرب الرقاب ، فقتل منهم وانفلت رجل من القوم ليأتى رسول الله ـــ ﷺ ـــ .

وقال جحدم لقومه حين وضعوا السلاح ورأى ما يصنع خالد ببنى جذيمة :

ـــ يا بنى جذيمة ضاع الضَّرب . قد كنت حذرتكم ما وقعتم فيه .

وكان ابن أبى حدود السلمى يومئذ فى خيل خالد بن الوليد . فقال له فتى

من بنى جذيمة وهو فى سنه وقدجُمع يداه إلى عنقه برمّة (حبل بال) ونسوة مجتمعات غير بعيد منه :

— يا فتى .

— ما تشاء ؟

— هل أنت آخذ بهذه الرمة فقائدى إلى هؤلاء النسوة حتى أفضى إليهن حاجة ، ثم تردنى بعد فتصنع بى ما بدا لكم ؟

— والله يسير ما طلبت .

فأخذه برمته فقاده بها حتى وقف عليهن . فقال لفتاة[1] فى وجد :

— أسلمى حبيش على نفد من العيش .

وراح ينشد شعرا يبثها فيه لواعج نفسه ، ثم انصرف به ابن أبى حدرد فضربت عنقه ، فقامت إليه حين ضربت عنقه فأكبت عليه فما زالت تقبله حتى ماتت عنده .

وكان رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — نائما فرأى كأنه لقم لقمة حيس[2] فالتذ طعمها ، فاعترض فى حلقه منها شىء حين ابتلعها ، فأدخل على يده فنزعه ، فلما استيقظ قص رؤياه على أصحابه فقال أبو بكر الصديق :

يا رسول الله هذه سرية من سراياك تبعثها فيأتيك منها بعض ما تحب . ويكون فى بعضها اعتراض فتبعث عليا فيسهله .

---

(١) قصة عبد الله بن علقمة وذكر خبره مع حبيشة ذكرها الأصفهانى فى الجزء ٧ : ٢٨٠ (طبعة دار الكتب المصرية) .

(٢) الحيس : أن يخلط السمن والتمر والأقط : شىء يعقد مع اللبن ويجفف .

وجاء الرجل الذى انفلت من القوم إلى رسول الله — ﷺ — فأخبره ما فعل خالد ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— هل أنكر عليه أحد ؟

— نعم قد أنكر عليه رجل أبيض ربعة فزجره خالد فسكت عنه ، وأنكر عليه رجل أخر طويل مضطرب فراجعه فاشتدت مراجعتهما .

فقال عمر بن الخطاب :

— أما الأول يا رسول الله فابنى عبد الله ، وأما الآخر فسالم مولى أبى حذيفة :

ثم دعا رسول الله — ﷺ — على بن أبى طالب كرم الله وجهه فقال :

— يا على أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم ، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك .

فخرج على حتى جاءهم ومعه مال قد بعث به رسول الله — ﷺ — فودى لهم الدماء وما أصيب لهم من الأموال حتى إنه ليدى لهم ميلغة[1] الكلب ، حتى إذا لم يبق شيء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقيه من المال ، فقال لهم على كرم الله وجهه حين فرغ منهم :

— هل بقى لكم بقية من دم أو مال لم يؤد لكم ؟

— لا .

— فإنى أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطا لرسول الله — ﷺ — مما لا يعلم ولا تعلمون .

---

(١) الميلغة : شيء يحفر من الخشب ويجعل ليلغ فيه الكلب .

ففعل ثم رجع إلى رسول الله — ﷺ — فأخبره الخبر ، فقال :

— أصبت وأحسنت .

ثم قام رسول الله — ﷺ — فاستقبل القبلة قائما شاهرا يديه ، حتى ليُرى ما تحت منكبيه يقول :

— اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد .

وأقبل عبد الله بن عمر على أبيه يقص عليه ما كان من أمر خالد ، فساء ابن الخطاب ما كان من ابن الوليد وبذرت فى قلب عمر بن الخطاب بذرة كراهية ما يفعل خالد من أمر الجاهلية ، وستنمو هذه البذرة على مر الأيام حتى يعزل عمر خالد بن الوليد وهو فى قمة مجده .

وكان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام فى ذلك ، فقال له عبد الرحمن بن عوف :

— عملت بأمر الجاهية فى الإسلام .

فقال له خالد :

— إنما ثأرت بأبيك .

فقال عبد الرحمن .

— كذبت ، قد قتلت قاتل أبى ولكنك ثأرت بعمك الفاكه بن المغيرة .

واشتد الجدال بينهما ، وانضم عمر بن الخطاب إلى عبد الرحمن بن عوف فبلغ رسول الله — ﷺ — فقال :

— مهلا يا خالد دع عنك أصحابى ، فوالله لو كان لك أحد ذهبا ثم أنفقته فى سبيل الله ما أدركت غدوة رجل من أصحابى ولا روحته .

وحسب عمر أن رسول الله — ﷺ — لن يستعمل خالدا بعدما عمل بأمر الجاهلية فى الإسلام ، ولكن رسول الله — عليه السلام كان يعلم أن

خالدا قريب عهد بالجاهلية ولكنه سيف من سيوف الله المسلولة ، فبعثه إلى العزى وكانت بنخلة ، وكانت إلهة ترمز إلى كوكب الصباح وكان لها بيت يعظمه هذا الحى من قريش وكنانة ومضر كلها ، وكانت سدنتها وحجابها بنى شيبان من بنى سليم حلفاء بنى هاشم ، فلما سمع صاحبها السلمى بمسير خالد إليها علق عليها السيف وارتفع فى الجبل الذى هى فيه وهو يقول :

أيا عـــز شدى لا شوىَّ[1] لها على خالد ألقى القنـــاع وشمرى
ياعـز إن لم تقتلى المرء خالـــدا فبوئى بـإثم عاجـل أو تـنصَّرى

فانقض عليها خالد والذين معه فهدموها وخالد يقول :

يـا عـز كفـرانك لا سبحـــانك إنى رأيت الله قـــد أهـــانك

فانقضت بذلك عبادة إيزيس المصرية من بلاد العرب وإن بقيت بصورة أو بأخرى فى روما المسيحية ، كما انقضت من قبل عبادة أبوللو إله الشعر لما تحطم هبل . وتطهرت الكعبة من آلهة المصريين والسوريين واليونان والرومان التى جلبها التجار العرب من تلك البلاد لما طال على الناس الأمد وقست قلوبهم .

---

(١) لا شوى لها : لا تبقى على شىء .

١٢

كان سواع على صورة امرأة . إنه تمثال جلب من أرض ما بين النهرين وكان قوم نوح يعبدونه فعبدته هذيل وحجت إليه وجعلت له خزانة توضع فيها كل ما يهدى إلى آلهة القوم . وكانت هذيل ككل العرب يؤمنون بالله ولكنهم كانوا يعتقدون أن آلهة الأرض تقربهم إلى إله السماء زلفى ، وكانت الأصنام والأوثان ترمز إلى الكواكب والنجوم فكان العرب يقولون إنها بنات الله !

جاء نوح ليدعو إلى عبادة الله وحده ، ثم طال على الناس الأمد وقست قلوبهم وعادوا إلى اتخاذ الأصنام آلهة تشفع لهم عند الله ، فأطلقوا على تمثال امرأة اسم سواع بن نوح كأنما يأبى البشر إلا أن يحيل أئمة التوحيد إلى رموز الشرك والفسوق .

ولما تم لرسول الله ـــ ﷺ ـــ فتح مكة أرسل عليه السلام عمرو بن العاص فى جماعة من أصحابه إلى سواع ليكسره ويهدم محله ، فانتهى إلى ذلك الصنم وعنده سادنه ، فلما رأى عمرو بن العاص والذين معه أوجس منهم خيفة ، وقال لعمرو :

ـــ ما تريد ؟

فقال عمرو :

ـــ أمرنى رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن أهدمه .

فراح السادن يتلفت فى رعب . أين عباد سواع الذين كانوا يهرعون إليه خاشعين ؟! أين الذين كانوا يأتون إليها مهطعين ملبين ؟! أين الذين كانوا

يسألونها خاشعين ؟ أين هذيل وأين صناديدها ؟

واستيأس السادن من القوم ، إنهم تخلوا عن آلهتهم فهل يتخلى عنها أبوها الذى فى السموات ، فراح يرنو إلى الصنم فى رجاء ثم يرفع بصره إلى السماء .
وأحس عمرو بن العاص يتقدم إلى الصنم وفى يده المعول فقال السادن وهو مرعوب : ما تريد ؟

ــ أن أهدمه .

ــ لا تقدر .

ــ لمَ ؟

ــ تُمنع .

فرماه عمرو بنظرة ازدراء وقال :

ــ حتى الآن أنت على الباطل ؟ وهل يسمع أو يبصر ؟!

فدنا عمرو منه فكسره وأمر أصحابه فهدموا بيت خزانته فلم يجدوا شيئا ، فنظر عمرو إلى السادن نظرة اتهام فأطرق الرجل حياء ، ثم رفع رأسه ودار حوار بينه وبين عمرو ، عمرو يشرح مبادىء الإسلام وصدر الرجل ينشرح للإسلام ، حتى إذا ما رأى عمرو أنوار اليقين تتلألأ فى وجه الرجل قال له :

ــ كيف رأيت ؟

قال السادن فى إيمان :

ــ أسلمت لله .

وأرسل رسول الله ــ ﷺ ــ سعد بن زيد الأشهلى فى عشرين فارسا إلى صنم مناة ليهدم محله ، فلما وصلوا إلى الصنم قال السادن لسعد :

ــ ما تريد ؟

فقال سعد بن زيد فى ثبات :

ـــ هدم مناة .

وأحس السادن كأن الأرض قد زلزلت تحت قدميه ، أيقف مكتوف اليدين وهو يرى هدم رمز الآلهة ؟ إن سادات الأوس والخزرج كانوا يحجون إلى هذا الحرم وكانوا يذبحون عنده وكانوا يمضون أياما فى عبادة وخشوع وابتهال لمناة بعد عودتهم من الحج . وما كانت مراسم الحج تتم إلا بالطواف حول الصنم .

إنه ليذكر أول يوم سمع فيه ذكر مناة بسوء فى قرآن محمد ، جاء أحد الذين اعتنقوا الإسلام ورتل أمامه : « أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى . تلك إذاً قِسمة ضيزى . إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى »(١). فانتفض غضبا وضاق بتلك السخرية اللاذعة ببنات الله ، وانتظر أن تهوى قارعة من السماء تصيب الصابىء الذى سفه أحلام الآباء وسب الآلهة . ولكن الأيام راحت تمر وذلك الصابىء ينتقل من نصر إلى نصر حتى أرسل أتباعه ليقوضوا الصنم المعبود : أتترك السماء هؤلاء العابثين دون عقاب ؟!

ووقف أمام الصنم وحده ليصد عنه كيد المسلمين ، ولكنه كان أهون من أن يحول بينهم وبين مناة . إنه ضعيف قد حاول أن يدافع عن إلٰهة الحظ والموت قدر طاقته ، ولكن الرجال كانوا أقوى منه فنحوه عن طريقهم ، فقال لسعد ابن زيد وهو يتقدم لهدم مناة :

ـــ أنت وذاك .

---

(١) النجم ١٩ ـــ ٢٣ .

والتفت إلى الصنم وقال فى إيمان :

ـــ مناة دونك بعض صبيانك .

فهوى سعد بن زيد الأشهلى بالمعول على الصنم وراح أصحابه يعاونونه ، والسادن ينظر وهو يكاد أن يموت رعبا . وتناثرت الحجارة هنا وهناك والسادن يتمزق من الحزن ويتلوى من الألم قد ذهبت نفسه شعاعا ، ففى لحظة اندك إيمانه وأصبح قلبه هواء .

وانصرف سعد بن زيد الأشهلى والذين معه من الفرسان مستبشرين بينا وقف السادن يتلفت فى شرود وهو يستشعر فراغا ، قد ترك وحيدا فى وادى الضياع .

"Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)"

١٣

وقع الرعب فى قلب رجال هوازن وثقيف لما فتح الله على رسوله مكة ، وخشوا أن يسير بجيشه إليهم ، فمشى أشراف هوازن وثقيف بعضهم إلى بعض وقالوا :

ـــ قد فرغ لنا فلا ناهية .

فطنوا إلى أنه لم يعد هناك مانع له ـــ ﷺ ـــ دونهم ، فراحوا يحشدون الجموع ويقولون :

ـــ والله إن محمدا وصحبه لاقوا أقواما لا يحسنون القتال .

وراحت القبائل تتأهب للقتال ، وخرجت قبيلة بنى سعد بن بكر وهم الذين كان رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ مسترضعا فيهم لتضع نفسها تحت إمرة مالك بن عوف النصيرى ، وكان إليه جماع أمر الناس .

وكان دريد بن الصمة فارس هوازن وسيد بنى جشم لا يزال على دين قومه . إنه كان حليف بنى سليم وكان قد رأى الخنساء فأعجبته فذهب إلى أبيها فخطبها إليه . فقال له أبوها :

ـــ مرحبا بك أبا قرة ، إنك للكريم لا يطعن فى حسبه والسيد لا يرد عن حاجته والفحل لا يقرع أنفه . ولكن لهذه المرأة فى نفسها ما ليس لغيرها وأنا ذاكرك لها وهى فاعلة .

ثم دخل إليها وقال :

ـــ يا خنساء أتاك فارس هوازن وسيد بنى جشم دريد بن الصمة يخطبك

وهو من تعلمين .

فقالت :

ـ يا أبت أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح . وناكحة شيخ بنى جشم هامة[1] اليوم أو غد ؟!

فخرج إليه أبوها فقال :

ـ يا أبا قرة قد امتنعت ، ولعلها أن تجيب فيما بعد .

فقال :

ـ قد سمعت قولكما .

كان ذلك من سنين ، ولكن دريد بن الصمة لم يستطع أن ينسى يوما أن الخنساء قد رفضته رغما عن علو شأنه وكثرة ماله وعلو ذكره . وقد كان بين هوازن وبنى سليم حلف وقد دخلت بنو سليم فى الإسلام ، فخرج دريد ليحضر حرب المسلمين لعله يثأر من الإهانة التى لحقته مذ رفضت الخنساء أن تقبله زوجا ، وراحت الأبيات التى هجاها بها تطوف بذهنه :

وقال الله يا ابنة آل عمرو ... من الفتيان أمثالى ونفسى

فلا تلدى ولا ينكحك مثلى ... إذا ما ليلة طرقت بنحس

كان دريد قد عمى وصار لا ينتفع إلا برأيه ومعرفته بالحرب . فسار يقوده مرض قلبه ليلتقى بمالك بن عوف الذى أمر الناس بأخذ أموالهم ونسائهم وأبنائهم معهم ، فانطلق حتى نزل بأوطاس ووافاه هناك دريد بن الصمة ، فقال دريد للناس :

---

(١) الهامة : طائر يزعم العرب أنه يمثل روح المقتول . ولا يزال يصيح : اسقونى . حتى يؤخذ بثأره .

— بأى واد أنتم ؟

— بأوطاس .

— نعم مجال الخيل ، لا حزن[1] ضِرْس ولا سهل دَهس ، ما لى أسمع رغاء البعير ونُهاق الحمير وبكاء الصغير وبُعار الشاء وخوار البقر ؟

— ساق مالك بن عوف مع الناس أموالهم ونساءهم وأبناءهم .

— أين مالك ؟

كان مالك فى الثلاثين من عمره وكان دريد قد جاوز المائة . إن مالكا قد توافق معه على أن لا يخالفه فإنه قال له : إنك تقاتل رجلا كريما قد أوطأ العرب وخافته العجم وأجلى يهود الحجاز إما قتلا أو خروجا عن ذل وصغار . فقال له لا نخالفك فى أمر تراه . فلما قال : أين مالك ؟ قيل له :

— هذا مالك .

— يا مالك أما إنك أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا اليوم كائن له ما بعده من الأيام . ما لى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير وبعار الشاء وخوار البقر ؟

— سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم .

— ولم ؟

— أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم .

فقال دريد فى ضيق :

— راعى ضأن والله ، ما له وللحرب ! .

---

(١) الحزن : الغليظ من الأرض ، والضرس : الشدي . الدهس : المكان السهل ليس برمل .

ثم أشار عليه برد الذرية والأموال وقال:

ــ هل يرد المنهزم شيء ؟! إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك فُضحت فى أهلك ومالك . ويحك ! إنك لم تصنع بتقديم البيضة بيضة هوازن إلى نحور الخيل شيئا . ارفعهم إلى متمنَّع بلادهم وعليا فوقهم ، ثم الق الصباء (جمع صابىء) على متون الخيل . فإن كانت لك لحق بك من وراءك . وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك .

وساد الصمت برهة ثم قال دريد :

ــ ما فعلت كعب وكلب ؟

قال الناس :

ــ لم يشهدها منهم أحد .

فقال دريد فى يأس :

ــ غاب الحد والجِد ، لو كان يوم علا ورفعة ما غابا .

وأشار عليه بأمور و لم يقبلها مالك منه وقال :

ــ والله لا أطيعك ، إنك قد كبرت وضعف رأيك .

فقال دريد لهوازن :

ــ قد شرط مالك ألا يخالفنى ، فقد خالفنى فأنا أرجع إلى أهلى .

فمنعوه ، وقال مالك :

ــ والله لتطيعننى يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى .

وكره أن يكون لدريد فيها رأى أو ذكر ، قالوا :

ــ أطعناك .

وصفت الخيل ثم الرجالة المقاتلة ثم صفت النساء على الإبل ثم صفت

الغنم ثم صفت النعم ثم قال للناس :

— إذا رأيتمونى شدوا عليهم شدة رجل واحد .

وراح دريد ينظر إلى هوازن فى حزن ثم قال :

— هذا يوم لم أشهده و لم يفتنى .

ثم أنشأ يقول :

يا ليتنى فيها جَذَع[١] أخب فيها وأضع[٢]

أقود وطفاء الزَّمع كأنها شاة صدع[٣]

ولما سمع رسول الله — ﷺ — بخبرهم بعث إليهم عبد الله بن أبى حدرد السلمى وأمره أن يدخل فى الناس فيقيم فيهم حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم . ففعل ثم أقبل على رسول الله — ﷺ — فأخبره الخبر ، فدعا رسول الله — ﷺ — عمر بن الخطاب فأخبره الخبر فقال عمر :

— كذب ابن أبى حدرد .

فقال ابن أبى حدود :

— إن كذبتنى فربما كذبت بالحق يا عمر ، فقد كذبت من هو خير منى .

فقال عمر فى غضب :

— يا رسول الله ألا تسمع ما يقول ابن أبى حدرد ؟

— قد كنت ضالاً فهداك الله يا عمر .

وخرج المسلمون من مكة قد قصروا الأعنة وشحذوا الأسنة وأشعروا

---

(١) الجذع : الشاب .

(٢) الخبب والوضع : ضربان من السير .

(٣) الوطفاء : طويلة الشعر . والزمع : الشعر الذى فوق مربط قيد الدابة والشاة (هنا) : الوعل ، والصدع : من الأوعال والظباء والحمر .

قلوبهم الجرأة ولزموا الطاعة ، ولكن كان فيهم أناس من المؤلفة قلوبهم وأناس خرجوا للحرب و لم يدخل الإسلام قلوبهم منهم سهيل بن عمرو وصفوان ابن أمية وقد خرج للقتال وما خلق الله خلقاأبغض إليه من رسول الله — ﷺ .

وكان قد ذكر لرسول الله — ﷺ — أن عند صفوان بن أمية أدرعا له وسلاحا ، فأرسل إليه فقال :

— يا أمية أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غدا .

فقال صفوان :

— أغصبا يا محمد ؟

— بل عارية ومضمونة حتى نؤديها إليك .

— ليس بهذا بأس .

فأعطاه مائة درع بما يكفيها من السلاح .

فطلب منه رسول الله أن يكفيهم حملها ففعل .

واستعار — ﷺ — من ابن عمه نوفل ابن الحارث بن عبد المطلب ثلاثة آلاف رمح فقال له :

— كأنى أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين وكان فى جيش المسلمين عبد الله بن أبى . ربيعة وكان له عبيد من الحبشة يتصرفون فى جميع المهن وكان عددهم كثيرا ، فقيل لرسول الله — ﷺ — حين خرج إلى حنين :

— هل لك فى جيش بنى المغيرة تستعين بهم ؟

فقال عليه السلام :

— لا خير فى الحبش . إن جاعوا سرقوا وإن شبعوا زنوا ، وإن فيهم لخلتين حسنتين : إطعام الطعام . والبأس يوم البأس .

وانطلق رسول الله — ﷺ — ومعه ألفان من أهل مكة مع عشرة الآف من أصحابه الذين خرجوا معه ففتح الله بهم مكة ، فكانوا اثنى عشر ألفا .

واستعمل رسول الله — ﷺ — عتاب بن أسيد بن أبى العاص بن أمية بن عبد شمس على مكة أميرا على من تخلف من الناس .

ونظر رسول الله — ﷺ — إلى الجيش فإذا بالرماح رفعت حتى كادت تسد الأفق ، فقال :

— لن نغلب اليوم عن قلة .

وسار الجيش وفيه أناس حديثو عهد بالجاهلية . وكان لكفار قريش ومن سواهم من العرب سدرة (شجرة النبق) عظيمة خضراء يقال لها « ذات أنواط » يأتونها كل سنة يعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوما ، فرأوا وهم يسيرون مع رسول الله — ﷺ — سدرة خضراء عظيمة فتنادوا من جنبات الطريق :

— يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط .

فقال :

— الله أكبر ، قلتم والذى نفس محمد بيده كما قال قوم موسى لموسى : « اجعل لنا إلٰها كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون »[١] إنها السُنن ، لتركبن سَنن من كان قبلكم .

وانطلق الجيش فى طريق الطائف ، إن رسول الله — ﷺ — قد انطلق ذات يوم هو وزيد بن حارثة فى نفس الطريق بعد أن ماتت خديجة وعمه أبو طالب وطرده المكيون من البلد الحرام ، إنه جاء إلى الطائف وهو يرجو أن يستجيبوا لدعوته ، ويجد عندهم المنعة والسلام ولكنهم سخروا منه ، وجلس سفهاؤهم على جانبى الطريق يضربون قدميه بالحجارة حتى سالت منهما

---

(١) آل عمران ١٣٨ .

الدماء . إنه ناء من الألم ولكنهم لم يتركوه ليستريح بل أقاموه ليرضخوا قدميه بالحجارة وضحكاتهم تتصاعد من جنبات الطريق : طريق الآلام وقسوة الجاهليين .

وانتهى رسول الله — ﷺ — إلى مضيق حنين مساء ليلة الثلاثاء لعشر خلون من شوال ، وكان على المسلمين أن يجتازوا ذلك المضيق ليصلوا إلى الوديان الخصيبة خلف جبال أوطاس حيث صف مالك بن عوف الرجال والفرسان والنساء والإبل والأغنام والنعم .

إنه مكان موحش جوانبه شديدة الانحدار ، والمضيق ضيق لا يسمح بتقدم جيش إلا إذا تقدم فى جماعات صغيرة ، وما كان هناك مكان للفرسان ليصولوا ويجولوا فى المعركة فلما جاء السحر عبأ رسول الله — ﷺ — أصحابه وصفهم صفوفا ووضع الألوية والرايات فى أهلها مع المهاجرين ، لواء يحمله على بن أبى طالب ، وراية يحملها سعد بن أبى وقاص ، وراية يحملها عمر بن الخطاب ، ولواء الخزرج يحمله حباب بن المنذر ، ولواء الأوس مع أسيد بن حضير ، وفى كل بطن من بطون الأوس والخزرج لواء وراية يحملها رجل منهم مسمى ، كذلك قبائل العرب فيها الألوية والرايات يحملها قوم منهم مسمون ، وكان رسول الله — ﷺ — قد قدم سُليما من يوم خرج من مكة واستعمل عليهم خالد بن الوليد ، فلم يزل على المقدمة حتى قدم الجعرانة ، وانحدر رسول الله — ﷺ — فى وادى حنين على تعبئته وركب بغلته البيضاء « دُلْدل » ولبس درعين والمغْفر والبيضة ، واتجه المسلمون إلى مضيق حنين وهم على ثقة من أنهم لن يغلبوا اليوم عن قلة .

١٤

استقبل المسلمون وادى حنين وانحدروا فى واد من أودية تهامة متسع منحدر إنما ينحدرون فيه انحدارا ، فما راعهم وهم منحطون إلا الكتائب قد شدوا عليهم شدة رجل واحد فى عماية الصبح . فإن مالك بن عوف والذين معه كانوا قد سبقوهم إلى الوادى وكمنوا لهم فى شعابه وأحنائه ومضايقه وراحوا يلقون على المسلمين الصخور من عل وأصلوهم وابلا من نبالهم كأنهم جراد منتشر لايكاد يسقط لهم سهم ، ثم هجموا عليهم بغتة بأسيافهم فانشمر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد .

وقال أبو قتادة لعمر بن الخطاب فى دهش :

ــ ما شأن الناس ؟

ــ أمر الله .

كان الطلقاء أهل مكة أول من انهزم ، قال بعضهم لبعض :

ــ اخذلوه . هذا وقته .

فانهزموا وتبعهم الناس .

وانكشفت الخيل خيل بنى سُليم مولية وتبعهم الناس منهزمين ، وانحاز رسول الله ــ ﷺ ــ ذات اليمين وجعل يقول :

ــ يا أنصار الله وأنصار رسوله ، أنا عبد الله ورسوله، أين أيها الناس ؟ هلموا إلىّ ، أنا رسول الله . أنا محمد بن عبد الله .

وكان العباس بن عبد المطلب آخذا بزمام بغلة رسول الله ــ ﷺ ــ

وكان امرأ جسيما شديد الصوت ، فقال عليه السلام لما رأى الناس لا يلوون على شيء :

ـ يا عباس اصرخ ، يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السَّمرة[١] .

فراح صوت العباس يدوي فى جنبات وادى حنين :

ـ يا معشر الأنصار .. يا معشر أصحاب السَّمرة .

وصلك صوت العباس أذنى أبى سفيان بن حرب ، فقال أبو سفيان معبرا عما فى قلبه من الضغن :

ـ لا تنتهى هزيمتهم دون البحر .

وكانت الأزلام لا تزال معه فى كنانته ، وصاح كُلدة بن الحنبل وهو مع أخيه صفوان بن أمية :

ـ ألا بطل السحر اليوم .

فقال له صفوان وهو لا يزال مشركا فى المدة التى جعل له رسول الله ـ ﷺ :

ـ اسكت فض الله فاك فوالله لأن يُرَبِّنى (يملكنى) رجل من قريش أحب إلىّ من أن يربنى رجل من هوازن .

وثبت مع رسول الله ـ ﷺ ـ من المهاجرين أبو بكر وعمر ، ومن أهل بيته على بن أبى طالب وأبو سفيان بن الحارث وابنه والفضل بن العباس وربيعة ابن الحارث وأسامة بن زيد وأيمن بن أم أيمن بن عبيد .

وبلغ صوت العباس مسامع الأنصار فأجابوا :

---

(١) شجرة الطلح وهى الشجرة التى كانت عندها بيعة الرضوان .

ـــ لبيك .. لبيك .

فراح الرجال يثنون أبعرتهم فلا يقدرون على ذلك لكثرة الأعراب المنهزمين ، فيأخذون دروعهم فيقذفونها فى أعناقهم ويأخذون سيوفهم وتروسهم ويقتحمون عن رواحلهم ويخلون سبيلها ، وانطلقوا إلى حيث كان رسول الله ـــ ﷺ ـــ كأنهم الأبل قد حنت على أولادها .

وكان رجل من هوازن على جمل أحمر بيده راية سوداء فى رأس رمح له طويل أمام هوازن وهوازن خلفه ، إذا أدرك طعن برمحه ، وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه .

وراحت سيوف هوازن تلعب فى رقاب المسلمين دون أن يثبت لهم أحد ، فلما اجتمع إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ مائة من الصابرين استقبلوا الناس فاقتتلوا وارتج المكان بشعار المقاتلين :

ـــ يا للأنصار .

وتصافحت السيوف واهتزت الرماح وقطعت الرقاب وطعنت الصدور وسقطت الأجساد ، واشتد القتال وصاح المقاتلون :

ـــ يا للخزرج .

وكانوا صبرا عند الحرب فأشرف رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى ركائبه ، فنظر إلى مجتلد القوم وهم يجتلدون فقال :

ـــ الآن حمى الوطيس (١) .

أنـــا النبـــى لا كـــذب   أنـا ابـن عبـد المطـلب .

---

(١) الوطيس : المعركة والتلاحم .

وراح شيبة بن عثمان بن أبى طلحة يدنو من رسول الله — ﷺ — وهو يقول :

— اليوم أدرك ثأرى من محمد ، اليوم أقتل محمدا .

وكان أبوه قتل يوم أحد ، فاستدبر رسول الله — ﷺ — وهو يريد أن يقتله بعثمان بن طلحة . فأطلع الله رسوله على ما فى نفسه فالتفت عليه السلام إليه وضرب فى صدره وقال :

— أعيذك بالله يا شيبة .

فأرعدت فرائصه ، فنظر إليه شيبة وهو أحب إليه من سمعه وبصره فقال :

— أشهد أنك رسول الله ، وأن الله أطلعك على ما فى نفسى .

واستمر ذلك الرجل من هوازن صاحب الراية على جمله الأحمر إذا أدرك طعن برمحه وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه ، فمال إليه على بن أبى طالب ورجل من الأنصار يريدانه ، فأتاه على من خلفه فضرب عرقوبى الجمل فوقع على عجزه ، ووثب الأنصارى على الرجل فضربه ضربة أطَنَّ قدمه بنصف ساقه فسقط عن رحله صريعا ، واشتد القتل فى هوازن والتفت رسول الله — ﷺ — إلى أبى سفيان بن الحارث بن عبد المطلب وهو آخذ بثَفَر(١) بغلته فقال :

— من هذا ؟

— أنا ابن عمك يا رسول الله .

وانشرح صدر رسول الله — ﷺ ، فالحارث كان لا يفارقه أبدا قبل الرسالة ، وقد اشتدت عداوته لابن عمه بعد الرسالة ، فلما أسلم كان رسول الله — ﷺ — يرجو أن يكون عوضا عن عمه حمزة . وقد صبر الحارث

---

(١) الثفر : السير فى مؤخر السرج .

فى ذلك اليوم وصال وجال لإعلاء كلمة الإسلام ، كما صال وجال أسد الله وأسد رسوله من قبل .

وراح أبو سفيان بن الحارث يلعب بسيفه يحثو رءوس الكافرين ، إنه يريد الموت دون ابن عمه رسول الله ورسول الله عليه السلام ينظر إليه . فقال العباس :

ــ يا رسول الله أخوك وابن عمك أبو سفيان فارض عنه .

ــ غفر الله له كل عداوة عادانيها .

ثم التفت عليه السلام إلى أبى سفيان بن الحارث وقال فى حب :

ــ يا أخى .

فقبل أبو سفيان بن الحارث رجله عليه السلام فى الركاب .

والتفت رسول الله ــ ﷺ ــ فرأى أم سليم ابنة ملحان وكانت مع زوجها أبى طلحة وهى حازمة وسطها ببرد لها وإنها لحامل بعبد الله بن أبى طلحة ومعها جمل أبى طلحة ، وقد خشيت أن يغلبها الجمل فأدنت رأسه منها فأدخلت يدها فى خزامته مع الخطام ، فقال لها رسول الله ــ ﷺ ــ :

ــ أم سليم ؟

ــ نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله . اقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل .

ــ أو يكفى الله يا أم سليم .

ومع أم سليم خنجر فقال لها أبو طلحة :

ــ ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟

ــ خنجر أخذته ، إذا دنا منى أحد من المشركين بعجته به .

فقال أبو طلحة وهو يبتسم :

ـــ أسمعت يا رسول الله ؟

ومشى أبو طلحة إلى الأعداء مشى الوعول يضرب بسيفه وقد أطل منه المنون ، يقتل ويسلب حتى استلب وحده عشرين رجلا ، ورأى أبو قتادة الأنصارى رجلين يقتتلان مسلما ومشركا ، وإذا رجل من المشركين يريد أن يعين صاحبه المشرك على المسلم ، فأتاه أبو قتادة فضرب يده فقطعها ، واعتنقه الرجل بيده الأخرى وكاد يقتله لولا أن الدم راح ينزف من يده فسقط إعياء ، فضربه أبو قتادة فقتله وشغله عنه القتال ، ومر به رجل من أهل مكة فسلبه وأبو قتادة يجتلد بسيفه يقاتل عن دين الله .

وراح مالك بن عوف يستميت فى القتال وكلمات دريد بن الصمة تدوى فى نفسه : « راعى ضأن والله ما له وللحرب » ، فتثير حنقه وتدفعه إلى الإقدام ، وأقبلت خيل الله إلى حيث كان رسول الله عليه السلام ، وأفاق المسلمون من المفاجأة فراحوا يقاتلون فى سبيل الله بقلوب عامرة باليقين ، فكثر القتل فى المشركين وتصدعت صفوفهم ودارت الدائرة على أهل حنين ، فجعل المسلمون يقتلون فريقا وفريقا يأسرون ، وأمكن الله رسوله ـــ ﷺ ـــ من أعدائه ، فقالت امرأة من المسلمين :

قد غلبت خيل الله خيل اللات   وخيلـه أحـق بالثبـات

وانهزمت هوازن واشتد القتل من ثقيف فى بنى مالك ، فقتل منهم سبعون رجلا تحت رايتهم فيهم عثمان بن عبد الله بن ربيعة بن الحارث بن حبيب ، وكانت رايتهم مع ذى الخمار عوف بن الربيع ، فلما قتل أخذها عثمان بن عبد الله فقاتل بها حتى قتل ، فلما بلغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ قتله قال :

ـــ أبعده الله ! فإنه كان يبغض قريشا !

وقتل مع عثمان بن عبد الله غلام له نصرانى أغْرل[١] فصاح بأعلى صوته :

ــ يا معشر العرب يعلم الله أن ثقيفا غُرل .

وكان المغيرة بن شعبة وهو من ثقيف فى صفوف المسلمين ، فخشى أن تذهب عنهم فى العرب فأخذ بيده وقال :

ــ لا تقل ذلك فداك أبى وأمى ، إنما هو غلام لنا نصرانى .

ثم جعل يكشف له عن القتلى ويقول له :

ــ ألا تراهم مختتنين كما ترى !

وكانت راية الأحلاف مع قارب بن الأسود ، فلما انهزم الناس أسند رايته إلى الشجرة وهرب هو وبنو عمه وقومه من الأحلاف ، فلم يقتل من الأحلاف غير رجلين : رجل من بنى غبرة يقال له وهب ، وآخر من بنى كُبَّة يقال له الجُلاح ، فقال رسول الله ــ ﷺ ــ حين بلغه مقتل الجلاح :

ــ قتل اليوم سيد شباب ثقيف إلا ما كان من ابن هنيدة .

ولما انهزم المشركون أتوا الطائف ومعهم مالك بن عوف وهو يكاد يموت غما ، فقد أعرض عن نصيحة دريد بن الصمة وحبس قومه للموت وفضح أهله . وعسكر بعضهم بأوطاس وتوجه بعضهم نحو نخلة ، و لم يكن فيمن توجه نحو نخلة إلا بنو غبرة من ثقيف . وتبعت خيل رسول الله ــ ﷺ ــ من سلك فى نخلة من الناس و لم تتبع من سلك الثنايا .

وكان دريد بن الصمة فى هودج فأدركه ربيعة بن رفيع فأخذ بخطام جمله وهو يظن أنه امرأة فإذا برجل ، فأناخ به فإذا شيخ كبير وإذا هو دريد بن الصمة فارس جشم الذى لم يبق منه إلا الرأى ولا يعرفه الغلام ، فقال له

---

(١) الأغرل : غير المختتن .

دريد :

ــ ماذا ترى بى ؟

ــ أقتلك .

ــ ومن أنت ؟

ــ أنا ربيعة بن رفيع السلمى .

إنه من بنى سليم حلفاء الأمس ، إنه من قبيلة الخنساء التى قالت لأبيها يوم جاء يخطبها : يا أبت أترانى تاركة بنى عمى مثل عوالى الرماح وناكحة شيخ بنى جشم هامة اليوم أو غد ؟!. وضربه الغلام بسيفه فلم يغن شيئا فقال :

ــ بئس ما سلحتك به أمك ! خذ سيفى هذا من مؤخر الرحل ثم اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ ، فإنى كذلك كنت أضرب الرجل ، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت دريد بن الصمة ، فرب والله يوم منعت فيه نساءك .

وذهب الغلام إلى الرجل وكان فى الهودج وأتى بسيف دريد ثم ضربه فأرداه . فلما رجع ربيعة إلى أمه أخبرها بقتله اياه فقالت :

ــ أما والله لقد أعتق أمهات لك ثلاثا .

فقالت عمرة بنت دريد فى قتل ربيعة دريدا :

لعمرك ما خشيت على دريد ... ببطن سميرة جيش العناق

جزى عنه الإله بنى سليم ... وعقتهم بما فعلوا عقاق

وأسقانا إذا قدنا إليهم ... دماء خيارهم عند التلاقى

فرب عظيمة دافعت عنهم ... وقد بلغت نفوسهم التراقى

ورب كريمة أعتقت منهم ... وأخرى قد فككت من الوثاق

ورب منوه بك من سليم ... أجبت وقد دعاك بلا رماق

فكــان جزاؤنــا منهم عقوقــا   وهمّــا مــاع منـــه مخ ساقى
عـفت آثار خيـلك بعـد أيـن   بـذى بقـر إلى فيــف النهاق(١)

وبعث رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى آثار من توجه قبل أوطاس أبا عامر الأشقرى ، فأدرك من الناس بعض من انهزم فناوشوه القتال .

ولقى أبو عامر عشرة أخوة من المشركين فحمل عليه أحدهم فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول :

ــ اللهم اشهد عليه .

فقتله أبو عامر .

ثم حمل عليه آخر فحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول :

ــ اللهم اشهد عليه .

فقتله أبو عامر ، ثم جعلوا يحملون عليه رجلا رجلا ويحمل أبو عامر وهو يقول ذلك ، حتى قتل تسعة وبقى العاشر ، فحمل على أبى عامر وحمل عليه أبو عامر وهو يدعوه إلى الإسلام ويقول :

ــ اللهم اشهد عليه .

فقال الرجل :

ــ اللهم اشهد عليه .

فكف عنه أبو عامر فأفلت منه .

ورمى سلمة بن دريد أبا عامر بسهم فقتله ، فأخذ الراية أبو موسى الأشعرى وهو ابن عمه فقاتلهم ففتح الله على يديه وهزمهم .

واستحر القتل من بنى نصر فى بنى رئاب ، ورأى عبد الله ابن قيس وهو أحد بنى وهب بن رئاب ما نزل بقومه فقال :

ــ يا رسول الله هلكت بنو رئاب .

---

(١) أين : التعب والمشقة ، وذو بقر موضعان ، والفيف : القفر ، والنهاق موضع .

فقال ﷺ :

ــ اللهم اجبر مصيبتهم .

وخرج مالك بن عوف عند الهزيمة فوقف فى فوارس من قومه على ثنيَّة من الطريق وقال لأصحابه :

ــ قفوا حتى تمضى ضعفاؤكم وتلحق أخراكم .

فوقف هناك حتى مضى من كان لحق بهم من منهزمة الناس ، وطلعت خيل ومالك وأصحابه على الثنيَّة فقال لأصحابه:

ــ ماذا ترون ؟

ــ نرى قوما واضعى رماحهم بين اذان خيلهم طويلة بواد هم (بطون افخاذهم) .

ــ هؤلاء بنو سليم ولا بأس عليكم منهم .

فلما أقبلوا سلكوا بطن الوادى ، ثم طلعت خيل أخرى تتبعها فقال لأصحابه :

ــ ماذا ترون ؟

ــ نرى قوما عارضى رماحهم أغفالا على خيولهم .

ــ هؤلاء الأوس والخزرج ولا بأس عليكم منهم .

ثم طلع فارس فقال لأصحابه :

ــ ماذا ترون ؟

ــ نرى فارسا طويل الباد ، واضعا رمحه على عاتقه . عاصبا رأسه بملاءة حمراء .

ــ هذا الزبير بن العوام وأحلف باللات ليخالطنكم فاثبتوا له .

فلما انتهى الزبير إلى أصل الثنيَّة أبصر القوم فانطلق إليهم وراح يطاعنهم حتى أزاحهم عنها ، وفر الناس لا يلوون على شيء .

ومر رسول الله ــ ﷺ ــ بامرأة والناس مزدحمون عليها فقال :

ــ ما هذا ؟

ــ امرأة قتلها خالد بن الوليد .

فقال رسول الله ــ ﷺ ــ لبعض من معه :

ــ أدرك خالدا فقل له : إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدا أو امرأة أو عسيفا (أجيرا) .

وكان بجاد رجلا من بنى سعد بن بكر قد أحدث حدثا ، فقال ــ ﷺ ــ لمن عنده :

ــ إن قدرتم على بجاد فلا يفلتنكم .

فانطلقوا فى أثره حتى ظفروا به فساقوه وأهله ، وساقوا معه الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى أخت رسول الله ــ ﷺ ــ من الرضاعة فعنفوا عليها فى السياق ، فقالت للمسلمين :

ــ تعلّموا والله أنى لأخت صاحبكم من الرضاعة .

فلم يصدقوها حتى أتوا بها إلى رسول الله ــ ﷺ ــ فقالت :

ــ يا رسول الله إنى أختك من الرضاعة .

ــ وما علامة ذلك ؟

ــ عضة عضضتنيها فى ظهرى وأنا متوركتك .

فعرف رسول الله ــ ﷺ ــ العلامة فبسط لها رداءه فأجلسها عليه وخيرها وقال :

ــ إن أحببت فعندى مُحبّة مكرّمة ، وإن أحببت أن أمتعك وترجعى إلى قومك فعلت .

فقالت :

— بل تمتعنى وتردنى إلى قومى .

فاعطاها غلاما له يقال له مكحول وجارية وردها إلى بنى سعد مكرمة معززة ، وذكريات طفولته تطوف برأسه كالأطياف .

وهزم الله الكفار ورجع المسلمون إلى رحالهم فجعل النبى — ﷺ — يمشى فى المسلمين ويقول :

— من يدلنى على رحل خالد بن الوليد .

كان عليه السلام قد علم أن خالدا جُرح .

فنزل عليه فوجده قد أسند إلى مؤخرة رحله لأنه قد أثقل بالجراحة ، فراح عليه السلام يضمد جرحه ، والتفت عليه السلام فرأى عائذ بن عمر وقد أصابته رمية فى جبهته فسال الدم على وجهه وصدره ، فسد النبى — ﷺ — الدم بيده عن وجهه إلى ترقوته . واستمر عليه السلام يعود الجرحى ويواسيهم فيعيد البشر إلى الوجوه ويبث الأمل فى القلوب .

وأنزل الله عز وجل فى يوم حنين : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين . ثم أنزل سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين . ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم »(١) .

---

(١) التوبة : ٢٥ — ٢٧ .

١٥

علم رسول الله ــ ﷺ ــ أن مالك بن عوف وقوما من أشراف قومه لحقوا بالطائف عند انهزامهم ، وأن أولئك القوم تحصنوا فى حصن به وأدخلوا فيه ما يصلحهم ، فتوجه إليهم بعد أن بعث بالسبى والغنائم إلى الجعرانة مع بديل بن ورقاء الخزاعى ، وكان سبى حنين ستة آلاف رأس غير من أسر من الرجال والنساء والولدان .

وكان فى جيش المسلمين الطفيل بن عمرو الدوسى وقد ملأت أقطار رأسه صورة صنم قومه فاستشعر رغبة جامحة فى أن يحرقه ليخلو لدوس وجه الله ، فدنا من رسول الله ــ ﷺ ــ وهو فى طريقه إلى الطائف وقال فى انفعال :

ــ يا رسول الله ابعثنى إلى ذى الكفين صنم عمرو بن حُمَمة حتى أحرقه .

فبعثه رسول الله ــ ﷺ ــ فى شوال سنة ثمان ليهدم ذا الكفين وأمره أن يستمد قومه ويأتيه بالطائف . فانطلق الطفيل بن عمرو والدماء تتدفق فى عروقه حارة والأفكار تنثال على رأسه . إنه يرى نفسه يوم أن قدم مكة ورسول الله ــ ﷺ ــ بها ، ويرى أشراف قريش وهم يمشون إليه ويقولون له :

ــ يا طفيل ، إنك قدمت بلادنا وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد أعضل بنا وقد فرق جماعتنا وشتت أمرنا ، وإنما قوله كالسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه وبين الرجل وبين أخيه وبين الرجل وبين زوجته ، وإنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنه ولا تسمعن منه شيئا .

وارتسمت على شفتيه بسمة هازئة . إنه يسخر من نفسه ويتساءل فى عجب : كيف أجمع فى ذلك اليوم ألا يسمع منه شيئا ولا يكلمه وهو الشاعر اللبيب الذى يستطيع أن يميز سحر البيان من قبيح الحديث ، وكيف انصاع لهم حتى حشا فى أذنيه حين غدا إلى المسجد قطنا فرقا من أن يبلغه شىء من قوله ؟ ترى كيف كان حاله لو لم يسمعه الله بعض قوله ؟ أكان حارب رسول الله — ﷺ — مع الذين حاربوه ؟ ولو أنه حاربه أكان يموت كافرا كما مات كثير من الذين قاتلوه وقتلوا قبل أن يفتح مكة ويسود السلام ربوعها ؟ وسرت فى بدنه رعدة ، وسرعان ما أحس فضل الله عليه أن هداه إلى الإسلام فسجد لله شكرا على ظهر راحلته .

ورأى نفسه وهو يتبع رسول الله — ﷺ — فى زقاق العطارين وهو يستشعر أنه يسلك سبل السلام ، إن قلبه ليخفق بين جنبيه كما خفق فى ذلك اليوم ، وإنه ليرى نفسه فى وضوح وهو ينزل فى دار خديجة درجات ثم يستأذن فى الدخول على رسول الله . وإنه لينفعل وهو على ظهر راحلته مثل ذلك الانفعال الذى اعتراه وهو يتقدم إلى حيث كان عليه السلام . إنها لحظات لا تنسى ، إنه أحس كأنما عبير طيب ضمخ روحه وأن أنوارا سماوية شاعت بين جوانحه وأن فرحا فياضا غمر نفسه وأن أمنا انتشر فى وجدانه وأن سلاما نزل بردا على فؤاده . وسار وهو مأخوذ بسحر ما سمع من آيات بينات حتى إذا دخل عليه قال وقد تهلل بالفرح :

— يا محمد إن قومك قد قالوا لى إنا نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنَّه ولا تسمعنَّ منه شيئا ، فوالله ما برحوا يخوفوننى أمرك حتى سددت أذنى بكرسُف لئلا أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن يسمعنى قولك فسمعته قولا حسنا فاعرض علىّ أمرك .

وراح الطفيل بن عمرو ينظر إلى الأفق البعيد وهو شارد تتلون قسمات وجهه بانفعالات نفسه ، فصوت رسول الله — ﷺ — يأتى من أعماق الماضى كأنه البشرى يعرض عليه الإسلام ويتلو عليه القرآن فى صوت جهورى أخاذ يمس أوتار القلب ويحرك منابع الحنان ، فجرت دموعه تبلل لحيته وقال فى إيمان عميق :

— أشهد أن لا إلـٰه إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله . إنه لا يستطيع أن يحبس عبراته كلما تذكر ذلك اليوم فهو يوم أغر حفرت أحداثه فى سويداء فؤاده ، فهو يذكر كل ما كان فيه من انفعالات وحوار ، إنه قال لرسول الله — ﷺ — بعد أن شهد شهادة الحق :

— يا نبى الله إنى امرؤ مطاع فى قومى ، وأنا راجع إليهم وداعيهم إلى الإسلام .

إنه انطلق إلى قومه فى ذلك الوقت كما هو منطلق إليهم الساعة يتأجج بالحماس يستشعر كأن راحلته لا تطوى الأرض ، وران فى جوفه الحوار الذى كان بينه وبين أبيه :

— إليك يا بنى ؟

— أسلمت وتابعت دين محمد — ﷺ — .

— أى بنى فدينى دينك .

— فاذهب فاغتسل وطهر ثيابك ثم تعال أعلمك ما علمت .

وسرعان ما لاحت لعين خياله صورة سادن ذى الكفين تملأ الأفق ، إنه غاضب ثائر يحاول أن يحول بينه وبين أن يحرق إلـٰهه . ودارت فى ذهنه معركة رهيبة بينه وبين ذلك السادن . إنه يهجم عليه بالنار التى يحملها فى يمينه والسادن يدفعه فى ضراوة كأنه لبؤة تدافع فى استماتة عن أشبالها ، وهو يبتهل

إلى ذى الكفين فى صوت مفزوع أن يمده بعونه . وجلجل فى ضمير الطفيل صوته بالتكبير فخيل إليه أن الوديان والجبال تؤذن فى إيمان : الله أكبر .. الله أكبر .

وانثالت على رأسه الذكريات ، إنه دعا دَوسا إلى الإسلام فأبطئوا عليه وما استجاب له إلا أبو هريرة ، إنه استشعر فى ذلك الوقت غما وود لو أن عذاب الله ينزل بقومه الذين أبوا أن يخرجوا من الظلمات إلى نور الله . إنه كان يتمزق غيظا كلما رأى الناس ينطلقون إلى حمى ذى الشرى خاشعين يسألونه الرزق وإطالة الأعمار ، ويا طالما قال لهم : إنكم تعبدون من دون الله أوثانا وتخلقون إفكا . فكانوا يجعلون أصابعهم فى آذانهم ويستغشون ثيابهم ويصرون ويستكبرون استكبارا .

وضاق بقومه فجاء رسول الله — ﷺ — بمكة فقال له :

— يا نبى الله ، إنه قد غلبنى على دوس الزنا ، فادع الله عليهم .

وتقاصرت نفس الطفيل لما مس أذنيه صدى صوت رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — إنه لم يدع الله عليهم بل دعا لهم فقال :

— اللهم اهد دوسا . ارجع إلى قومك فادعهم وارفق بهم .

وقال الطفيل فى نفسه :

— صدق الله العظيم : إنك لعلى خلق كريم يا رسول الله .

وانحدرت الشمس ثم راح قرص الذهب الأحمر يغوص فى الأفق الغربى والطفيل بن عمرو يطوى القفار والفكر يهيم فيما كان . إنه يحس وقد خلا بنفسه أن فاتته بعض المشاهد مع رسول الله عليه السلام : فقد مضى بدر وأحد والخندق وهو فى قومه يدعوهم إلى الإسلام . ثم قدم على رسول الله — ﷺ — بمن أسلم معه من قومه ورسول الله — ﷺ — بخيبر ، حتى

نزل المدينة بسبعين أو ثمانين بيتا من دوس ، ثم لحق برسول الله ـ ﷺ ـ بخيبر فأسهم لهم مع المسلمين .

وراح يطيب نفسه ويقنعها بأنه إن كان قد فاته جهاد فقد كان فى جهاد . وجعل يشكر الله أن قيض له الهجرة وكان فضل الله عليه عظيما .

ولاح له جبل دوس والماء يهبط منه فاشتد وجيب قلبه . فعند محنية الوادى صنم ذى الكفين . ترى أيستطيع سادنه أن يقف فى وجه جموع المسلمين المزمجرة المتدفقة لدك الإفك والشرك بعد أن فاضت أفئدتهم بأنوار اليقين ؟ ولوى الطفيل شفته السفلى استهزاء ثم اندفع على راحلته حتى إذا جاء قومه دعاهم إلى الخروج لحرق الصنم الذى لا يملك لنفسه نفعا أو ضرا .

وانطلقت الجموع كالسيل إلى صنم عمرو بن حممة الدوسى فوقف السادن مشدوها لا يحرك ساكنا ، وتقدم الطفيل والذين معه فهدموا ذا الكفين وجعل الطفيل يحش النار فى وجهه ويقول :

يا ذا الكفين لستُ من عبادكا ميلادنا أقدم من ميلادكا

إنى حششت[1] النار فى فؤادكا

وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعا وقد حملوا معهم دبابة[2] ومنجنيقا[3] ليوافوا رسول الله ـ ﷺ ـ بالطائف .

---

(١) حش النار : أوقدها .

(٢) الدبابة : آلة تتخذ فى الحروب يدخل فى جوفها الرجال ثم تدفع فى أصل الحصن فينقبونه وهم فى جوفها .

(٣) والمنجنيق : آلة ترمى بالحجارة لتهدم الحصون .

١٦

انهزم مالك بن عوف فانسحب بفلول جيشه إلى الطائف وأغلق أبواب المدينة ، ثم دخل هو والذين معه حصنا حصينا بعد أن أدخل فيه ما يصلحهم لسنة وأغلقوه عليهم وتهيئوا للقتال ، فقد كانوا واثقين أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ سيسير إليهم ليقاتلهم ، فما كان عليه السلام بتاركهم وقد بدءوه بالعداوة قبل أن يقضى على فتنتهم أو يدخلوا فى السلم كافة .

وسار رسول الله ـــ ﷺ ـــ من حنين يريد الطائف ، وقدم خالد بن الوليد على مقدمته . ومر جيش المسلمين بقبر فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ هذا قبر أبى رغال .

كان أبرهة قد خرج بأمر نجاشى الحبشة فى جيش عظيم ليقضى على ديانات العرب ويهدم بيوت عبادتهم ، ويتقدم حتى يتصل نصارى الحبشة بنصارى الشام فيرفع بذلك الصليب على الجزيرة العربية كلها . وانطلق أصحاب الفيل حتى إذا ما بلغوا الطائف وأرادوا هدم بيت اللات المقدس تلقى أهل الطائف القائد العظيم بالخضوع وأظهروا له الولاء والطاعة وزينوا له هدم البيت العتيق ، فهو البيت الذى تهوى إليه كل قلوب العرب وهو الرباط الوحيد بينهم وإن اختلفوا فى الملل والنحل . وقدموا إليه أبا رغال ليكون دليلا له ليوصله إلى مكة .

ونظر المسلمون إلى قبر أبى رغال فى غضب واحتقار . وتحرك الحقد فيهم على الرجل الذى قاد جيش الأعداء لهدم أول بيت وضع للناس ، ولولا أن

حمى الله بيته وأرسل على أصحاب الفيل طيرا أبابيل[١] ترميهم بحجارة من سجيل لكان بيت أبيهم إبراهيم قد درس ولما عاد مرة أخرى ليكون منارة للتوحيد ، فهجموا ثائرين على قبر الخائن ونبشوه .

وانطلق جيش المسلمين فسلك رسول الله — ﷺ — على نخلة اليمانية ، ثم على قرن ثم على المليح ، ثم على بحرة الرغاء من ليَّة فابتنى بها مسجدا فصلى فيه . ونزل المسلمون ببحرة الرغاء فعدا رجل من بنى ليث على رجل من هذيل فقتله ، فقتله — ﷺ — به وهو أول دم أقيد به فى الإسلام .

وكان حصن مالك بن عوف على مرمى البصر من عسكر المسلمين ، فأمر — ﷺ — به فهدم . ثم سار عليه السلام بطريق يقال لها الضيقة ، فلما توجه فيها رسول الله — ﷺ — سأل عن اسمها فقال :

— ما اسم هذه الطريق ؟

— الضيقة .

— بل هى اليسرى .

ثم خرج منها على نخب حتى نزل سدرة يقال لها الصادرة قريبا من مال رجل من ثقيف ، فأرسل إليه رسول الله — ﷺ — : إما أن تخرج وإما أن نخرب عليك حائطك (بستانك) . فأبى أن يخرج فأمر رسول الله — ﷺ — بإخراجه .

ثم مضى رسول الله — ﷺ — حتى نزل قريبا من الطائف فضرب به عسكره قريبا من الحصن الذى تحصن فيه مالك بن عوف والذين معه ، فسرعان ما تراموا بالنبل ، وانهالت القذائف على المسلمين فأصيب ناس منهم

---

(١) أبابيل : جماعات متتابعة .

بجراحات وكان أبو سفيان بن حرب يتقدم ليسدد سهامه فإذا بسهم يصيب عينه ، فأتى النبى — ﷺ — وعينه فى يده فقال :

— يا رسول الله هذه عينى أصيبت فى سبيل الله .

ورُمى عبد الله بن أبى بكر الصديق بسهم فحُمل إلى حيث كان أبوه والدم ينزف منه غزيرا ، وأصيب سعيد بن سعيد بن العاص بن أمية إصابة أردته قتيلا ، ورُمى ثابت بن الجذع من الأنصار رمية قاتلة ، وحاول المسلمون أن يدخلوا الحصن فلم يقدروا عليه . فلما أُصيب أولئك النفر من أصحاب رسول الله — ﷺ — بالنبل وضع عسكره بعيدا عن مرمى النبال .

وكان مع رسول الله — ﷺ — امرأتان من نسائه إحداهما أم سلمة بنت أبى أمية فضرب لهما قبتين ، ثم صلى بين القبتين وراح يحاصر ثقيفا ويقاتلهم قتالا شديدا والنبل يتطاير من الحصن إلى الأرض ومن الأرض إلى الحصن وأنات تنبعث من الحصن وأجساد ترتطم بالأرض ، واستشهد السائب بن الحارث بن قيس وأخوه عبد الله بن الحارث .

ودخل — ﷺ — خيمة أم سلمة وعندها أخوها عبد الله بن أبى أمية ، وهيت المخنث وكان لعبد الله ، وكان هيت يقول :

— إن فتح الله عليكم الطائف فسل النبى — ﷺ — بادية بنت غيلان بن سلمة بن معتّب فإنها هيفاء شمَوع(١) نجلاء(٢) . إن تكلمت تغنت وإن قامت تثنت ، تقبل بأربع وتدبر بثمان ، مع ثغر كأنه الأقحوان(٣) . وبين رجليها كالإناء المكفوء ، كما قال قيس بن الخطيم :

---

(١) شموع : مضيئة .

(٢) نجلاء : واسعة العين .

(٣) الأقحوان : نبات الربيع له نور أبيض .

تغترق الطرف وهى لاهية كأنما شف وجهها نُزُف
بين شكول النساء خلقتها قصد[1] فلاجبلة ولاقضف[2]

فقال النبى — ﷺ — :

— لقد غلغلت النظر يا عدو الله .

ثم جلاه عن المدينة إلى الحمى وقال :

— لا يدخل على أحد من نسائكم .

واستؤنف القتال فأقبل خالد بن الوليد ونادى :

— من يبارز ؟

فلم يطلع إليه أحد . ثم كرر ذلك فلم يطلع إليه أحد . وناداه عبد ياليل :

— لا ينزل إليك منا أحد ، ولكن نقيم فى حصننا فإن به من الطعام ما يكفينا سنين ، فإن أقمت حتى يذهب هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعا نموت عن آخرنا .

وتطايرت السهام بين الجانبين فأصاب سهم عبد الله بن أبى أمية بن المغيرة فقتله قبل أن يفتح الله على المسلمين الطائف ، وقبل أن يسأل رسول الله — ﷺ — بادية بنت غيلان . ذلك الرجل الذى وفد على كسرى فقال له كسرى :

— أى ولدك أحب إليك ؟

فقال :

---

(١) قصد : وسط .

(٢) القضف : النحافة .

ـــ الغائب حتى يقدم ، والمريض حتى يعافى ، والصغير حتى يكبر .

ولم يشهد حصار الطائف عروة بن مسعود عظيم ثقيف ولا غيلان بن سلمة ، كانا بجُرش يتعلمان صنعة الدبابات والمجانيق والضبور وهى آلات حربية حديثة ستغير خطط القتال رأسا على عقب .

وأشرقت شمس اليوم الرابع فإذا بالطفيل بن عمرو الدوسى قد قدم ومعه من قومه أربعمائة ودبابة ومنجنيق واستبشر المسلمون بآلات الحرب الحديثة ، ودخل نفر من أصحاب رسول الله ـــ ﷺ ـــ تحت دبابة وكانت من جلود ، ثم زحفوا بها إلى جدار الطائف ليخرقوه فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنار ، فخرجوا من تحتها فرمتهم ثقيف بالنبل فقتلوا منهم رجالا ، فأمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ بقطع أعنابهم وتحريقها فوقع الناس فيها وقطعوا قطعا ذريعا ، فسألوه أن يدعها لله وللرحم فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ إنى أدعها لله وللرحم .

ونادى رسول الله ـــ ﷺ ـــ :

ـــ أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر .

فخرج منهم ثلاثة وعشرون رجلا ونزل منهم شخص فى بكرة فقيل له أبو بكرة وكان عبدا للحارث بن كلدة طبيب ثقيف ووالد النضر بن الحارث الذى كان يقول : « والله ما محمد بأحسن حديثا منى وما حديثه إلا أساطير الأولين » ، فأعتقهم رسول الله ـــ ﷺ ـــ ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمّونه ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة .

وخشى أبو سفيان بن حرب على ابنته آمنة بنت أبى سفيان وكانت عند عروة بن مسعود ، وخاف على نساء من قريش وبنى كنانة فتقدم والمغيرة بن

شعبة إلى الطائف فناديا ثقيفا : أن أمنونا حتى نكلمكم . فأمنوهما فدعوا نساء من نساء قريش وبنى كنانة ليخرجن إليهما فأبين . فعاد أبو سفيان بن حرب والمغيرة بن شعبة إلى صفوف المسلمين وقد أطرقا حزنا يخافان على نساء قريش وبنى كنانة اللاتى تزوجن فى ثقيف السباء .

واستأذن رسول الله — ﷺ — عيينة بن حصن الخليع المطاع الذى تتبعه ألف امرأة فى أن يأتى ثقيفا فى حصنهم ليدعوهم إلى الإسلام فأذن له فى ذلك ، فأتاهم فدخل فى حصنهم فقال لهم :

— تمسكوا فى حصنكم ، فوالله لنحن أذل من العبيد ولا تعطوا بأيديكم ولا تتأثروا بقطع هذا الشجر .

فرجع إلى رسول الله — ﷺ — فقال له :

— ما قلت لهم يا عيينة ؟

— أمرتهم بالإسلام ودعوتهم إليه وحذرتهم النار ودللتهم على الجنة .

— كذبت . إنما قلت لهم : تمسكوا فى حصنكم .

— صدقت يا رسول الله . أتوب إلى الله وإليك من ذلك .

ونام القوم ، ولما استيقظ رسول الله عليه السلام قال لأبى بكر الصديق :

— يا أبا بكر إنى رأيت أنى أهديَت لى قعبة (قدح) مملوء زبدا فنقرها ديك فهراق ما فيها .

فقال أبو بكر الصديق :

— ما أظن أن تدرك منهم يومك هذا ما تريد .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— وأنا لا أرى ذلك .

واستشار رسول الله — ﷺ — نوفل بن معاوية الديلى فى الذهاب

أو المقام ، فقال له :

ـــ يا رسول الله ثعلب فى جحر إن أقمت أخذته وإن تركته لم يضرك .

فأمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ عمر بن الخطاب فأذن فى الناس بالرحيل ، فقبح الناس ذلك وقالوا .

ـــ نرحل و لم يفتح علينا ؟!

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ فاغدوا على القتال :

فغدوا فانهالت السهام عليهم من الحصن كوابل من المطر فأصاب الناس جراحات ، فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ إنا قافلون إن شاء الله .

فسروا بذلك وأذعنوا وجعلوا يرحلون ورسول الله ـــ ﷺ ـــ يضحك تعجبا من سرعة تغير رأيهم ، ونادى سعيد بن عبيد بن أسيد وهو ينظر إلى أهل الطائف وهم فى حصنهم :

ـــ ألا إن الحى مقيم .

فقال عيينه بن حصن :

ـــ أجل والله مجدة كراما .

فقال رجل من المسلمين :

ـــ قاتلك الله يا عيينة ، أتمدح المشركين بالامتناع من رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقد جئت تنصر رسول الله ـــ ﷺ !

ـــ إنى والله ما جئت لأقاتل ثقيفا معكم ولكنى أردت أن يفتح محمد الطائف فأصيب من ثقيف جارية أتطئها لعلها تلد لى رجلا ، فإن ثقيفا قوم

مناكير(١) .

ورجعوا إلى رسول الله — ﷺ — وقال لهم عليه السلام :

— قولوا لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

فلما ارتحلوا واستقبلوا قال :

— قولوا آيبون تائبون عابدون ، لربنا حامدون .

وقالوا :

— يا رسول الله ادع على ثقيف أهل الطائف .

فقال :

— اللهم اهد ثقيفا وأت بهم مسلمين .

وانحدر المسلمون إلى الجعرانة ، فلقى سراقة رسول الله — ﷺ — وهو واضع الكتاب الذى كتبه له — ﷺ — عند الهجرة بين أصبعيه وينادى :

— أنا سراقة وهذا كتابى .

وتذكر أبو بكر يوم أن هاجر مع رسول الله — ﷺ — إلى المدينة وراح سراقة يتبعهما لينال جائزة قريش . إن أبا بكر ليذكر ذلك الكتاب الذى يضعه سراقة بين إصبعيه فقد كتبه بخط يده . ونظر — ﷺ — إلى سراقة وقال :

— هذا يوم وفاء ومودة . أدنوه .

فأدنوه منه وساق إليه الصدقة وسأله عن الضالة من الإبل ترد حوضه الذى ملأه لإبله هل له فى ذلك من أجر ، فقال رسول الله — ﷺ — :

— نعم ، فى كل ذات كبد حراء أجر .

---

(١) مناكير : ذوى دهاء وفطنة .

١٧

وانصرف رسول الله عن الطائف فرجع إلى الجعرانة فانتهى إليها ليلة الخميس لثلاث خلون من ذى القعدة . وأحصى السبى فكان ستة آلاف رأس ، والإبل أربعة وعشرين ألفا ، والغنم أكثر من أربعين ألفا ، وأربعة آلاف أوقية فضة ، فاستأنى رسول الله — ﷺ — بالسبى أن يقدم عليه وفدهم وبدأ بالأموال فقسمها . وأعطى المؤلفة قلوبهم أول الناس فأعطى أبا سفيان بن حرب أربعين أوقية ومائة من الإبل ، قال :

— وابنى يزيد ؟

— أعطوه أربعين أوقية ومائة من الإبل .

— وابنى معاوية ؟

فأعطاه أربعين أوقية ومائة من الإبل . فقال :

— بأبى أنت وأمى يا رسول الله لأنت كريم فى الحرب وفى السلم . لقد حاربتك فنعم المحارب كنت ، وقد سالمتك فنعم المسالم أنت . هذا غاية الكرم جزاك الله خيرا .

وأعطى حكيم بن حزام مائة من الإبل ، ثم سأله مائة أخرى فأعطاه إياها ، ثم سأله مائة فأعطاه وقال له :

— يا حكيم هذا المال خضر حلو من أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، واليد العليا خير من اليد السفلى .

فأخذ حكيم المائة الأولى وترك ما عداها وقال :

ـــ يا رسول الله والذى بعثك بالحق نبيا لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا .

فكان أبو بكر يدعو حكيما ليعطيه العطاء فيأبى أن يقبل منه شيئا ، ثم إن عمر دعاه ليعطيه فأبى أن يقبله .

وأعطى النضير بن الحارث بن علقمة بن كلدة مائة من الإبل ، وأعطى أسيد بن جارية الثقفى مائة من الإبل ، وأعطى العلاء بن جارية الثقفى خمسين بعيرا . وأعطى مخرمة بن نوفل خمسين بعيرا ، وأعطى الحارث بن هشام مائة من الإبل ، وأعطى سعيد بن يربوع خمسين من الإبل ، وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ، وأعطى قيس بن عدى مائة من الإبل ، وأعطى عثمان بن وهب خمسين من الإبل وأعطى سهيل بن عمرو مائة من الإبل ، وأعطى حويطب بن عبد العزى مائة من الإبل ، وأعطى هشام بن عمرو العامرى خمسين من الإبل ، وأعطى الأقرع بن حابس التميمى مائة من الإبل ، وأعطى عيينه بن حصن مائة من الإبل ، وأعطى العباس بن مرداس أربعين من الإبل ، فقال العباس بن مرداس :

كانت نهابـــــا تلافـــــيتها ... بكرُى على المهر فى الأجرع[1]

وإيقاظـــى القـــوم أن يرقـــدوا ... إذا هجـــع النـــاس لم أهجـــع

فاصبـــح نهبـــى ونهب العبيـــ ... ـــد[2] بين عيينـــه والأقـــرع

وقد كنت فى الحرب ذا تدرأ[3] ... فلـــم أعـــط شيئـــا و لم أمنـــع

---

(١) الأجرع : السهل .

(٢) العبيد : اسم فرس عباس بن مرداس .

(٣) ذا تدرأ : ذا دفع عن قومى .

إلا أفائـــل(١) أعطـــيتها عديـــد قوائمهـــا الأربـــع
ومـا كان حصن ولا حـابس يفوقـان مـرداس فى المجمـع
وما كنت دون امرىء منهما ومـن تضع اليـوم لا يرفـع

فقال رسول الله ـ ﷺ :

ـ اقطعوا عنى لسانه .

فأتى به أبو بكر الصديق إلى الغنائم وقال له :

ـ خذ منها ما شئت .

ـ إنما أراد رسول الله ـ ﷺ ـ أن يقطع لسانى بالعطاء .

فكره أن يأخذ منها شيئا ، فبعث رسول الله ـ ﷺ ـ إليه بحلة ، وقيل :

ـ يا رسول الله ، أعطيت عيينه بن حصن والأقرع بن حابس مائة وتركت جعيل بن سراقة .

ـ أما والذى نفسى بيده لجعيل بن سراقة خير من طلاع الأرض كلهم مثل عيينه والأقرع ، ولكننى تألفتهما ووكلت جعيل بن سراقة إلى إسلامه .

وكان جعيل بن سراقة من فقراء المسلمين وكان رجلا صالحا دميما قبيحا ، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يحبه وإن رسول الله عليه السلام ليعطى الرجل وغيره أحب منه خشية أن يكب فى النار على وجهه . وقد قال عليه السلام :

ـ إن من الناس ناسا نكلهم إلى إيمانهم منهم فرات بن حيان .

أعطى رسول الله عليه السلام المؤلفة قلوبهم من الخمس فاجتمع إليه الناس

---

(٤) أفائل : الصغار من الإبل .

وصاروا يقولون :

— يا رسول الله اقسم علينا .

وتدفقوا نحوه حتى ألجئوه إلى شجرة فاختطفت رداءه فقال :

— ردوا ردائى أيها الناس ، فوالله إن كان لى شجر تهامة نعما لقسـ
عليكم ، ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولا جبانا ولا كذوبا .

ثم قام — صلى الله عليه وسلم — إلى جنب بعيره فأخذ وبرة من سنامه ثم رفعها ثم قا

— أيها الناس ، والله ما لى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخـ
مردود عليكم ، فأدوا الخياط والمخيط فإن الغلول يكون على أهله عارا و شـ
ونارا يوم القيامة .

فجاء شخص من الأنصار بكبة من خيوط شعر وقال :

— يا رسول الله أخذت هذه الكبة أعمل بها بردعة بعير لى دبر .

فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — :

— أما نصيبى منها فلك .

ففهم الأنصارى أنه عليه السلام قد طابت نفسه فى الخمس وأما
المسلمين فليس له أن يجود به ، فقال الرجل :

— أما إذ بلغت هذا فلا حاجة لى بها .

وألقاها . وقالت امرأة عقيل بن أبى طالب لعقيل :

— إنى قد علمت أنك قد قاتلت فماذا أصبت من الغنيمة ؟

وكان عقيل قد أخذ إبرة من الغنيمة قبل أن تقسم بين المسلمين ، فد
إلى امرأته وهو يقول :

— دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك .

فسمع منادى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقول :

— من أخذ شيئا فليرده حتى الخياط .

فرجع وأخذها منها وألقاها فى الغنائم .

وكان أبو جهم بن حذيفة العدوى على الأنفال فجاءه خالد بن البرصاء وأخذ من الأنفال زمام شعر فمانعه أبو جهم . فلما تمانعا ضربه أبو جهم بالقوس فشجه شجة منقلة ، فاستعدى عليه خالد بن البرصاء رسول الله — ﷺ — فقال له عليه السلام :

— خذ خمسين شاة ودعه .

فقال خالد فى إصرار :

— أقدنى منه .

— خذ مائة ودعه .

— أقدنى منه .

— خذ خمسين ومائة ودعه وليس لك إلا ذلك ، ولا أقيدك من وال عليك .

ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاء الناس والغنائم ثم فرقها وقسمها على الناس ، فكانت سهامهم لكل رجل أربع من الإبل وأربعون شاة ، فإن كان فارسا أخذ أربع عشرة من الإبل أو عشرين ومائة شاة ، وإن كان معه أكثر من فرس لم يسهم للفرس الزائد ، فلم يعط الزبير إلا لفرس واحد وكان معه أفراس وقال بعض المنافقين :

— هذه القسمة ما عدل فيها ولا أريد بها وجه الله .

فأخبر بذلك النبى فغضب — ﷺ — غضبا شديدا واحمر وجهه وقال :

— من يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله ؟ رحمة الله على أخى موسى عليه

السلام لقد أوذى بأكثر من هذا فصبر .

فقام إليه عمر بن الخطاب فقال :

— يا رسول الله ألا أضرب عنقه ؟

— لا .

ثم أدبر فقام إليه خالد بن الوليد فقال :

— يا رسول الله ألا أضرب عنقه ؟

— لا . لعله أن يكون يصلى .

فقال خالد :

— وكم من مصل يقول لسانه ما ليس فى قلبه .

— إنى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم .

وأعطى رسول الله — ﷺ — ما أعطى من تلك العطايا فى قريش بعد أن بايعه من بنى أمية : أبو سفيان بن حرب وطليق بن سفيان بن حرب وخالد ابن أسيد ابن أبى العيص بن أمية ، ومن بنى عبد الدار بن قصى : شيبة بن عثمان ابن أبى طلحة وأبو السنابل بن يعكك وعكرمة بن عامر بن هاشم ، ومن بنى مخزوم : زهير بن أمية بن المغيرة وهشام بن الوليد بن المغيرة وسفيان بن عبد الأسد بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم والسائب بن أبى السائب ، ومن بنى عدى : مطيع بن الأسود وأبو جهم بن حذيفة ، ومن بنى جمح صفوان بن أمية وأحيحة بن أمية بن خلف وعمير بن وهب بن خلف . ومن بنى سهم : عدى بن قيس ، ومن بنى عامر ، حويطب بن عبد العزى وهشام بن عمر .

ومن أفناء القبائل : من بنى بكر بن عبد مناة بن كنانة : نوفل بن معاوية ، ومن بنى سليم : عباس بن مرداس . ومن بنى غطفان : عيينه بن حصن ، ومن بنى تميم الأقرع بن حابس . فلما أعطى رسول الله — ﷺ — ما أعطى

من تلك العطايا فى قريش وقبائل العرب و لم يكن فى الأنصار منها شيء وجدوا فى أنفسهم وغضبوا حتى كثرت منهم القالة ، فقال بعضهم :

ـ إن هذا لهو العجب . يعطي قريشا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم ؟

ـ إن سيوفنا تقطر من دماء قريش وإن غنائمنا ترد عليهم .

ـ إذا كانت شديدة ندعى إليها ويعطى الغنيمة غيرنا .

ـ سيوفنا تقطر من دمائهم وهم يذهبون بالغنم ، فإن كان من أمر الله صبرنا وإن كان من أمر رسول الله استعتبناه .

وقال حسان بن ثابت يعاتبه فى ذلك :

زادت هموم فماء العين منحدر ... سحًّا إذا حفلته عبرة درر

وجدا بشماء إذ شماء بهكنة[١] ... هيفاء لا دنس فيها ولا خور

دع عنك شماء إذ كانت مودتها ... نزرا وشر وصال الواصل النزر

وأت الرسول فقل يا خير مؤتمن ... للمؤمنين إذا ما عُدّد البشر

علام تدعى سليم وهى نازحة ... قدام قوم هم آووا وهم نصروا

سماهم الله أنصارا بنصرهم ... دين الهدى وعوان الحرب تستعر

وسارعوا فى سبيل الله واعترفوا ... لنائبات وماخاموا[٢] وماضجروا

والناس إلب علينا فيك ليس لنا ... إلا السيوف وأطراف القنا وزر[٣]

نجالد الناس لا نبقى على أحد ... ولا نضيّعُ ما توحى به السور

---

(١) شماء : امرأة وبهكنة : كثيرة اللحم .

(٢) خاموا : جبنوا .

(٣) الوزر : الملجأ .

ولا تهر(١) جناة الحرب نادينا ونحن حين تلظّى نارها سعر
كما رددنا ببدر دون ما طلبوا أهل النفاق وفينا ينزل الظفر
ونحن جندك يوم النعف(٢) من أحد
إذا حزبت بطرا(٣) أحزابها مضر

وقال بعضهم :

— لقى والله رسول الله — ﷺ — قومه .

فدخل عليه سعد بن عبادة فقال :

— يا رسول الله إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم لما صنعت فى هذا الفىء الذى أصبت ؛ قسمت فى قومك وأعطيت عطايا عظاما و لم يكن من الأنصار منها شىء .

— فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

— يا رسول الله ما أنا إلا من قومى .

— فاجمع لى قومك فى هذه الحظيرة .

فخرج سعد فجمع الأنصار فى تلك الحظيرة ، فجاء رجال من المهاجرين فتركهم فدخلوا وجاء آخرون فردهم . فلما اجتمعوا له أتاه سعد فقال :

— قد اجتمع لك هذا الحى من الأنصار .

فأتاهم رسول الله — ﷺ — فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

---

(١) تهر : تكره .

(٢) النعف : أسفل الجبل : وحزبت : جمعت .

(٣) البطر : كفران النعمة .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— يا معشر الأنصار ما قالة بلغتنى عنكم وجِدَة[١] وجدتموها علىّ فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

— بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل .

— ألا تجيبونى يا معشر الأنصار ؟

— بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المن والفضل .

— أما والله لو شئتم لقلتم فلصَدَقتم ولصُدقتم : أتيتنا مكذبا فصدَّقناك، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فآسيناك . أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لُعاعة (بقلة خضراء) من الدنيا تألفت بها قوما ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا :

— رضينا برسول الله قَسْما وحظا .

(١) وجد : غضب وحزن .

١٨

استأنى رسول الله — ﷺ — بسبى هوازن فقد كان يرجو أن يأتى أهلهم مسلمين ، ولكنه مكث عليه السلام بالجعرانة ثلاثة عشر يوما دون أن يقدم وفد هوازن فراح يقسم السبى بين المسلمين بعد أن كساهم قبطية قبطية ، وهى ثياب بيض تتخذ من كتان مصر . فأعطى على بن أبى طالب جارية يقال لها ريطة بنت هلال بن حيان بن عميرة بن هلال بن ناصرة بن قصية بن نصر بن سعد بن بكر ،وأعطى عثمان بن عفان جارية يقال لها زينب بنت حيان بن عمرو بن حيان ، وأعطى عمر بن الخطاب جارية فوهبها لعبد الله بن عمر ابنه فبعث بها إلى أخواله من بنى جمح ليصلحوا له منها ويهيئوها حتى يطوف بالبيت ثم يأتيهم .

ونظر عيينه بن حصن إلى عجوز كبيرة فقال :

— هذه أم الحى لعلهم أن يغلوا بفدائها ، وعسى أن يكون لها فى الحى نسب .

فأخذها وهو يطمع فى أن يعظم فداؤها . وأمر رسول الله — ﷺ — بحبس أهل مالك بن عوف النصرى بمكة عند عمتهم أم عبد الله بن أبى أمية ، و لم يجز أن تجرى السهمان فى مال مالك بن عوف الذى جمع القبائل لحربه ثم لما انهزم تحصن فى حصن الطائف وأرسل السهام وقتل الرجال :

وفد وفد هوازن على رسول الله — ﷺ — وهم أربعة عشر رجلا ورأسهم زهير بن صرد وفيهم أبو برقان عم رسول الله — ﷺ — من

الرضاعة وقد أسلموا ، فقالوا :

ــ يا رسول الله إنا أهل وعشيرة وقد أصابنا من البلاء ما لم يخف عليك ، فامنن علينا .

وقام أبو صرد فقال :

ــ يا رسول الله إنا أهل وعشيرة ، فامنن علينا وعلى النسوة اللاتى كن معك يكفلنك ، ولو أنا ملحنا (أرضعنا) للحارث بن شمر أو للنعمان بن المنذر ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به لرجونا عطفه وعائدته علينا ، وأنت خير المكفولين ، ثم أنشد :

امنن علينا رسول الله فى كرم ... فإنك المرء نرجوه وننتظر

امنن على بيضة قد عاقها قدر ... ممزق شملها فى دهرها غير

يا خير طفل ومولود ومنتجب ... فى العالمين إذا ما حصل البشر

إن لم تداركهم نعماء تنشرها ... يا أرجح الناس حلما حين يختبر

فامنن على نسوة قد كنت ترضعها ... إذ فوك يملؤه من محضها درر

إذ كنت طفلا صغيرا كنت ترضعها ... واد يزينك ما تأتى وما تذر

لا تجعلنا كمن شالت نعامته(١) ... واستبق منا فإنا معشر زهر

يا خير من مرحت(٢) كمت الجياد به ... عند الهياج إذا ما استوقد الشرر

إنا لنشكر آلاء وإن كفرت ... وعندنا بعد هذا اليوم مدّخر

إنا نؤمل عفوا منك تلبسه ... هذى البرية إذ تعفو وتنتصر

---

(١) شالت نعامتهم : ماتوا وتفرقوا . والنعامة : الجماعة .

(٢) مرحت الخيل : نشطت وتبخترت .

فاغفر عفا الله عما أنت واهبـه		يوم القيامة إذ يهدى لك الظفـر

فقال رسول الله — ﷺ :

— أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟

— يا رسول الله خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا . فرد إلينا أبناءنا ونساءنا فهو أحب إلينا .

فأرشدهم عليه السلام إلى ما يفعلون ، فلما صلى الظهر قاموا وقالوا ما لقنهم إياه عليه السلام :

— إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا .

فقال عليه السلام :

— أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم .

وقال المهاجرون :

— وما كان لنا فهو لرسول الله — ﷺ .

وقالت الأنصار :

— وما كان لنا فهو لرسول الله — ﷺ — .

وقال الأقرع بن حابس :

— أما أنا وبنو تميم فلا .

وقال عيينة بن حصن الخليع المطاع :

— أما أنا وبنو فزارة فلا .

وقال عباس بن مرداس :

— أما أنا وبنو سليم فلا .

فقالت بنو سليم :

ــ بلى . ما كان لنا فهو لرسول الله ــ ﷺ ــ .

فقال عباس لبنى سليم :

ــ وهنتمونى .

فقال رسول الله ــ ﷺ : أما من تمسك منكم بحقه من هذا السبى فله بكل إنسان ست فرائض ، من أول سبى أصيبه ، فردوا إلى الناس أبناءهم ونساءهم .

أخذ رسول الله على نفسه فى سبيل تحرير الرقاب أن يدفع لكل من لم تطب نفسه أن يرد ما فى يده ستة أبعرة من أول ما يفىء الله عليه ، فرد الناس ما فى أيديهم إلا عيينة بن حصن فقد أبى أن يرد العجوز وقد طمع فى أن يعظم فداؤها .

وجاء ابنها إلى عيينة فقال :

ــ هل لك فى مائة من الإبل ؟

ــ لا .

فرجع عنه فتركه ساعة ، وجعلت العجوز تقول لابنها :

ــ ما إربك فى بعد مائة ناقة ؟ اتركه فما أسرع ما يتركنى بغير فداء .

فلما سمعها عيينة قال :

ــ ما رأيت كاليوم خدعة . والله ما أنا من هذه إلا فى غرور ، ولا جرم والله لأبعدن أثرك منى .

ثم مر بها ابنها فقال له عيينة :

ــ هل لك فيما دعوتنى إليه ؟

ــ لا أزيدك على خمسين .

— لا أفعل .

ثم لبث ساعة فمر به وهو معرض عنه ، فقال له عيينة :

— هل لك فى الذى بذلت لى ؟

قال له الفتى :

— لا أزيدك على خمس وعشرين فريضة .

— والله لا أفعل .

فلما تخوف عيينة أن يتفرق الناس ويرتحلوا قال :

— هل لك فيما دعوتنى إليه إن شئت ؟

— هل لك إلى عشر فرائض ؟

— لا أفعل .

وتأهب الناس للرحيل فناداه عيينة :

— هل لك إلى ما دعوتنى إليه إن شئت ؟

— أرسلها وأحمدك .

— لا والله ما لى حاجة بحمدك .

فأقبل عيينة على نفسه لائما لها يقول :

— ما رأيت كاليوم أمرا أنكد .

— أنت صنعت هذا بنفسك . عمدت إلى عجوز كبيرة . والله ما ثديها بناهد ولا بطنها بوالد ولا فوها ببارد ولا صاحبها بواجد ، فأخذتها من بين ما ترى .

— خذها لا بارك الله لك فيها .

— يا عيينة إن رسول الله — ﷺ — قد كسا السبى فأخطأها من بينهم الكسوة ، فهل أنت كاسيها ثوبا ؟

— لا والله ما لها ذاك عندى .

— لا تفعل .

فما فارقه حتى أخذ منه سمل ثوب . ولقى عيينة بن حصن الأقرع بن حابس فشكا إليه ما كان من أمره وأمر العجوز ، فقال له الأقرع :

— إنك والله ما أخذتها بيضاء غريرة[١] ، ولا نصفا وثيرة[٢] .

وقال النبى — صلى الله عليه وسلم — لوفد هوازن :

— ما فعل مالك بن عوف ؟

— يا رسول الله هرب فلحق بحصن الطائف مع ثقيف .

— أخبروه أنه إن أتى مسلما رددت عليه أهله وماله وأعطيته مائة من الإبل .

وانطلق رجل إلى حيث كان مالك بن عوف فأسر له ما قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، فخاف مالك ثقيفا على نفسه أن يعلموا أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال له ما قال فيحبسوه ، فأمر براحلة فهيئت له وأمر بفرس له فأتى به إلى الطائف ، فخرج ليلا فجلس على فرسه وركضه حتى أتى الدهناء فإذا براحلته حيث أمر بها أن تحبس فركبها ، فلحق برسول الله — صلى الله عليه وسلم — فأدركه بجعرانة قبل أن ينطلق إلى مكة .

واستقبله عليه السلام بالترحاب ورد عليه أهله وماله ، ورأى مالك بن عوف جود النبى وحلمه وعفوه وزهده فى الدنيا ومكارم أخلاقه ، فأنشد :

ما إن رأيت ولا سمعت بمثله ... فى الناس كلهم بمثل محمد

---

(١) الغريرة : المتوسطة من النساء فى السن .

(٢) الوثيرة من النساء : السمينة اللينة .

أوفى وأعطى للجزيل إذا اجتدى[١]
ومتى تشأ يخبرك عما فى غد

وإذا الكتيبة عرّدت[٢] أنيابها   بالسمهرى وضرب كل مهند
فكأنه ليث على أشباله   وسط الهباءة خادر فى مرصد[٣]

فاستعمله رسول الله ـ ﷺ ـ على من أسلم من قومه وتلك القبائل من ثمالة وسلمة وفهم ، فخرج ليقاتل بهم ثقيفا حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

وتزوج عبد الرحمن بن عوف بادية بنت غيلان بن مسلمة ، وخرج عبد الله بن عمر ليطوف بالبيت ثم يأتى أخواله من بنى جمح ليصيب تلك المرأة التى وهبها له أبوه عمر بن الخطاب من سبى هوازن ، فلما انتهى من طوافه وخرج من الحرم فإذا الناس يشتدون فقال :

ـ ما شأنكم ؟

ـ رد علينا رسول الله ـ ﷺ ـ نساءنا وأبناءنا .

ـ تلكم صاحبتكم فى بنى جمح فاذهبوا وخذوها .

ورد رسول الله ـ ﷺ ـ إلى صفوان بن أمية السلاح الذى كان قد أخذه عارية مضمونة . ورد الأموال التى كان قد اقترضها لينفقها على فقراء المسلمين بعد أن فتح الله عليه مكة ، فراح صفوان بن أمية يقلب النظر فى الإبل والأغنام التى ملأت الوادى وقد قسمها عليه السلام بنفس راضية على أعداء

---

(١) اجتدى : طالبوه بالعطاء .

(٢) عردت أنيابها : نفذت واشتدت ، والسمهرى : السيف .

(٣) الهباءة : الغبار يثور عند اشتداد الحرب ، والخادر : الأسد فى عرينه ، والمرصد : المكان يرقب منه . يصفه باليقظة .

الأمس فامتلأ إعجابا بالرجل الذى خرج من مكة و لم يكن هناك رجل أبغض إلى قلبه منه ، فإذا بخلقه العظيم يستولى على فؤاده وإذا بالكراهية تتبختر ليحل مكانها حب عظيم للنبى الكريم الذى أسر القلوب ، كل القلوب .

وقال قائل فى هوازن يذكر مسيرهم إلى رسول الله — ﷺ — مع مالك بن عوف بعد إسلامه :

اذكر مسيرهم للناس إذ جمعوا ومالك فوقه الرايات تختفق
ومالك مالك ما فوقه أحد يوم حنين عليه التاج يأتلق
حتى لقوا الباس حين الباس يقدمهم
عليهم البيض(١)والأبدان والدرق(٢)

فضاربوا الناس حتى لم يروا أحدا حول النبى وحتى جنه الغسق
ثمّت نزّل جبريل بنصرهم من السماء فمهزوم ومعتنق
منّا ولو غير جبريل يقاتلنا لمنّعتنا إذن أسيافنا العتق
وفاتنا عمر الفاروق إذ هُزموا بطعنة بلّ منها سرجه العلق(٣)

وحبس إسلام مالك بن عوف فراح يقاتل بمن أسلم من قومه وبقبائل ثمالة وسلمة وفهم ثقيفا ، لا يخرج لهم سرح إلا أغار عليه وأخذه ،وأرسل بالخمس مما يغنم إلى رسول الله — ﷺ . فلما ضيق على ثقيف قال أبو محجن الثقفى :

هابت الأعداء جانبنا ثم تغزونا بنو سَلمة
وأتانا مالك بهم ناقضا للعهد والحُرمة
وآتونا فى منازلنا ولقد كنا أولى نَقِمة

---

(١) البيض : الخوذات توضع على الرءوس .
(٢) الدرق : الصلب من كل شىء .
(٣) العلق : الدم .

١٩

خرج رسول الله ـ ﷺ ـ من الجعرانة معتمرا وذلك ليلة الأربعاء لثنتى عشرة ليلة مضت من ذى الحجة ، فأحرم بعمرة وأمر ببقايا الفىء فحبس بمجنة بناحية مر الظهران .

وانطلق المسلمون إلى البيت الحرام وقد أثر فى نفوسهم ذلك الكرم الفياض الذى غمر به رسول الله ـ ﷺ ـ المؤلفة قلوبهم وأعداء الأمس ووفد هوازن الذين جاءوا مسلمين فرد إليهم نساءهم وأبناءهم بعد أن وقعت المقاسم مواقعها .

وكانت أم سلمة بنت زاد الركب بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم فى هودجها تنظر فى انفعال إلى الوادى الذى غص بالغنائم التى قسمها رسول الله ـ ﷺ ـ بين المسلمين ، وإلى سادات المدينة وسادات قريش وسادات القبائل وقد لبسوا ملابس الإحرام وقد ارتفعت أصواتهم بالتلبية لرب العالمين ، فترقرقت فى مآقيها الدموع وعادت بها ذكرياتها إلى أيام الاضطهاد والتعذيب ، فرأت نفسها وهى تهاجر إلى الحبشة مع زوجها عبد الله بن عبد الأسد بن هلال فرارا بدينها . إنها ولدت له هناك زينب وسلمة وعمر ودُرَّة ، وقد عادت إلى مكة لما بلغ المسلمين فى الحبشة أن قريشا قد آمنت بالنور الذى أنزل مع رسول الله عليه السلام . ولكنها لما بلغت مرفأ مكة علمت أن قريشا قد حبست المسلمين وبنى هاشم وبنى المطلب فى شعب أبى طالب فعادت وزوجها أبو سلمة إلى الحبشة لتكون فى جوار ملك لا يظلم عنده أحد .

ورأت نفسها يوم أن هاجرت إلى المدينة ويوم أن خرج أبو سلمة إلى أحد فرماه أبو أسامة الجشمي فى عضده بسهم فمكث شهرا يداوى جراحه ، ثم برأ الجرح وبعث رسول الله — ﷺ — أبا سلمة إلى قطن فى المحرم على رأس خمسة وثلاثين شهرا فغاب تسعا وعشرين ليلة ، ثم رجع فدخل المدينة لثمان خلون من صفر سنة أربع والجرح منتفض . إنها لتذكر ذلك التاريخ وتذكر ما كان بعده فقد مات أبو سلمة متأثرا من جراحه لثمان خلون من جمادى الآخرة من نفس السنة .

وحضره النبى وهو يجود بأنفاسه فلما فاضت روحه كبر — ﷺ — تسع تكبيرات ، فقيل له :

— يا رسول الله أسهوت أم نسيت ؟

— لم أسه و لم أنس ، ولو كبرت على أبى سلمة ألفا كان أهلا لذلك .

وطاف بذهنها يوم أن بعث إليها رسول الله — ﷺ — يخطبها وقد جاوزت سن الشباب معها عيال صغار وفى بيت النبى عليه السلام عائشة وحفصة ، فأرسلت إلى النبى — ﷺ — تعتذر بأنها غيرى مسنة ذات عيال .

ويا طالما تذكرت رده الكريم الذى مس أوتار قلبها وكان لها النور الذى أضاء حياتها مع الرسول عليه السلام ، « أما إنك مسنة فأنا أكبر منك ، وأما الغيرة فيذهبها الله عنك ، وأما العيال فإلى الله ورسوله » .

ودخلت أيم العرب على سيد المرسلين أول العشاء عروسا ، وقامت من آخر الليل تطحن . ومنذ تلك الليلة ذاقت عظمة البساطة التى يحياها كل من نزل دور النبى — صلوات الله وسلامه عليه ، واستمرأت بنت زاد الركب حياة التقشف مع إمام الزاهدين .

ورفت على شفتيها بسمة رضا فقد قال رسول الله — ﷺ — قبل أن يتزوجها : إن لعائشة منى شعبة ما نزلها أحد . فلما تزوجها سئل رسول الله — ﷺ — فقيل :

— يا رسول الله ما فعلت الشعبة ؟

فسكت رسول الله — ﷺ ، فعلم الناس أنها قد نزلت عنده .

ورأت بخيالها رسول الله عليه السلام وهو يحنو على أولادها ، إنه كان يأتيها فيقول : « أين زناب ؟ » وقد اختار — صلوات الله وسلامه عليه — ابنها سلمة الذى شب فى حجره عليه السلام زوجا لابنة عمه حمزة أسد الله وأسد رسوله وسيد الشهداء .

وقفز إلى ذهنها حادث لم تستطع أن تنساه : إنه عليه السلام كان عندها وابنتها زينب فى حجرها فجاءته الزهراء مع ولديها الحسن والحسين فضمهما إليه ثم قال :

— رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد .

إنها بكت فى ذلك اليوم فنظر إليها رسول الله — ﷺ — وسألها :

— ما يبكيك ؟

— يا رسول الله خصصتهم وتركتنى وابنتى .

— إنك وابنتك من أهل البيت .

وقالت وهى فى هودجها فى صوت خافت وإن كان نابضا بالتأثر والانفعال :

— صدق الله تعالى : إنك لعلى خلق عظيم يا رسول الله .

ولاحت أرباض مكة فارتفعت أصوات المسلمين بالتلبية لله وحده لا شريك له .

وقد تهللت الوجوه بالبشر وامتلأت الأفئدة راحة والصدور انشراحا ، فقد كانت أول مرة يتدفق فيها المهاجرون والأنصار وسادات قريش إلى مكة وقد اتحدت قبلتهم وارتفعت تلبيتهم وشهدوا جميعا باللسان والقلب إن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

ووقعت الأعين على أول بيت وضع للناس وقد طهر من الأوثان والأصنام وعاد مرة ثانية منارة للتوحيد كما كان يوم أن رفع القواعد من البيت إبراهيم وإسماعيل ، فخفقت القلوب وجدا فى الصدور وهوت الأنفس إلى البيت العتيق ، وارتفعت الأصوات بالابتهال إلى رب العالمين : ربنا تقبل منا إنك أنت السمع العليم .

وراح رسول الله — ﷺ — يطوف بالبيت وجبال مكة ووديانها تسترجع دعوة خليل الرحمن إبراهيم : « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم »[1] .

وانتهى الطواف والدعاء فصلى عليه السلام ركعتين عند مقام إبراهيم ثم خرج المسلمون إلى الصفا للسعى تخليدا لذكرى هاجر المصرية أم العرب يوم كاد ابنها إسماعيل يموت عطشا عند بيت الله المحرم ، فأخذت تهرول بين الصفا والمروة لعلها تلمح قادما من بعيد يروى ظمأ ابنها الذى أشرف على الهلاك من شدة العطش .

وجعل الأنصار يسعون بين الصفا والمروة وقد اطمأنت قلوبهم فقد كانوا يكرهون الطواف بين الصفا والمروة لأنهما كانا من مشاعر قريش فى الجاهلية

---

(١) البقرة ١٢٩ .

فتركوه فى الإسلام . فلما أنزل الله تعالى : « إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم »[1] . راحوا يسعون بينهما وقد أشرقت أفئدتهم بأنـوار اليقين .

وفرغ رسول الله ـــ ﷺ ـــ من عمرته وتأهب للرجوع إلى المدينة . فجاء أبو سفيان بن حرب وصفوان بن أمية وسهيل بن عمرو وشيبة بن عثمان ابن أبى طلحة وسادات بنى المغيرة وحويطب بن عبد العزى ليودعوه وقد تعلقت أفئدتهم به .

واستخلف عليه السلام عتَّاب بن أسيد على مكة وكان عمره عشرين سنة ، وخلف معه معاذ بن جبل يفقه الناس ، ولما استعمل النبى ـــ ﷺ ـــ عتَّاب بن أسيد على مكة رزقه كل يوم درهما ، فقام فخطب الناس فقال :

ـــ أيها الناس ، أجاع الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقنى رسول الله ـــ ﷺ ـــ درهما كل يوم فليست بى حاجة إلى أحد .

وخرج عليه السلام من مكة ووقف أهلها يودعونه وفى القلوب لوعة وفى المآقى عبرات ، وخرج معه عمه العباس بن عبد المطلب فلم يعد هناك ما يفعله فى أم القرى بعد أن هدى الله أهلها إلى الإسلام . وكانت أم سلمة فى هودج وميمونة أم المؤمنين فى هودج وانطلق الركب قاصدا المدينة فسلك عليه السلام فى وادى الجعرانة حتى خرج على سَرِف فإذا بذكريات حبيبة تتزاحم فى رأس ميمونة آخر نساء رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه .

إن أختها أم الفضل زوج العباس عم النبى كانت أول امرأة آمنت برسول

---

(١) البقرة ١٥٨ .

الله ـــ ﷺ ـــ بعد خديجة ، ولطالما حدثتها عن رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ فهفا إليه فؤادها . ولم تكن أم الفضل وحدها هى التى ارتبطت بالإسلام من أهلها فأختها من أمها أسماء بنت عميس كانت زوج جعفر بن أبى طالب وقد تزوجت من بعده أبا بكر الصديق ، وأختها سلمى بنت عميس كانت زوج حمزة بن عبد المطلب ، وكانت أمهن جميعا هند بنت عوف بن زهير : إنها أكرم عجوز فى مكة ، ولو أن الأسباب قد ارتبطت بين إحدى بناتها ورسول الله عليه السلام لأصبحت أكرم عجوز فى الأرض أصهارا .

كان اسمها برة وقد مات عنها زوجها أبو رهم بن عبد العزى العامرى . إنها ما إن استمعت إلى حداء عبد الله بن رواحة يوم أن جاء آخذا بخطام ناقة رسول الله عليه السلام بعد صلح الحديبية ليطوف المسلمون بالحرم ، وما إن ملأت عينيها من النبى ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ حتى استولت عليها فكرة أن تنال شرف الزواج من نبى الله وأن تصبح أما للمؤمنين . وما يمنعها أن تحقق حلمها الذى طالما راودها فى يقظتها وهى أخت أم الفضل وأسماء بنت عميس وسلمى بنت عميس الأخوات المؤمنات ؟!

إنها همست بسر قلبها إلى أم الفضل وقصت أم الفضل على العباس سر برة ، فانطلق العباس إلى ابن أخيه عليه السلام يعرض عليه الزواج من برة التى وهبت نفسها للنبى . وعاد إليها العباس وقد تهلل بالبشر فخفق قلبها سرورا امتزج بخوف ، فقد قرأت فى وجهه القبول ولكنها كانت متلهفة على أن تلتقط أذناها الخبر السار الذى يخرج من بين شفتيه .

وقال العباس إن رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ قد استجاب للعرض ، فانتابتها نشوة وأحست أنها قد ارتفعت حتى كادت تلمس نجوم

السماء ، فإنه لشرف ما بعده شرف أن تصبح أم المؤمنين ولما تتجاوز السادسة والعشرين ، وإنه لشرف لأمها العجوز فستصبح بعد أن يتزوج عليه السلام ابنتها برة أكرم عجوز فى الأرض أصهارا .

وتذكرت ذلك اليوم الأغر الذى خرجت فيه من مكة فى صحبة أبى رافع مولى رسول الله عليه السلام لتلحق بالمسلمين . إن قبتها ضربت هنا فى سرف وقد بنى بها رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — فى هذه البقعة المباركة وسماها هنا ميمونة ؟ فقد كان زواجه بها فى المناسبة الميمونة التى دخل فيها مكة لأول مرة منذ أن خرج منها مهاجرا فى سبيل الله .

وراحت ميمونة تدير عينيها فى المكان وهى فى قمة النشوة . إن روحها قد هفت إلى سرف وإن قدرها قد حدد هنا فى سرف وإن مكانتها التى نالتها كانت بفضل ما كان بينها وبين الرسول عليه السلام فى سرف . فأصبحت سرف هى مهوى الفؤاد وإنها لترجو أن تكون مثواها الأخير لما يحين الحين لتدس فى التراب .

وأخذ المسلمون الطريق إلى مر الظهران وراحوا يقلبون وجوههم فى ملكوت الله ، ينعمون بمشاهدة جماله وجلاله وينقطعون إليه ويتوكلون عليه ويلهجون بالثناء عليه أن بعث فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين .

وسار رسول الله — ﷺ — على ناقته القصواء متواضعا لله قد سدده الله لكل جميل ، ووهب له كل خلق كريم ، وجعل السكينة لباسه ، والبر شعاره ، والتقوى ضميره ، والحكمة مقوله ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ، والعدل سيرته ، والحق شريعته ، والهدى إمامه ، والإسلام ملته ، وأتاه حكمة وعلما ، وفتح به أعينا عميا ، وقلوبا غلفا ،

وآذانا صما ، وجعله رحيما بالمؤمنين ، رحمة للعالمين ، سمحا سهلا برا طلقا لطيفا ، ولو كان أمام الصادقين والصديقين فظا غليظ القلب لانفض الناس من حوله .

وانحدر المسلمون إلى مجنة فساق رسول الله — ﷺ — ما بقى من الفىء ليقسمه على فقراء المدينة ، فما خطر له على قلب أن يبقيه لنفسه ولأهل بيته فقد اختار جوع الدنيا على شبعها وفقر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها ؛ فالدنيا لا تنبغى لمحمد ولا لآل محمد ، إنه لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ، ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة ، وإنه لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خيبر .

شبعة وجوعتان ، كان هذا حاله وحال أهل بيته مذ حمل أمانه النبوة ، وقد أفاء الله عليه الخير العميم فكان له الخمس من الغنائم وما أكثرها ، وكان الخمس مردودا على الناس ، وكان نصيبه فى فىء هوازن آلاف الرءوس فقسمها على حديثى العهد بالإسلام ليؤلف قلوبهم ، وساق ما بقى من الفىء إلى المدينة ليقسمه بين المحتاجين ثم يعود سيرته الأولى : شبعة وجوعتان . فقد آثر أن يجوع يوما ويشبع يوما ، فأما اليوم الذى يجوع فيه فيتضرع إلى الله ويدعوه ، وأما اليوم الذى يشبع فيه فيحمده ويثنى عليه .

وانطلق رجل على ظهر جواده ينهب الأرض حتى دخل المدينة فقال إن رسول الله — ﷺ — قد أقبل بعد أن فتح الله عليه مكة وهزم هوازن فى حنين ، فانطلق الناس فرحين مستبشرين ليستقبلوا رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه ، وصعدت النسوة على أسطح الدور ليشاهدن نبى الله وقد عاد مكللا بالنصر . وتقدمت خيل الله تثير النقع ، ورأى المسلمون الرسول عليه السلام على ناقته القصواء وقد طأطأ رأسه تواضعا لله ، فخف الرجال إلى

صاحب الجمل الأحمر يسلمون عليه وفى القلوب أشواق وفى الوجـوه إشراق ، وارتفعت صيحات الترحيب من على جانبى الطريق ومن فوق الأشجار ومن الدور ، وعادت الذكريات إلى ذلك اليوم الذى أقبل رسول الله — ﷺ — مهاجرا مع صديقه أبى بكر . أين هذا اليوم من ذلك اليوم ؟ فقد كانا وحيدين و لم يكن الناس يعرفون أيهما رسول الله ، أما اليوم فالأعين كلها قد تعلقت بنبى الله الذى نصره الله وقد ملأت أنواره جوانح الصدور ، وأخرج أقوامه من الظلمات إلى النور .

وكان عبد الله بن أبىّ بن سلول رأس المنافقين بين المستقبلين قد اغتصب ابتسامة ترحيب بعد أن طوى نفسه على مرض قلبه ، إنه قد امتلأ حقدا على رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — وعلى المسلمين ، وقد زاد فى حنقه ذلك النصر المبين الذى توج هامات المؤمنين ، فمكة قد فتحت قلوبها قبل أبوابها للرجل الذى اغتصب منه المجد التليد ، فالأوس والخزرج كادوا أن يضعوا على رأسه التاج لولا أن جاء ابن عبد الله إلى يثرب بالدين الجديد الذى بهر الناس وجعلهم عنه يعرضون .

إنه لا يستطيع أن ينسى أن محمدا هو الذى حرمه التاج مهما مضت السنون ، وإنه يعيش على أمل واحد ، أن يرى هزيمة محمد قبل أن يموت . فإن كان محمد قد فتح مكة فإن الروم قد أحسوا خطره وإنهم ليجمعون الجموع ليقضوا على ذلك الذى وحد العرب قبل أن يصبحوا بفضل تعاليم محمد أمة تهدد مصالح الروم فى المنطقة .

وعانق عبد الله بن أبى بن سلول رسول الله — ﷺ — وهنأه بالفتح وإن كان يتربص به الدوائر وبالمسلمين . وانتهى الاستقبال الحار وانصرف الرجال إلى أهليهم ، وانطلق رسول الله — ﷺ — إلى دار فاطمة ليزورها ويقبل الحسن والحسين قبل أن يدور على أزواجه ، فقد كان بيت الزهراء أول ما يبدأ به .

٢٠

سار أبو العاص بن الربيع إلى داره وقد أمسك فى يده ابنه على ، وراح أبو العاص يتلفت بنظرات زائغة لا تستقر عيناه على شيء ، فلما دنا من الباب انقبض صدره وخفق قلبه أسى وترقرقت الدموع فى مقلتيه ، ولولا ابنه الصغير الذى أردفه خلفه جده العظيم رسول الله — ﷺ — يوم فتح مكة لأجهش بالبكاء .

ودخل الدار فإذا بها ساكنة سكون القبور ، وإذا بها مظلمة وإن فاضت فيها أشعة شمس النهار ، وإذا بها موحشة بلا حياة فقد ذهبت الحبيبة التى كانت نبض بهجته وأنفاس سروره وروح أنسه وفؤاد دنياه . واستشعر رغبة فى أن يشم عبير ذكراها فانطلق إلى حيث كانت قلادتها ، تلك القلادة التى كانت لخالته خديجة والتى أدخلتها بها عليه حين بنى عليها فأخرجها وجعل ينظر إليها فى وجد ورق لها رقة شديدة ، وبلغ انفعاله منتهاه فلم يستطع أن يحبس عبراته فجرت على خديه حتى بللت لحيته . فلما رأى على بكاء أبيه استعبر ، فضمه أبو العاص إليه فى حنان وارتمى به على أول مقعد صادفه وهاجمته الذكريات .

إنه يرى سادات قريش يمشون إليه فيقولون :

— فارق صاحبتك ونحن نزوجك أى امرأة من قريش شئت .

— لا والله إنى لا أفارق صاحبتى وما أحب أن لى بامرأتى امرأة من قريش .

ويرى نفسه وقد خرج صناديد قريش إلى بدر وهو فيهم ؛ إنه أصيب فى الأسارى فكان فى المدينة عند رسول الله — ﷺ ، وبعث أهل مكة فى فداء

أسرائهم فبعثت زينب فى فدائه بقلادتها . إنه يرى بخياله رسول الله — ﷺ — وقد رق رقة شديدة ، وإنه ليسمع فى أغوار نفسه صوت رسول الله — ﷺ — الجهورى العذب يقول :

— إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا .

وراح يمسح رأس ابنه فى حنان ويشمه فى حب فهو بضعة منها ، وهو الدوحة المباركة من رسول الله — ﷺ ، فإن كانت زينب قد مضت فقد بقى له منها على وإنه ليرجو أن يشب بطلا مثل على فارس الإسلام زوج خالته الزهراء .

وعادت إلى رأسه الذكريات ؛ إنه يرى نفسه وقد قفل راجعا إلى مكة فإذا بالحبيبة تهرع إليه لتضمه إلى صدرها فى حب وفى عينيها دمعتان حائرتان ومن بين شفتيها تتدفق عبارات الترحيب وشكر الله على أن أعاده إليها سالما . وإذا به ينسى فى غمرة اللقاء الحار ما وعد به رسول الله لحظات ، ولكن سرعان ما أفاق من نشوته وقص عليها فى أسى ما كان بينه وبين رسول الله عليه السلام ، فقد أخذ عليه أبوها أن يخلى سبيل زينب إليه .

إنه كان يحبها من أعماق قلبه وقد كانت تحبه بكل حاسة من حواسها ، ولكنها ما كانت تستطيع أن تعصى رغبات أبيها — صلوات الله وسلامه عليه ، فتجهزت وخرجت يصحبها أخوه كنانة بن الربيع فى رائعة النهار . إنه أحس وهى تخرج نياط قلبه تتقطع وأن الأرض قد مادت تحت قدميه وأن الدنيا قد أصبحت ظلاما فى ظلام .

وخرج رجال من قريش فى طلبها حتى أدركوها بذى طوى ، فروعها هبار بن الأسود بن المطلب زوج أم هانىء بنت أبى طالب عم أبيها بالرمح . فلما ريعت طرحت ذا بطنها وعاد بها أخوه وهى تهريق الدماء . إنها لم تزل تهريق

الدماء حتى ماتت هنا فى هذه الدار بين ذراعيه .

وهب أبو العاص ثائرا وراح يصر على أنيابه فى غيظ ، فرسول الله ـ ﷺ ـ قد أهدر دم هبار لما فتح مكة وقد انطلق هو خلفه يبحث عنه ليشفى غليل نفسه . ولكن هبارا قد فر ونجح إلى حين فى أن يفلت من غضبه . فإن كان هبار قد فر مرعوبا فى ذلك اليوم فلن يتركه طويلا يمشى على الأرض ، فلا بد أن يظفر به فيقتله لعل النار التى تتلظى فى أحشائه تهدأ .

إنه ذهب إلى هند أم هانىء بنت أبى طالب بعد أن أسلمت يسألها عن زوجها فأخبرته أنه فر إلى نجران .

وقال حين بلغه إسلامها :

أشاقتك هند أم أتاك سؤالها ... كذاك النوى أسبابها وانفتالها
وقد أرقت فى رأس حصن ممنع ... بنجران يسرى بعد ليل خيالها
وعاذلة هبت بليل تلومنى ... وتعذلنى بالليل ضل ضلالها
وتزعم أنى إن أطعت عشيرتى ... سأردى وهل يردين إلا زيالها
فإنى لمن قوم إذا جد جدهم ... على أى حال أصبح اليوم حالها
وإنى لحام من وراء عشيرتى ... إذا كان من تحت العوالى[1] مجالها
وصارت بأيديها السيوف كأنها ... مخاريق[2] ولدان ومنها ظلالها
وإنى لأقلى الحاسدين وفعلهم ... على الله رزقى نفسها وعيالها
وإن كلام المرء فى غير كنهه ... لكالنبل تهوى ليس فيها نصالها
فإن كنت قد تابعت دين محمد ... وعطفت الأرحام منك حبالها

---

(١) العوالى : الرماح .

(٢) المخاريق : المناديل تلف ليلعب بها .

فكونى على أعلى سحيق بهضبة ململمة[1] غبراء يبس بسلالها

إنه فكر فى ذلك الحين أن ينطلق خلفه إلى نجران . ولولا أنه لم يشأ أن يدع ابنه عليا الصغير بين يدى جده رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — حتى لا يشغله به لخرج يطلبه ليثأر منه . وراح يذرع المكان صاعدا هابطا كأسد حبس فى قفص وقد تأججت فى صدره نار حقده وثارت دماؤه حارة فى عروقه وارتسمت على وجهه ضراوة لم يكن لأحد بها عهد..

وحانت منه التفاتة نحو ابنه فألفاه يمد إليه عينيه فى قلق ، فذهب إليه واحتواه بين ذراعيه وراح يمسح رأسه بيده فى حنان . وسرعان ما شرد واستسلم للذكريات فقد ملأت رأسه صورته وقد أقبل قافلا من الشام ؛ إنه كان يحصى الأرباح فإذا بسرية لرسول الله — ﷺ — تفجأه فتصيب ما معه فيطلق ساقيه للريح حتى يدخل المدينة . وتحت جنح الليل يدخل على زينب بنت رسول الله — ﷺ — يستجير بها ، إنه لا ينسى كيف استقبلته الزوجة الكريمة بعد غياب طال ست سنوات . إنها غمرته بعطفها حتى سكن روعه وكان الفجر وسرى صوت بلال بالأذان كأنه السحر . إنه قد استشعر كأن قلبه قد انفتح لنداء السماء ولولا خشيته من أن يقال أسلم رهبة لخرج إلى رسول الله — ﷺ — وأعلن إسلامه .

ومس أذنيه صوت رسول الله — ﷺ — وهو يكبر والناس يكبرون معه ، وجاء صوت زينب من أعماق الماضى وهى تصرخ من صُفة النساء :

— أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع .

وهزته الذكرى من الرأس إلى القدم وأخذته رقة فلم يستطع أن يمسك

---

(١) ململمة : متحجرة .

دموعه عن الجريان ، وأرهفت حواسه وأعار الفضاء أذنيه كأنما يحاول أن يلتقط ما قال رسول الله — ﷺ :

— أيها الناس هل سمعتم ما سمعت ؟

— نعم .

— أما والذى نفس محمد بيده ما علمت بشىء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم ، إنه يجير على المسلمين أدناهم .

وملأت صورة رسول الله — ﷺ — وهو يدخل عليهما الأفق ، ورن صوته الجهورى العذب فى أعماقه فهزه هزا :

— أى بنية ، أكرمى مثواه ، ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له .

وسمع طرقا خفيفا على الباب فأفاق من شروده وذهب ليرى من الطارق ، فوجد ابنته أمامة قد فتحت له ذراعيها وتهلل وجهها بالفرح فاحتواها فى صدره ثم رفعها بين ذراعيه وراح يغمرها بقبلاته فرق قلبه وشفت نفسه حتى كاد يرى الراحلة العزيزة التى خلت منها الدار .

وانفلتت أمامة من بين ذراعيه لما رأت أخاها عليا فانطلقت إليه تروى له ما كانت تفعله فى دار خالتيها فاطمة وأم كلثوم وتسمع منه ما فعله جدها العظيم لما فتح مكة وسار إلى هوازن والطائف . ولما رأى أبو العاص أنهما قد شغلا عنه انسل إلى البقيع ليذرف على قبر زينب بنت محمد دمعة .

وعاد أبو العاص إلى الدار مضعضع النفس كسير الفؤاد لا يستطيع أن يهرب من الذكريات التى كانت تلح عليه ، إنه يرى زينب مسجاة فى فراشها وقد فارقت الحياة وفاطمة الزهراء وأم كلثوم ونساء النبى يبكين حولها . ويرى نفسه وقد أكب عليها يبكى وينتحب وهو يستشعر أن قطعت الأسباب بينه وبين الدنيا فقد كانت زينب كل دنياه ، ورأى رسول الله — ﷺ —

يبكي ولا يقول إلا خيرا ، ورأى ابن خاله الزبير بن العوام وهو يرفعه عن الحبيبة التي تشبث بها ثم يواسيه وهو يخرج به إلى حيث كان صحابة رسول الله ـ ﷺ.

ووقف رسول الله ـ ﷺ ـ على فراشها يستودعها الله ثم قال للنساء :

ـ اغسلنها وترا : ثلاثا أو خمسا واجعلن فى الآخرة كافورا .

ورنت فى جنبات الدار ضحكة أمامة الصغيرة فالتفت إلى حيث كان على وأمامة وهما سعيدان بحديثهما ، فحاول أن ينتزع من نفسه ابتسامة ولكن عز عليه الابتسام وسرى فى جوفه قول أخيه كنانة :

عجبت لهبار وأوباش[1] قومه   يريدون إخفارى[2] ببنت محمد

ولست أبالى ما حييت ، عديدهم   وما استجمعت قبضا يدى بالمهند؟

فأحس كأن نارا تشوى كبده و لم يطق المكث فى الدار ، فخرج كالعاصفة لا يلوى على شيء يرجو أن يسقط هبار ذات يوم فى يده ليقتله ثائرا لزينب لعل ذلك يشفى غليل نفسه .

ومرت الأيام وتأهب رسول الله ـ ﷺ ـ للخروج إلى المسجد وأنس ابن مالك يخدمه ، فقال له رسول الله ـ ﷺ :

ـ يا بنى إن قدرت أن تصبح وتمسى ليس فى قلبك غش لأحد فافعل .

وصمت عليه السلام قليلا ثم قال :

ـ يا بنى وذلك من سنتى ، ومن آخى سنتى فقد أحبنى ، ومن أحبنى كان معى فى الجنة .

---

(١) الأوباش : الأخلاط والسفلة .

(٢) الإخفار : نقض العهد .

وخرج عليه السلام إلى المسجد فجاء إليه الحسن والحسين فبش لهما وأجلسهما إلى جواره وقال :

ـــ اللهم إنى أحبهما فأحبهما .

وجاءت إليه أمامة بنت زينب فضمها إليه وأخذ يقبلها فى حب ، إنها تذكره بزينب وبأيام يتمه أيام أن كان فى كنف جده عبد المطلب ثم عمه أبى طالب . ونظر أبو العاص بن الربيع إليهما فاستشعر راحة سرعان ما غاضت لما تذكر قول رسول الله ـــ ﷺ : « إن لقيتم هبارا فأحرقوه » . ثم قوله عليه السلام : « إنما يعذب بالنار رب النار : إن ظفرتم به فاقطعوا يده ورجله ثم اقتلوه » .

ودخل هبار مسجد رسول الله ـــ ﷺ ـــ فإذا بأعين الناس تتعلق به ، وإذا بأبى العاص بن الربيع يهم بأن يهجم عليه ليقتله . فرفع هبار صوته وقال :

ـــ يا محمد أنا جئت مقرا بالإسلام ، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله .

وثبت الناس فى أماكنهم وساد المكان صمت وقلق وتقدم هبار حتى بلغ النبى عليه السلام فقال :

ـــ السلام عليك يا نبى الله .

إنه أعلن إسلامه وألقى السلام ، فرد عليه الرسول ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ السلام ، فاطمأن هبار على حياته فقال :

ـــ لقد هربت منك فى البلاد فأردت اللحوق بالأعاجم ، ثم ذكرت عائدتك وفضلك فى صفحك عمن جهل عليك . وكنا يا نبى الله أهل شرك فهدانا الله بك ، وأنقذنا بك من الهلكة ، فاصفح عن جهلى وعما كان منى فإنى مقر بسوء فعلى ، معترف بذنبى .

فالتفت — ﷺ — إليه وقال فى صوت جهورى عذب :

— يا هبار عفوت عنك وقد أحسن الله إليك حيث هداك للإسلام .

الإسلام يجب ما قبله .

وصفح النبى الكريم عن قاتل زينب الغالية ولكن الناس لم يصفحوا عنه فجعلوا يسبونه . فذكر ذلك للنبى — ﷺ — فقال :

— سب من سبك .

فانتهوا عنه وحسن إسلامه .

وأهديت إلى رسول الله — ﷺ — هدية فيها قلادة من جزع فقال :

— لأدفعنها إلى أحب أهلى إلىّ .

فأطرقت النساء أسفا وقلن :

— ذهبت بها ابنة أبى قحافة .

واعتقدت عائشة أن القلادة من نصيبها فهى تعرف مكانتها فى قلبه . ولكن رسول الله — ﷺ — دعا أمامة بنت زينب فأعلقها فى عنقها .

٢١

كان رسول الله — ﷺ — يعمل عمل البيت ما يرى فارغا قط فى بيته ، وأكثر ما يعمل الخياطة إما يخصف نعلا لرجل مسكين أو يخيط ثوبا لأرملة .

وجاءت فاطمة الزهراء بكسرة خبز إليه فقال :

— ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟

— قرص خبزته فلم تطب نفسى حتى أتيتك بهذه الكسرة .

— أما إنه أول طعام دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيام .

وخرج رسول الله — ﷺ — إلى العالية على بعد ثلاثة أميال من المدينة حيث كانت مارية فى مشربتها . إنه أنزلها أول ما جاءت من وادى النيل بمنزل لحارثة بن النعمان قرب المسجد ، فكان يكثر التردد عليها ويمكث لديها طويلا مما أثار عائشة بنت الصديق . فحولها إلى العالية وكان يختلف إليها هناك فكان ذلك أشد على نسائه — ﷺ — .

وذات ليلة أفضت مارية إلى سيدها الحبيب أنها قد حملت فاستقبل النبى عليه السلام النبأ بحمد الله . وذاع الخبر فى المدينة فانتشت النفوس بالبشرى وقابلتها نساء النبى بوجوم وحزن وألم ، فقد كانت كل منهن تعيش فى دور النبى على أمل أن تأتيه بالولد وأن تكون صاحبة الحظ الأوفى . فلما ضنت بطونهن وجادت بطن مارية الجعدة الجميلة نهشت الغيرة أفئدة أمهات المؤمنين فتقاربت رءوس يا طالما تباعدت ، وسرى همس ولمز يتهم مارية فى طهارتها ، إن قبطيا قد جاء معها من مصر فيما أهداه المقوقس إلى رسول الله — ﷺ —

وأنه يأوى إليها ويأتيها بالماء والحطب فما الذى يحول بينه وبينها ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يجزم أنه لم يخلص إليها ؟!

همس مسموم راح يرتفع حتى صار صاخبا ، وحديث إفك جديد يروج له المنافقون ويقولون :

ـــ علج يدخل على علجة .

وبلغ الاتهام مسامع رسول الله ـــ ﷺ ـــ فحزن ، فالقادمة من مصر كانت تقبل عليه بنفس راضية تبذل كل شىء فى سبيل مرضاته ، وما كان فى تصرفاتها معه ما يريب . إنها كانت تعرف للرسالة وللرسول مكانتهما وكانت تتهلل بالفرح كلما ذكرت أنها أصبحت كنساء الأنبياء اللاتى تفيض بأخبارهن التوراة ، وأنها ستهب للرسول عليه السلام قرة عين له . فقد كانت تلمس حدبه على أحفاده الحسن والحسين وعلى وأمامة وحبه لأطفال المسلمين ، فكانت تفعم بالسرور كلما حدثت رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ عن ذلك الذى فى بطنها الذى سيكون له عزاء وسلوى عن أولاده وبناته الذين قبرهم .

أكان حديثها كذبا وفرحها رياء ؟ إنه يحس أنها كانت صادقة فى كل كلمة خرجت من بين شفتيها . ولكن أقوال السوء كانت تؤذيه فراح يناجى على ابن أبى طالب ويبثه شكوكه ، فأخذ على سيفه وانطلق غاضبا إلى حيث كان ذلك الرجل القبطى الذى أساء إلى رسوله وقائده وحبيبه .

ووجده على نخلة فاستل سيفه وهم بأن يتسلق ليطيح برأسه ، ونظر القبطى فرأى الشر فى عينى فارس الإسلام الذى كانت ضرباته وترا فارتعدت فرائصه . إن الهمس كان قد سرى إلى أذنيه وإن أصابع الاتهام قد رفعت فى وجهه فما شك لحظة فى أن ابن أبى طالب قد جاء ليقتله .

وأخذ القبطى يتلفت مرعوبا لا يدرى أين المفر ، وراح يتسلق ما بقى من النخلة فى فزع وألقى الرداء الذى كان يستره فتعرى فإذا به مجبوب ، فأعاد على كرم الله وجهه سيفه إلى غمده وانقلب إلى رسول الله — ﷺ — يخبره بما رأى .

ما أبشع مرجفى السوء خاضوا فى حديث الإفك لما اتهموا عائشة بصفوان وقد نزلت براءتها من فوق سبع سموات ، واتهموا مارية بنت شمعون فى رجل مجبوب ، وما أقسى ما قاسى عليه السلام من آلام نفسه الرقيقة الشفافة الحساسة التى جرحتها أقاويل منافقين ينعمون بالسرور لما تشيع الفاحشة بين الناس .

وخاف عليه السلام على المصرية التى وفدت إلى أرض الحجاز كما وفدت من قبل هاجر المصرية وليدة أبيه إبراهيم خليل الرحمن فنقلها إلى العالية على ثلاثة أميال من المدينة ، وراح عليه السلام يعنى بها حتى إذا عاد إلى دوره تركها فى رعاية أختها سيرين .

وبلغ عليه السلام وادى القُفّ وانطلق إلى مَشربة مارية ، فألفى مارية فى فراشها تتلوى من الألم وإلى جوارها سيرين ، فما إن سمعت صوته وهو يلقى عليهما السلام حتى رفت على شفتيها ابتسامة وغاض من وجهها كل جهد ، فهى تستشعر سعادة غامرة كلما أشرق عليها ، وكان الأنس به بلسم الروح وأنفاس الحياة .

وما أسرع الساعات التى مرت وهو إلى جوارها . إن المصرية البيضاء الجعدة التى جمعت سحر مصر وجمال الرومان كانت تتمنى بكل عواطفها أن يبقى معها حتى تضع ما فى بطنها ، ولكنها تعلمت مذ سعدت به أنه وإن كان يحدب على نسائه إلا أن واحدة منهن لم تستطع أن تستأثر به وأن تقعده عن

تأدية رسالته . كن جميعا يعلمن أن هواه مع ربه وأن لو وضعت الشمس فى يمينه والقمر فى يساره على أن يترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو يهلك فيه ما تركه .

وقام عليه السلام وهو يدعو لمارية بالخير ، وركب حماره وسار ليعود إلى المدينة وهو يفكر فى الحج فقد كان الشهر ذا الحجة وكان الناس هناك فى مكة يطوفون حول أول بيت وضع للناس وقد تطهر من الأصنام . إن حلم حياته قد تحقق فقد عادت منارة التوحيد كما كانت بيتا لله وحده لا شريك له ، فأطرق برأسه تواضعا لله رب الناس إله الناس .

ودخل داره ودعا سلمى مولاته امرأة أبى رافع . إنها كانت مولدة الحسن والحسين وإنه عليه السلام يريد أن تكون قابلة مارية ، وأمرها أن تخرج إلى العالية لتكون إلى جوار فتاته المصرية ، فانطلقت سلمى وأبو رافع معها وهى تدعو الله أن يمن على رسوله بغلام تقر به عينه ، فهى ترى حبه الشديد لأحفاده وأبناء المسلمين .

ووضعت مارية غلاما زكيا فراح أبو رافع يشتد حتى دخل مسجد الرسول فألفاه عليه السلام يتعبد فى محرابه ، فانتظر وهو يتململ من الانفعال حتى إذا ما انتهى — صلوات الله وسلامه عليه — من صلاته هرع إليه أبو رافع وقال له وهو يتهلل بالفرح إن مارية قد وضعت غلاما . فانشرح صدره عليه السلام وانبسطت أساريره ووهب لمن جاءه بالبشرى عبدا ، ثم انطلق إلى العالية وهو مفعم بالسرور ، ودخل على مارية وقد رفت على شفتيه أعذب ابتسامة . وبعد أن حمد الله على سلامتها مال على الوالدة والوليد وحمل الصغير فى رفق وقد جاد الفؤاد بأرق المشاعر ، ورفعه بين يديه حتى أدناه من فيه وقبله قبلة أودعها حنان قلبه الكبير .

وعاد إلى مسجده ، فلما جاء إليه أصحابه قال :

ـــ ولد لى الليلة غلام فسميته بأسم ابى إبراهيم .

وغمر المدينة سرور ، ووجمت أمهات المسلمين وأطلقت بعضهن لسانها فى مارية من الغيرة ، فساورت رسول الله ـــ ﷺ ـــ بعض الريب ، فجاءه جبريل فقال :

ـــ السلام عليك يا أبا إبراهيم .

فاطمأن رسول الله ـــ ﷺ ـــ وفرح برحمة ربه .

وتأهب رسول الله ـــ ﷺ ـــ للذهاب إلى أم إبراهيم . وقال قائل إن رسول الله عليه السلام منطلق إلى مولاته ، فقال صلوات الله وسلامه عليه :

ـــ أعتقها ولدها .

وأطال عليه السلام المكث فى مَشربة أم إبراهيم ، فهو يحس سعادة عارمة كلما مد عينيه إلى ولده ، فلما كان يوم سابعه عق[١] عنه بكبش وحلق رأسه وتصدق بوزن شعره فضة على المساكين ، وأخذوا شعره ودفنوه فى الأرض .

وتنافست الأنصار فيمن يرضعه ، فجاءت أم بردة بنت المنذر بن زيد الأنصارى زوجة البراء بن أوس فكلمت رسول الله ـــ ﷺ ـــ فى أن ترضعه بلبن ابنها فى بنى مازن بن النجار وترجع به إلى أمه .

وأخذته أم سيف لترضعه وكان زوجها حدادا ، وفى ذات يوم انطلق رسول الله ـــ ﷺ ـــ وانطلق معه أنس بن مالك فصادفا أبا سيف ينفخ فى كيره وقد امتلأ البيت دخانا ، فأسرع أنس فى المشى بين يدى رسول الله ـــ ﷺ ـــ حتى انتهى إلى أبى سيف فقال :

---

(١) عق : ذبح عقيقة وهى الشاة التى تذبح يوم أسبوع الولد ، وقال عليه الصلاة والسلام : قولوا نسيكة ولا تقولوا عقيقة .

— يا أبا سيف أمسك ، جاء رسول الله — ﷺ .

فأمسك فدعا رسول الله — ﷺ — بالصبى فضمه إليه ، ثم انطلق به إلى دوره فدخل به على ابنته الزهراء فاستقبلته بالقبلات وهرع الحسن والحسين يشاهدان الصغير ويناجيانه . إنه قد ملأ الدار حبورا وإن آل على بن أبى طالب ليرون فيه قطعة حبيبة من حبيبهم النبى — صلوات الله وسلامه عليه ، وغمرت رسول الله — ﷺ — سعادة بددت إلى حين ذلك الحزن الدفين الذى لازمه طوال حياته .

وحمل إبراهيم الغالى بين يديه وهو مسرور ودخل به على عائشة ، إنها ما غارت على امرأة إلا دون ما غارت على مارية وذلك أنها كانت جميلة جعدة فأعجب بها الرسول — ﷺ ، فكان عامة الليل والنهار عندها فجزعت ، فلما حول مارية إلى العالية وكان يختلف إليها هناك كان ذلك أشد عليها ، وزادت غيرتها ضراما لما رزق الله رسوله الولد وحرمها منه .

وقدم عليه السلام إبراهيم إلى عائشة لترى مقدار ما بينهما من شبه ، فقالت :

— ما أرى بينك وبينه شبها !

وتوجت شفتى رسول الله عليه السلام بسمة هادئة لا يعكرها شك ، فقد قال له أمين الوحى : « السلام عليك يا أبا إبراهيم » . فعرف فؤاده الطمأنينة مذ ذلك اليوم . ولم يحقد على عائشة فإنه كان يغفر ضعف الإنسان فما بالك بعائشة التى كان يوسع لها العذر ويقول كلما اشتطت بها الغيرة : « ويحها لو استطاعت ما فعلت » .

كان رسول الله — ﷺ — يحبها وكان نساء رسول الله — ﷺ — حزبين : فحزب فيه عائشة وحفصة وصفية وسودة ، والحزب الآخر أم

سلمة وسائر نساء النبى — ﷺ . وكان المسلمون قد علموا حب رسول الله — ﷺ — عائشة ، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله — ﷺ — أخرها حتى إذا كان رسول الله — ﷺ — فى بيت عائشة بعث صاحب الهدية إلى رسول الله — ﷺ — فى بيت عائشة ، فكلم حزب أم سلمة أم سلمة فقلن لها :

— كلمى رسول الله — ﷺ — يكلم الناس فيقول : من أراد أن يهدى إلى رسول الله — ﷺ — هدية فليهد إليه حيث كان من بيوت نسائه .

فكلمته أم سلمة بما قلن فلم يقل لها شيئا ، فسألنها فقالت :

— ما قال لى شيئا .

فقلن لها :

— فكلميه .

فكلمته حين دار إليها أيضا فلم يقل لها شيئا ، فسألنها فقالت :

— ما قال لى شيئا .

— كلميه حتى يكلمك .

فدار إليها فكلمته فقال لها :

— لا تؤذينى فى عائشة ، فإن الوحى لم يأتنى وأنا فى نوب امرأة إلا عائشة .

— أتوب إلى الله من ذاك يا رسول الله .

ثم إنهن دعون فاطمة بنت رسول الله — ﷺ — فأرسلت إلى رسول الله — ﷺ — تقول :

— إن نساءك ينشدنك الله العدل فى بنت أبى بكر .

— أى بنية أتحبيننى ؟

ـــ نعم يا أبى .

ـــ فأحبيها .

كان يحب عائشة وكان يعلم أن الغيرة كثيرا ما تستبد بها ، فكان يقول لها :

ـــ أغرتِ ؟

فتقول دون مداراة :

ـــ وما لى .. ألا يغار مثلى على مثلك ؟

٢٢

كانت تميم تدين بالمجوسية وكانت تطلق على أبنائها أسماء فارسية ، وكانت على صلة طيبة بالمناذرة فكان أهلها يعتقدون أنهم أكثر حضارة من سائر قبائل العرب ، وكانوا كثيرا ما يروون أقاصيص عن مجدهم فكانت أنديتهم تفيض بأحاديث ما وقع لرجالهم فى بلاط ملوك لخم . إنهم يروون أن المنذر بن المنذر ابن ماء السماء قال ذات يوم وعنده وفود العرب ، ودعا بُبردَى أبيه محرق بن المنذر :

ــ ليلبس هذين أعز العرب وأكرمهم حسبا .

فأحجم الناس ، فقال أحيمر بن خلف التيمى :

ــ أنا لهما .

قال الملك :

ــ بماذا ؟

ــ بأن مضر أكرم العرب وأعزها وأكثرها عديدا ، وأن تميما كاهلها (أعلاها) وأكثرها ، وأن بيتها وعددها فى بنى بهدلة بن عوف وهو جدى .

ــ هذا أنت فى أصلك وعشيرتك ، فكيف أنت لى فى عترتك وأدانيك ؟

ــ أنا أبو عشرة وأخو عشرة وعم عشرة .

فدفعها إليه .

وكانوا يفتخرون أن عتاب بن هرمى بن رياح منهم ، كانت له ردافة الملوك ملوك آل المنذر ، وردافة الملك أن يثنّى به فى الشرب وإذا غاب الملك خلفه فى

مجلسه ، وكانوا لا يطيقون أن يفتخر حى آخر فى أنديتهم ، قال بنو كلب بن وبرة :

— نحن لباب العرب وقلبها ، ونحن الذين لا ننازع حسبا وكرما .

فقال لهم شيخ منهم :

— إن العرب غير مقرة لكم بذلك .. إن لها أحسابا وإن منها لبابا وإن لها فعالا ، ولكن ابعثوا مائة منكم فى أحسن هيئة وبزة يُنقّرون من مروا به من العرب ويسألونه عشر ديات ولا ينتسبون له ، فمن قراهم وبذل لهم الديات فهو الكريم الذى لا ينازع فضلا .

فخرجوا حتى قدموا أرض تميم وأسد فنقروا الأحياء حيا فحيا وماء فماء لا يجدون أحدا على ما يريدون ، حتى مروا على أكثم بن صيفى فسألوه ذلك فقال :

— من هؤلاء القتلى ؟ ومن أنتم ؟ وما قصتكم ؟ فإن لكم لشأنا باختلافكم فى كلامكم !

فعدلوا عنه ثم مروا بقتيبة بن الحارث بن شهاب اليربوعى فسألوه عن ذلك فقال :

— من أنتم ؟

— من كلب بن وبرة .

— إنى لأبغى كلبا بدم ، فإن انسلخ الأشهر الحرم وأنتم بهذه الأرض وأدرككم الخيل نكلت بكم وأثكلتكم أمهاتكم .

فخرجوا من عنده مرعوبين ، فمروا بعطارد بن حاجب ابن زرارة فسألوه ذلك فقال :

— قولوا بيانا وخذوها .

فقالوا :

ـ من هذا فقد سألكم قبل أن يعطيكم .

فتركوه ومروا ببنى مجاشع بن دارم فأتوا على واد قد امتلأ إبلا فيها غالب ابن صعصعة يطلى منها إبلا بالقطران ، فسألوه القِرى والديَّات فقال :

ـ هاكم البزل قبل النزول فابتزوها من البرك وحوزوا دياتكم ثم انزلوا .

فنزلوا وأخبروه بالحال وقالوا :

ـ أرشدك الله من سيد قوم ! لقد أرحتنا من طول النصب ، ولو علمنا لقصدنا إليك .

فقال ابنه الفرزدق مفتخرا :

فلله عينا من رأى مثل غالب ... قرى مائة ضيفا و لم يتكلم

وإذا نبحت كلبا على الناس إنهم ... أحق بتاج الماجد المتكرّم

فلم يجل عن أحسابها غير غالب ... جرى بعنانى كل أبلج خضرم[1]

وكانوا يفخرون بأن نباش بن زرارة أبا هالة كان زوجا لخديجة بنت خويلد قبل أن يتزوجها محمد بن عبد الله ، وأن منهم أحكم العرب فى زمانه أكثم بن صيفى أكثر العرب حكما ومثلا وموعظة سائرة .

وكانوا يقولون إنهم أوفى العرب لأن حاجب بن زرارة رهن قوسه عن العرب كلها عند كسرى وأوفى ، وإنهم أحلم العرب لأن منهم الأحنف بن قيس وكان يضرب به المثل حلما ، وأسود العرب لأن قيس بن عاصم كان سيد أهل الوبر وكان قيس هو الذى شرع وأد البنات خشية العار بعد أن كان الوأد فيهم خشية الإملاق ، فقد أغار اللخميون على بنى تميم وسبوا نساء كانت

---

(١) الأبلج : الواضح . والخضرم : الجواد المعطاء .

فيهن ابنة قيس بن عاصم ، فانطلق قيس وبعض رجال بنى تميم إلى ملك اللخميين يطلبون نساءهم ، فخير الملك النسوة بين آسريهم وأهليهم فاختارت ابنة قيس آسرها على زوجها ، فعاد قيس بن عاصم وقد اسود وجهه من الغيظ وراح يدس البنات فى التراب خشية أن يجلبن له العار كما جلبته له ابنته من قبل ، وأصبح وأد البنات خشية العار مألوفا فى بنى تميم .

كان بنو تميم يعتقدون أنهم أعظم قبائل العرب حضارة .

فلما ظهر الإسلام فى المدينة وانتشر فى القبائل التى حولها أعرضوا عن ذلك الدين فهم يدينون بدين فارس إحدى الإمبراطوريتين العظيمتين اللتين تتنافسان على سيادة العالم . فأين ذلك الدين الناشىء من دين تنتثر بيوت ناره فى المشارق والمغارب ؟!

واعتنق سادات تميم الدين الجديد قبيل فتح مكة ، وخرج الأقرع بن حابس التميمى مع رسول الله — ﷺ — لما انطلق إلى أم القرى وحارب معه هوازن يوم حنين وحضر حصار الطائف ، وأعطاه عليه السلام مائة من الإبل لما قسم نصيبه من الفىء على المؤلفة قلوبهم . وعلى الرغم من نزول النور إلى أفئدة بعض بنى تميم فإن القبيلة كلها ظلت تتيه بضلالها وتناصب المسلمين العداء و لم تكتم العداوة فى القلوب بل بدت البغضاء من أفواههم واتسمت أفعالهم بالتحدى المكشوف .

كان رسول الله — ﷺ — قد بعث بشر بن سفيان على صدقات بنى كعب بن خزاعة ، فجاء وقد حل بنواحيهم بنو عمرو بن جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم ، فجمعت خزاعة مواشيها للصدقة فاستنكرت ذلك بنو تميم وأبوا وابتدروا القسى وشهروا السيوف ، فقدم بشر على رسول الله — ﷺ — فأخبره فقال :

— من هؤلاء القوم ؟

فانتدب لهم عيينة بن حصن فبعثه فى الحرم سنة تسع من مهاجره فى خمسين فارسا من العرب ليس فيهم مهاجرى ولا أنصارى .

وانطلق عيينة يسير الليل ويكمن النهار حتى إذا ما بلغ صحراء بين السقيا وأرض بنى تميم رأى رجالا قد حلوا ماشيتهم وسرحوها . إنهم من تميم . فهجم عليهم فلما رأى الرجال فرسان المسلمين ولوا لا يلوون على شىء ، وجدَّ عيينة فى أثرهم فأخذ أحد عشر رجلا ، ووجد فى المحلة إحدى عشرة امرأة وثمانين صبيا فجلبهم إلى المدينة ، فأمر بهم رسول الله — ﷺ — فحبسوا فى دار رملة بنت الحارث ، فقدم فيهم عدة من رؤسائهم : عطارد بن حاجب والزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم ورياح بن الحارث بن مجاشع والاقرع بن حابس وقيس بن الحارث ونعيم بن سعد وعمرو بن الاهتم ورجال من ساداتهم .

ودخلوا المسجد وقد أذن بلال بالظهر والناس ينتظرون خروج رسول الله — ﷺ — فعجلوا واستبطئوه فنادوا رسول الله — ﷺ — من وراء حجراته :

— يا محمد ! اخرج إلينا .

فخرج رسول الله — ﷺ — وأقام بلال الصلاة فصلى رسول الله ﷺ الظهر . ثم أتوه وراحوا يحدثونه وقيس بن عاصم يرقب رسول الله فى اهتمام ؛ كان عاقلا حليما وكان على دين قومه فأحس وقد ألقى إلى رسول الله عليه السلام سمعه أن نورا يتسلل إلى قلبه ، وأن الله قد شرح للإسلام صدره فقال فى انفعال :

— أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله .

فقال له رسول الله — ﷺ — :

ـــ هذا سيد الوبر .

وجاء الحسن بن على فاستقبله رسول الله ـــ ﷺ ـــ بالبشر وقبله ، فقال الأقرع بن حابس :

ـــ إن لى عشرة من الولد ما قبلت منهم أحدا .

فنظر إليه رسول الله ـــ ﷺ ـــ ثم قال :

ـــ من لا يرحم لا يُرحم .

ورد عليهم الأسرى والسبى ، وتذكر قيس بن عاصم ما كان منه من وأد البنات . إنه كان شريفا فى قومه وكان ذا مال فما كان يئدهن خشية إملاق بل خشية العار ، وقد سن هو هذه السنة فراح يسأل رسول الله ـــ ﷺ ـــ عن حكم الإسلام فيما فعله فقال له ـــ صلوات الله وسلامه عليه :

ـــ الإسلام يجب ما قبله

فاستبشر قيس وأمر رسول الله ـــ ﷺ ـــ لهم بالجوائز كما كان يجيز الوفد ، ثنتى عشرة أوقية ونشا[1] وهى خمسمائة درهم . وكان عمرو بن الأهتم قد خلفّه القوم فى إبلهم وكان أصغرهم سنا ، فقال قيس بن عاصم وكان يكره عمرو بن الأهتم :

ـــ يا رسول الله إنه قد كان رجل منا فى رحالنا وهو غلام حدث وأزرى به .

فأعطاه رسول الله ـــ ﷺ ـــ مثل ما أعطى القوم ، فبلغ عمرو بن الأهتم ما قاله قيس فيه فقال :

---

(١) النش : نصف أوقية .

ظللت مفترش الهلباء[١] تشتمنى عند النبى فلـم تصدق و لم تصب
إن تنقصونا فإن الروم أصلكـم والـروم لا تملك البغضاء للعـرب
وإن سؤددنـا عـود وسؤددكم مؤخر عند أصل العجب[٢] والذنب

إنه نسبه إلى الروم لأنه كان أحمر ، فنهاه النبى — ﷺ — وقال :

— إن إسماعيل كان أحمر .

وقال الزبرقان يفتخر :

— يا رسول الله . أنا سيد تميم والمطاع فيهم والمجاب منهم ، آخذ لهم بحقوقهم وأمنعهم من الظلم وهذا يعلم ذلك .

وأشار إلى عمرو بن الأهتم فقال عمرو :

— إنه شديد العارضة ، مانع لجانبه ، مطاع فى أدانيه .

فقال الزبرقان :

— والله لقد كذب يا رسول الله ، وما منعه من أن يتكلم إلا الحسد .

— أنا أحسدك ؟! والله إنك لئيم الخال ، حديث المال ، أحمق الولد ، مبغض فى العشيرة . والله ما كذبت فى الأولى ولقد صدقت فى الثانية .

فقال رسول الله — ﷺ :

— إن من البيان لسحرا .

وعاد وفد تميم بالأسرى ، وانتشر الإسلام فى الحى الذى كان يتيه بأن دينه المجوسية دين كسرى . وذات يوم قعد قيس بن عاصم بفناء داره محتبيا بحمائل سيفه يحدث قومه ، فأتى برجل مكتوف وآخر مقتول فقيل له :

---

(١) الهلباء : يعنى إسته .

(٢) العجب : أصل الذنب .

ـــ هذا ابن أخيك قد قتل ابنك .

فالتفت إلى ابن أخيه فقال :

ـــ يا بن أخي بئس ما فعلت ! أثمت بربك وقطعت رحمك وقتلت ابن عمك ورميت نفسك بسهمك .

ثم قال لابن له آخر :

ـــ قم يا بني فوار أخاك وحل كتاف ابن عمك ، وسق إلى أمك مائة ناقة دية ابنها .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢٣

مضى شهر و لم يستوقد آل محمد نارا ، إن هو إلا التمر والماء . وما أكثر الليالى المتتابعة التى كان ـــ ﷺ ـــ يبيتها هو وأهله طاوين لا يجدون عشاء . و لم يمتلىء جوف النبى ـــ ﷺ ـــ شبعا قط و لم يبث شكوى إلى أحد . وكانت الفاقة أحب إليه من الغنى وإن كان ليظل جائعا يلتوى طول ليلته من الجوع فلا يمنعه صيام يومه . ولو شاء لأبقى شيئا مما أفاء الله عليه من هوازن ولكنه لم يحفل بالدنيا وكنوزها ، وكثيرا ما كان يقول :

ـــ ما لى وللدنيا ؟ .. حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه .

وأرخى الليل أستاره وهجعت الكائنات فاستاك ـــ ﷺ ـــ ثم توضأ ثم قام يصلى حتى انتفخت قدماه ، فقيل له :

ـــ أتكلّف هذا وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

ـــ أفلا أكون عبدا شكورا ؟

ودخل رسول الله عليه السلام داره فاستقبلته حفصة بالترحاب ، وهب لينام وكان فراشه مسحا تثنيه حفصة ثنيتين فينام عليه . فثنته له تلك الليلة بأربع فلما أصبح قال :

ـــ ما فرشتموه لى الليلة ؟

فذكرت له حفصة أنها ثنت المسح بأربع . فقال عليه السلام :

ـــ ردوه بحاله ، فإن وطأته منعتنى الليلة صلاتى .

وخرج ـــ ﷺ ـــ إلى المسجد ، وجلس مطرقا إلى الأرض فهو متواصل

الأحزان دائم الفكرة ليست له راحة ، وجاءه على بن أبى طالب ليغترف من كنوز علمه فسأله عن سنته ، فقال عليه السلام :

ــ المعرفة رأس مالى ، والعقل أصل دينى ، والحب أساسى ، والشوق مركبى ، وذكر الله أنيسى ، والثقة كنزى ، والحزن رفيقى ، والعلم سلاحى ، والصبر ردائى ، والرضا غنيمتى ، والعجز فخرى ، والزهد حرفتى ، واليقين قوتى ، والصدق شفيعى ، والطاعة حسبى ، والجهاد خُلقى ، وقرة عينى فى الصلاة .

جزأ ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ نهاره ثلاثة أجزاء : جزءا لله ، وجزءا لأهله ، وجزءا لنفسه ، ثم جزأ جزءه بينه وبين الناس فكان يستعين بالخاصة على العامة ويقول :

ــ أبلغوا حاجة من لا يستطيع إبلاغى ، فإنه من أبلغ حاجة من لا يستطيع إبلاغها أمنه الله يوم الفزع الأكبر .

وكان رسول الله ــ ﷺ ــ أوقر الناس فى مجلسه ، كثير السكوت لا يتكلم فى غير حاجة ، يعرض عمن تكلم بغير جميل ، وكان ضحكة تبسما ، وكلامه فصلا لا فضول ولا تقصير ، وكان ضحك أصحابه عنده التبسم توقيرا له واقتداء به ، وكان سكوته على أربع : على الحلم والحذر والتقدير والتفكر .

وتأهب رسول الله ــ ﷺ ــ لينطلق إلى السوق فهرع أبو هريرة إليه ، فقد انقطع لخدمة رسول الله ــ ﷺ ــ طلبا للعلم ، وقد سأله رسول الله ذات يوم :

ــ ألا تسألنى من هذه الغنائم التى يسألنى أصحابك ؟

فقال أبو هريرة :

ـــ أسألك أن تعلمنى مما علمك الله .

وغادر رسول الله عليه السلام المسجد وأبو هريرة متهلل الأسارير لأنه فى رفقة حبيبه رسول الله ، إنه يقول :

ـــ ما رأيت شيئا قط أحسن من رسول الله ـــ ﷺ ـــ كأن الشمس تجرى فى وجهه .

والتفت إلى النبى ـــ ﷺ ـــ وقال :

ـــ يا رسول الله إنى إذا رأيتك طابت نفسى وقرت عينى ، فأنبئنى عن كل شىء .

ـــ كل شىء خلق من ماء .

ـــ يا رسول الله أنبئنى عن أمر إذا أخذت به دخلت الجنة ؟

ـــ أفش السلام ، وأطعم الطعام ، وصل الأرحام ، وقم بالليل والناس نيام ، ثم ادخل الجنة بسلام .

ومر ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ على صبرة (كومة) طعام فأدخل يده فيها فنالت أصابعه بللا فقال :

ـــ ما هذا يا صاحب الطعام ؟

ـــ أصابته السماء يا رسول الله .

ـــ أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ؟! من غشنا فليس منا .

وسار عليه السلام فى السوق وأبو هريرة معه ، فاشترى سراويل وقال للوزان :

ـــ زن وأرجح .

ورأى الوزان من رسول الله ـــ ﷺ ـــ كرم خلق ورحابة صدر ولين جانب ، أصدق الناس لهجة وما أحد أحسن خلقا منه ، فوثب الرجل إلى يد

النبى — ﷺ — يقبلها ، فجذب يده وقال :

— هذا تفعله الأعاجم بملوكها ولست بملك . أنا رجل منكم .

ثم أخذ السراويل فذهب أبو هريرة ليحمله ، فقال عليه السلام :

— صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله .

وعاد رسول الله — ﷺ — إلى مسجده ، فجاءت امرأة ببردة فقالت :

— يا رسول الله إنى نسجت هذه بيدى أكسوكها .

فأخذها النبى — ﷺ — محتاجا إليها ، فخرج إلى الناس وإنها إزاره ، فقال رجل بين القوم :

— يا رسول الله اكسنيها .

— نعم .

فجلس النبى — ﷺ — فى المجلس ، ثم رجع فطواها ثم أرسل بها إليه ، فقال له القوم :

— ما أحسنت . سألتها إياه لقد علمت أنه لا يرد سائلا .

— والله ما سألته إلا لتكون كفنى يوم أموت .

وكان ثعلبه بن حاطب الأنصارى قد أتى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله ادع الله أن يرزقنى مالا .

— ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه .

ثم قال مرة أخرى :

— أما ترضى أن تكون مثل نبى الله ؟ فوالذى نفسى بيده لو شئت أن تسيل معى الجبال فضة وذهبا لسالت .

— والذى بعثك بالحق لئن دعوت الله أن يرزقنى مالا لأوتين كل ذى حق حقه .

فقال رسول الله — ﷺ — :

— اللهم ارزق ثعلبة مالا .

فاتخذ غنما فنمت كما ينمو الدود ، فضاقت عليه المدينة فتنحى عنها .

ومرت الأيام وسأل رسول الله — ﷺ — :

— ما فعل ثعلبة ؟

— اتخذ غنما وضاقت عليه المدينة فتنحى عنها فنزل واديا من أوديتها حتى جعل يصلى الظهر والعصر فى جماعة ويترك ما سواهما ، ثم نمت وكثرت حتى ترك الصلاة إلى الجمعة وهى تنمو كما ينمو الدود حتى ترك الجمعة .

— يا ويح ثعلبة . يا ويح ثعلبة ، يا ويح ثعلبة .

وأنزل الله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم والله سميع عليم »[1] . فبعث رسول الله — ﷺ — رجلين على الصدقة : رجلا من جهينة ورجلا من بنى سليم وكتب لهما كيف يأخذان الصدقة وقال لهما :

— مرا بثعلبة وبفلان رجل من بنى سليم ، فخذا صدقتهما .

فخرجا حتى أتيا ثعلبة فسألاه الصدقة وأقرآه كتاب رسول الله عليه الصلاة والسلام ، فقال :

— ما هذه إلا جزية . ما هذه إلا أخت الجزية . ما أدرى ما هذا ؟! انطلقا حتى تفرغا ثم تعودا إلى .

فانطلقا وأخبرا السلمى فنظر إلى خيار أسنان إبله فعزلها للصدقة ثم استقبلهم بها ، فلما رأوها قالوا :

— ما يجب هذا عليك . وما نريد أن نأخذه منك .

— بلى خذوه فإن نفسى بذلك طيبة ، وإنما هى إبلى .

فأخذوها منه ، فلما فرغا من صدقتهما رجعا حتى مرا بثعلبة ، فقال :

ــ أرونى كتابكما أنظر فيه .

فنظر فقال :

ــ ما هذه إلا أخت الجزية ، انطلقا حتى أرى رأيى .

فانطلقا حتى أتيا النبى عليه الصلاة والسلام ، فلما رآهما قال :

ــ يا ويح ثعلبة .

قبل أن يكلمهما ، ودعا للسلمى بالبركة ، وأخبروه بالذى صنع ثعلبة والذى صنع السلمى ، فأنزل الله عز وجل فى ثعلبة قرآنا وعند رسول الله ــ ﷺ ــ رجل من أقاربه فسمع ذلك ، فخرج حتى أتى ثعلبة فقال :

ــ ويحك يا ثعلبة قد أنزل الله فيك : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقن ولنكونن من الصالحين . فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون . فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون »[١] .

فخرج ثعلبة حتى أتى النبى عليه الصلاة والسلام فسأله أن يقبل منه صدقته ، فقال :

ــ إن الله قد منعنى أن أقبل صدقتك .

فجعل يحثو التراب على رأسه ، فقال رسول الله ﷺ :

ــ هذا عملك ، قد أمرتك فلم تطعنى .

فلما أبى أن يقبل منه شيئا رجع إلى منزله والدنيا فى عينيه ظلمات بعضها فوق بعض ، يلوم نفسه لأنه لم يطع الرسول لما قال له : « ويحك يا ثعلبة ، قليل تؤدى شكره خير من كثير لا تطيقه » .

---

(١) التوبة ٧٥ ــ ٧٧ .

٢٤

ارتفع صوت بلال يؤذن فى عماية الصبح ففتحت الدور فى العالية والسافلة وخرج الرجال والنساء والولدان فى ثياب جديدة ، فقد كان اليوم يوم عيد . وخرج رسول الله ــ ﷺ ــ إلى المصلى وخرج أهل بيته إلى المسجد ، فلما قضيت الصلاة وانتهى عليه السلام من خطبة العيد وقد وعظ الناس وأمرهم بالصدقة فقال :

ــ أيها الناس تصدقوا .

فمر على النساء فقال :

ــ تصدقن ولو من حليكن .

وكانت زينب امرأة عبد الله بن مسعود فى المسجد ، وكانت زينب تنفق على عبد الله وأيتام فى حجرها ، فقالت لعبد الله :

ــ سل رسول الله ــ ﷺ ــ أيجزى عنى أن أنفق عليك وعلى أيتام فى حجرى من الصدقة ؟

ــ سلى أنت رسول الله ــ ﷺ .

فانطلقت إلى النبى ــ ﷺ ــ فوجدت امرأة من الأنصار على الباب حاجتها مثل حاجتها ، فمر عليهما بلال فقالت كل منهما :

ــ سل النبى ــ ﷺ ــ أيجزى عنى أن أنفق على زوجى وأيتام فى حجرى ؟

وقالتا لبلال :

ـــ لا تخبر بنا .

كانتا تطلبان منه إلا يعين أسماءهما ولا يقل السائلة فلانه ، فدخل فسأله فقال عليه السلام :

ـــ من هما ؟

ـــ زينب .

ـــ أى الزيانب ؟

ـــ امرأة عبد الله .

ـــ نعم ولها أجران : أجر القرابة وأجر الصدقة .

وراح الناس يتصدقون فجاء هذا بتمره إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وهذا من تمره حتى صار عنده كوما من تمر ، فجعل الحسن والحسين يلعبان بذلك التمر ، فأخذ الحسن تمرة جعلها فى فيه ، فقال النبى ـــ ﷺ :

ـــ كخ كخ .

ليطرحها من فيه . ثم قال :

ـــ أما شعرت أنا لا نأكل الصدقة ؟

وجاء ناس من الأنصار يسألون رسول الله ـــ ﷺ ـــ فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم حتى نفد ما عنده فقال :

ـــ ما يكون عندى من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يعفه الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يصبّره الله ، وما أعطى أحدا عطاء خيرا وأوسع من الصبر .

وجاء إليه عليه السلام أناس يشكون قالوا :

ـــ منع ابن جميل وخالد بن الوليد وعباس بن عبد المطلب .

فقال النبى ﷺ :

— ما ينقم ابن جميل إلا أنه كان فقيرا فأغناه الله ورسوله ، وأما خالد فإنكم تظلمون خالدا قد احتبس أدراعه وأعتُده فى سبيل الله . وأما العباس بن عبد المطلب فعم رسول الله — ﷺ — فهى عليه صدقة ومثلها معها .

كان أناس يسألون وأناس يسألون إلحافا وأناس يستعففون حتى عن العطاء ، فقد كان رسول الله — ﷺ — يعطى عمر العطاء فيقول :

— أعطه من هو أفقر إليه منى .

فيقول له رسول الله — ﷺ :

— خذه ، إذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه وما لا تُتْبعه نفسك .

وراح الناس يمضون العيد فى بيرَحاء وكانت بستانا لأبى طلحة وكانت أحب أمواله إليه ، وكانت بيرحاء مستقلة بالمسجد وكان رسول الله — ﷺ — يدخلها ويشرب من ماء فيها طيب ، فلما أنزلت آية : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »(١) . قام أبو طلحة إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إن الله تبارك يقول : « لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون » . وإن أحب أموالى إلىّ بيرحاء وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله ، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله .

فقال رسول الله — ﷺ :

— بخ ذلك مال رابح ، ذلك مال رابح ، وقد سمعت ما قلت ، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين .

---

(١) آل عمران ٩٢ .

فقال أبو طلحة :

ــ أفعل يا رسول الله .

فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه .

وجاء الفقراء إلى النبى ــ ﷺ ــ فقالوا :

ــ ذهب أهل الدثور (الكثير) من الأموال بالدرجات العلا والنعيم المقيم ، يصلون كما نصلى ويصومون كما نصوم ولهم فضل من أموال يحجون بها ويعتمرون ويجاهدون ويتصدقون .

ــ ألا أحدثكم بما إن أخذتم به أدركتم من سبقكم و لم يدرككم أحد بعدكم وكنتم خير من أنتم بين ظهرانيه إلا من عمل مثله ؟ تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثا وثلاثين .

فاختلفوا بينهم فقال بعضهم :

ــ نسبح ثلاثا وثلاثين ونحمد ثلاثا وثلاثين ونكبر أربعا وثلاثين .

فرجع إليه أبو هريرة فقال عليه السلام :

ــ تقول : سبحان الله والحمد لله والله وأكبر حتى يكون منهن ثلاثا وثلاثين .

وكان رسول الله ــ ﷺ ــ قد استعمل عاملا ، فجاءه العامل حين فرغ من عمله فقال :

ــ يا رسول الله هذا لكم وهذا أهدى لى .

فقال له :

ــ أفلا قعدت فى بيت أبيك وأمك فنظرت أيهدى لك أم لا ؟

ثم قام رسول الله ــ ﷺ ــ عشية بعد الصلاة فتشهد وأثنى على الله بما هو أهله ثم قال :

ـــ أما بعد فما بال العامل نستعمله فيأتينا فيقول : هذا من عملكم وهذا أهدى لى ؟ أفلا قعد فى بيت أبيه وأمه فنظر هل يهدى له أم لا ؟ فوالذى نفس محمد بيده لا يغل أحدكم منها شيئا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه إن كان بعيرا جاء به له رغاء ، وإن كانت بقرة جاء بها لها خوار وإن كانت شاة جاء بها لها تيعر ، فقد بلغت .

وجاءت امرأة معها ابنتان عائشة تسألها فلم تجد عندها غير تمرة واحدة فأعطتها . فقسمتها الأم بين ابنتيها ثم قامت فخرجت . فدخل النبى ـــ ﷺ ـــ فحدثته فقال :

ـــ من يلى من هذه البنات شيئا فأحسن إليهن كن له سترا من النار .

وتلقى عليه السلام هدية وهو فى بيت عائشة ، فأرسل إلى كل زوجة نصيبا منها ، فردت زينب بنت جحش ما جاءها فقالت عائشة فى شماتة ، فلم تكن واحدة من نساء النبى ـــ ﷺ ـــ تناصبها غير زينب :

ـــ لقد أقمأت[1] وجهك حين ترد عليك الهدية .

فقام عنها مغضبا وهو يقول :

ـــ أنتن أهون على الله من أن تقمئننى .

كان عليه السلام يحبها وكان يغضب ويرضى وكانت تغضب وترضى ، وقد قال لها ذات يوم :

ـــ إنى لأعرف غضبك ورضاك .

ـــ وكيف تعرف ذاك يا رسول الله ؟

ـــ إنك إذا كنت راضية قلت : بلى ورب محمد . وإذا كنت ساخطة

---

(١) أقمأت : صغرت وأذللت .

قلت : لا ورب إبراهيم .

ـــ أجل . لست أهاجر إلا اسمك .

وكان عليه السلام يزور كل يوم ابنته فاطمة الزهراء ويسعد بمداعبة الحسن والحسين ومحسن وزينب وأم كلثوم ، وما كان يصرفه عنهم شاغل من شواغله الجسام . إنه كان سعيدا بابنه إبراهيم وكان يضمه إلى صدره ويقبله .، ولكن حبه إبراهيم لم يطغ على حبه الحسن والحسين و لم يؤثر فى حبه لأمامة بنت زينب ، فقد كان يخرج على الناس وأمامة بنت أبى العاص على عاتقه فيصلى ، فإذا ركع وضعها وإذا رفع رفعها .

وجاءه أعرابى وهو يقبل أحفاده فقال :

ـــ أتقبلون الصبيان ؟ فما نقبلهم .

فقال النبى ـــ ﷺ :

ـــ أوَأملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟

وراح ـــ ﷺ ـــ يحدث أصحابه فى المسجد ويقول :

ـــ مثلى ومثل ما بعثنى الله كمثل رجل أتى قوما فقال : يا قوم إنى رأيت الجيش بعينى وإنى أنا النذير العريان فالنجاء ، فأطاعه طائفة من قومه فأدلجوا فانطلقوا على مهلهم فنجوا ، وكذبت طائفة منهم فأصبحوا مكانهم فصبحهم الجيش فأهلكهم واجتاحهم . فذلك مثل من أطاعنى واتبع ما جئت به ، ومثل من عصانى وكذب ما جئت به من الحق .

ورأى عمر على رجل حلة من إستبرق فأتى بها النبى ـــ ﷺ ـــ فقال :

ـــ يا رسول الله اشتر هذه فالبسها لوفد الناس إذا قدموا عليك .

ـــ إنما يلبس الحرير من لا خلاق له .

فمضى من ذلك ما مضى . ثم إن النبى ـــ ﷺ ـــ بعث إلى عمر بحلة .

فأتى بها النبى — ﷺ — فقال :

— بعثت إلى بهذه وقد قلت فى مثلها ما قلت .

— إنما بعثت بها إليك لتصيب بها مالا .

ومرت الأيام وجلس رسول الله — ﷺ — فى المسجد ومعه أسامة بن زيد وسعد بن أبى وقاص وأبىّ ، فأرسلت إليه ابنة له :

— إن ابنى قد احتضر فاشهدنا .

فأرسل يقرأ السلام ويقول :

— إن لله ما أخذ وما أعطى ، وكل شيء عنده مسمى فلتصبر وتحتسب .

فأرسلت إليه تقسم عليه فقام وقام معه أسامة وسعد وأبى ، فلما رفع إليه فأقعده فى حجرة ونفس الصبى تقعقع ، فاضت عينا رسول الله — ﷺ — فقال سعد :

— ما هذا يا رسول الله ؟!

— هذا رحمة يضعها الله فى قلوب من يشاء من عباده .

وإنما يرحم الله من عباده الرحماء .

٢٥

كان زهير بن أبى سلمى يجالس أهل الكتاب ويسمع منهم أنه قد آن بعث خاتم الأنبياء ، ودخل زهير ذات ليلة ونام فرأى أنه قد مد بسبب من السماء وأنه مد يده ليتناوله ففاته ، فأول رؤياه بالنبى عليه السلام الذى يبعث فى آخر الزمان وأنه لا يدركه .

وأحس زهير أن خيرا كثيرا قد فاته ، فرأى أن لا يفوت بنيه فجمعهم وأخبرهم بحلمه وأوصاهم إن أدركوا النبى ـــ ﷺ ـــ أن يسلموا وأن يتبعوا النور الذى يأتى به ، فقد كان يريد لبنيه هناءة الدنيا وسعادة الأبد .

وذهب زهير بن أبى سلمى وقام رسول الله ـــ ﷺ ـــ يدعو الناس إلى عبادة الله وحده لا شريك له فآمن له من شرح الله قلوبهم للإسلام وناصبه العداء من عميت قلوبهم التى فى الصدور . وخرج يوما بجير بن زهير وكعب بن زهير فى غنم لهما ، وبلغهما أن رسول الله ـــ ﷺ ـــ يدعو الناس إلى دينه الجديد ، فقال بجير لأخيه كعب وقد تذكر وصية أبيه :

ـــ اثبت فى الغنم حتى آتى هذا الرجل فأسمع كلامه وأعرف ما عنده .

فأقام كعب ومضى بجير ، فأتى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وسمع كلامه فأحس نشوة عارمة وكأن غشاوة قد رفعت عن عينيه وأنه ارتفع حتى كاد يعاين ملكوت الله ، وانسكبت أنوار اليقين فى فؤاده فإذا به يرى الوجود كله قد تألق بضياء ربانى يبده بصيرته ، فقال وهو متفرح فى الله :

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله :

وعاد إلى حيث كان أخوه كعب وهو يستشعر كأنما ولد من جديد . إنه ذهب ليلقى سمعه إلى النبى — ﷺ — وهو لا يدرى سر وجوده ، فعاد من عنده وهو يحس أن حياته أصبح لها معنى وأن له رسالة وسّعت أمامه آفاق دنياه ، فقد صار خليفة الله فى الأرض .

وأخذ بجير يروى لأخيه كعب ما بهره من أمر رسول الله — ﷺ — وهو يطمع فى إسلام أخيه ، ولكن كعبا أصم أذنيه عن النصح وأعرض فى استكبار وسار فى طريق الضلال .

وانتقل الإسلام من نصر إلى نصر وفتح رسول الله — ﷺ — مكة ودانت له قريش وانطلق لحرب هوازن وضرب الحصار على الطائف ، واستمر كعب ينظم الهجاء فى نبى الإسلام — صلوات الله وسلامه عليه — وأخوه بجير فى صفوت المسلمين يتألم لتردى كعب فى الظلمات . فلما كان منصرفه عليه السلام من الطائف كتب بجير إلى أخيه كعب بن زهير يخبره بفتح مكة وأنه — ﷺ — قتل رجالا بمكة ممن كان يهجوه ويؤذيه ، وأن من بقى من شعراء قريش ابن الزبعرى وهبيرة بن أبى وهب قد هربوا فى كل وجه ، « فإن كانت لك فى نفسك حاجة فطر إلى رسول الله — ﷺ — فإنه لا يقتل أحدا جاءه تائبا ، وإن أنت لم تفعل فانج إلى نجائك من الأرض .

فلما بلغ كعبا الكتاب ضاقت به الأرض وأشفق على نفسه ، واهتبل أعداؤه هذه الفرصة فخاضوا فى أمره بما أفزعه فقالوا :

— هو مقتول .

فلما لم يجد من شىء بدا خرج حتى قدم المدينة فنزل على رجل كانت بينه وبينه معرفة من جهينة ، فغدا به إلى رسول الله — ﷺ — حين صلى الصبح ، فصلى مع رسول الله — ﷺ — ثم أشار له إلى رسول الله —

صلوات الله وسلامه عليه — فقال :

— هذا رسول الله فقم إليه فاستأمنه .

فقام إلى رسول الله — ﷺ — حتى جلس إليه فوضع يده فى يده ، وكان رسول الله — ﷺ — لا يعرفه فقال :

— يا رسول الله إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائبا مسلما ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟

— نعم .

— أنا يا رسول الله كعب بن زهير .

فوثب عليه رجل من الأنصار فقال :

— يا رسول الله دعنى وعدو الله أضرب عنقه .

— دعه عنك فإنه قد جاء تائبا نازعا عما كان عليه .

فغضب كعب على هذا الحى من الأنصار لما صنع به صاحبهم ، وذلك أنه لم يتكلم فيه رجل من المهاجرين إلا بخير ، فراح ينشد :

بانت سعاد[1] فقلبى اليوم متبول

متيم إثرها لم يُفْد مكبول

وما سعادُ غداةَ البين إذ رحلوا

إلا أغنّ[2] غضيض الطرف مكحول

---

(١) بانت : فارقت فراقا بعيدا . وسعاد اسم امرأة ، وقيل هى امرأته وبنت عمه ، خصها بالذكر لطول غيبته عنها ، لهروبه من النبى ﷺ .

(٢) الأغن : الظبى الصغير الذى فى صوته غنة . غضيض الطرف : فاتره ، مكحول : من الكحل (بتحريك الحاء المهملة) وهو سواد يعلو جفون العين من غير اكتحال .

هيفـاء[١] مقبلـة عجـزاء مدبـرة
لا يُشتَكـى قصر منها ولا طـول

تجلو[٢] عوارض ذى ظلم إذا ابتسمت
كأنـه مُنهَـل بالـراح معلـول

شُجَّت[٣] بـذى شبَم مـن مـاء محنيـة
صاف بأبطح أضحى وهـو مشمـول

تنفى الرياح القـذى[٤] عنـه وأفرطه
مـن صَوب غاديـة بِـيض يعاليـل

فيـا لها خلـة[٥] لـو أنها صدقت
بوعدهـا أو لـو ان الـنصح مقبـول

لـكنها خُلَّة قـد سِيـط[٦] مـن دمهـا
فجْـعٌ وولْـعٌ وإخـلاف وتبديـل

---

(١) هيفاء : دقيقة الخاصرة مقبلة : حال . عجزاء : كبيرة العجز .

(٢) تجلو : تكشف . العوارض : الأسنان . الظلم : ماء الأسنان وبريقها . المنهل : المسقى . الراح : الخمر . معلول : من العلل (بالفتح) ، وهو الشرب الثانى .

(٣) شجت : مزجت حتى انكسرت سورتها . وشبم : ماء شديد البرد . المحنية : منعطف الوادى . الأبطح : المسيل الواسع الذى فيه دقائق الحصى ، المشمول : الذى ضربته شمال حتى برد .

(٤) القذى : ما يقع فى الماء من تبن أو عود أو غيره . أفرطه : سبق إليه وملأه . الصوب : المطر . الغادية : السحابة تمطر غدوة . اليعاليل : الحباب الذى يعلو وجه الماء .

(٥) الخلة (بالضم) : الصديقة .

(٦) سيط : أى خلط بلحمها ودمها هذه الصفات المذكورة فى البيت . الفجع : الإصابة بالمكروه . الولع : الكذب . الإخلاف : خلف الوعد .

فمـا تـدوم على حـال تكـون بها
كما تلـوّن فى أثـوابها الغـول [١]
وما تمسك بالعهـد الـذى زعـمت
إلا كما يمسك الماءَ الغرابيـل
فـلا يغـرّنك مـا منَّت ومـا وعـدت
إن الأمـانى والأحـلام تضليـل
كانت مواعيـد عرقـوب لها مثـلا
ومـا مواعيدهـا إلا الأباطيـل
أرجـو وآمـل أن تدنـو مـودّتها
ومـا إخـال لدينـا مـنك تنويـل [٢]
أمست سعـاد بـأرض لا يُبلِّغهـا
إلا العتـاق[٣] النجيبـات المراسيـل
ولـن يبلغهـا إلا عُذافـرةٌ[٤]
لها على الأيـن إرقـال وتبغيـل
من كل نضَّاخة[٥] الذِّفرى إذا عَرِقت
عُرضَتُهـا طـامس الأعـلام مجهـول

---

(١) الغول : ساحرة الجن . (٢) التنويل : الوصل .

(٣) العتاق : الكرام النجيبات : جمع نجيبة ، وهى القوية الخفيفة . المراسيل : الإبل الكرام الأصول ، القوية السريعة .

(٤) العذافرة : الناقة الصلبة العظيمة . الأين : الإعياء والتعب . الإرقال والتبغيل : ضربان من السير السريع .

(٥) النضاخة : الكثيرة رشح العرق . الذفرى : النقرة التى خلف أذن الناقة . عرضتها : همتها . طامس الأعلام : الدارس المتغير من العلامات التى تكون فى الطريق ليهتدى بها .

ترمي الغيوب(١) بعيني مفرد لهق
إذا توقَّدت الحزَّان والمِيل
ضخم مُقلَّدها(٢) فعم مقيَّدها
في خَلْقها عن بنات الفحل تفضيل
غَلباء(٣) وجناء عُلكوم مُذكَّرة
في دفها سعة قُدَّامها مِيل
وجلدها من أطوم(٤) ما يؤيِّسه
طِلح بضاحية المتنين مهزول
حرفٌ(٥) أخوها أبوها من مُهجَّنة
وعمها خالها قَوْداء شِمليل

---

(١) الغيوب : آثار الطريق التي غابت معالمها عن العيون . المفرد : الثور الوحشى الذى تفرد فى مكان . اللهق : الأبيض . الحزان : الأمكنة الغليظة الصلبة تكثر فيها الحصباء . الميل : العقد الضخمة من الرمل .

(٢) المقلد : موضع القلادة فى العنق . فعم : ممتلىء . القيد : بنات الفحل : الإناث من الإبل المنسوبة للفحل المعد للضراب .

(٣) غلباء : غليظة العنق . وجناء : عظيمة الوجنتين . علكوم : شديدة . مذكرة : عظيمة الخلقة تشبه الذكران من الأباعر . فى دفها سعة : أى هى واسعة الجنبين . قدامها ميل : كناية عن طول عنقها . أو سعة خطوها .

(٤) الأطوم : سلحفاة بحرية غليظة الجلد . يؤيسه : يذلله ولا يؤثر فيه . الطلح (بالكسر) : القراد . الضاحية من كل شيء : ناحيته البارزة للشمس . المتنان : ما يكتنف صلبها عن يمين وشمال ، من عصب ولحم . مهزول : صفة لطلح ، أى قراد مهزول .

(٥) الحرف : الناقة الضامرة . أخوها أبوها .. ألخ : لم يدخل فى نسبها غير أقاربها . المهجنة : الكريمة الأبوين من الإبل . القوداء : الطويلة الظهر والعنق . الشمليل الخفيفة السريعة .

يمشى القُرادُ عليها ثم يُزلقه[١]
منها لبان وأقراب زهاليل
عيرانه[٢] قذفت بالنحض عن عُرض
مرفقها عن بنات الزور مفتول
كأنما فات عينيها ومَذبَحُها
من خطمها[٣] ومن اللّحيين برطيل
تمر مثل عسيب[٤] النحل ذا خُصل
فى غارز لم تخوّنه الأحاليل
قنواء[٥] فى حُرّتيها للبصير بها
عِتق مبين وفى الخدين تسهيل
تخدى[٦] على يسرات وهى لاحقة
ذوابل مسُّهُن الأرضَ تحليل

---

(١) يزلقه : يسقطه . اللبان : الصدر . الأقراب : الخواصر . الزهاليل : الملس .

(٢) العيرانة : الناقة المشبهة غير الوحش فى سرعته ونشاطه وصلابته . النخض : اللحم . عرض : جانب . الزور : الصدر . بنات الزور : ما يتصل به مما حوله من الأضلاع وغيرها .

(٣) الخطم : الأنف . اللحيان : العظمان اللذان تنبت عليهما الأسنان السفلى من الإنسان وغيره . البرطيل : حجر مستطيل .

(٤) عسيب النخل : جريده الذى لم ينبت عليه الخوص ، ذا خصل : يريد ذيلا له لفائف من الشعر . فى غارز . أى على ضرع . لم تخونه : لم تنقصه . الأحاليل : مخارج اللبن .

(٥) القنواء : المحدودبة الأنف . الحرتان : الأذنان . العتق : الكرم . المبين : الظاهر . تسهيل : سهولة ولين .

(٦) تخدى : تسرع . اليسرات : القوائم الخفاف . الذوابل : جمع ذابل وهو الرمح الصلب اليابس . تحليل : قليل لم يبالغ فية ..

سُمر العُجايات[١] يتركن الحصى زِيَما
لم يقِهــن رءوسَ الأُكْم تنعيــل

كأن أوبَ[٢] ذراعيها وقد عـرِقَت
وقـد تلفّـع بالقُـور العساقيـل

يوما يظل به الحِرباء[٣] مصطخـدا
كـأن ضاحِيــةً بـالشمس مملـول

وقال للقوم حاديهم[٤] وقد جعلت
وُرق الجنادب يركضن الحصى قيلـوا

شد النهار[٥] ذراعـا عَيطـل نصَف
قـامت فجاوَبَهـا نُكـد مَثاكيـل

---

(١) العجايات : الأعصاب المتصلة بالحافر . زيما : متفرقا . الأكم : الأراضى المرتفعة . التنعيل : شد النعل على ظفر الدابة ليقيها الحجارة .

(٢) الأوب : سرعة التقلب والرجوع . تلفع : اشتمل والتحف . القور : جمع قارة ، وهى الجبل الصغير . العساقيل : السراب .

(٣) الحرباء : ضرب من العظاء ، يستقبل الشمس حيثما دارت ، ويتلون بألوان الأمكنة التى يحل فيها . مصطخدا : محترقا بحر الشمس . ضاحيه : ما برز للشمس منه . مملول : موضوع فى الملة ، وهى الرماد الحار .

(٤) الحادى : السائق للإبل . الورق : الأخضر الـذى يضرب إلى السواد . الجنادب : ضرب من الجراد . يركضن الحصى : يحركنه بأرجلهن لقصد النزول ، بسبب الإعياء عن الطيران من شدة الحر . قيلوا : استريحوا .

(٥) شد النهار : وقت ارتفاعه . العيطل : الطويلة . النصف : المتوسطة فى السن ، النكد : التى لا يعيش لها ولد . المثاكيل : الكثيرة الثكل .

نواحة رخوة الضَّبعين[١] ليس لها
لما نعَى بِكرها الناعون معقول
تفرى[٢] اللَّبان بكفَّيها ومِدرعها
مشقق عن تراقيها رعابيل
تسعى الغُواة[٣] جنابَيها وقولهم
إنك يا بن أبى سُلْمى لمقتول
وقال كل صديق كنت آمله[٤]
لا أُلهينَّك إنى عنك مشغول
فقلت خَلوا سبيلى[٥] لا أبا لكم
فكل ما قَدَّر الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته
يوما على آلة حدباء[٦] محمول
نُبئت أن رسول الله أوعدنى
والعفو عند رسول الله مأمول

---

(١) رخوة الضبعين : مسترخية العضدين . البكر : أول الأولاد . الناعون : المخبرون بالموت ، النادبون له . المعقول هنا : العقل .

(٢) تفرى : تقطع . اللبان : الصدر . المدرع : القميص . رعابيل : قطع متفرقة .

(٣) الغواة : المفسدون ، جنابيها : حواليها . مقتول : أى متوعد بالقتل . لأن النبى ﷺ كان قد أهدر دمه .

(٤) آمله : أؤمل خيره وأترجى إعانته فى الملمات .

(٥) خلوا سبيلى : اتركوه . لا أبا لكم : مدح لهم على سبيل التهكم والاستهزاء .

(٦) الآلة الحدباء : النعش الذى يحمل عليه الميت .

مهـلا هـداك الـذى أعطـاك نافـــ
ـلة القـرآن فيها مواعيــظ وتفصيــل
لا تأخذنّـــى بأقــوال الـــوشاة ولم
أذنب ولـو كثرت فــىّ الأقاويـل[1]
لقـد أقـوم[2] مقامــا لــو يقــوم بــه
أرى وأسمع مــا لــو يسمــع الفيـــل
لَظــلّ يرعـــد إلا أن يكـــون لـــه
مــن الـــرسول بـــإذن الله تنويـــل
حتـــى وضعت يمينـــى مـــا أنازعـــه
فى كـــف ذى نقمـــات قيلـهُ القيـــل
فلهـو أخـوف عنـدى إذ أكلمـــه
وقيـــل إنك مـــنسوب[3] ومسئـــول
من ضيغم[4] بضراء الأرض مُخـدره
فى بطـــن عثّـــر غيـــل دونـــه غيـــل

---

(١) هذا البيت من تتمة الاستعطاف والتلطف فى القول . فلا وإن كانت ناهية بحسب وضعها . لكن المراد منها التضرع والتذلل ، والمعنى : لا تستبح دمى بسبب أقوال الوشاة الساعين بينى وبينك بالإفساد والكذب والبهتان .

(٢) لقد أقوم : معناه : والله لقد أقوم مقاما ، فهو جواب مـقسم محذوف . ويروى : « أنى أقوم مقاما ، والأولى أبلغ للقسم . والمقام هنا مجلس النبى . والمراد باالقيام فيه حضوره والمعنى على المضى أى لقد حضرت مجلسا .

(٣) منسوب : أى إلى أمور صدرت منك . مسئول : أى عن سببها .

(٤) ضيغم : أسد . ضراء الأرض : الأرض التى فيها شجر . المخدر : غابة الأسد . عثر : اسم مكان مشهور بكثرة السباع . الغيل : الشجر الكثير الملتف .

يغدو[1] فيلحم ضرغامين عيشهما
لحم مـن النـاس معفـور خراديـل
إذا يساور[2] قِرنـا لا يحلّ لـه
أن يتـرك القِـرن إلا وهـو مغلـول
منـه تظـلّ سبـاع الجو[3] نافـرة
ولا تمشّى بواديـه الأراجيـل
ولا يـزال بواديـه أخـو ثقـة[4]
مُضرَّج البـز والـدرسان مأكـول
إن الـرسول لنـور يُستضاء بـه
مُهنَّـد مـن سيـوف الله مسلـول
فى عصبة[5] من قريش قال قائلهم
ببطـن مكـة لمّـا أسلمـوا زولـوا
زالوا فما زال أنكاس[6] ولا كُشُف
عنـد اللقـاء ولا ميـل معازيـل

---

(١) يلحم : يطعمها اللحم . الضرغام : الأسد ويريد بالضرغامين شبليه . معفور : ملقى فى العفر ، وهو التراب . خراديل : قطع صغار .

(٢) يساور : يواثب . القرن : المقاوم فى الشجاعة . المغلول : المكسور المهزوم .

(٣) نافرة : بعيدة . الأراجيل : الجماعات من الرجال .

(٤) مضرج : مخضب بالدماء . البز : السلاح . الدرسان : أخلاق الثياب .

(٥) زولوا : تحولوا وانتقلوا من مكة إلى المدينة .

(٦) الأنكاس : جمع نكس وهو الرجل الضعيف . الكشف : جمع أكشف ، وهو الذى لا ترس مَعه . الميل : جمع أميل . وهو الذى لا سيف له . المعازيل : الذين لا سلاح معهم .

شُمّ[١] العرانين أبطال لَبوسُهم
من نَسجِ داود فى الهيجا سرابيل
بيض[٢] سوابغ قد شُكَّت لها حَلق
كأنها حَلق القعفاء مجدول
ليسوا مفاريح[٣] إن نالت رماحهم
قوما وليسوا مجازيعا إذا نيلوا
يمشون مشى الجمال الزهر[٤] يعصمهم
ضرب إذا عرّد السود التنابيل
لا يقع الطعن[٥] إلا فى نحورهم
وما لهم عن حياض الموت تهليل

ولما أنشده :

إن الرسول لنور يُستضاء به
مُهنَّد من سيوف الله مسلول

---

(١) شم : جمع أشم . وهو الذى فى قصبة أنفه علو ، مع استواء أعلاه . العرانين : جمع عرنين ، وهو الأنف . اللبوس : ما يلبس من السلاح . نسج داود : أى منسوجه وهو الدروع . الهيجا : الحرب . السرابيل : جمع سربال . وهو القميص أو الدرع .

(٢) السوابغ : الطوال السوابل . شكت : أدخل بعضها فى بعض . القعفاء : ضرب من الحسك . مجدول : محكم الصنعة .

(٣) مفاريح : كثيرو الفرح . نالوا : أصابوا . مجازيع : كثيرو الجزع .

(٤) الزهر : البيض . يعصمهم : يمنعهم . عرد : فر . التنابيل : جمع تنبال ، وهو القصير .

(٥) وقوع الطعن فى نحورهم : دليل على أنهم لا ينهزمون حتى يقع الطعن فى ظهورهم . حياض الموت : موارد الحتف . تهليل : تأخر .

ألقى عليه بردة كانت عليه . ولما قال كعب ، « إذا عرّد السود التنابيل » قال الأنصار :

ـــ إنما يريدنا معشر الأنصار لما كان صاحبنا صنع به ما صنع .

وأحس رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن كعبا خص المهاجرين من قريش من أصحابه بمدحته ، وأن الأنصار غضبت عليه فقال له :

ـــ لولا ذكرت الأنصار بخير فإنهم لذلك أهل .

فقال يمدح الأنصار :

من سره كرم الحياة فلا يزل
في مقنب من صالحى الأنصار[1]

ورثوا المكارم كابرا عن كابر
إن الخيار هم بنو الأخيار

المكرهين السّمهرىّ بأذرع
كسوالف الهندى غير قصار[2]

والناظرين بأعين محمرة
كالجمر غير كليلة[3] الأبصار

والبائعين نفوسهم لنبيهم
للموت يوم تعانق وكرار

---

(١) المقنب : الجماعة من الخيل .

(٢) السمهرى : الرمح . سوالف الهندى : حواشى السيوف .

(٣) كليلة : ضعيفة .

والقائدين الناس عن أديانهم
بالمشرفى[1] وبالقنا الخَطَّار
يتطهرون يرونه نسكا لهم
بدماء من علقوا من الكفار
دربوا كما دربت ببطن خفية
غلب الرقاب من الأسود ضوارى
وإذا حللت ليمنعوك إليهم
أصبحت عند معاقل الأعفار
ضربوا عليًّا[2] يوم بدر ضربة
دانت لوقعتها جميع نزار
لا يعلم الأقوام علمى كلَّه
فيهم لصدقنى الذين أمارى[3]
قوم إذا خوَت[4] النجوم فإنهم
للطارقين النازلين مقارى[5]
فى الغر من غسان من جرثومة[6]
أعيت محافرها على المنقار

(١) الأعفار : جمع عفر وهو ولد الوعل . ويضرب المثل بامتناع أولاد الوعول فى قلل الجبال .

(٢) عليا : يريد على بن مسعود بن مازن الغسانى .

(٣) أمارى : أجادل .

(٤) خوت : خفيت وأظلمت .

(٥) مقارى : مكرمين .　　　(٦) الجرثومة : الأصل .

٢٦

استقبل رسول الله ــ ﷺ ــ الصباح فأخذ يدعو :

ــ أصبحنا وأصبح الملك والكبرياء والعظمة والجلال والخلق والأمر والليل والنهار وما يسكن فيها لله عز وجل وحده لا شريك له .

اللهم اجعل أول يومى هذا صلاحا وأوسطه فلاحا وأخره نجاحا . اللهم إنى أسألك خير الدنيا والآخرة يا أرحم الراحمين . اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتنا ما تبلغنا به رحمتك ، ومن اليقين ما تهون به علينا مصيبات الدنيا . اللهم متعنا بأسماعنا وأبصارنا واجعله الوارث منا ، وانصرنا على من ظلمنا ، ولا تجعل مصيبتنا فى ديننا ، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلط علينا من لا يرحمنا .

وخرج رسول الله ــ ﷺ ــ إلى أصحابه منشرح الصدر فرأى صهيبا يأكل رطبا وكان بإحدى عينيه رمد ، فقال له الرسول عليه السلام مداعبا :

ــ أتأكل الرطب وفى عينيك رمد .

فقال صهيب :

ــ وأى بأس ! إنى آكله بعينى الأخرى .

ولقى ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ معاذ بن جبل . فقال له :

ــ كيف أصبحت ؟

ــ أصبحت مؤمنا حقا يا رسول الله .

ــ إن لكل حق حقيقة ، فما حقيقة إيمانك ؟

ــ ما أصبحت صباحا قط إلا ظننت أنى لا أمسى ، ولا أمسيت مساء إلا ظننت أننى لا أصبح ، ولا خطوت خطوة إلا ظننت أنى لا أتبعها غيرها ، وكأنى أنظر إلى كل أمة جاثية تدعى إلى كتابها ، وكأنى أرى أهل الجنة ينعّمون وأهل النار فى النار يعذّبون .

ــ عرفت فالزم .

كان معاذ شديد الأدمة[1] ، حلو المنطق وضيء ، ينهل العلم من رسول الله ــ ﷺ . إذا تكلم كأنما يخرج من فمه نور ولؤلؤ ، تعمق فى الفقة حتى إن رسول الله ــ ﷺ ــ قال عنه :

ــ أعلم أمتى بالحلال والحرام معاذ بن جبل .

ودنا أبو ذر من رسول الله ــ ﷺ ــ ينهل من علمه ، فقال عليه السلام :

ــ يا أبا ذر كيف أنت إذا أدركت أمراء يستأثرون بالفيء ؟

ــ إذاً والذى بعثك بالحق لأضربن بسيفى .

ــ أفلا أدلك على خير من ذلك ؟ اصبر حتى تلقانى .

واستأثر معاوية بالفيء وراح أبو ذر يقود ثورة تنادى بتوزيع المال على المسلمين كافة ، ثورة عارمة لم يُمتشق فيها سلاح امتثالا لوصية نبيه بأن يصبر حتى يلقاه .

وأتى إلى رسول الله ــ صلوات الله وسلامه عليه ــ رجل من الأنصار يسأله ، فقال :

ــ أما فى بيتك شيء ؟

---

(١) الأدمة : لون مشرب سوادا .

— بلى ، حلس[١] نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقعب نشرب فيه الماء .

— ائتنى بهما .

فأتاه بهما فأخذهما — ﷺ — بيده وقال :

— من يشترى هذين ؟

قال رجل :

— أنا آخذهما بدرهم .

قال رسول الله — ﷺ — :

— من يزيد على درهم مرتين أو ثلاثا ؟

قال رجل :

— أنا آخذهما بدرهمين .

فأعطاهما إياه وأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصارى وقال :

— اشتر بأحدهما طعاما فانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدوما فأتنى به .

فأتاه به فشد فيه رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — عودا بيده وقال :

— اذهب فاحتطب وبع . هذا خير لك من أن تجىء المسألة نكتة[١] فى وجهك يوم القيامة .

وجاء أبو الدرداء إلى حبيبه الرسول وراح يروى له ما كان بينه وبين سلمان الفارسى فى أمسه ، وكانا ممن آخى بينهما — صلوات الله وسلامه عليه . قال أبو الدرداء :

---

(١) الحلس : فراش يبسط فى البيت أو يوضع على الرحل ، وكان العرب يلتحفون به أحيانا .

(٢) نكتة : وصمة .

ـــ دخل سلمان بيتى فوجد امرأتى أهملت نفسها فقال لها : « ما شأنك ؟ » قالت : « أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة فى الدنيا » ، فجاءنى فصنع لى طعاما : فقال : « كل » . فقلت : « إنى صائم » . قال : « ما أنا بآكل حتى تأكل » . فأكلت . فلما كان الليل ذهبت أقوم قال : « نم » فنمت . ثم ذهبت أقوم قال : « نم » فلما كان آخر الليل قال : « قم الآن » . فصلينا فقال : « إن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فأعط كل ذى حق حقه » .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ صدق سلمان .

وراح حسان بن ثابت ينشد رسول الله ـــ ﷺ ـــ شعره والرسول عليه السلام يحسن استماعه ولا يشتغل عنه بشىء ، وعمرو بن العاص وأبو سفيان ابن الحارث ومن كانوا ينازلونه بألسنتهم من شعراء قريش قبل أن يشرح الله قلوبهم للإسلام يصغون إليه ويتمنون فى قرارة أنفسهم لو أنهم كانوا المنافحين عن دين الله مذ أول يوم وقف فيه محمد عليه السلام على الصفا يدعو قومه إلى الإسلام .

كان عمرو بن العاص مطرقا لا يرفع عينيه إلى رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ هيبة وخجلا مما كان فى سالف الزمان ، وكان ابن عمه أبو سفيان بن الحارث يكثر من إنشاد الشعر فى مدح رسول الله عليه السلام لعله يكفر عما كان من هجوه ويرجو من كل قلبه لو أن ما قاله من قدح تمحوه يد النسيان » .

وكان أبو بكر وعمر وعثمان وعبد الرحمن بن عوف فى مكان الصفق ، إنهم من تجار قريش وإنهم ليعرفون كيف يكتسبون الأموال . ولم يكن الذهب

والفضة غرضهم بل كانوا على يقين أن دعوة الله فى حاجة إلى إنفاق وأن إخوانهم الفقراء فى حاجة إلى ما يمسك الرمق[١] ، فكانوا ينفقون ما يربحون فى سبيل الله ويتصدقون على المساكين ثم ينامون على الطوى ، يعيشون على خبز الشعير أو التمر فقد كان لهم فى رسول الله أسوة حسنة ، وإن الرسول عليه السلام قد علمهم حقيقة الزهد لما قال :

ـــ ليست الزهادة فى الدنيا بتحريم الحلال ولا إضاعة المال ، ولكن الزهادة أن تكون بما فى يد الله تعالى أوثق منك بما فى يدك ، وأن تكون فى ثواب المصيبة إذا أصبت بها أرغب منك فيها لو أنها بقيت لك ، لأن الله تعالى يقول : « لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم »[٢] .

وقام رسول الله عليه السلام ليذهب لزيارة إبراهيم الحبيب فركب حماره ، وقبل أن ينطلق رأى عبد الله بن عباس فأردفه خلفه وسار إلى العالية ، وأخذ يزجى نصائحه إلى ابن العباس قال :

ـــ يا غلام احفظ الله يحفظك . احفظ الله تجده تجاهك . تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة . إذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله . فإن العباد لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىء لم يضروك إلا بشىء قد كتبه الله عليك . جفت الأقلام وطويت الصحف ! فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا فى اليقين فافعل ، فإن لم تستطع فإن فى الصبر على ما تكره خيرا كثيرا . واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا . ولن يغلب عسر يسرين » .

---

(١) الرمق : بقية الروح .   (٢) الحديد ٢٣ .

ودخل رسول الله ﷺ — مشربة أم إبراهيم فألفى إبراهيم عندها وهى تناجيه فى فرح ، فقد جاءت به مرضعته أم سيف ليمضى سحابة نهاره عند مارية ، فأجس الرسول عليه السلام رقة وحنانا فذهب إلى إبراهيم وحمله فى حب وأخذ يقبله والرحمة تتدفق من كنوز قلبه الكبير . وداعب عبد الله بن عباس إبراهيم ، وراح الوقت يمر ورسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — يستشعر سعادة تبدد ما ألفه من حزن .

وعاد رسول الله — ﷺ — إلى مسجده ، إنه لا ينفك يذكر الله ويدعوه ويستغفره .

— رب اغفر لى خطيئتى وجهلى وإسرافى فى أمرى كله وما أنت أعلم به منى .

اللهم اغفر لى خطاياى وعمدى وجهلى وهزلى وكل ذلك عندى .

اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت . أنت المقدم وأنت المؤخر ، وأنت على كل شىء قدير .

وقضيت صلاة العشاء وذهب الناس إلى دورهم . ودخل رسول الله — ﷺ — خباءه وراح يصلى فى خشوع حتى إذا ما تعبت قدماه أخذ يناجى ربه ويتضرع إليه :

— اللهم لك الحمد ، أنت قيم السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد . أنت نور السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد . أنت ملك السموات والأرض ومن فيهن ولك الحمد . أنت الحق ووعدك الحق ولقاؤك الحق وقولك الحق . والجنة حق والنار حق والنبيون حق ومحمد حق والساعة حق . اللهم لك أسلمت ولك آمنت ، وعليك توكلت وإليك أنبت ، وبك خاصمت وإليك حاكمت . فاغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت . أنت المقدم وأنت المؤخر ، لا إله إلا أنت ولا حول ولا قوة إلا بالله .

٢٧

كان الحارث بن أبى الحارث بن أبى ضرار سيد بنى المصطلق ، وكان يرى بزوغ نجم الإسلام فيحس كمدا فاشتداد ساعد الدين الجديد يهدد آلهة القوم ويسفه معتقدات الآباء وينذر بانضواء القبائل الحرة التى تعيش بلا قيود تحت لواء يثرب ، وخاف الحارث على زعامته فجمع بنى المصطلق لحرب رسول الله ــ ﷺ ، فلما سمع رسول الله ــ ﷺ ــ بهم خرج إليهم حتى لقيهم على ماء لهم يقال له المريسيع من ناحية قديد إلى الساحل .

وتزاحف الناس : المسلمون يقاتلون لإعلاء كلمة الله ، وبنو المصطلق يدافعون عن مجد الأرض وعصبية القبيلة وإن كانوا يخدعون أنفسهم ويوهمونها أنهم إنما يقاتلون لتكون كلمة مناة هى العليا وليستمر سلطان بنات الله على الأرض .

وهزم الله بنى المصطلق وقتل من قتل منهم ، ونفل الله رسول الله ــ ﷺ ــ أبناءهم ونساءهم وأموالهم فأفاءهم عليه ، فلما قسم رسول الله ــ ﷺ ــ سباياهم وقعت جويرية بنت الحارث فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس فكاتبته على نفسها وكانت امرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله ــ ﷺ ــ تستعينه فى كتابتها ، فوالله ما هو إلا أن رأتها عائشة على باب حجرتها فكرهتها وعرفت أنه سيرى منها ــ ﷺ ــ ما رأت ، فدخلت عليه فقالت :

ــ يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه ، وقد

أصابنى من البلاء ما لم يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس فكاتبته على نفسى ، فجئتك أستعينك على كتابتى .

إنها كانت بنت سيد بنى المصطلق وقد أصاب منهم سبيا كثيرا ، وكان عليه السلام يبذل كل جهد لفك الرقاب وتحرير العبيد . إنه لو تزوج جويرية فسيطلق المسلمون ما فى أيديهم من سبايا إكراما لها ، فقال لجويرية :

— فهل لك فى خير من ذلك ؟

— وما هو يا رسول الله ؟

— أقضى عنك كتابتك وأتزوجك .

— نعم يا رسول الله .

— قد فعلت .

وخرج الخبر إلى الناس أن رسول الله — ﷺ — تزوج جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار فقال الناس :

— أصهار رسول الله — ﷺ .

وأرسلوا ما بأيديهم فأعتق بتزويجه إياها مائة أهل بيت من بنى المصطلق ، وانشرح صدر رسول الله — ﷺ — فقد تحررت رقاب رجال ونساء وولدان ، وإن أحب شىء إليه كان عتق الأرقاء فما بالك بأحرار عادت إليهم حريتهم بعد أن كادوا فى ذل الرق يرسفون ؟ وتهللت جويرية بالفرح فما كانت امرأة أعظم على قومها بركة منها .

ولما انصرف رسول الله — ﷺ — من غزوة بنى المصطلق ومعه جويرية بنت الحارث وكان بذات جيش ، دفع جويرية إلى رجل من الأنصار وديعة وأمره بالاحتفاظ بها .

وقدم رسول الله — ﷺ المدينة فأقبل الحارث بن أبى ضرار بفداء ابنته ،

فلما كان بالعقيق نظر إلى الإبل التى جاء بها للفداء فرغب فى بعيرين منها فغيبهما فى شعب من شعاب العقيق . ثم أتى إلى النبى ـــ ﷺ ـــ وقال :

ـــ يا محمد أصبتم ابنتي وهذا فداؤها .

فقال رسول الله ـــ ﷺ :

ـــ فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق ؟

فرنا الحارث إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ رنوة كلها دهش ، وأحس كأن أنوارا تغمر قلبه وانشرح صدره للإسلام فقال :

ـــ أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله ، فوالله ما اطلع على ذلك إلا الله .

فأسلم الحارث وأسلم معه ابنان له وناس من قومه ، وأرسل إلى البعيرين فجاء بهما فدفع الإبل إلى النبى . وما كان النبى ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ فى حاجة إلى الإبل وهو الذى يرد على الفقراء كل ما يفيء الله عليه ، إنه يضع تسعين ألف درهم على حصير أمامه فينفقها كلها ثم يمر هلال ثم هلال ولا يوقد فى بيت من بيوته نار . إنه يعيش على الأسودين الماء والتمر .

وأصبحت جويرية بنت الحارث أما للمؤمنين وهو شرف تتيه به بنو المصطلق على القبائل ، ودخل الحارث بن أبى ضرار فى الإسلام وأصبح متفرحا فى الله معجبا بفصاحة رسول الله ـــ ﷺ ، إنه يتكلم بكلام بين فصل يحفظه من يجلس إليه ، وإنه يحدث حديثا لو عدّه العاد لأحصاه .

وكان إعجاب الحارث بفصاحة رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ لا يقل عن إعجاب أبى بكر الصديق رفيق صباه وأول من آمن به من الرجال وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، فقد قال له أبو بكر ذات يوم :

ـــ لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن

أدبك ؟

ـــ أدبنى ربى فأحسن تأديبى .

وظل الحارث يلقى سمعه إلى نصائح الرسول ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ فلا يزيده ذلك إلا إيمانا وتسليما :

ـــ اتق الله حيثما كنت ، وأتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالق الناس بخلق حسن .

شر ما فى الرجل شح هالع ، وجبن خالع . اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم وأستحلوا محارمهم .

كان الحارث سعيدا بقربه من النبى عليه السلام ، إنه ليروى ظمأه إلى المعرفة من نبع الرسول الصافى الرقراق . وقد سمعه يوما يخطب :

ـــ إن الدنيا خضرة حلوة ، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون . ألا فاتقوا الدنيا واتقوا النساء . ألا لا يمنعن رجلا هيبة الناس أن يقول بحق إذا علمه . ألا إنه ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته ، ولا غدرة أعظم من غدرة إمام عاق . ألا وإن الغضب جمرة فى قلب ابن آدم ، أما رأيتم حمرة عينيه وانتفاخ أوداجه ؟ فمن أحس بشىء من ذلك فليلصق بالأرض .

كان حديثه حكمة وكان الحارث يتمنى أن يبقى ما بقى من دهره إلى جواره . ولكنه كان سيد قومه وإنه ليريد لهم الهداية والرشد . إن رسول الله ـــ صلوات الله وسلامه عليه ـــ دعاه إلى الإسلام فدخل فى الإسلام وأقر ، ودعاه إلى الزكاة فأقر بها فقال :

ـــ يا رسول الله أرجع إلى قومى فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة ، فمن

استجابنى جمعت زكاته .

واتفق مع رسول الله — ﷺ — على ميعاد يبعث فيه رسوله ليقبض زكاة بنى المصطلق . ومرت الأيام وجمع الحارث بن أبى ضرار الزكاة من قومه . ووافى الموعد الذى حدده مع رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — ليبعث رسوله ليأخذ صدقات قومه ولكن الرسول احتبس عليه فلم يأته . فظن الحارث أن قد حدث فيه سخطة من الله ورسوله ، فدعا سروات قومه فقال لهم :

— إن رسول الله — ﷺ — قد كان وقت لى وقتا ليرسل إلى ليقبض ما كان عندى من الزكاة ، وليس من رسول الله — ﷺ — خلف . ولا أرى حبس رسوله إلا سخطة فانطلقوا فنأتى رسول الله ﷺ :

وبعث رسول الله — ﷺ — الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة ، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق تذكر أن بينه وبين بنى المصطلق عداوة فى الجاهلية ، وراح الشيطان يوسوس له أنهم قاتلوه فهابهم فرجع من الطريق إلى رسول الله — ﷺ — فقال :

— يا رسول الله إن الحارث منعنى الزكاة وأراد قتلى .

فغضب رسول الله — ﷺ — وبعث رجالا من المسلمين لقتال بنى المصطلق . وأقبل الحارث بأصحابه فاستقبل البعث وقد فصل من المدينة فلقيهم الحارث فقالوا :

— هذا الحارث .

فلما لقيهم قال لهم :

— إلى من بعثتم ؟

— إليك .

فظهر الدهش فى وجهه وقال :

— ولم ؟

— إن رسول الله — ﷺ — كان بعث إليك الوليد بن عقبة ، فرجع إليه فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله .

— والذى بعث محمدا بالحق ما رأيته ولا أتانى .

فلما أن دخل الحارث على رسول الله — ﷺ — قال فى غضب :

— منعت الزكاة وأردت قتل رسولى ؟

فقال الحارث فى صدق :

— لا والذى بعثك ما رأيت رسولك ولا أتانى ولا أقبلت إلا حين احتبس على رسولك خشية أن يكون سخط من الله ورسوله .

فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه فى قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان أولئك هم الراشدون . فضلا من الله ونعمة والله عليم حكيم ﴾[1] .

---

(1) الحجرات ٦ — ٨

فتح مكة

٢٨

كان عروة بن مسعود سيد ثقيف ، وكان أمية بن أبى الصلت شاعرهم . وقد تنصر أمية قبل أن يوحى إلى رسول الله ـــ ﷺ ـــ وقرأ التوراة والإنجيل وألقى سمعه إلى الرهبان الذين كان يمر بهم كلما خرج إلى الشام فى تجارة قريش . فقد كانت ثقيف حليفة قريش ، ولا غرو فأم عروة بن مسعود سبيعة بنت عبد شمس ، وأم أمية بن أبى الصلت رقية بنت عبد شمس . وسمع أمية من الأحبار والرهبان أن نبيا قد أظل زمانه فكان يحدث عروة ونساء ثقيف أنه ذلك النبى الذى بشرت به الأنبياء .

واصطفى الله محمدا ليكون رسوله الأمين ، فلما دعا قومه إلى الإسلام نهشت الغيرة أفئدة سادات قريش وقالوا : « لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »[1] . كانوا يرون وقد ملئوا حسدا أن عتبة بن ربيعة أو عروة بن مسعود أحق بالرسالة من فقير قريش وإن كان أمينا وإن كان على خلق عظيم .

ودخل أمية بن أبى الصلت ما يدخل الناس من النفاسة وبقى عروة بن مسعود على دين قومه ، واضطهدت قريش المسلمين وعذبوهم ليفتنوهم عن دينهم ولكن المسلمين صمدوا للاضطهاد ، وأراد الله أن يظهر دينه على الدين كله ولو كره المشركون ففتح بالقرآن قلوب الأنصار فهاجر المسلمون إلى

---

(١) الزخرف ٣١ .

إخوان لهم فى الدين ، وكانت غزوة بدر وقتل رجل من القريتين عظيم ، وبقى عروة بن مسعود يرصد بزوغ نجم محمد — صلوات الله وسلامه عليه — وهو يتأرجح بين الشك واليقين ، ومال إلى التكذيب لما رأى أن زعامته لثقيف ستتزعزع لو أنه اتبع النور الذى أشرق فى يثرب .

وكان أمية بن أبى الصلت قد خرج إلى الشام وعكف على قراءة الأسفار ، فإذا بصوت ضميره يقول فى إصرار كلما فكر فى محمد بن عبد الله : « إن صفته لهى » . فشد الرحال إلى المدينة ليشهد شهادة الحق فعلم أن رسول الله هناك فى بدر . فامتطى راحلته حتى نزل بدرا ثم ترجل يريد رسول الله — ﷺ — فقال قائل :

— يا أبا الصلت ما تريد ؟

— أريد محمدا .

— وما تصنع ؟

— أومن به وألقى إليه مقاليد هذا الأمر .

— أتدرى من فى القليب ؟

— لا .

— فيه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة .

وكانا ابنى خاله ، فجدع أذنى ناقته وقطع ذنبها ثم وقف على القليب يرثى من فيه ، ثم رجع إلى مكة والطائف ومالبث أن مات . فلم يشأ الله له الهداية ولحق بابنى خاله عتبة بن ربيعة وبقى على قيد الحياة عروة بن مسعود لتكون مشيئة الله فيه .

ومرت الأحداث وخرج رسول الله — ﷺ — والذين معه إلى الحديبية معتمرا لا يريد حربا ، وبعثت قريش الرسل إلى نبى الإسلام عليه السلام .

فلما عاد الرسل بما لا يحبون أغلظوا لهم القول ، ثم أرادوا أن يبعثوا إلى رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه — عروة بن مسعود فقال :

— يا معشر قريش إنى قد رأيت ما يلقى منكم من بعثتموه إلى محمد إذا جاءكم من التعنيف وسوء اللفظ ، وقد عرفتم أنكم والد وأنى ولد . وقد سمعت بالذى نابكم فجمعت من أطاعنى من قومى ثم جئتكم حتى آسيتكم بنفسى .

— صدقت ما أنت عندنا بمتهم .

فخرج حتى أتى رسول الله — ﷺ — فجلس بين يديه ثم حدثه وهو مبهور بما يرى ، لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه . فرجع إلى قريش فقال :

— يا معشر قريش إنى قد جئت كسرى فى ملكه وقيصر فى ملكه والنجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبدا .

وحفر ما رآه عروة من أصحاب رسول الله من تبجيل للرسول العظيم فى ذاكرته ؛ إنه ليذكر ما كان من أصحابه عند الحديبية فيفكر فى ذلك الأمر الذى جاءهم به فألف بين قلوبهم وبث فيهم روحا جديدة لكأنما قد خلقوا من جديد !

ولم يشهد عروة بن مسعود حنينا ولا حصار الطائف ، كان بمدينة جُرَش يتعلم صنعة الدبابات والمجانيق فقد كانت أحدث وسائل القتال ، وكان سيد ثقيف يريد ألا يفوته فن من فنون الحصار ودك الحصون .

وانصرف رسول الله — ﷺ — عن ثقيف وقد قتل بعض أصحابه عند حصونها . فلما عاد عروة بن مسعود وسمع بما كان من قتال بين المسلمين وبين ثقيف أحس ندما . فلو كان بالطائف لأعلن إسلامه ولكفى الله المؤمنين القتال

فقد انشرح صدره للإسلام ونزل فؤاده أنوار اليقين .

ولم يشأ عروة بن مسعود أن يستريح بل راح يغذ السير ليدرك رسول الله — ﷺ — قبل أن يصل إلى المدينة ، فراح يسرى فى معبد الله يرى فى شروق الشمس وغروبها وبزوغ القمر وتألق النجوم آيات قد عميت عنها بصيرته من قبل ، وكان القرآن المجيد قد فتح قلبه فإذا بصوت رقيق يرتل فى أعماق نفسه : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . وإلى السماء كيف رفعت . وإلى الجبال كيف نصبت . وإلى الأرض كيف سطحت . فذكر إنما أنت مذكر . لست عليهم بمصيطر . إلا من تولى وكفر . فيعذبه الله العذاب الأكبر . إن إلينا إيابهم . ثم إن علينا حسابهم »[1] فأحس بدموع تطفر إلى مآقيه ثم تسيل لتبلل لحيته .

وأدرك عروة بن مسعود رسول الله — ﷺ — قبل أن يصل إلى المدينة فأعلن إسلامه وهو متفرح فى الله . كل ما حوله يتنفس بذكر الله ، فحفيف الشجر تسبيح ، وهبوب النسيم ابتهالات . وشروق الشمس صلاة . إنه أصبح يستشعر أن الله يسرى فيه مسرى الدم ، وأنه يمتلىء بفرح فياض وهو إلى جوار رسول الله — صلوات الله وسلامه عليه .

وشارك عروة بن مسعود المسلمين غبطة الصلاة خلف رسول الله — ﷺ — والإصغاء إليه والنهل من نبع علمه وصحبته التى ملأت فؤاده بالأنوار . ووجد عروة أن عليه أن يدعو قومه إلى الإسلام فسأل رسول الله — ﷺ — أن يرجع إلى قومه بالإسلام ، فقال له رسول الله — ﷺ — وقد عرف فيهم نخوة الامتناع :

---

(١) الغاشية ١٧ — ٢٦

— إنهم قاتلوك .

— يا رسول الله . أنا أحب إليهم من أبصارهم .

فخرج يدعو قومه إلى الإسلام رجاء ألا يخالفوه لمنزلته فيهم ، فلما أشرف على عِلية له وقد دعاهم إلى الإسلام وأظهر لهم دينه . رموه بالنبل من كل وجه فأصابه سهم ، فحمل وهو يجود بأنفاسه الطاهرة فقيل له :

— ما ترى فى دمك ؟

— كرامة أكرمنى الله بها وشهادة ساقها الله إلىَّ ، فليس فىَّ إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله — ﷺ — قبل أن يرتحل عنكم ، فادفنونى معهم .

واستشهد رجل من القريتين عظيم .

٢٩

كان الهدوء يرفرف على المدينة ومكة بعد أن ساد الإسلام والسلام ، وعرفت تجارة قريش طريقها إلى الشام فى اطمئنان ، وكان بين الوقت والآخر تخرج من المدينة سرية لتأديب من يكيدون للإسلام من القبائل المجاورة أو لهدم صنم من الأصنام ليعبد الله وحده فى أرض العرب .

لما قُتل وقاص بن مجزِّز المُدلجى يوم ذى قَرَدَ سأل علقمة بن مجزز رسول الله ـ ﷺ ـ أن يبعثه فى آثار القوم ليدرك ثاره فيهم ، فبعث رسول الله ـ ﷺ ـ علقمة وبعض المسلمين ليثأروا لوقاص ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق أذن لطائفة من الجيش واستعمل عليهم عبد الله بن حذافة السهمى ، وكان من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وكانت فيه دعابة ، فلما كان ببعض الطريق أوقد نارا ثم قال للقوم :

ـ أليس لى عليكم السمع والطاعة ؟

ـ بلى .

ـ أفما أنا آمركم بشىء إلا فعلتموه ؟

ـ نعم .

ـ فإنى أعزم عليكم بحقى وطاعتى إلا تواثبتم فى هذه النار .

فقام بعض القوم يحتجز حتى ظن أنهم واثبون فيها ، فقال لهم :

ـ اجلسوا فإنما كنت أضحك معكم .

فذكر ذلك لرسول الله ـ ﷺ ـ بعد أن قدموا عليه ، فقال ـ ﷺ ـ :

— من أمركم بمعصية منهم فلا تطيعوه .

وبعث رسول الله — ﷺ — على بن أبى طالب فى خمسين ومائة من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرسا لهدم صنم طىء ، فخرج على كرم الله وجهه ومعه راية سوداء ولواء أبيض . وفى عماية الصبح شن المسلمون الغارة على طىء فهدموا الفلس وأحرقوه واستاقوا النعم والشاة والسبى . وكان فى السبى سفانة بنت حاتم الطائى وأخت عدى بن حاتم ، ووجدوا فى خزانة الصنم ثلاثة أسياف معروفة عند العرب وهى رسوب والمخذم واليمانى ، وثلاثة أدرع . وجعل على بن أبى طالب الرسوب والمخذم صفيا لرسول الله — ﷺ — ثم صار إليه الثالث الذى هو اليمانى . وعاد على بالنعم والشاة والسبى المدينة ، وجاء النبى — ﷺ — ينظر فمر بسفانة بنت حاتم فقامت إليه وكانت امرأة ذات وقار وعقل فقالت له — ﷺ :

— يا محمد أرأيت أن تخلى عنا ولا تشمت بنا أحياء العرب فإنى ابنة سيد قومى ، وإن أبى كان يحمى الذمار ويفك العانى ويشبع الجائع ويكسو العارى ويقرى الضيف ويطعم ويفشى السلام و لم يرد طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم طيىء .

فقال لها النبى — ﷺ :

— يا جارية هذه صفات المؤمنين حقا . لو كان أبوك مسلما لترحمنا عليه . خلوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق وإن الله يحب مكارم الأخلاق .

وأسلمت سفانة وأرادت أن تعود إلى بلادها ، فقال لها رسول الله — ﷺ :

— لا تعجلى حتى يجىء من قومك من يكون لك ثقة يبلغك إلى بلادك فآذنينى .

فصبرت حتى قدم عليها من تثق به ، فجاءت رسول الله — ﷺ — فقالت :

— قدم رهط من قومى لى فيهم ثقة .

فكساها رسول الله — ﷺ — وحملها وأعطاها نفقة ، فخرجت وهى مغتبطة لأن الله قد هداها إلى الإسلام . و لم تعد إلى طيىء بل انطلقت إلى الشام لتلقى أخاها عدى بن حاتم الذى فر إلى هناك لما رأى جيش المسلمين . إنها تحب عدى وإنها تحب له الهداية والرشاد .

كان عدى بن حاتم رجلا شريفا فى قومه يأخذ ربع الغنيمة كما هو عادة العرب فى الجاهلية . فلما سمع برسول الله — ﷺ — كرهه . ما من رجل من العرب كان أشد كراهة لرسول الله — ﷺ — حين سمع به منه ، فقال لغلام كان راعيا لإبله :

— لا أبا لك اعزل من إبلى أجمالا ذللا سمانا فاحتبسها قريبا منى ، فإذا سمعت بجيش لمحمد قد وطىء هذه البلاد فأذنى .

ففعل ، ثم إنه أتاه ذات يوم فقال :

— يا عدى ما كنت صانعا إذا غشيك محمد فاصنعه الآن ، فإنى قد رأيت رايات سألت عنها قالوا : هذه جيوش محمد .

قال له :

— قرب لى جمالى .

فقربها فاحتمل أهله وولده والتحق بأهل دينه من النصارى فى الشام وترك سفانة أخته لتقع أسيرة فى أيدى المسلمين . وإنه لقاعد فى أهله إذ نظر إلى امرأة تؤمهم فقال :

— ابنة حاتم ؟!

فإذا هى ، فلما وقعت عيناها عليه قالت :

ــ القاطع الظالم . احتملت بأهلك وولدك ونركت بقية والديك وعورتك .

ــ أى أخية لا تقولى إلا خيرا ، فوالله ما لى من عذر .

ونزلت سفانة عليه وأقامت عنده ، فقال لها وكانت امرأة حازمة :

ــ ماذا ترين فى أمر هذا الرجل ؟

ــ أرى والله أن تلحق به سريعا ، فإن يكن نبيا فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكا فأنت أنت .

و لم تظهر له إسلامها لئلا ينفر من قولها ، كان كل ما تبغيه أن ينطلق عدى إلى رسول الله ــ ﷺ ــ وكانت على ثقة من أنه ما أن يجلس بين يديه حتى يصدقه .

فخرج عدى حتى جاءه ــ ﷺ ــ بالمدينة . فدخل عليه فقال عليه السلام :

ــ من الرجل ؟

ــ عدى بن حاتم .

فقام رسول الله ــ ﷺ ــ وانطلق به إلى بيته ، فوالله إنه لقائده إليه إذ لقيته امرأة كبيرة ضعيفة فاستوقفته ــ ﷺ ــ فوقف لها طويلا تكلمه فى حاجتها ، فقال عدى فى نفسه :

ــ ما هو بملك .

ثم مضى رسول الله ــ ﷺ ــ حتى إذا دخل بيته تناول وسادة بيده من أدم محشوة ليفا ، فقدمها إليه وقال :

ــ اجلس على هذه .

— بل أنت فاجلس عليها .

— بل أنت .

فجلس عدى عليها وجلس رسول الله عليه السلام بالأرض ، فقال عدى في نفسه :

— والله ما هذا بأمر ملك .

— يا عدى بن حاتم أسلم تسلم . أسلم تسلم . أسلم تسلم .

— إنى على دين .

— أنا أعلم بدينك منك .

— أنت أعلم بدينى ؟!

— نعم ، ألست من الركوسية ؟ ألست من القوم الذين لهم دين ؟

— بلى .

— ألم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟ (أخذ الربع من الغنيمة) ؟

— بلى .

— فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك .

— أجل والله .

وعرف أنه نبى مرسل يعلم ما يُجهل . ثم قال — ﷺ — :

— لعلك يا عدى إنما يمنعك من الدخول فى هذا الدين ما ترى . تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لا قوة له ، وقد رمتهم العرب مع حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، وإنما يمنعك من الدخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم . أتعرف الحيرة ؟

— لم أرها وقد سمعت بها .

— فو الذى نفسى بيده ليتمن هذا الأمر حتى تخرج الظعينة (المرأة) من الحيزة تطوف بالبيت من غير جوار أحد .

وألقى عدى بن حاتم سمعه إلى رسول الله — ﷺ — فإذا بأنوار اليقين تنزل قلبه وقد شرح الله صدره للإسلام . فلم يقم من عنده حتى شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله .

٣٠

كانت المعارك طاحنة بين الفرس والروم ، وقد انتهت تلك المعارك بانتصار الروم وعودة هرقل إلى بيت المقدس وإعادة الصليب المقدس إلى كنيسة القيامة . وقد جاءت أنباء انتصارات الروم إلى المسلمين يوم انتصارهم فى بدر فتهللوا بالفرح ، فقد تنبأ القرآن المجيد بذلك النصر فى وقت كانت فيه هزيمة الروم ساحقة وقد وقف الفرس يقرعون أبواب القسطنطينية وهم بنصرهم مزهوون .

ومرت الأيام وبعث رسول الله ـــ ﷺ ـــ دحية الكلبىّ برسالة إلى هرقل عظيم الروم يدعوه فيها إلى الإسلام ، فاستقبل هرقل دحية استقبالا حسنا وقال قولا سديدا ، وأرسل معه هدايا للنبى الأمى الذى يجده مكتوبا عنده فى التوراة والإنجيل .

وفتح رسول الله ـــ ﷺ ـــ مكة ففازت بلاد العرب بالوحدة السياسية لأول مرة فى تاريخها مذ أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، وسرى الإلهام الدينى فى سرائر المسلمين فإذا برعاة الإبل الخاملين.أصبحت لهم رسالة يتطلعون إلى نشرها فى العالمين .

إن رسول الله ـــ ﷺ ـــ ليعد أتباعه بمدائن كسرى وقصور الحيرة والشام ، وإن هذه الأنباء لتصل إلى هرقل من أعداء محمد عليه السلام فيستخف بها فى أول الأمر ثم ينتابه قلق كلما اشتد ساعد الإسلام . حتى إذا ما فتح الله على المسلمين مكة ودانت.قبائل العرب المحيطة بالمدينة بالولاء للدين

الجديد تذكر هرقل النبوءة التى أحزنته عقب أن وضع على رأسه تـاج الإمبراطورية الرومانية ، فقد تنبأ المنجمون أن ملكه سيزول على يد شعب مختون ، فما خطر له العرب على قلب فى ذلك الوقت فقد كانوا أهون من أن يفكر فيهم ، وحسب أن اليهود هم ذلك الشعب فصب عليهم سوط عذاب .

وانبلجت لعينيه حقيقة النبوءة ، فكل الدلائل تشير إلى أن ذلك الشعب الذى يهدد ملكه هم هؤلاء المؤمنون الذين انضووا تحت لواء محمد ، وإنه ليعرف خطورة الانتفاضة الروحية التى خفقت فى قلب جزيرة العرب . إنها لو تركت حتى تستقر فى سويداء قلوب أتباع الدين الجديد فلَن تستطيع دولة أت تقف زحف المؤمنين ، فوطد النفس على أن يسحق هذه النهضة قبل أن يشتد عودها .

وبلغ رسول الله — ﷺ — أن الروم قد جمعت جموعا كثيرة فى الشام وأنهم قدموا مقدماتهم إلى البلقاء . فلم ينتظر حتى يفاجئه الروم فى المدينة بل أمر الناس بالجهاز على الرغم من شدة الحر وعسرة فى الناس وجدب فى البلاد ، فلو تقاعس — صلوات الله وسلامه عليه — عن الخروج لطوت جحافل[١] الرومان الصحراء ولدهمت المسلمين فى المدينـة وقضت على الإسلام .

وكان رسول الله — ﷺ — قلما يخرج فى غزوة إلا كنّى عنها وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى يقصد له ، إلا ما كان من هذه الغزوة فإنه بيَّنها للناس لبعد الشقة وشدة الزمان وكثرة العدو ليتأهب الناس لذلك أهبته وأخبرهم أنه يريد الروم .

---

(١) الجحافل : الجيوش الضخمة .

وبعث إلى مكة وقبائل العرب ليستنفرهم وحض أهل الغنى على النفقة والحمل فى سبيل الله ، فجهز عثمان بن عفان عشرة آلاف أنفق عليها عشرة آلاف دينار غير الإبل والخيل وهى تسعمائة بعير ومائة فرس والزاد وما يتعلق بذلك حتى ما تربط به الأسقية . وسر رسول الله — ﷺ — ما فعل عثمان فوقف من أول الليل إلى أن طلع الفجر رافعا يديه يدعو لعثمان بن عفان يقول :

— اللهم عثمان رضيت عنه فارض عنه .

وكان أول من جاء بالنفقة أبو بكر الصديق ، جاء بجميع ماله أربعة آلاف درهم ، فقال له رسول الله — ﷺ :

— هل أبقيت لأهلك شيئا ؟

— أبقيت لهم الله ورسوله .

وجاء عمر بن الخطاب بنصف ماله ، فقال له رسول الله — ﷺ :

— هل أبقيت لأهلك شيئا ؟

— النصف الثانى .

وجاء عبد الرحمن بن عوف بمائة أوقية فقال الناس :

— عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف خزانتان من خزائن الأرض ينفقان فى طاعة الله .

وجاء العباس بمال كثير وكذا طلحة . وبعثت النساء بكل ما يقدرن عليه من حليهن ، وتصدق عاصم بن عدى بسبعين وسقا من تمر .

وذات يوم ورسول الله — ﷺ — فى جهازه لغزو الروم قال للجَدِّ بن قيس أحد بنى سَلمة :

— يا جد هل لك فى جلاد بنى الأصفر ؟

إنه عليه السلام يدعوه للغزو حين طابت الثمار والناس يحبون المقام فـ

ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذى هم عليه .
فقال الجد :

— يا رسول الله أوتأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشد عُجبا بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر ألا أصبر .

فأعرض عنه رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وراح يدعو الناس للتأهب للخروج فإذا بهم لا ينفرون خفافا فأنزل الله تعالى ﴿ يأيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل * إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضرّوه شيئا والله على كل شىء قدير * إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم* انفروا خفافا وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون * لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لا تبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون* عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين * لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين* إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم فى ريبهم يترددون * ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين * لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم

والله عليم بالظالمين * لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون * ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين * إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولوا وهم فرحون * قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون * قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا فتربصوا إنا معكم متربصون * قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين * وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى ولا ينفقون إلا وهم كارهون * فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون * ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون * لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مُدَّخلا لولوا إليه وهم يجمحون ﴾[1] .

(١) التوبة ٣٧ — ٥٧

التذييل

يعتقد اليهود أن التوراة هى الكتاب المقدس الوحيد . وأنه لم ينزل لهداية البشرية جمعاء بل لشعب الله المختار . فقد قسموا بنى آدم إلى بنى إسرائيل وأمم ـ، فبنو إسرائيل هم وحدهم الناس ومن عداهم أمم ، كلاب البشرية ، و لم يعترف اليهود برسالة المسيح عليه السلام ولا برسالة محمد ﷺ ، فالمسيح وإن كان يهوديا إلا أنه جاء ليسفه أحلام المتجرين بالدين والمحتكرين للبركة وتقويض الهيكل ، لأن اليهود انقلبوا من عبادة الله وحده إلى عبادة الذهب الذى كان فى الهيكل . ولم يعترفوا برسالة محمد ـ صلوات الله عليه وسلامه ـ لأنه كان من الأمم وكانوا يعتقدون أن الله لا يبعث رسولا إلا من بنى إسرائيل . وقد كذبهم الله فى هذه الدعوى بقوله سبحانه وتعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم »[1] ووجدوا أنهم لو اعترفوا برسالة محمد ـ ﷺ ـ فإنهم يسيئون إلى آبائهم الذين لم يعترفوا برسالة السيد المسيح وقاوموها أشد المقاومة ؛ لأن نبى الإسلام ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ اعترف بالحمل الطاهر للسيدة مريم العذراء وبرسالة عيسى بن مريم عليه السلام .

أما أن الرسالة والنبوة كانت فى بنى إسرائيل وحدهم فإن القرآن الكريم يدحض هذا الزعم ، ولكل أمة

---

(١) الجمعة ٢

رسول »[١] . وهذا الزعم يخرج إبراهيم الخليل من عداد الأنبياء المرسلين فقد كان خليل الرحمن من العراق وقد أرسله الله قبل أن يولد يعقوب (إسرائيل) . والقرآن الكريم يسخر من ذلك القول الباطل ويسفهه : « يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون . ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ، ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين . إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين » (٢).

ونزلت التوراة على موسى عليه السلام ، « ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون »[٣] . وبناء على هذه الحقيقة التى تقرها اليهودية والمسيحية والإسلام فإن إبراهيم خليل الرحمن لم يقرأ حرفا من التوراة فقد أنزل الله عليه صحفا كما أنزل على موسى : « إن هذا لفى الصحف الأولى . صحف إبراهيم وموسى »[٤] . ولم ير إسحاق ويعقوب (إسرائيل) التوراة ، فقد نزلت على موسى عليه السلام من بعدهما ، وإن فاضت صحف التوراة التى كتبت فى المنفى بأخبارهما ، وقد جادل اليهود محمدا — ﷺ — فى المدينة فيما أحل لبنى إسرائيل من الطعام وفيما حرم عليهم ، فجاء القرآن ليقرر مرة أخرى أن التوراة قد نزلت بعد إسرائيل وإن حاول اليهود أن ينكروا هذه الحقيقة الواضحة وضوح الشمس : « كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين »[٥] .

---

(١) يونس ٤٧ (٢) آل عمران ٦٥ — ٦٨

(٣) القصص ٤٣ (٤) الأعلى ١٨ — ١٩ (٥) آل عمران ٩٣

نزلت التوراة على موسى عليه السلام ، فلما طال على بنى إسرائيل الأمد اعتبروا التوراة كتاب تاريخ يسجل أيامهم وحروبهم وقصص أنبيائهم ، فأضافوا إليه أسفارا وقالوا هذا من عند الله . ولما حارب بنوخذ نصر (بختنصر) بنى إسرائيل وهزمهم شر هزيمة حرق التوارة وحمل اليهود إلى بابل ، وهناك أعيدت كتابة التوراة وأضيفت إليها أسفار جديدة . وقد ظهرت بوضوح أساطير بابل وآداب مصر الفرعونية فى التوراة الجديدة التى كتبها أحبار اليهود بأيديهم : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون »[٢] .

« وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »[٣] .

كتبت التوراة فى المنفى وكان اليهود فى بابل مضطهدين ، رجالهم عبيد ونساؤهم إماء ومحظيات ، نفوسهم مليئة بالأحقاد على البشرية جمعاء فلم ينج من حقدهم الأسود الرسل والأنبياء ، فبركة الآباء للأبناء تسرق ، وأنبياء بنى إسرائيل يترددون فى حمأة الرذائل يعاقرون الخمر ويرتكبون الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم شعب الله المختار وأنهم وحدهم الناس ومن عداهم أمم ليس لهم عليهم حقوق ، سرقتهم حلال . « ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى

---

(١) البقرة ٧٩

(٢) آل عمران ٧٨

الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »[١] . بل وقتلهم حلال فهو قربى إلى إله إسرائيل المتعطش إلى الدماء على الدوام .

وقد سخر القرآن الكريم من زعمهم أنهم وحدهم الناس وأن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين »[٢] .

والدار الآخرة فى التوارة التى كتبت فى المنفى غامضة كل الغموض ، فالجنة بالنسبة لليهودى هى النوم فى حضن إبراهيم . وقد استبدلت النار بالفكرة البابلية التى تعبر عن العالم الآخر بالأرض التى لا رجعة منها . ولا غرو فقد ترك اليهود التوارة التى نزلت على موسى وسلبوا أساطير الشعوب التى عاشوا بين ظهرانيها ونسبوها إلى أنبياء بنى إسرائيل .

إن العالم بريستد راح يقارن فى كتابه « فجر التاريخ » بين أقوال موسى الواردة فى التوراة التى كتبت فى المنفى وأقوال إخناتون وبين أقوال إخناتون ومزامير داود ، وخلص بنتيجة مؤداها أن أقوال أنبياء بنى إسرائيل قد اقتبست من أنبياء قدماء المصريين وهذا حق ، فبعد أن حرق بختنصر توراة الله كتبت أحبار اليهود فى المنفى التوراة الجديدة على متون ديانات قدماء المصريين والآشوريين والبابليين وأساطير الشعوب .

وقد انقسم اليهود أنفسهم حول التوراة التى كتبت فى أرض السبى ، فقال السامريون إذا كانت التوراة قد نزلت على موسى فمن أين جاءت الأسفار التى تروى أحداث بنى إسرائيل بعد موسى ؟ ولم يؤمن السامريون إلا بالأسفار

---

(١) آل عمران ٧٥

(٢) البقرة ٩٤ — ٩٥

الخمسة الأولى وهى : التكوين والخروج واللاويين والعدد والتثنية ، وهى الأسفار التى تروى خلق الله السموات والأرض ، وخلق آدم وحواء ، وقصة قابيل وهابيل ، وقصة نوح وأبنائه ، وقصة إبراهيم الخليل ولوط ، ثم قصة موسى وخروجه من مصر ، ثم قصة اللاويين وهم موسى وهارون وبنو هارون ، فموسى وهارون لم يكونا يهوديين فهما من نسل لاوى أخى يهوذا الذى ينسب إليه اليهود ، وإصحاحات العدد وفيها ذكر عشائر بنى إسرائيل ، وإصحاحات التثنية وفيها شريعة بنى إسرائيل على لسان موسى .

ولو أن السامريين لم يعترفوا إلا بهذه الأسفار الخمسة إلا أنهم لم يحاولوا أن يفصلوا بين الزيف والصحيح من الأخبار التى وردت فى تلك الأسفار . فالله سبحانه وتعالى فى الإصحاح الثانى من سفر التكوين يستريح فى اليوم السابع بعد أن خلق السموات والأرض : « فأكملت السموات والأرض وكل جندها ، وفرغ الله فى اليوم السابع من عمله الذى عمله . فاستراح فى اليوم السابع من جميع عمله الذى عمل . وبارك الله اليوم السابع وقدسه لأنه فيه استراح من جميع عمله الذى عمل الله خالقا » . ولم يفطن السامريون إلى أن التعب لا يجوز على الله ، وظل ذلك الوهم يسيطر على عقول كل الذين يقرءون التوراة التى كتبها أحبار اليهود فى المنفى إلى أن جاء محمد — ﷺ — وتلا ما أنزل عليه من ربه : « ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب »[1] .

وتذكر التوراة خلق آدم : « وجبل الرب الإله آدم ترابا من الأرض ونفخ فى أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسا حيا . وغرس الرب الإله جنة فى عدن شرقا

---

(١) ق ٣٨

ووضع هناك آدم الذى جبله » . أما القرآن الكريم فيذكر خلق آدم فى آيات أكثر وضوحا وتفصيلا : « وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون »(١) .

« وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال أأسجد لمن خلقت طينا »(٢) . « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين »(٣) . « الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين . ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين . ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون » (٤) .

وتذكر التوراة فى تعليم آدم : « وجعل الرب الإله من الأرض كل حيوانات البرية وكل طيور السماء فأحضرها إلى آدم ليرى ماذا يدعوها وكل ما دعا به آدم ذات نفس حية فهو اسمها . فدعا آدم بأسماء جميع البهائم وطيور السماء وجميع حيوانات البرية » . أما القرآن المجيد فيقول بعد أن قال الملائكة لرب العزة : « أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين . قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون »(٥) .

---

(١) البقرة ٣٠ (٢) الاسراء ٦١
(٣) المؤمنون ١٢ (٤) السجدة ٧ — ٩
(٥) البقرة ٣٠ — ٣٣

وتذكر التوراة كيف خلقت حواء : « فأوقع الرب الإله سباتا على آدم فنام ، فأخذ واحدة من أضلاعه وملأ مكانها لحما وبنى الرب الإله الضلع التى أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم ، فقال آدم هذه الآن عظم من عظامى ولحم من لحمى . هذه تدعى امرأة لأنها من امرىء أخذت ، لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدا واحدا ، وكانا كلاهما عريانين آدم وامرأته وهما لا يخجلان » .

وإن دارس هذا النص يقف عند ملاحظتين : الأولى أن آدم على علم بكل شىء دون أن توضح التوراة من أين جاءه ذلك العلم ، والثانية أن هناك جملة اعتراضية لا ندرى من أين جاءت ومن قائلها ، الله هو القائل ؟ : لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكونان جسدا واحدا . أم أن قائل ذلك الأحبار الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى ؟!

ولم يرد اسم حواء فى القرآن الكريم فكان الخطاب بعد خلق حواء لآدم وزوجه : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما »(١) . « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى ، فقلنا يا آدم هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى * إن لك ألا تجوع فيها ولا تعرى . وأنك لا تظمأ فيها ولا تضحى »(٢) .

وتصور التوراة خطيئة آدم تصويرا بشريا صرفا ، فالله سبحانه وتعالى عما يصفون يمشى فى الجنة ويجهل ما يجرى خلف ظهره : « وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التى عملها الرب الإله . فقالت للمرأة : أحقا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة ؟ فقالت المرأة للحية : من ثمر شجر الجنة نأكل ،

---

(١) البقرة ٣٥

(٢) طه ١١٦ — ١١٩

وأما ثمر الشجرة التى فى وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا . فقالت الحية للمرأة : لن تموتا . بل الله عالم أنه يوم تأكلون منه تتفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر . فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون ، وأن الشجرة شهية للنظر ، فأخذت من ثمرها وأكلت وأعطت رجلها أيضا معها فأكل ، فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر .

وسمعا صوت الرب الإله ماشيا فى الجنة عند هبوب ريح النهار ، فاختبأ آدم وامرأته من وجه الرب الإله فى وسط شجر الجنة . فنادى الرب الإله آدم وقال له ، أين أنت ؟ فقال : سمعت صوتك فى الجنة فخشيت لأنى عريان فاختبأت . فقال من أعلمك أنك عريان ؟! هل أكلت من الشجرة التى أوصيتك ألا تأكل منها ؟ فقال آدم : المرأة التى جعلتها معى هى أعطتنى من الشجرة فأكلت . فقال الرب الإله للمرأة : ما هذا الذى فعلت ؟ فقالت المرأة : الحية غرتنى فأكلت . فقال الرب الإله للحية : لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحوش البرية . على بطنك تسعين وترابا تأكلين كل أيام حياتك . وأضع عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها ، هو يسحق رأسك وأنت تسحقين عقبه ، وقال للمرأة : تكثيرا أكثر أتعاب حبلك . بالوجع تلدين أولادا وإلى رجلك يكون اشتياقك وهو يسود عليك . وقال لآدم : لأنك سمعت لقول امرأتك وأكلت من الشجرة التى أوصيتك قائلا لا تأكل منها ، ملعونة الأرض بسببك . بالتعب تأكل منها كل أيام حياتك ، وشوكا وحسكا[1] تنبت لك وتأكل عشب الحقل . بعرق

---

(١) الحسك : نبات تعلق ثمرته بصوف الغنم .

وجهك تأكل خبزا حتى تعود إلى الأرض التى أخذت منها ، لأنك تراب وإلى تراب تعود » . « وقال الرب الإله هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا عارفا الخير والشر ، والآن لعله يمد يده ويأخذ من شجرة الحياة أيضا ويأكل ويحيا إلى الأبد . فأخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمل الأرض التى أخذ منها » .

من هذه النصوص يتضح أن الله سبحانه وتعالى عما يصفون لم يكن يعرف أين آدم ، فقال له : أين أنت ؟ و لم يكن يدرى أن آدم قد أكل من الشجرة قبل أن يقول له آدم إنه عريان ، وأن حواء هى المسئولة عن هذه الخطيئة ، وأن الله قد طرد الإنسان من الجنة لأنه خاف أن يتناول من شجرة الحياة فيصبح هو الآخر إلها يحيا إلى الأبد .

والفكرة عن الإله فى هذا الإصحاح لا تختلف فى كثير ولا قليل عن فكرة البابليين عن الآلهة الذين يمشون على الأرض ويخشون منافسة البشر فى سلطانهم ، وخوفهم من أن يصل الإنسان إلى الخلود فيصبح إلها مثلهم ، وقد خلط أحبار اليهود حقائق بأساطير فجاءت قصة طرد آدم وزوجه من الجنة فى أسلوب مشوق إلا أنها جسدت الإله الذى ليس دونه منتهى ، ولا وراءه مرمى .

إن القرآن الكريم يقرر منذ بدأ الله فى خلق آدم أنه جاعل فى الأرض خليفة ، فمنذ البدء خلق الله آدم ليكون خليفته فى الأرض . و لم يرد للحية ذكر فى القرآن و لم يذكر أن حواء هى التى أغرت آدم على الأكل من شجرة الخلد ، بل إن الشيطان هو الذى وسوس إليه : « فوسوس إليه الشيطان قال يآدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى . فأكلا منها فبدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وعصى آدم ربه

فغوى »[1] . « ويآدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين . فوسوس لهما الشيطان ليبدى لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين . وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين . فدلاهما بغرور فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة وناداهما ربهما أ لم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين . قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين . قال فيها تحيون وفيها تموتون ومنها تخرجون »[2] .

ويلاحظ أن عبارة التوراة اكتفت بالعودة إلى الأرض التى أخذ منها الإنسان لأنه تراب وإلى التراب يعود ، أما عبارة القرآن فلم تكتف بالحياة فى الأرض والموت فيها بل أضافت الخروج منها . لأن القرآن الكريم يذكر البعث دائما ، أما اليهود الذين عاشوا فى أرض السبى فقد نسوا البعث و لم يذكروا عنه شيئا عندما أعادوا كتابة التوراة فى أرض بابل .

ومرت خطيئة آدم فى التوراة دون أن تلقى عليها أضواء تجسم من بشاعتها ، و لم يتحمل أحد من البشر وزرها . فالمبدأ الإلهى العادل يقرر ألا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن الأبناء لا يسألون عن خطيئة الآباء ، وأن الآباء لا يسألون عن خطيئة الأبناء . كل عن خطيئته يسأل . ولكن لما قام السيد المسيح بدعوته لإصلاح فساد اليهودية ، ولما صلب فى الظلام رجل زعم بعض الزاعمين أنه السيد المسيح ، ولما استولى بولص على مكان السيد المسيح أراد

---

(١) طه ١٢٠ — ١٢١

(٢) الأعراف ١٩ — ٢٥

أن يفلسف الصلب فزعم أن البشرية قد ورثت خطيئة آدم ، وأن المسيح قد جاد بروحه على الصليب ليخلص البشرية من خطيئة آدم . وبناء على هذا الزعم يكون البشر جميعا قد جاءوا من الخطيئة قبل عملية التطهير التى تمت بالصلب ، ويكون الرسل والأنبياء جميعا الذين جاءوا قبل الصليب ملوثين بخطيئة آدم .

ولم يترك القرآن الكريم هذه الدعوى الجائرة دون نقاش ، فقال إن الأمر كان أهون من أن تحمل البشرية جمعاء خطيئة آدم : « فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم »[1] ، « وعصى آدم ربه فغوى ، ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى »[2] .

وجاء فى أول الإصحاح الخامس من سفر التكوين : « هذا كتاب مواليد آدم . يوم خلق الله الإنسان على شبه الله عمله » . وقد انتشرت هذه الفرية حتى فى بعض كتب المسلمين بعد أن ترجمت التوراة إلى العربية فى القرن الثانى لهجرة النبى ـــ ﷺ ـــ سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا .

وجاء فى الإصحاح السادس من نفس السفر : « ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر فى الأرض وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم ، فحزن الرب أنه عمل الإنسان فى الأرض وتأسف فى قلبه . فقال الرب : أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذى خلقته . الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء ، لأنى حزنت أنى عملتهم . وأما نوح فوجد نعمة فى عينى الرب » .

وهذا القول يصور أن الله لم يكن يعلم يوم جعل فى الأرض خليفة أن البشر سيرتكبون المعاصى . ويصور أن البشر قد تمردوا على الله . وقد أثر هذا القول

---

(١) البقرة ٣٧

(٢) طه ١٢١ ، ١٢٢

الخاطىء فى أعمال كثير من المفكرين اليهود والمسيحيين فجاءت أعمالهم الأدبية تصويرا لذلك العصيان ، وكان لمثل هذه الأقوال التى تفيض بها توراة المنفى أكبر الأثر فى كفران كثير من مفكريهم بالدين ، وإن لهم كل العذر لو كفروا بأساطير الوثنيين . أما القرآن الكريم فلم يقل إن الله قد حزن لما رأى سوء أعمال الناس . فالله يوم خلق آدم كان على علم بما خلق وبسلوك ما خلق وبما ركب فيه من غرائز : « ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن يضل من يشاء ويهدى من يشاء ولتسألن عما كنتم تعملون »(١) . « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون »(٢) .

ولننظر الآن كيف يصورون نوحا الذى وجد نعمة فى عينى الرب : « وابتدأ نوح يكون فلاحا وغرس كرما وشرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه . فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر بأخويه خارجا . فأخذ سام ويافث الرداء ووضعاه على أكتافهما ومشيا إلى الوراء وسترا عورة أبيهما ووجهاهما إلى الوراء فلم يبصرا عورة أبيهما . فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال : ملعون كنعان ، عبد العبيد يكون لإخوته ، وقال : مبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبدا لهم ، ليفتح الله ليافث فيسكن فى مساكن سام وليكن كنعان عبدا لهم » .

---

(١) النحل ٩٣

(٢) المائدة ٤٨

ولو تمعنا فى هذا الكلام لوجدنا أن كُتَّاب التوراة فى المنفى لم يكونوا حريصين على تدوين حقيقة قد وقعت ، فمن الاستخفاف بالعقول أن يكون نوح الذى وجد نعمة فى عينى الرب شريب خمر وأن يصل به السكر إلى أن يتعرى . ولكن الدافع الحقيقى لسرد هذه الفرية فى كتاب من المفروض أنه مقدس هو دافع سياسى . فالكنعانيون كانوا طوال تاريخ اليهودية أعدى أعداء اليهود ، كانوا أصحاب فلسطين وقد قاوموا بكل السبل استقرار اليهود فى أرض كنعان ، لذلك لعنوهم على لسان نوح وجعلوهم ثلاث مرات عبيدا لإخوتهم .

إن الذى رأى عورة أبيه فى ذلك الزعم هو حام أبو كنعان ، فما ذنب كنعان ما دام المبدأ فى التوراة هو أن الابن لا يسأل عن جريرة الأب . إن غلطة كنعان الحقيقية ليس أنه ابن حام ولكنه أبو الكنعانيين الذين حاربوا بنى إسرائيل واليهود على مر السنين .

وجاء فى الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين : « وكانت الأرض كلها لسانا واحدا ولغة واحدة ، وحدث فى ارتحالهم (قبائل بنى نوح) شرقا أنهم وجدوا بقعة فى أرض شنعار وسكنوا هناك ، وقال بعضهم لبعض هلم نصنع لَبِنا ونشويه شيا ، فكان لهم اللَّبِن مكان الحجر وكان لهم الحُمر مكان الطين ، وقالوا هلم نبن لأنفسنا مدينة وبرجا رأسه بالسماء ونضع لأنفسنا اسما لئلا نتبدد على وجه كل الأرض . فنزل الرب لينظر المدينة والبرج اللذين كان بنو آدم يبنونهما ، وقال الرب هو ذا شعب واحد ولسان واحد لجميعهم وهذا ابتداؤهم للعمل . والآن لا يمتنع عليهم كل ما ينوون أن يعملوه . هلم ننزل ونبلبل هناك لسانهم حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض . فبددهم الرب من هناك على وجه الأرض فكفوا عن بنيان المدينة ، لذلك دعى اسمها بابل لأن

الرب هناك بلبل لسان كل الأرض ، ومن هناك بددهم الرب عل وجه الأرض » .

فى هذا الإصحاح نجد إلٰها يرتجف فرقا من عمل عباده . ولا غرو فإن قلبه امتلأ حزنا لأنه خلق الإنسان كما جاء فى الاصحاح السادس من هذا السفر . إنه ينزل من عليائه كما ينزل الملك عن عرشه ليفرق جماعة من العصاة لكيلا تتحد كلمتهم فيشقوا عصا الطاعة ويخلعوه عن عرشه . وإن دارس أساطير البابليين يجد مثل ذلك الصراع بين الآلهة والبشر واضحا كل الوضوح ، وقد تأثر كتاب التوراة فى المنفى بكل الآراء التى جاءت فى تلك الأساطير .

وجاء فى هذا الاصحاح أن بابل إنما سميت بهذا الاسم لأن الرب قد نزل هناك وبلبل ألسنة البشر أعدائه حتى لا يسمع بعضهم لسان بعض ، والحقيقة أن الله كان يعرف بالإيل وأن اسم المدينة كان باب إيل أى باب الرب : وأن برج بابل إنما بنى كجميع الأبراج التى بنيت لعبادة القمر ، وكان فى مدينة أور التى ولد فيها خليل الرحمن إبراهيم يعرف بنانا ويعرف فى جميع بلاد ما بين النهرين بسين ، وقد انتشرت هذه العبادة فى بلاد الشرق الأوسط وكانت سيناء من أهم مراكزها وهى تنسب إلى الإله سين .

ويقول القرآن الكريم : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »(١) . « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم

---

(١) البقرة ٢١٣

خبير »[١] .

ثم تروى الإصحاحات الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر قصة إبراهيم الخليل ولوط وكيف أن الأرض لم تحتملهما أن يسكنا معا إذ كانت أملاكهما كثيرة ، فسكن إبراهيم أرض كنعان وسكن لوط أرض الأردن ونقل خيامه إلى سدوم ، وكيف قامت الحرب فى هذه المنطقة بين أربعة ملوك وخمسة ملوك ، وكيف وقع لوط أسيرا وكيف أتى من نجا من الأسر إلى إبراهيم وأخبره بأسر لوط ، فخرج إبراهيم فى غلمانه حتى خلص لوطا من الأسر . ويروى الإصحاح التاسع عشر قصة الملكين اللذين جاءا إلى لوط وكيف أن رجال المدينة أرادوا أن يأتوا بهما الفاحشة ، وكيف أمر الملكان لوطا بالخروج بأهله ، وكيف نظرت امرأته خلفها عندما كان الله ينزل بالمدينة عذابه ، وكيف تحولت إلى عمود ملح . وفى الإصحاح التاسع عشر نقرأ : « وصعد لوط من صوغر وسكن فى الجبل وابنتاه معه ، لأنه خاف أن يسكن فى صوغر فسكن فى المغارة هو وابنتاه . وقالت البكر للصغيرة : أبونا قد شاخ وليس فى الأرض رجل ليدخل علينا كعادة كل الأرض . هل نسقى أبانا خمرا ونضطجع معه فنحيى من أبينا نسلا . فسقتا أباهما خمرا فى تلك ، الليلة ، ودخلت البكر واضطجعت مع أبيها ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . وحدث فى الغد أن البكر قالت للصغيرة إنى قد اضطجعت البارحة مع أبى نسقيه خمرا الليلة أيضا فادخلى اضطجعى معه فنحيى من أبينا نسلا . فسقتا أباهما خمرا فى تلك الليلة أيضا وقامت الصغيرة واضطجعت معه ولم يعلم باضطجاعها ولا بقيامها . فحبلت ابنتا لوط من أبيهما ، فولدت البكر ابنا ودعت اسمه مؤاب وهو أبو المؤابين إلى اليوم ، والصغيرة أيضا ولدت ابنا

---

(١) الحجرات ١٣

ودعت اسمه بن عمى وهو أبو بنى عمون إلى اليوم » .

هذه هى صورة لوط فى التوراة التى كتبت فى أرض المنفى لما كانت اليهود أذلاء وكانت نساؤهم محظيات فعكسوا صورة الانحطاط الذى كانوا منغمسين فيه على الأنبياء لعل يكون فى ذلك تعزية عما هم فيه من انحلال . ومن الغريب أن لوطا لما وقع فى الأسر وجد من يطير إلى إبراهيم فى أرض كنعان فيأتى فيخلصه من أسره ، أما بنتا لوط فلم يجدا من يرسلانه إلى إبراهيم ليبعث لهما رجلين يتزوجانهما عوضا عن الاضطجاع مع أبيهما السكران ! إنها صورة بشعة تهبط بالبشرية إلى الحضيض لو أنها صدرت عن رجل عادى وبنتيه اللتين عز عليهما الزواج ، فما بالك وقد جعلتها التوراة تصدر عن نبى وبنتيه وعلى بعد أميال منهم رجال مؤمنون يتهللون بالفرح لمصاهرة نبى من أنبياء الله !

وشتان بين لوط فى التوراة ولوط فى القرآن : ﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون . وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطرا فانظر كيف كان عاقبة المجرمين ﴾[1] .

﴿ ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون . أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون . فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون . فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين ﴾[2] .

---

(١) الأعراف ٨٠ — ٨٤

(٢) النمل ٥٤ — ٥٨

« ولما جاءت رسلنا لوطا سيىء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم عصيب . وجاءه قومه يهرعون إليه ومن قبل كانوا يعملون السيئات قال يا قوم هؤلاء بناتى هن أطهر لكم فاتقوا الله ولا تخزون فى ضيفى أليس منكم رجل رشيد . قالوا لقد علمت ما لنا فى بناتك من حق وإنك لتعلم ما نريد . قال لو أن لى بكم قوة أو آوى إلى ركن شديد . قالوا يا لوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك إنه مصيبها ما أصابهم إن موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب . فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود . مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد »[١] .

« ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين . أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين . قال رب انصرنى على القوم المفسدين . ولما جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى قالوا إنا مهلكو أهل هذه القرية إن أهلها كانوا ظالمين . قال إن فيها لوطا . قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجينه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين . ولما جاءت رسلنا لوطا سيىء بهم وضاق بهم ذرعا وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين . إنا منزلون على أهل هذه القرية رجزا من السماء بما كانوا يفسقون . ولقد تركنا منها آية بينة لقوم يعقلون »[٢] .

« كذبت قوم لوط المرسلين . إذ قال لهم أخوهم لوط ألا تتقون . إنى لكم رسول أمين . فاتقوا الله وأطيعون . وما أسألكم عليه من أجر إن أجرى إلا

---

(١) هود ٧٧ — ٨٣

(٢) العنكبوت ٢٨ — ٣٥

على رب العالمين . أتأتون الذكران من العالمين . وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون . قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين . قال إنى لعملكم من القالين . رب نجنى وأهلى مما يعملون . فنجيناه وأهله أجمعين . إلا عجوزا فى الغابرين . ثم دمرنا الآخرين . وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين . إن فى ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين . وإن ربك لهو العزيز الرحيم »(١) .

« وإن لوطا لمن المرسلين . إذ نجيناه وأهله أجمعين . إلا عجـوزا فى الغابرين ، ثم دمرنا الآخرين . وإنكم لتمرون عليهم مصبحين . وبالليل أفلا تعقلون »(٢) .

« ولوطا آتيناه حكما وعلما ونجيناه من القرية التى كانت تعمل الخبائث إنهم كانوا قوم سوء فاسقين . وأدخلناه فى رحمتنا إنه من الصالحين »(٣) .

وذكر فى الإصحاح السادس عشر من سفر التكوين مولد إسماعيل :

« وأما ساراى امرأة إبرام فلم تلد له . وكانت لها جارية مصرية اسمها هاجر فقالت ساراى لإبرام : هو ذا الرب قد أمسكنى عن الولادة . ادخل على جاريتى لعلى أرزق منها بنين . فسمع إبرام لقول ساراى ، فأخذت ساراى امرأة إبرام هاجر المصرية جاريتها بعد عشر سنين لإقامة إبرام فى أرض كنعان وأعطتها لإبرام رجلها زوجة له . فدخل على هاجر فحبلت ، ولما رأت أنها حبلت صغرت مولاتها فى عينيها فقالت ساراى لإبرام : ظلمى عليك ، أنـا دفعت جاريتى إلى حضنك . يقضى الرب بينى وبينك . فقال إبـرام

---

(١) الشعراء ١٦٠ — ١٧٥

(٢) الصافات ١٣٢ — ١٣٨

(٣) الأنبياء ٧٤ ، ٧٥

لساراى : هو ذا جاريتك فى يدك . افعلى بها ما يحسن فى عينيك ، فأذلتها ساراى فهربت من وجهها .

فوجدها ملاك الرب على عين الماء فى البرية ، على العين التى فى طريق شور ، وقال يا هاجر جارية ساراى من أين أتيت وإلى أين تذهبين ؟ فقالت أنا هاربة من وجه مولاتى ساراى . فقال لها ملاك الرب ارجعى إلى مولاتك واخضعى تحت يديها . وقال لها ملاك الرب تكثيرا أكثر نسلك فلا يعد من الكثرة . وقال لها ملاك الرب ها أنت حبلى فتلدين ابنا وتدعين اسمه إسماعيل لأن الرب قد سمع لمذلتك ، وإنه يكون إنسانا وحشيا ، يده على كل واحد ويد كل واحد عليه وأمام جميع إخوته يسكن . فدعت اسم الرب الذى تكلم معها أنت إيل رئى . لأنها قالت أههنا أيضا رأيت بعد رؤية ، لذلك دعيت البئر لحى رئى . ها هى بين قادش وبارد .

فولدت هاجر لإبرام ابنا ودعا إبرام اسم ابنه الذى ولدته هاجر إسماعيل . وكان إبرام ابن ست وثمانين سنة لما ولدت هاجر إسماعيل لإبرام » .

وتسكت التوراة التى كتبت فى المنفى عن هاجر وإسماعيل ولا تروى لنا كيف تحقق وعد الله بأن يكثر نسلها تكثيرا ، ولا كيف حقق الله وعده لهاجر الذى جاء فى الإصحاح الحادى والعشرين من نفس السفر : « .. ونادى ملاك الله هاجر من السماء وقال لها : ما لك يا هاجر ؟ . لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو ، قومى احملى الغلام وشدى يدك به لأنى سأجعله أمة عظيمة . وفتح الله عينيها فأبصرت بئر ماء فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام وكان الله مع الغلام فكبر وسكن البرية . وكان ينمو رامى قوس وسكن فى برية فاران وأخذت له أمه زوجة من أرض مصر » .

سكتت توراة المنفى متعمدة عن إسماعيل وعن نبوءة إسماعيل وعن ذهاب

إبراهيم إلى مكة وعن تعاون إبراهيم وإسماعيل فى إقامة القواعد من البيت ، لأن بنى إسماعيل كانوا يحمون بنى إسرائيل حتى وقعت العداوة بينهم فنفس بنو إسرائيل على بنى إسماعيل فأرادوا أن يسلبوهم كل مجد .

ولما كان كتاب التوراة فى المنفى أرادوا أن يحصروا الرسالة والنبوة فى بنى إسرائيل فإنهم رأوا أن الحديث عن نبوة إسماعيل سيقوض دعواهم لأن إسماعيل لم يكن من بنى إسرائيل . فسكتوا عن كل نبوءة ظهرت فى العرب فلم يذكروا صالحا الذى بعث إلى قوم ثمود ، و لم يذكروا هودا الذى بعث إلى قوم عاد ، و لم يذكروا شعيبا الذى بعث إلى مدين ؛ لأن هؤلاء الرسل كانوا من العرب و لم يكونوا من بنى إسرائيل .

وليس من المعقول أن بنى إسرائيل لم يسمعوا بثمود وبعاد وبمدين وقد ذكر بطليموس هذه المدن فى أطلسه واليهود كانوا أقرب من بطليموس إلى هذه البلاد ، ولكنها الأغراض أسكتتهم عن حقائق تضر بدعوتهم بل تقوضها من أساسها .

إنهم لو ذكروا أن إبراهيم أقام القواعد من أول بيت وضع للناس وإسماعيل لذهب ذلك بجلال هيكل سليمان فحاولوا أن يطمسوا تلك الحقائق ؛ ولكن القرآن الكريم جاء يكذبهم فى دعواهم أنهم وحدهم الناس وأن الرسالة والنبوة فيهم وحدهم دون العالمين ، قال الله تعالى : ﴿ ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين ﴾[1] . وهذه الحقيقة تؤكد أن الرسالة كانت قبل بنى إسرائيل : ﴿ يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا

---

(١) آل عمران ٦٧

تعقلون ﴾[١] .

﴿ وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن قال إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين * وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود * وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير * وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا منا سكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم * ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم * ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين * إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين »[٢]

﴿ إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين ﴾[٣]

﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾[٤]

وقص القرآن الكريم قصة هود وقد أغفلتها توراة المنفى : ﴿ وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون . قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين *قال يا قوم

---

(١) آل عمران ٦٥ .

(٢) البقرة ١٢٤ — ١٣١ .

(٣) آل عمران ٩٦ .

(٤) الحج ٣٦ .

ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين * أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين * أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون * قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين . قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما نزل الله بها من سلطان فانتظروا إنى معكم من المنتظرين * فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين ﴾[1] *

وقص القرآن الكريم قصة صالح لأن القرآن المجيد لا يفرق بين رسل من الأمم ورسل من بنى إسرائيل : ﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير ﴾[2] .

لم يكن إدريس من بنى إسرائيل ، و لم يكن نوح من بنى إسرائيل ، و لم يكن إبراهيم من بنى إسرائيل ، و لم يكن إسماعيل من بنى إسرائيل ، و لم يكن هود من بنى إسرائيل ، و لم يكن صالح من بنى إسرائيل ، فإن كان الذين كتبوا التوراة فى المنفى قد ذكروا نوحا وإبراهيم فقد كانوا إلى ذلك مضطرين لتستقيم قصة البشرية التى وضعوها مذ خلق الله آدم إلى أن اصطفى يعقوب (إسرائيل) * و لم تكن هناك ضرورة لسرد قصة صالح وهود وشعيب بل كان هناك ضرورة لعدم ذكر قصص هؤلاء الأنبياء حتى لا تتقوض نظريتهم القائلة بأن الرسالة والنبوة كانت فيهم وحدهم وحتى يرضوا غرورهم الذى

---

(١) الأعراف ٦٥ — ٧٢

(٢) المائدة ١٨

صور لهم أنهم وحدهم الناس وأن من سواهم أمم ، كلاب البشرية .

﴿ وإلى ثمود أخاهم صالحا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم * واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون * قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون * فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين * فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين * فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾(١) *

﴿ وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إنى أراكم بخير وإنى أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا فى الأرض مفسدين * بقيّتُ الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ * قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد * قال يا قوم أرأيتم إن كنت على بينة من ربى ورزقنى منه رزقا حسنا وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب * ويا قوم لا يجرمنكم شقاق أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم

---

(١) الأعراف ٧٣ — ٧٩ .

صالح وما قوم لوط منكم ببعيد* واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه إن ربى رحيم ودود* قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رَهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز* قال يا قوم أرهطى أعز عليكم من الله واتخذتموه وراءكم ظهريا إن ربى بما تعملون محيط* ويا قوم اعملوا على مكانتكم إنى عامل سوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ومن هو كاذب وارتقبوا إنى معكم رقيب * ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه برحمة منا وأخذت الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين * كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود ﴾(١) .

وجاء فى الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين : « ولما كان إبرام ابن تسع وتسعين سنة ظهر الرب لإبرام وقال له : أنا الله القدير . سر أمامى وكن كاملا فأجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك كثيرا جدا . فسقط إبرام على وجهه وتكلم الله معه قائلا : أما أنا فهو ذا عهدى وتكون أبا لجمهور من الأمم . فلا يدعى اسمك إبرام بل يكون اسمك إبراهيم . لأنى أجعلك أبا لجمهور من الأمم . وأثمرك كثيرا جدا وأجعلك أمما . وملوك منك يخرجون ، وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدا أبديا لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا وأكون إلههم .

وقال الله لإبراهيم وأما أنت فتحفظ عهدى أنت ونسلك من بعدك فى أجيالهم . هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك .

---

(١) هود ٨٤ — ٩٥ .

يختن منكم كل ذكر فتختنون فى لحم غرلتكم فيكون علامة عهد بينى وبينكم . ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر فى أجيالكم . وليد البيت والمبتاع بفضة من كل ابن غريب ليس من نسلك . يختن ختانا وليد بيتك والمبتاع بفضتك . فيكون عهدى فى لحمكم عهدا أبديا . وأما الذكر الأغلف الذى لا يختن فى لحم غرلته فتقطع تلك النفس من شعبها . إنه قد نكث عهدى .

وقال الله لإبراهيم : سارای امرأتك لا تدعو اسمها سارای بل اسمها سارة وأباركها وأعطيك أيضا منها ابنا . فأباركها فتكون أمما وملوك شعوب منها يكونون . فسقط إبراهيم على وجهه وضحك وقال فى قلبه هل يولد لابن مائة وهل تلد سارة وهى بنت تسعين سنة ؟

وقال إبراهيم لله ليت إسماعيل يعيش أمامك . فقال الله بل سارة امرأتك تلد لك ابنا تدعو اسمه إسحاق وأقيم عهدى معه عهدا أبديا لنسله من بعده . وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا : اثنى عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة ، ولكن عهدى أقيمه مع إسحاق الذى تلد لك سارة فى هذا الوقت فى السنة الآتية . فلما فرغ من الكلام معه صعد الله عن إبراهيم .

فأخذ إبراهيم إسماعيل ابنه وجميع ولدان بيته وجميع المبتاعين بفضته كل ذكر من أهل بيت إبراهيم وختن لهم غرلتهم فى ذلك اليوم عينه كما كلمه الله ، وكان إبراهيم ابن تسع وتسعين سنة حين ختن فى لحم غرلته ، وكان إسماعيل ابنه ابن ثلاث عشرة سنة حين ختن فى لحم غرلته . فى ذلك اليوم عينه ختن إبراهيم وإسماعيل ابنه وكل رجال بيته ولدان البيت والمبتاعين بالفضة من ابن الغريب ختنوا معه .

وهذاالإصحاح يحتاج إلى وقفة طويلة ، فقد ذكر فيه عهد الله بأن يعطى لإبراهيم ولنسله من بعده أرض غربته كل أرض كنعان ملكا أبديا ، وجعل الله الختان علامة عهد بينه وبين نسل إبراهيم خليل الرحمن .

إن الذين كتبوا التوراة بأيديهم فى المنفى كانوا مشردين وكانوا يتوقون للعودة إلى أرض كنعان أرض فلسطين ، وما كان لهم حق فى تلك الأرض فأرادوا أن يسندوا ذلك الحق بوعد إلٰهى ، فكتبوا بأيديهم أن الله سيكون إلٰها لإبراهيم ولنسله من بعده ، أما باقى البشر — إن كان اليهود يسمحون بأن يكون غيرهم بشرا — فقد تركوا بلا إله ، فأصبح رب الناس إله الناس رب العالمين إلٰها لنسل إبراهيم وحده . وإسماعيل ما نصيبه من هذا الوعد ؟ إنه من نسل إبراهيم فهو يشارك هو وبنوه فى هذا الوعد . ولما كان ذلك لا يرضى اليهود الذين أعادوا كتابة التوراة فى بابل على هواهم فقد أخرجوا إسماعيل وبنيه من ذلك الوعد ، فجعلوا خليل الرحمن يقول ليت إسماعيل يعيش أمامك ، فلا يعجب ذلك القول رب إسرائيل الذى لم يكن قد ولد بعد فيقول متلهفا : « بل سارة امرأتك لتلد لك ابنا وتدعو اسمه إسحاق ، وأقيم عهدى معه عهدا أبديا لنسله من بعده . وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه . ها أنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا . اثنى عشر رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة . ولكن عهدى أقيمه مع إسحاق الذى تلده لك سارة فى هذا الوقت فى السنة الآتيه » .

وهكذا وضع أول حكماء صهيون أول بذرة فى مشكلة فلسطين . جعلوا الله بلا سبب معقول يختار إسحاق الذى لم يكن قد ولد بعد ليقيم له عهدا أبديا لنسله من بعده ويخرج إسماعيل من ذلك العهد .

ولم ترو التوراة كيف تحقق وعد الله بأن بارك إسماعيل وجعله أمة كبيرة ، وقد يكون لكتاب التوراة عذر فقد تحقق ذلك بعد عهدهم . المهم أنه

وضعوا على لسان الله كلاما يخدم قضيتهم ويجعل لهم حقا إلهيا فى أرض فلسطين .

وقد ذكر أنبياء بنى إسرائيل الذين كتبوا التوراة فى المنفى أن الختان هو علامة العهد بين الله وبين إبراهيم ونسله . وقد يكون ذلك الكلام صحيحا لو أن الختان لم يكن معروفا قبل ذلك العصر ولكن قدماء المصريين كانوا يختتنون ، فهل كان الختان علامة عهد بينهم وبين الله ؟! وكان البابليون يختتنون وقد يكون إبراهيم قد اختتن قبل ذلك على عادة أهله ، ولكن كتاب التوراة فى المنفى لم يحفلوا بشىء من ذلك فجعلوا خليل الرحمن يختتن فى ذلك اليوم عينه وجعلوا إسماعيل يختتن وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، أما إسحاق الموعود فقد اختتن ابن ثمانية أيام فهو أول من نفذ فيه أمر الله امتثالا لأمره : ابن ثمانية أيام يختتن منكم كل ذكر فى أجيالكم ، وهى نعمة كبرى لإسحاق أبى إسرائيل .

ولما كانت التوراة قد أصبحت الكتاب الأول والعهد القديم للذين اعتنقوا الديانة المسيحية ، فإن المسيحيين الذين يقرءون التوراة يؤمنون بهذه الأفكار التى دسها الذين كتبوا التوراة فى أرض السبى ، ومن أسف أن كتاب المسلمين بعد صدر الإسلام قد نهلوا من هذه التوراة بعد أن ترجمت إلى العربية ففاضت كتبهم بتلك الأفكار الزائفة . وقد وضعت أحاديث كثيرة عن النبى — ﷺ — لتطابق ما جاء فى التوراة . فحديث يقرر أن إبراهيم قد كذب على ربه ثلاث كذبات ، وآخر يروى كيف اختتن إبراهيم بالقدوم ، وثالث يؤكد أن ختان ذكور المسلمين ينبغى أن يجرى عندما يبلغ الغلام ثلاث عشرة سنة أسوة بأبيهم إسماعيل . وماجت كتب المؤرخين الإسلاميين بوعد الله لبنى إسرائيل بأرض المعاد ، وانتشرت الإسرائيليات بين دفتى كتب الكتّاب المسلمين الذين حسبوا أنهم ينهلون من كتاب مقدس .

كانت العداوة مشبوبة بين الكنعانيين أصحاب الأرض الحقيقيين وبين بنى إسرائيل واليهود الذين أرادوا اغتصاب الأرض منهم ، ولم ينس الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى تلك العداوة أبدا ، وأرادوا أن يؤكدوا وعد الله بإعطاء أرض فلسطين إلى نسل إسحاق فجعلوا إبراهيم وهو يجود بأنفاسه يقول لعبده كبير بيته المستولى على كل ما كان له : « ضع يدك تحت فخذى . فأستحلفك بالرب إله السماء والأرض أن لا تأخذ زوجة لابنى من بنات الكنعانيين الذين أنا ساكن بينهم . بل إلى أرضى وإلى عشيرتى تذهب وتأخذ زوجة لبنى إسحاق . فقال له العبد : ربما لاتشاء المرأة أن تتبعنى إلى هذه الأرض . هل أرجع بابنك إلى الأرض التى خرجت منها (أور بالعراق) ؟ فقال له إبراهيم : احترز من أن ترجع بابنى إلى هناك . الرب إله السماء الذى أخذنى من بيت أبى ومن أرض ميلادى والذى كلمنى والذى أقسم لى قائلا : لنسلك أعطى هذه الأرض ، هو يرسل ملاكه أمامك فتأخذ زوجة لابنى من هناك . وإن لم تشأ المرأة أن تتبعك تبرأت من حلفى هذا ، أما ابنى فلا ترجع به إلى هناك . فوضع العبد يده تحت فخذ إبراهيم مولاه وحلف له على هذا الأمر » .

ويثور فى الفكر سؤال : إذا كان وعد الله بإعطاء أرض فلسطين لإسحاق ولنسله معروفا فكيف خطر على قلب كبير بيت إبراهيم أن يعود بإسحاق إلى أور ؟ إلى الأرض التى خرج منها إبراهيم ؟ لقد كان وعدا وكان ختانا وكانت ابتهاجات بختان إبراهيم وإسماعيل والعبيد ثم إسحاق بعد كل ذلك فكيف غابت كل تلك الابتهاجات عن كبير بيت إبراهيم ؟ لعل الذين كتبوا التوراة فى المنفى خشوا أن يكون قارئ قد نسى الوعد فأرادوا أن يؤكدوه كما يفعل معظم القصاصين الذين ينتابهم القلق على قرائهم فيعيدوا سرد بعض الأحداث للتذكرة والتأكيد .

وتزوج إسحاق رفقة : « فلما كملت أيامها لتلد إذا فى بطنها توأمان ، فخرج الأول كله كفروة شعر فدعوا اسمه عيسو (العيص) ، وبعد ذلك خرج أخوه ويده قابضة بعقب عيسو فدعى اسمه يعقوب . وكان إسحاق ابن ستين سنة لما ولدتهما » .

كان الذين كتبوا التوراة فى المنفى فى ذل الأسر ينظرون نظرة إكبار إلى كل عمل يقومون به غير مشروع ، حتى السرقة كانوا يزينونها فى أعينهم ، وقد انعكس ذلك السلوك على ما يكتبون فلم يروا فى سرقة البركة — إن كانت البركات تسرق — أى عيب ، بل وجدوا فى الخداع مادة يفخرون بها ويدونونها فرحين دون خجل وما دامت تلك السرقة تعود بالبركة على يعقوب (إسرائيل) . والآن نروى ما كتبه كتاب التوراة فى المنفى دون تدخل منا ولندع للقارئ قياس ذلك الفعل على مقاييس الأخلاق فى أى عصر من العصور : « فكبر الغلامان » . وكان عيسو إنسانا يعرف الصيد ، إنسان البرية ، ويعقوب إنسانا كاملا يسكن الخيام . فأحب إسحاق عيسو لأن فى فمه صيدا ، وأما رفقة فكانت تحب يعقوب ...

وحدث لما شاخ إسحاق وكلت عيناه عن النظر أنه دعا عيسو ابنه الأكبر وقال له يا بنى ، فقال له هأنذا . فقال إننى قد شخت ولست أعرف يوم وفاتى . فالآن خذ عدتك جعبتك وقوسك واخرج إلى البرية وتصيد لى صيدا . واصنع لى أطعمة كما أحب وأتنى بها لآكل حتى تباركك نفسى قبل أن أموت .

وكانت رفقة سامعة إذ تكلم إسحاق مع عيسو ابنه ، فذهب عيسو إلى البرية كى يصطاد صيدا ليأتى به ، وأما رفقة فكلمت يعقوب ابنها قائلة إنى قد سمعت أباك يكلم عيسو أخاك قائلا ائتنى بصيد واصنع لى أطعمة لآكل

أمام الرب قبل وفاتى ، فالآن يا بنى اسمع لقولى فى ما أنا آمرك به . اذهب إلى الغنم وخذ لى من هناك جديين جيدين من المعزى ، فاصنعهما أطعمة لأبيك كما يحب فتحضرها إلى أبيك ليأكل حتى يباركك قبل وفاته . فقال يعقوب لرفقة أمه : هو ذا عيسو أخى رجل أشعر وأنا رجل أملس . ربما يجسنى أبى فأكون فى عينيه كمتهاون وأجلب على نفسى لعنة لا بركة . فقالت له أمه لعنتك على يا بنى . اسمع لقولى فقط واذهب خذ لى . فذهب وأخذ وأحضر لأمه . فصنعت أمه أطعمة كما كان أبوه يحب . وأخذت رفقة ثياب عيسو ابنها الأكبر الفاخرة التى كانت عندها فى البيت وألبست يعقوب ابنها الصغير وألبست يديه وملاسة عنقه جلود المعزة . وأعطت الأطعمة والخبز التى صنعت فى يد يعقوب ابنها .

فدخل إلى أبيه وقال يا أبى . فقال له : هأنذا من أنت يا بنى ؟ فقال يعقوب لأبيه : أنا عيسو بكرك قد فعلت كما كلمتنى . قم اجلس وكل من صيدى لكى تباركنى نفسك ، فقال إسحاق لابنه ما هذا الذى أسرعت لتجد يا بنى . فقال إن الرب إلٰهك قد يسر لى . فقال إسحاق ليعقوب تقدم لأجسك يا بنى . أأنت هو ابنى عيسو أم لا ؟ فتقدم يعقوب إلى إسحاق أبيه فجسه وقال : الصوت صوت يعقوب ولكن اليدين يدا عيسو . ولم يعرفه لأن يديه كانتا مشعرتين كيدى عيسو أخيه . فباركه وقال : هل أنت هو ابنى عيسو ؟ فقال : أنا هو . فقال : قدم لى آكل من صيد ابنى حتى تباركك نفسى . فقدم له فأكل وأحضر له خمرا فشرب ، فقال له إسحاق أبوه : تقدم وقبلنى يا بنى . فتقدم وقبله ، فشم رائحة ثيابه وباركه وقال : انظر ، رائحة ابنى كرائحة حقل قد باركه الرب . فليعطك الله من ندى السماء ومن دسم الأرض وكثرة حنطة وخمر . ليستعبد لك شعوب وتسجد لك قبائل . كن

سيدا لإخوتك وليسجد لك بنو أمك . ليكن لاعونك ملعونين ، ومباركوك مباركين .

وحدث عندما فرغ إسحاق من بركة يعقوب ، ويعقوب قد خرج من لدن إسحاق أبيه أن عيسو أخاه أتى من صيده . فصنع هو أيضا أطعمة ودخل بها إلى أبيه وقال لأبيه : ليقم أبى ويأكل من صيد ابنه حتى تباركنى نفسك . فقال له إسحاق أبوه : من أنت ؟ فقال : أنا ابنك بكرك عيسو . فارتعد إسحاق ارتعادا عظيما جدا وقال : فمن هو الذى اصطاد صيدا وأتى به إلىّ فأكلت من الكل قبل أن تجىء وباركته ، نعم ويكون مباركا . فعندما سمع عيسو كلام أبيه صرخ صرخة عظيمة ومُرّة جدا وقال لأبيه : باركنى أنا أيضا يا أبى . فقال قد جاء أخوك بمكر وأخذ بركتك . فقال : ألا إن اسمه دعى يعقوب فقد تعقبنى الآن مرتين . أخذ بكوريتى وها هو ذا قد أخذ بركتى . ثم قال : أما أبقيت لى بركة ؟ فأجاب إسحاق وقال لعيسو : إنى قد جعلته سيدا لك ودفعت إليه جميع إخوته عبيدا وعضدته بحنطة وخمر . فماذا أصنع إليك يابنى ؟ فقال عيسو لأبيه : ألك بركة واحدة فقط يا أبى . ؟ باركنى أيضا يا أبى . ورفع عيسو صوته وبكى . فأجاب إسحاق أبوه وقال له : هو ذا بلا دسم الأرض يكون مسكنك وبلا ندى السماء من فوق وبسيفك تعيش ولأخيك تستعبد ، ولكن يكون حينما تجنح أنك تكسر نيره عن عنقك » .

وهكذا ضاقت رحمة الله عن أن تتسع ليعقوب (إسرائيل) وأخيه عيسو ، وهكذا سرقت البركة . فإن كان إسحاق كلت عيناه فأين كان الله ؟ إنهم جعلوه ينطق بوعد منح أرض كنعان لنسل إسحاق ثم سرقوا البركة من عيسو فى غفلة من الله سبحانه وتعالى عما يصفون . إنهم جعلوا إسرائيل سارق بركة ومخادعا وكذابا دون خجل ، فما كانوا فى أرض المنفى يخجلون

من السرقة والكذب والخداع ، ولننظر الآن كيف يتحدث القرآن عن إسحاق الذى لم يذكر الآخرة مرة واحدة فى التوراة ، والذى كان حبه لابنه عيسو لأنه يجلب له ما لذ وطاب من الطعام ، فلم يكن حبه لمكارم أخلاقه وتقواه بل لأن فى فمه صيدا . مادية طاغية صبغ بها اليهود بدورهم المعجبين بهم من الناس .

﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا * فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا ﴾(١) .

﴿ ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بنى إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون * أم كنتم شهداء إذ حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدى قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحاق إلها واحدا ونحن له مسلمون ﴾(٢) .

﴿ أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل أأنتم أعلم أم الله ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾(٣) .

ولم يكن الغش والخداع فى سرقة البركة فحسب . بل كان سمة أفعال كل الناس كما تصورهم الذين كتبوا التوراة فى المنفى . فيعقوب قد ذهب إلى حاران ليتزوج فى بيت خاله لابان بن ناحور ، فماذا كان من الخال ؟ :

---

(١) مريم ٥٨ — ٥٩ .

(٢) البقرة ١٣٢ — ١٣٣ .

(٣) البقرة ١٤٠ .

« فكان حين سمع لابان خبر يعقوب ابن أخته أنه ركض للقائه وعانقه وقبله وأتى به إلى بيته . فحدث لابان بجميع هذه الأمور : (حلم يعقوب . رؤية سلَّم منصوبة على الأرض ورأسها يمس السماء . ملائكة الله صاعدة نازلة عليها والرب واقف عليها يقول : أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق . الأرض التى أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك . من هنا اسمى إسرائيل) .

فقال له لابان : إنما أنت عظمى ولحمى . فأقام عنده شهرين من الزمان .

ثم قال لابان ليعقوب : لأنك أخى تخدمنى مجانا ! أخبرنى ما أجرتك ؟

وكان للابان ابنتان اسم الكبرى ليَّة واسم الصغرى راحيل . وكانت عينا ليَّة ضعيفتين . وأما راحيل فكانت حسنة الصورة وحسنة المنظر . وأحب يعقوب راحيل فقال : أخدمك سبع سنين براحيل ابنتك الصغرى . فقال لابان : أن أعطيك إياها أحسن من أن أعطيها لرجل آخر . أقم عندى . فخدم يعقوب براحيل سبع سنين وكانت فى عينه كأيام قليلة بسبب محبته لها .

ثم قال يعقوب للابان : أعطنى امرأتى لأن أيامى قد كملت فأدخل عليها . فجمع لابان جميع أهل المكان وصنع وليمة ، وكان له فى المساء أنه أخذ ليَّة وأتى بها إليه فدخل عليها . وأعطى لابان نلفة جاريته لليَّة ابنته جارية . وفى الصباح إذا هى ليَّة . فقال للابان : ما هذا الذى صنعت بى ؟ أليس براحيل خدمت عندك . فلماذا خدعتنى ؟ فقال لابان : لا يُفعل هكذا فى مكاننا أن نعطى الصغيرة قبل البكر . أكمل أسبوع هذه فنعطيك تلك بالخدمة التى تخدمنى أيضا سبع سنين أخر .

ففعل يعقوب هكذا . فأكمل أسبوع هذه . فأعطاه راحيل ابنته زوجة له ، وأعطى لابان راحيل ابنته بلهة جاريته جارية لها . فدخل على راحيل أيضا

وأحب أيضا راحيل أكثر من ليَّة ، وعاد فخدم عنده سبع سنين أخر » .

وهكذا جمع نبى الله يعقوب بين الأختين فى توراة المنفى ، وخدعه خاله كما خدع هو أباه . فالحياة فى توراة المنفى كلها غش وكذب وخداع وأنبياء لا يطلبون من الله إلا أن يطعمهم ويكسوهم . ولنسمع إلى نذر يعقوب وهو فى طريقه من بئر سبع إلى حاران : « ونذر يعقوب نذرا قائلا : إن كان الله معى وحفظنى فى هذا الطريق الذى أنا سائر فيه وأعطانى خبزا لآكل وثيابا لألبس ورجعت بسلام إلى بيت أبى ، يكون الرب لى إلٰها ! » أيعقوب لا يزال فى شك من أن الله معه حتى بعد وعد الله بأن يباركه وأن يجعل أرض فلسطين لذريته ؟! ففيم كان الختان إذن ؟ وهل هذا النذر يليق بنبى موعود ببركة الله ؟ إنه لن يعترف بربه إلا إذا أطعمه وكساه وحفظه وأعاده سالما إلى بيت أبيه . اعتراف مقابل نفع ، إن انعدم النفع فلا اعتراف ، وحاشا لله أن يكون ذلك نذر يعقوب . إنه نذر الذين يقاسون الذل فى الأسر ، نذر الذين كانوا يلتمسون العودة إلى فلسطين من العراق ، فإذا كانت العودة كان الاعتراف بالله وإلا فلا اعتراف ، ولن يكون الرب لهم إلٰها !

ولم يكتف الذين كتبوا التوراة فى المنفى بأن جعلوا أنبياء الله يكذبون ويخدعون ويسرقون البركة ، بل نسبوا السلب إلى الله ـــ سبحانه وتعالى عما يصفون علوا كبيرا : « وحدث لما ولدت راحيل يوسف أن يعقوب قال للابان : اصرفنى لأذهب إلى مكانى وإلى أرضى . أعطنى نسائى وأولادى الذين خدمتك بهم فأذهب لأنك أنت تعلم خدمتى التى خدمتك . فقال لابان : ليتنى أجد نعمة فى عينيك . قد تفاءلت فباركنى الرب بسببك وقال : عين لى أجرتك فأعطيك .

فقال له : أنت تعلم ماذا خدمتك وماذا صارت مواشيك معى ، لأن ما

كان لك قبلى قليل فقد اتسع إلى كثير وباركك الرب فى أثرى ، والآن متى أعمل أنا أيضا لبيتى ؟! فقال : ماذا أعطيك ؟ فقال يعقوب : لا تعطينى شيئا . إن صنعت لى هذا الأمر أعود أرعى غنمك وأحفظها . أجتاز بين غنمك كلها اليوم واعزل أنت منها كل شاة رقطاء وبلقاء وكل شاة سوداء بين الخرفان وبلقاء ورقطاء بين المعزى . فيكون مثل ذلك أجرتى ويشهد فىّ برى يوم غد إذا جئتك من أجل أجرتى قدامك . كل ماليس أرقط أو أبلق بين المعزى وأسود بين الخرفان فهو مسروق عندى . فقال لابان : هو ذا ليكن بحسب كلامك . فعزل فى ذلك التيوس المخططة والبلقاء وكل العناز الرقطاء والبلقاء كل ما فيه بياض وكل أسود بين الخرفان ودفعها إلى أيدى بنيه وجعل مسيرة ثلاثة أيام بينه وبين يعقوب ، وكان يعقوب يرعى غنم لابان الباقية .

فأخذ يعقوب لنفسه قضبانا من لبنى ولوز ودلب وقشر فيها خطوطا بيضا كاشطا عن البياض الذى على القضبان ، وأوقف القضبان التى قشرها فى الأجران فى مساقى الماء حيث كانت الغنم تجىء لتشرب تجاه الغنم لتتوحم عند مجيئها لتشرب ، فتوحمت الغنم عند القضبان وولدت الغنم مخططات ورقطا وبلقا . وأفرز يعقوب الخرفان وجعل وجوه الغنم إلى المخطط وكل أسود بين غنم لابان . وجعل له قطعانا وحده و لم يجعلها مع غنم لابان . وحدث كلما توحمت الغنم القوية أن يعقوب وضع القضبان أمام عيون الغنم فى الأجران لتتوحم بين القضبان . وحين استضعفت الغنم لم يضعها فصارت الضعيفة للابان والقوية ليعقوب ، فاتسع الرجل كثيرا جدا وكان له غنم كثير وجوار وعبيد وجمال وحمير .

فسمع كلام بنى لابان قائلين : أخذ يعقوب كل ما كان لأبينا . ومما لأبينا صنع كل هذا المجد . ونظر يعقوب وجه لابان وإذا هو ليس معه كأمس وأول

من أمس . وقال الرب ليعقوب : ارجع إلى أرض آبائك وإلى عشيرتك فأكون معك .

فأرسل يعقوب ودعا راحيل وليئة إلى الحقل إلى غنمه وقال لهما : أنا أرى وجه أبيكما أنه ليس نحوى كأمس وأول من أمس ، ولكن إله أبى كان معى وأنتما تعلمان أنى بكل قوتى خدمت أباكما ، وأما أبوكما فغدر بى وغير أجرتى عشر مرات ، ولكن الله لم يسمح له أن يصنع بى شرا . إن قال هكذا : الرقط تكون أجرتك ولدت كل الغنم رقطا ، وإن قال هكذا : المخططة تكون أجرتك ولدت كل الغنم مخططة ، فقد سلب الله مواشى أبيكما وأعطانى . وحدث فى وقت توحم الغنم أنى رفعت عينى ونظرت فى حلم وإذا الفحول الصاعدة على الغنم مخططة ورقطاء ومنمرة . وقال لى ملاك الله فى الحلم : يا يعقوب . قلت هأنذا . فقال : ارفع عينيك وانظر . جميع الفحول الصاعدة على الغنم مخططة ورقطاء ومنمرة ، لأنى قد رأيت كل ما يصنع بك لابان . أنا إله بيت إيل حيث مسحت عمودا . حيث نذرت لى نذرا . الآن قم اخرج من هذه الأرض وارجع إلى أرض ميلادك » .

لقد صور يعقوب فى هذه الإصحاحات رجل دنيا كل همه الإكثار مما يملك من شاء وماعز ، وهو رجل خداع يأخذ لنفسه الغنم القوية ويترك للابان الغنم الضعيفة ثم ينسب السلب إلى الله . وحاشا لله أن يكون يعقوب قد فعل ذلك أو أن يكون قد مكث عند خاله لابان عشرين سنة وخاله يعبد الأصنام دون أن يدعو خاله مرة واحدة إلى عبادة الله وحده ، ودون أن يقول له ولقومه كما قال جده خليل الرحمن لأبيه وقومه : « إننى براء مما تعبدون . إلا الذى فطرنى فإنه سيهدين »[1] . « .. أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى

(١) الزخرف ٢٦ ، ٢٧ .

ضلال مبين »(٢) .

نسي الذين كتبوا التوراة فى المنفى أن الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، وأن صفات جميع الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم حسن الخلق ، وأن الله قد عصمهم من إتيان الشرور والآثام ، وما كان هم أحدهم الدنيا . إنهم كانوا يجودون بكل شيء فى سبيل الله فما عمل أحدهم على أن يغش ليكثر غنمه ويكون بذلك مجده ، بل كانوا ينفقون كل ما يرزقهم الله على الفقراء والمحتاجين فهم أوثق بما فى يدى الله مما فى أيديهم ، وإننا لا نجد مثل هذه الصور الكريمة فى التوراة لذلك نسوق بعض ما رواه نبى الإسلام وكتاب المسلمين عن أنبياء بنى إسرائيل بما يتسق مع النبوة والاصطفاء .

« قيل ليوسف : ما لك تجوع وأنت على خزائن الأرض ؟ قال : أخاف أن أشبع فأنسى الجائع » .

وقال ﷺ : « إنما الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم نبى ابن نبى ابن نبى ابن نبى » .

إن عبارات توراة المنفى مظلمة لا تتلألأ فيها أنوار وحى الله ، إن هى إلا أقاصيص تعبر عن الحالة النفسية التى كان يعيش فيها اليهود فى المنفى ، أقاصيص نسجت حول حقائق طال عليها الأمد فامتزجت بأساطير الشعوب وأساليب الكذب والغش والخداع التى كانت طابع هؤلاء الأسرى . كانوا مستضعفين فى الأرض قد لوثهم الأسر بالعار فلطخوا كل الرسل والأنبياء بالعار لكيلا يكون هناك ما يخجلهم ما دام أنبياء الله قد مارسوا الكذب والخداع وأكل الدنيا فى بطونهم ، بل وقد مارسوا الزنا كما سنرى بعد حين فى التوراة .

---

(١) الأنعام ٧٤ .

ولندع شكيم يعتدى على دينة ابنة يعقوب ، ولندع الخدعة التى قام بها ابنا يعقوب ليقضوا على شكيم وأبيه وكل رجال المدينة ، وكيف نهبا المدينة . فالتوراة مليئة بالخدع والسلب والنهب ، ولنقرأ الإصحاح الخامس والثلاثين من سفر التكوين لنرى كيف أن يعقوب وأبناءه الموعودين بالبركة وأرض فلسطين ، كانت الأصنام فى حوزتهم ، وأنهم كانوا يشركون مع الله الذى وعدهم واصطفاهم آلهة أخرى : « ثم قال الله ليعقوب : قم اصعد بيت إيل وأقم هناك واصنع هناك مذبحا لله الذى ظهر لك حين هربت من وجه عيسو أخيك ، فقال يعقوب لبنيه ولكل من كان معه : اعزلوا الآلهة الغريبة التى بينكم وتطهروا وأبدلوا ثيابكم ، ولنقم ولنصعد إلىَ بيت إيل فأصنع هناك مذبحا لله الذى استجاب لى فى يوم ضيقتى وكان معى فى الطريق الذى ذهبت فيه ، فأعطوا يعقوب كل الآلهة الغريبة التى فى أيديهم والأقراط التى فى آذانهم فطمرها يعقوب تحت البطمة التى عند شكيم » .

يا أنبياء بنى إسرائيل الذين كتبتم التوراة فى المنفى أين عقولكم ؟ أيعقل أن يحتفظ يعقوب الموعود بالبركة والذى تجلى له الرب مرات بالأصنام فى بيته ؟ ففيم كان إذن حب الله إياه ؟ ولماذا اصطفاه ربه قبل أن يولد وخصه بالبركة دون أبناء إسماعيل ؟ ألأنه استمر يشرك به حتى بعد أن جاءه ملاك الرب فى الحلم ليخبره أن جميع الفحول الصاعدة على الغنم مخططة ورقطاء ومنمرة ؟! أو لأنه استمر يشرك بالله حتى بعد أن صارع الله (الإصحاح ٣٢) وقال له : « لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل إسرائيل ، لأنك جاهدت مع الله والناس وقدرت » .

وكان أبناء يعقوب : رأوبين وشمعون ولاوى ويهودا ويساكر وزبلون من ليّة . ودانا ونفتالى من بلهة جارية لية ، وجادا وأشيرا من زلفة جارية راحيل ،

ويوسف وبنيامين من راحيل . وجاء موسى عليه السلام من نسل لاوى ، وجاء اليهود من نسل يهوذا ، وبذلك لا يكون موسى صلوات الله وسلامه عليه يهوديا ، ولا يوسف ، فهما من بني إسرائيل وأخوا يهوذا الذى ينسب إليه اليهود . وإن دارس التوراة يلحظ تعصب أنبياء اليهود لفرع يهوذا . فنبى مثل أشعيا لا يذكر موسى أبدا فى إصحاحاته ، فموسى عليه السلام من اللاويين ، أما أشعيا فمن نسل يهوذا .

وسترى الآن كيف صورت التوراة حياة يهوذا أبى اليهود جميعا : « وأخذ يهوذا زوجة لعير بكره اسمها ثامار ، وكان عير بكر يهوذا شريرا فى عينى الرب ، فأماته الرب ..

ولما طال الزمان ماتت ابنة سوع امرأة يهوذا ، ثم تعزى يهوذا فصعد إلى جُزّاز غنمه إلى تمنة هو وحيرة صاحبه العَدلاّمى فأُخبرت ثامار وقيل لها : هو ذا حموك صاعد إلى تمنة ليجز غنمه . فخلعت عنها ثياب ترملها وتغطت ببرقع وتلفتت وجلست فى مدخل عينايم التى على طريق تمنة ، فنظرها يهوذا وحسبها زانية لأنها كانت قد غطت وجهها . فمال إليها على الطريق وقال : هاتى أدخل عليك . لأنه لم يعلم أنها كنَّته . فقالت : ماذا تعطينى لكى تدخل علىَّ . فقال : إنى أرسل جدى معزى من الغنم . فقالت : هل تعطينى رهنا حتى ترسله ؟ فقال : ما الرهن الذى أعطيك ؟ فقالت : خاتمك وعصابتك وعصاك التى فى يدك ، فأعطاها ودخل عليها فحبلت منه . ثم قامت ومضت وخلعت عنها برقعها ولبست ثياب ترملها .

فأرسل يهوذا جدى المعزة بيد صاحبه العدلامى ليأخذ الرهن من يد المرأة فلم يجدها ، فسأل أهل مكانها قائلا : أين الزانية التى كانت فى عينايم على الطريق ؟ فقالوا : لم تكن ههنا زانية . فرجع إلى يهوذا وقال : لم أجدها وأهل

المكان أيضا قالوا لم تكن ههنا زانية ، فقال يهوذا : لتأخذ لنفسها لئلا نصير إهانة . إنى قد أرسلت هذا الجدى وأنت لم تجدها .

ولما كان نحو ثلاثة أشهر أخبر يهوذا وقيل له : قد زنت ثامار كنتك وها هى حبلى أيضا من الزنا ، فقال يهوذا أخرجوها فتحرق . أما هى فلما أخرجت أرسلت إلى حميها قائلة : من الرجل الذى هذه له أنا حبلى ؟ وقالت : حقق لمن الخاتم والعصابة والعصا هذه ؟ فتحققها يهوذا وقال : هى أبرأ منى .. » .

ماذا كان جزاء يهوذا الزانى الذى أنجبت له زوج ابنه توأمين ؟ إن يعقوب (إسرائيل) يقول له وهو يجود بأنفاسه : « يهوذا إياك يحمد إخوتك . يدك على قفا أعدائك . يسجد لك بنو أبيك » .

أهذا وحى من الله ؟ أيكون جزاء الزانى بركة وحمدا ؟ فلمن الحجر إذن ؟ إنها أهواء الذين كتبوا التوراة فى المنفى وإنهم جميعا من نسل يهوذا ، من اليهود فلا غرو إن تحيزوا ليهوذا وغفروا له جريمة الزنا ، وقد التمسوا له عذرا بأن قالوا إنه لما زنى بالمرأة لم يكن يعرف أنها زوج ابنه . وأرادوا أن يبرزوا شهامته فجعلوه يبعث صديقه ليدفع ثمن فعلته كأنما فعل فعلة لا يندى لها جبين الشرفاء من الناس فما بالك بسبط من الأسباط الذين يقول القرآن فيهم : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبورا »[1] .

وإنّ تصور الذين كتبوا التوراة فى المنفى لله جل شأنه قاصر عجيب ، إنه فى زعمهم لا يستطيع أن يميز بين بيوت المؤمنين وبيوت الكافرين إلا بعلامة

---

(١) النساء ٦٣

توضع على بيوت المؤمنين : « .. فإنى أجتاز فى أرض مصر هذه الليلة وأضرب كل بكر فى أرض مصر من الناس بالبهائم . وأصنع أحكاما لكل آلهة المصريين : أنا الرب ويكون لكم الدم علامة على البيوت التى أنتم فيها . فأرى الدم فأعبر عنكم ، فلا يكون عليكم ضربة للهلاك حين أضرب أرض مصر . ويكون لكم هذا اليوم تذكارا فتُعيِّدونه عيدا للرب فى أجيالكم تُعيِّدونه فريضة أبدا » .

وهكذا كلم الرب موسى وهارون فى أرض مصر فى سفر الخروج فى توراة المنفى ، وهكذا جعلوا الله لا يميز بين دور بنى إسرائيل ودور المصريين إلا بعلامة من دماء الشاء التى أمرهم بذبحها وأكلها بعجلة فصحا للرب ! إنه إله يجتاز أرض مصر فى تلك الليلة كأنه مسافر عابر . ولا جرم فقد تصوروا أن الله خلق آدم على صورته ، وما دام آدم يمشى فى الأرض فلا غرابة أن يمشى الله فى أرض مصر تلك الليلة ويجتازها وهو يبحث عن علامات الدم على دور بنى إسرائيل ، حتى لا يخطئ ويصيب عباده بنقمته .

والآن نلقى السمع إلى بعض آيات الله لنرى موسى وهارون فى القرآن العظيم وكيف يعرفان الله تعالى وأنه يسمع ويرى بلا علامات على دور بنى إسرائيل ، وأنه الذى أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ، وأنه مالك يوم الدين ، وإن كانت توراة المنفى لم تعرف إلا الأرض التى لا رجعة منها و لم تتحدث عن البعث أبدا : ﴿ وهل أتاك حديث موسى * إذ رأى نارا فقال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجد على النار هدى . فلما أتاها نودى يا موسى * إنى أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى * وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى * إننى أنا الله لا إلٰه إلا أنا فاعبدنى وأقم الصلاة لذكرى * إن الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى * فلا يصدنك عنها من

لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى * وما تلك بيمينك يا موسى * قال هى عصاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى * قال ألقها يا موسى * فألقاها فإذا هى حية تسعى * قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى * واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى * لنريك من آياتنا الكبرى * اذهب إلى فرعون إنه طغى * قال رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى * واحلل عقدة من لسانى ، يفقهوا قولى * واجعل لى وزيرا من أهلى * هارون أخى * اشدد به أزرى * وأشركه فى أمرى * كى نسبحك كثيرا * ونذكرك كثيرا * إنك كنت بنا بصيرا * قال قد أوتيت سؤلك يا موسى * ولقد مننا عليك مرة أخرى ﴾(١) .

﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى ﴾(٢) .

إن الله سبحانه وتعالى يقص علينا فى محكم آياته قصة موسى تشع نورا ، قصة إلٰه قادر ورسول كريم . أما الذين كتبوا التوراة فى أرض السبى فما قدروا الله حق قدره ، جعلوه — سبحانه وتعالى عما يصفون علوا كبيرا — لا يميز بين بيوت بنى إسرائيل وبيوت المصريين إلا بعلامة من دم الأضحية ، وجعلوه يأمر بنى إسرائيل بأن يأكلوا الفطير سبعة أيام احتفالا بتخليصهم من ذل فرعون : « سبعة أيام تأكلون فطيرا . اليوم الأول تعزلون الخمير من بيوتكم ، فإن كل من أكل خميرا من اليوم الأول إلى اليوم السابع تقطع تلك النفس من إسرائيل ، ويكون لكم فى اليوم الأول محفل مقدس ، وفى اليوم

---

(١) طه ١١ — ٣٧ .

(٢) طه ٧٧ .

السابع محفل مقدس ، لا يعمل فيها عمل إلا ما تأكله كل نفس فذلك وحده يعمل منكم . وتحفظون الفطير لأنى فى هذا اليوم عينه أخرجت أجدادكم من أرض مصر . فتحفظون هذا اليوم فى أجيالكم فريضة أبديه . فى الشهر الأول فى اليوم الرابع عشر من الشهر مساء تأكلون فطيرا إلى اليوم الحادى والعشرين من الشهر مساء . سبعة أيام لا يوجد خمير فى بيوتكم ، فإن كل من أكل مُختمرا تقطع كل النفس من جماعة إسرائيل الغريب مع مولود الأرض . لا تأكلوا شيئا مختمرا . فى جميع مساكنكم تأكلون فطيرا » .

إنه إلـه يهتم بالخمير وبالفطير أكثر من اهتمامه بتربية النفوس المؤمنة . إنه لم يذكر كلمة واحدة عن دار السلام و لم ينل دار الغرور بكلمة تخدش التعلق بها . فالعلاقة بين الرب وعباده صارت على أيدى كتاب التوراة فى المنفى علاقة منفعة مباشرة يعود نفعها كله على العباد . فعلى الرب أن يحمى عبده وأن يطعمه وأن يكسوه فإن فعل ذلك أقر العبد بربوبيته وإلا فلا عبادة ولا حمد .
وقد صوروا بنى إسرائيل فى صورة تثير الدهشة ، فبعد المعجزات التى قام بها موسى وبعد أن أنقذ الله بنى إسرائيل من ذل العبودية فى مصر وبعد أن « كان الرب يسير أمامهم نهارا فى عمود من سحاب ليهديهم فى الطريق وليلا فى عمود نار ليضيء لهم لكى يحوشوا نهارا وليلا لم يصدقوا موسى و لم يؤمنوا بإلـه موسى . وقد آمنوا به وصدقوا رسوله لما رأوا أعداءهم أمواتا على الشاطئ :
« فخلص الرب فى ذلك اليوم إسرائيل من يد المصريين ، ونظر إسرائيل المصريين أمواتا على شاطئ البحر ، ورأى إسرائيل الفعل العظيم الذى صنعه الرب بالمصريين ، فخاف الشعب الرب وآمنوا بالرب وبعبده موسى » .

إنهم يصلون لله بعد ذلك النصر ولكن صلاتهم لم تكن خالصة لله وحده فقد كانت قلوبهم مشوبة بالشرك ، فهم يقولون فى ابتهالاتهم : « من مثلك بين

الآلهة يا رب ؟ من مثلك معتزا فى القداسة .. » كأنما هناك آلهة معه وليس بينهم مثل إلٰههم . أكان موسى كليم الله يسمح بمثل ذلك الشرك دون أن يثور ؟ أو كان موسى يسمح لأخته مريم النبية أخت هارون بأن تأخذ الدف بيدها وأن تخرج وراءها جميع النساء بالدفوف فيأخذون فى الرقص ؟ إنها أفكار وتصورات الذين وضعوا التوراة فى أرض العراق . أيام أن كان الشراب والرقص والشرك منتشرا فى بلاط البابليين .

وقال كتبة التوراة إن موسى عليه السلام أطلق على إلٰهه اسم يهوه بعد أن بنى مذبحا للرب شكرا على انتصار إسرائيل على عماليق ، و لم يعطوا مبررا لهذه التسمية ، ويلاحظ أنهم قد بدأوا إطلاق اسم إسرائيل على بنى إسرائيل ، ومن الغريب أنهم جعلوا « يثرون » كاهن مديان حما موسى يقول هو الآخر لما سمع ما فعل إلٰه موسى لبنى إسرائيل : « الآن علمت أن الرب أعظم الآلهة » . فهو على حد قول كتاب التوراة يعتقد أن هناك آلهة مع الرب وأن الرب أعظمهم . وهذا القول لا يختلف فى كثير ولا قليل عما كان يقال فى بابل من أن مردوخ هو رب الأرباب . إنها عبارات لم تكن من وحى الله ولكنها من وحى البيئة التى عاش فيها كتاب التوراة .

وعندما يتجلى الله لموسى فوق جبل سيناء يقول : « أنا الرب إلٰهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية . لا يكن لك آلهة أخرى أمامى . لا تصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض ، لاتسجد لهن ولا تعبدهن لأنى أنا الرب إلٰهك إلٰه غيور أفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى وأصنع إحسانا إلى ألوف من محبى وحافظى وصاياى . لا تنطق باسم الرب إلٰهك باطلا ، لأن الرب لا يبرىء من نطق باسمه باطلا . اذكر يوم السبت

لتقدسه . ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك ، وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلٰهك . لا تصنع عملا ما أنت وابنك وابنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذى داخل أبوابك . لأن فى ستة أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل ما فيها واستراح فى اليوم السابع . لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه . أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلٰهك . لا تقتل . لا تزن . لا تسرق . لا تشهد على قريبك شهادة زور ، لا تشته بيت قريبك . لا تشته امرأة قريبك ولا عبده ولا أمته ولا ثوره ولا حماره ولا شيئا مما لقريبك ». .

إلٰه غيور ، يفتقد ذنوب الآباء فى الأبناء . أهذا عدل إلٰهى أم تصور من تصورات الذين كتبوا التوراة فى المنفى ؟ « وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون »[١] .

« ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب »[٢] .

ليس من العدل فى شىء أن يفتقد إلٰه ذنوب الآباء فى الأبناء : « ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون »[٣] . « قل أمر ربى بالقسط ... »[٤] .

« لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت »[٥] . « ولا تزر وازرة وزر أخرى »[٦] . « من عمل صالحا

---

(١) آل عمران ٧٨ (٢) هود ١١٠

(٣) الأحقاف ١٩ (٤) الأعراف ٩

(٥) البقرة ٢٨٦ (٦) الأنعام ١٦٤

فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد »[١] .

ولم يذكر رب موسى فى هذه الوصايا جزاء الصالحين والطالحين فى الدار الآخرة ، فقد نسى الذين كتبوا التوراة فى المنفى البعث والحساب . إنهم اعتقدوا معتقدات البابليين وقد كانوا يتقربون إلى آلهتهم ليطيلوا أعمارهم على الأرض ولإسعادهم فى دار الغرور . وإن نفس الشيء يقوله رب الذين كتبوا التوراة : « أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك » . فالجزاء ينبغى أن يكون فى الدنيا . وقد أثر ذلك فى الماديين الذين يريدون المثوبة فى الأرض وينكرون كل حياة بعد الموت : « إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الأنهار والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم »[٢]: « وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون »[٣] .

ولنستمر فى قراءة الإصحاح العشرين من سفر الخروج : « وكان جميع الشعب يرون الرعود والبروق وصوت البوق والجبل يدخن (من أجل أن الله نزل على جبل سيناء) . ولما رأى الشعب ارتعدوا ووقفوا من بعيد وقالوا لموسى : تكلم أنت معنا فنسمع ولا يتكلم معنا الله لئلا نموت . فقال موسى للشعب لا تخافوا ، لأن الله إنما جاء ليمتحنكم ولكى تكون مخافته أمام وجوهكم حتى لا تخطئوا . فوقف الشعب من بعيد وأما موسى فاقترب من الضباب حيث كان الله .

---

(١) فصلت ٤٦

(٢) محمد ١٢

(٣) سبأ ٣٧.

فقال الرب لموسى : هكذا تقول لبنى إسرائيل . أنتم رأيتم أننى من السماء تكلمت معكم ، لا تصنعوا معى آلهة فضة ولا تصنعوا معى آلهة ذهب . مذبحا من تراب تصنع لى تذبح عليه محرقاتك وذبائح سلامتك غنمتك وبقرك . فى كل الأماكن التى فيها أصنع لاسمى ذكرا آتى إليك وأباركك . وإن صنعت لى مذبحا من حجارة فلا تبنه منها منحوتة . إذا رفعت عليها إزميلك تدنسها ولا تصعد بدرج إلى مذبحى لكيلا تنكشف عورتك عليه » .

جعلوا لله مكانا . إنه فى الضباب . وجعلوه إلٰها يتعطش إلى دماء الغنم والبقر : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم »(١) . إنه ينهاهم عن صنع آلهة من فضة أو ذهب ولكنهم سرعان ما صنعوا عجلا من ذهب وعبدوه لأنهم ما دامت كل تعاليمهم أرضية لا يطيقون البعد عن عبادة الذهب ، فبالذهب يطعمون وبالذهب يكسون وبالذهب يكون لهم سلطان فى الأرض وهذه كل الغايات التى يعبدون الله من أجلها ، ومادام الذهب يحققها لهم فهو الإلٰه المعبود .

ويسرد الإصحاح الحادى والعشرون من نفس السفر الأحكام التى أمر الله موسى أن تطبق على بنى إسرائيل : « وهذه هى الأحكام التى تضع أمامهم : إذا اشتريت عبدا عبرانيا فست سنين يخدم وفى السابعة يخرج حرا مجانا . إن دخل وحده فوحده يخرج . إن كان بعل امرأة تخرج امرأته معه ، وإن أعطاه سيده امرأة وولدت له بنين أو بنات فالمرأة وأولادها يكون لسيده وهو يخرج وحده . ولكن إن قال العبد : أحب سيدى وامرأتى وأولادى لا أخرج حرا . يقدمه سيده إلى الله ويقدمه إلى الباب أو القائمة ويثقب سيده أذنه بالمثقب

---

(١) الحج ٣٧

فيخدمه إلى الأبد . وإذا باع رجل ابنته أمة لا تخرج كما يخرج العبيد . إن قبحت فى عينى سيدها الذى خطبها لنفسه يدعها تفك . وليس له سلطان أن يبيعها لقوم أجانب لغدره بها . وإن خطبها لابنه فبحسب حق البنات يفعل لها . إن اتخذ لنفسه أخرى لا ينقص طعامها وكسوتها ومعاشرتها . وإن لم يفعل لها هذه الثلاث تخرج مجانا بلا ثمن .

من ضرب إنسانا فمات يقتل قتلا . ولكن الذى لم يتعمد بل أوقع الله فى يده فأنا أجعل له مكانا يهرب إليه . وإذا بغى إنسان على صاحبه ليقتله بغدر فمن مذبحى نأخذه للموت . ومن ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا . ومن سرق إنسانا وباعه أو وجد فى يده يقتل قتلا . ومن شتم أباه أو أمه يقتل قتلا . وإذا تخاصم رجلان فضرب أحدهما الآخر بحجر أو بلكمة و لم يقتل بل سقط فى الفراش . فإن قام وتمشى خارجا على عكازه يكون الضارب بريئا ... » .

والذى يهمنا من هذه الأحكام أن الشريعة الموسوية قد أقرت الرق وأباحت بيع العبرانى وأن يبيع الرجل ابنته ، بل إننا نجد فى مستهل الإصحاح الثانى والعشرين من هذا السفر أن السارق يباع بسرقته ، فما بال الكتاب اليهود والمسيحيين الحاقدين على الإسلام يهاجمونه فى ضراوة لأنه لم يلغ الرق طفرة ؟ .

لم يشأ الإسلام أن يلغى الرق بأمر يحرمه لأنه وجد فى ذلك زعزعة للحياة الاقتصادية السائدة وخاف أن يلقى بمسنين وعجزة لم يعرفوا غير بيوت ساداتهم فى الطرقات دون شفقة ، فسن من القواعد ما يجفف جميع روافد الرق و لم يستحدث رافدا واحدا يزيد مشكلة الرق تعقيدا . ولو طبق الإسلام بعيدا عن هوى الحكام لقضى على الرق قضاء مبرما فى ثلاثة أجيال على الأكثر ، و لم يسمح الإسلام ببيع الآباء للأبناء كما سمحت أحكام الرب التى

كتبها أحبار اليهود فى المنفى، و لم يقرر أن السارق يمكن فى بعض الحالات أن يباع بسرقته ، بل حكم بقطع يد السارق ليكون عبرة لغيره ، أما حرية الفرد فلم يصادرها الإسلام مهما كانت الأسباب .

ونلاحظ أن جميع الأحكام الواردة فى الإصحاح الحادى والعشرين والإصحاح الثانى والعشرين من سفر الخروج لا تختلف فى كثير ولا قليل عن القوانين التى كانت سائدة فى بابل فى عصر تدوين التوراة ، حتى الذى يغتصب عذراء يطبق عليه ما كان يطبق على فاعل ذلك فى العراق : « وإذا راود رجل عذراء لم تخطب فاضطجع معها يمهرها لنفسه زوجة . إن أبى أبوها أن يعطيه إياها يزن له فضة كمهر العذارى ... كل من اضطجع مع بهيمة يقتل قتلا . من ذبح لآلهة غير الرب وحده يهلك » .

من يضطجع مع بهيمة يقتل قتلا أما من يضطجع مع عذراء فيعطى لأبيها من الفضة مهر عذراء ! إنه لا يجلد إذا كان غير محصن ولا يرجم إذا كان محصنا ، و لم الجلد والرجم ما دام سيدفع الثمن بالفضة ؟ وبماذا يصرح له يا ترى لو كان الدفع بالذهب ؟!

إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى لا يستطيعون أن يغمضوا أعينهم عن الذهب والفضة وإن إلههم يبهره الذهب والفضة . انظر إليه وهو يحدث موسى عليه السلام لما ذهب لميقات ربه :

« وكلم الرب موسى قائلا : كلم بنى إسرائيل أن يأخذوا لى تقدمة . من كل من يحثه قلبه تأخذون تقدمتى . وهذه هى التقدمة التى تأخذونها منهم : ذهب وفضة ونحاس وأسمانجونى وأرجوان وقرمز وبوص وشعر معزى وجلود كباش محمرة وجلود تُخس وخشب شنط وزيت للمنارة وأطياب لدهن المَسْحة وللبخور العطر وحجارة جزْع وحجارة ترصيع للرداء والصدرة ،

فيصنعون لى مَقدسا لأسكن فى وسطهم » .

ذهب وفضة ونحاس وأرجوان وقرمز وشعر وجلود . لماذا كل هذا ؟ ليصنعوا للرب مسكنا مقدسا ليسكن وسطهم وحدهم ، أما باقى العالم فما ضره لو عاش بلا إله . إنه إله بنى إسرائيل وحدهم . لهم تشرق الشمس ويتألق القمر وتنبت الأرض حبا وتمطر السماء ، أما باقى البشرية فهم عبيد لهم ، ليس لهم أن يسألوا الله أو يتوكلوا عليه ، فغرور الذين كتبوا التوراة فى المنفى أعماهم عن معرفة كنه الله سبحانه وتعالى وما قدروا الله حق قدره ، فبنوا له مسكنا ماديا ليعيش فى وسطهم سبحانه وتعالى عما يصفون . والآن لنر ذلك المسكن الذى بنوه لله : « بحسب جميع ما أنا أريك من مثال المسكن ومثال جميع آنيته هكذا تصنعون . فيصنعون تابوتا من خشب السنط طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف وارتفاعه ذراع ونصف وتغشّيه بذهب نقى . من داخل ومن خارج تُغشيه . وتصنع عليه إكليلا من ذهب حواليه . وتَسبك له أربع حلقات من ذهب وتجعلها على قوائمه الأربع . على جانبه الواحد حلقتان وعلى جانبه الثانى حلقتان . وتصنع عصوين من خشب السنط وتغشيهما بذهبٍ وتدخل العصوين فى الحلقات على جانبى التابوت ليحمل التابوت بهما . تبقى العصوان فى حلقات التابوت . لا تنزعان منها . وتضع فى التابوت الشهادة التى أعطيك .

وتصنع غطاء من ذهب نقى طوله ذراعان ونصف وعرضه ذراع ونصف ، وتصنع كَرُوبين من ذهب صنعة خراطة تضعهما على طرفى الغطاء . فاصنع كروبا واحدا على الطرف من هنا وكروبا آخر على الطرف من هناك . من الغطاء تضعون الكروبين على طرفيه ويكون الكروبان باسطين أجنحتهما إلى فوق مظللين بأجنحتهما على الغطاء ووجهاهما كل واحد إلى

الآخر . نحو الغطاء يكون وجها الكروبين ..

وأراه الله كيف يصنع مائدة من خشب السنط ، وكيف يصنع منارة من ذهب نقى ، وذكر له تفصيلات مهندس فى مصنع ، وإن المرء يتساءل أكان ذهاب موسى لميقات ربه ليسمع منه كيف يصنع تابوتا صنع آلافا مثله قدماء المصريين والآشوريين والبابليين ؟ وفيم كان حرص الإله على أن يكون كل شيء من الذهب ؟ إنه حرص الأذلاء الذين كانوا أسرى فى بابل يحلمون بالذهب ، وحاشا لله أن يكون هكذا ماديا كملوك الأرض يحتفل بالذهب وبالنقوش .

واستمر الله الذى تصوره كتبة التوراة يصف لموسى وهو يناجيه خلال الأربعين يوما كيف يصنع سرج المنارة السبعة من ذهب نقى ، وكيف الأوانى من وزنة ذهب نقى ، وكيف يصنع خيمة الاجتماع . ووصاه بأن يقرب أخاه إليه وبنيه معه من بين بنى إسرائيل ، وأن يصنع ثيابا مقدسة لهارون . وراح يصف فى إسهاب صفة الثياب المقدسة فهو إله مادى يهمه المظهر والذهب النقى ولا علاقة له بالقلوب ، ثم نصب ذاك الإله هارون ليكون كاهنا للرب وجعل هذه الكرامة وراثة فى بنيه ، ثم راح يصف ما يفعل بهم ليستحقوا الكهانة المقدسة : « وهذا ما تصنعه لهم لتقديسهم ليكهنوا لى : خذ ثورا واحدا ابن بقر ، وكبشين صحيحين ، وخبز فطير ، وأقراص فطير ملتوتة بزيت ، ورقاق فطير مدهونة بزيت ، من دقيق حنطة تصنعها وتجعلها فى سلة واحدة وتقدمها فى السلة مع الثور والكبشين .

وتُقدِّم هارون وبنيه إلى باب خيمة الاجتماع وتغسلهم بماء ، وتأخذ الثياب وتلبس هارون القميص وجبة الرداء والرداء والصدرة ، وتشده بزنار الرداء وتضع العمامة على رأسه وتجعل الإكليل المقدس على العمامة (الإكليل المقدس

من الذهب النقى) ، وتأخذ دهن المسحة وتسكبه على رأسه وتمسحه وتقدم بنيه وتلبسهم أقمصة ومنطقهم بمناطق هارون وبنيه ، وتشد لهم قلانس . فيكون لهم كهنوت فريضة أبدية ، وتملأ يد هارون وأيدى بنيه .

وتقدم الثور إلى قدام خيمة الاجتماع فيضع هارون وبنوه أيديهم على رأس الثور ، فتذبح الثور أمام الرب عند باب خيمة الاجتماع ، وتأخذ من دم الثور وتجعله على قرون المذبح بأصبعك ، وسائر الدم تصبه إلى أسفل المذبح ، وتأخذ كل الشحم الذى يغشى الجوف وزيادة الكبد والكليتين والشحم الذى عليهما وتوقدها على المذبح . وأما لحم الثور وجلده وفرثه فتحرقها بنار خارج المحلة هو ذبيحة خطية .

وأكتفى بهذا القدر ومن يشأ معرفة ما يجرى للكبش الأول والكبش الثانى وباقى المراسيم فليرجع إلى الإصحاح التاسع والعشرين من سفر الخروج .

ألا يذكرك ذلك بالزار ؟ أكان ذهاب موسى لميقات ربه ليسمع منه مثل هذا الكلام ؟ وهارون الذى نصبه الله كاهنا فى ذلك الوقت ماذا كان يصنع ؟ لنقرأ ما كتبه عنه الذين كتبوا التوراة فى المنفى : « ولما رأى الشعب أن موسى أبطأ فى النزول من الجبل اجتمع الشعب على هارون وقالوا له : قم اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ، لأن هذا موسى الرجل الذى أصعدنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه . فقال لهم هارون : انزعوا أقراط الذهب التى فى آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وأتونى بها . فنزع كل الشعب أقراط الذهب التى فى آذانهم وأتوا بها إلى هارون . فأخذ ذلك من أيديهم وصوره بالإزميل وصنعه عجلا مسبوكا . فقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر . فلما نظر هارون بنى مذبحا أمامه . ونادى هارون وقال : غدا عيد الرب . فبكروا فى الغد وأصعدوا محرقات وقدموا ذبائح سلامة . وجلس الشعب للأكل

والشرب ثم قاموا للعب » .

يقول الذين كتبوا التوراة فى المنفى إن هارون هو الذى صنع العجل ، فهل يا ترى نصبه الله كاهنا وجعل الكهانة فى بنيه إلى الأبد مكافأة له على أنه كان أول المشركين ؟! إنها صورة مهزوزة لا تقبل من قصاص فما بالك بأنبياء أحبهم اليهود حتى قالوا إن أحدهم ابن الله !

وقال الله فى محكم كتابه يروى ما كان من موسى وهارون ومن قوم موسى : « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين . ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين . وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها سأوريكم دار الفاسقين . سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية يؤمنوا بها وإن يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين . والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم هل يجزون إلا ما كانوا يعملون . واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا اتخذوه وكانوا ظالمين . ولما سُقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين . ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال بئسما خلفتمونى من بعدى أعجلتم أمر ربكم

وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه قال ابن أم إن القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . قال رب اغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين »(١) .

وبرأ القرآن الكريم هارون من صنع العجل ، فما كان لنبى أن يكون أول الكافرين : « فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعدا حسنا أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتم موعدى : قالوا ما أخلفنا موعدك بمَلكنا ولكنا حُملنا أوزارا من زينة القوم فقذفناها فكذلك ألقى السامرى . فأخرج لهم عجلا جسدا له خوار فقالوا هذا إلٰهكم وإله موسى فنسى . أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرا ولا نفعا . ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعونى وأطيعوا أمرى . قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى . قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا . ألا تتبعن أفعصيت أمرى ، قال يا ابن أمَّ لا تأخذ بلحيتى ولا برأسى إنى خشيت أن تقول فرقت بين بنى إسرائيل و لم ترقب قولى . قال فما خطبك يا سامرى . قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة منْ أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى . قال فاذهب فإن لك فى الحياة أن تقول لا مساس وإن لك موعدا لن تُخلفه وانظر إلى إلٰهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفا ، إنما إلٰهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علما »(٢) .

وهكذا صور القرآن ما جرى بين موسى عليه السلام وربه سبحانه وتعالى ، أدب فى الخطاب وإله غفور ونبى يلتمس المغفرة لنفسه ولأخيه ، وشعب يطلب رحمة ربه ، أما كتبة التوراة فقد جعلوا رب إسرائيل

---

(١) الأعراف ١٤٢ — ١٥١ .	(٢) طه ٨٦ — ٨٩ .

يثور فيؤنبه موسى على ثورته : « فقال الرب لموسى اذهب أنزل . لأنه قد فسد شعبك الذى أصعدته من أرض مصر . زاغوا سريعا عن الطريق الذى أوصيتهم به . صنعوا لهم عجلا مسبوكا وسجدوا له وذبحوا له وقالوا : هذه آلهتك يا إسرائيل التى أصعدتك من أرض مصر . وقال الرب لموسى : رأيت هذا الشعب وإذا هو شعب صلب الرقبة ، فالآن اتركنى ليحمى غضبى عليهم. وأفنيهم فأصيرك شعبا عظيما . فتضرع موسى أمام الرب إلٰهه وقال : لماذا يا رب يحمى غضبك على شعبك الذى أخرجته من أرض مصر بقوة عظيمة ويد شديدة ؟ لماذا يتكلم المصريون قائلين أخرجهم بخبث (حاشا لله) ليقتلهم فى الجبال ويفنيهم عن وجه الأرض . ارجع عن حُمو غضبك واندم (حاشا لله) على الشر بشعبك . اذكر إبراهيم وإسحاق وإسرائيل عبيدك الذين حلفت لهم بنفسك وقلت لهم : أُكثِّر لكم نسلكم كنجوم السماء ، وأعطى نسلكم كل هذه الأرض التى تكلمت عنها فيملكونها إلى الأبد . فندم الرب (حاشا لله) على الشر الذى قال إنه يفعله بشعبه » .

ولا بد أن نبرىء موسى عليه السلام من مثل هذا القول ، إنها أقوال أنبياء المنفى وأحلامهم فهم لا يفتئون يذكرون الوعد الذى اخترعوه ولا يكتفون بذلك بل يذكرون فى قحة رب العزة بذلك الوعد حتى يستقر ذلك الوهم فى وجدان كل من يقرأ التوراة . وقد صدق المسيحيون الذين يقرءون التوراة التى وضعت فى المنفى ذلك الزعم فما أجهدوا أنفسهم فى تمحيص تلك المزاعم ، وإن الذين أجهدوا أنفسهم قد كفروا بالدين وأنكروا وجود خالق لهذا الكون ، فالإلٰه الذى وصفه الذين كتبوا التوراة فى المنفى أهون من أن يخلق ، ما دام بشر مهما كانت منزلته يؤنبه ثم يهديه إلى سبيل الرشاد .

وكان حوار بين الرب وموسى عليه السلام ، الرب يأمر موسى أن

ينطلق إلى الأرض التى حلف لإبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيها لذريتهم ، ولكن الرب قرر أن لا ينطلق معهم ، فلما عرف القوم أن الله لن يكون معهم بكوا وكان حوار آخر بين الرب وموسى . وقبل الرب إكراما لموسى أن يسير مع بنى إسرائيل .

إن قارئ هذه الإصحاحات لا يمكن أن يتصور إلا أن الله سبحانه وتعالى رجل ، ففيها « ويكلم الرب موسى وجها لوجه كما يكلم الرجل صاحبه » . وفيها يقول الرب لموسى : « عرفتك باسمك » . « لأن الرب اسمه غيور . إله غيور هو » . وإن المرء ليتساءل : أأفعال بنى إسرائيل وعبادتهم العجل ونبى الله موسى لا يزال بينهم تستحق أن يعدهم الله أن يمنحهم أرض فلسطين إلى الأبد ؟ وماذا كان يعطيهم لو أنهم كانوا سامعين مطيعين ؟ إن ذلك الوعد لم يرد له ذكر فى القرآن المجيد ، فقد كان حلم اليهود الذين كانوا فى المنفى فدسه الذين كتبوا التوراة فى أرض السبى فى الإصحاحات والأسفار بمناسبة وبلا مناسبة لإيهام قارئ التوراة أنه وعد من الله ، وإن كثرة تكراره ليحمل فى طياته عوامل الشك فيه .

وقد ألبسوا موسى برقعا : « وكان لما نزل موسى من جبل سيناء ولوحا الشهادة في يد موسى عند نزوله من الجبل أن موسى لم يعلم أن جلد وجهه صار يلمع فى كلامه معه . فنظر هارون وجميع بنى إسرائيل موسى وإذا جلد وجهه يلمع فخافوا أن يقتربوا إليه . فدعاهم موسى فرجع إليه هارون وجميع الرؤساء فى الجماعة . فكلمهم موسى وبعد ذلك اقترب جميع بنى إسرائيل فأوصاهم بكل ما تكلم به الرب معه فى جبل سيناء . ولما فرغ موسى من الكلام معهم جعل على وجهه برقعا وكان موسى عند دخوله أمام الرب ليتكلم معه ينزع البرقع حتى يخرج ، ثم يخرج ويكلم بنى إسرائيل بما يوصى . فإذا رأى بنو

إسرائيل وجه موسى أن جلده يلمع كان موسى يرد البرقع على وجهه حتى يدخل ليتكلم معه » .

صورة حسية للتعبير عن أنوار اليقين ، ولما كانت جميع تعبيرات الذين كتبوا التوراة بأيديهم مادية فلم يخطر لهم على قلب أن يتغلغلوا فى الأفئدة للتعبير عن أنوار الإيمان التى تنعكس على الوجوه . وهل أنوار اليقين التى تشع من الوجوه تحتاج إلى برقع ؟! إنها أفكار رجال أفسدتهم أساطير الشعوب وما هى بوحى يوحى : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أويرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه علىّ حكيم »(١) .

ويعود رب الذين كتبوا التوراة بأيديهم يتحدث عن الفطير كأنما مشاكل الدنيا والآخرة فطير وخمير ، ثم يتحدث عن أيام العمل الستة ويوم السبت المقدس وأن جزاء من يعمل فيه يقتل ، وينهاهم عن إشعال النار فى يوم السبت دون أن يبين حكمة ذلك كما لم يبين ما يعود على البشرية جمعاء من شرور من وجود الخمير فى الدور !

وينتهى سفر الخروج ويذكر سفر اللاويين طريقة تقديم القرابين إلى الرب ، ومنها يتضح أنه إله دموى يسره رائحة الشواء : « ويذبح العجل أمام الرب ويقرب بنو هارون الكهنة الدم ويرشون الدم مستديرا على المذبح الذى لدى باب خيمة الاجتماع » .

ولا أدرى ماذا يحدث لو أن الدم لم يرش مستديرا ، وما حكمة رشه ؟ ثم يذكر الرب طريقة شواء كل قربان : « ويسلخ المحرقة ويقطعها إلى قطعها ، ويجعل بنو هارون الكاهن نارا على المذبح ويرتبون حطبا على النار ، ويرتب بنو هارون الكهنة القطع مع الرأس والشحم فوق الحطب الذى على النار التى على المذبح ، وأما أحشاؤه وأكارعه فيغسلها بماء ويوقد الكاهن الجميع على

---

(١) الشورى ٥١

المذبح مُحرقة وقود رائحة سرور للرب » .

وراح رب الذين كتبوا التوراة بأيديهم يذكر فى تفصيل عجيب ما يُفعل بقربان الغنم والضأن وما يُفعل بقربان الدقيق . وماذا يفعل إذا كان القربان تقدمة من طاحن . والمهم أن الباقى من كل قربان هو لهارون وبنيه قدس أقداس من وقائد الرب وليس لفقراء بنى إسرائيل . فما خطر فقراء بنى إسرائيل للذين كتبوا توراة المنفى على قلب .

ويسرد سفر اللاويين ما يفعله الذى يخطئ سهوا وما يفعله الذى يخطئ وكان رئيس عمل ، وما يفعله الخائن إذا خان للتكفير عن خطيئته . إنه يأتى بثور ويضع يده على رأسه . وفى حالة خطيئة الكاهن فإن عليه أن يقرب ثورا صحيحا للرب ويذبح الثور أمام الرب ، ويأخذ الكاهن الممسوح من دم الثور ويدخل به خيمة الاجتماع ويغمس الكاهن إصبعه فى الدم وينضح من الدم سبع مرات أمام الرب لدى حجاب القدس . ويجعل الكاهن من الدم على قرون مذبح البخور العطر الذى فى خيمة الاجتماع أمام الرب ، وسائر دم الثور يصبه إلى أسفل مذبح المحرقة الذى لدى باب خيمة الاجتماع وجميع شحم ثور الخطيئة ينزعه عنه .. » .

الدم لله واللحم لبنى هارون . نفس ما كان يفعله كهنة مردوخ فى أرض بابل ، لم تكن الصدقات للفقراء والمساكين بل كانت للكهنة الأغنياء . ولا شك أن بنى هارون كانوا أغنى طوائف بنى إسرائيل ، وإن الغنى لدليل رضا الله على عبده عند الذين كتبوا بأيديهم توراة المنفى .

ومن عجب أن جعلت الكفارة من اختصاص الكاهن ، فهو يكفر عن الخطيئة إذا ما قدم الخاطئ الذبيحة . فمن ذا الذى لا يقدم ذبيحة إذا ما كانت كفارة عن آثامه ، « ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم

ظالمون ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم.»(١) .

وأخذ الذين كتبوا التوراة بأيديهم فكرة النار الدائمة على المذبح من المجوس ، فقد احتل الإيرانيون العراق أيام أن كان اليهود فى أرض السبى . فالمجوس كانوا يبنون بيوتا للنار المقدسة وكان الهربذ وهو يقابل الكاهن فى الديانة اليهودية يقف وقد أخفى فمه برباط لكيلا تلوث أنفاسه النار ليغذى النار بقطع من الخشب طهرت تطهيرا دينيا ، مادا يده بحزمة الخشب المسوى والمهيأ طبقا لمراسم الدين ، مرتلا الأدعية الدينية . ووصايا رب الذين كتبوا التوراة بأيديهم لا تختلف عن تلك المراسم المتعلقة بشريعة المحرقة : « وكلم الرب موسى قائلا : أوص هارون وبنيه قائلا : هذه شريعة المحرقة ، هى المحرقة تكون على الموقدة فوق المذبح كل الليل حتى الصباح ، ونار المذبح تتقد عليه . ثم يلبس الكاهن ثوبه من كتان ويلبس سراويل من كتان على جسده ويرفع الرماد الذى صيرت النار المحرقة إياه على المذبح ويضعه بجانب المذبح ، ثم يخلع ثيابه ويلبس ثيابا أخرى ويخرج الرماد إلى خارج المحلة إلى مكان ظاهر والنار على المذبح تتقد عليه ولا تطفأ . ويشعل عليها الكاهن حطبا كل صباح ويرتب عليها المحرقة ويوقد عليها شحم ذبائح السلامة . نار دائمة تتقد على المذبح لا تطفأ » .

النار المقدسة عند المجوس تتأجج على الدوام ونار المحرقة تشتعل طوال الليل وطوال النهار . « نار دائمة تتقد على المذبح لا تطفأ » . ومن المؤكد أن الذين كتبوا التوراة فى المنفى أخذوا عن المجوس المراسيم الطويلة المعقدة ، فالأوستا

---

(١) آل عمران ١٢٨ ، ١٢٩ .

الساسانية تفيض بتفاصيل دقيقة عن المراسم المقدسة تكاد تكتم الأنفاس ضيقا بها ، وكذلك الحال مع توراة المنفى . وللفريسيين الذين ضاق السيد المسيح بتزمتهم كل العذر ما دام كتابهم المقدس قد نص على تفصيلات دقيقة عند عمل أى شيء و لم يترك فرصة للاجتهاد أو الاختيار : « ونيسرك لليسرى ، فذكر إن نفعت الذكرى »[١] . « قال رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى »[٢] .

ويستمر سِفر اللاويين يفصل ما يفعله الكاهن هارون وبنوه فى ضحايا التكفير عن الخطايا ، ثم يكلم الرب هارون : « وكلم الرب هارون قائلا : خمرا ومسكرا لا تشرب أنت وبنوك معك عند دخولكم إلى خيمة الاجتماع » . فحرم عليهم الخمر أثناء القيام بوظائفهم الدينية . أما بعيدا عن بيت الرب فلهم مطلق الحرية فى أن يسكروا .

وراح رب الذين كتبوا التوراة فى المنفى يعلم بنى إسرائيل شريعة الولادة : « وكلم الرب موسى قائلا : كلم بنى إسرائيل قائلا : إذا حبلت امرأة وولدت ذكرا تكون نجسة سبعة أيام . كما فى أيام طمث علتها تكون نجسة ، وفى اليوم الثامن يختن لحم غرلته ، ثم تقيم ثلاثة وثلاثين يوما فى دم تطهيرها . كل شيء مقدس لا تمس ، وإلى المقدس لا تجئ حتى تكمل أيام تطهيرها . وإن ولدت أنثى تكون نجسة أسبوعين كما فى طمثها ، ثم تقيم ستة وستين يوما فى دم تطهيرها » . لماذا هذا التفريق ؟ أولادة الذكر تختلف عن ولادة الأنثى ؟! أم أنها تجازى لأنها لم تنجب لبنى إسرائيل ذكرا محاربا مقاتلا يكون عونا لتنفيذ أحلام الذين كانوا فى المنفى ؟ « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا

---

(١) الأعلى ٨ ، ٩

(٢) طه ٢٥ ، ٢٩

وهو كظيم »[١] . « يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور »[٢] و لم يفرق الإسلام بين الذكر والأنثى فى العمل والأجر : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة »[٣] . وما بال كتاب توراة المنفى بالجنة ؟ إن جنتهم أرضية : العودة إلى الأرض التى زعموا أن الله قد وهبها لإبراهيم وإسحاق ويعقوب وذريته ، وحرم منها إسماعيل وذريته إكراما للذين جعلهم كتاب توراة المنفى يكفرون ورسول الله موسى عليه السلام فيهم !

ويستمر سفر اللاويين يحدد وظيفة الكاهن فى معاملة الأبرص ، ولا ينسى نصيب الكهنة من الأضاحى سواء أكانت ثيرانا أو كباشا أو معزا أو حتى عصافير فى كل عملية تطهير سواء أكانت تطهيرا من دنس أو نفاسة أو برص أو قرع .

ويتحدث سفر اللاويين عن الجماع : « وإذا حدث من رجل اضطجاع زرع يرحض كل جسده بماء ويكون نجسا إلى المساء » . ولماذا يكون نجسا ما دام قد تطهر ، ومتى يقوم بعبادته لله إذا كان سيستمر نجسا طوال النهار ؟! وإن حديثه عن المرأة فى المحيض يتسم بالقسوة ويدلل على شدة اهتمامه بالطهارة الخارجية ، الطهارة المادية ، أما طهارة النفس فلم يشغل رب الذين كتبوا التوراة نفسه بها ، فما أهميتها ما دامت السعادة كل السعادة فى حياتهم الأرضية : « وإذا كانت امرأة لها سيل وكان سيلها دما فى لحمها فسبعة أيام تكون فى طمثها وكل من مسها يكون نجسا إلى المساء . وكل ما تضطجع عليه

---

(١) النحل ٥٨

(٢) الشورى ٤٩ (٣) النساء ١٢٤ .

فى طمثها يكون نجسا . وكل ما تجلس عليه يكون نجسا . وكل من مس فراشها يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا حتى المساء ، وكل من مس متاعا تجلس عليه يغسل ثيابه ويستحم بماء ويكون نجسا إلى المساء . وإن كان على الفراش أو على المتاع الذى هى جالسة عليه عندما يمسه يكون نجسا إلى المساء . وإن اضطجع معها رجل فكان طمثها عليه يكون نجسا سبعة أيام ، وكل فراش يضطجع عليه يكون نجسا » .

أحكام قاسية دفعت ببنى إسرائيل إلى طرد المرأة خارج الدار ما دامت فى حيضها لكيلا يقعوا فى كل هذه المحظورات أو فى بعضها . وقد سمع المسلمون من بنى إسرائيل فى المدينة وهم يزعمون أنهم من نسل الكاهن هارون هذه الأحكام فسألوا رسول الله — ﷺ — عن المحيض فأنزل الله تعالى : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾(١) . وقالت اليهود للمسلمين : « إن الرجل إذا أتى امرأته باركة كان الولد أحول . فأنزل الله تعالى : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم وقدموا لأنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمنين ﴾(٢) .

وكان الذين كتبوا التوراة فى المنفى حريصين على أن تكون الذبائح كلها بيد الكهنة حتى يضمنوا نصيبهم ، فجعلوا رب موسى يقول : « وكلم الرب موسى قائلا : كلم هارون وبنيه وجميع بنى إسرائيل وقل لهم هذا هو الأمر الذى يوصى به الرب قائلا كل إنسان من بيت إسرائيل يذبح بقرا أو غنما

---

(١) البقرة ٢٢٢

(٢) البقرة ٢٢٣

أو معزى فى المحلة أو يذبح خارج المحلة . وإلى باب خيمةالاجتماع لا يأتى به ليقرب قربانا للرب أمام مسكن الرب يحسب على ذلك الإنسان دم . قد سفك دما فيقطع ذلك الإنسان من شعبه . لكى يأتى بنو إسرائيل بذبائحهم التى يذبحونها على وجه الصحراء ويقدموها للرب إلى باب خيمة الاجتماع إلى الكاهن ويذبحوها ذبائح سلامة للرب ، ويرش الكاهن الدم على مذبح الرب لدى باب خيمة الاجتماع ويوقد الشحم لرائحة سرور للرب .. » . وجعلوا الدم كفارة عن النفس « .. لأن نفس الجسد هى فى الدم ، فأنا أعطيتكم إياه على المذبح للتكفير عن نفوسكم ، لأن الدم يكفر عن النفس » . وإن القرآن الكريم يقرر حقيقة تستريح إليها النفوس : « لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم »[1] .

وأخيرا تذكر رب الذين كتبوا التوراة فى المنفى المساكين والغرباء : « وعندما تحصدون حصيد أرضكم لا تكمل زوايا حقلك فى الحصاد . ولقاط حصيدك لا تلتقط وكرمك لا تعلله ونثار كرمك لا تلتقط . للمسكين والغريب تتركه ، أنا الرب إلٰهكم » .

ويستمر سفر اللاويين فى ذكر محارم الرجل والأحكام التى تطبق على الزانى والزانية وعلى الذين يأتون الذكران شهوة ثم يقول رب الكهان : « وإذا جعل رجل مضجعه مع بهيمة فإنه يقتل والبهيمة تميتونها ، وإذا اقتربت امرأة إلى البهيمة لنزائها تميت المرأة والبهيمة . إنهما يقتلان . دمهما عليهما » .

وكان كهنة مردوخ فى بابل يحتِّمون أن تقدم القرابين لرب الأرباب كل صباح ومساء ، وكانت من لحوم البقر والخراف والبط والوز وكل ما لذ

---

(١) الحج ٣٧

وطاب . وقد أخذ عنهم الذين كتبوا التوراة فى المنفى فأسهبوا فى ذكر ما يقدم لرب إسرائيل من قرابين : « وكلم الرب موسى قائلا : أوصى بنى إسرائيل أن يقدموا إليك زيت زيتون مرضوض نقيا لإيقاد السرج دائما . خارج حجاب الشهادة فى خيمة الاجتماع يرتبها هارون من المساء إلى الصباح أمام الرب دائما فريضة دهرية فى أجيالكم . على المنارة الطاهرة يرتب السرج أمام الرب دائما .

وتأخذ دقيقا وتخبزه اثنى عشر قرصا . عُشْرَين يكون القرص الواحد وتجعلها صفين كل صف ستة على المائدة الطاهرة أمام الرب ، وتجعل على كل صف لبانا نقيا فيكون للخبز تذكارا وقودا للرب . فى كل يوم سبت يرتبه أمام الرب دائما من عند بني إسرائيل ميثاقا دهريا . فيكون لهارون وبنيه فيأكلونه فى مكان مقدس ، لأنه قدس أقداس له من وقائد الرب فريضة دهرية » .

وللأسف عندما ترجمت التوراة إلى العربية ظن المسلمون بحسن قصد أن التوراة التى كتبت فى المنفى هى الكتاب الأول فأخذوا عنها دون تمحيص أو مقارنة بينها وبين أحكام القرآن ، فأخذوا عادة إنارة الشموع فى الأضرحة أسوة بزيت الزيتون المقدس الذى كان يضاء للرب ، كأن الرب نور السموات والأرض فى حاجة إلى ضياء زيت الزيتون النقى ، إنها عادة مجوسية انتقلت إلى بنى إسرائيل فى المنفى ثم انتقلت إلى المسلمين البسطاء الذين نذروا الشموع لأولياء الله الصالحين دون أن يخطر لهم على بال أن ما يفعلونه إن هو إلا ضرب من الوثنية .

وقد مزج الذين كتبوا التوراة فى المنفى بين قرابين البابليين وقرابين قدماء المصريين ، وقد عاش بنو إسرائيل فى مصر والعراق وتأثروا بديانة كل من القطرين . ففى مصر القديمة كان يوضع على موائد القربان فى كل يوم من أيام

السنة وبانتظام ٣٢٢٠ رغيفا من الخبز و ٢٤ قطعة من الكعك و ١٤٤ قدرا من الجعة و ٣٢ إوزة وبضعة قدور من النبيذ . وكانت هذه القرابين هدايا من أناس خيرين ثم أصبحت واجبا تقوم به الدولة ، وكانت هذه القرابين لإعانة الكهنة وخدمة المعبد ، وهى فى الشريعة اليهودية لإعانة الكهنة وخدمة خيمة الاجتماع . ولم تقل الشريعة ذلك صراحة بل جعلت القرابين فى بنى إسرائيل واجبا مقدسا أبدا .

ولم يلجأ رب الذين كتبوا التوراة فى المنفى إلى وعيد الذين لا ينفذون وصاياه بنار جهنم فقد نسوا الآخرة من طول معاشرتهم لأهل بابل ، بل جعل عذابه فى الدنيا « .. لكن إن لم تسمعوا لى ولم تعملوا كل هذه الوصايا . وإن رفضتم فرائضى وكرهت أنفسكم أحكامى فما عملتم كل وصاياى بل نكثتم ميثاق ، فإنى أعمل هذه بكم : أسلط عليكم رعبا وسيلا وحمى تفنى العينين وتتلف النفس وتزرعون باطلا زرعكم فيأكله أعداؤكم . وأجعل وجهى ضدكم فتنهزمون أمام أعدائكم ويتسلط عليكم مبغضوكم وتهربون وليس من يطردكم .

وإن كنتم مع ذلك لا تسمعون لى أزيد على تأديبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم . فأحطم فخار عزكم وأصير سماءكم كالحديد وأرضكم كالنحاس ، فتفرغ باطلا قوتكم وأرضكم لا تعطى غلتها وأشجار الأرض لا تعطى أثمارها .

وإن سلكتم معى بالخلاف ولم تشاءوا أن تسمعوا لى أزيد عليكم ضربات سبعة أضعاف حسب خطاياكم . أطلق عليكم وحوش البرية فتعدمكم الأولاد وتقرض بهائمكم وتقللكم فتوحش طرقكم .

وإن لم تتأدبوا منى بذلك بل سلكتم معى بالخلاف ، فإنى أنا أسلك معكم

بالخلاف وأضربكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم أجلب عليكم سيفا ينتقم نقمة الميثاق فيجتمعون إلى مدنهم وأرسل فى وسطكم الوبأ فتُدفعون بيد العدو . بكسرى لكم عصا الخبز تخبز عشر نساء خبزكم فى تنور واحد ويرددن خبزكم بالوزن فتأكلون ولا تشبعون .

وإن كنتم بذلك لا تسمعون لى ، بل سلكتم معى بالخلاف ، فأنا أسلك معكم بالخلاف ساخطا وأؤدبكم سبعة أضعاف حسب خطاياكم . فتأكلون لحم بنيكم ولحم بناتكم تأكلون . وأخرب مرتفعاتكم وأقطع شمساتكم وألقى جثثكم على جثث أصنامكم وترذلكم نفسى . وأصير مدنكم خربة ومقادسكم موحشة ولا أشتم رائحة سروركم وأوحش الأرض فتوحش منها أعداؤكم الساكنون فيها وأذريكم بين الأمم وأجرد وراءكم السيف فتصير أرضكم موحشة ومدنكم تصير خرابة . حينئذ تستوفى الأرض سبوعها كل أيام وحشتها وأنتم فى أرض أعدائكم . حينئذ تسبت الأرض وتستوفى سبوعها . كل أيام وحشتها تسبت ما لم تسبته من سبوتكم فى سكنكم عليها . والباقية منكم ألقى الجبانة فى قلوبهم فى أراضى أعدائهم فيهزمهم صوت ورقة مندفعة فيهربون كالهرب من السيف ويسقطون وليس طارد . ويعثر بعضكم ببعض كما من أمام السيف وليس طارد . ولا يكون لكم قيام أمام أعدائكم . فتهلكون بين الشعوب وتأكلكم أرض أعدائكم والباقون منكم يفنون بذنوبهم فى أراضى أعدائكم . وأيضا بذنوب آبائهم يفنون . ولكن إن أقروا بذنوبهم وذنوب آبائهم فى خيانتهم التى خانونى بها وسلوكهم معى الذى سلكوا بالخلاف وإنى أيضا سلكت معهم بالخلاف وأتيت بهم إلى أرض أعدائهم إلا أن تخضع حينئذ قلوبهم الغلف ويستوفوا حينئذ عن ذنوبهم . أذكر ميثاق مع يعقوب أذكر أيضا ميثاق مع إسحاق وميثاق مع إبراهيم وأذكر

الأرض والأرض تترك منهم وتستوفى سبوعها فى وحشتها منهم وهم يستوفون عن ذنوبهم لأنهم قد أبوا أحكامى وكرهت أنفسهم فرائضى ولكن مع ذلك أيضا متى كانوا فى أرض أعدائهم ما أبيتهم ولا كرهتهم حتى أبيدهم وأنكث ميثاق معهم ، لأنى أنا الرب إلـٰههم ، بل أذكر لهم الميثاق مع الأولين الذين أخرجتهم من أرض مصر أمام أعين الشعوب لأكون لهم إلـٰها . أنا الرب .

هذه هى الفرائض والأحكام والشرائع التى وضعها الرب بينه وبين بنى إسرائيل فى جبل سيناء بيد موسى » .

هكذا يقول الذين كتبوا التوراة فى المنفى ، والحقيقة أنهم كانوا يصورون حالتهم وهم أذلة فى أرض السبى . إنهم كانوا يعتقدون أن ما نزل بهم من عار إنما سببه أنهم عصوا أوامر الله ، ولما كانوا يؤمنون بالجزاء الأرضى فقد جعلوا وعيد الله كله فى الدنيا وليس من المقبول ولا المعقول أن رب موسى لا يذكر الآخرة ويوم الحساب ، ورب عيسى عليه السلام يذكر يوم الدين وجنات النعيم : « وقال المسيح يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار »[1] . « ... من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب . ويا قوم ما لى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار . تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لى به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أنما تدعوننى إليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى إلى الله إن الله بصير بالعباد . فوقاه الله سيئات ما

---

(١) المائدة ٧٢

مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يعرضون عليها غدوّا وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب »[١] . « ولقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وإنهم لفى شك منه مريب »[٢] . « ولما سكت عن موسى الغضب أخذ الألواح وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون ، واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين ، واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة إنَّا هدنا إليك قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون »[٣] .

ما من رسول إلا ودعا قومه إلى عبادة الله وحده والإيمان بالبعث والنشور واليوم الآخر ، فعيسى عليه السلام دعا فى الإنجيل بنى إسرائيل إلى الإيمان بالله ويوم الدين ، والقرآن يؤكد أن موسى عليه السلام دعا بنى إسرائيل إلى الإيمان بالله وخوفهم نار جهنم وبشرهم بالجنة التى أعدت للمتقين . فهل يعقل أن رب بنى إسرائيل لم يذكر الثواب والعقاب فى الآخرة لما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه ؟ « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين »[٤] .

ويأتى بعد ذلك سفر العدد وفيه يأمر الله موسى بأن يحصى كل جماعة بنى

---

(١) غافر ٤٠ — ٤٦

(٢) الشورى ١٤ .

(٣) الأعراف ١٥٤ — ١٥٦

(٤) الجمعة ٥ .

إسرائيل بعشائرهم وبيوت آبائهم ، والإحصاء مقصور على الرجال الذين بلغوا العشرين فصاعدا للخروج للحرب ، وحتى لا يغفل موسى عليه السلام عن بيت من بيوت أسباط بنى إسرائيل يحدد الله رأس كل بيت . وعدّ موسى عليه السلام وهارون ورؤساء إسرائيل الاثنا عشر رجلا الرجال الذين بلغوا العشرين فكانوا ستمائة ألف وثلاثة آلاف وخمسمائة وخمسين . وقد جامل رب الذين كتبوا التوراة سبط لاوى لأن موسى وهارون منهم ، قال : « أما سبط لاوى فلا تحسبه ولا تعده بين بنى إسرائيل ، بل وَكّل اللاويين على مسكن الشهادة وعلى جميع أمتعته وعلى كل ماله . هم يحملون المسكن وكل أمتعته وهم يخدمونه وحول المسكن ينزلون ، فعند ارتحال المسكن يُنزّله اللاويون ، وعند نزول المسكن يقيمه اللاويون . والأجنبى الذى يقترب يقتل وينزل بنو إسرائيل كلّ فى محلته وكل عند رايته بأجنادهم . وأما اللاويون فينزلون حول مسكن الشهادة لكى لا يكون سخط على جماعة بنى إسرائيل فيحفظ اللاويون شعائر مسكن الشهادة . ففعل بنو إسرائيل حسب كل ما أمر الرب موسى . كذلك فعلوا » .

وهذا الإصحاح قد أعفى اللاويين من الحرب وخصصهم خيمة الاجتماع ، ولم يشرع القرآن مثل هذا الشرع فلم يعف قريشا ولا الهاشميين من الحرب لأنهم خدمة بيت الله . بل إن قريشا والهاشميين كانوا على الدوام فى صفوف المقاتلين لإعلاء كلمة الدين ، فالحرب المقدسة جهاد والشهداء فى عليين ، وما خطر ذلك على قلب الذين كتبوا توراة فقد أسقطوا جزاء الآخرة من حسابهم .

وراحت إصحاحات العدد تسرد مواليد هارون وموسى يوم كلم الرب موسى فى برية سيناء : « عد بنى لاوى حسب بيوت آبائهم وعشائرهم . كل

ذكر من ابن شهر فصاعدا تعدهم ، فعدهم موسى حسب قول الرب كما أمر »
وأخذ الرب اللاويين له و لم يفرق بين صالح وطالح ، وما كانت العدالة الإلهية لتصطفى طبقة بالميراث : « وإذ ابتلى إبراهيمَ ربُّه بكلمات فأتمهن قال : إنى جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين »(١) .

وكلم الرب موسى قائلا : « كلم بنى إسرائيل وقل لهم إذا زاغت امرأة رجل وخانته خيانة واضطجع معها رجل اضطجاع زرع ، وأخفى ذلك عن عينى رجلها واستترت وهى نجسة وليس شاهد عليها وهى لم تؤخذ ، فاعتراه روح الغيرة وغار على امرأته وهى نجسة أو اعتراه روح الغيرة وغار على امرأته وهى ليست نجسة ، يأتى الرجل وامرأته إلى الكاهن ويأتى بقربانها معها عُشر الإيفة من طحين شعير لا يصب عليه زيتا ولا يجعل عليه لبانا لأنه تقدمة غيرة وتقدمة تذكار تذكر ذنبا . فيقدمها الكاهن ويوقفها أمام الرب . ويأخذ الكاهن ماء مقدسا فى إناء خزف ويأخذ الكاهن من الغبار الذى فى أرض المسكن ويجعل فى الماء . ويوقف الكاهن المرأة أمام الرب ويكشف رأس المرأة ويجعل فى يديها تقدمة التذكار التى هى تقدمة الغيرة وفى يد الكاهن يكون ماء اللعنة المر . ويستحلف الكاهن المرأة ويقول لها : إن كان لم يضطجع معك رجل وإن كنت لم تزيغى إلى نجاسة من تحت رجلك فكونى بريئة من ماء اللعنة هذا المر ، ولكن إن كنت قد زغت من تحت رجُلك ونجست وجعل معك رجل غير رجُلك مضجَعة . يستحلف الكاهن المرأة بحلف اللعنة ويقول الكاهن للمرأة: يجعلك الرب لعنة وحلفا بين شعبك بأن يجعل الرب فخذك ساقطة وبطنك وارما . ويدخل ماء اللعنة هذا فى أحشائك لورم البطن

---

(١) البقرة ١٢٤

ولإسقاط الفخذ . فتقول المرأة : آمين .. آمين . ويكتب الكاهن هذه اللعنات فى كتاب ثم يمحوها فى الماء المر . ويسقى المرأة ماء اللعنة المر فيدخل فيها ماء اللعنة للمرارة . ويأخذ الكاهن من يد المرأة تقدمة الغيرة ويردد التقدمة أمام الرب ويقدمها إلى المذبح . ويقبض الكاهن من التقدمة تذكارها ويوقده على المذبح وبعد ذلك يسقى المرأة الماء . ومتى سقاها الماء فإن كانت قد تنجست وخانت رجلها يدخل فيها ماء اللعنة للمرارة فيرم بطنها ويسقط فخذها فتصير المرأة لعنة فى وسط شعبها . وإن لم تكن المرأة قد تنجست بل كانت طاهرة تتبرأ أو تحبل بزرع .

هذه شريعة الغيرة : « إذا زاغت امرأة من تحت رجلها وتنجست أو إذا اعترى رجلا روح غيرة فغار على امرأته يوقف المرأة أمام الرب ويعمل لها الكاهن كل هذه الشريعة فيتبرأ الرجل من الذنب وتلك المرأة تحمل ذنبها » .

كان البابليون إذا ما شكوا فى أن المرأة قد زنت يلقونها فى النهر ، فإذا كانت قد ارتكبت جريمة الزنا فالنهر يبتلعها ، وإذا كانت بريئة فإن النهر يلفظها ، وقد أخذ كتاب التوراة فى المنفى الفكرة وطوروها بما فيه مصلحة الكاهن ، وحاشا لله أن يكون ذلك كلامه . إن الله سبحانه وتعالى يقول فى محكم كتابه : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ، إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم . والذين يرمون أزواجهم و لم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين . والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ويدرأ عنها العذاب أن تشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين . والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴾[1] . ولا يعرف الإسلام مؤاخذة الناس على الظن . بل إنه يعتبر

---

(١) النور ٤ ــ ٩

أن بعض الظن إثم ولن يفر أحد من قصاص الله إن أخطأ و لم ينل العذاب فى الدنيا ، فعذاب الآخرة يتربص به . أما فى شرائع الغيرة التى وضعها حكماء صهيون فى أرض المنفى فإن من يهرب من عذاب الدنيا فلا خوف عليه من عذاب الآخرة ، فإنه بعد أن يموت لن يبعث وسيذهب إلى « شول » الأرض التى لا رجعة منها .

وراح رب الذين كتبوا التوراة فى المنفى يشرح لموسى شريعة النذير : « وهذه شريعة النذير يوم تكمل أيام انتذاره يؤتى به إلى باب خيمة الاجتماع فيقرب قربانه للرب خروفا واحدا حوليا صحيحا مُحرقة ، ونعجة واحدة حولية صحيحة ذبيحة خطية ، وكبشا وادا صحيحا ذبيحة سلامة ، وسل فطير من دقيق أقراصا ملتوتة بزيت رقاق فطير مدهونة بزيت مع تقدمتها وسكائبها ، فيقدمها الكاهن أمام الرب ويعمل ذبيحة خطيَّته ومُحرقته . والكبش يعمله ذبيحة سلامة للرب مع سل الفطير ، ويعمل الكاهن تقدمته وسكينته ، ويحلق النذير لدى باب خيمة الاجتماع رأس انتذاره ويأخذ شعر رأس انتذاره ويجعله على النار التى تحت ذبيحة السلامة . ويأخذ الكاهن الساعد مسلوقا من الكبش وقرص فطير واحدا من السل ورقاقة فطير واحدة ويجعلها فى يدى النذير بعد حلقه شعر انتذاره ويرددها الكاهن ترديدا أمام الرب . إنه قدس للكاهن مع صدر الترديد وساق الرفيعة ، وبعد ذلك يشرب النذير خمرا » .

هذه شريعة النذير الذى ينذر قربانه للرب عن انتذاره فضلا عما تنال يده حسب نذره الذى نذر كذلك يعمل حسب شريعة انتذاره .

وكلم الرب موسى قائلا : « كلم هارون وبنيه قائلا : هكذا تباركون بنى إسرائيل قائلين لهم : يباركك الرب ويحرسك ، يضئ الرب بوجهه عليك

ويرحمك . يرفع الله وجهه عليك ويمنحه سلاما ، فيجعلون اسمى على بنى إسرائيل وأنا أباركهم » .

أيسمح الرب بشرب الخمر على باب خيمة الاجتماع . على باب بيته ولماذا حرم شرب الخمر داخل خيمة الاجتماع ؟ إذا كانت الخمر رجسا من عمل الشيطان فكيف يفرق إله بين شربها فى بيته وشربها على باب بيته ؟ ! والذبائح والفطائر ماذا يفعل بها الإله ؟ إن الأصل فى الذبيحة أن تكون وسيلة للتوسعة على الفقراء فإذا بها تنقلب فى شرع الذين كتبوا التوراة فى المنفى إلى توسعة على الكهنة وقد كان فيهم كهنة من نسل هارون ، وقد جعلوه الكاهن الأول ليكون لهم حق ممارسة الكهانة بالوراثة لينالوا خير الدنيا ، وقد تأثر كثير من كتاب المسلمين عقب ترجمة التوراة إلى العربية بتلك المزاعم فقالوا دون دراسة أو تمحيص إن اليهود الذين كانوا فى يثرب وخيبر وتيماء من نسل هارون الكاهن ، و لم يرجعوا إلى القرآن الكريم ليروا مكانة هارون الحقيقية فى أيام موسى كليم الله ، وهل اعترف كتاب الله بهذه الكهانة التى افتراها بعض أحبار اليهود ؟ لقد كان الإسلام هو الدين الذى يدعو إليه جميع الأنبياء و لم يجعل الله لطبقة دون طبقة من البشر حق ممارسة شعائر الدين باسمه ، فليس من الدين فى شيء أن يكتسب أناس رزقهم باسم الدين . ولو كان ذلك مما شرع الله لكان أولى الناس بالاكتساب من ممارسة الشعائر الدينية أبو بكر الصديق خليفة رسول الله — ﷺ — والخلفاء الراشدون من بعده ، ولكنهم أبوا أن يأخذوا من بيت مال المسلمين شيئا إلا كسوة للشتاء وكسوة للصيف وما يطعم منه أوساط المسلمين . و لم يكن ذلك لقاء قيامهم بشعائر الدين بل لأنهم انقطعوا عن العمل ليسوسوا أمور المسلمين وليحكموا بينهم بما أنزل الله .

ويستمر سفر العدد يروى ألوان القرابين التى تقدم على مذبح الرب ،

أطباقا من فضة وزن الواحد منها ١٣٠ شاقلا من فضة ، وصحونا من ذهب وزن الواحد منها عشرة شواقل من ذهب ، وثيران وأبقار وكباش لعل ذلك يغرى المؤمنين على تقديم مثلها للكهنة من بنى هارون ، وكما هى عادة البشر جاء موسى عليه السلام بالرسالة وتاجر بالرسالة بنو هارون أو الذين زعموا أنهم من نسل هارون .

« وكلم الرب موسى قائلا : اصنع لك بوقين من فضة مسحولين تعملهما فيكونان لك لمناداة الجماعة ولارتحال المحلات ، فإذا ضربوا بها يجتمع إليك كل الجماعة إلى باب خيمة الاجتماع ، وإذا ضربوا بواحد يجتمع إليك رءوس ألوف إسرائيل ، وإذا ضربتم هتافا ترتحل المحلات النازلة إلى الشرق وإذا ضربتم هتافا ثانية ترتحل المحلات النازلة إلى الجنوب . هتافا يضربون لرحلاتهم . وأما عندما تجمعون الجماعة فتضربون ولا تهتفون . وبنو هارون الكهنة يضربون بالأبواق ، فتكون لكم فريضة أبدية فى أجيالكم. وإذا ذهبتم إلى حرب فى أرضكم على عدو يضربكم تهتفون بالأبواق فتذكرون أمام الرب إلهكم وتخلصون من أعدائكم ، وفى يوم فرحكم وفى أعيادكم ورءوس شهوركم تضربون بالأبواق على محرقاتكم وذبائح سلامتكم فتكون لكم تذكارا أمام إلهكم . أنا الرب إلهكم » .

ما من شيء رآه بنو إسرائيل فى مصر الفرعونية أو فى بابل أو فى أرض كنعان إلا وقد جعله الذين كتبوا التوراة فى المنفى وصية من الله إلى شعبه المختار . إن النفخ فى البوق لجمع الجيوش أو لتحريكها كان أمرا معروفا فى الأسرات الفرعونية التى سبقت ورود يوسف الصديق إلى مصر ، ولكن الذين سلبوا ثقافة الشعوب الذين نزلوا بين ظهرانيها أبوا إلا أن يجعلوا حتى النفخ فى البوق منحة إلهية لبنى إسرائيل ، وجعلوا الله — سبحانه وتعالى علوا كبيرا عما

يصفون ــ يهتم بصغائر الأمور . إنه سبحانه وتعالى يأمر موسى عليه السلام ليصنع لنفسه بوقين من فضة ــ وماذا كان يحدث لو أن البوقين كانا من أى معدن آخر ؟ ــ لمناداة الجماعة ولارتحال المحلات . أكان هذا شيئا جديدا حتى يستحق أن يوصى به رب بنى إسرائيل شعبه ؟ إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى عز عليهم أن يدعوا فضلا لأحد من كلاب البشرية ممن كانوا أكثر حضارة منهم ، فزعموا أن الله شرع لهم كل شيء حتى التافه من الأمور ليدخلوا فى روع أنفسهم قبل أن يدخلوا فى روع الناس أن الله فضلهم على العالمين ، وقد كانوا فى حاجة إلى ذلك الوهم فقد كانوا أسرى أذلاء يتطلعون إلى العودة إلى فلسطين .

جاء فى القرآن الكريم : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأنى فضلتكم على العالمين »(١) . وقد كان ذلك التفضيل يوم أن كانوا سامعين ومطيعين وفضلهم على العالمين بأن بعثهم من بعد موتهم لعلهم يشكرون ، أما وقد طال عليهم العهد ونسوا ما شرع الله لهم ثم أخذوا شرائع الشعوب وقالوا إن ذلك من عند الله ، فلا فضل ولا تفضيل . « فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون »(٢) .

وجاء فى القرآن الكريم فى شأن المسلمين : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون »(٣) . أما وأن المسلمين لا

---

(١) البقر ٤٧ (٢) البقرة ٥٩

(٣) آل عمران ١١٠

يأمرون بالمعروف ولا ينهون عن المنكر ولا يؤمنون بالله أو يؤمنون وهم على ضلالتهم يحافظون فلا فضل ولا تفضيل : « تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين »[1] .

وجعل الذين كتبوا التوراة فى المنفى الرب ينزل فى عمود من سحاب ويصعد فى عمود من سحاب ، فحدّدوا للرب مكانا ، ومن قبل جعلوه يمشى فى الجنة ، بل جعلوه فى بعض الأحيان لا يسمع نجواهم : « وكان الشعب كأنهم يشتكون شرا فى أذنى الرب » . بل إنهم جعلوا يعقوب (إسرائيل) يصارع الرب كما صارع مردوخ الأرباب قبل أن ينصَّب عليهم ربا للأرباب ، وكأنما كان الرب خطيبا يخاطب كل شعب إسرائيل .

وما أكثر ما حمى غضب الرب ونزل فى سحابة ليوبخ الذين حل عليهم غضبه : « وتكلمت مريم وهارون على موسى بسبب المرأة الكوشية التى اتخذها ، لأنه كان قد اتخذ امرأة كوشية ، فقالا : هل كلم الرب موسى وحده ؟ ألم يكلمنا نحن أيضا ؟ فسمع الرب ، وأما الرجل موسى فكان حليما جدا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض .

فقال الرب حالا لموسى وهارون ومريم : اخرجوا أنتم الثلاثة إلى خيمة الاجتماع . فخرجوا هم الثلاثة . فنزل الرب فى عمود سحاب ووقف فى باب الخيمة ودعا هارون ومريم فخرجا كلاهما . فقال اسمعا كلامى . إن كان منكم نبى للرب فبالرؤيا أستعلن له فى الحلم أكلمه . أما عبدى موسى فليس هكذا بل هو أمين فى كل بيتى . فما إلى فم وعيانا أتكلم معه لا بالألغاز . وشبه الرب يعاين ، فلماذا لا تخشيان أن تتكلما على عبدى موسى .

---

(١) آل عمران ١٠٨

فحمى غضب الرب عليهما ومضى . فلما ارتفعت السحابة عن الخيمة إذا مريم برصاء كالثلج ... » .

والقرآن الكريم لا يؤيد دعوى أن الله كان يكلم موسى كما يكلم الصديق وأنه كان يراه سبحانه وهو يكلمه . والقرآن يقول : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم . وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ألا إلى الله تصير الأمور »(١) .

وقد يحتج بآية : « وكلم الله موسى تكليما »(٢) . فإن ذلك الكلام من وراء حجاب والدليل على ذلك الآيات التى طلب فيها موسى أن يرى الله جهرة : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين . قال يا موسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين »(٣) . فما دامت الرؤية قد تعذرت فكيف كان يكلم الله فَما إلى فم وكيف رأى الله عيانا ؟ إن الله كلم موسى تكليما من وراء حجاب . أما نزول الله فى السحاب وصعوده سبحانه وتعالى فى السحاب فهو تصور قاصر لله ، فالله فى كل مكان ، فإذا تصورنا أنه يصعد ويهبط فقد جعلنا

---

(١) الشورى ٥١ — ٥٣

(٢) النساء ١٦٤ (٣) الأعراف ١٤٣ — ١٤٤

له مكانا وما قدرنا الله حق قدره .

وقد سخر القرآن الكريم من فكرة مجيء الله فى ظلل من الغمام : « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور »[1] .

وعاد الذين كتبوا التوراة فى المنفى يؤكدون وعد الله بأن يعطى بنى إسرائيل أرض فلسطين وإن كان ما فعلوه مع الله حسب ما يقول كتاب التوراة الجديدة يستحق أن ينزل بهم أشد أنواع العذاب لا أن يعطيهم أرضا لا حق لهم فيها . ولكنها أهواء أبناء الذين حملهم بختنصر إلى أرض العراق بعد أن حرق التوراة التى أنزلها الله على موسى نورا وهدى لبنى إسرائيل . « ثم كلم الرب موسى قائلا : أرسل رجالا ليتجسسوا أرض كنعان التى أنا معطيها لبنى إسرائيل . رجلا واحدا لكل سبط من آبائه ترسلون . كل واحد رئيس فيهم . فأرسلهم موسى من برية فاران حسب قول الرب . كلهم رجال هم رؤساء بنى إسرائيل .

فأرسلهم موسى ليتجسسوا أرض كنعان وقال لهم : اصعدوا من هنا إلى الجنوب واطلعوا إلى الجبل وانظروا الأرض ما هى ، والشعب الساكن فيها أقوى هو أم ضعيف ؟ قليل أم كثير ؟ وكيف هى الأرض التى هو ساكن فيها أجيدة أم رديئة . وما هى المدن التى هو ساكن فيها أخيمات أم حصون ؟ . وكيف هى الأرض أسمينة أم هزيلة ؟ أفيها شجر أم لا ؟ وتشددوا فخذوا من ثمر الأرض وأما الأيام فكانت أيام العنب » .

أليس غريبا أن يأمر الرب موسى أن يرسل رجالا ليتجسسوا أرض كنعان

---

(١) البقرة ٢١٠

ليعرفوا إذا كانت أرضا طيبة مثمرة أو كانت أرضا بورا ؟ إن إبراهيم وذريته كانوا فى حبرون وكانوا فى أرض فلسطين قبل أن يهبط يعقوب وذريته مصر فى عهد يوسف الصديق ، فإن كان الله لا يعلم — وحاشا لله أن لا يعلم — طبيعة أرض فلسطين ، فإن الآباء لا بد أن يكونوا قد أخبروا الأبناء بطبيعة الأرض التى مروا بها ، وإلا فيم كان وعد الله ولماذا يتهلل بنو إسرائيل بالفرح بذلك الوعد إن كانوا لا يعرفون إن كانت أرض المعاد جيدة أو رديئة ؟! إن هذه التوراة قد كتبت بعد موسى عليه السلام بخمسمائة سنة تقريبا بعد أن كون داود وسليمان ملك بنى إسرائيل ودمر بختنصر ذلك الملك وحمل اليهود أسرى إلى أرض السبى ، فراح أبناء الذين كانوا أسرى فى العراق يعيدون كتابة التوراة ، فخرجوا ما وقر فى أذهانهم من ديانة موسى ومزجوها بأحلامهم وأساطير الشعوب .

وعاد الذين ذهبوا ليتجسسوا أرض كنعان إلى موسى وهارون وشيوخ بنى إسرائيل وهم يرتعبون فرقا من قوة خصومهم وأشاعوا روح الهزيمة فى الشعب : « فرفعت كل الجماعة صوتها وصرخت وبكى الشعب تلك الليلة ، وتذمر على موسى وهارون جميع بنى إسرائيل وقال لهما كل الجماعة : ليتنا متنا فى أرض مصر أو ليتنا متنا فى هذا القفر . ولماذا أتى بنا الرب إلى هذه الأرض لنسقط بالسيف . تصير نساؤنا وأطفالنا غنيمة . أليس خيرا لنا أن نرجع إلى مصر ؟ فقال بعضهم لبعض : نقيم رئيسا ونرجع إلى مصر .

فسقط موسى وهارون على وجهيهما أمام كل معشر جماعة بنى إسرائيل . ويشوع بن نون وكالب بن يفُنَّة من الذين تجسسوا الأرض فمزقا ثيابهما . وكَلَّما كل جماعة بنى إسرائيل قائلين : الأرض التى مررنا فيها لنتجسسها الأرض جيدة جدا جدا . إن سُر بنا الرب يدخلنا إلى هذه الأرض ويعطينا إياها

أرضا تفيض لبنا وعسلا .. إنما لا تتمردوا على الرب ولا تخافوا من شعب الأرض لأنهم خبزنا . قد زال عنهم ظلهم والرب معنا . لا تخافوهم .

ولكن قال كل الجماعة أن يُرجما بالحجارة (موسى وهارون) ثم ظهر مجد الرب فى خيمة الاجتماع لكل بنى إسرائيل . وقال الرب لموسى : حتى متى يهيننى هذا الشعب ، وحتى متى لا يصدقوننى بجميع الآيات التى عملت فى وسطهم ؟ إنى أضربهم بالوباء وأبيدهم وأصيرك شعبا أكبر وأعظم منهم . فقال موسى للرب : فيسمع المصريون الذين أصعدت بقوتكم هذا الشعب من وسطهم ، ويقولون لسكان هذه الأرض الذين قد سمعوا أنك يا رب فى وسط هذا الشعب الذى أنت يا رب قد ظهرت لهم عينا لعين وسحابتك واقفة عليهم وأنت سائر أمامهم بعمود سحاب نهارا وبعمود نار ليلا . فإن قتلت هذا الشعب كرجل واحد يتكلم الشعوب الذين سمعوا بخبرك قائلين : لأن الرب لم يقدر أن يدخل هذا الشعب إلى الأرض التى حلف لهم قتلهم فى القفر . فالآن لتعظم قدرة سيدى كما تكلمت قائلا : الرب طويل الروح كثير الإحسان يغفر الذنب والسيئة ، ولكنه لا يبرئ بل يجعل ذنب الآباء على الأبناء إلى الجيل الثالث والرابع . اصفح عن ذنب هذا الشعب كعظمة نعمتك وكما غفرت لهذا الشعب من مصر إلى ههنا . فقال الرب : قد صفحت حسب قولك . ولكن حى أنا فتملأ كل الأرض من مجد الرب . إن جميع الرجال الذين رأوا مجدى وآياتى التى عملتها فى مصر وفى البرية وجربونى الآن عشر مرات ولم يسمعوا لقولى لن يروا الأرض التى حلفت لآبائهم . وجميع الذين أهانونى لا يرونها ..» .

إن كان هذا القول صحيحا ، أيستحق هذا الشعب وعد الله ؟! إنهم يرتجفون فرقا من لقاء عدوهم وما حبذ الحرب أحد منهم إلا يوشع بن نون

وكالب بن يفنَّة . أما الآخرون فقد اختاروا عبودية المصريين على القتال فى سبيل دخولهم الأرض المقدسة ، ولو طاوعهم موسى عليه السلام لعادوا إلى فرعون يزرعون أراضيه صاغرين : « وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين . يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين . قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فإن يخرجوا منها فإنا داخلون . قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب فإذا دخلتموه فإنكم غالبون وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين . قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبدا ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . قال رب إنى لا أملك إلا نفسى وأخى فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين . قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض فلا تأس على القوم الفاسقين »(١) .

ثم يكلم الرب موسى عن الذبائح والنذور لعمل رائحة سرور للرب من البقر أو من الغنم . « ولما كان بنو إسرائيل فى البرية وجدوا رجلا يحتطب حطبا يوم السبت فقدمه الذين وجدوه يحتطب حطبا إلى موسى وهارون وكل الجماعة ، فوضعوه فى المحرس لأنه لم يعلن ماذا يفعل به . فقال الرب لموسى : قتلا يقتل الرجل يرجمه بحجارة كل الجماعة خارج المحلة ، فأخرجه كل الجماعة إلى خارج المحلة ورجموه بحجارة فمات كما أمر الرب موسى » .

وعمل السيد المسيح فى السبت وسخر من شريعة السبت ، فليس من العدل أن يقتل إنسان لأنه احتطب يوم السبت أو قام بعمل فى ذلك اليوم .

---

(١) المائدة ٢٠ — ٢٥

وجاء فى القرآن الكريم : « إنما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون »[١] . « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرّعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون »[٢] .

« ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ، فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا »[٣] .

وعلى الرغم من كل ما فعله موسى عليه السلام لبنى إسرائيل فإنهم ثاروا عليه وعلى هارون فى البرية وقد غضب الله على الثائرين فأنزل عليهم عذابه ، فانشقت الأرض وبلعت الثائرين و لم يرض ذلك بنى إسرائيل : « فتذمر كل جماعة بنى إسرائيل فى الغد على موسى وهارون قائلين : أنتما قد قتلتما شعب الرب . ولما اجتمعت الجماعة على موسى وهارون انصرفا إلى خيمة الاجتماع وإذا هى قد غطتها السحابة وتراءى مجد الرب . فجاء موسى وهارون إلى قدام خيمة الاجتماع ، فكلم الرب موسى قائلا : اطلعا من وسط هذه الجماعة فإنى أفنيهم بلحظة ، فخرا على وجهيهما ، ثم قال موسى لهارون : خذ المجمرة واجعل فيها نارا من على المذبح وضع بخورا واذهب بها مسرعا إلى الجماعة وكفر عنهم لأن السخط قد خرج من قبل الرب قد ابتدأ الوباء . فأخذ هارون كما قال موسى وركض إلى وسط الجماعة وإذا الوباء قد ابتدأ فى الشعب ،

---

(١) النحل ١٢٤

(٢) الأعراف ١٦٣

(٣) النساء ١٥٤ — ١٥٥

فوضع البخور وكفر عن الشعب ووقف بين الموتى والأحياء فامتنع الوباء . فكان الذين ماتوا بالوباء أربعة عشر ألفا وسبع مائة عدا الذين ماتوا بسبب قذرح (الذى قاد الثورة على موسى وهارون وخسفت به وبمن معه الأرض) ثم رجع هارون إلى موسى إلى باب خيمة الاجتماع والوباء قد امتنع » .

إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى جعلوا الرب سريع الغضب سريع الحساب يهم فى كل مرة بالبطش ببنى إسرائيل . وجعلوا موسى هو الرحيم الذى يناجى الرب ليرفع مقته وغضبه عن شعبه ، وإن موسى عليه السلام ينجح فى كل مرة فى أن يرضى الرب ويجلب رضاه على الشعب الفاسق الذى صد عن سبيل الله كثيرا .

« سبحان رب السموات والأرض ورب العرش عما يصفون »[١] .

« يسبح لله ما فى السموات وما فى الأرض له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير »[٢] . « إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء ، لا إله إلا هو العزيز الحكيم »[٣] . « يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون »[٤] . « سبح لله ما فى السموات وما فى الأرض وهو العزيز الحكيم »[٥] . « هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارىء المصور له

---

(١) الزخرف ٨٢ — ٨٣

(٢) التغابن ١

(٣) آل عمران ٥ — ٦

(٤) الأنبياء ٢٨ (٥) الحشر ١

الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم »[١] . « إن الله بالناس لرءوف رحيم »[٢] . « وهو الغفور الودود »[٣] . و« وما الله يريد ظلما للعالمين »[٤] . « إن الله لذو فضل على الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون »[٥] . « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما »[٦] . « هو أهل التقوى وأهل المغفرة »[٧] . واستغفروا الله إن الله غفور رحيم »[٨] . « ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما »[٩] .

إن فكرة ندم الإله وبطشه بعباده قد أخذت عن أساطير المصريين والبابليين ، فرَع قد أمر حتحور بأن تنزل إلى الأرض وأن تنكل بالذين كفروا برع ، فنزلت حتحور وأعملت فى الكفرة القتل ولكن أعمال التقتيل التى قامت بها حتحور بين الناس كانت من الفظاعة بحيث ندم الإله على ما أصدره من أمر ، واعتزم أن ينقذ على الأقل جانبا من الناس ..

ونزول الآلهة إلى الأرض تفيض بها الأساطير البابلية ، وإن عشتار لم تكتف بالنزول إلى الأرض بل اضطجعت مع بستانى . فأساطير الفراعنة وأساطير البابليين لعبت دورا كبيرا فى توراة المنفى فلم يستطع الذين كتبوا التوراة بعد أن طال عليهم الأمد أن يتخلصوا من الثقافة البابلية والفرعونية .

---

(١) الممتحنة ٢٢ — ٢٤
(٢) الحج ٦٥
(٣) البروج ١٤
(٤) آل عمران ١٠٨
(٥) البقرة ٢٤٣
(٦) النساء ٦٤
(٧) المدثرة٥٦
(٨) المزمل ٢٠
(٩) النساء ١١٠ .

فامتزجت أساطير الشعوب بالتوراة التى نزلت على موسى نورا وهدى لبنى إسرائيل . فرأينا الله سبحانه وتعالى عما يصفون نزل فى سحابة وهو ثائر غاضب ثم نشر الوباء ليفنى المكذبين ، ولولا وقوف هارون بين الأحياء والأموات لقضى الرب على بنى إسرائيل ، أكان انحسار الوباء بإرادة الرب أم كان بفعل البخور ؟!

ويعود الذين كتبوا التوارة فى المنفى يؤكدون أن الله أعطى القرابين لهارون وبنيه فريضة دهرية ولم يذكر الفقراء والمساكين : « وقال الرب لهارون : وهأنذا قد أعطيتك حراسة رفائعى مع جميع أقداس بنى إسرائيل لك أعطيتها حق المسحة ولبنيك فريضة دهرية . هذا يكون لك من قدس الأقداس من النار كل قرابينهم مع كل تقدماتهم وكل ذبائح خطاياهم وكل ذبائح آثامهم التى يردُّنها لى . قدس أقداس هى لك ولبنيك ..» .

ستكون الذبائح كثيرة جدا ، أكثر من حاجة الكهنة من نسل هارون . لذلك جعلوا الرب يقبل استعاضة بعض هذه القرابين بالفضة : « ... كل فاتح رحم من كل جسد يقدمونه للرب من الناس ومن البهائم يكون لك . غير أنك تقبل فداء بكر الإنسان وبكرة البهيمة النجسة تقبل فداءه . وفداؤه من ابن شهر تقبله حسب تقديمك فضة خمسة شواقل على شاقل القدس ..» .

وليس هناك عمل يقصد به وجه الله بل لكل عمل أجر فى الدنيا ، فما ذكرت الآخرة مرة واحدة فى توراة المنفى : « وأما بنو لاوى فإنى قد أعطيتهم كل عشر فى إسرائيل ميراثا عوض خدمتهم التى يخدمونها خدمة خيمة الاجتماع » . فالعشور كانت لبنى لاوى لقاء خدمة بيت الله وما كانت تدفع إلى بيت المال لينفق منها على مصالح بنى إسرائيل ، بل صرح الرب بأن تكون لقمة سائغة لبيت هارون .

ويرتجف الذين كتبوا التوراة من الموت ويشرعون للميت شرائع قاسية ما أنزل الله بها من سلطان : « من مس ميتا ميتة إنسان ما يكون نجسا سبعة أيام ، يتطهر به فى اليوم الثالث وفى اليوم السابع يكون طاهرا ، وإن لم يتطهر فى اليوم الثالث ففى اليوم السابع لا يكون طاهرا . كل من مس ميتا ميتة إنسان قد مات ولم يتطهر بنجس مسكن الرب ، فتقطع تلك النفس من إسرائيل . لأن ماء النجاسة لم يرش عليها تكون نجسة ، نجاستها لم تزل فيها .

هذه هى الشريعة ، إذا مات إنسان فى خيمة فكل من دخل الخيمة وكل من كان فى الخيمة يكون نجسا سبعة أيام . وكل إناء مفتوح ليس عليه سواد بعصابة فإنه نجس ، وكل من مس على وجه الصحراء قتيلا بالسيف أو ميتا أو عظم إنسان أو قبرا يكون نجسا سبعة أيام . فيأخذون للنجس من غبار حريق ذبيحة الخطيئة ويجعل عليه ماء حيا فى إناء . ويأخذ رجل طاهر زوفا ويغمسها فى الماء وينضحه على الخيمة وعلى جميع الأمتعة وعلى الأنفس الذين كانوا هناك وعلى الذى مس العظم أو القتيل أو الميت أو القبر ينضح الطاهر على النجس فى اليوم الثالث واليوم السابع . ويطهره فى اليوم السابع فيغسل ثيابه ويُرحض بماء فيكون طاهرا فى المساء . وأما الإنسان الذى يتنجس ولا يتطهر فتباد تلك النفس من بين الجماعة لأنه نجّس مقدس الرب . ماء النجاسة لم يرش عليه . إنه نجس . فتكون لهم فريضة دهرية . والذى رش ماء النجاسة يغسل ثيابه والذى مس ماء النجاسة يكون نجسا إلى المساء ، وكل ما مسه النجس يتنجس والنفس التى تمس تكون نجسة إلى المساء » .

ويستمر بنو إسرائيل فى تذمرهم ويموت هارون بعد أن ماتت أخته مريم .
« وتكلم الشعب على الله وعلى موسى قائلين : لماذا أصعدتمانا من مصر لنموت فى البرية لأنه لا خبز ولا ماء وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف ، فأرسل

الرب على الشعب الحيات المحرقة فلدغت الشعب فمات قوم كثيرون من إسرائيل . فأتى الشعب إلى موسى وقالوا : قد أخطأنا إذ تكلمنا على الرب وعليك فصل إلى الرب ليرفع عنا الحيات . فصلى موسى لأجل الشعب ، فقال الرب لموسى اصنع لك حية محرقة وضعها على راية ، فكل من لدغ ونظر إليها يحيا ، فصنع موسى حية من نحاس ووضعها على الراية فكان متى لدغت حية إنسانا ونظر إلى الحية النحاس يحيا » .

وتسرد إصحاحات العدد خروج بلعام لمباركة إسرائيل ، وسرعان ما يزنى الشعب المختار مع بنات مؤاب ثم لا يلبثون أن يعبدوا آلهة مؤاب فعبدوا بعلا وتركوا عبادة الله ، ويقول الذين كتبوا التوراة فى المنفى إن ذلك قد حدث وموسى كليم الله بينهم ، فقال الرب لموسى : خذ جميع رءوس الشعب وعلقهم للرب مقابل الشمس فيرتد حمو غضب الرب عن إسرائيل . فقال موسى لقضاة إسرائيل اقتلوا كل واحد قدم المتعلقين ببعل فغور .

وإذا رجل من بنى إسرائيل جاء وقدم إلى إخوته المديانية أمام عينى موسى ، وأعين كل جماعة بنى إسرائيل وهم باكون لدى باب خيمة الاجتماع ، فلما رأى ذلك فينحاس بن العازار هارون الكاهن ، قام من وسط الجماعة وأخذ رمحا بيده ودخل وراء الرجل الإسرائيلى إلى القبة وطعن كليهما الرجل الإسرائيلى والمرأة فى بطنها ، فامتنع الوباء عن بنى إسرائيل ، وكان الذين ماتوا بالوباء أربعة وعشرين ألفا .

فكلم الرب موسى قائلا : فينحاس بن العازار بن هارون الكاهن قد رد سخطى عن بنى إسرائيل بكونه غار غيرتى فى وسطهم حتى لم أفن بنى إسرائيل بغيرتى ، لذلك قل : هأنذا أعطيه ميثاق ، ميثاق السلام ، فيكون له ولنسله من بعده ميثاق كهنوت أبدى ، لأجل أنه غار لله وكفر عن بنى إسرائيل ، وكان اسم

الرجل الإسرائيلي المقتول الذى قتل مع المديانية زمرى بن سالوئيس بيت أب من الشمعونيين ، واسم المرأة المديانية المقتولة كزبى بنت صور ، هو رئيس قبائل بيت أب فى مديان » .

ألم يعط هارون من قبل ميثاق كهنوت أبدى له ولنسله ؟ أوليس فينحاس ابن إلعازار من نسل هارون ؟ فما الجديد ؟ لعل الذين كتبوا التوراة فى المنفى خشوا أن يكون الناس قد نسوا وعد الله الأول فرأوا أن يجددوه .

ويعود الذين كتبوا التوراة فى المنفى إلى القرابين والنذور فهى لب القصيد ، ثم ينتقل بنو إسرائيل من حرب إلى حرب يقتلون كل الذكور ويسبون النساء والأطفال وينهبون البهائم ويحرقون المدن . ويقول الذين كتبوا التوارة إن موسى عليه السلام قد غضب على وكلاء الجيش ورؤساء الألوف لأنهم أبقوا على النساء : « وقال لهم موسى : هل أبقيتم كل أنثى حية ؟ إن هؤلاء كن لبنى إسرائيل حسب كلام بلعام سبب خيانة للرب فى أمر نفور ، فكان الوباء فى جماعة الرب ، فالآن اقتلوا كل ذكر من الأطفال، وكل امرأة عرفت رجلا بمضاجعة ذكر اقتلوها . ولكن جميع الأطفال من النساء اللواتى لم يعرفن مضاجعة ذكر أبقوهن لكم حيات . وأما أنتم فانزلوا خارج المحلة سبعة أيام . وتطهروا كل من قتل نفسا وكل من مس قتيلا فى اليوم الثالث . وفى السابع أنتم وسبيكم . وكل ثوب وكل متاع من جلد وكل مصنوع من شعر معز وكل متاع من خشب تطهرونه » .

وتكلم الإصحاح الحادى والثلاثون من سفر العدد عن الأنفال وتقسيم الغنائم ، وينتهى سفر العدد بأن يجعل الذين كتبوا التوراة الرب يحدد حدود الأرض التى وعدهم بها تحديدا كأنه مهندس مساحة .

ويبدأ سفر التثنية بإعادة تحديد الأرض التى يتطلع إليها يهود فى المنفى

فيجعلون الرب يحددها لموسى تحديدا : « الرب إلهٰنا كلمنا فى حوريب قائلا : كفاكم قعود فى هذا الجبل . تحولوا وارتحلوا وادخلوا جبل الأموريين وكل ما يليه من العربة والجبل والسهل والجنوب وساحل البحر أرض الكنعانى ولبنان إلى النهر الكبير نهر الفرات . انظر قد جعلت أمامكم الأرض . ادخلوا وتملكوا الأرض التى أقسم الرب لآبائكم إبراهيم وإسحاق ويعقوب أن يعطيها لهم ولنسلهم من بعدهم . وكلّمتكم فى ذلك الوقت قائلا : لا أقدر وحدى أن أحملكم . الرب إلهٰكم قد كثرهم . وهو ذا أنتم اليوم كنجوم السماء فى الكثرة . الرب إله آبائكم يزيد عليكم مثلكم ألف مرة ، ويبارككم كما كلمكم . كيف أحمل وحدى ثقلكم وحملكم وخصومتكم ؟ هاتوا من أسباطكم رجالا حكماء وعقلاء ومعروفين فأجعلهم رءوسكم . فأجبتمونى وقلتم حسن الأمر الذى تكلمت به أن يعمل . فأخذت رءوس أسباطكم رجالا حكماء ومعروفين وجعلتهم رءوسا عليكم ، رؤساء ألوف ورؤساء مئات ورؤساء خماسين .

جعلوا الرب عاجزا وحده عن أن يحمل أثقال بنى إسرائيل وخصوماتهم ، إنه يسألهم أن يعينوه ، ويذهب الرب فى هذا الإصحاح إلى التوسل إليهم أن يصعدوا لمحاربة أهل الأرض التى وعدهم بها ، ولكنهم يحجمون ويقولون : « الرب بسبب بغضه لنا قد أخرجنا من أرض ليدفعنا إلى أيدى الأموريين لكى يهلكنا . إلى أين نحن صاعدون ؟ قد أذاب إخوتنا قلوبنا قائلين : شعب أعظم وأطول منا ، مدن عظيمة محصنة إلى السماء . وأيضا قد رأينا بنى عناق هناك ، فقلت لكم لا ترهبوا ولا تخافوا الرب إلهٰكم السائر أمامكم هو يحارب عنكم ، حسب كل ما فعل معكم فى مصر أمام أعينكم ، وفى البرية حيث رأيت كيف حملك الرب إلهٰك كما يحمل الإنسان ابنه فى الطريق التى

سلكتموها حتى جئتم إلى هذا المكان ، ولكن هذا الأمر لستم واثقين بالرب إلٰهكم . السائر أمامكم فى الطريق ليلتمس لكم مكانا لنزولكم فى نار ليلا ليريكم الطريق تسيرون فيها وفى سحاب نهارا . وسمع الرب صوت كلامكم فسخط وأقسم قائلا : لن يرى إنسان من هؤلاء الناس من هذا الجيل الشرير الأرض الجيدة التى أقسمت أن أعطيها لآبائكم .. » .

كلام يليق بالذين كانوا فى الأسر فى بابل ، إنهم مزعزعو العقيدة ثقتهم بالرب مخلخلة . أما أن يكون ذلك الكلام وحيا أنزل على موسى فأمر لا يمكن لعقل يعرف الله حق معرفته أن يصدقه . وهل الشعب الذى يرى الله يسير بينهم فى الليل وفى النهار فى حاجة إلى من يحضهم على إطاعة الله والامتثال إلى أوامره ما دام الله فيهم ؟! إنها أقوال تسىء إلى الشعب الذى يدعى أن الله اصطفاه . فمن يستطيع أن يصدق أن هذه الأقوال والأفعال قد صدرت من شعب يزعم أنه شعب الله المختار ؟! وإن كانت هذه الأقوال والأفعال قد صدرت حقا عن الذين فضلهم الله على العالمين فماذا تنتظر من شعوب لم يكن لهم شرف الاصطفاء ؟

إن هذه المزاعم من وحى قلوب طبع عليها الأسر وذهب بنورها ، فجاءت وعودا متضاربة قد خلت من ذكر ما أعد للمتقين فى الدار الآخرة . ويا ليتها سكتت عن اتهام الله جل وعز بالعجز عن حمل متاعب بنى إسرائيل وخصوماتهم إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى لم يكتفوا بالإساءة إلى الرسل والأنبياء بل أساءوا إلى الرب فجعلوه غيورا مرة ، ونادما على ما فعل فى حق بنى إسرائيل مرة أخرى ، وعاجزا عن حمل بنى إسرائيل وخصوماتهم مرة ثالثة ، وإن كان على الدوام متعطشا إلى الدماء والأضحية والفطير .

إن تقديم الفطير للإله عادة مصرية قديمة فما يخلو قربان لإله من آلهة قدماء

المصريين من خبز وكعك وفطير ، وقد أخذ بنو إسرائيل الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى تلك العادة بل ومراسيم تقديم القرابين وجعل الكهانة فى هارون وبنيه من اللاهوت المصرى القديم . فالكاهن المصرى القديم كان يتيه فخرا بأنه كاهن ابن كاهن ويذكر ذلك لإلهه ، كأن هذه الحقيقة تغيب عن الإله : « ... أنا كاهن وابن كاهن هذا المعبد .. أنا كاهن قد حضرت لأعمل ما يجب على المرء عمله ، ولم أحضر لأعمل ما لا ينبغى عمله » .

وأخذ بنو إسرائيل عادة حرق البخور للإله من قدماء المصريين ، فقد كانت البعثات فى عهد حتشبسوت تنطلق إلى بلاد بونت للعودة بالبخور للمعابد المصرية القديمة ، وكان الكاهن يقوم بحرق البخور للإله ، وقد انتقلت هذه العادة إلى بنى هارون الكاهن فقد كانوا يحرقون البخور للإله يهوه ، ومن عجب أن اسم الإله يهوه لا يزال يستعمل فى مصر العليا والسفلى : « يا ناس يا هوه » .

إن موسى أطلق اسم « يهوه » على إلهه فى أرض سيناء . ولم يقل الذين كتبوا التوراة فى المنفى من أين جاءت هذه التسمية ، أهى كلمة مصرية قديمة أخذها بنو إسرائيل من مصر قبل الخروج أم هى كلمة عبرية ؟!

ويقول الذين كتبوا التوراة إن موسى عليه السلام مر بأرض العيص (عيسو) ولم يعلن عليهم الحرب لأن الله قد أعطى جبل سعير ميراثا لبنى العيص . وكذلك مر بأرض مؤاب دون حرب لأن الرب قد أورث تلك الأرض لبنى لوط . إنهم بذلك يودون أن يقرروا مبدأ الميراث ليكون لهم حق فى أرض فلسطين . والقرآن الكريم يناهض ذلك المبدأ ، فالله يقول فى كتابه العزيز : « إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده »(١) . ثم يخصص الميراث

---

(١) الأعراف ١٢٨

والوارثين : « إن الأرض يرثها عبادى الصالحون »[1] . والله يطبع على قلوب الذين يرثون الأرض إذا ما تنكبوا سبل الرشاد وساروا فى طريق الفساد : « أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون »[2] . فميراث قوم لأرض ليس ميراثا أبديا : « كذلك وأورثناها قوما آخرين »[3] . ثم إن الأرض لله وسيرث الله الأرض ومن عليها : « إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون »[4] . « ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير »[5] .

ويقول الذين كتبوا التوراة إن الله قال لموسى : « أنت مار اليوم بتخم مؤاب بعار . فمتى قربت إلى تجاه بنى عمون لا تعادهم ولا تهجم عليهم ، لأنى لا أعطيك من أرض بنى عمون ميراثا ، لأنى لبنى لوط قد أعطيتها ميراثا ... » .

أكان بنو لوط من نسل بنتيه أم من زوجات أخر ؟ إنهم كانوا من نسل بنتيه اللتين أسكرتاه واضطجعتا معه . فلماذا لم يغضب الرب من الفعلة البشعة ؟ وإذا كان قد سكت وأغمض عينيه عن تلك البشاعة أيكافىء النسل النجس بأن يورثه أرض عمان ؟ إن دل ذلك القول على شىء فإنما يدل على مدى الانهيار الخلقى الذى كان فيه الذين كتبوا التوراة بأيديهم فى أرض المنفى ، وقالوا هذا من عند الله وما هو من عند الله ، بل من عند أناس كانوا غارقين فى

---

(١) الأنبياء ١٠٥

(٢) الأعراف ١٠٠

(٣) الدخان ٢٨

(٤) مريم ٤٠

(٥) آل عمران ١٨٠

الدنس حتى الآذان !

ويحارب موسى عليه السلام وبنو إسرائيل الملوك الذين يمرون بأرضهم فى طريقهم إلى أرض فلسطين ، وقد انقضت أربعون سنة وهى المدة التى قضى ربهم أن يمضوها فى التيه . فقام موسى عليه السلام يبتهل إلى ربه وقد كان ابتهالا يخدم قضية اليهود الذين كانوا فى المنفى : « وتضرعت إلى الرب فى ذلك الوقت قائلا : يا سيد الرب أنت قد ابتدأت تُرى عبدَك عظمتك ويدك الشديدة ، فإنه أى إله فى السماء وعلى الأرض يعمل كأعمالك وكجبروتك . دعنى أعبر وأرى الأرض الجيدة التى فى عبر الأردن هذا الجبل الجيد ولبنان . لكن الرب غضب علىّ بسببكم ولم يسمع لى . بل قال لى الرب كفاك . لا تعد كلمتى أيضا فى هذا الأمر . اصعد إلى رأس الفِسجة وارفع عينيك إلى الغرب والشمال والجنوب والشرق وانظر بعينيك ، لكن لا تعبر هذه الأرض . وأما يشوع فأوصه وشدده وشجعه لأنه هو يعبر أمام هذا الشعب وهو يقسم لهم الأرض التى تراها .. » .

هل يمكن أن يصدق إنسان يعرف حقيقة الرسالة أن موسى عليه السلام يقوم بعد أربعين سنة فى التية وبعد ما كان من آيات الله فى أرض مصر : أنت قد ابتدأت ترى عبدك عظمتك . ابتدأ ؟! يا لضيعة آيات الله البينات فى أرض الفراعنة وفى التيه وفى سيناء .. أبعد أن يزعم الذين كتبوا التوراة أن الله كان يسير كشعلة من نيران أمام بنى إسرائيل لينير لهم ظلمات الليل قبل أن ينير لهم ظلمات القلوب ، وأنه كان ينزل فى السحاب ليحدثهم فى خيمة الاجتماع ، وبعد إنزال المن والسلوى من السماء ، يقولون إن موسى عليه السلام قال للرب : أنت قد ابتدأت ترى عبدك عظمتك ؟! وهل يُعقل أن موسى عليه السلام الذى جاء ليدعو قومه لعبادة الله وحده بعد أن زاغوا عن التوحيد

وعبدوا العجل كما عبده المصريون يشرك بالله ويعترف بأن فى السماء آلهة أخرى غير الله : « فإنه أى إله فى السماء وعلى الأرض يعمل كأعمالك وجبروتك ؟ » .

إن الذين كتبوا التوراة فى المنفى كانوا يروون تاريخا قد انقضى فوضعوا على لسان موسى عليه السلام ما يخدم قضيتهم وجعلوه لا يهتم إلا بالأرض التى يطمعون فيها ، وكانوا قد تأثروا بمعتقدات بابل فجعلوا موسى يبتهل إلى ربه كما يبتهل عباد مردوخ إلى مردوخ ، فلم يسأل موسى ربه فى التوراة التى وضعها أحبار اليهود إلا منافع أرضية ، ولنر كيف يسأل موسى ربه فى القرآن : « قال رب اشرح لى صدرى . ويسر لى أمرى . واحلل عقدة من لسانى . يفقهوا قولى . واجعل لى وزيرا من أهلى . هارون أخى . اشدد به أزرى . وأشركه فى أمرى . كى نسبحك كثيرا . ونذكرك كثيرا . إنك كنت بنا بصيرا »[1] . ونلقى أسماعنا إلى قول السحرة فى القرآن المجيد : « فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى . قال آمنتم له قبل أن آذن لكم ؟ إنه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى . قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا . إنا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى . إنه من يأت ربه مجرما فإن له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى . ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى . جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى »[2] .

---

(١) طه ٢٥ — ٣٥ (٢) طه ٧٠ — ٧٦

آيات الله بينات منذ كان موسى عليه السلام فى مصر ، وإيمان الناس ليغفر ربهم خطاياهم وليدخلهم جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها . و لم يكن الإيمان صفقة تجارية تعقد بين الرب وعباده أن يؤمنوا به لقاء إعطائهم الأرض وسعادة الدنيا . إيمان مقابل ثمن يقبض فى الدنيا . أما ما وعد الله المتقين فشىء غير ملموس لايدخل فى حساب الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى .

مات موسى عليه السلام قبل أن يدخل فلسطين مع الداخلين ، وقد قاد يوشع فتى موسى جيوش بنى إسرائيل حتى عبروا نهر الأردن ، فجعل الذين كتبوا التوراة بأيديهم ذلك الذى حدث فعلا قبل إعادة كتابة التوراة أمرا إلٰهيا : « وغضب الرب على بسببكم وأقسم أنى لا أعبر الأردن ولا أدخل الأرض الجيدة التى الرب إلٰهك يعطيك نصيبا . فأموت أنا فى هذه الأرض . لا أعبر الأردن . وأما أنتم فتعبرون وتمتلكون تلك الأرض الجيدة . احترزوا من أن تنسوا عهد الرب إلٰهكم الذى قطعه معكم وتصنعوا لأنفسكم تمثالا منحوتا صورة كل ما نهاك عنه الرب إلٰهك ، لأن الرب الٰهك هو نار آكلة . إلٰه غيور » .

ويسرد الذين كتبوا التوراة ما حدث لبنى إسرائيل واليهود حتى حملوا إلى بابل أرض السبى على أنه وعد من الله ، ثم لا يتركون اليهود فى ظلام بل يدبرون لرفع الروح المعنوية لشعبهم فيجعلون الله لا يتخلى عن شعبه . ولأول مرة نجد أن الرب قد وصف بالرحمة لأن الأمر يتعلق باليهود : « إذا ولدتم أولادا وأولاد أولاد وأطلتم الزمان فى الأرض وفسدتم وصنعتم تمثالا منحوتا صورة شىء ما وفعلتم الشر فى عينى الرب إلٰهكم لإغاظته . أشهد عليكم اليوم السماء والأرض أنكم تبيدون سريعا عن الأرض التى أنتم عابرون الأردن إليها لتمتلكوها . لاتطيلون الأيام عليها بل تهلكون لا محالة ويبددكم الـرب فى

الشعوب فتبقون عددا قليلا بين الأمم التى يسوقكم الرب إليها . وتصنعون هناك آلهة صنعت أيدى الناس من خشب وحجر مما لا يبصر ولا يسمع ولا يأكل ولا يشم ، ثم إن طلبت من هناك الرب إلٰهك تجده إذا التمسته بكل قلبك وبكل نفسك . عندما ضيِّق عليك وأصابتك كل هذه الأمور فى آخر الأيام ترجع إلى الرب إلٰهك وتسمع لقوله ، لأن الرب إلٰهك إله رحيم لا يتركك ولا يهلكك ولا ينسى عهد آبائك الذى أقسم لهم عليه » .

أحداث وقعت قبل عصر التدوين ودعوة إلى العودة إلى الله لاستنهاض الهمم وتذكير بوعد الله للآباء . إنها عبارات لا يمكن أن تكون قد أوحيت إلى موسى عليه السلام إنما هى تصوير للحالة النفسية التى كان فيها عزير ودنيال والذين شاركوا فى إعادة كتابة التوراة بعد أن أحرق كل نسخها نبوخذنصر (بختنصر) . إن اليهود فى المنفى عبدوا مردوخ وشمس وعشتار وسجدوا للأصنام ، فأراد عزير ودانيال وأحبار اليهود أن يثيروا فيهم الحماس فذكروهم بإسرائيل ورب إسرائيل ، وأسرفوا فى الوعود على لسان الرب لعل النخوة الدينية تفعل فيهم ما عجزت عنه الخطب والنصائح والخير الذى به يوعدون .

إنهم فى كل إصحاح من إصحاحات الأسفار الخمسة لا ينسون الوعد ، وما من مناسبة تمر دون أن يجعلوا الله يكرر ذلك الوعد وإن موسى عليه السلام يقول فى زعمهم : « ودعا موسى جميع إسرائيل وقال لهم : اسمعى يا إسرائيل الفرائض والأحكام التى أتكلم بها فى مسامعكم اليوم وتعلموها واحترزوا لتعملوها . الرب إلٰهنا قطع معنا عهدا فى حوريب . ليس مع آبائنا قطع الرب هذا العهد . بل معنا نحن الذين هنا اليوم جميعا أحياء : وجها لوجه تكلم الرب معنا فى الجبل من وسط النار . أنا كنت واقفا بين الرب وبينكم فى ذلك الوقت لكى أخبركم بكلام الرب . لأنكم خفتم من أجل النار و لم

تصعدوا إلى الجبل . فقال : أنا هو الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية ..» .

فالوعد كان لإسرائيل وقد جدده الله لموسى وقومه فى سيناء . وإن الذين كتبوا التوراة بأيديهم لا يفتأون يذكرون ذلك الوعد بمناسبة وبدون مناسبة حتى يصبح حقيقة فى أذهان اليهود الذين كانوا يرتجفون فرقا كلما تصوروا أنهم قد يضطرون للحرب للعودة إلى الأرض التى حملهم منها بختنصر يوم حملهم إلى العراق أذلة صاغرين .

وتستمر إصحاحات سفر التثنية تتحدث عما أوصى به موسى شعبه عندما يدخلون الأرض التى حلف الرب للآباء إبراهيم وإسحاق ويعقوب بأن تكون لنسلهم . وإن قارىء الإصحاحات السادس والسابع والثامن والتاسع والعاشر ليضيق من كثرة ترديد الوعد . فالذين كتبوا التوراة بأيديهم بالغوا مبالغة تضيق بها الصدور من زعمهم فى كل إصحاح أن الرب لا هم له فى ملكه إلا ذلك الوعد الذى لا يبرره منطق الأحداث ولا تصرفات بنى إسرائيل ، فإنهم أعرضوا عن وصايا الرب وعصوه فى سيناء وعصوه لما أمرهم بأن يقاتلوا أعداءهم : « وحين أرسلكم الرب من قادش برنيع قائلا : اصعدوا امتلكوا الأرض التى أعطيتكم عصيتم قول الرب إلهكم و لم تصدقوه و لم تسمعوا لقوله . قد كنتم تعصون الرب منذ يوم عرفتكم » .

فإذا كان بنو إسرائيل — فى زعم الذين كتبوا التوراة — يعصون الرب منذ عرفهم موسى فهل يستحقون ذلك الوعد الذى لا يكاد يخلو منه إصحاح ؟ إنها دعوة سياسية قبل أن تكون دعوة دينية ، وقد أفلحوا فى أن يستغلوا الدين لخدمة قضية الشعب الذى كان مشردا بين الشعوب .

وإن الذين كتبوا التوراة فى بابل جعلوا موسى عليه السلام يتحدث كما

يتحدث كهنة بابل ، فصلاته لله إنما ليطيل أيامه فى الأرض كما كانت صلاة البابليين ، وتسبيحه وتسبيح بنى إسرائيل إنما ليطرد الرب الشعوب من أمامهم ليرثوا أرضهم ولا شيء بعد ذلك . إن موسى التوراة يقول : « فضعوا كلماتى هذه على قلوبكم ونفوسكم واربطوها علامة على أيديكم ولتكن عصائب بين عيونكم . وعلموها أولادكم متكلمين بها حين تجلسون فى بيوتكم وحين تمشون فى الطريق وحين تنامون وحين تقومون . واكتبها على قوائم أبواب بيتك وعلى أبوابك . لكى تكثر أيامك وأيام أولادك على الأرض التى أقسم الرب لآبائك أن يعطيهم إياها كأيام السماء ، ولأنه إذا حفظتم جميع هذه الوصايا التى أنا أوصيكم بها لتعلموها ، لتحبوا الرب إلٰهكم وتسلكوا فى جميع طرقه وتلتصقون به ، يطرد الرب جميع هؤلاء الشعوب من أمامكم فترثون شعوبا أكبر وأعظم منكم ، كل مكان تدوسه بطون أقدامكم يكون لكم . من البرية ولبنان . من النهر نهر الفرات إلى البحر الغربى يكون تخمكم . لا يقف إنسان فى وجهكم . الرب إلٰهكم يجعل خشيتكم ورعبكم على كل الأرض التى تدوسونها كما كلمكم » .

إنها الأرض ، كل همهم أن يطرد الرب الشعوب من أمامهم ليرثوها ، أما طاعة الرب ليرثوا جنات عرضها السماوات والأرض فما خطرت على قلب الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى ، إنهم كانوا فى جحيم أرضى فكانت أحلامهم تنحصر فى فردوس أرضى ، وفى إله يطرد لهم الشعوب ويحمل عنهم قسوة الحرب ويقدم لهم الأرض هدية من إله يتهلل بالفرح لأنهم يعبدونه وهو غافل لايدرى أن عبادته إن هى إلا رشوة ليمنحهم كل مكان تدوس بطون أقدامهم .

ويذكر موسى عليه السلام وصاياه ولا ينسى الذين كتبوا التوراة أن يجعلوه

يعيد ذكر الذبائح ، وفى الإصحاح الرابع عشر يضعون على لسانه أن الله جعلهم شعبا مختارا : « .. وقد اختارك الرب لكي تكون له شعبا خاصا فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض » .

وتعود الإصحاحات لتشرع بيع العبرانى للعبرانى وما يقدم من الأنعام والغنم للرب . والفصح وكيف يصنع وعيد المظال وحدد الشرع مدته بسبعة أيام احتفالا بالحصاد . وقد أخذ هذا العيد عن أعياد النيروز فقد أعيدت كتابة التوراة أيام أن كانت العراق فى حكم فارس فى عهد الساسانيين . وحدد الشرع « ثلاث مرات فى السنة يحضر جميع ذكورك أمام الرب إلهك فى المكان الذى يختاره فى عيد الفطير وعيد الأسابيع وعيد المظال . ولا يحضروا أمام الرب فارغين . كل واحد حسبما تعطى يده كبركة الرب الذى أعطاك » .

أليست هذه وصية كهان ينتظرون ما فى أيدى الناس : « يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد »(١) . « وربك الغنى ذو الرحمة »(٢) . « إن الله لغنى عن العالمين »(٣) . « لله ما فى السموات والأرض إن الله هو الغنى الحميد »(٤) . ولا عجب أن قال اليهود فى أيام محمد ـــ ﷺ : « إن الله فقير ونحن أغنياء »(٥) . ما دام كهان التوراة قد خدعوهم بتحذيرهم من الوقوف بين يدى الرب وأيديهم فارغة ، كأنما الرب فى حاجة إلى لحوم الأضاحى والحنطة والفطير !

ويوصى الرب موسى عليه السلام ـــ حسب أقوال الذين كتبوا التوراة بأيديهم ـــ بأن يجعل ثلاث مدن فى وسط الأرض التى وعده الله بها حراما

---

(١) فاطر ١٥ (٢) الأنعام ١٣٣

(٣) العنكبوت ٦ (٤) لقمان ٢٦

(٥) آل عمران ١٨١ .

يأمن فيها من قتل آخر خطأ ، ويشرع له فى الشهادة أن شاهدا واحدا لا يكفى لإثبات ذنب أو خطيئة فلا بد من شاهدين أو ثلاثة .

ويوصى رب إسرائيل موسى عليه السلام ـــ حسب مزاعم الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى ـــ وصية تقشعر منها أبدان الذين يعرفون الله ، فإنه يوصيه إذا ما حارب شعبا وطلب ذلك الشعب الصلح فإن على بنى إسرائيل استعباد ذلك الشعب ، أما إذا أبى الشعب الصلح وكان النصر حليف اليهود فإن رب إسرائيل يأمر بضرب رقاب جميع الذكور واستحياء النساء والأطفال وأخذهم موالى وعبيدا . وإنه لحكم لا يمكن أن يصدر عن رب الناس إله الناس الرحمن الرحيم ، ولكنه حلم الذين ذاقوا مرارة ذل الأسر . إنهم يشتهون أن ينفسوا عن أحقاد قلوبهم فوضعوا على لسان الرب أقوالا لا تصدر عن قائد جيش فى قلبه ذرة من رحمة . فما بالك بإله رحيم وسعت رحمته كل شىء ، برغم أنف كهان بنى إسرائيل الذين أنطقوه بكراهية أبشع من الصديد ؟

« حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلٰهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة وكل غنيمتها فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلٰهك . هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جدا التى ليست من مدن هؤلاء الأمم هنا . وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إلٰهك نصيبا فلا تستبق منها نسمة ما .. » .

قول يقطر مرارة لا يمكن أن يكون وحى إله حكيم ،إن الله يقول فى محكم كتابه : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع

(١) سورة الأنفال ٦١

العليم » . « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين . فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم . وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » .

ويزعم الذين كتبوا التوراة بأيديهم أن الرب نهى موسى عن أشياء لا تقدم ولا تؤخر فى حياة البشرية : « إذا اتفق قدامك عش طائر فى الطريق فى شجرة ما أو على الأرض فيه فراخ أو بيض والأم حاضنة الفراخ أو البيض فلا تأخذ الأم مع الأولاد . أطلق الأم وخذ لنفسك الأولاد لكى يكون لك خير وتطيل الأيام » . « لا تزرع حقلك صنفين .. » . « لا تحرث على ثور وحمار معا . لا تلبس ثوبا مخططا صوفا وكتانا معا » .

ثم يوضح رب إسرائيل — على حسب مزاعم الذين كتبوا التوراة — ما يفعله شيوخ إسرائيل فيمن يدعى أن الفتاة التى دخل بها لم تكن بكرا وفيما يفعلونه لو أثبت أبواها أنها كانت عذراء . « إذا وجد رجل فتاة عذراء غير مخطوبة فأمسكها واضطجع معها فوُجدا ، يُعطى الرجل الذى اضطجع معها لأبى الفتاة خمسين من الفضة وتكون له زوجة من أجل أنه قد أذلها . لا يقدر أن يطلقها كل أيامه » .

شرائع سبق أن تقررت فى إصحاحات سابقة ، ومن عجب أن رب إسرائيل الذى خلقه خيال أحبار اليهود فى المنفى يحرم الربا ويحلله فى نفس الوقت . إنه حرام أن يقرض إسرائيلى إسرائيليا آخر بالربا . أما إقراض إسرائيلى لأجنبى فينبغى أن يكون بالربا . « ولا تقرض أخاك بربا : ربا فضة أو ربا طعام أو ربا شيء ما مما يقرض بربا . للأجنبى تقرض بربا ، ولكن لأخيك

---

(١) البقرة ١٩١ — ١٩٣

لا تقرض بربا لكى يباركك الرب إلهك فى كل ما تمتد إليه يدك فى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها » .

ويحرم رب إسرائيل أن تعود المرأة إلى زوجها الأول إذا طلقها زوجها الثانى أو مات عنها ، فذلك فى شريعة الذين كتبوا التوراة رجس من عمل الشيطان يغضب الرب . ويعود ذلك الرب ليقرر مبدأ عادلا وإن كان يتنافى مع ما سبق أن قرره أكثر من مرة ، فإنه ينتقم من الآباء فى الأبناء حتى الجيل الثالث والرابع : « لا يقتل الآباء عن الأولاد ، ولا يقتل الأولاد عن الآباء . كل إنسان بخطيئته يقتل » .

ويتذكر رب إسرائيل فجأة الغريب واليتيم والأرملة وإن كان لم ينس أبدا اللاويين والكهان : « متى فرغت من تعشير كل عشور محصولك فى السنة الثالثة سنة العشور . وأعطيت اللاوى والغريب واليتيم والأرملة فأكلوا فى أبوابك وشبعوا ، تقول أمام الرب إلهك : قد نزعت المقدس من البيت ، وأيضا أعطيته للاوى والغريب واليتيم والأرملة حسب كل وصيتك التى أوصيتنى بها . لم أتجاوز وصاياك ولا نسيتها . لم آكل منه فى حزنى ولا أخذت منه فى نجاسة ولا أعطيت منه لأجل ميت بل سمعت لصوت الرب إلهى وعملت حسب كل ما أوصيتنى . اطّلع من مسكن قدسك من السماء وبارك شعبك إسرائيل والأرض التى أعطيتنا كما حلفت لآبائنا أرضا تفيض لبنا وعسلا » .

ويروى الإصحاح الثامن والعشرون من سفر التثنية ما ينعم به بنو إسرائيل من نعم أرضية إذا ما سمعوا وأطاعوا ، فإن الرب يرفعهم فوق جميع الأمم ويبارك فى أولادهم وفى زرعهم ، ويسوق لهم السحاب وتمطر لهم السماء ، أما إذا عصوا الرب و لم يسمعوا ويطيعوا فإنه ينزل بهم سوط عذاب . وقد

جعل الذين كتبوا التوراة فى المنفى ما هم فيه كأنه نبوءة ، قالوا على لسان الرب:
« .. تخطب امرأة ورجل آخر يضطجع معها . تبنى بيتا ولا تسكن فيه . تغرس كرما ولا تستغله . يذبح ثورك أمام عينك ولا تأكل منه ، يغضب حمارك أمام وجهك ولا يرجع إليك . تدفع غنمك إلى أعدائك وليس لك مخلص . يُسلم بنوك وبناتك لشعب آخر وعيناك تنظران إليهم طول النهار فتكلاّن وليس فى يدك طائلة . ثمر أرضك وكل تعبك يأكله شعب لا تعرفه . فلا تكون إلا مظلوما ومسحوقا كل الأيام . وتكون مجنونا من منظر عينيك الذى تنظر » . ويستمر الرب فى ذكر ألوان العذاب ولا تفترق فى كثير ولا قليل عما حاق ببنى إسرائيل فى أرض السبى .

وفى الإصحاح الخامس والعشرين كلام لا يمكن أن يكون وحى إله :
« إذا سكن إخوة معا ومات واحد منهم وليس له ابن فلا تصير امرأة الميت إلى خارج لرجل أجنبى . أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة ويقوم لها بواجب أخى الزوج . والبكر الذى تلده يقوم باسم أخيه الميت لئلا يمحى اسمه من إسرائيل .

وإن لم يرض الرجل أن يأخذ امرأة أخيه تصعد امرأة أخيه إلى الباب إلى الشيوخ وتقول : قد أبى أخو زوجى أن يقيم لأخيه اسما فى إسرائيل ، لم يشأ أن يقوم لى بواجب أخى الزوج . فيدعوه شيوخ مدينته ويتكلمون معه ، فإن أصر وقال : لا أرضى أن أتخذها . تتقدم امرأة أخيه إليه أمام أعين الشيوخ وتخلع نعله من رجله وتبصق فى وجهه وتصرخ وتقول : « هكذا يفعل بالرجل الذى لا يبنى بيت أخيه فيدعى اسمه فى إسرائيل : بيتا مخلوع النعل » ..

إن عادة زواج الأخ من زوجة أخيه المتوفى عادة يابانية ، وقد يكون مردوخ أو شماس أو أى آلهة البابليين قد شرعها ولكنه لم يقل أبدا بما قال به

كهان بنى إسرائيل وأنطقوا به إلٰههم . فهل يمكن أن تتصور أن إلٰها يأمر بخلع نعل رجل لا يرغب فى الزواج من امرأة أخيه وأن يحرضها على أن تبصق فى وجهه ؟ إنه إلٰه سوق لا يمكن أن يكون له مكان إلا فى عقول مريضة أضناها ذل الأسر وتأثرت بأسوأ ما فى أساطير الشعوب .

وتستمر الوصايا وهى جميعا وصايا سبقت فى أسفار سابقة حتى يحين أجل موسى عليه السلام : « وقال الرب لموسى هو ذا أيامك قد قربت لكى تموت . ادع يشوع وقفا فى خيمة الاجتماع . فتراءى الرب فى الخيمة فى عمود سحاب ووقف عمود السحاب على باب الخيمة . وقال الرب لموسى : ها أنت ترقد مع آبائك فيقوم هذا الشعب ويفجر وراء آلهة الأجنبيين فى الأرض التى هو داخل إليها فيما بينهم ويتركنى وينكث عهدى الذى قطعته معه . فيشتعل غضبى عليه فى ذلك اليوم وأتركه وأحجب وجهى عنه .. » .

موسى عليه السلام يرقد مع آبائه . هذا كل جزائه . لا جنة عالية ولا نعيم مقيم . ورب يعلم أن بنى إسرائيل سيعبدون آلهة الشعوب وعلى الرغم من ذلك يباركهم ويجعلهم فى زعمهم شعبه المختار . وهو يخبر رسوله وهو على حافة القبر أن الشعب الذى أخرجه من مصر وأراهم المعجزات سرعان ما يرتدون إلى الكفر ، ومع ذلك يستمر ذلك الإله بينهم ويوصى يشوع بن نون بأن يتشدد : « وأوصى يشوع بن نون وقال : « تشدد وتشجع لأنك أنت تدخل بنى إسرائيل الأرض التى أقسمت لهم عنها وأنا أكون معك » .

ألست معى أنه إلٰه غريب يصر على أن يعطى الأرض لأناس لم يصدقوه يوما ، بل إنه يعرف أنهم سيرتدون عن عبادته إلى عبادة آلهة آخرين ، ومع ذلك يصمم على أن يسير معهم ليهزم أعداءهم ويمنحهم الأرض التى أقسم لهم عنها جزاء كفرهم وعصيانهم ؟

استمع إلى موسى عليه السلام يقول لهم : « خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم ليكون هناك شاهدا عليكم . لأنى أنا عارف تمردكم ورقابكم الصلبة . هو ذا وأنا بعد حى معكم اليوم قد صرتم تقاومون الرب فكم بالحرى بعد موتى ؟ » .

هذه هى الأسفار الخمسة التى يؤمن بها بنو إسرائيل جميعا ، السامريون واليهود ، وقد عبث بها الذين أعادوا كتابة التوراة فى المنفى وسنناقش باقى الأسفار التى لا يؤمن بها السامريون فى التذييل التالى إن شاء الله .

القاهرة فى : ٢٦ / ٩ / ١٩٦٩

المراجـــع

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

صحيح البخارى

السيرة النبوية — لابن هشام

إنسان العيون (السيرة الحلبية) — لعلى بن برهان الدين الحلبى

بلوغ الأرب — للألوسى

نهاية الأرب — للنويرى

إيران فى عهد الساسانيين — لكريستينس ـــ ترجمة د . يحيـى الخشاب

نور الأبصار فى مناقب آل بيت النبى المختار — للشيخ الشبلنجى

إحياء علوم الدين — للغزالى

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام — لتقى الدين محمد بن أحمد الفاسى

حقوق الإنسان فى الإسلام — للدكتور على عبد الواحد واف

محمد رسول الله — مولاى محمد على

الرسول . حياة محمد — ر . ف . بودلى ترجمة : محمد محمد فرج وعبد الحميد جوده السحار

الإسلام والنظام العالمى الجديد — مولاى محمد على ترجمة أحمد جوده السحار

الدين القيم — لأبى الأعلى المودودى
المستشرقون والإسلام — للمهندس زكريا هاشم زكريا
نساء النبى — للدكتورة بنت الشاطئ
عبقرية محمد — لعباس محمود العقاد
الروض الآنف — للسهيلى
تاريخ الطبرى
مشكلة الحرية — للدكتور زكريا إبراهيم
فاطمة الزهراء والفاطميون — لعباس محمود العقاد
أسباب النزول — للواحدى
شرح نهج البلاغة — لابن أبى الحديد
الملل والنحل — للشهرستانى

مؤلفات الأستاذ عبد الحميد جودة السحار

- أحمس بطل الاستقلال
- أبو ذر الغفارى — ترجم إلى الاندونيسية
- بلال مؤذن الرسول
- فى الوظيفة — (مجموعة أقاصيص)
- سعد بن أبى وقاص
- همزات الشياطين — (مجموعة أقاصيص)
- أبناء أبى بكر الصديق
- فى قافلة الزمان — (رواية)
- أميرة قرطبة — (قصة)
- النقاب الأزرق — (قصة)
- المسيح عيسى بن مريم
- أهل بيت النبى
- محمد رسول الله

تأليف : مولاى محمد على
ترجمة بالاشتراك مع مصطفى فهمى

- قصص من الكتب المقدسة — (مجموعة أقاصيص)
- صدى السنين — (مجموعة أقاصيص) ترجمت إلى الإندونيسية
- حياة الحسين
- الشارع الجديد — (رواية)
- وكان مساء — (قصة)
- أذرع وسيقان — (قصة)
- المستنقع — (قصة)
- ليلة عاصفة — (مجموعة أقاصيص)

- الحصاد (رواية)
- جسر الشيطان (قصة)
- النصف الآخر (قصة)
- السهول البيض (رواية)
- أم العروسة (قصة)
- قلعة الأبطال (قصة)
- وعد الله وإسرائيل
- عمر بن عبد العزيز
- هذه حياتى
- الحفيد
- ذكريات سينمائية
- كشك الموسيقى
- خفقات قلب
- صور وذكريات
- الإسراء والمعراج
- القصة من خلال تجاربى الذاتية
- عدو البشر
- أبطال الجزيرة الخضراء
- النمر
- الله اكبر
- ثلاثة رجال فى حياتها
- مسجد الرسول
- فات الميعاد
- آدم إلى الأبد
- العرب فى أوربا
- الدستور من القرآن العظيم

القصص الديني
(للاطفال)

قصص الأنبياء	فى ١٨ جزءا
قصص السيرة	فى ٢٤ »
قصص الخلفاء الراشدين	فى ٢٠ »
العرب فى أوربا	فى ٢٤ جزءا

السيرة النبوية فى ٢٠ جزءًا

١ ـ إبراهيم أبو الأنبياء
٢ ـ هاجر المصرية أم العرب
٣ ـ بنو إسماعيل
٤ ـ العدنانيون
٥ ـ قريش
٦ ـ مولد الرسول
٧ ـ اليتيم
٨ ـ خديجة بنت خويلد
٩ ـ دعوة إبراهيم
١٠ ـ عام الحزن
١١ ـ الهجرة
١٢ ـ غزوة بدر
١٣ ـ غزوة أحد
١٤ ـ غزوة الخندق
١٥ ـ صلح الحديبية
١٦ ـ فتح مكة
١٧ ـ غزوة تبوك
١٨ ـ عام الوفود
١٩ ـ حجة الوداع
٢٠ ـ وفاة الرسول









